www.ibtesama.com

العاشق المسافر

وقصص أخرى

أَلِس مُونرو

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

ترجمة

د. أحمد الشيمي

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

العاشـق المسافـر
وقصص أخرى

لـ: ألِس مونرو
الكاتبة الحائزة على جائزة نوبل للآداب
لعام ٢٠١٣م

ترجمة وتقديم
د. أحمد الشيمى

الطبعة الثانية
(مزيدة ومنقحة)

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

www.ibtesama.com

وزارة الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن
أمين عام النشر
محمد أبو المجد
مدير عام النشر
ابتهال العسلى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• العاشق المسافر وقصص أخرى
• ل: أليس مونرو
الطبعة الثانية
(مزيدة ومنقحة)
• ترجمة وتقديم: د. أحمد الشيمى
• تصميم الغلاف: د. خالد سرور
• المراجعة اللغوية: صلاح صبرى
الهيئة العامة لقصور الثقافة
• رقم الإيداع: ٢٥٥١/ ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977-718-634-6
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

www.ibtesama.com

العاشــق المسافــر
وقصص أخرى

ألِس مونرو

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم المترجم

حصلت ألِس مونرو فى العام الماضى (٢٠١٣م) على جائزة نوبل. كانت تستحقها منذ وقت طويل، ولكن القائمين على الجائزة لم ينتبهوا إلى موهبتها الفذة، وراح حجمها الأدبى يتضخم، حتى تجاوز حجم الجائزة. ولم يجدالقائمون على الجائزة طاقة على تجاهل العملاقة الكندية التى تعيش بينهم منذ عقود، حتى أصبحت مجموعاتها القصصية مثل الشهب الملتهبة، وأصبح من يتجاهلها كمن يرمى نفسه بالجهل، وأصبح استحقاقها للجائزة فرض عين. وعندما أنبأوها بالفوز لم تصدق؛ فلم تكن تنتظر جائزة نوبل، ولو كانت تنتظر جائزة نوبل لما أخلصت للقصة القصيرة غاية الإخلاص، وهى التى تعلم علم اليقين أن الجائزة الكبرى لم تذهب قط إلى القصة القصيرة، وكانت من نصيب الشعراء وكُتاب المسرح والرواية، وقد حصل عليها ونستون تشرتشل، وهو الذى لم يكتب سوى رواية

www.ibtesama.com

واحدة مستواها الفنى متوسط، وبعض الذكريات، وكتاباً ضخماً عن الحرب العالمية الثانية، ولم تذهب جائزة نوبل للقصة القصيرة فى تاريخها كله إلا عندما حصلت عليها ألِس مونرو، ولم تذهب جائزة نوبل إلى كندا إلا هذه المرة أيضًا. وليس هذا معناه أن الأدب الكندى فقير، وأن ألِس مونرو هى العملاقة الوحيدة هناك. فالأدب الكندى أدب مهم، وأدب عالمى، وفى كندا كُتّاب كبار منهم مافيز جالانت، ونورمان ليفين، ومارجريت لورنس، وأرفنج لايتون، ومارجريت آتوود، ومورديكاى ريتشلر.

والأدب الكندى حديث النشأة نسبيًا؛ فقد كانت انطلاقته الكبرى بعد الحرب العالمية الثانية، ولكنه استقر - منذ تسعينيات القرن العشرين - كأحد الآداب العالمية الكبرى. والأدب الكندى يمتاز بالتنوع، فهو أدب إنجليزى/فرنسى/ محلى، بل هو أدب يستقر على ما استقرت عليه الدولة منذ بداية سبعينيات القرن العشرين من تبنى التعدد الثقافى، والتعدد الثقافى هو الموضوع الأساس فى أغلب الأدب الذى يقوم على السرد فى كندا. والقارئ فى الأدب الكندى يلحظ اهتمامه بموضوعات بعينها تعكس هموم الوطن. ومن ضمن هذه الموضوعات: البحث عن الهُوية القومية، والعلاقة الفاترة بينهم وبين الولايات المتحدة الأمريكية، وهو نوع من الصراع الذى يحتدم فى نفوس الكنديين أكثر مما يحتدم على الأرض. يعبر عنه الكتاب فى ضرب من السخرية المنهجية، والدعابة الحذرة. ومن هذه الموضوعات أيضًا "الطبيعة"؛ فكندا لها طبيعة خاصة: فهى تبلغ مساحتها أقل قليلاً من نصف مساحة قارة أمريكا الشمالية، أكبر

www.ibtesama.com

من مساحة الولايات المتحدة، وأكبر من مساحة الصين، وأكبر من مساحة أوروبا كلها، تبلغ مساحتها تسعة ملايين وتسعمائة وأربعة وثمانين كيلومترًا مربعًا من اليابس والماء. ويبلغ عدد سكانها حسب تعداد (٢٠١٢) حوالى خمسة وثلاثين مليون نسمة.

ومناخ كندا متنوع، معتدل على الساحل الغربى فى "برتش كولومبيا"، وقطبى فى الشمال، وأما فى أقصى الشمال، فإن الثلوج تغطيه أغلب العام، وفى أهم مدنها أونتيريو، وخاصة فى الشمال، يغلب الطقس الحار، وتغلب الرطوبة، ومدينة فانكوفر باردة طوال العام، أو أقرب إلى مناخ حوض البحر الأبيض المتوسط. والساحل الكندى طويل، أطول ساحل فى العالم، يبلغ (٢٠٢,٠٠٠) كيلو متر. تكثر فيها الثلوج، والجبال، والغابات، والبرارى، وفيها البحيرات العظمى التى ترفد نهر القديس لورنس بالمياه. تمتد سلسلة جبالها من جورجيا عبر شبه جزيرة جاسبيه والمناطق المطلة على المحيط الأطلنطى، وتُسمى جبال مكدونالد نسبة إلى أول رئيس وزراء كندى، ويصل إلى أجزاء من مقاطعة كويبك الجنوبية الناطقة بالفرنسية.

ومعروف أن "ألِس مونرو" وُلدت فى مدينة "ونچهام" التابعة لمحافظة "أونتيريو" التى يبلغ عدد سكانها حسب تعداد (٢٠١١) حوالى مليونين وثمانمئة وخمسة وسبعين ألف نسمة، تتبع بلدية هيورن الشمالية. يوجد فى مدينة ونچهام عدد كبير من المصانع، وهى بلد تجارية فى الأساس، بها ثلاث محطات إذاعة، ومحطة بث تلفزيونى واحدة. من الشخصيات البارزة فى "ونچهام" ألِس مونرو وأونور وچاكسن قائد ثورة الشمال الغربى والفنان جورج أجنيو ريد

www.ibtesama.com

وروبرت وير عضو البرلمان ووزير الزراعة، والمولود فى عام (١٩٣٠) فى "ونـچـهام".

والمطلع على ما كتبه الحاصلون على جائزة نوبل منذ إنشائها، يدهشه أن ألِس مونرو لم تكتب غير القصة القصيرة. ولكن ما هذا الأدب الذى تكتبه ألِس مونرو؟ هل تكتب القصة القصيرة حقًّا؟ إن القراء يشكون من طول قصصها، فهل تكتب "النوڤِلا"، وهى نوع من السرد الذى يقع بين القصة القصيرة والرواية؟ من المرجح جداً أن ألِس مونرو لا تكتب هذا ولا ذاك، ومن المرجح جداً أنها أعادت اختراع القصة القصيرة، وأعادت اختراع الرواية القصيرة، وأعادت اختراع الكثير من فنون الحكى، هذا ما رصده نقادها، وهذا ما صرحت به لهم فى صحيفة "المورننج سايد" بعد صدور مجموعتها القصصية "أسرار مفتوحة" عام (١٩٩٤)، صرحت به لمحاورها "بيتر جزوسكى" فى أكتوبر من العام نفسه. إذن فقد أسهمت "مونرو" فى تطوير فن السرد، وشقت لنفسها طريقًا مائزًا، تقول "شارون بوتالا" فى قراءتها لمجموعة "أسرار مفتوحة":

عند ظهور كل مجموعة قصصية لألِس مونرو نجد أن قصصها تزداد طولاً وتعقيداً، ونجد أنها أكثر اهتماماً بالتفاصيل الصغيرة، وتكثر فى قصصها الحكمة، والتفلسف، وتزداد إتقانًا لعملها، وتصبح أكثر ميلاً إلى الخيال والغرابة والروعة. . هى معنية بالتعمق فى نفسية المرأة، دون أن تمنحك المفتاح الذى تستعين به على تفسيرها، وبينما تمنحك لغتها الانطباع بأن الفهم يسير، وأن الوصول إلى السر أصبح قاب قوسين أو أدنى، فإن هناك عناصر أخرى تشدك إلى الغموض والإبهام.

www.ibtesama.com

يُقال إن ألِس مونرو هى التى ابتدعت ما يُسمى بالتتابع القصصى، أو ما يُسمى بالقصة المتصلة، فهل كانت ألِس مونرو كاتبة روائية ضلت طريقها إلى القصة القصيرة؟ وهل كانت مونرو تنفر من الرواية، وتمل قراءتها، ولا ترغب فى إبداعها؟ كل هذا جائز. . ومن الجائز أيضًا أن ألِس مونرو سعت إلى كتابة الرواية فلم تُوفق، وأن موهبتها الفذة قد استقرت على هذا الضرب من الحكى الذى تسميه قصة قصيرة! فنحن نعرف أن ألِس مونرو لها رواية قصيرة اسمها "حيوات بنات ونساء"، وهى مجموعة من القصص المتصلة بعناصر قوامها الشخصيات والأحداث واللغة، ترويها بطلتها "دِلْ جوردان"، تتألف من ثمانية فصول، ويُعَدُّ كل فصل من هذه الفصول وحدة واحدة، أى قصة مكتفية بذاتها، تتناول حياة بطلة الرواية "دِلْ"، التى تتبدى حياتها - مع نهاية كل فصل (قصة) - كاشفة عن أسرار جديدة، فتظهر كأنها تكتسب خبرة جديدة فى كل مرة، وتتأهب لاستقبال الحياة، مفعمة بالحماس، ومتأهبة للمغامرة. إن "دِلْ" أو "عديلة"، وهو الاسم الأصح، تنتقل من حياة الحوارى، إلى وسط البلد، ثم إلى مدينة صغيرة فى جنوب "أونتيريو"، ولكن "دِلْ" تمل العيش فى المدينة الصغيرة. وفى مجموعتها المعنونة بـ "الهاربة" التى تتألف من ثمانى قصص، هناك ثلاث قصص تتناول فيها الكاتبة حياة شخصية واحدة، وهى شخصية "جولِييت" والتى ترجمنا منها قصة "فرصة".

أو لعل ألِس مونرو لم تكن تستطيع كتابة الرواية الطويلة، واستبدلت بها هذه القصص التى تكتبها، والتى تقع بين القصة

www.ibtesama.com

القصيرة والرواية الطويلة، والتى تشبه ما يسميه النقاد "النوفِلّا"؛ لم تكن تستطيع إنجاز رواية واحدة لأن وقتها لم يكن يسمح. هى نفسها صرخت بذلك فى عام (١٩٧٣) لمحاورها "جرايم جيبسون" حيث تقول: "على مدى عشرين عامًا لم يُتح لى يومًا واحدًا لا أفكر فيه فيما يحتاجه الآخرون، وهذا معناه أن الكتابة لم تكن إلا تطفلاً على تلك الواجبات الأسرية، أنا نفسى أعتقد أنها معجزة أنى استطعت أن أنجز شيئًا ما." ولم تكن ألِس مونرو تعتقد أن القصة القصيرة أقل شأنًا من الرواية، ويلخص سى. إس. روس سبب تفوق مونرو فى كتابة القصة القصيرة، وهى فى رأيه أهم كاتبة قصة قصيرة فى كندا، وأمريكا الشمالية كلها، والآن أعترف بها العالم كأهم كاتبة قصة قصيرة فى العالم كله:

ذلك لأن مونرو تكتب القصص بعاطفة مفعمة بالصدق، والعشق، والحميمية، حتى تصبح قصصها مرآة كل قارئ، فالقراء يرون فيه أعماق نفوسهم، بل يرون فيها أعمال نفوسهم. إن قصصها تبلغ من الثراء حداً يجعلها رواياتٍ مضغوطة، يتجاور فيها الماضى مع الحاضر، والرأى والرأى الآخر. وقد برزت مونرو فى تصوير المكان، الريف الكندى، وذلك لأنها صورت ما جربته هى نفسها فى محافظة "هيورِن" فى إقليم "أونتيريو"؛ فقد صورت الحياة العادية، تصويراً متألقًا، يعينه ضربٌ من السحر. وربما يرجع إليها الفضل وحدها أنها جعلت القصة القصيرة فنًا محترمًا فى كندا، واحتذتها أجيال كاملة من الكُتّاب هناك.

القارئ فى أدب ألِس مونرو يرصد أكثر من ظاهرة، نريد أن نركز على أربع منها، وهى التوالى: (١) أن أدب ألِس مونرو أدب نِسوى من

www.ibtesama.com

الدرجة الأولى، (٢) شخصية الأم فى قصص مونرو، (٣) ظاهرة المرض والمرضى فى قصص ألِس مونرو (٤) وصف الطبيعة المحلية فى أدب ألِس مونرو، (٥) والمنحى القوطى الواضح فى أدبها.

أما أن أدب مونرو أدب نِسوى بامتياز، فذلك لأن ألِس مونرو تنحاز إلى المرأة، وليس هذا معناه أنها ضد الرجل، فهى كاتبة عالمية لا يمكن أن تنحاز ضد الناس، ولا يمكن أن تفضل الناس على الناس، ولكنها تنحاز إلى المرأة بمعنى أنها عارفة بمعاناة المرأة، ومدركة لمتاعبها، وعالمة بأعماق نفسها، ومشفقة عليها من مفاجآت الحياة، ومشفقة عليها من ضعفها، وبصيرة بجوانب قوتها. أغلب شخصيات قصص مونرو من النساء، وأقلها من الرجال، وتتراوح الشخصيات النِسوية فى قصص مونرو بين الشباب والكهولة والتقدم فى السن. وأغلب نساء مونرو ليست شخصيات مبهجة أو متألقة، أو حتى سعيدة، ولكن أغلبهن شخصيات تعيسة ومريضة ومضطربة وقلقة وسجينة. سجينة ظروفها الاجتماعية، وسجينة ظروفها البيولوجية، وسجينة ظروفها النفسية، وسجينة مرضها. شخصيات النساء فى هذه القصص تفاجأ بما ليس فى الحسبان، وتعجز عن الخروج من المآزق، وتنتهى القصص دون أن يدرك القارئ مصيرها، ودون أن يقف على قرارها. هل هى رموز تشير إلى موقف الإنسان من الوجود، وإلى معاناة البشر الصريحة والخفية. إنها شخصيات، تدفعك إلى الاعتقاد بأن الخيال هو الذى نعيشه، وأن الحقيقة مخفية بين طيات نفوسنا. وأن العالم الذى تنطوى عليه نفوسنا هو الحقيقة، وأن العالم الذى نعيش فى واقع الحياة هو المصطنع، وهذا من رحمة الأقدار.

www.ibtesama.com

مثلاً: قصة "بعد التغيير" فيها المرأة التى تُجهض بإرادتها، وفيها الطبيب الذى يجرى عمليات الإجهاض ضد القانون، وفيها المرأة المقدمة على الإجهاض وهى فى أضعف حالتها الإنسانية، وهى تريد أن تمحو أثر اختلاطها بالرجل، إنهن يجهضن أنفسهن، دون أن نعرف من هو الرجل الذى دفعها إلى ذلك، أو من هم الرجال الذين دفعوا بها إلى ذلك. ونجد أن مونرو لا توافق على الإجهاض، ولكنها لا تصادر حرية المرأة فى ذلك، وهى تريد لهذه الحرية أن تكون تحت سمع وبصر القانون، وأن تكون معروفة لا تُدار فى السر، فمن أكبر أمراض الأمم أن تُدار حياتها فى السر، ومن أخطر آفات المجتمعات أن يعيش الناس لحظات حياتهم الخطيرة فى السر.

وفى قصة "فرصة" نجد أن وردة البطلة تقع فريسة الاضطراب بين حياتها المتواضعة فى قريتها "هانراتى" وعشقها الذى لم تعرف كنهه لـ "باترك" المنتمى إلى الطبقة البوروجوازية الغنية، وتصبح المقابلة بين الحضر والبادية، وبين الفقراء والأغنياء، وبين الطبيعة هنا والطبيعة هناك، والبيوت هنا والبيوت هناك، هى صلب القصة وهيكلها العظمى الذى تملأه مونرو بالصور الجمالية، واللغة المتألقة، والتصوير المبهر للشخصيات. وفى هذه القصة أيضاً نجد أن وردة البطلة تقع فريسة لتأثير الدكتورة "هنشو" التى رغبت عن الزواج، والتى عاشت حياتها مستقلة واثقة من استقلالها لأنها أخلصت للعلم. ولكن هل هى راضية كل الرضا عن هذه الحياة؟ وهل هى مطمئنة لهذا الاستقلال كل الاطمئنان؟ إنها تتدخل فى حياة الآخرين، ولا ترضى عن حياتهم، بل إنها تريد أن تغير حياة الناس،

www.ibtesama.com

حتى تصبح نسخة من حياتها، فهى لا تطمئن إلى حياتها إلا إذا غيرت حياة المحيطين بها حتى تصبح صورة طبق الأصل من حياتها. ويبدو أنها إلى التعاسة أقرب منها إلى السعادة، وإلى الندم أقرب منه إلى الرضا. كانت تريد الاستقلال عن الرجال، فأصبحت تريد أن تنغص عليهم حياتهم، وكانت تريد أن تكتفى بنفسها وحياتها الأكاديمية، فأصبحت متهمة بأنها هى التى تحرض البنات على الرجال، وأن البنات يتأثرن بها. كانت تنشد الاستقلال، فلم يحرمها القدر منها، ولكن القدر لا يمنح دون أن يمنع، ولا يعطى دون أن يأخذ، فقد سلبها راحة البال، وسلبها قيمة العدل التى يتحلى بها المخلصون للحياة.

وتبدأ أحداث قصة "العاشق المسافر" عندما تتلقى "لويزا"، أمينة مكتبة "كارستيرز" خطابًا من "جاك أجنيو"، الجندى فى الحرب العالمية الأولى، ثم يتبادلان الرسائل، ويعترف لها فى النهاية بأنه يحبها، ولكن عندما يعود من الحرب يتوقف عن التواصل معها. وفى النهاية تقرأ فى إحدى الجرائد عن زواجه من "جريس هيورن"، ثم إنها تعثر على ملاحظة كتبها فى المكتبة تقول إنه كان مرتبطًا قبل رحيله إلى ما وراء البحار. ولا يمر زمنٌ طويل وتحديداً فى أثناء موجة الإنفلونزا الإسبانية، فتقبل "لويزا" دعوة "جيم فرارى" للغداء، وهو تاجر يعيش فى فندق من الفنادق. تتحدث "لويزا" عن ماضيها، وخاصة قصتها مع "جاك أجنيو"، فيخبرها "فرارى" بأن "جاك أجنيو" ربما اضطر إلى فعل ما لم يكن يرغب، وأن رسائله إليها كانت صادقة. ثم تمر الأيام ونعرف أن "جاك أجنيو" يلقى مصرعه

www.ibtesama.com

فى حادث أليم، حيث تُقطع رأسه فى مصنع "دود" للأخشاب، ويقوم السيد "دود" بوضع الرأس بجوار الجسد، ثم يذهب إلى زيارة أرملته، ويقدم لها مساعدته، فتطلب منه أن يعيد بعض الكتب إلى المكتبة. وتتحدث "لويزا مع السيد دود"، جزئيًا لأنها مهتمة بالحادث، ثم يتزوجان فى النهاية. ثم تنتقل القصة فجأة إلى خمسينيات القرن العشرين بعد وفاة السيد "دود"، وتدير "لويزا" المصنع. وتستقل "لويزا" الأتوبيس إلى "لندن" فى محافظة أونتيريو لتزور أخصائى القلب، وهناك، وفى مقابلة لم تكن تسعى إليها أو تريدها، تتحدث إلى "چاك أچنيو" الذى لا يزال حيًّا، ولا يزال متزوجًا من "جريس"، ويعيش فى الأساس فى الحياة التى كان يمكن أن يعيشها لولا الحادثة. وبينما هى تخرج، تجد أنه جيم فرارى، المشهد الأخير فى القصة يقفز إلى الوراء، إلى لحظة تقرر فيها "لويزا" التقدم إلى وظيفة أمينة مكتبة، وهى تتأمل مشاهد الطبيعة فى المدينة.

إن القضايا النِسوية التى تطرحها مونرو فى قصصها كثيرة، فهى تطرح قضية المرأة التى تريد أن تستقل بنفسها، وقضية المرأة التى تريد أن تشق طريقها فى الحياة دون أن تجد من يشدها إلى الوراء بسبب قيم اجتماعية مستقرة تشد إلى الوراء أكثر مما تدفع إلى الأمام. نجد ذلك فى قصة "جزيرة كورتيز" التى تتناول قصة شابة فى مبتدأ حياتها، تريد أن تستقر مع زوج راغب فى الاستقرار، ولكن السيدة "چورى" العجوز لا تتركها فى حالها، وتشتبك معها فى صراع خفى، قوامه الغيرة، وقوامه تلك الحياة المضطربة التى تيعشها امرأة أمعنت فى السن، وتقوم على رعاية

www.ibtesama.com

زوجها المشلول، مضطرة إلى الدفع به وهو على كرسيه المتحرك، ومضطرة إلى تمريضه وعلاجه، ومضطرة بعد هذا كله إلى العناية بنفسها، وإشباع رغباتها فى الظهور الاجتماعى، قوية دون أن يعتورها ضعف، ولكن دون أن تنال من ذلك شيئًا. وبطلة قصة "جزيرة كورتيز" الشابة كاتبة تكتب القصص، ولكنها تخفق فى وضع نهاياتها، وتخفق فى إنجازها، إنها صورة مونرو نفسها، وهى صورة تتكرر كثيرًا فى أدب مونرو، صورة المرأة التى تزاحم الرجل فى ميدان من ميادين الرجل، وهو الكتابة الأدبية، التى تقف رمزًا للمعرفة بكل صورها، فهل ينجح الرجل فى اكتساب المعرفة فى حين تخفق المرأة؟ لقد برهنت مونرو على أن هذا من الأوهام الاجتماعية التى تهيمن على وجودنا، وتعوق تقدمنا. قاومت مونرو تلك النظرة الاجتماعية الضيقة، وخرجت من هذه المقاومة منتصرة فائزة بجائزة نوبل، وهى تقول فى مقابلة لها مع مجلة "باريس ريفيو" فى عام (١٩٩٤)، عن تجربة زواجها الأول من رجل ينتمى إلى الطبقة الوسطى الغنية التى تؤمن بتلك الأفكار البالية التى تشد إلى الوراء:

كانوا يتحدثون بحماس عن أشياء مثل تنظيف الصوف بالبخار، وغسله فى الغسالات الآلية، وعندما كنت أصطحب طفلتى الأولى التى كنت أضعها فى عربة الأطفال التى ندفعها باليد، أضطر إلى المشى أميالاً لكى أتجنب المقاهى التى كان يجلس عليها الرجال. كنت أضيق بآفاقهم الضيقة، وكنت أضيق بحقيقة مقتضاها أن ثقافتهم أكثر قدرة على سحق الإنسان من ثقافتى التى عليها نشأت. فى ثقافتهم أشياءُ كثيرة ممنوعة، ممنوع أخذ الأمور بجدية، وممنوع

www.ibtesama.com

مزاحمة الرجال فيما يعرفون، وهناك آراء مسموح بها وأخرى لا يُسمح بها، لا يُسمح لها مثلاً أن تناقش أستاذًا جامعيًا فى آرائه، ولا يُسمح لها بكثرة الحديث مع الرجال، ولا يُسمح لها بالجدل.

شبح الأم فى قصص مونرو محيرٌ للغاية؛ فلا تخلو قصة من قصصها من شبح الأم، الأم وعلاقتها بأبنائها، والأم وعلاقتها بزوجها، وعلاقتها بالمحيطين بها، وفى القصص التى نقلناها هنا إلى العربية أدلة على ما نزعم: ففى قصة جزيرة كورتيز نقرأ عن الأم غير المكترثة بهذه العلاقات، فعلاقة المدام "چورى" بابنها "راى" علاقة فاترة لا تشعر معها بتلك الرابطة التى يتوقعها القارئ من العلاقة بين الأم وابنها، فهى سيدة طاعنة فى السن، مثل زوجها المريض، تريد أن تعيش حياتها فى دعة. ونجد أن ابنها "راى" يقابل عدم اهتمامها بعدم اهتمام مماثل، وتجاهل بتجاهل مثله. وفى قصة "صديقة شبابى" نجد شبح الأم يطارد الفتاة التى تريد أن تعيش حياتها المستقلة، وعلى هامش الذكرى تُبعث ذكريات، ونقرأ عن حياة "فلورا چريفز" وحياتها المضطربة بين أفراد آل "چريفز" الذين يستقبلون المُدَرِّسة فى مزرعتهم أو فى عزبتهم، أو فى قريتهم، وهى أم الراوية التى لا نعرف لها اسمًا. إن شبح الأم فى هذه القصة هو الشخصية الرئيسة التى تدور حولها الأحداث كلها، وهو العمود الفقرى الذى تتكئ عليه الشخصيات. وفى قصة "قبل التغيير" يطل شبح الأم على حياة الشخصيات جميعًا؛ فالأم غابت عن الحياة منذ زمن، والراوية لا تتذكرها إلا من خلال تعليقات الأب الغامضة، وهو لا يذكر زوجته باسمها، ولا يذكرها ممتنًا ولا شاكرًا ولا مشفقًا

www.ibtesama.com

أيضًا، وإنما يذكرها عرضًا أو مضطرًا، فهو يقول لابنته مثلاً: "كما كانت تفعل أمك، " والراوية ترى ماكينة الخياطة مركونة فى ركن من أركان حجرة السفرة، ويجيبها الأب بأنها "ماكينة خياطة أمك، " ومعروف أن ماكينة الخياطة هى الرمز الأبدى للأم المستقرة فى ركنها السرمدى، القانعة بالحياكة، المستغرقة فى صمتها، المكتفية بالمراقبة، ولا تغالب الرجال فى إدارة الحياة.

فى قصة "نهر منستيونغ" يطل شبح الأم كما يطل فى أغلب قصص مونرو، من الماضى، فقد ماتت أم "ألميدا چويانت روث" بينما كانت "ألميدا" فى الرابعة عشرة، فهى تقول:"وفى الصيف الثالث من إقامتنا الجديدة مرض أخى وأختى فجأة بحمى كانت منتشرة، وقضيا نحبهما لا يفصلهما إلا أيام قلائل. أما أمى الغالية فلم تستعد نشاطها وحيويتها بعد تلك الضربة القاصمة لأسرتنا. تدهورت صحتها ووافتها المنية هى الأخرى بعد ثلاث سنوات. أصبحت - من ثم - بمنزلة ربة بيت بالنسبة لأبى، وكنت سعيدة أن أساعده فى بيته اثنتى عشرة سنة حتى وافاه الأجل فجأة ذات صباح فى متجره. " إن ذكر الأم يمر هنا مرور الكرام، ولكن هذا المرور لم يكن يسيرًا ولا ناعمًا كما قد يبدو للقارئ الذى لا يريد أن يبذل الجهد فى التقصى، وإنما كانت الأشياء من حول البطلة صورًا متباينة من صورة الأم التى تلقت ضربة القدر فأخرجتها من حلبة الصراع، ثم راحت الأقدار تضرب الشخصيات الواحدة بعد الأخرى، دون أن تظفر منها بما كانت تأمل من الدعة والاطمئنان، فيمرض الأب ويموت، وتعيش "ألميدا" بمفردها فى البيت الفسيح،

www.ibtesama.com

ومن شرفة هذا البيت الواسع المطل على الناصية، تطل "ألميدا" على مشاهد الصراع والموت فى الشارع. ثم يمرض "چارفيز بولتر"، رجل الأعمال وصديقها فى الوقت نفسه، ويموت، ثم تمرض هى نفسها بمرض من تلك الأمراض التى تلم بالنساء، وتقضى نحبها. وتتحول هذه الشخصيات فى نظر الراوية، أو الراوى (لا نعرف)، إلى مجرد شواهد على الأحجار.

وفى قصة "أولاد وبنات" يظهر شبح الأم أيضًا مهمشًا فى بيت كبير لتاجر، يعمل فى مهنة تربية الثعالب، وبيع جلودها. تبدو الأم هنا صامتة كالعادة، لا يبدو أنها تلعب دورًا ما فى هذه المزرعة، أو فى تلك العزبة. ورغم الظلم الواقع على العنصر النسائى فى القصة، فإن الأم تظل صامتة، وملتزمة بدورها المحدود، وتبدو الراوية - وهى فتاة صغيرة - لسان حال هذه الأم المهمشة. المشكلة أن الأم هنا لا تعى بمشكلتها، أو أنها تقبل الأمر الواقع فى شىء من الإذعان والخضوع، كأنها هى طبيعة الحياة، وضرورات سير الأمور التى لا يمكن تغييرها.

وظاهرة المرض والمرضى فى قصص مونرو ظاهرة واضحة، فعدد المرضى فى قصصها أكثر بكثير من عدد الأصحاء، فلا تكاد تخلو قصصها من شخصيات مريضة، بل لا تكاد تخلو شخصية من شخصياتها من علة جسدية. فبطلة قصة "العاشق المسافر" مريضة، والمرض فى قصة "صديقة شبابى" يشيع فى بيت آل چريفز، فشخصية "إيلى" مريضة تقوم على تمريضها "فلورا"، ومرض "إيلى" هو المحور الذى يضبط إيقاع الأحداث، وحركة الشخصيات، وهو

www.ibtesama.com

النافذة التى يطل منها القارئ على طبائع الناس من حول المريض، فتظهر له طبائع الناس أقرب إلى خصال الحيوانات المفترسة أقرب منها إلى خصال الإنسان. وفى قصة "جزيرة كورتيز" نجد الزوج المريض، الذى أقعده الشلل على الكرسى المتحرك، الذى تدفعه الزوجة أحيانًا حين لا تجد من يدفعه، وتزهد فى ذلك حين تجد من تستأجره لهذه المهمة. ورغم صمته وعجزه، فهو المنطلق الذى تنطلق منه تصرفات الشخصيات جميعًا، والمرآة التى تعكس طبائع هذه الشخصيات.

وفى قصة "أشباح" نجد أن أم الراوية مريضة بالبدانة، وأن الممرضة مارى ماكويد تقوم على رعايتها، وشخصية الممرضة تظهر كثيرًا فى قصص ألِس مونرو، وهى الشخصية التى تعتنى بالمرضى، ونكتشف فى كثير من الأحيان أنها هى نفسها مريضة بمرض ما، عقلى إذا لم يكن جسدى. وأغلب شخصيات مونرو عاجزة، مشلولة، بدينة، مضطربة نفسيًا، وتكثر فى قصصها الشخصيات التى تعرضت لحوادث أودت بحياتها، أو تركتها عاجزة عن الحركة، والشخصيات التى ابتُليت بقصور الفهم، والسذاجة، وعدم القدرة على التكيف مع البيئة المحيطة. وليس من شك فى أن مونرو تتخذ من المرض والمرضى منطلقًا لإطلاعنا على طبائع البشر، وعلى ردود أفعالهم الحقيقية، مما يكشف لنا عن حقائق دواخلهم. وهى تصدمنا فيهم، وفى أنفسنا، ولعلها تنفرد - من بين كتاب العالم أجمع - بهذه الخاصية المهمة فى أدبها، وهى القدرة على الكشف عن طباع الناس من خلال العلاقات المريضة بين الآباء والأبناء، وبين الجار والجار،

www.ibtesama.com

وبين الطالب والأستاذ، وبين الأصدقاء والصديقات، وبين الناس بعضهم بعضاً فى الشارع، وبين الناس ورجال الدين. تريد أن تقول إن هذه العلاقات تنطوى على زيف كبير، ووهم لا سبيل إلى معرفته إلا عند المعاناة، وإن الحياة نفسها تنطوى على خطر لا مفر منه.

والمرض فى قصة "حب امرأة طيبة"، وهى قصة طويلة تقترب من النوڤيلا، هو الذى يحكم حركة الشخصيات، لا تخلو شخصية من شخصيات القصة من علة ما، فـ: روبرت مظنون فى عقله، وتكوينه الجسدى ليس كما ينبغى، وبطلة القصة نفسها، المسز إيند، مريضة بكراهية الرجال والشذوذ، والسيد ولنز مريض بالشبق، وأما المسز كوِنْ فيكشف مرضها عن أعماق نفوس المحيطين بها، وعن طبيعة البشر على الإجمال. فالإنسان إنسانٌ ما دام سليم البدن، ولكن المرض يُفقد الناس آدميتهم، ومن أكثر آلام المريض قسوة إحساسه بموقف المحيطين به، فالمسز كوِنْ تعرف أن الجميع يكرهونها، ويتمنون رحيلها، رغم تظاهرهم بعكس ذلك، والسيد روبرت، زوجها، لا يزورها إلا كل حين، ولا يمكث فى حجرتها إلا لحظات، وهى لا تحب أن يزورها أبناؤها، وحتى الأبناء لا يشعرون بوجودها إلا كشىء منبوذ. بينما نجد أن المسز إيند تقوم على رعايتها بقوة لا يعرف أحد مصدرها، ورغبة صادرة من أعماق الأقدار المجهولة. إن المسز كوِنْ المريضة تشيع رائحة الموت فى البيت كله، وتضرب وجوه المحيطين من حولها بلون العبوس، وإن رحيلها يعيد إلى البيت بهجته، ويسترد عافيته وتحفزه للحياة العائدة. وتكرار الشخصيات المريضة فى قصص مونرو ليس معناه عجزها عن التجديد؛ فقد

www.ibtesama.com

قدمت مونرو رؤية جديدة للعالم فى أدبها، فهى تريد أن تقول إن الناس مرايا معتمة لا تنعكس الحقيقة فى عيونهم، ولكن الحقيقة كامنة فى نفوسهم، ولا سبيل إلى استخراجها إلا عند اقترابهم من الفناء، لا تظهر حقائق الناس وهم يسعون فى هذه الحياة أصحاء، وإنما تظهر حقائقهم عندما يقتربون من الموت.

وألِس مونرو كاتبة محلية بامتياز كما كان بُلزاك، وكما كان تشارلز دكنز، وكما كان نجيب محفوظ، وكما كان تولستوى، وكما كان كثيرٌ من الكتاب الذين أخلصوا للمحلية فسعت إليهم العالمية صاغرة. هى نفسها أكدت فى حواراتها أنها كاتبة محلية، وهى لم تكن فى حاجة إلى هذا التأكيد؛ فالقارئ فى أدبها يدهشه وصفها الدقيق للطبيعة الكندية، وإمعانها الشديد فى وصف الأنهار والجبال والتلال والبحيرات الصغيرة والقنوات الضيقة والمياه الضحلة والشوارع الضيقة والنباتات العالية والمنخفضة، ووصف المنازل الصغيرة والكبيرة والقرى البعيدة والمدن القديمة، ما يدل على عشقها الشديد لوطنها، ورغبتها فى الدعاية الصادقة لهذه البلاد التى تضمها، وكذلك حبها لبنى وطنها الذين تعيش بينهم، وهو ما يظهر بوضوح – وربما ما ظهر لأعضاء لجنة نوبل – عشقها لبنى البشر قاطبة، وأيضًا ما يلمسه القارئ لهذه القصص المفعمة بالعاطفة والشفقة والرغبة فى الخلاص.

لم تُضعِ مونرو وقتها فى وصف أمكنة لا تعرفها فى بلاد أخرى، ولا حتى فى كندا نفسها، فقد ظلت مخلصة لوصف جنوب غرب أونتيريو، ففى هذه المنطقة كانت تعيش، وكان أهلها يعيشون أيضًا،

www.ibtesama.com

وبذلك تكون متأثرة بجيمس جويس حين كتب عن أهل دبلن، وتمثلت رواية "ونسبرج أوهايو" لـ: شروود آندرسن، ويودورا ولتى فى "التفاحات الذهبية". واحترام المكان يعنى احترام العلاقات الإنسانية التى تضطرب فيه اضطرابًا شديدًا. العلاقة بين الأخ وأخته والأم وابنها والصديقة وصديقها والأب وابنه والزوجة وزوجها. الغرباء نادرون فى قصص ألِس مونرو؛ وارتباط الناس بالمكان ارتباط مقدس، لأنه ارتباط بالقيم والتقاليد والطبقة والدين.

والدارس الذى ينطلق من النقد الموضوعى سيجد تشكيلة ثرة من الموضوعات التى تستعصى على الحصر، فللدين دور كبير فى أدب مونرو، والشعور بالذنب عند شخصياتها واضح جدًا، وخلط هذه الشخصيات بين المعتقد الدينى والتراث الاجتماعى واضح جداً أيضًا. وهى لا تنسى أن تصور رجال الدين الذين يستغلون نفوذهم الروحى، ومظهرهم الخارجى بالإيقاع بضحاياهم، وارتكاب أحط أنواع الجرائم.. الاغتصاب مثلاً. صورت هذا فى قصة "الإوز البرى"، حيث تتعرض بطلتها "فلو" للتحرش الجنسى من قبَل قس جمعها به السفر فى قطار واحد. وفى شخصيات مونرو ميلٌ واضح إلى العفو عن الغريب العجيب، وإحساس قوى بالماضى القريب والبعيد، ولا تُعَول مونرو على التراث، وإنما هى تدعو - كغيرها من الكتّاب العالمين - إلى التخلص من الماضى الذى يقيد الحركة، ويدفع إلى الخلف، وتدعم الماضى الذى يدفع إلى الأمام، ويسهم فى التقدم. وفى قصصها صراع طبقى تصوره عن قصد؛ لأن كثيرًا من الكُتّاب يزعمون أن المجتمع الكندى مجتمع جديد لا يقوم على

www.ibtesama.com

الطبقية، ولكن مونرو ترصد فى قصصها صراعًا واضحًا بين الريف والبادية، وبين الطبقة الوسطى الثرية والطبقة الفقيرة التى لم تظفر بما يعينها على الحياة، كما رأينا فى قصة "المتسولة الحسناء" وقصة "وادى أوتاوا". والصراع الطبقى يمتزج عندها بالنوع والبحث عن الهوية، والصراع بين قيم الطبقة الوسطى، والطبقة الغنية كما صورت ذلك فى قصص "حياة بنات ونساء" وخاصة شخصية "عديلة جوردان."

وقصص ألِس مونرو تحفل بالمشاهد القوطية، فأدبها تتصل أسبابه بالتراث القوطى الإنجليزى اتصالاً وثيقًا، وهو التراث الذى بدأه هوراس ولبول فى روايته الشهيرة "قلعة أوترانتو: قصة قوطية" (١٧٦٤)، وفرنشكتاين لـ: مارى شللى (١٨١٨)، ودراكيولا لـ: بران ستوكر (١٨٩٧)، وكارل جروس فى رواية "أسرار مرعبة" (١٧٩٤)، وتيودور ستورم فى رواية "راكب الحصان الأبيض" (١٨٨٨)، وفى قصيدة كوليردج المشهورة "أنشودة الملاح القديم" (١٧٩٨)، وج. و. م. رينولدز الذى كتب ثلاثيته القوطية المعروفة: "فاوست" (١٨٤٦)، واجنر وهرولف (١٨٤٧)، ومستحضر الأرواح (١٨٥٧)، وتشارلز دكنز فى أوليفر تويست (١٨٣٧)، والبيت الكئيب (١٨٥٤)، وآمال عظيمة (١٨٦٠)، و"صورة دوريان جراى" لـ: أوسكار وايلد، وغيرهم كثير.

وفى قصص مونرو نجد مشاهد رعب كثيرة، ومشاهد موت وجنون، وهى تستعين بأدوات معروفة فى السرد مثل الأحلام المزعجة والرسائل والمخطوطات التى لم يُعثر عليها سليمة. نجد ذلك فى أحلام إيِند الغريبة فى قصة "حب امرأة طيبة"، وأحلام بطلة قصة

www.ibtesama.com

"صديقة شبابى"، وأحلام وردة فى قصة المتسولة الحسناء، وكلها شخصيات قادمة من أمكان ريفية يمتزج فى أذهانها العادى بالشاذ، والمألوف بالغريب. وألِس مونرو تريد أن تقول إن الحياة مليئة بالرعب من الأساس، وأن اللايقين هو الأصل، وربما يظهر ذلك كله استفادة مونرو من أعراف السرد القوطى كما تعرفه جاكلين هوارد فى صفحة (١٣) فى كتابها المعنون بـ: قراءة السرد فى القصة القوطية، مقاربة بختينية (أوكسفورد: مطبعة كلاريندن، ١٩٩٤):

أحداث تحدث فى قلاع بعيدة، أو أديرة أبعد، أو بيوت كئيبة بسراديب عميقة، وقباب مشرفة، وطرقاتها السفلية، وبطلتها المضطهدة، والأب الدكتاتور، والأم المتسلطة، والناسك النذل، والأشباح الذين يشبهون مصاصى الدماء، والعلماء المتدثرين فى الغموض مثل فاوست، والنذر المحدقة، والمعجزات الغامضة، بعون من الأحلام والمرايا السحرية، وما إلى ذلك من أدوات حبكية، وتقنيات سردية مثل القصة الإطار والسرد المكتنز، والرسائل واليوميات والمخطوطات الممزقة التى تنحسر عن معلومات تخص الماضى فتسبب للحاضر اضطراباً شديداً.

ولكن الموضوعات - رغم تعددها - ليست هى كل شىء، فأدب ألِس مونرو يحفل بتجارب لا حصر لها أيضاً على المستوى التقنى، فهناك استخدام مونرو للزمان والمكان والفضاء الروائى، واستخدامها أيضاً للراوى والمروى عليه، واستخدامها للصوت السردى وعلاقة هذا الصوت السردى بصوت المؤلف وموقف القارئ، وهناك استخدامها للغة، فلغة مونرو تقترب من الشعر، والقارئ المدقق يلمس مفرداتها

www.ibtesama.com

التى تتعانق صوتيًا ودلاليًا، ويلمس أيضًا جملها محكمة الصنع، وفقراتها السردية التى تنساب على الفضاء القصصى كقطع المخمل، وأسلوبها الفذ فى استخدام علامات الترقيم، وانتقالها بين الأحداث والشخصيات فى نعومة النسيم ورقته.

أيضًا تستعين مونرو بالشعر، فتكثر الفقرات الشعرية فى قصصها، وقد ترجمنا أمثلة منها فى قصة "بعد التغيير" وفى قصة "نهر منستيونغ" وغيرها من القصص التى قمنا بترجمتها، والتى لم نقم بترجمتها. والشعر المنبث فى قصصها مساحات بارزة يعلو فيها صوت السرد، ويتألق فيها رد الفعل النفسى للشخصيات سلبًا وإيجابًا. إنها المساحات التى يمتزج فيها صوت الراوى بصوت المؤلف وصوت الشخصيات، وهو امتزاج يحل محل الكورس أو الجوقة التى كانت شائعة فى المسرح الكلاسيكى على وجه الخصوص. وأحيانًا تصبح القطع الشعرية أشبه بالقطع الموسيقية التى تعمل على تهدئة الصراع، وتعود بانفعالات القارئ إلى نقطة الهدوء، وربما تدفعه إلى التوقف والتأمل. وربما كانت المساحات الشعرية إيماءة ذكية تستثمرها مونرو فى الإشارة إلى أن الحياة مزج بين الواقع والخيال، والغناء والصراخ، وأن على المرء أن يستقبلها كما يستقبل المجهول بالدهشة والتحفز، فالإنسان هو الذى يغنى عندما يفرح، وهو الذى يغنى عندما يحزن. وهو ما يشى بموقف الإنسان من الواقع، وأن علاقة الإنسان بهذا الواقع علاقة ملتبسة، فهو لا يثق فى هذا الواقع، وليس على يقين من وجوده، تشير إلى ذلك قصة "أقمار المشترى"، حيث نجد أن البطلة وانيتا

www.ibtesama.com

تكتشف أن أغلب المعلومات التى عرفتها وهى طفلة تتغير، فقد اكتشفت فى زيارتها إلى المرصد أن عدد أقمار المشترى قد زاد عن العدد الذى كانت تعرفه فى الماضى، وهى تسأل أبيها عن العدد الحقيقى، فلا يجيبها الإجابة المقنعة، ها هو العالم يتغير، وها هى الحقائق العلمية تتغير. إن شخصيات القصة كلها تقف فى المنطقة الوسطى بين الجهل والعلم، وبين المعلوم والمجهول، إلى أن تصل البطلة إلى حقيقة مقتضاها أن اللايقين هو ديدن العالم الذى فيه نعيش.

فى النهاية أريد أن أشكر الذين أسهموا فى نشر كتاب العاشق المسافر فى الطبعة الأولى عام (٢٠١٠)، وهم الهيئة العامة لقصور الثقافة، والأستاذ طلعت الشايب الذى كان رئيساً لتحرير سلسلة آفاق عالمية، وكذلك أشكرالشاعر سعد عبد الرحمن رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة لقصور الثقافة الذى قرر إعادة نشر الكتاب بمناسبة حصول الكاتبة على جائزة نوبل لهذا العام، وكذلك الأستاذ محمد أبو المجد أمين عام النشر، وسائر القائمين على هذه المؤسسة الثقافية التى نشطت فى السنوات الأخيرة نشاطًا ثقافيًا كبيراً تستحق معه الاحترام والتشجيع والدعم.

د. أحمد الشيمى

استاذ الادب الإنجليزى المساعد
جامعة بنى سويف
نوفمبر (٢٠١٢)

www.ibtesama.com

مقدمة الطبعة الأولى

للمترجم

من الخصائص المعروفة للقصة القصيرة الممتازة أنها تستقر فى وعى القارئ زمنًا طويلاً. ولألِس مونرو قصص تتميز بهذه الخصيصة؛ وهى القدرة على الاستقرار فى وعى القارئ زمنًا طويلاً. إنها تشبه فى ذلك تشيكوف دون أن يعنى ذلك أن قصصها تشبه قصصه من الناحية الفنية، أو أنها تأثرت به. ولكن أعنى تلك الصفة الأساسية التى يتصف بها كل كاتب كبير فى فنه كله كما حدث مع إدجار ألان بو وتشيكوف وفلوبير وبعض قصص جون أبدايك القصيرة، وكما حدث مع دستويفسكى وتولستوى وسرفانتيز وموليير وإبسن وتشوسر وإيفو أندريتش فى الأدب الغربى، وكما حدث مع بعض قصص محمود تيمور وطه حسين ويوسف إدريس ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويحيى حقى والقصص القصيرة التى كتبها جمال الغيطانى وعزيز نيسين وعبد الحميد بن هدوقة. فالقارئ لا

www.ibtesama.com

ينسى بسهولة قصة مثل جسر على نهر درينا لإيفو أندريتش وثرثرة فوق النيل لنجيب محفوظ، وموت موظف لتشيكوف، وخطيبتي لعبد الحميد بن هدوقة، والقارئ قد ينسى بسهولة قصصاً لكتاب مثل كافكا وجيمس جويس وفرچينيا وولف وفولكنر؛ لأنهم يخاطبون الصفوة منذ البداية، أو لأنهم كانوا يكتبون وفي أذهانهم أشياء وأمورلا تتصل بقضاياه اتصالاً مباشراً، أو لعله أحس أن هؤلاء يتعالون عليه حين يرصدون نفس الإنسان ذلك الرصد الفلسفي الموغل في العمق.

ولدت ألِس مونرو في العاشر من يوليو عام (١٩٣١) في مدينة ونچهام من أعمال أونتيريو لأسرة من الفلاحين. أبوها اسمه روبرت إرك ليدلو، وأمها آن كلارك ليدلو، كانت تعمل بالتدريس. بدأت الكتابة وهي في فترة المراهقة، ونشرت أول قصة لها في عام (١٩٥٠). عملت في تلك الفترة أمينة مكتبة وفي عام (١٩٥١) تركت الجامعة وتركت تخصصها في الأدب الإنجليزي لتتزوج من جيمس مونرو وتنتقل معه إلى فانكوفر في بريتش كولومبيا. أنجبت منه ثلاث بنات: شيليا في عام (١٩٥٣)، وكاثرين في عام (١٩٥٥)، وجيني في عام (١٩٥٧). ماتت كاثرين وهي في شهرها الخامس عشر، انتقلت الأسرة بعد ذلك إلى فيكتوريا لإنشاء دار نشر خاصة بهم اسمها دار نشر آل مونرو، وفي عام (١٩٦٦) ولدت ابنتهما آندريا.

نشرت ألِس مونرو مجموعتها القصصية الأولى "رقص الأشباح السعيدة" في عام (١٩٦٨) فنالت عنها جائزة الحاكم العام وهي أرفع جائزة في كندا، ثم نشرت مجموعة قصص قصيرة اعتبرتها

www.ibtesama.com

رواية وهى "حيوات بنات ونساء" عام (١٩٧١). وانتقلت بعد طلاقها من جيمس مونرو إلى أونتيريو لتعمل فى جامعة أونتيريو ككاتبة. وفى عام (١٩٧٢) تزوجت من عالم الجغرافيا جيرالد فرملن، وانتقلت بعدها إلى مزرعة خارج كلنتون آونتيريو، ونشرت مجموعتها القصصية "من تظن نفسك؟ عام (١٩٧٨)، تحت عنوان "المتسولة الحسناء" فنالت جائزة الحاكم العام للمرة الثانية. توالت بعد ذلك مجموعاتها القصصية، وتوالت أيضًا الجوائز المحلية والدولية: نذكر منها جائزة "أو هنرى، " وجائزة النقاد وجائزة "مالامود" للتميز فى القصة القصيرة، وجائزة الكومونولوث للكتابة الإبداعية، وجائزة الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب. حتى الآن نشرت ألِس مونرو ثلاث عشرة مجموعة قصصية وهى على التوالى:

١- رقص الأشباح السعيدة عام (١٩٦٨)

٢- حيوات بنات ونساء عام (١٩٧١)

٣- شىء كنت أريد أن أخبرك به (١٩٧٤)

٤- من تظن نفسك؟ (١٩٧٨)

٥- أقمار المشترى(١٩٨٢)

٦- ارتقاء الحب (١٩٨٦)

٧- صديقة شبابى (١٩٩٠)

٨- أسرار مفتوحة (١٩٩٤)

٩- المختار من قصص مونرو (١٩٩٧)

١٠- حب امرأة طيبة (١٩٩٨)

١١- كره، صداقة، مفاتحة، حب، زواج (٢٠٠١)

www.ibtesama.com

١٢- لا حب يدوم (٢٠٠٣)
١٣- الأفضل عند مونرو
١٤- الهاربة (٢٠٠٤)
١٥- مشهد القلعة (٢٠٠٦)
١٦- سعادة زائدة عن الحد (٢٠٠٩)

يحس القارئ أن كثيراً من شخصيات ألِس مونرو ليست مقطوعة الصلة به. كما يحس القارىء أن كثيراً من الأمكنة التى تصفها ألِس مونرو مألوفة لديه. والقارئ الذى أقصد هو القارئ فى كل مكان وليس القارئ فى كندا أو فى القارة الأمريكية. إنها أمكنة تزدحم بساكنيها البسطاء، الذين يبذلون العرق والدم من أجل لقمة العيش. إنهم من الغالبية وليسوا من القلة. هذه الغالبية هى التى تصنع الحياة بآلامها وآمالها، بما فيها من صراع ويأس، وضيق ويسر. القارئ يحس أنها تحبه فيحبها ويعشقها دون أن يرى الواحد منهما الآخر. والكاتب الذى يستطيع أن يقترب من قارئه على بساطته وسطحيته أو ثقافته وتعمقه باللغة التى يفهمها وبالطريقة التى تنال رضاه هو الكاتب الذى لا ينساه قارئه بسهولة ولا يمل من ترديد ذكراه، ولا يتوقف صداه فى نفسه حتى النفس الأخير من حياته. تتمتع ألِس مونرو بهذه القدرة الغريبة على الاستقرار فى وعى القارئ، سر من أسرار الصنعة، وموهبة لا يمنحها الله إلا لمن اصطفاه. إن قصص ألِس مونرو تتحول إلى قصائد شعرية من الطراز الممتاز حين تستقر فى وعى القارئ الذى لا يمل من تذكرها واسترجاعها، بل إنه يتخذ منها وسيلة للتغلب على رتابة الحياة،

www.ibtesama.com

وأحياناً مشكلاتها الكبرى، فتتحول عنده لحظات اليأس إلى لحظات أمل وهو يردد من أعماقه تلك الترنيمات المونورية التى استظهرها وسعد بها. عندئذ يدرك القارئ أن القصة القصيرة محكمة الصنع تعادل وزنها ذهباً، بل إنها تعادل الحياة نفسها.

وسمة أخرى تتصف بها أِلس مونرو وهى قدرتها على استدراج القارئ بعد أن تكون قد كسبت وده بكلمات قلائل وأسطر لا يتعدى مداها الفقرة أو الفقرتين، إلى عوالم تجمع بين الغريب والمألوف والطريف والجاد والهازل والمأساوى، إن الغريب لديها يصبح مألوفاً والمألوف مدهشاً والغامض محسوساً. إنه عالم تهديه إلى القارئ بعد أن تكون قد تمكنت منه وألفته غاية التمكن والألفة. إنه عالم حقيقى رغم أنه من صنعها ومن نتاج خيالها وثمرة تصورها الثرى، تدفع به القارئ إلى التأمل بعد أن يفرغ من القصة فى جلسة واحدة. والقارئ لا يفرغ من قراءة قصة لأِلس مونرو حتى يكون قد غمرته سعادة بالغة؛ سعادة سببها ذلك الإحساس بأنه قد عرف عالماً لا يمكن أن ينساه، وعرف أناساً صحبهم وسعد بصحبتهم؛ إنها السعادة لامتلاكه عالماً يظل لفترة طويلة سبباً فى بهجته كلما تذكره أو جال بخاطره مع مرور الأيام وتعاقب السنين. إنه أيضاً سر من أسرار الصنعة فى الكتابة الإبداعية لا نجد له سبباً معلوماً ولا مصدراً يمكن الرجوع إليه.

إن القدرة على الحكى عند أِلس مونرو قدرة كبيرة لا يضاهيها فيها كاتب معاصر آخر. وهى لا تسرد القصص التى يمل منها القارئ بعد قراءة صفحة واحدة أو أقل من صفحة، ولكنها تسرد

www.ibtesama.com

القصص التى تزيد من شوق القارئ بعد كل سطر من سطورها، ويتعاظم هذا الشوق بعد كل صفحة من صفحاتها، حتى إذا فرغ من القراءة انفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة لا لأنه قرأ أحداثًا عجيبة أو طالع حياة غريبة، ولكن لأنه قرأ قصة، ولأنه شعر بأن ما قرأه قد عزز من خبرته فى الحياة وزاد من رصيده من الحكمة والمعرفة، وكشف له عن جوانب أخرى فى حياة الرجال والنساء لم يكن يعرفها ولم يكن ليأبه بها لو كان عرفها من طريق آخر.

وألِس مونرو عاشقة للقصة القصيرة تعيش فى محرابها ولا ترضى عنها بديلاً. فهى لم تجرب قلمها فى الرواية إلا مرة واحدة وذلك حين كتبت روايتها الوحيدة "حيوات بنات ونساء" وهى رواية تقع فى المنطقة الوسطى بين الرواية والقصة القصيرة يدرجها بعض النقاد فى نوع الرواية القصيرة "Novella" وهى ليست كذلك لأنه لا يمكن قياس ذلك بعدد الكلمات أو عدد الصفحات؛ فرواية همنجواى العجوز والبحر لا تصل صفحاتها إلى المائة صفحة ولكنها رواية بمعايير أخرى أهم غير معايير الطول والقصر وعدد الكلمات. إنها رواية بمعايير احتدام الصراع وأهميته وعدد الشخصيات وما تمثله كل شخصية من هذه الشخصيات من قيم جمالية وإنسانية شاملة، وكذلك هى رواية بمعايير التمكن من رسم هذه الشخصيات وتصوير الأمكنة وتزاحم التناقضات.

وهذا ما يحس به القارئ حين يقرأ قصة لألِس مونرو طويلة أو قصيرة. إن لها قدرة على الوصف تنبع من عشق فريد للكلمة تجده عند كبار الكتاب مثل ماركيز ومحفوظ والغيطانى وديكنز. إن الواقع

www.ibtesama.com

فى قصصها يمتزج بالخيال بطريقة نادرة محيرة؛ وهى حيرة جميلة أو قل حيرة لذيذة لا يحس القارئ لذتها فى غير الفن الراقى النادر. إنها متعة الولوج إلى عالم تتعالق شخصياته وتتعقد خيوطه بطريقة تدعو للتأمل المستمر كأنك أمام قطعة من السجاد الإيرانى البديع تقع فى حبها كما يقع العاشقون فى أسر الجمال.

وألِس مونور تكاد تكون الكاتبة الوحيدة فى العالم التى نالت شهرتها من خلال القصة القصيرة، ولم تنلها من خلال الرواية أو المسرحية أو الشعر. كان الكُتَّاب يلجأون إلى الرواية حتى ترسخ شهرتهم، وإلى الشعر حتى يذكرهم النقاد. ألِس مونرو هى الأديبة الوحيدة التى تكتب القصة القصيرة ولا تكتب شيئًا آخر. لم تكتب ألِس مونرو رواية طويلة، ولم تجرب قلمها فى ديوان من الشعر، ولم تكتب مسرحية تريد لها من يعرضها على مسرح من مسارح كندا أو غير كندا. فما الحكمة من ذلك؟ هل تستشرف ألِس مونرو المستقبل وتكاد تجزم بأن القصة القصيرة هى أدب المستقبل؟ الأهم من ذلك هل تستشرف ألِس مونرو المستقبل وتريد أن تقول إن القصة القصيرة هى البديل عن الرواية، وإن الرواية هى الفن الذى لن يعيش عددًا من القرون التى عاشها حتى الآن منذ أن اكتشفها الأوربيون فى القرن الثامن عشر؟ وكيف نتصور مستقبلاً تختفى فيه الرواية ويضمحل فيه الشعر وتتغير فيه المسرحية إلى ضرب من التمثيل لا صلة بينه وبين "الورق" كما يقولون اليوم إلا ذلك السيناريو الذى يكتبه الكاتب ويدفعه إلى الممثلين ليستظهروه استعدادًا للأداء؟ فهل كانت مونرو تستشعر المستقبل، وتنتظر اليوم الذى تخرج فيه القصة القصيرة من الزاوية

www.ibtesama.com

الضيقة التى تحتلها إلى جانب الرواية والمسرحية وديوان الشعر. وهل تتحرر القصة القصيرة من نظرة النقاد المتعالية عليها بوصفها الفن الثانوى فى ترتيب العائلة الأدبية؟

ألِس مونرو خجولة لا تحدثك بالكثير عن فنها ولا عن نفسها، ولا تفيدك إذا أردت أن تعرف منها سر صنعتها، ومصادر إلهامها. قد تبدو لك فلاحة ساذجة تخاف الحسد أو تخاف من الغرباء. فقد نشأت ألِس مونرو فى بيئة فقيرة محافظة لا يتحدث فيها الناس عن أنفسهم ولا عن إنجازاتهم ولا سيما حين تكون امرأة تعمل فى مهنة تجعلها امرأة مختلفة عن سائر النساء فى قريتها أو فى مدينتها الصغيرة، والاختلاف مدعاة للتساؤل والتأمل والقيل والقال. وهى تضن على الناس من أن تفشى سر روعتها فى كتابة القصة القصيرة، وللقصة القصيرة سر لا يعرفه غير كتَّابها الذين يعرفون أسرار مهنتهم كما يعرف الطهاة أسرار الأطعمة. وهم يدفنون أسرارهم فى ضمائرهم لأنهم يستعينون بها على الإبداع وليس على الحديث عن الإبداع. أو لعلهم لا يدفنون أسرارهم فى ضمائرهم، بل لعلهم لا يعرفون شيئًا عن هذه الأسرار، وربما لا يعرفون أنهم يكتبون أدبًا جميلاً يفوق جماله ما يتوقعون.

فى كندا قلما تباع المجموعة القصصية القصيرة إلا إذا كانت بقلم ألِس مونرو. لم يكن ذلك يتحقق لولا موهبتها الفذة وتمكنها البديع من تقنيات الكتابة وأسلوبها الساحر فى السرد. كان فولكنر - الحاصل على جائزة نوبل - يقول إن القصة القصيرة هى فن المستقبل، وهى أكثر الفنون الأدبية طلبًا بعد الشعر، وكان يقول

www.ibtesama.com

أيضًا إن النجاح الذى حققه فى الرواية راجع فى المقام الأول إلى فشله فى القصة القصيرة وفشله فى كتابة الشعر أيضًا. وكان ألبرتو مورافيا يعقد المقارنة بين قصص موباسان وتشيكوف القصيرة وبين روايات دستويفسكى، وكان يقول إن القصة القصيرة لديها القدرة على خلق عالم أرحب وأوسع وأكثر تنوعًا من قدرة الرواية. وكان مورافيا يقول كذلك إن قصر القصة القصيرة لا يجعلها عبدة للأيديولوجيا، التى تستعبد الرواية؛ فالرواية تجعل من الأيديولوجيا هيكلها العظمى الذى تتداعى على أجزائه من الرأس وحتى القدمين، فى حين تخلو القصة القصيرة من هذا الهيكل العظمى. إن ألِس مونرو تعتقد أن حيوات البشر مزيج من المألوف والغامض، وإن عدم قدرتنا على إدراك الحقيقة كلها لهو من تجليات النقص فينا. فى قصصها شخصيات محيرة لأنها غامضة، ويظل الغموض يلازمها حتى آخر القصة؛ شخصيات لا نستطيع الإحاطة بها ولا فهمها؛ لأنها شخصيات منغلقة حتى على نفسها؛ فالوجود نفسه غامض يتجاوز طاقة البشر على الإحاطة والفهم.

ولدت ألِس ليدلو مونرو فى أثناء الكساد الكبير (١٩٢٩) فى منطقة ريفية فى جنوب غرب أونتيريو فى عام (١٩٣١). كانت تحلم فى مبتدأ حياتها أن تصبح نجمة سينمائية ولكن سرعان ما تخلت عن هذا الحلم مستبدلة به حلمًا آخر وهو أن تصبح كاتبة. نجد فى قصص ألِس مونرو أصداء الكساد الكبير والحرب العالمية الثانية التى اندلعت وهى بعد فى الثامنة من عمرها، ووضعت أوزارها وهى فى الرابعة عشرة. ونحن نلمس هذين الحدثين فى قصصها الباكرة:

www.ibtesama.com

فنجد أن شخصياتها تتسم بكساد فى الروح يعقبه كساد مادى لا مفر منه. كذلك نجد أن شخصياتها مشتبكة فى صراع إيديولوجى يقيد حركتها ويشل قدرتها على التقدم. ونجد أيضًا أن أغلب شخصياتها مشردون أو هائمون على وجوههم فى الشوارع وعلى الطرقات، أو مهاجرون لا يملون من الهجرة من مكان إلى مكان. وقلما نجد شخصيات مستقرة فى أماكنها، وإذا وجدنا هذه الشخصيات نجدها خاملة ساكنة لا يدفعها طموح ولا يحدوها أمل. إنها أصداء الحرب العالمية الثانية التى تركت العالم محطمًا مكلومًا.

عاشت مونرو فى حى الفقراء الريفى على مسافة ميل من شرق ونچهام، وهى تتذكر هذه الفترة من حياتها فتقول - نقلاً عن سى. إس. روس فى كتابه المعنون: "ألِس مونرو: حياة مزدوجة" الصادر فى عام (١٩٩٢) - "عشنا فى المكان الذى لم يكن أكثر من جيتو صغير، بين مهربى مخدرات وعاهرات ومشردين ومنبوذين. "كان هؤلاء هم أول من عرفت من البشر، وكانت تظن أنها لم تكن إلا واحدة من أولئك البائسين. ولكنها مع ذلك وجدت فى بيت أبيها مكتبة صغيرة فيها كتب ومجموعات قصصية راحت تقرؤها بنهم شديد، فوجدت أن خيالها يلتهب ورغبتها فى الحكى تلح وطموحها فى الكتابة يصبح هاجسها الأول. وجدت فى تلك القصص التى طالعتها فى مكتبة أبيها غذاءً لروحها وتسلية لنفسها وهربًا إلى الخيال من واقع لا يرضيها ولا يطمئنها ولا تأنس له. لم تكن مونرو من أسرة من المنبوذين أو تجار المخدرات أو المهاجرين ولكن أباها كان يمتهن مهنة الصيد وكانت أمها مُدَرِّسة فى مدرسة ثانوية. وذهبت مونرو إلى مدرسة كان يختلف

www.ibtesama.com

إليـها فقـراء المدينـة والقـرى المجاورة، وكانت هـذه المدرسـة ممـتلئة بمظاهر الفقر والعنف والخطر مما جعل مونرو مستعدة دائمًا للدفاع، ولكنها لم تجد وسيلة للدفاع عن نفسـها، وهـى الفتاة الحيية المسالمة، أفضل من الخيال وكتـابة القصص التـى ربما تجد فيـها ما يؤنس وحدتها ويزيل ضيقها. كانت حياة مونرو فى المدرسـة عنيفة بالقياس إلى الحياة فى البيت حيث الهدوء والقراءة وربما الكتابة. يقول روس: "كانت حياة المدرسة شيئًا مهينًا قاسيًا غبيًا ومخيفًا فى الوقت نفسه، ولكن مونرو تعلمت منـها كيف تسـتعد للدفاع عن نفسـها، وأول ما استعدت به هوالخيال الذى لجأت إليه لكى ينقذها من هذا العالم الذى بلغ من القسوة حدًا لا قبل لها به."

ولذا نجد أن ألِس مونرو تقتـنعك فى كل قصة من قصصـها أن الخيال أجمل من الحقيقة، وأن الأساطير أجدى من حقائق التاريخ، وأن الأحلام أكثر متعة من الواقع، وأن الأمل أفضل من الحزن، وأن الحب أقـوى من الموت، وأن الإبداع قد يـأتى من جوف الخراب، وأن الحاضر والمتستقبل ينبثقان من رحم الماضـى كما تنبثق الأضواء من جوف الظلمات. ولذا نجد العالم المدمر قد استبدلت به عالمًا من الأمل والرفاهية، تفعل ذلك فى أغلب قصصـها لأنـها تريد أن تقول إنـها انتصرت على عالمها المحتشد بالخراب والدمار، وهو عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهو عالم كان كفيلاً بسحقها وتحويلها إلى كم مهمل فى طرقات الحياة الصعبة.

تمتلئ قصص مونرو بشخصيات الفنانات والكاتبات. نجد ذلك مثلاً فى مجموعتها القصصية المعنونة "حب امرأة طيبة" التى ترجمنا

www.ibtesama.com

منها "جزيرة كورتيز" وقصة "بعد التغيير". فى قصص هذه المجموعة وغيرها نجد شخصيات يمارسون هواية الكتابة أو يريدون ممارسة الكتابة ولكن الكتابة مهرة حرون لا يجدون إلى سياستها سبيلاً. وقصة "حيوات بنات ونساء" خير دليل على ذلك لأنها تتناول حياة فنانة من البداية وحتى النهاية. وتمتلئ قصصها بشخصيات هشة لا حيلة لها ولا طاقة على التغلب على تبعات الحياة الصعبة؛ شخصيات ضعيفة لا تملك من أمرها شيئًا، ولا أمل لها يلوح فى الأفق القريب أو البعيد. وهى شخصيات نجدها فى حياتنا اليومية، بل قلما نجد نقيضها ممن يمسكون بأعنة مصائرهم ومصائر غيرهم. وهى شخصيات منتشرة فى قصصها انتشارها فى الحياة من حولنا. وفى قصصها أيضًا شخصيات شريرة يجرى الشر فى نفوسها كما تجرى الدماء فى الشرايين. ولكن شخصيات مونرو الشريرة لا تشبه الشخصيات الشريرة عند مارلو وملتون وشكسبير، ولا عند دكنز وهاردى وغيره ممن يصورون شخصيات شريرة لا يترك الشر فى نفوسهم مساحة للود ولا مجالاً للتوبة. إنما تصور لنا ألِس مونرو شخصِيات تقع فى المنطقة الوسطى بين الشر والخير، بين الضعف والقوة، بين الشجاعة والجبن. شخصيات متصلة أسبابها بنا نحن البشر نعرفهم ويعرفوننا.

موضوعها الأثير هو رصد العلاقات الاجتماعية بين الناس فى بلادها سيما فى مدينة فانكوفر - كندا - وتركيزها ينصب على العلاقة الجدلية بين الماضى والحاضر: أى بين تجربة مضى بها الزمن وتجربة قائمة تثير العجب لتشابهها فى النهاية مع تجارب

www.ibtesama.com

الماضى القريب وربما البعيد، فى كليهما يعجز الفرد عن اتخاذ زمام المبادرة، ولا تواتيه الشجاعة على الفكاك من أزمته والخروج من قوقعة عالمه الفردى الضيق. وتزداد الأزمة تعقيداً عندما تلتمس الشخصية الحلول لمشكلات الحاضر فى تجارب الماضى القريب أو حتى البعيد فينتهى الأمر دائمًا إلى العجز والفشل الذى يكون قد تمكن من الروح وأفضى إلى اليأس. فليس لدى الماضى حلولٌ ناجعة لمشكلات الحاضر، ولا يستطيع الحاضر أن يتحمل إيقاع الماضى البطىء ويتسق مع عالمه الغريب. إن الشخصيات التى تتطلع للماضى بحثًا عن حلول لأزمات الحاضر شخصيات ساقطة، فاشلة، يضيع حماسها وقوتها وعنفوانها مع الزمن، ويفتر حبها للحياة مع الوقت.

وأِلس مونرو تعرض علينا نماذج لهذه الشخصيات فى "جزيرة كورتيز" و "وقبل التغيير" و"الأوز البرى"، وسائر القصص التى اخترناها لنقلها إلى العربية. وتعرض علينا نماذج أخرى تتضاد معها، نماذج من شخصيات تمتلئ نفوسها بحب الحياة، ولا تلتفت إلى الوراء، وإنما تجد الحلول فى التفكير للمستقبل، وتحليل الماضى، والاستفادة منه، أوتركه فى مكانه الأول. ومن الماضى ما يصلح، ومن الماضى ما يفسد، ومن الماضى ما لا يصلح ولا يفسد.

هذه إذن نماذج من قصص أِلس مونرو القصيرة، وهى نماذج تشجع المترجمين على ترجمة المزيد من أعمال هذه الأديبة المرموقة إلى العربية. ومن حسن الحظ أن الترجمة نشطت فى بلادنا بعد إنشاء المركز القومى للترجمة، وسلسلة آفاق عالمية التى تصدرها

www.ibtesama.com

الهيئة العامة لقصور الثقافة، وأتمنى، وسوف يتمنى ذلك كل من يقرأ هذه القصص، أن يحظى أدب ألِس مونرو بما يستحقه من اهتمام المترجمين والباحثين.

د. أحمد الشيمي

أستاذ الأدب الإنجليزي المساعد
جامعة بني سويف
باجا - سوهاج
٢٠ / ٩ / ٢٠٠٩

www.ibtesama.com

العاشـــق المسافـــر
وقصص أخرى

ألِس مونرو

41

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

المتسولة الحسناء (*)

كان باتريك بلاتشفورد يحب وردة ووردة تحبه. كان حبه لها عقيدة راسخة استقرت فى وجدانه لا يرضى عنها بديلاً. وأما هى، فقد كان هذا الحب مصدراً لدهشة لا تنقطع. كان يريد الزواج منها. كان ينتظرها بعد المحاضرات، يتقدم ناحيتها، ويصبح بجوارها حتى إذا رآه أىُ من كان يتحدث معها، يكف عن المحادثة ويقنع من الغنيمة بالإياب. لم يكن يتكلم معها عندما يرى حولها الأصدقاء ورفاق الدفعة، ولكنه كان يتعمد أن تلتقى نظراته بعينيها حتى يوحى إليها، بنظرة ملؤها الشك، بعلمه بموضوع الحديث. وكانت وردة تحب ذلك لأنه كان يُشعِرها بكيانها، ولكن ذلك كان يغيظها فى الوقت نفسه. فتاة اسمها نانسى فولز تنطق اسم مترنخ خطأ أمام باتريك. قال لها فيما بعد: "كيف تصادقين أناساً كهؤلاء؟".

www.ibtesama.com

ذهبت نانسى ووردة إلى مستشفى فكتوريا وباعا دمهما معاً. أخذت كل واحدة منهما خمسة عشر دولاراً أنفقا أغلبها على شراء أحذية سهرة وصنادل مثيرة فضية اللون، ثم عمدا إلى محل مرطبات فأخذت كل واحدة منهما سلطانية من الكوكتيل الهدف منها تعويض ما قد يطرأ على الجسم من نقص فى الوزن بسبب خروج الدم منه. لماذا فشلت وردة فى الدفاع عن نانسى أمام باتريك؟

كان باتريك فى الرابعة والعشرين من عمره حديث التخرج يخطط لأن يصبح أستاذاً فى التاريخ. كان طويل القامة ضامر الجسم، جميل الطلعة، حسن الهندام، رغم الوحمة الطويلة الشاحبة المائلة قليلاً إلى الاحمرار التى كانت تسير مثل عبرة هائمة على الطريق كله من صدغه إلى وجنته. كان يدافع عنها ويقول: إنها تقل كلما تقدم به السن. كان يقول أيضاً: إنها سوف تختفى تماماً عندما يصل إلى سن الأربعين. وأما وردة، فقد كانت تقول: إن الوحمة لم تكن هى السبب فى عدم الانتباه إلى محاسنه الأخرى وقسمات وجهه الحلوة؛ فهناك أشياء فى نظرها أشد وطأة من الوحمة (أشياء تُذهِب مزاياه كلها أو على الأقل تخفيها إخفاءً مؤقتاً فى نظرها، وهى تجتهد فى أن تذكر نفسها بين الحين والحين بتلك المزايا). كان دائم الانفعال والعصبية مثيراً للإزعاج أينما حل. وكان صوته يغيب (أو يروح) كلما احتدم النقاش بينه وبينها، ويبدو أنه كان يحتد دائماً كلما خاضت معه فى حديث. كان يضرب الأطباق ويطيح بها من فوق الموائد فيريق الشراب ويسقط السلطانيات المملوءة بالمكسرات مثلما يفعل نجوم الكوميديا. لم يكن ممثلاً هزلياً أبداً، وليس أبعد من ذلك

www.ibtesama.com

عن تفكيره وطموحه. كان من "برتش كولومبيا"، ومن أسرة ميسورة.

وصل مبكرًا حتى يُتاح له اصطحاب وردة إلى السينما. لم يستطع أن يطرق الباب؛ كان يعرف أنه جاء مبكرًا. جلس على السلم خارج باب الدكتورة هنشو. كان ذلك فى الشتاء، وكان الظلام فى الخارج هو السيد، لم يحد من سطوته إلا مصباح صغير معلق بالقرب من الباب. نادتها الدكتورة هنشو بصوت متهافت ناعم:

"تعالى يا وردة! تعالى وانظرى!"

ونظرا معًا إليه من خلال نافذة حجرة المكتبة المظلمة، عندئذٍ قالت الدكتورة هنشو برقة:

"مسكين هذا الشاب!"

كانت الدكتورة هنشو فى السبعينيات من العمر، وكانت تشغل منصبْ أستاذ فى اللغة الإنجليزية وآدابها، قوية الشكيمة، صعبة الإرضاء، مفعمة بالطاقة. وكانت تعانى من عرج خفيف فى رجلها، ولكن رأسها كان لشابة جميلة تميل بها قليلاً إلى الأمام، فتتدلى منه خصلتان من خصلات شعرها الأبيض الجميل الذى يطوق رأسها.

كانت تصف باترك بالمسكين لأنه واقع فى الحب إلى أذنيه؛ ولأنه لم يكن يمل من ملاحقة الفتاة والوقوع فى الاضطراب بسببها. وها هو يجلس مملتئًا بالعناد والثقة فى النفس ولكنه يثير الشفقة – فى الوقت نفسه – وهو جالس خارج الباب وفى عز البرد.

تقول الدكتورة هنشو:

"أوه يا وردة ! إنه يحرس الباب."

وذات مرة قالت بشىء من الارتباك:

www.ibtesama.com

"يا إلهى، أخشى أنه ينشد الارتباط بالفتاة الخطأ."

ولم يعجب ذلك وردة، ولم تكن وردة تعجب بضحكاتها حين تضحك، ولم تكن تحب أن يجلس باترك هكذا على السلم خارج الباب وبهذه الطريقة. فهل كان يريد أن يصبح مضحكة القوم؟ كان باترك ضعيف الشخصية، لم ترَ وردة شخصية أضعف منه فى حياتها؛ هو وحده المسؤول عن هذا الضعف، لم يكن يعرف كيف يحمى نفسه من المحيطين به، وفى الوقت نفسه كان لا يمل من إطلاق الأحكام القاسية على غيره، ولا يمل من إظهار الكبرياء الفارغة.

كانت الدكتورة هنشو تقول لوردة:

"أنت طالبة موهوبة يا وردة وهذا يهمك كثيراً."

وكانت بعد ذلك تقرأ بصوت عالٍ شيئًا من الورق، أو سطوراً من مجلة الندوة الكندية، أو أطلنطا الشهرية. كانت الدكتورة هنشو فى وقت من الأوقات ترأس مجلس إدارة مدرسة المدينة، وكانت عضواً مؤسساً فى الحزب الاشتراكى الكندى، ولا تزال عضوة فى لجان كثيرة. ولا تزل كذلك تراسل الجريدة وتراجع الكتب. كان أبوها وأمها من المبشرين بالمسيحية، ووُلدت هى فى الصين. كان بيتها صغيراً وغاية فى الأناقة. الأرض نظيفة، والسجاد نظيف، وقوارير الورد تنتشر فى الأركان. تزين المكان سلطانيات صينية ومناظر طبيعية وستائر سوداء ملونة. وردة لا تستغرب الكثير من هذه الأشياء ولا تستطيع قبولها. فى الواقع وردة لم تكن تميز بين الحيوانات الصغيرة الموضوعة على الأرفف عند الدكتورة هنشو، والزخارف المعروضة على نوافذ محلات الحلى فى بلدها "هانراتى"،

www.ibtesama.com

رغم أنها الآن تستطيع أن تميز بين بعض هذه الأشياء وبين الأشياء التى اشترتها "فلو" من محل "كل شىء بخمسة وعشرة".

تنسى وردة نفسها فى بيت الدكتورة هنشو، تذهب إليها فى الأوقات التى تشعر فيها باليأس، وتجلس فى حجرة الجلوس مثبطة الهمة، وتضع على حجرها فوطة من الكتان، وتأكل من أطباق بيضاء جميلة فوق مفارش بيضاء على الطاولة. كل ما فى الأمر أنها لم تكن تجد ما يكفيها من تلك الأطعمة، وكانت تعوض ذلك بشراء الكعك وقطع الشيكولاته وتدخرها فى حجرتها. كانت الدكتورة هنشو تدير الحديث فى حجرة الجلوس بينما كان طائر الكنارى يتمايل فى مجثمه على النافذة. كانت تتحدث فى السياسة وعن الكُتّاب، كانت تذكر منهم فرانك سكوت ودوروثى لفساى، وكانت تقول إن وردة يجب أن تقرأ لهؤلاء. كانت تقول:إن وردة يجب أن تقرأ هذا وتقرأ ذاك. حتى إن وردة عقدت العزم على ألا تقرأ لا لأولئك ولا لهؤلاء. كانت تقرأ كتب توماس مان، وكتب تولستوى.

قبل أن تأتى إلى بيت الدكتورة هنشو لم تسمع وردة أبداً عن الطبقة العاملة، سمعت عنها من الدكتورة هنشو.

علقت"فلو":

"إنه آخر الأمكنة فى المدينة التى تدخلها المجارى."

وتقول وردة بشىء من الفتور:

"هذا الجزء من المدينة هو الذى تسكنه الطبقة العاملة."

وتقول فلو:

"الطبقة العاملة؟ هذا مصطلح ربما لا يقبله الذين يسكنون هنا.

www.ibtesama.com

تشعرك الدكتورة هنشو - فى بيتها -كأنها أنجزت شيئًا: تشعر أنها لا تجعلك تحس بالطبيعة العفوية التى نجدها فى البيوت، لا تحس عندها أنك فى بيت مثل سائر البيوت التى تراها فى أى مكان. فى بيت الدكتورة هنشو تطالع عيناك أضواءً غريبة مزعجة. وأما "فلو" فقد أضاءت المستودع والمطبخ بأنوار الفلورسنت. ووضعت فى ركن من أركان المطبخ مصباح سقف كانت "فلو" قد كسبته من لعبة البنجو التى تمارسها، لها ستارة تغطيها شرائط كبيرة من السيلوفان على الدوام. كانت وردة تقول إن بيت الدكتورة هنشو وبيت "فلو"يناقض كل منهما الآخر تمام التناقض، أو ينال كلٌ منهما من الآخر. ففى حجرات بيت الدكتورة هنشو الرائعة تشعر وردة دائمًا أن الأشياء فيه مصطنعة، لا تُستساغ إلا بصعوبة، بعد أن رأت بيت الدكتورة هنشو تغيرت فكرة وردة عن الفقر. عرفت أن هناك فقراء لا يشعرون بأنهم فقراء؛ فالفقر ليس مجرد بؤس وعوز كما تقول الدكتورة هنشو، الفقر ليس مجرد حرمان. الفقر فى نظرها يعنى تلك اللمبات القبيحة التى تضىء الحجرات، والزهو بها. يعنى الحديث المتصل عن المال، وذلك الحديث المغرض عن الأشياء الجديدة التى اشتراها الناس، وهل دفعوا حقها. يعنى مشاعر التكبر والغيرة التى تحدق بالأشياء البسيطة مثل شراء زوج من ستائر البلاستك تقلد الدانتيلا، التى اشترتها "فلو" للنافذة الأمامية. أو أن تعلق ملابسك فى مسامير وراء الباب، أو أن تسمع الأصوات وأنت فى الحمام. يعنى تزيين جدرانك بعدد من النصائح والإرشادات الدينية وغير الدينية، والجادة والهازلة الإباحية.

www.ibtesama.com

الله يرعانى

اقبل الرب يسوع المسيح هادياً تَنَلْ الخلاص

ولماذا تعلق فلو هذه الإرشادات، وهى ليست متدينة؟ إنها تفعل ما يفعله الناس، أشياء شائعة بينهم مثل التقاويم، أو لوح من الألومونيوم المكتوب فيه بحروف زينة فخمة:

هذا مطبخى أطبخ فيه وأنا أرفو

أكثر من شخصين على سرير واحد خطر ومخالف للقانون

"بِلى بوب" هو الذى اشترى هذه اللوحات، تُرَى بماذ سيعلق باترك عليها؟ وبماذا سيعلق شخص آذاه حين نطق اسم "مترنخ" خطأ على حكايات بِلى بوب؟

بِلى بوب يعمل فى محل "جزارة تايد". هذه الأيام يكثر الحديث عن شخص يُسمى "دى. بى" البلجيكى الذى يعمل هناك، ويضغط على أعصاب بِلى بوب بغنائه المنفر لأغنيات فرنسية، وأفكاره الساذجة حول العمل فى كندا، يريد أن يشترى محل جزارة لنفسه، عندئذٍ قال بِلى بوب لـ: دى. بى البلجيكى:

– لا تظن أنك أتيت إلى هنا لتنفذ خططك وأفكارك، أنت الذى تعمل عندنا وليس العكس، لا تظن أننا سنغير وضعنا، أنت الذى تعمل لدينا، فاهم.

وعلق بِلى بوب كأنه يرد على نفسه: "وهذا أخرسه تماماً."

كان باترك يقول بين الحين والحين:إنه إذا كان بيت وردة لا يبعد إلا خمسين ميلاً من هنا، فالواجب عليه أن يذهب لمقابلة أسرة وردة، وعلقت وردة:

www.ibtesama.com

"ليس لى غير زوجة أبى. "

"أسوأ شىء أنى لم أقابل والدك. "

كانت قد قدمت أباها لـ: بِلى بوب بوصفه من كبار المطلعين على التأريخ، عالم هاوٍ. وهى فى الواقع لم تذهب بعيداً، ولكن الحقيقة ليست كاملة.

"وهل زوجة أبيك هذه هى الوصية عليك؟"

وكانت وردة مضطرة إلى أن تقول إنها لا تعرف.

"إذن لابد أن والدك قد عين لك حارسًا فى وصيته، من يدير عزبته؟"

عزبته! وردة تظن أن العزبة أرض كالتى يملكها الناس فى إنجلترا، وباترك يعجبه هذا التفسير، ويقول إنه تفكير عجيب.

"لا. أقصد أمواله، وعقاراته، وما إلى ذلك؛ يعنى كل ما يتركه الناس. "

"لا أظن أنه ترك شيئًا. "

"لا تكونى ساذجة. "قال باترك.

وأحيانًا تقول الدكتورة هنشو:

"أنت عالم فلا تتحدث فى هذا. "

فى العادة تتحدث عن شىء حدث فى الجامعة: سباق طلاب الجامعة، مباراة كرة قدم، رقص. وعادة ما تكون على حق؛ وردة لا تهتم بهذه الأمور، ولكنها لا تسرع فى تأكيد ذلك، ولا تسعى إلى التأكيد على هذا التعريف لشخصيتها، ولا تستسيغه.

على جدار السلم عُلِّقت صورة لحفل تخرج جميع الفتيات اللائى

www.ibtesama.com

تخرجن، وطالبات المنح الخارجية أيضاً اللائى عشن مع الدكتورة هنشو. أغلبهن أصبحن مدرسات، ثم أمهات. إحداهن أصبحت إخصائية حمية، واثنتان منهن أصبحتا أمينتى مكتبة، وواحدة أصبحت أستاذة جامعية، متخصصة فى اللغة الإنجليزية وآدابها مثل الدكتورة هنشو نفسها. لم تكن وردة معنية بمظهرهن، وتعبيرات الامتنان المستقرة بيسر على وجوههن، وابتساماتهن المشرقة، وأسنانهن الكبيرة، وخصلات شعورهن الجميلة كما يليق بالعذارى. ويبدو أنهن أثرن لديها شعوراً متمكناً بتقوى دنيوية لا علاقة لها بالدين. ليس من بينهن من أصبحت ممثلة سينمائية، وليس من بينهن من أصبحت كاتبة صحفية جريئة فى جريدة أو مجلة، وليس منهن من اختارت الحياة التى اختارتها وردة لنفسها وتعلقت بها. اختارت وردة أن تؤدى الأدوار التى تريد أن تؤديها على الملأ، أمام الناس. كانت تريد أن تمتهن التمثيل، ولكنها لم تمارس التمثيل، ولم تسع إلى ممارسته، بالعكس: كانت تخشى الاقتراب من كلية الفنون المسرحية، وهى تعلم أنها لا تعرف الغناء، ولا تتقن الرقص، وكانت تريد أن تتعلم الضرب على القيثار ولم تفعل، لم تسعفها إذناها اللتان لا تنفران من الموسيقى!: كانت تريد أن تصبح مشهورة ومحسودة، نحيفة وماهرة فى كل شىء. ذات يوم قالت للدكتورة هنشو:إنها لو كانت رجلاً لسعت إلى أن تصبح مراسلة أجنبية، وقالت لها الدكتورة هنشو بشىء من الحماس:

"ستصبحين مراسلة أجنبية إذن إذا أردت، الآفاق مفتوحة اليوم أمام النساء، ما عليك إلا التركيز على تعلم اللغات، وعليك بأخذ

www.ibtesama.com

دورات فى العلوم السياسية، والاقتصاد، وربما حصلتِ على وظيفة فى الجريدة فى الصيف القادم. لى أصدقاء هناك ومعارف.

وغشى وردة شعورٌ بالخوف من العمل فى جريدة، وكانت تكره مقرر الاقتصاد، وكانت تبحث عن طريقة لتأجيله. ليس من الحكمة أن أخبر كل شيء للدكتورة هنشو. خطر.

جاءت لتعيش مع الدكتورة هنشو بالمصادفة. كانت المقصودة فتاة أخرى، ولكن هذه الفتاة الأخرى مرضت بالسل، واستُبدلت بها وردة، وأما الفتاة المريضة، فقد مضوا بها إلى المستشفى. فى اليوم التالى من التسجيل ذهبت الدكتورة هنشو إلى إدارة الكلية للحصول على أسماء بعض الطالبات المستجدات الحاصلات على المنح المجانية.

وكانت وردة فى المكتب نفسه قبل مجيء الدكتورة هنشو بدقائق، تسأل عن موعد مقابلة طلاب المنح الجددومكانها، فقد ضاع منها الخطاب المرسل من الكلية. كان أمين الصندوق يتحدث مع طلاب المنح الجدد، يخبرهم عن الطرق التى يعثرون بها على عمل لكسب بعض المال الذى يحتاجونه، وكيف يعيشون بأقل القليل، ويشرح لهم مستويات الأداء المتوقعة منهم إذا أرادوا أن تظل مدفوعاتهم متواصلة، وتسجيلهم نافذًا.

عرفت وردة رقم الحجرة، ومضت تصعد الدرج إلى الطابق الأول، صادفتها فتاة أخرى أصبحت بجوارها فسألتها:

"أنت متجهة إلى موعد الساعة (٣,٠١٢) أيضًا؟"

مضتا معًا، تخبر كلٌّ الأخرى بكل ما يتصل بالمنحة المجانية التى حصلتا عليها. قالت وردة: إنها لا تعرف أين تسكن، وإنها تسكن

www.ibtesama.com

الآن فى بيوت الشابات مؤقتًا. وقالت إنها لا تمتلك ما يكفى من المال الذى يمكنها من العيش هنا.. على الإطلاق، كل ما لديها منحة لدفع المصاريف، وجائزة المحافظ لتشترى بها الكتب، ومصروف جيب من ثلاثمائة دولار تعيش بها الشهر كل ... هذا كل ما لديها. قالت لها صاحبتها:

- ما عليك إلا البحث عن وظيفة.

الفتاة الأخرى حصلت على منحة أفضل، مكافأتها المالية أكثر؛ لأنها ستتخصص فى العلوم (وهى تقول جادة: إن العلوم هى التى تجلب المال، وليس الأدب)، ولكنها كانت تأمل أيضًا فى أن تجد وظيفة فى الكافتيريا، وقد حصلت بالفعل على حجرة مع صديقة لها تسكن فى بدروم. سألتها وردة بينما كان رأسها يسبح فى بحر قلق من الحسابات والنفقات:

- وكم تتكلف الحجرة الواحدة فى الشهر؟ وكم يتكلف الطبق الساخن الواحد؟

كانت الفتاة تربط شعرها كله فى خصلة واحدة، وكانت ترتدى "بلوزة" من قماش رقيق، يميل إلى اللون الأصفر اللامع من كثرة الغسيل والكى. كان ثدياها كبيرين متراخيين. أغلب الظن أنها كانت ترتدى صديرية ثديين قديمة لا تطاق، على أحد خديها مساحة صغيرة متقلسة. قالت:

- يبدو أنه لابد من ذلك.

كان الباب يزدان بنافذة صغيرة فى وسطه، وكان فى وسعهما التلصص بسائر الظافرين بالمنح الدراسية وقد انتظموا فى طابور

www.ibtesama.com

وينتظرون. بدا لوردة أنها رأت أربع أو خمس فتيات من عينة الفتاة المسكينة الوقورة التى كانت إلى جوارها، وعدداً كبيراً من فتية من أصحاب العيون الصافية.والنفوس الراضية. أصبحت شبه قاعدة أن الظافرات بالمنح الدراسية يظهرن وكأنهن فى الأربعين من أعمارهن، بينما يبدو الصبية كأنهم فى الثانية عشرة. والحق أن المرء لا يتوقع ذلك أبداً. ولم يكن من الممكن أن تستبين وردة، من خلال نظرة واحدة من نافذة الباب المفضى إلى حجرة المقابلة، علامات على مرض إكزيما، وتلوثات تحت الآباط، ومرض قشرة الرأس، وترسبات قديمة على الأسنان، ورقائق متيبسة فى أركان العيون. هذا كل ما رأته، أو توقعته، أو خمنته، ولكنها لم تقل إن حجاباً من الكآبة يشملهم جميعاً. كانت وردة على حق: كانت الكآبة تشملهم رغم تعلقهم بالأمل وحسن الخلق والشوق. فماذا قدموا؟ وماذا لديهم غير الإجابة الرائعة على الأسئلة الصعبة؟ ما الذى يتميزون به عن غيرهم وانتهى بهم إلى هذا المكان؟ لقد فعلت وردة مثلهم. قالت وردة:

"أنا مضطرة إلى أن أذهب إلى الحمام."

هى ترى أن العمل فى الكافتيريا يناسبها، جسمها ضخم، أو حجمه مناسب لمثل هذا العمل، وتبدو أضخم بفستانها القطنى الأخضر، ووجها الأحمر وشعرها النحيل الذى تيبس بسبب الحر. تقديم أطباق اللحم المطهى، والدجاج المقلى للطلاب الأقل ذكاءً، والموارد المالية الكبيرة. تستقر وراء طاولات الغسيل، والزى المخصص للعمل، والعمل الشاق اللذيذ الذى لا يخجل منه أحد، ووراء الذكاء الذى يقر به الجميع، والفقر الذى يعرفه الجميع أيضاً.

www.ibtesama.com

يستطيع الأولاد الاضطلاع بهذه المشكلات، وبالكاد. وأما للبنات فهو عمل قاتل. لاجاذبية للفقر بالنسبة للفتيات إلا إذا صاحبته جاذبية جنسية محببة، وغباءٌ واضحُ للعيان. ولا جاذبية فى الذكاء إلا إذا صاحبه نوعٌ من الأناقة والامتياز.. اسأل عن الطبقة. هل هذا هو الحق؟ وهل من الحمق أن تهتم؟ نعم هو الحق. ونعم اهتمت.

عادت إلى الطابق الأول حيث كانت الردهات مزدحمة بالطلاب العاديين، الذين لم يأتوا بسبب منح التفوق، والذين لا يُتَوقع منهم الحصول على تقدير ممتاز، ويعترفون بالجميل، ويعيشون بأقل النفقات. العيون ترمقهم حسداً، وهم يتجولون ببراءة الأطفال حول طاولات التسجيل، يرفلون فى ملابسهم الفضفاضة ذات الألوان الأرجوانية المائلة إلى الأبيض، وقبعاتهم الأرجوانية كما يليق بالجدد، يتبادلون الذكريات، والمعلومات المضطربة، والإهانات الفارغة. مضت فى طريقها بينهم يتمكن منها شعور مزيج من الزهو والتفوق والقنوط. تنورة بدلتها الخضراء المصنوعة من قماش قطنى متين تكاد تسقط بين ساقيها وهى تمشى. القماش رخو، وكان يجب أن تدخر المزيد من المال لتشترى القماش الأفضل. وهى الآن تشعر بأن الجاكت نفسه لم يحسن تفصيله رغم أنه كان يبدو على ما يرام فى البيت. الفستان كله أعدته خياطة نسائية فى "هانراتى"، صديقة "فلو" التى اعتبرت أن همها الأكبر هو الحيلولة دون الإمعان فى إظهار تقاطيع الجسد. وعندما سألتها وردة هل يمكن جعل الفستان أضيق قليلاً أجابت السيدة:

"أنت نفسك لا تريدين لمؤخرتك أن تظهر، هل تريدين الآن؟"

www.ibtesama.com

ولم يكن لدى وردة رغبة فى أن تقول إنها لا تهتم بظهور المؤخرة من عدمه. وسألتها الخياطة أيضًا:

"هل أخمن أنك التحقت بمدرسة وتريدين البحث عن عمل يساعدك فى الحياة؟"

لاحت فى الممر سيدة أوقفت وردة وسألتها:

"هل أنت الطالبة الحاصلة على منحة التفوق؟"

كانت سكرتيرة مدير شؤون الطلاب، وظنت وردة أنها تنتظر من يؤنبها على تأخرها عن المقابلة، واستعدت لتقول إنها كانت مريضة، وأعدت تعبيرات وجهها لإطلاق هذه الكذبة، ولكن السكرتيرة قالت لها:

"تعالى معى الآن، هناك شخص يريد مقابلتك."

كانت الدكتورة هنشو تجلس فى مكتبها الذى يمتلئ بالضجيج، وكانت تحب البنات الفقيرات، والذكيات، بشرط أن يكُن من حسنى المظهر. قالت لها السكرتيرة وهى ترشدها إلى مكتب الدكتورة هنشو:

"أظن أن اليوم يوم حظك، خاصة إذا حاولت أن تدخلى على الدكتورة بابتسامة أكثر إشراقًا."

كانت وردة تكره الإملاءات، ولكن ابتسامة غشيت وجهها تشى بالإذعان.

وخلال ساعة كانت فى بيت الدكتورة هنشو، أصبحت جزءًا من البيت كالستائر وآنيات الزهر الصينية، ووجدت من ينبئها بأنها طالبة منحة.

www.ibtesama.com

ظفرت بوظيفة فى مكتبة الكلية، بدلاً من الكافتيريا. كانت هنشو صديقة مدير إدارة المكتبات، وكانت وردة تعمل فى أيام السبت بعد الظهر. كانت تعمل فى الأرفف، تعيد الكتب إلى الأرفف. وفى أيام السبت بعد العصر كانت المكتبة شبه خالية خاصة فى الخريف؛ بسبب مباريات كرة القدم. وكانت النوافذ الضيقة مفتوحة على حرم الجامعة المكسو بالعشب، وملعب كرة القدم، وشلالات ريفية جافة، تتناهى إلى أذنيها ألحان بعيدة، وصيحات.

لم تكن مبانى الكلية قديمة بالمرة، ولكن المهندس الذى بناها كان يقصد إلى أن تبدو قديمة، كانت مبنية من الحجر، وأما مبنى الفنون الجميلة، فقد زُين ببرج، وكانت المكتبة لها نافذة كبيرة، ربما صُممت لإطلاق السهام من خلالها، أكثر ما أعجب وردة فى المبنى كله المكتبة والكتب، وما تضج به من حياة لم تعد موجودة اليوم، تحولت كلية الفنون الجميلة إلى ملعب كرة قدم، فامتلأ ملعب كرة القدم بالضجيج الذى حاصر المكتبة، وهى تقول: إن هذا الضجيج لا يليق بمكان فيه مكتبة؛ فالملعب تصدر منه هتافات، وأغنيات تتصل أسبابها بالجنون وليس بالعلم، خاصة إذا استمعت إلى كلماتها. وكانت تتساءل: لماذا يشيدون هذه المبانى الفخمة ثم يملأونها بمثل هذه الأغنيات؟

طبعًا كانت تعرف أنها لا ينبغى أن تنشر هذه الآراء، فستجد من يخبرها بأنها تعمل فى أيام السبت ولا تستطيع أن تحضر أيًا من هذه المباريات، شىء فظيع، وهى لابد أن توافق على هذا القول بشىء من التوتر.

ذات مرة جذبها رجل من ركبتها العارية، بين الشراب والبلوزة. حدث ذلك فى قسم الكتب الزراعية، أسفل الأرفف.

www.ibtesama.com

المسموح لهم بالوصول إلى الأرفف هم أعضاء هيئة التدريس والخريجون والموظفون، رغم أن أحدهم قد يدخل من نافذة الطابق الأول إذا كان جسمه نحيفًا. وقد رأت ذات مرة رجلاً جاثمًا على الأرض يبحث فى صفوف الكتب السفلى، متجهًا بالتدريج إلى الأعلى، وعندما مضت تدفع بكتاب فى مكانه زحف نحوها، وأمسك بساقها، حدث ذلك بحركة ناعمة مروعة، ثم اختفى، وظل إحساسها بموضع أصابعه لم يفارقها، طبعًا لم تشعر بها كلمسة جنسية؛ بل أشبه بالمزاح، ولكن لا يمكن أن تكون لمسة عشم، أو ود، رأته - أو شعرت به - وهو يهرب كالأرنب المذعور، فقد كانت الأرفف ترتجف، ثم توقفت. لم تسمع له صوتًا، وتجولت تبحث عنه بين الأرفف، وفى مقصورات الدراسة. وافرض أنها كانت عثرت عليه، أو فوجئت به فى ركن من الأركان، فماذا كانت ستفعل؟ لم تكن تعرف، كل ما كانت تعرفه أنها كان يجب أن تبحث عنه، كأنهما طفلان يلعبان الاستغماية، عاودت النظر فى سمانة ساقها المكتنزة، وتأملت المشهد: من المجهول، وعلى غير المتوقع، أراد أحد الناس أن يعاقبها.

لم يكن إلا عددٌ قليل من طلاب الدراسات العليا هم الذين يقرأون فى المقصورات، حتى فى أمسيات السبت، والأندر أن تجد أستاذًا من الأساتذة الذين يعملون فى هذه الكلية أو غيرها من الكليات. كلما نظرت فى مقصورة وجدتها خالية، حتى وصلت إلى مقصورة تقع فى أحد الأركان، وأمعنت النظر بشىء من الاطمئنان، لم يكن من المتوقع أن تجد أحدًا فى ذلك الوقت، ولكنها اضطرت إلى التعبير عن الأسف. فقد كانت المقصورة عامرة بشاب يضع على حجره

www.ibtesama.com

كتابًا، وكتبًا أخرى على الأرض، وأوراقًا وأقلامًا متناثرة من حوله، وسألته وردة هل رأى أحدًا يهرب من هنا، وأجاب الشاب بالنفى.

وروت له ما حدث. لم تروِ له ما حدث لأنها كانت خائفة أو مشمئزة، كما كان يعتقد، ولكنها روت له ما حدث لأنها كانت تريد أن تحكى القصة لأى أحد، شيء غريب جدًا. لم تكن مستعدة على الإطلاق لرد فعله، فقد تحولت رقبته الطويلة، ووجهه إلى اللون الأحمر، واجتاحه احمرار الخجل الذى غطى على وحمة فى جانب من وجنته. كان نحيفًا وحسن المظهر. ووقف فجأة دون أن ينتبه للكتاب الذى كان فى حجره، أو الأوراق التى تناثرت أمامه، ووقع الكتاب على الأرض، واندلحت حزمة كبيرة من الأوراق على الطاولة، اصطدمت بقارورة الحبر التى وقعت على الأرض، وقال:

"رجل خسيس. "

وهتفت وردة:

"قارورة الحبر!"

فأمسك بقارورة الحبر دون أن يلحق بها فوقعت على الأرض، ولحسن الحظ كان الغطاء محكمًا فلم يندلق الحبر منها.

"وهل أصابك بأذى؟"

"لا.. لم يصبنى بأذى. "

"تعالِ إلى الطابق الثانى، نحرر محضرًا. "

"آه. لا. "

"لا ينبغى أن يهرب بفعلته، يجب ألا نسمح بذلك على الإطلاق."

وقالت وردة فيما يشبه التحرر من واجب:

www.ibtesama.com

"لا يوجد أحد فى الطابق الثانى، أمينة المكتبة تغادر بعد الظهر أيام السبت. "

ثم قال فى نبرة مهتاجة:

"شىء مقزز. "

شعرت وردة بالندم لأنها روت له كل شىء، وأبدت رغبتها فى العودة إلى العمل.

" المهم، هل أنتِ بخير حقًّا. "

"نعم، أنا بخير. "

"أنا هنا، من فضلك نادِنى إذا عاد مرة أخرى.

هذا الشاب كان باترك. فلو كانت تخطط لأن يقع فى حبها، لما وجدت طريقًا أفضل مما حدث بالمصادفة. يمتلئ بروح الفروسية التى يسعى إلى احتذائها وهو يصدر بعض الألفاظ والعبارات التى تبدو كأنها مقتبسات: "الجنس اللطيف"، و"الآنسة فى محنة". كان وصول وردة إلى مقصورة باترك بهذه الرواية معناها أنها "آنسة فى محنة"، مفارقة لا تنطلى على أحد، فروسية سعى إلى تفعيلها فى عالم الفرسان والسيدات، نوبات الغضب والإخلاص.

استمرت تراه فى المكتبة، كل يوم سبت، وكثيرًا ما كانت تصادفه يتمشى فى حرم الجامعة، أو فى الكافتيريا. لفت انتباهها حين حياها بلباقة واهتمام بعبارة: "كيف حالك؟" بطريقة تشى بأنها تعرضت لحادث آخر، أو أنها لا زالت تسعى إلى البراءة من الحادث الأول. كان احمرار الخجل يغشاه كلما رآها، وكانت تظن أن الخجل سببه تلك الرواية التى روتها له، وسببت له الحرج. وبعد

www.ibtesama.com

زمن تأكدت من أن حمرة الخجل التى كانت تغشاه مصدرها العشق الذى يكنه لها.

واكتشف اسمها، ومكان سكنها، وهاتفها فى منزل الدكتورة هنشو، وطلب منها أن تصحبه إلى السينما. فى البداية كان يقول فى التليفون: "هذا باترك بلاتشفورد يتحدث، " ولم تكن وردة تعرفه، ولكن بعد ثانية تتعرف على صوته المرتفع، الحزين، المرتجف. قالت: إنها ستذهب معه إلى السينما، جزئيًا لأن الدكتورة هنشو كانت تقول دائمًا: إنها سعيدة أن وردة لم تضيع وقتها فى الجرى وراء الشباب.

وبعد أن بدأت تخرج مع باترك، قالت له: "لو كنت أنت الذى أمسك بساقى فى ذلك اليوم فى المكتبة، لكانت قصة لها العجب. "

وقال لها: إن القصة ليس فيها شىء يدعو إلى العجب والظرف، ولكن قد تدعو للرعب والخوف.

وقالت له: "إنها تمازحه فحسب، " وقالت له أيضًا: "إنها كانت تقصد أن الحكاية تصلح قصة ممتازة، أو أنها تصلح قصة من قصص سومرست موم(١)، أو فِلْمًا من أفلام هتشكوك، مع العلم أنهما شهدا فِلْمًا من أفلام هتشكوك منذ ساعات.

- تعرف لو أن هتشكوك أراد أن ينتج فلمًا من هذه القصة، ستكون أنت تلك الشخصية التى لا تمل من الإمساك بسيقان الفتيات، وسيكون هذا مكونًا لنصف شخصيتك، والنصف الثانى الطالب الخجول.

ولم يعجبه هذا التعليق أيضًا، وقال:

"هل هذا ما أبدو عليه فى نظرك؟ الطالب الخجول؟"

www.ibtesama.com

وبدا لها أن صوته غاص فى جوفه، ثم خرج ببعض نبرات متذمرة، وحرك وجهه بما يشبه المزاح، ولكنه لم يكن يمزح أبداً. ولم يكن يؤمن بأن المزاح والنكات مناسبة عندما يقع الرجل فى العشق.

"لم أقل إنك طالبٌ خجول، أو إنك مغرم بالإمساك بسيقان الفتيات. كانت مجرد فكرة. "

وفكر برهة ثم قال:

"أظن أنى لم أكن بالشجاعة الخليقة برجل. "

راعها هذا الكشف وزاد من غيظها. كان ينتهز مثل هذه الفرص، وهل تعلم ألا ينتهز هذه الفرص؟ وربما لم يفعل. كان يدرك أنها تريد أن تعلق بما يبث الطمأنينة فى نفسه، بالعكس: تمنت لو قالت له: "لا.. لم تكن بالشجاعة المطلوبة. ولكن تلك لم تكن الحقيقة؛ فقد كان رجلاً معها؛ لأنه اقتنص تلك الفرصة. الرجل فقط هو الذى لا يهتم بهذه الأمور، ويتميز بالقسوة.

وفى مناسبة أخرى قالت له:

"لقد جاء كلٌ منا من عالم مختلف. "

كانت تشعر أنها شخصية فى مسرحية، تقول: "أهلى فقراء، فيعرف أن المكان الذى نعيش فيه مكانًا مضطربًا. "

والآن ظهر أنها هى التى لم تكن أمينة معه، تتظاهر بأنها ترمى بنفسها تحت قدميه؛ لأنها فى الواقع لم تتوقع منه أن يقول: "آه.. حسنًا، إذا كنت من أسرة فقيرة وتعيشين فى مكان قذر، يصبح علىّ أن أسحب عرضى بالزواج منك. "

www.ibtesama.com

ولكن باترك قال لها:

"أنا سعيد بك، أنا سعيد لأنك فقيرة، أنت جميلة جداً، أشبه بالحسناء المتسولة."

– أشبه بمن؟

– "الملك كوبيتوا والحسناء المتسولة" ألا تعرفين هذه القصة؟ لوحة "الحسناء المتسولة"؟ ألا تعرفين هذه اللوحة؟

كان باترك يستخدم حيلة، لا: لم تكن حيلة، باترك لا يعرف الحيل، باترك له طريقة فى التعبير عن الاستغراب، تعبير مفعم بالسخرية والازدراء، خاصة عندما لا يعرف الناس شيئًا يعرفه، وازدراء مماثل، واستغراب مماثل عندما يزعمون أنهم يعرفون شيئًا لا يعرفه. كان يبالغ فى تكبره وتواضعه، كانت وردة تقول إن تكبره معناه أنه غنىٌ، رغم أن باترك لم يكن متكبراً بسبب ما ورثه من ثروات. عندما قابلت وردة أخواته البنات وجدتهن على شاكلته، يشعرن بالاشمئزاز من أى شخص لا يفهم فى الخيول، أو التجديف، كما يُسخطهم أى شخص يفهم فى الموسيقى أو السياسة. كل ما نظفر به من باترك وأخواته البنات هو النفور من الناس، ولكن عند الحديث عن التكبر هل ننسى بِلى بوب؟ وهل ننسى فلو؟ ربما كانا أسوأ من باترك. ورغم ذلك يوجد اختلاف، والاختلاف هو أن بِلى بوب وفلو يجدان الأشياء التى تغيظهم فى كل مكان: فالأسباب التى تغيظهم كثيرة، مثلاً: الشعب الذى ينتمى إليه دى. بى. يتحدث الفرنسية فى الراديو. وأما باترك وأخواته البنات، فإنهم يتحدثون وكأن الأشياء لا تؤثر عليهم. أصواتهم وهم يتشاجرون على المائدة

www.ibtesama.com

صورة طبق الأصل من أصوات الأطفال، انظر إلى طلباتهم من الطعام الذى يفضلونه، وانظر إلى وقاحتهم حين يرون أى شىء على المائدة لا يحبونه، أفعال صبية؟لا ينشدون التغيير، ولا يريدون كسب الناس من حولهم، لا يريدون ذلك أبداً.. وهذا لأنهم أغنياء.

فى البداية لم تكن وردة تعرف أن باترك غنى، ولم تكن تعرف حجم ثروته، ولم يصدق أحد أنها لا تعرف؛ الناس يعرفون أنها تحصى كل شىء، وأنها مغرمة بإحصاء المال بصفة خاصة، الناس يظنون أنها "شاطرة"، وهى أبعد ما تكون عن "الشطارة"، حتى إنها لا تهتم بما يعتقد الناس وبما يظنون بها. اكتشفنا أن هناك فتيات أخريات يغرمن بالإحصاء، ولم يظفرن بما ظفرت به وردة دون سعى حثيث. فتيات أكبر منها سناً، فتيات النوادى اللائى لم يلتفتن إليها قبل ذلك، بدأن الآن ينظرن إليها بشىء من الغيظ والاضطراب والاحترام. حتى الدكتورة هنشو، عندما عرفت أن الأمور أخطر مما كانت تظن، واستدعت وردة لتتحدث معها فى الموضوع، ظنت أيضاً أن عينى وردة كانتا على المال. قالت لها بصوت ملؤه السخرية والجد فى آن:

"أن تجذبى انتباه رجل سيرث امبراطورية تجارية ليس بالنصر اليسير. أنا لا أزدرى الثروة، بالعكس: أتمنى أن يكون لى ثروة، أو شىء من الثروة (هل تنكر أن لها ثروة؟) وأنا متأكدة من أنك ستضعين هذه الثروة فى موضعها. ولكن ماذا عن طموحاتك يا وردة؟ ما مصير دراساتك وشهادتك العلمية؟ هل ستنسين كل ذلك قريباً جداً؟"

www.ibtesama.com

عبارة "امبراطورية تجارية" عبارة مبالغ فيها. عائلة باترك تملك سلسلة من المحلات التجارية الكبيرة فى برتش كولومبيا، وكل ما قاله باترك لوردة هو أن أباه يمتلك بعض المحلات، وعندما قالت له إنهما ينتميان إذن إلى عالمين مختلفين، كانت تقصد أنه ربما يعيش فى بيت كبير مثل البيت الذى تعيش فيه الدكتورة هنشو، وفى حى مثل الحى الذى تعيش فيه الدكتورة هنشو. أو ربما كانت تقصد التجار الأغنياء فى بلدها "هانراتى". لم تنتبه إلى الضربة الموفقة التى أحرزتها، لأنها كانت تظن أن الضربة الموفقة معناها أن تجذب انتباه ابن الجزار، أو ابن الجواهرجى فى "هانراتى"، وكان الناس سيقولون إنها ضربة موفقة أيضاً.

وتأملت اللوحة، وجدتها فى كتاب من كتب الفن فى المكتبة التى تعمل فيها. تأملت لوحة "الحسناء المتسولة"، خاضعة ومثيرة للحواس، بقدميها البيضاوين المضطربتين، وبما تنضح به من إذعان وادع، وقلة حيلة، وإقرار بالجميل. فهل هكذا كان باترك يرى وردة؟ وهل هذه صورتها حقاً؟ هى فى حاجة إلى هذا الملك، ببشرته السمراء، وذكائه الواضح، وحتى بنشوته العاطفية، ومهارته، وهمجيته المحببة. قد يسبب لها الاضطراب الشديد برغبته الجامحة، ولن ينفع معه الاعتذار، ولا مجال لهذا التردد، ونقصان الثقة، التى يمكن أن تعن لها فى أثناء علاقتها مع باترك.

لا تستطيع وردة أن تخذل باترك، لا تجرؤ على فعل ذلك، وليس السبب هو هذا الكم من المال الذى سترثه، ولكن مقدار الحب الذى قدمه ولا تستطيع إنكاره أو تجاهله، فقد كانت فى الواقع ترفق به،

www.ibtesama.com

وكانت فى الواقع تلتمس له الأعذار، وكانت فى الواقع تنشد مساعدته. تشعر وكأنه صادفها فى زحام، يحمل شيئًا بسيطًا ومبهرًا وضخمًا - ربما بيضة كبيرة من الفضة الصلبة، شيئًا لا نعرف له كنهًا ولا فائدة رغم كبر حجمه، يقدمه لها، يدفع به إليها، يرجوها أن تتحمل جزءًا من ثقله. فإذا أعادته إليه، فكيف يتحمله؟ ولكن هذا التفسير يتجاهل شيئًا مهمًا، يتجاهل شهوتها، وشهوتها لم تكن للمال، ولا للثروة، وإنما للعبادة. حجم ووزن وبريق ما قاله لها معناه أنه الحب (وهى لم تكن تشك فى نواياه)، هذا الحجم وذلك التألق هو الذى يؤثر فيها، وحتى إن لم يطلب منها أحد ذلك. وربما بدأت تشعر بأن النصيب الجميل لا يأتى إلا فرصة واحدة، حتى باترك نفسه رغم جنونه بها يقر فى بعض اللحظات الغامضة بحظها الوافر.

كانت دائمًا تعتقد أن الحدث آتٍ لا محالة: أن رجلاً سيمعن فيها النظر، ويقع فى حبها، ويصبح ريشة فى مهب الريح بسبب عشقها، وقليل الحيلة أمام العاطفة الجارفة. فى الوقت نفسه كانت تعتقد أن أحدًا لا يريدها، لن يرغب فيها أحد على الإطلاق، وحتى الآن لم يتقدم لها أحد. ما جعلك هدفًا للحب ليس لشىء فعلته، ولكن لشىء تملكينه، وكيف تعرفين أنكِ تملكينه حقًا؟ وكانت تتطلع إلى نفسها فى المرآة، وتقول لنفسها: "زوجة، حبيبة القلب، " وهذه الكلمات الحلوة، كيف تناسبها، وكيف تنطبق عليها فى يوم من الأيام؟ هل هى المعجزة، أم هو الخطأ، إنه ما حلمت به، ولم تكن ما أرادته.

يزداد تعبها، وضجرها، وتزداد سرعة غضبها، وقلة نومها. حاولت أن تفكر فى باترك تفكير المعجبات، تذكرت وجهه النحيل،

www.ibtesama.com

وبشرته الناعمة الصافية، والحق أنه كان وسيمًا جدًا. وهو يعلم أشياء كثيرة؛ منها أنه ينال درجات كبيرة فى الأبحاث، ويتفوق فى الامتحانات، ويكاد يفرغ من رسالته. تحيط به رائحة الغليون المعبأ بالطباق، وقماش الصوف الخام، مما تعشقه. كان فى الرابعة والعشرين من عمره، ولا توجد فتاة من زميلاتها لها رفيق يساويه فى العمر.

ودون مقدمات تخيلته، تذكرته وهو يقول: "لا أظن أنى كنت رجلاً بما فيه الكفاية." وتخيلته أيضًا وهو يقول: "هل تحبيننى؟ هل تحبيننى حقًا؟ وقد يمعن فيها النظر بعينين تشيان بالخوف والقلق الشديد. وعندما أجابت بالإيجاب، قال لها إنه الآن محظوظ جدًا، أو الحظ يغنى لهما معًا، وتذكرت زملاءه وصديقاتهم، تعقد المقارنات بينهم وبين ما بينهما من عشق وحب. ترتجف وردة من الهياج والبؤس. يغشاها الإرهاق من نفسها ومنه، وتصاب بالنفور من الصورة التى توصلا إليها فى تلك اللحظة، وهما يسيران إلى منتزه تغشاه الثلوج فى وسط المدينة، وقد استكانت يدها الرقيقة فى يد باترك، فى جيب معطفه الثقيل. اضطربت أعماقها بأصوات متضاربة، وغايات متصارعة، وصيحات غاضبة. وكان عليها أن تحول بينها وبين الخروج، وكان عليها أن تداعبه، وتدغدغ مشاعره الملتهبة.

وباغتته بقبلة وراء الباب الخلفى لمنزل الدكتورة هنشو، مع انتشار الثلوج، سعت بالقبلات أن تدفعه لفتح فيه، وأمعنت فى التودد حتى افتضح أمرها، وعندما بادلها القبل كانت ساقاه ناعمتين، وكان

www.ibtesama.com

لسانه مرتجفًا تضطرب فيه حروف اللغة، ووجد نفسه ينهار من فرط النشوة بدلاً من أن يمسك بها ويضمها، لم تجد فيه القوة التى تنشدها.

"أنت جميلة جدًا، وبشرتك جميلة جدًا، وحواجبك رائعة. أنت جميلة جدًا."

غشيتها موجة من الشكر والامتنان لدى سماع هذه الكلمات، والحق أن أى شخص كان يمكن أن يفعل ما فعلت، ولكن قالت بنبرة تحذير:

"ولكنى لست رقيقة إلى هذا الحد فى الواقع، أنا متبسطة إلى حد كبير."

"أنت لا تعرفين كم أحبك. وهناك كتاب كنت أسميه "الإلهة البيضاء"، وفى كل مرة أعود إلى قراءة العنوان أتذكرك."

وتخلصت من يده، وانحنت لتملأ يديها بحبات الثلج المتراكم حول الدرج. ووضعته على رأسه، وهى تقول:

"معبودى الأبيض."

وتخلص من حبات الثلج التى غشيت يديه وجسمه، وتناولت ثلجًا آخر ونثرته على رأسه من جديد، ولم يضحك، استغرب وجفل، ومسحت الثلج من على حاجبيه، وراحت تزيحه من فوق أذنيه. استسلمت لنوبة من الضحك، رغم أنها كانت تعرف أنه ضحك البائس وليس ضحك المبتهج، وهى لا تفهم لماذا فعلت ذلك. "الدكتورة هن- شو،" نطق الاسم بصوت نحيل، اختفى بقدرة قادر ذلك الصوت الشاعرى الرقيق الذى كان يتحدث به معها قبل لحظة،

www.ibtesama.com

امتزج بنبرة احتجاج، وسخط، تحول من النقيض إلى النقيض، دون المرور بمنطقة وسطى بين هذا وذاك.

"الدكتورة هنشو يمكن أن تسمعك!"

وقالت وردة بصوت حالم مكتنف بغموض:

"الدكتورة هنشو تقول: إنك شاب مخلص وكريم، وأنا أعتقد أنها تعشقك."

وذلك حق؛ الدكتورة هنشو قالت ذلك بنفسها، وهو فعلاً شاب مخلص وكريم. لم يحتمل طريقة وردة فى الحديث معه، وهى تنشر الثلج على أذنيه، وتقول:

"ولماذا لا تتكل على الله وتفض عذرية هذه السيدة العجوز؟ أنا متأكدة من أنها عذراء، هذه هى نافذتها أمامك، لماذا لا تذهب الآن."

ومسحت بيدها على شعر رأسه، ثم بغتة تسللت يدها إلى أعماق معطفه، وراحت تحك حجره بعنف وهى تقول بشيء من الزهو والظفر:

"أراك جاهزًا الآن! اذهب يا باترك إليها، سلاحك جاهز الآن الدكتورة هنشو!"

هذا قول لم يصدر منها من قبل، وتصرف غريب من وردة. قال لها بغضب وإحساس بالمرارة:

"اخرسى."

ولكنها لم تخرس، ولم تصمت، وإنما اشرأبت برأسها، وهتفت بصوت هامس ناحية نافذة الطابق الثانى تتظاهر بأنها تنادى الدكتورة هنشو:

www.ibtesama.com

"دكتورة هنشو، تعالى.. انظرى ماذا أعد لك باترك!"

فى تلك الأثناء وصلت يدها المارقة إلى جذوته المتقدة.

يريد باترك أن يوقفها، أن يردها إلى الهدوء، فاضطر إلى استخدام يده، ووضع يداً على فمها، والأخرى تطارد يدها المتسللة، يريد أن يدفعها عن بنطاله، وبدأ يضربها على وجهها بأكمام معطفه التى تشبه الأجنحة. واشتبكت معه فى عراك، وأحست لحظتها براحة من يتخفف من أزمة: هذا ما كانت تنشده، ضرباً من الفعل، ولكن استمر فى المقاومة، حتى برهن على قوته، وأقام الدليل على جبروته، مما كانت تخشى أن يعجز عنه. ولكنه أثبت قوته، أجبرها على الوقوع على الأرض، لامست ركبتاها الأرض، ولامس وجهها الثلج، وجذبها من ذراعيها وحك وجهها فى الثلج، ثم أطلق سراحها، ولم يمكنها من نفسه.

"وردة. هل أنت بخير؟ هل أنت بخير؟ أنا آسف. وردة؟

ووسط ذهولها راحت تزيل الثلج من فوق وجهها بحكه على وجهه، ولكنه تراجع، وهى تقول:

– قبلنى! قبل الثلج! أنا أحبك!

"صحيح؟" قال بحزن، وأزاح الثلج من ناحية فى فمها، وقبَّلها، بشىء من اضطراب مفهوم. وهو يقول: "صحيح أنك تحبيننى؟".

ثم غمرهما الضوء، كما غمر الثلج المنهمر على الأرض، وكانت الدكتورة هنشو تنادى بصوت عالٍ على مقربة منهما:

"وردة! وردة!"

كانت تنادى بصوت مفعم بالإصرار والثقة، كأن وردة ضلت

www.ibtesama.com

طريقها فى ضباب قريب، وتريد أن ترشدها إلى طريق البيت.

قالت لها الدكتورة هنشو:

"هل تحبينه حقًّا يا وردة؟ لا. . فكرى جيداً فى الموضوع يا بنتى، هل تحبينه حقًّا؟"

وكان صوتها مليئًا بالريبة والجد. وأخذت وردة نفسًا عميقًا، وردت رد الممتلئ بعاطفة هادئة واثقة:

– نعم، أحبه.

– حسنًا.. إذن.

واستيقظت وردة فى منتصف الليل، وتناولت بعض ألواح الشوكولاتة. كانت تعشق الحلوى. وكثيراً ما تفكر فى حلوى "الفدج براونيز" المحشوة بالشوكولاتة، وهو ضرب من الكعك الذى اشترته الدكتورة هنشو من المخبز الأوروبى، يحشونه بكميات من الشيكولاته الثرية بالسكر الذى يسيل على صفحة الطبق. كلما فكرت فى نفسها وباترك، كلما أرادت أن تصل إلى ما يعتمل فى نفسها حقًّا، كانت هذه الرغبات الملحة تقفز إلى ذهنها.

إن وزنها يزيد الآن، وظهرت بين حاجبيها بعض البثور. كانت حجرة نومها باردة، تقع فوق الجراج، تعينه نوافذ من ثلاث جهات، ولكنها تطمئن لها، عُلِّقت فوق السرير مباشرة صور فوتوغرافية مؤطرة لسماوات إغريقية وأطلال التقطتها الدكتورة هنشو بنفسها فى أثناء رحلاتها المتوسطية.

كانت تكتب مقالاً يتناول مسرحيات "ييتس"(٢)، وفى إحدى هذه المسرحيات تغرى الجنيات عروسًا شابة بالتخلى عن مشروع زواجها المرهق الذى لا يُطاق.

www.ibtesama.com

"ابتعدى، أيتها الطفلة البشرية..." قرأت وردة وامتلأت عيناها بالدموع، تبكى على حالها، كأنها هى تلك العذراء الخجولة المحيرة، رقيقة بريئة لا قبل لها بحيل الفلاحين الذين نصبوا لها الشراك. وفى الواقع كانت هى الفلاحة المرواغة التى تصدم المثقف باترك، ولكنه لا يبحث عن مخرج.

أنزلت واحدة من تلك اللوحات الإغريقية، وراحت تشوه اللوحة حين شرعت تكتب الأبيات الاستهلالية فى قصيدة من القصائد تذكرتها وهى تقضم عمود الشوكولاتة، بينما هى نائمة على السرير، والهواء يضرب جدران الجراج، فى رحلته القصيرة من منتزه جيبونز.

Heedless in my dark womb
I bear a madman's child

غافلة فى رحمى المظلم
أحمل طفلاً لبشرى مجنون...

ولم تزد على ذلك، لم تكمل الأبيات، وكانت تتساءل فى بعض الأحيان، هل كانت تقصد "headless" بلا رأس، أو حمقاء"، ولم تعمد إلى محوها، أيضاً.

كان باترك يشارك اثنين من زملائه طلاب الدراسات العليا فى شقة واحدة. كان يعيش عيشة متواضعة، لا يمتلك سيارة، ولا ينتمى إلى جميعات أو أسر. يرتدى ملابس رثة كعادة الطلاب العاديين، وكان يقول إن أصدقاءه من أبناء المدرسين والكهنة، وكان يقول إن أباه تبرأ منه لأنه يريد أن يعمل فى التفكير، وقال أيضاً إنه لن يعمل فى التجارة على الإطلاق.

www.ibtesama.com

عادا إلى الشقة فى أول ساعات العصر بعد أن عرفا أن الطالبين الآخرين غائبان. كانت الشقة باردة، وتخلصا بسرعة من ملابسهما، واستقرا على سرير باترك، حان الوقت، ودقت الساعة، وتعلق كلٌ بالآخر، وبدأ الارتجاف والضحك النحيف الذى يصدر من وردة وليس من باترك، أحست بحاجتها إلى المرح المتصل. سرى بينهما جو من الخوف من الإخفاق، وأن شجار المحل لا بد تارك أثره، وذلك التعريض المسرف لحيلهم وخداعهم كلٌ للآخر، ولكن الحيل كانت تخصها وحدها، لم يكن باترك يحتال أبداً؛ وأنجز المهمة رغم الاضطراب الكبير، والاعتذار، ومروره بنوبات من اللهاث المربك، والتخبط الذاهل، وضربات القلب المتسارعة، قبل أن يصل إلى بر الأمان فى نهاية المطاف. ولم تكن وردة عوناً كبيراً، تقدم بدل العون استسلاماً صادقاً، وكثيراً من التلوى والشوق المصحوب بالرعشة، تظاهر لا تتقنه بعاطفة عارمة. وغشيتها سعادة لإنجاز المهمة، ولم تكن مضطرة إلى التظاهر، لقد فعلا ما يفعله الآخرون، لقد فعلا ما يفعله العاشقون. قفزت إليها فكرة الاحتفال، وأول ما عن لها أن تتناول طعاماً لذيذاً، وليكن أيس كريم بالفواكه والمكسرات فى محل بومرز، وفطيرة التفاح المعانة بصلصة القرفة الحارة، ولم تتحمس لفكرة باترك على الإطلاق: أن يظلا حيث هما حتى يستأنفا من جديد.

وعندما استجاب لنداء الرغبة فى المناسبة الخامسة، أو السادسة التى جمعتهما، كانت مستسلمة تماماً على غير العادة، توقف شبقها، وصمتت قدرتها على الإثارة.

www.ibtesama.com

وسألها باترك: "ماذا حصل؟"

وأجابته وردة: "ولا حاجة!" وعادت إلى فورتها وتألقها من جديد. ولكنها واصلت النسيان، تدخلت التطورات الجديدة، واضطرت آخر الأمر إلى الانصياع إلى ذلك الجهاد، وفى الطريق تنسى باترك بدرجات تقل وتكثر. وعندما كانت تراه كانت تمطره بسيل من كلمات العرفان والشكر؛ كلمات مفعمة بالصدق، فى أعماقها تلتمس العفو رغم الشكوك والريب.

ولكن ما سبب هذه الشكوك والريب؟ بذلك سألت نفسها وهى مستلقية فى استسلام لبحبوحة السرير بينما كان باترك مشغولاً فى إعداد كوبٍ من القهوة. فهل تشعر بما تتظاهر بأنها تشعر به؟ أهذا ممكن؟ فإذا كانت هذه الدهشة الجنسية ممكنة، فأين المستحيل؟ وباترك لا يعينها على الفهم؛ فروسيته وتواضعه، بجوار تقريعاته مما يثبط همتها. ولكن أين الخطأ؟ أليس هو خطؤها فى الأصل؟ قناعتها بأن أى شخص يقع فى حبها لا بد أن ينقصه شىء، وينحسر غطاؤه عن غبى أحمق؟ ومن ثم راحت تدون تصرفات باترك الحمقاء، رغم أنها تعرف أنها تنشد الكمال. فى تلك اللحظة، فى حجرته، تحيط به كتبه وملابسه وفرشاة تنظيف الحذاء والآلة الكاتبة، وبعض الرسومات الكاريكاتورية المثبتة على الجدران، وقفت على السرير لتتفرج، كانت رسومات مدهشة حقًّا، كان لابد أن يحتفظ بالدهشة عندما تغيب، وهى تراه جديرًا بالحب، ذكيًّا، خفيف الدم أيضًا؛ يعنى ليس بطلاً، ولا غبيًّا. ربما نستطيع أن نقول إنهما عاديان. أخطأ عند عودته حين أسرف فى الشكر والتخبط وطقوس

www.ibtesama.com

العبادة. هى لا تحب العبادة، فى الحقيقة، لا تريدها فى الواقع وإن رغبت فيها فى الحلم. من جهة أخرى لم تحب العبادة عندما شرع يصلح وينقد، لديه الكثير الذى يريد تغييره.

كان باترك يحبها، ماذا أحب فيها؟ لم يكن يحب لهجتها، التى يجتهد فى إقناعها بتغييرها، ورغم أنها كثيرًا ما تظهر بمظهر المتمرد، الخارج عن حدود المنطق، وهى تعلن أمام الجميع - ورغم البراهين المضادة - أنها لا تتحدث باللهجة الريفية، مع أن الجميع يعرفون طريقتها فى الحديث، ويعرفون طريقتها فى كل شىء، لا أقصد جرأتها الجنسية (تحرره من عذريتها، يضاهى تحررها من قدرته على المنافسة). كانت تستطيع أن تدفعه إلى النطق بكلمة ريفية، أو نبرة تشي بالتشدق. لا تمل من الحركة، ولا تتوقف عن الكلام، تعرف أنها تدمر نفسها من أجله، ومع ذلك فهو لا يشعر بالاتساق إلا معها، وحتى من خلال كل عوامل الالتهاء التى كانت تمارسها، وربما أحب صورة من صور الطاعة العمياء التى لا تشعر بها هى نفسها. كانت آماله كبيرة؛ لهجتها يمكن أن تتخلص منها، وأصدقاؤها يمكن أن يذهبوا ولا يعودوا، همجيتها يمكن أن يحد منها.

وماذا عن خصالها الأخرى؟ نشاطها المحموم، ونوبات كسلها، وكبريائها، وسخطها، وطموحها؟ لقد أخفت كل هذه الخصال. لا يعرف منها شيئًا، ورغم شكوكها فيه وريبها، لم تكن تريده أن يفرغ من حبه لها.

وقاما برحلتين.

www.ibtesama.com

ذهبا إلى برتش كولومبيا بالقطار فى أثناء أجازات عيد القيامة، أرسل أبوا باترك ثمن تذكرة القطار له، ولكنه اشترى تذكرة لوردة، مستعينًا بحسابه في البنك وقرضٍ من زميل. وأخبرها ألا تكشف لوالديه أنها لم تدفع ثمن تذكرتها. وفهمت أنه يعنى أن تخفى عنهما حكاية فقرها عندما تخفى عنهما قصة التذكرة. هو لا يعرف شيئًا عن ملابس النساء، أو أن المعرفة ممكنة إذا التمسها. لقد فعلت أقصى ما تستطيع؛ اقترضت من الدكتورة هنشو معطفها الواقى من مطر المناطق الساحلية. كان المعطف أطول منها قليلاً، ولكنه كان يناسبها رغم ذلك؛ وسبب ذلك ما تتمتع به الدكتورة هنشو من تعلق قديم بأذواق الشباب. باعت المزيد من الدم، وابتاعت بثمنه سترات مزينة بوبر الأرنب؛ فى لون الخوخ، يعوزها الترتيب، وتبدو أشبه بما ترتديه فتاة قروية صغيرة. تدرك هذه الأمور بعد الشراء، وليس قبله.

يعيش والدا باترك فى جزيرة فانكوفر بالقرب من سدنى. وعلى مسافة فدان من العشب الأخضر المجزوز فى منتصف الشتاء– ويبدو مارس كأنه منتصف الشتاء بالنسبة لوردة – ينحدر إلى جدار حجرى وشاطئ كثير الحصى ومياه مالحة. كان البيت نصفه من الحجر، ونصفه الآخر من الجبس والخشب. بُنى على الطراز التيودورى، وطُرُز أخرى مختلفة. وكانت نوافذ حجرة الجلوس وحجرة السفرة وحجرة الخلوة تواجه البحر، وبسبب الرياح العاتية التى تجتاح الشاطئ أحيانًا، كانت النوافذ مصنوعة من الزجاج السميك، أو الزجاج المكسو بالصفائح المعدنية كما خمنت وردة، مثل نوافذ معرض السيارات فى "هانراتى". كان الجدار المواجه للبحر فى حجرة الجلوس عبارة عن نافذة كبيرة،

www.ibtesama.com

تنعطف ناحية البحر على هيئة مشربية تشرف على البحر بسلام، يخيل للناظر فى الزجاج السميك المنحنى أنه ينظر فى قاع زجاجة. وكانت حجرة السفرة أيضًا تطل بانحناءة براقة ناحية البحر، وتبدو فى مثل حجم القارب. والحجم كان شيئًا ملحوظًا فى كل مكان وخاصة السُمْك. سُمْك الفوط، وسُمُك السجادات، وسُمْك المقابض: مقابض السكاكين والشوك، والصمت الكثيف. كان البيت عامرًا بكميات ضخمة جدًا من الرفاهية ومظاهر الترف، والقلق. وبعد يوم أو بعض يوم فتر حماس وردة للمكث فيه حتى شعرت بضعف فى رسغيها وكاحليها. فالإمساك بالسكين والشوكة مهمة ثقيلة، قطع أجزاء لحم البقر المشوية ومضغها فوق ما تطيق؛ شعرت بصعوبة التنفس وهى ترقى الدرج. لم تعرف فى حياتها التى عاشتها على الأرض مكانًا يشعر فيه المرء بالاختناق كهذا المكان، وشعرت أنها على حافة الموت. لم تعرف ذلك رغم ارتيادها أمكنة كثيرة لم تكن تشعر فيها بالود.

فى الصباح الأول صحبتها أم باترك فى جولة فى الأرض المحيطة بالمنزل، تطلعها على بيت النباتات، وعلى الكوخ الصغير الذى عاش فيه "الزوجان"، كوخ ساحر، تغشاه أشجار اللبلاب، مزود بمصاريع كثيرة، أكبر من بيت الدكتورة هنشو. كان الزوجان، والخدم أرقى حديثًا وأكثر تحفظًا، وأكبر وقارًا ومهابة من جميع الذين عرفتهم وردة فى "هانراتى"، والحق أنهما أرقى من أسرة باترك فى كثير من الأمور.

وصحبتها أم باترك إلى حديقة الزهور، وحديقة المطبخ، والجدران الحجرية الكثيرة المنخفضة. قالت لها أم باترك: "باترك هو الذى بنى

www.ibtesama.com

هذه الجدران. " وشرحت لها كل شيء بشيء من اللامبالاة ترقى إلى التقزز: "هو الذى بنى كل هذه الجدران. "

وجاء صوت وردة مفعمًا بطمأنينة زائفة، وشوق مصحوب بحماس فى غير محله. قالت:

– لابد أنه من الاسكتلنديين.

كان باترك اسكتلندى الأصل، رغم اسمه غير الاسكتلندى. هاجر آل بلاتشفورد من جلاسجو.

– أليس معروفًا أن الاسكتلنديين Scotsmen من أفضل بناةالحجر؟ (تعلمت فى الآونة الأخيرة التخلى عن كلمة "Scotch")، وربما كان لباترك أجدادًا من البنائين.

تراجعت وردة، تذكرت تلك الواجبات، التظاهر بالطمأنينة والبهجة، يسيرة زائفة كملابسها. ردت أم باترك:

– لا.. لا أظن أنهم كانوا من بناة الحجر.

وكأن سحابة من الضباب الكثيف غشيتها، وخرجت أنفاسها حارة متقدة بشعور بالإهانة والاستنكار والفزع. وفكرت وردة فى أن السيدة ربما شعرت بالإهانة من فكرة أن أهل زوجها كانوا يعملون فى الأعمال اليدوية. وعندما تعرفت على السيدة أكثر – أو قل: عاشرتها مدة أطول، فقد كان من المستحيل أن تعرفها حق المعرفة – أدركت أن أم باترك كانت تكره أى قول فيه غرابة أو دهشة أو وهم، أو أى شيء تتصل أسبابه بالتأمل والتخمين، أو أى شيء تتصل وشائجه بالتجريد فى أى حوار معها. أيضًا كرهت فى وردة رغبتها فى الثرثرة والإطناب. وأى اهتمام يتجاوز اعتبارات الواقع المعيش –

www.ibtesama.com

الطعام والطقس وتوجيه الدعوات والأثاث والخدم - يكون فى نظر السيدة من الإفراط والتجاوز، والتربية السيئة، والخطر. من الأصوب أن تقول مثلاً: "هذا يوم دافئ، " ولا تقل: "هذا اليوم يذكرنى عندما كنا...،" كانت تكره الناس الذين يتذكرون.

كانت أم باترك الابنة الوحيدة لأحد بارونات تجارة الأخشاب الأوائل فى جزيرة فانكوفر، هى نفسها وُلدت فى مستوطنة فى الشمال اختفت اليوم. ولكن كلما حاول باترك استدراجها للحديث فى الماضى، كلما سألها عن أبسط المعلومات وأيسر التفاصيل: ما نوع البواخر التى كانت ترسو على الساحل؟ وفى أى عام بالتحديد هجر الناس المستوطنة؟ وأين هو أول طريق سكة حديد استخدموه فى نقل الخشب؟ كانت أعصابها تهتاج، وتقول بعصبية: "لا علم لى بهذه الأمور، كيف لى أن أعرف كل هذا؟" وكان ذلك التوتر من أهم ملامح حديثها وأكثره وضوحًا.

ولم يكن أبو باترك أكثر اهتمامًا بالماضى. وكثيرٌ من الأمور، أو أغلب الأمور المتصلة بباترك يعدُّها الأب من العلامات السيئة.

- "ماذ تجنى من معرفة هذه الأمور؟"

صاح الأب المشغول بطعامه على المائدة، كان عريض المنكبين، أحمر الوجه، ميالٌ إلى العراك بدرجة مدهشة. كان باترك يشبه أمه، التى كانت طويلة، جميلة، وأنيقة، ولكن الصمت هو سيد هذه السمات جميعًا، كأنها اختارت ملابسها ومكياجها وأسلوب حياتها انطلاقًا من حيادية مثالية مستقرة فى تفكيرها وطبعها.

- لأنى مهتم بالتاريخ.

www.ibtesama.com

قال باترك بصوت غاضب فخم واضح كسره التوتر. وهنا ردت أخته ماريون دون تأخير تحاكى نبرة صوته:

– لأنى مهتم بالتاريـــخ، التاريـــخ!

كانت أختاه جوان وماريون أصغر من باترك، وأكبر من وردة، وعلى النقيض من باترك، كانتا أبعد ما تكونان عن التوتر والعصبية، ثقتهما فى نفسيهما لم تهتز، وعلى مائدة طعام سابق سألتا وردة:

– هل تركبين الخيل؟

– لا.

– هل تعرفين التجديف؟

– لا.

– هل تلعبين التنس؟ الجولف؟ تنس الريشة؟

– لا. لا . لا.

وهنا قال الأب:

– ربما كانت من كبار المفكرين مثل باترك.

وبدأ باترك فى الصياح على المائدة، ووردة محرجة ومصدومة، لا يوجه حديثه إلى أحدٍ بعينه، ولكنه يتحدث عن المنحة الدراسية المجانية التى لا تُعطى إلا للمتوفقين، والجوائز التى حصلت عليها وردة. بماذا كان يأمل أن يحقق؟ هل كان من الجهل والغباء فيظن أن مثل هذا التفاخر بهذه الأمور يثنيهم عن طبائعهم؟ ويكسبهم إلى صفه؟ وأن ينتج عنه أى شىء غير المزيد من الحقد والازدراء؟ لقد كانت الأسرة كلها حلفًا واحدًا يعادى أسلوب حياة باترك، فى صيحات تباهيه، وازدرائه للرياضة، والتلفاز، واهتماماته الفكرية

www.ibtesama.com

المزعومة. ولكن هذا الحلف كان مؤقتًا؛ فقد كانت كراهية الأب لبناته أقل حجمًا من كراهيته لباترك. فقد كان هو الآخر يحتد ويحتدم كلما حانت الفرصة، كان يهزأ من وقتهم الضائع فى اللعب، ويشكو من غلاء لوازمهم، وقواربهم، وخيولهم. وكانوا يتخاصمون ويتجادلون حول مسائل غامضة تتصل بالمعدلات والاقتراضات والخسائر. وكلهم يشكون إلى الأم الطعام الذى كان كثيرًا ولذيذًا. وكانت الأم مقلة فى كلامها، والحق يُقال: وردة لم تلمها على ذلك. لم تتخيل وردة أن يجتمع كل هذا الكم من الحق فى مكان واحد. كان بِلى بوب متعصبًا، ومتذمرًا، وكانت فلو متقلبة المزاج، ظالمة، ميالة إلى نشر الإشاعات، وكان أبوها - عندما كان على قيد الحياة - قادرًا على إطلاق الأحكام المدروسة، والاستنكار المتواصل، ولكن مقارنة بأسرة باترك، فإن معارف وردة يُعَدّون من ذوى الدعابة والقناعة. سألت باترك:

- هل هم على هذه الحال دائمًا؟ هل كل ما حدث كان بسببى؟ لا يحبوننى؟

- "لا يحبونكِ لأننى اخترتك، " أجاب باترك بشىء من الرضا.

وفى الليل رقدا على حصباء الشاطئ، يرتديان معاطفهم الواقية من المطر، يتعانقان ويتبادلان القبلات، وَسَعَيا إلى ما وراء القبلات، ولكن السعى كان مكتنفًا بالضيق والإخفاق. تبقع معطف الدكتورة هنشو ببقع الطحالب البحرية، وقال باترك:

- أعرفتِ الآن لماذا أنا فى حاجة إليكِ؟ أحتاجك بشدة!

وأخذته إلى"هانراتى". وكانت الزيارة سيئة كما توقعت بالضبط.

www.ibtesama.com

فقد اضطربت فلو اضطرابًا شديدًا، وطبخت لهما وجبة من البطاطس الإسكالوب واللفت والمقانق الريفية الضخمة، والتى كانت هدية خاصة من "بِلى بوب"، من محل الجزارة. وكره باترك هذا النوع من الطعام المشكل الغليظ، ولم يتظاهر بأنه يحبه أو يأكله. كانت المائدة مغطاة بقماش بلاستك، وتناولا الطعام تحت أضواء مصباح فلورسنت، وكانت زينة وسط المائدة جديدة وخاصة بالمناسبة. فرخ أوز عراقى من البلاستيك الأخضر الليمونى، بشقوق طولية على الأجنحة التصقت بها، وفوط ورقية ملونة. تذكر بِلى بوب أن يتناول فوطة، ولكنه أصدر صوتًا كصوت الخنزير، وتراجع. لم يكن يريد أن يرى نفسه وقد تصرف كالوجهاء. تناهت إليه الأخبار، وتناهت الأخبار إلى فلو أيضًا، عن ما أحرزته وردة من انتصار، وصلت إليهم من سادتهم فى "هانراتى"، وإلا لما صدقوها. زبائن محل الجزارة، سيدات نافذات، وزوجة طبيب الأسنان، وزوجة الطبيب البيطرى، قالوا لـ: بِلى بوب إنهم سمعوا أن وردة استطاعت أن تتزوج من مليونير. وردة كانت تعرف أن "بِلى بوب" سيعود إلى العمل غدًا محملة بحكايات المليونير، أو ابن المليونير، وأن كل هذه القصص سوف تتركز على سلوك "بِلى بوب" المستقيم، وعدم اكتراثه بالموقف، وشجاعته أمام ابن المليونير. سوف يقول: "كل ما فى الأمر أننا دعوناه للغداء، وطبخنا بعض النقانق، ولم نأبه بأصله وفصله!"

وكانت تعرف أن "فلو" ستدلى بدلوها أيضًا، وأن عصبية باترك لا يمكن أن تخطئها العين والأذن، وأن لديها القدرة على تقليد صوته، وأن يديه المرتعشتين تسببتا فى الإطاحة بقارورة "الكتشب". ولكن

www.ibtesama.com

فى هذه اللحظة جلس كلاهما إلى المائدة يلفهما صمت يثير الشفقة. حاولت وردة أن تبدأ حواراً ببعض الكلمات المتكلفة، كأنها تدير حواراً للراديو أو التلفاز، وتسعى إلى جذب انتباه اثنين من بسطاء الريف إلى المشاركة فيه. سرى فى نفسها شعورٌ بالخجل لأمور لم تكن تتوقعها؛ كانت خجلة من الطعام، والإوز العراقى ومن القماش البلاستيكى الذى كان يغطى المائدة، وكانت خجلة بسبب باترك الذى بدا كأنه مالك الحزين، وحانت منه تقطيبة واضحة عندما دفعت له "فلو" بأعواد تنظيف الأسنان، وكانت خجلة بسبب جبن"فلو" وتراجعها ونفاقها وتظاهرها؛ والأهم من ذلك كله أنها كانت خجلة من نفسها. لم تسعفها الكلمات، ولم تجد طريقة تشرح بها الموقف وتبدو طبيعية. فلم تستطع أمام باترك أن تنطق الكلمات مثلما تنطقها "فلو" و"بِلى بوب"، وأهل "هانراتى". هذه لهجة تصك أذنيها على أية حال، وتبدو أنها لا تنطوى على مجرد نطق مختلف، بل على طريقة مختلفة فى الحديث. الحديث من خلال الصياح، والألفاظ منفصلة منبورة، حتى إنك تشعر أن الناس يقصفون بها بعضهم بعضاً، يتلفظون بألفاظ وعبارات أشبه بسطور من أكثر المسرحيات الكوميدية الريفية ابتذالاً. كانوا يطلقون هذه العبارات والألفاظ، ثم يرون رد فعلها على وجه وردة، وعلى وجه باترك.

كانت تسعى إلى دفعهما إلى الحديث عن التاريخ المحلى، بعض الأمور التى كانت ترى أن باترك يجب أن يهتم بها بحكم تخصصه. بدأت "فلو" الحديث مباشرة، ولكنها وجدت الطريق وعراً، ووجدت من ينعطف بها إلى مسالك لم تكن تقصدها. قالت "فلو":

www.ibtesama.com

– الحى الذى عشت فيه أيام صباى، أسوأ مكان، كأنهم أعدوه لينتحر فيه الناس.

ولم تكن موقنة من رد فعل باترك؛ فقد سمع باترك عن رجل ذبح نفسه، "قطع شرايين حلقه"، من الأذن إلى الأذن، ورجلٍ آخر أطلق على نفسه الرصاص فلم يُقتل فى المرة الأولى، فحشى البندقية برصاصة أخرى وأطلقها على نفسه ومات، وآخر شنق نفسه بسلسلة من هذه السلاسل التى تُستخدم فى جر العربات، ولذلك استغرب الناس كيف لم تُقطع رأسه torn off؟ ولكن فلو نطقتها: "Tore off".

ثم روت قصة امرأة ماتت فى بيتها ولم يجدوها إلا بعد أسبوع من موتها، ولم يكن انتحارًا، وكان ذلك فى الصيف. وقالت لباترك: "تخيل هذا!!" وقالت "فلو" إن كل ذلك حدث على بعد خمسة أميال من المكان الذى وُلدت فيه. كانت كأنها تقدم شهادة على عدم رضاها عن مسقط رأسها، وليس رغبة منها فى إخافة باترك، ولكنها تقدم ما ينفر منه الناس على المستوى الاجتماعى على الأقل؛ ولم تكن تقصد إلى أن تفسد عليه وقته، أو تضطره إلى الرحيل. وماذا يمكن أن يفهم من هذا؟ وقال لها وهما يغادران "هانراتى" فى الأوتوبيس:

– لقد كنت على حق، هذا مقلب نفايات، لابد أنكِ سعيدة بخلاصك من هذا المكان.

وشعرت وردة على الفور أنه لم يكن ينبغى أن يقول ذلك.

وقال لها باترك أيضًا:

– طبعًا هذه ليست أمك الحقيقية، والداك الحقيقيان لا يمكن أن يتصرفا بمثل هذا الأسلوب.

www.ibtesama.com

ولم يعجب وردة هذا الرد أيضًا من باترك، رغم أن ما يقوله هو ما تؤمن به هى نفسها. ولكنه الآن يريد أن ينفى عنها انتماءها إلى مثل هؤلاء القوم، وأن يبتدع لها جذورًا مختلفة، أكثر تهذيبًا، أقرب - على الأقل - إلى بيوت أصدقائه الفقراء، بعض الكتب هنا، صينية شاى هناك، فوط وبياضات هنا وهناك، ملابس بها ذوق معين، ناس متعلمون يعتزون بأنفسهم. ثم قالت فى نفسها إنه جبان، ولكنها أقرت فى نفسها أيضًا أنها هى أيضًا جبانة، لم تعرف طريقة تتسق بها مع أهلها، ناسها، مطبخهم، وأى شىء يتصل بهم. فمنذ سنوات كانت تريد أن تتعلم طريقتهم فى الطبخ، وكانت فى حفلات المدينة تسعى إلى تسلية الأصدقاء بنوادر عن أكل الناس فى بلدها. ولكنها فى هذه اللحظة تشعر بالاضطراب والبؤس.

رغم ذلك.. بدأ ولاؤها يتشكل. الآن وبعد أن تأكدت من الرحيل، بدأت طبقة من الولاء والدفاع عن الجذور تنمو حول كل ذكرى من ذكرياتها القريبة والبعيدة، تتصل بالمحل والبلدة، وتتصل بالشقة التى كانت تسكن فيها، وتتصل بهذا الريف المسكين المغمور، وتضع ذلك إزاء ما يذكره باترك فيما يتصل بالجبال وشطآن المحيط، وقصره المبنى بالخشب والحجر، ولاؤها أقوى منه وأدعى للفخر والتشبث.

ولكن تبين أنه لم يكن يقصد إلى شىء من تلك المعانى التى اضطرب بها عقلها.

أهداها باترك خاتمًا من الماس، وأعلن أمامها أنه تخلى عن مشروعه الدراسى، وأنه لا يريد أن يصبح مؤرخًا، وأنه سيلحق بأشغال أبيه ومشروعاته، وكل ذلك من أجلها.

www.ibtesama.com

وقالت له إنها لا تحب مهنة أبيه، وقال لها إنه لابد أن يتخذ قراراً كهذا الآن، وخاصة بعد أن أصبح له زوجة يريد أن ينفق عليها.

كان يبدو أن رغبة باترك فى الزواج، حتى بالزواج من وردة، هى رغبة الأب نفسها، كشاهد على أهليته العقلية، فى هذه العائلة تختلط الكثير من خيوط الجود والتسامح مع خيوط الحقد وسوء القصد. فجأة قدم الأب عرضًا لوظيفة فى أحد محلاته، واقترح عليهما أن يشترى لهما بيتًا، وكان باترك عاجزًا عن رفض الطلب، كما كانت وردة عاجزة عن رفض تخلى باترك عن مشروعه العلمى، وكانت مبرراته بعيدة عن الماديات مثل مبرراتها تمامًا. قالت له وردة:

– هل سيكون لنا بيت مثل بيت أبويك؟

أحست أنه من الضرورى أن تبدأ معه الأسئلة على هذا النحو.

– يعنى!ربما ليس بهذا الشكل فى البداية .

– لا أريد بيتًا كهذا البيت! لا أريد أن أعيش هذه العيشة!

– سنعيش بالطريقة التى تريدينها، وسيكون لنا البيت الذى تريدينه.

قالت فى نفسها بخبث: "آه.. بشرط ألا يكون مقلب زبالة".

بنات لا تعرفهن أوقفنها وسألنها رؤية خاتمها الألماظ، وأعجبن به كثيراً، وتمنين الظفر بمثله. وعندما عادت إلى "هانراتى" لتقضى إجازة آخر الأسبوع، وحدها هذه المرة والحمد الله، قابلت زوجة طبيب الأسنان فى الشارع الرئيس، وهتفت بها:

– وردة!! مدهش! متى عدت؟ أريد أن أدعوك إلى حفل شاى، نسوة البلد كلهم يرغبن فى استقبالك فى حفل شاى!

www.ibtesama.com

هـذه المرأة لم تـتـحـدث إلى وردة أبدًا من قبل، ولم تظـهـر علامة واحدة من قبل على أنها تعرفها من الأصل. الطرق مفتوحة الآن أمام وردة، والحواجز بدأت تتداعى وتزول، وردة - وكان ذلك أسوأ ما فى الموضوع، موضع العار فيه - بدلاً من إفحام زوجة طبيب الأسنان، يستولى عليها الخجل، ويحمر وجهها، وعلى استحياء تبرز خاتمها الماسى وهى تقول: هذه فكرة جميلة. وعندما كان الناس يقولون إنها لابد أسعد مخلوقة فى البلد، لم تكن هى مؤمنة بذلك، المشكلة فيها هى. كانت تزوم وتحتد وتحول نفسها إلى مجرد خطيبة دون مشكلة. كان الناس يسألونها أين ستسكن، فتجيبهم بأنها سوف تعيش فى برتش كولومبيا! مما يزيد الحكاية غموضًا، فمن قال إن البلد هناك جميلة، أليست هى البلد التى ينحسر عنها الشتاء طوال العام؟

وتصيح وردة:

- آه، نعم! أوه، لا!

استيقظت وردة مبكرًا، وارتدت ملابسها، وخرجت من الباب الجانبى فى جراج الدكتورة هنشو، الوقت أبكر من مواعيد انطلاق الأوتوبيسات. انطلقت فى شوارع المدينة تقصد شقة باترك. عبرت الساحة الكبيرة. وحول النصب التذكارى لشهداء حرب جنوب أفريقيا كلبان كانا يتواثبان ويلعبان، وعجوزٌ تقف ممسكة بمقوديهما، وكانت الشمس تستهل رحلة الصعود، ترسل أشعتها الذهبية إلى البيوت الشاحبة، وكان العشب محملاً بالندى، وفى ثناياه تتألق أزهار النرجس.

www.ibtesama.com

واتجه باترك إلى الباب، منكوش الشعر، مقطب الجبين، لم يتخلص من سطوة النوم، يرتدى بيجامته المخططة الرمادية المائلة إلى الحمرة، وهتف بها:

– وردة! ماذاحدث؟

ولم تستطع الجواب، جذبها إلى داخل الشقة، وطوقته بذراعيها، وأخفى وجهه فى صدرها، ثم قالت له:

– باترك، من فضلك، لا تُكْمل الزواج منى.

– أنت مريضة؟ ماذا حدث؟

أعادت ما قالته، بصوت أكثرثقة:

– من فضلك لا تمض فى الزواج منى.

– أنت مجنونة.

ولم تستغرب منه هذا الاتهام، بدا صوتها لحنًا غريبًا، متملقًا وسخيفًا. بمجرد أن فتح الباب، وواجهت حقيقته، عيناه المفعمتان بالنوم، وبيجامته، عرفت أن ما جاءت من أجله ضخم ومستحيل. جاءت لتشرح له كل شىء، وها هى عاجزة، لم تستطع التعبير له عن حاجتها إلى من يأخذ يدها إلى ما تبغى وتريد، لم ترَ فى صوته عونًا، ولا فى تعبيرات وجهه ما يشجع على الإقدام. هتف بها:

– ماذا دهاك؟ماذا حدث؟

– لا شىء. . لم يحدث شىء.

– كيف وصلت إلى هنا؟

– مشيت.

www.ibtesama.com

كانت تقاوم رغبة فى دخول الحمام، شعرت أن ذهابها إلى الحمام يمكن أن ينال من قضيتها التى جاءت من أجلها، ولكن للضرورة أحكام، وقالت له فى يسر وانفتاح:

– لحظة، سأذهب إلى الحمام وأعود.

وعندما عادت من الحمام كان باترك مشغولاً فى إعداد القهوة، بدا رقيق الحاشية، ومأخوذاً بما حدث. ثم قال لها:

– لم أكن نائماً تماماً فى الواقع، اجلسى الآن، أولاً هل الطمث فى بدايته عندك؟

– لا.

ولكن الذعر تملكها حين تذكرت أن الدورة الشهرية فى بدايتها، وأن ذلك لن يخطئه؛ لأنه يعرف هذه الأمور من الشهر الماضى.

–فإذا لم تكن فترة الطمث، ولم يحدث شىء ضايقك، فما هذا الذى تقولينه؟

– "لا أريد أن أتزوج. " كانت هذه العبارة بديلاً عن عبارة: "لا أريد أن أتزوجك. "

– ومتى وصلتِ إلى هذا القرار؟

– منذ فترة طويلة. هذا الصباح.

كان حديثهما يشبه الهمس، وكانت وردة تنظر إلى ساعة الحائط، وكانت الساعة السابعة تقريباً.

– متى يستيقظ الآخرون؟

– حوالى الثامنة.

واتجهت إلى الثلاجة، وقالت:

www.ibtesama.com

- عندك لبن لهذه القهوة؟

- "فى الرف المجاور للباب. " قال باترك ذلك ولكن بعد أن ظفرت باللبن، ثم قالت له بصوت ينضح بالسذاجة المدهشة:

- أنا آسفة.

- ذهبنا نتمشى الليلة الماضية، وكان كلُ شىء على ما يرام، وهذا الصباح أراك تقولين: لا أريد الزواج، فلماذ لا تريدين الزواج؟

- لا أريد الزواج وكفى. لا أريد الزواج.

- وما هى طلباتك الأخرى؟

- لا أدرى.

وظل باترك يحدق فيها بوجه عابس، بينما هو يحتسى قهوته، لم يعد يطلب منها أن تبادله حباً بحب، تجاوز هذه المرحلة، وهنا قال لها:

- حسناً، أعرف.

- ماذا تعرف؟

- أعرف من الذى كان يتحدث معك.

- لم يتحدث معى أحد.

- لا. لا. أراهن أن الدكتورة هنشو هى التى كانت تتحدث معك.

- لا.

- بعضهم يظن أنها مفكرة كبيرة، ويحسنون الظن بها، وأن لها تأثيراً كبيراً على الفتيات الصغيرات، فى الواقع لا تحب أن يكون للفتيات اللائى يعشن معها أن يكون لهن أصدقاء من الصبية، هل هذا صحيح؟ أنت حتى الذى أخبرتنى، لا تريدهن أن يكن طبيعيات.

www.ibtesama.com

– أنت تبالغ.

– ماذا قالت لك يا وردة؟

– "لم تقل لى شيئًا. " وهنا بدأت وردة تبكى.

– أنت متأكدة؟

– آه. . باترك، اسمع، من فضلك، لا أستطيع الزواج منك، من فضلك، لا أعرف السبب، لا أستطيع، من فضلك، أنا بجد آسفة، صدقنى، لا أستطيع.

وهنا أيضًا تحول حديث وردة إلى ثرثرة ممتزجة بعصبية وصياح، وراحت تبكى، وراح باترك يهدئ من روعها:

– اش. اش! ستوقظين الناس! وسحبها إلى خارج المطبخ إلى حجرته حيث جلست على السرير، أغلق باترك الباب، ووضعت يديها على معدتها، وراحت تترنح للخلف والأمام.

– ماذ بك يا وردة؟ ماذا حدث لك؟ مريضة؟

– الموضوع صعب جدًا أن أخبرك به، وأنا لا أستطيع أن أخبرك!

– لا تخبرينى ماذا؟

– ما أخبرتك به منذ قليل!

– أقصد هل اكتشفت فجأة أنك تعانين من مرض السل أو أى مرض آخر؟

– لا!

؟قال باترك مشجعًا:

– هل هناك شىء فى عائلتك ولم تخبريه لى؟ مرض العته مثلاً؟

www.ibtesama.com

وهزت وردة رأسها واستسلمت للنحيب:

– طيب ما الذى حدث؟

عندئذٍ قالت وردة:

– أنا لا أحبك! أنا لا أحبك، أنا لا أحبك.

ثم هوت على الفراش، دست وجهها فى الوسادة، وهى تقول:

– آسفة جداًّ، آسفة جداًّ، لا حيلة لى، ولا طاقة.

وبعد دقيقة أو دقيقتين قال لها باترك:

– طيب، إذا كنت لا تحبيننى فأنت لا تحبيننى، أنا لا أجبرك على هذا.

وبدا صوته متوتراً مشوباً بالازدراء، رغم المنطق الذى تحدث به، واستمر يقول:

– أنا فقط أتساءل: هل تعرفين ما تريدين؟ لا أظن أنك تعرفين ما تريدين، لا أظن أن لديك أية فكرة عما تريدين، أنت فقط فى حالة غريبة لا أعرفها.

وهنا قالت وردة وقد بدأت تستعيد رباطة جأشها، وبصوت علت نبرته:

– لست فى حاجة إلى معرفة ما أريده!

– اشـــشـــش. أنت توقظين الناس. توقفى.

– لم أحبك لحظة واحدة. لم تحدونى الرغبة فى الارتباط بك. ما حدث كان خطأ وكفى.

– عظيم. عظيم. فهمت. فهمت.

– ما الذى يرغمنى على حبك؟ لماذا تتصرف كأنى أعانى من

www.ibtesama.com

مرض فىّ أو فى أسرتى عندما قلت لك إنى لا أحبك؟ أنت تحتقرنى فى والواقع، وتحتقر عائلتى، وتحتقر جذورى، وتظن أنك تشملنى بعطفك وحدبك.

قال باترك:

– لقد أحببتكِ فعلاً، وأنا لا أحتقركِ، أوه، وردة، بالعكس: أنا أعبدك.

قالت وردة:

– أنت جبان، متكبر.

وقفزت من على السرير بسعادة طارئة بعد أن قالت ذلك. وأحست بأن روحها تعود إليها، وأنها فى كامل طاقتها، وأن لديها المزيد، المزيد الرهيب، واستمرت تقول:

– أنت حتى لا تعرف كيف تمارس الحب بطريقة صحيحة، وهذه كانت من ضمن الأمور التى أريد أن أهرب منها منذ البداية، وكنت حزينة من أجلك. ثم إنك لا ترى إلا تحت قدميك، ودائمًا تصطدم بالأشياء فى طريقك، والسبب هو أنك لا تهتم بشىء، وأنك سجين نفسك، محبوس فى ذاتك، ودائم التفاخر، شىء غبى جدًا، وحتى التفاخر لا تتقنه، وإذا أردت أن تقنع الآخرين لا تنجح فى ذلك، طريقتك فى فعل ذلك تضحكهم، وتصبح أنت موضع سخرية الجميع.

جلس باترك على السرير، وراح يتطلع إليها بوجهه كله، موقظًا حواسه كلها لما تقول، استولت عليها رغبة فى ضربه ضربات متتالية، ورغبة أخرى فى أن تُسْمعه أسوأ الكلمات، وأفظع العبارات، وأقسى

www.ibtesama.com

التعبيرات. أخذت نفسًا عميقًا طال فيه شهيقها، لتوقف سيل الإهانات التى أعدتها له. ثم وقد امتلأت بالشر والقسوة:

- لا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى، أبدًا!

وعند الباب تحولت بوجهها إليه، وهتفت فى صوت منخفض مفعم بالأسى:

- وداعًا.

كتب لها باترك رسالة تركها لها يقول فيها:

لا أفهم ما حدث أول أمس، وأريد أن أتحدث معك فى الموضوع، ولكنى أقترح أن ننتظر أسبوعين لا يرى فى أثنائهما كلٌ الآخر ولا يتحدث معه، ثم نرصد مشاعرنا فى نهاية هذين الأسبوعين.

كانت وردة قد نسيت مسألة رد الخاتم الألماظ إلى صاحبه عندما خرجت من شقته والعمارة كلها فى ذلك الصباح، كانت لا تزال ترتديه، لم تستطع العودة، وفكرت أن إرساله عبر البريد أفضل بكثير. ولكنها استمرت تلبسه؛ فى الأغلب لأنها لم ترغب فى إخبار الدكتورة هنشو بما حدث، وأحست براحة حين أرسل لها باترك تلك الورقة. قالت فى نفسها: الآن أستطيع أن أرد إليه خاتمه.

تذكرت ما قاله عن الدكتورة هنشو، وقالت فى نفسها إن ما قاله عن الدكتورة هنشو ينطوى على بعض الحق، وإلا فلماذا لا تريد أن تخبر الدكتورة هنشو أنها هى التى أفسدت عليها ارتباطها بباترك، لا طاقة لها على الاستماع إلى موافقة الدكتورة هنشو على ما حدث، وربما تهنئتها المغلفة بالإحجام المزيف.

ذات يوم أخبرت الدكتورة هنشو بأنها لا ترى باترك فى أثناء

www.ibtesama.com

امتحاناتها، كانت وردة تعرف أن ذلك كان يسعدها أيضًا.

لم تخبر أحدًا بأن وضعها قد تغير، فلم تكن الدكتورة هنشو وحدها التى تريد أن تعرف، لا تريد أن تستسلم للحاسدين؛ فالتجربة كلها جديدة عليها.

فكرت فى اللحظة القادمة، ففى وسعها أن تواصل الإقامة عند الدكتورة هنشو، بدا لها أن التخلص من باترك معناه التخلص من الدكتورة هنشو، وهى لا تريد أن تسكن فى الكلية، وسط أناس يعرفون ما كان من أمرها مع باترك، ومع فتيات يسعين إلى تهنئتها وهن يقلن إن موضوع الارتباط بباترك لم يكن سوى حظ عارض. من هنا حان البحث عن وظيفة.

وفر لها مدير إدارة المكتبات وظيفة فى أثناء الصيف، ولكن ذلك كان بتوصية من الدكتورة هنشو. ولكن ماذا تفعل عندما تهجر الدكتورة هنشو، وتهجر باترك، تتغير الأمور. كانت تعرف أنها بدلاً من الدراسة والمذاكرة استعدادًا للامتحانات، كان يجب أن تكون فى وسط المدينة الآن، تتقدم لوظيفة سكرتيرة، أو موظفة فى مكتب تأمينات، أو تعبئ استمارة تقدم للعمل فى مصلحة التليفونات، أو حتى فى المحلات الكبرى. أرعبتها الفكرة، واصلت الدراسة، إن الشىء الوحيد الذى تحبه حقًّا، وتتقنه، فهى فى النهاية طالبة منحة دراسية.

وفى عصر أحد أيام السبت، عندما كانت تعمل فى المكتبة، رأت باترك. لم تره مصادفة. لقد ذهبت إلى الطابق الأرضى، حريصة على ألا تحدث ضوضاء وهى تهبط الدرج اللولبى المعدنى. وبين الأرفف

www.ibtesama.com

فى وسعها أن تقف، وسط ظلمة جزئية، وترى ما بداخل مقصورته الدراسية. لم تر وجهه، رأت رقبته الطويلة القرنفلية، والقميص القديم المزين بنقوش على هيئة مربعات الذى كان يرتديه فى أيام السبت. رقبته الطويلة، وأكتافه النحيلة. لم يعد يثير أعصابها، ولم يعد تخشاه أو تهابه، تحررت من تلك المشاعر كلها. لم يسع إلى كسب عطفها، ولم يجبرها على شىء، ولم يحدث أن ضايقها بسيل التليفونات والخطابات. لم يأتِ ويجلس على عتبة بيت الدكتورة هنشو. كان شخصًا كريمًا معتزًّا بنفسه، وهو لن يعرف كم كانت تقدر فيه ذلك، وكم هى ممتنة لذلك. الآن هى تشعر بالخزى لسيل الإهانات التى أطلقته فى وجهه، ولم تكن حتى صحيحة، أو على الأقل كلها. فلقد كان يعرف كيف يمارس الحب. تأثرت جداً لدى رؤيته، تأثرًا ممتزجًا بالحزن، حتى إنها فكرت فى أن تعطيه شيئًا، جائزة مذهلة، من شأنها أن تعيد الأمور إلى أصلها، وتمحو شقاءه.

ثم جالت فى رأسها صورتها المبتغاة، تخيلت نفسها تعدو فى خفة العصافير إلى مقصورة باترك، وتحيطه بذراعيها من الخلف، وتعيد إليه كل ما سلبته فى الأيام المنصرمة. فهل يقبل ما لديها من بضاعة غائبة، وهل لا يزال يتوق إلى العودة؟ رأت نفسها وباترك يضحكان ويبكيان، يفسران ويتبادلان العفو: أحبك، أحبك بجد، العفو، لقد كنت فظيعة، لم أكن أقصد ما قلت، لم أكن إلا مجنونة عابرة، أحبك، العفو. صورة ملؤها الإغراء الذى لا يُقاوم، داهمتها رغبة فى القفز من فوق تل من التلال، أو يطويها فراشٌ دافئ قوامه العشب الناعم والزهور الحفية، لم تعرف شيئًا من أمرها.

www.ibtesama.com

كانت مقاومتها واهية، ومناعتها ضعيفة، فلم تملك نفسها، وفعلتها.

عندما تتذكر وردة تلك اللحظات المنصرمة فى حياتها، وتتحدث عنها - فقد مرت بفترة، شأن أغلب الناس فى هذه الأيام، تتحدث فيها بحرية عن قراراتها الخاصة جداً التى اتخذتها، لأصدقاء وعشاق ومعارف حفلات لن تراهم مرة أخرى، وهم يفعلون الشىء نفسه - قالت إن تلك العاطفة التى تندلع بين زملاء الدراسة غلبتها تماماً؛ فلم تجد من يحميها من مشهد الرقبة العارية المنحنية على الأوراق. بعدها تمادت فى الوصف، وقالت إنها الرغبة المفرطة، والطمع. قالت إنها اندفعت نحوه كالمجنونة، وتشبثت به، وغلبته على شكوكه، قبلته وبكت وعادت إليه كأن شيئاً لم يحدث؛ لأنها لم تكن تعرف ماذا تفعل بدون حبه، وبدون وعده الذى قطعه على نفسه أن يتولى رعايتها، كانت خائفة من العالم، طغى عليها شعور بالرهبة من الآخرين، والعجز عن التفكير فى المستقبل. وعندما رأت العالم من منظور المال والأعمال، أو فى صحبة الخبراء بذلك، قالت فى نفسها إن الوجهاء من أعضاء الطبقة المتوسطة هم وحدهم أصحاب الحق فى الاختيار، وقالت إنها لو كانت تملك ثمن تذكرة القطار إلى تورنتو لتغيرت حياتها كلها.

وقد تحدث بعض التعديل فى القصة فيما بعد، فلم لا تبعثه إلى سعادته الأولى من جديد؟ تقول: إنها لم تستطع أن تصمد أمام اختبار القوة الأول الذى ادخرته لها الأقدار، ثم تقول إنها دفعت ثمن ضعفها، وإنها وباترك تزوجا لعشر سنين، وإنهما - فى أثناء تلك

www.ibtesama.com

السنين - تكررت مشاهد الإخفاق الأولى والصلح، وفى كل مرة كانت تقول ما قالت فى المرة الأولى، وكانت تحرمه الأشياء نفسها التى حرمته إياها فى المرة الأولى، تعيد مشاهد كثيرة حدثت بعد ذلك. تمنت ألا يعلم الناس منها تفاصيل تجربتها كلها، ولكنها هى التى أخبرتهم بأنها كانت تضرب رأسها فى عمود السرير، وقذفت بقارب المرق إلى نافذة حجرة السفرة فتحطمت وتحطم، وأنها كانت فريسة للخوف والمرض بما اقترفت يداها، واجترحه لسانها، مرضت ورقدت فى الفراش، ارتعش جسدها المجهد، وتوسلت.. وتوسلت.. تروم عفوه، وعفا عنها، أحيانًا تلقى نفسها بين يديه، وأحيانًا تجلس معه تتناول اللحم المقدد والبيض، وتحتسى القهوة المصفاة، وطوراً مرهقة لا يستقيم لها عود، مضطربة أشد الاضطراب، يعامل كلٌ الآخر بود خجول. كانا يسألان:

- ترى ما سبب كل هذا؟

- وهل ترين أننا فى حاجة إلى إجازة؟ إجازة معًا؟ أم إجازة لكل واحد منا بمفرده؟

أو أنهما عملا معًا للنجاة من اللحظة، لاذا بالهدوء، وقالا إن الناس جميعًا يمرون بما مرا به، ويجربون ما جرباه من عثرات الزواج، ويعرفون ناسًا حولهم أمثلة على ما يدعون، لن ينفصلا إلا بعد الكثير من الضرر، لن يفرقهما إلا الموت. على الأقل لن يحدث الفراق إلا بعد أن تجد وردة وظيفة تقتات منها، وتكسب رزقها من عرق جبينها، عندئذٍ يكون لديهما السبب المعقول.

شيءٌ واحد لم تخبر به أحداً، لم تفض به إلى أحد، أنها كانت

www.ibtesama.com

أحيانًا تقول إن الأمر لا صلة له بالشفقة أو الطمع أو الجبن أو الغرور، ولكن بشيء مختلف أشد الاختلاف، رؤية كل منهما للسعادة. ولكنها لم تستطع أن تخبر الناس بذلك؛ خشيت أن يبدو ذلك غريبًا منها، ولا طاقة لها على تبريره وإقناعهم. لا تعنى أنهما اختبرا ما يختبره الناس عادة فى الزواج، حوادث عادية ومحتملة، أوقات يزينان فيها الجدران بورق الحائط، وأخرى يقضون فيها إجازات، ويتناولون أطعمة، ويخرجون فى جولات شراء، ويهتمون بمرض طفل، ولكن إمكانية السعادة، السعادة التى هى مصدر الدهشة كلها. ثم تتخيل أنهما بُعثا من جديد، ولكن مع تغيير فى الطبع، وردة وباترك يتألقان بالطيبة والبراءة، لا يرى كلٌ الآخر، ربما كان هو باترك الذى رأته عندما لم تكن تعرفه، وهو لم يرها عندما أمعنت النظر فى مقصورته الدراسية، ربما كان هو، وربما تركت المقصورة دون كلمة واحدة.

كانت تعرف أنها تراه على هذه الصورة، تعرف ذلك جيدًا؛ لأن هذا حدث مرة أخرى. كانت فى مطار تورنتو، فى منتصف الليل، وكان ذلك بعد تسع سنوات من طلاقهما. لقد أصبحت مشهورة الآن، وجه معروف عند الكثيرين فى الدولة كلها. أصبح لها برنامج تلفزيونى تحاور فيه رجال السياسة والفن والكُتّاب والشخصيات المهمة، وتحاور فيه كثيرًا من الناس العاديين الذى يريدون التعبير عن سخطهم على الحكومة، وغضبهم من الشرطة، أو حنقهم على نقابة من النقابات. وأحيانًا تدير حوارات مع ناس رأوا أشياء غريبة تطير فى السماء كالأطباق الطائرة وما إلى ذلك من الغرائب، أو

www.ibtesama.com

وحوشٍ تجرى فى الشوارع، وناس لديهم إبداعات أدبية لا يعرفون لماذا ترفض دور النشر نشرها، أو مجموعات فنية لا تريد المعارض استقبالها، أو ناس يستقرون على عادات غريبة لا يريدون الفكاك منها رغم الحداثة.

كانت وحدها، لم يكن فى استقبالها أحد؛ فلقد استقلت طائرة غير طائرتها الأصلية التى تأخرت فى "يلونايف"، كانت مرهقة يعلوها التراب، ورأت باترك فى ساحة القهوة واقفًا ظهره فى مواجهتها. كان يرتدى معطفًا واقيًا من المطر، زاد وزنه ولكنها عرفته فى الحال، وتملكها الشعور نفسه بأنه ذلك الشخص الذى ارتبطت به، وطافت برأسها التخيلات، وأن ساعة الزمن تتقهر إلى الوراء بلمسة ساحر، فيجد الواحد منهما الآخر، ويفعلان ما ليس منه بد، كل ما عليها أن تذهب إليه، وتضرب على عاتقه ضربًا رفيقًا، يرده إلى دهشة المفاجأة بالسعادة المنصرمة.

ولكنها لم تفعل بالطبع، ولكنها توقفت. وقفت ساكنة عندما استدار، متجهًا إلى مائدة من تلك الموائد البلاستيكية، بمقاعدها المستديرة فى المقهى. ذهبت عنه نحافته ورثاثته الأكاديمية، وذهب سمته الذى كان يشى باستبدادية متزمتة. صقلته الأيام، حولته إلى رجلٍ هادئ، أميل إلى البدانة، يرتدى الملابس الحديثة، إلى شخص يتحمل مسئولية، راضى النفس، لين الطبع. لقد اختفت الوحمة التى كانت على وجهه. تذكرها حالها: لابد أن الإرهاق والتعب يبدوان عليها وهى فى معطفها الشتوى المتغضن الذى يشبه معاطف العسكريين، وشعرها الطويل المائل إلى البنى، وقد اندفع إلى الأمام ليحتضن وجهها، وأسفل عينيها الذى تلطخ بمسحوق سبغ الرموش.

www.ibtesama.com

وصادفت منه وجهًا مقطبًا لم ترَ مثله. وجهًا كريهًا حقًا، وجهًا بدائيًا شرسًا محملاً بالنذر، وجهًا طفوليًا مترفًا، ولكنه مقصود، كأنه قنبلة انفجرت فى الوقت المحدد لها، قنبلة انفجرت بالتقزز والاشمئزاز، شيء لا يمكن تصديقه، ولكنها رأته.

أحيانًا، عندما كانت وردة تحاور أحدهم أمام كاميرات التلفزيون، تحس فى ضيفها ميلاً إلى التقطيب. تشعر بذلك عند كل الناس، عند رجال السياسة المتقنين لمهنتهم، وعند بعض القساوسة الليبراليين ذوى الذكاء الواضح، وعند دعاة التحيز للإنسان (المحترمين)، وعند ربات البيوت الذين ابتُلوا بكوارث طبيعية، وعند العمال الذين قاموا بأعمال إنقاذ بطولية، أو تعرضوا لمرض مقعد ولم يحصلوا على معاشهم. هم أنفسهم تواقون إلى التدمير وإلى التقطيب والتكشير والنطق بكلمات السوء. هل كان ذلك هو الوجه الذى يريدون أن يقابلوا به أحداً من الناس، أو الناس جميعًا؟ لن يقدروا على هذا، ولن تسنح لهم فرصة. شروطها ظروف بعينها، مكان أسطورى متوهج بالحركة، منتصف ليل، وإرهاق يفضى إلى اضطراب وهذيان، وظهور شيطانى مفاجئ لعدوك اللدود. من يستطيع؟

وتسارعت خطواتها على الممر الطويل المزدان بالألوان، ترتجف. لقد رأت باترك؛ ولقد رآها باترك، وكان هو الذى قطب فى وجهها. ولكنها عجزت عن فهم العداء، كيف أصبح عدوًا؟ من ذا الذى يكره وردة إلى هذا الحد، فى الوقت الذى تريد فيه أن تأتى بنواياها البريئة، وابتسامة الاعتراف بالإرهاق، وروحها الحيية المحملة بالثقة فى حديث المودة والسلام؟

باترك استطاع!آه.. فعلها باترك.

www.ibtesama.com

هوامش:

(*) أسطورة لا يُعرف مصدرها تروى قصة الملك كوبيتوا الذى لم يكن يهتم بالنساء، إلى أن رأى فتاة متسولة ترتدى الملابس الرمادية، ووقع على الفور فى حبها، واتخذها ملكة. يُشار إلى الأسطورة بعنوان: "الملكة الخادمة المتسولة". وقد استلهم الأسطورة كثيرٌ من الأدباء والشعراء والرسامين، منهم الفنان إدوارد بيرنز جونز الذى رسم لها لوحة بعنوان: "الملك كوبيتوا والحسناء المتسولة" عام (١٨٤٤)، ومنهم الشاعر الكبير اللورد ألفرد تنسون (١٨٠٨ - ١٨٩٢)، الذى كتب قصيدة فى عام (١٨٣٣)، ونُشرتَ عام (١٨٤٢)، سماها "المتسولة الحسناء"، تقول كلماتها:

على صدرها الفتان تضع يديها
كانت أجمل من قدرة الكلمات
المتسولة الحسناء أقدمت حافية
لتقف بينيدى الملك كوبيتوا
بثوبه وتاجه أقدم الملك عليها
ليقابل المتسولة الحسناء ويحييها
"يا للعجب" هتف السادة والأمراء
"إنها أجمل حتى من النهار."
وكالقمر يسطع وراء سماوات تغطيها السحب،
رآها الجميع فى ثيابها الفقيرة؛
فمنهم من هام بالكاحلين، ومن هام بالعينين،
ومن هام بالشعر الداكن ومن هام بالقوام الجميل
فيا له من وجه فاتن، وروح ملائكية،
وفى جميع الأراضى التى لم يصل إليها أحد
أقسم الملك كوبيتوا قسماً ملكياً:
"المتسولة الحسناء هى مليكتى!"

(١) كاتب روائى إنجليزى من كتّاب القرن التاسع عشر (المترجم).

(٢) هو الشاعر الأيرلندى وليام بتلر ييتس (١٨٦٥ - ١٩٣٩)، يُعد من أعمدة الشعر الإنجليزى والأيرلندى، حصل على جائزة نوبل فى عام (١٩٢٣)، وأسس المسرح الأيرلندى الذى انتصر لقضايا الأمة (المترجم).

www.ibtesama.com

صديقة شبابى

كثيراً ما كنت أحلم بأمى، ورغم أن تفاصيل الحلم كانت تختلف، فإن دهشتى بعده لم تتغير فى كل مرة. كان الحلم يتوقف - أو هكذا كنت أظن - من فرط وضوحه، وبعثه الأمل فى نفسى، ومن فرط عفويته فى الحنان والعفو.

فى الحلم أكون فى مثل عمرى الحقيقى، أعيش الحياة نفسها التى أعيشها فى الواقع، وتصبح أمى على قيد الحياة لا تزال، والحق أنها ماتت عندما كنت فى أوائل العقد الثالث، وكانت هى فى أوائل العقد السادس. أحيانًا أجد نفسى فى مطبخ بيتنا، وتجلس أمى إلى منضُدة مشغولة بإعداد فطيرة، أو واقفة أمام حوض الغسيل الشاحب، تغسل الأطباق. وفى أحيان أخرى أجد نفسى مندفعة إليها فى الشارع، وفى أمكنة أخرى لم أتوقع أن أجدها فيها، كأن تتمشى فى صالة كبيرة جميلة فى أحد الفنادق، أو منتظمة فى طابور فى

www.ibtesama.com

أحد المطارات، إنها فى صحة جيدة على الدوام، ليست شابة تماماً، ولا خالية تماماً من مرض الشلل الذى لازمها طوال عقد أو أكثر من الزمان قبل وفاتها. ولكنها أفضل كثيراً مما كنت أستطيع أن أتذكر حتى إننى أندهشت. كانت تقول: "آه، فقط هذه الرعشة البسيطة فى ذراعى، وهذا التيبس البسيط فى ذلك الجزء من وجهى، إنه يضايقنى ولكنى أتجاهله."

كنت أسترد ما افتقدته فى حياة اليقظة: تلك الحيوية فى وجه أمى المشرق، وفى صوتها قبل أن تتيبس عضلات حنجرتها، وتلك المسحة الحزينة التى أسبغتها الحياة على ملامحها. وكنت أسأل نفسى: "كيف نسيت روحها العفوية المرحة، وخفة دمها، وتذمرها، وثقتها فى نفسها. "كان الحزن ينتابنى لأنى لم أرها منذ زمن بعيد؛ ولأنى نسيت فى يقظتى حقيقة أمى، وراح عقلى يتعلق بأفكار مزعجة من بنات خياله. عرفت ذلك فى الآونة الأخيرة، وكانت تأتينى إجابة أمى: "أفضل أن تعرفى متأخرة من ألا تعرفى أبداً، كنت متأكدة أنى سأراك فى يوم من الأيام."

عندما كانت أمى فى ميعة الصبا، كان وجهها فاتناً مشاغباً، وساقاها مدملجتين، دُستا فى جورب غامق من الحرير الشفاف. رأيت صورة فوتوغرافية لها مع تلاميذها؛ كانت تعمل مُدَرِّسة فى مدرسة من فصل واحد تُدعى مدرسة چريفز فى وادى أوتاوا. كانت المدرسة تقع فى ركن فى مزرعة تنتمى إلى أسرة چريفز، وهى مزرعة ممتازة مقارنة بمستوى هذه المدينة الصغيرة. خلت الأرض من الصخور القديمة التى تتحرش بالتربة، ونهرها الصغير تحفه أشجار

www.ibtesama.com

الصفصاف الكثيفة، وتمضى على طول الغابة السكرية ومخازن ألواح الخشب، وبيت كبير تقف جدرانه الخشبية عاطلة من أى طلاء كأنها تُركت عمداً لرحمة الطقس. وإذ يفعل الطقس فعله يتحول لون الخشب - كما تقول أمى - إلى اللون البنى، ولا يتحول إلى اللون الأسود، كأن شيئًا فى الهواء يفعل ذلك. كانت تحدثنى كثيراً عن وادى أوتاوا، موطنها الأصلى، فقد نشأت على بعد عشرين ميلاً من مدرسة چريفز. عرفت من كلامها أنها تلقت تربية محافظة يكتنفها الكثير من الغموض، وفى مكان يبدو من وصفها غريبًا حقًّا. تحولت المنازل فيه إلى اللون الأسود، وشراب الإسفندان لا نظير له فى طعمه، والدببة تكثر على مرمى حجر من البيوت. ولكن عندما زرت ذلك المكان خاب أملى؛ فلم يكن واديًا بالمعنى الدقيق، إلا إذا كنت تعنى بالوادى شقًّا بين التلال. إن الحقول المستوية تختلط فيه بالصخور المنخفضة والأدغال الكثيفة والبحيرات الصغيرة، ريفٌ مضطرب يفتقر إلى النظام والتناسق بين أجزائه فلا يرقى إلى أى وصف.

تشيع مِغالق الخشب والبيوت العاطلة من أى طلاء فى المزارع الفقيرة، ولكن فى حالة مزرعة عائلة چريفز لم تكن علامة على الفقر بقدر ما كانت علامة على سياسة يتبعونها؛ كانوا يدخرون المال ولا ينفقونه، هذا ما أخبر به الناس أمى. أعضاء عائلة چريفز لا يعوزهم الحماس للعمل، ولا للعلم، ولكن مظاهر التخلف كانت ظاهرة للعيان: فليس لديهم سيارة ولاتليفون ولا كهرباء، ولا جرار. كان الناس يظنون ذلك لأنهم كامَيرونيون. كانت تلك هى الأسرة الوحيدة التى

www.ibtesama.com

تدين بهذه الديانة فى تلك البلدة، وكانوا يطلقون على كنيستهم اسم المشيخية المتجددة، ولكن هذه العقيدة - فى الواقع - لم تكن تمنع استخدام الآلات الكهربائية، أو أية مخترعات من هذا القبيل. إنها تحرم فقط لعب الورق والرقص والسينما، وفى أيام الآحاد تمنع أى نشاط إلا ما لا يمكن تجنبه.

لم تكن أمى تعرف من هم الكاميرونيون؟ ولماذا سموهم بهذا الاسم؟ كانت تقول: إنها ديانة غريبة بدأت فى اسكتلندة. كانت أمى تدين بالإنجيلية الخالية من مثل هذه الغرائب. كانت المُدَرِّسة تنام عادة مع عائلة چريفز وتأكل معهم، وكانت أمى تخاف قليلاً من فكرة الذهاب والعيش فى ذلك البيت الأسود، وأيام الآحاد المشلولة فيه، والمصابيح المضاءة بالزيت، والأفكار البدائية الغريبة. ولكنها كانت قد ارتبطت بهم، وهى تريد أن تعمل لتجهز نفسها للزواج بدلاً من التجول فى المدينة وتضييع الوقت. كانت تستطيع أن تأخذ يوم الأحد إجازة من كل أسبوعين. فى أيام الآحاد يمكنك أن تشعل النار عند عائلة چريفز للتدفئة وليس للطبخ، ولا يمكنك أن تغلى الماء لعمل شاى، أو تكتب رسالة، أو تقتل حشرة. ولكن تبين أن أمى كانت معفاة من هذه القيود. وكانت فلورا چريفز تقول لها وهى تضحك: "لا. لا. نحن لا نعنيك بهذه القيود، افعلى ما تعودت عليه، " وبعد فترة انعقدت أواصر الصداقة بين أمى وفلورا، كانت من القوة بحيث إنها لم تعد إلى البيت فى أيام الآحاد كما خططت.

كانت فلورا وإيلى الأختين الباقيتين من عائلة چريفز، كانت "إيلى" متزوجة من رجل يُدعى روبرت دِل، وكان يعيش معها ويدير المزرعة،

www.ibtesama.com

ولكن اسمها ظل باسم عائلة چريفز رغم ذلك، وقد فهمت أمى مما قاله الناس إن الأختين چريفز وروبرت دل كانوا فى أواسط العمر. ولكن إيلى - الأخت الصغرى - فقد كانت فى الثلاثين، وكانت فلورا تكبرهما بسبع سنوات أو ثمانى سنوات، وربما كان روبرت دل بين هذا وذاك.

كان المنزل مقسمًا على نحو لم تتوقعه أمى؛ فلم يكن الزوجان يعيشان مع فلورا، فقد كانت غرفة الاستقبال وحجرة الجلوس وحجرات النوم الأمامية وبئر السلم والمطبخ الشتوى من نصيبهما. وكان المطبخ الصيفى بنوافذه الخشبية المفتوحة وجدرانه التى يظهر عليها الطوب عاطلاً من أى طلاء، من نصيب فلورا. ولم يحتج الفريقان إلى قرار بخصوص الحمام إذ كان هناك أكثر من واحد. أما خزانة المؤن فقد قُسمت إلى حجرتين: واحدة للميعشة وأخرى للصالون، بقيت حجرتان فى الجانب الخلفى كانت إحداهما من نصيب أمى. كانت المُدَرِّسة تسكن مع فلورا فى الجزء الأفقر من البيت، ولكن أمى لم تكن تعبأ، فقد فضلت فلورا وخفة ظلها على هدوء الحجرات الأمامية وطابعها المَرضِى. (لم يكن كلُ شىء ممنوعًا فى عالم فلورا الخاص فقد احتفظت بلوحة كروكينول، وعلمت أمى كيف تلعب هذه اللعبة).

كان التقسيم قد تم طبعًا على أساس أن روبرت وإيلى سيكون لهما أسرة وأنهما سيحتاجان إلى الحجرة، ولكن ذلك لم يحدث؛ فقد مضى على زواجهما أكثر من اثنى عشر عامًا ولم ينجبا طفلاً واحدًا حيًا. حملت إيلى المرة تلو المرة وخرج مولودها الأول والثانى ميتين وتم إجهاض الباقين. وفى أثناء إقامة أمى هناك لاحظت أن إيلى

www.ibtesama.com

تمكث فى الفراش أكثر من اللازم، وكانت أمى تظن أنها حامل، ولكن أحداً لم يتحدث فى هذا الأمر، هؤلاء الناس لا يتحدثون فى هذه الأمور، ولا تحس ذلك من منظر إيلى وهى تنهض وتتمشى؛ فقد كانت ملابسها ملتصقة على جسدها فيما عدا بلوزتها الفضفاضة. كانت تحمل معها رائحة فراش المرض، تثرثر مثل الأطفال عن كل شىء. كانت فلورا تقوم على خدمتها ورعاياتها؛ تغسل الملابس كلها، وتنظف الحجرات، وتطبخ الوجبات لكلا الفريقين، وتساعد روبرت فى الحلب، وفصل القشدة عن اللبن. وكانت تستيقظ قبل الفجر ولا تتعب أبداً، وتتذكر أمى أن أول أسبوع قضته معهم رأت فلورا وهى تقوم بحملة تنظيف شاقة، تنظف السلالم بنفسها، تحمل نوافذ العواصف وتغسلها وتعيدها إلى أماكنها، وتحمل الأثاث من كل حجرة على حدة وتبدأ فى تنظيفها بعد ذلك، ثم تعمد إلى الأرضيات فتلمعها وتنظفها. كانت تغسل كل طبق وكل آنية زجاجية موجودة على الموائد أو فى الخزائن حتى لو كانت نظيفة، وتضع الملاعق والشوك والآنيات فى الماء المغلى لشطفها. إن طاقة غريبة تتملكها فلا تنام. كانت أمى تستيقظ من صوت أنابيب الموقد وهى تقوم بفكها، أو صوت المكنسة وهى تضرب بها نسيج العنكبوت فى زوايا الجدران، ومن خلال النوافذ المغسولة العارية من الستائر تتسلل خيوط الضياء كأنها الأصابع. وبعد ذلك تنام أمى فى ملاءات تم تبييضها وغسلها فى النشا مما كان يزعجها، وكانت إيلى المريضة لا تمل الشكوى من رائحة الورنيش ومساحيق الغسيل. إن يدى فلورا خشنتان، وحماسها لا يفتر، وكان منديلها ومريلتها و"أفرولها" الذى أعطاه لها

www.ibtesama.com

روبرت لتقوم بالمهام التى تحتاج إلى تسلق يجعلها تبدو كممثل فكاهى، أو رياضية من الدرجة الأولى.

كانت أمى تسميها الدرويش الدوار، وتقول لها: "أنت درويش لا يمل من الدوران يا فلورا، " وتتوقف فلورا قليلاً، تريد أن تفهم ماذا يعنى هذا، وتشرح لها أمى مع حرص على ألا تجرح مشاعرها الدينية، ولم يكن ذلك الحرص فى محله؛ ففلورا لم تتضايق ولم تخف من فكرة أنها درويش، بل راحت تقول لأختها:

– تعرفين ماذا قالت المُدرِّسة؟

كانت فلورا وإيلى تتمتعان بشعر أسود وعيون عسلية وطول فى الساقين ونحافة فى المنكبين، أما إيلى، فقد دمرها المرض طبعًا، وظلت فلورا طويلة القامة، رشيقة الحركة. إنها تبدو كأميرة وهى تستقل العربة فى طريقها إلى المدينة؛ فهم يضطرون إلى نقل حقائب من الصوف، أو بضاعة يريدون عرضها للبيع، ويضطرون أيضًا إلى إحضار مؤن من المدينة. كان روبرت يركب فى المقدمة لكى يمسك بزمام الحصان – تستطيع فلورا أن تقود الحصان بكل جدارة – ولكن يجب دائمًا على الرجل أن يفعل ذلك. تقف فلورا فى الخلف ممسكة بالزكائب كى لا تقع، تذهب إلى المدينة وتعود منها واقفة وبالكاد تحتفظ بتوازنها فوق العربة، ترتدى قبعة سوداء تبدو فيها، كما تقول أمى، مثل ملكة الغجر بشعرها الأسود، وجلدها الضارب إلى السمرة من مصافحة الشمس، وهدوئها الناعم وجرأتها رغم ذلك كله، لا ينقصها غير السوار الذهبى فى معصمها والملابس البراقة. كانت أمى تحسدها على نحافتها وحمرة خديها.

www.ibtesama.com

وعندما عادت أمى إلى عملها فى بداية العام التالى، علمت ما كان من أمر إيلى.

قالت فلورا:

- أختى عندها ورم.

لم يكن أحد يعرف السرطان فى ذلك الوقت.

كانت أمى قد سمعت عن ذلك قبل أن تخبرها فلورا؛ فقد عرفت كثيرين من أهل الحى خلال إقامتها، ونشأت صداقة حميمة بينها وبين سيدة كانت تعمل فى مكتب البريد، ورشحتها أمى لتكون وصيفتها ليلة عرسها. كان الناس يتداولون قصة فلورا وإيلى وروبرت بأشكال مختلفة، ولم تشعر أمى أن ما يُقال عن فلورا نميمة ما دام لا يحط من قدرها، وهو الأمر الذى لا تقبله. والحق يُقال: إن أحدًا لم يقل سوءًا فى حق فلورا؛ فالجميع يتحدثون عنها كقديسة حتى عندما تشتط وتقوم بتقسيم البيت.

عمل روبرت عند عائلة چريفز أشهر متعددة قبل أن يموت والد فلورا، تعرفوا عليه فى الكنيسة. "أوه، هذه الكنيسة!" تقول أمى. حضرت الصلاة فيها بدافع حب الاستطلاع، مبنى كئيب يبعد أميالاً عن الجهة الأخرى من المدينة، لا آلة موسيقية، ولا بيانو، وزجاج نوافذها أملس خالٍ من الزخرفة، وقس خرف عجوز تطول مواعظه بالساعات، ورجل يضرب على شوكة رنانة فى أثناء الغناء. "قدِم روبرت من اسكتلندة، وتوقف وهو فى طريقه إلى الغرب عند بعض أقاربه ومعارفه، أعضاء فى طائفته الدينية قليلة العدد، وربما أتى ليعمل لدى عائلة چريفز من أجل بعض المالوما لبث أن ارتبط بفلورا.

www.ibtesama.com

لم تكن تحب الذهاب إلى حفلات الرقص، أو الحفلات الخارجية مثل بقية المحبين، فكانا يذهبان - بدلاً من ذلك - في تمشيات طويلة بصحبة إيلي. كانت إيلي في ذلك الوقت فتاة صغيرة، سهلة الإثارة، طويلة الشعر، سليطة اللسان، طائشة، ومليئة بطاقة وثابة. كانت تجري بين التلال، وتضرب سيقان آذان الدُب بعصا في يدها وهي تصيح، وتتخيل أنها محارب قديم على ظهر جواد، أو أنها الجواد نفسه. كانت في الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة، ولا يستطيع أحدٌ زجرها غير فلورا. وكانت فلورا - عادة - تضحك من تصرفاتها لكثرة تعودها عليها، وكانت تشك في سلامة عقلها. كانا مغرمين كلٌ بالآخر، وكانت إيلي بجسمها الطويل الممتلئ ووجهها الأسيل الشاحب نسخة من فلورا تقريباً، تشابه تجده دائمًا في بعض الأسر، وبسبب بعض الإهمال والمبالغة في اللون يذهب جمال أحدهما إلى الآخر. ولكن إيلي لم تكن تُغار من فلورا، بل كانت تمشط لها شعرها وتضع الماسكات عليه، وكانت إيلي تمسح بوجهها على رقبة فلورا مثل مهر يحك أنفه على جسد أمه في دعة ودفء. وعندما خطب روبرت فلورا - لا يعرف أحدٌ كيف تم ذلك - وكان يجب أن يصطحب إيلي دائمًا، لم تر أمي أية غيرة من ناحية إيلي تجاه روبرت، بل كانت تتسلل خلفهما وتكمن لهما في أجمة، أو تخرج عليهما وتضربهما على ظهريهما. كانت فظة في مزاحها، وكثيراً ما كان ذلك يضعها في حرج مع أبيها. ولكن فلورا كانت تدافع عنها دائمًا. والآن تضع الأشواك في سرير روبرت، وتضع الشوكة والسكين في غير مكانهما عندما تجلس إلى المائدة، وتنقل سطل

www.ibtesama.com

اللبن فيأخذ القديم المفتوح، ومن أجل خاطر فلورا كان روبرت يغض الطرف.

دفع الأب بفلورا وروبرت إلى أن يؤجلا زواجهما عامًا كاملاً، وبعد وفاته لم يستطعا، وظل روبرت فى المنزل دون أن يسأل فلورا عن موعد الزفاف، وبدلاً من تقديم زواجها أجلته إلى الصيف بدلاً من الربيع حتى يكون هناك عام كامل بين وفاة الأب والزواج، عام بين الجنازة والعرس. كانت تثق فى صبر روبرت وطهارتها.

ولكن حدث ما اضطربت له الأسرة فى الشتاء، بدأت إيلى تتقيأ وتبكى وتجرى هنا وهناك، أو تختفى فى شونة التبن وتصرخ وتتشنج عندما يجدونها فتقفز إلى أرض الشونة وتجرى وتدور فى حلقات وتتدحرج فى الثلج المتراكم. كانت إيلى فى خطر، فاضطرت فلورا إلى استدعاء الطبيب، وأخبرته أن حيض أختها قد توقف، وقد يكون الدم الراجع هو سبب جنونها. وكان على روبرت أن يمسك بها هو وفلورا، ويشدان وثاقها إلى السرير. فقد أعرضت عن الطعام، وراحت تلطم وجهها وتنتحب كأنها على وشك الرحيل دون أن تذكر السبب. ولكن الحقيقة ظهرت على أية حال، ليس من الطبيب الذى لم يستطع الاقتراب منها بما يكفى لفحصها بسبب حركاتها العنيفة، ربما جاءت الحقيقة على لسان روبرت نفسه، وعندما شمت فلورا رائحة الحقيقة عرفت أنه لابد من زواج إيلى من روبرت، رغم أنه لم يكن الزواج الذى خُطِّط له.

فلا "تورتة"، ولا ملابس جديدة ولا رحلة تنزه ولا تهانى، مجرد هرولة إلى منزل القس، وظهور أسماء العروسين فى الجريدة المحلية،

www.ibtesama.com

وخلط المحرر بين اسمى الأختين، فاعتقد الناس أن فلورا هى العروس. زواج على عجل لفلورا؟... لماذا؟ أما فلورا فقد قامت بِكَىْ بدلة روبرت، وإخراج إيلى من السرير، ومساعدتها على أخذ حمامْ وجعلها مقبولة الشكل، وسمحت لفلورا أن تُعَدِّل من شأنها كأنها أعدت نفسها للزواج ولم يظهر عليها الجنون بعد ذلك.

قامت فلورا بتقسيم البيت بنفسها، وساعدت روبرت فى بناء الأقسام الضرورية. لقد أخذ الجنين دورته كاملة فى الحمل، ولم يدَّعِ أحد أنه وُلِد قبل ميعاده ولكنه وُلِد ميتًا بعد محاولات مضنية ومريرة فى إخراجه، وربما كانت إيلى هى التى دمرته عندما قفزت من فوق عتبة الشونة الحديدية وتدحرجت فى الثلج ولطمت خدودها. حتى لو لم تفعل ذلك فإن الناس ستجد تفسيرًا لما حدث لهذا المولود أو لغيره. فالله يعاقب الزواج السريع، أغلب الناس يؤمنون بذلك، وليس المتدينون فحسب، والله يثيب الآثمين بأطفال ميتين، أو معتوهين، أو بأطفال يُولدون بشق فى شفاههم، وبسيقان ضعيفة، أو بعطب فى القدم.

وفى حالة إيلى فإن العقوبة استمرت؛ حدث لها الإجهاض تلو الإجهاض، ثم طفل يُولد ميتًا، ثم عدد آخر من مرات الإجهاض. كانت دائمًا تحمل، وفى كل مرة تنتابها نوبات قىء تستمر أيامًا، ونوبات صداع وتشنج ومغص حاد وإغماء ودوخة. كانت تشعر بألم شديد فى كل مرة، حتى إنها لا تقوى على عمل، بل تستند إلى كرسى حين تقوم أو تقعد، أما صمتها الحيادى فقد توقف وراحت تشكو على الدوام. فعندما يأتى أحد لزيارتهم تتحدث له عن الأشياء

www.ibtesama.com

الغريبة التى تحدث لها كالصداع أو نوبات الإغماء الأخيرة. كانت تتحدث أمام الرجال والفتيات غير المتزوجات وحتى الأطفال، وكانت تخوض فى التفاصيل التى كانت فلورا تسميها خيبات أمل، وعندما يغير الناس الموضوع أو يسحبون أطفالهم بعيداً عنها فإنها كانت تحزن جداً. كانت تطلب أدوية جديدة وتسب الطبيب وتضايق فلورا وتتهمها بأنها تغسل الأطباق مع كثير من الضوضاء المزعجة التى تتسبب فيها بقصد، أو تتهمها بجذب شعرها عند تمشيطه أو استبدال الماء وبقايا السكر بأدويتها الحقيقية. ومهما قالت كانت فلورا تهدئها. كل من يزور البيت كان يسمع قصة من هذا النوع، وكانت فلورا تقول: أين ابنتى الصغيرة؟ أين إيلى حبيبتى؟ هذه ليست إيلى حبيبتى، بل فتاة أخرى كثرة الاهتياج تلبستها!!

وفى أمسيات الشتاء، وعندما كانت فلورا تنتهى من مساعدة روبرت فى ترتيب شؤون المخزن، ومن غسل ملابسها، تذهب إلى إيلى وتقرأ لها حتى تنام. وكانت أمى أحياناً تدعو نفسها لمساعدة، كأن تخيط لها شيئاً من جهاز عرسها. كان سرير إيلى فى حجرة السفرة الكبيرة حيث يتدلى مصباح الجاز فوق المائدة، وكانت أمى تجلس فى جانب من المائدة مشغولة بالخياطة، بينما فلورا على الجهة الأخرى تقرأ بصوت عالٍ، وأحياناً كانت إيلى تصيح بها: "لا أسمعك، " أو عندما تتوقف لتلتقط أنفسها: "أنا لم أنم بعد. "

ماذا كانت فلورا تقرأ؟ قصصاً من الحياة الاسكتلندية، أو قصصاً عن قنفذ البحر، أو عن صبى فقيرٍ شرير، أو قصص عن الجدات الظريفات. كان العنوان الوحيد الذى تتذكره أمى هو "ماك

www.ibtesama.com

ريچر الصغير"، لم تكن أمى تضحك عندما تضحك فلورا؛ لأن أمى لم تكن تتابع القصة جيداً، فقد كانت فى لغة اسكتلندية خشنة، وكانت أمى تتعجب لأن فلورا تتكلم على هذا النحو، فليست هذه طريقتها فى الكلام على الإطلاق.

لكن هل كانت هذه طريقة روبرت فى الكلام أيضاً؟ ربما كان ذلك هو السبب أن أمى لم ترو شيئًا عما كان يقوله روبرت. لم يضف شيئًا للمشهد، كان هناك دون ريب، يجلس فى الحجرة، وكانت التدفئة مقصورة على الحجرة الرئيسة. رأته هناك أسود الشعر، عريض المنكبين، لديه قوة حصان حرث، وجمال رزين هادئ.

كنت فلورا تقول: "هذا كل ما عندى الليلة" ثم تلتقط كتاباً آخر، كتاباً قديماً كتبه واعظ من عقيدتهم، كتاباً يحتوى أشياء لم تسمع عنها أمى، ماذا كانت تلك الأشياء؟ لم تكن فلورا تجيب، كل الأشياء التى من صميم ديانتهم القديمة الشاذة المشوهة المليئة بالأغلاط مما كان يدعو إيلى للنوم، أو يجعلها تتظاهر بالنوم بعد صفحتين لا أكثر.

لابد أن أمى كانت تعنى الكتب التى تحوى تصوير الموعودين بالجنة، والمحكوم عليهم بالنار، ومساجلات حول أوهام الحرية والإرادة، ويوم الحشر، ومحاولات الخلاص الأقرب إلى الإفلات، أو التعذيب والإخفاق، وهذه أمور يراها كثيرٌ من الناس حشداً لأفكار معقدة متناقضة، وكانت أمى تقاومها ولا تتعايش معها. كانت عقيدتها يسراً وروحها مستقرة، أما هذه الأفكار الغريبة فلم تعرها اهتماماً ولم تكن تأبه بها من قبل.

www.ibtesama.com

وكـأنـهـا كـانت تسـأل فى صـمـت: "مـا كل هـذه الـقـراءة لامـرأة تحـتـضـر؟ وكـانت هـذه أول مـرة تـنـتـقـد فـلـورا، ولا يـبـدو أنـهـا وجـدت الإجابة (وهـى أن ذلك كان الشىء الوحيد الذى يُصدق).

ومـع حـلـول الربـيـع أتت المـرضـة، هـكـذا كـانت الأمـور تجـرى فـى هذه البلدة، عندمـا يقترب النـاس من الموت تـأتـى المـرضـة لـتـعتـنـى بهم على فراش المرض حتى حلول الأجل.

كان اسم المـرضـة أودرى آتكنسـون، سـيـدة بدينة تـشـد خـصـرهـا بـنـطـاق فـى صـلابـة طـوق الـبـرمـيـل، وشـعـرهـا مـتـمـوج فـى لـون الشمعدانات النحاسية، وفم أسـرفت فى رسمه بأحمر الشفاه فكانت تـخـتـفـى مـعـالمه الصغيرة. كانت تـركب سيـارة أنيقة خضراء غامقة، لامـعـة من نوع الكوبية، تقودهـا حـتـى الفناء الداخـلـى. وانـتـشـرت أخـبـار أودرى آتـكـنـسـون وسيـارتـهـا بسرعة، وترددت الأسئلة: من أين لـهـا بالنقود؟ وهل ثمة غنىٌ أحمق ترك وصيته؟ هل لها أموال مدخرة؟ هل عثرت على خبيئة من أوراق نـقـديـة تحت مرتبة؟ وكيف لنـا أن نأمن لها؟

كانت هذه أول سيارة تدخل حى چريفز.

وكانت أودرى آتكنسون تـقـول: إنهـا لم تُدعَإلى العناية بحالة فى بيت بهذه البدائية، إنه لا يـنـاسـبها أبدًا، وليس من مسـتـواهـا، وكـانت تسأل فى دهشة: "كيف يعيش أناس فى مثل هذا المستوى المنحط؟

كـانت تقول لأمى: إنـهـم ليسـوا حـتـى فقراء؟ لا.. ليس الفقر!! هل هو الفقر؟ لو كان الفقر لفهمت السبب، ولا حـتـى دينهم الذى يدينون به، إذًا مـا السبب؟ إنهما لا يهتمون.

www.ibtesama.com

وحاولت منذ البداية أن تنشىء علاقة قوية مع أمي ظنًّا منها أنها ستكون حليفتها الطبيعية في ذلك المكان المظلم، وراحت تتحدث معها كما لو كانت في سنها، فكلاهما يرتدى حسب الموضة، وكلاهما يتمتع بقدر من الذكاء وحب الاستمتاع بالوقت وتبادل الأفكار الجديدة. اقترحت على أمي أن تعلمها قيادة السيارة، وقدمت لها علبة سجائر، فكانت أمي أميل إلى تعلم القيادة من ميلها إلى السجائر، ولكنها قالت: "لا.. سوف أنتظر حتى يعلمني زوجي، " ورفعت أودرى آتكنسون حاجبيها اللذين اختلط بهما اللون القرمزى بالبرتقالى إلى أمي من خلف ظهر فلورا، وغضبت أمي، وكرهت الممرضة أكثر مما كانت تفعل فلورا.

قالت أمي: "عَرفت من هي أودرى آتكنسون. " كانت تعني أنها عاشت في الغالب حياة رخيصة، حياة حانات، أو عرفت أناسًا من فاسدى الأخلاق، وربما عقدت صفقات مهينة، ولم تكن فلورا لتلاحظ ذلك من فرط سذاجتها.

وبدأت فلورا حملة تنظيف أخرى للبيت: نشرت الستائر على نقالات وضربت السجاد على السور، وتسلقت السلم النقال لتهاجم التراب في الزوايا والأركان، ولكن الممرضة آتكنسون كانت تعترضها وهي تشكو: "أتمنى لو تقللين من الجرى وإحداث الأصوات، إنني فقط أبتغي مصلحة مريضتي. " كانت تقول ذلك بأدب بغيض، وكانت دائمًا تتكلم عن إيلي بكلمة "مريضتي"، وتدعي أنها الوحيدة المنوطة بحمايتها، وتفرض على الآخرين احترامها، ولكنها لم تكن تحترم إيلي نفسها. كانت تناديها وهي تجر المسكينة على وسائدها بكلمة

www.ibtesama.com

"إليــوب"، تنذرها بأنها لن تتحمل تذمرها وأنينها. تقول: "أنت لا تضرين إلا بنفسك بهذه الطريقة، وتدفعينني إلى عدم الاهتمام بكِ على الوجه الأكمل، ما هو مطلوب منك ببساطة أن تتحكمي في نفسك". وكانت تهزأ من التقرحات في جسد إيلي من كثرة النوم على السرير، وتتحدث عنها كأنها من فضائح العائلة. كانت تطلب مساحيق ومراهم وصابونًا غالي الثمن، تأخذ معظمه لنفسها لتحمي به جلدها هي الذي تدعي أنه عاني من الماء العسِر في هذا البيت، وكانت أمي تسألها دفاعًا عن أصحاب البيت الذي تعيش فيه: كيف يكون الماء عسِرًا وهو يأتي من البرميل مباشرةً؟"

كانت آتكنسون تطلب قشدة؛ لأنها تريد أن تصنع أنواعًا من التورتة وحلوى "البودنغ" لمريضتها، وكانت تصنع هذه الأشياء من خليط من المعلبات التي لم يعرفها البيت أبدًا، وكانت أمي متأكدة من أنها كانت تأكلها كلها.

وظلت فلورا تقرأ لـ: إيلي، ولكن الآن بعض أجزاء قليلة من الإنجيل، وعندما كانت تنتهي من القراءة وتشرع في الانصراف، كانت إيلي تتشبث بها وتبكي وتخترع القصص المضحكة كأن تقول: "هناك بقرة بقرنين في الخارج تحاول اقتحام الحجرة عليها وقتلها. "

كانت المرضة آتكنسون تقول: "إنهم يتخيلون دائمًا أشياء من هذا القبيل، فلا يجب أن تستسلمي لها وإلا ما تركتكِ ليلاً ولا نهارًا، إنهم متشابهون، ولا يفكرون إلا في أنفسهم، عندما أكون وحدي معها تلزم الهدوء والأدب، ولا يكون هناك مشكلة مطلقًا، ولكن عندما

www.ibtesama.com

تدخلين نبدأ المتاعب من جديد؛ لأنها تراك وتبدأ فى الجنون. طبعًا أنت لا ترغبين فى تعقيد أمور وظيفتى، هل تريدين ذلك؟ أعنى أنك جئت بى إلى هنا لكى أكون أنا المسؤولة، أليس كذلك؟"

وكانت فلورا تقول: "عزيزتى إيلى، يجب أن أذهب.." ثم تقول للمرضة: "أنا أفهم، أفهم طبعًا أنك أنتِ المسؤولة، وأنا معجبة بكِ، ومعجبة بعملك.. ففى عملكم يتحلى المرء بالصبر والرحمة."

وكانت أمى تعجب من هذا، وتسأل: هل كانت فعلاً معجبة بالمرضة أو كانت - بهذا المديح الذى لا تستحقه المرضة - تنصحها بطريقة غير مباشرة بالصبر والعطف اللذين يعوزانها؟

ولكن المرضة آتكنسون كانت بليدة الحس، وتعرف ماذا تفعل، وماذا تريد، فلا تنطلى عليها مثل هذه الحيل. وكانت تقول إنها وظيفة صعبة ولا يستطيع القيام بها الكثيرون، وإنها ليست فى وضعها هذا مثل ممرضات المستشفيات اللاتى يجدن كل شىء، وكانت تتظاهر بأنها مشغولة وغير مستعدة للخوض فى الحديث أكثر من ذلك، وتدير مؤشر الراديو لتضبطه على برنامج "صالة رقص بين يديك".

أصبحت أمى مشغولة بامتحانات آخر العام وتدريبات شهر يونيو بالمدرسة، وكانت، فى الوقت نفسه، تستعد لزواجها فى شهر يوليو. جاء صديقاتها فى سياراتهن واصطحبنها إلى الخياطات وحفلات السمر لكى تختار بطاقات الدعوة وتتفق على إعداد الكيكة. لقد ظهرت أزهار الليلك، وطالت الأمسيات وعادت الطيور وانشغلت فى بناء أعشاشها. كان وجه أمى يشرق كلما امتدح أحد جمالها، فهى على وشك الدخول فى مغامرة الزواج اللذيذة فى وقار. زخرفت

www.ibtesama.com

فستانها بالزهور الحريرية، وأمسكت حجابها ببذور اللؤلؤ. كانت تنتمي إلى ذلك الجيل من الشابات اللائي كن يدخرن النقود ولا ينفقنها إلا على أعراسهن.

وفي مسائها الأخير جاءت صديقتها من مكتب البريد لتحملها بأشيائها في سيارتها؛ بملابسها وكتبها والأشياء التي ادخرتها للعرس، والهدايا التي تلقتها من تلاميذها وأصدقائها، وسرت ثرثرة وهمسات تختلط بالضحك. فكيف يمكنها حمل كل هذه الأشياء؟ وكانت تقول: "هذا الزواج مصدر قلق أكثر مما كنت أتصور." وضحكت وأعطت أمي وشاحًا طرزته بنفسها سرًا. وطبعًا لا تغيب الممرضة آتكنسون بطبيعة الحال عن أية مناسبة؛ فقد أعطت أمي زجاجة كولونيا. وقفت فلورا عند مدخل البيت في وداع أمي، لقد دعتها أمي إلى حضور حفل الزفاف، ولكنها اعتذرت وقالت: إنها لا تستطيع الحضور، لا تستطيع الخروج في مثل هذه الظروف، وكان آخر ما رأته أمي منها هو طيفها وهي تلوح لها مودعة عند مدخل البيت أسود الجدران في ضوء الغسق، وكانت في مريلة التنظيف تلوح بمنديل كبير مزخرف برسوم كثيرة.

"حسنًا. لعلها الآن تحقق ما تصبو إليه، لعلها تكون قادرة الآن على الزواج، هل كبرت في السن؟ هل تقدر على بناء أسرة؟ كم سنها الآن؟" سألتها صديقتها صاحبة البريد.

كانت أمي ترى أنها لا ينبغي أن تتحدث عن فلورا هكذا، وأجابت بابتسار بأنها لا تعرف، ولكن في قرارة نفسها كانت تدور الأسئلة نفسها.

www.ibtesama.com

وعندما تزوجت أمي، واستقرت في بيتها على بعد ثلاثمائة ميل تلقت رسالة من فلورا تقول:

إيلي ماتت، ماتت دون أن يهتز إيمانها، وشكرت الله لأنه أطلق سراحها، وسوف تبقى الممرضة آتكنسون لبعض الوقت حتى يحين وقت ذهابها للعناية بحالة أخرى... كان ذلك في الصيف.

وبعد ذلك لم تكن الأخبار تأتي من فلورا، وعندما كانت تكتب في أعياد الميلاد فإن الأخبار تكون قد سبقتها إلى هناك من مصدر آخر.

كتبت فلورا:

لابد أنكِ سمعتِ أن الممرضة آتكنسون وروبرت قد تزوجا ويعيشان هنا في جزء من المنزل، إنهما يرتبانه حسب ذوقهما ولكي يتلاءم معهما، ليس من الأدب أن أدعوها الممرضة آتكنسون كما كنت أفعل، كان ينبغي أن أدعوها أودري.

طبعًا صاحبة البريد - صديقة أمي - كتبت لها، وكتب لها آخرون غيرها. فقد كانت صدمة وفضيحة أثارت فضول البلدة كلها، كان زواجًا مفاجئًا مثل زواج روبرت الأول. ولكن بالتأكيد ليس للسبب نفسه، فالممرضة آتكنسون فرضت شخصيتها على الجميع، والنتيجة أن فلورا خسرت للمرة الثانية. ولكن أحدًا لم يلحظ أي تقارب بين الطرفين، والسؤال هو:كيف استطاعت هذه المرأة أن تتقرب منه؟ هل وعدت بأطفال وكذبت على سنها؟

ولم تتوقف المفاجآت بعد حفل الزواج، فقد نزلت العروس بعده مباشرة للعمل على النحو الذى أشارت إليه فلورا، دخلت الكهرباء إلى البيت، وبعدها التلفون، والآن تمسك الممرضة آتكنسون (دائمًا

www.ibtesama.com

ينادونها الممرضة آتكنسون) بسماعة التلفون توبخ عمال الطلاء والديكور ومتعهدى تسليم الطلبات. لقد أُتيح لها كل شىء الآن، فاشترت موقداً كهربائياً، وثبتت حوض استحمام من أحدث طراز. ومن يعلم من أين أتت بالنقود؟ وهل كل هذه النقود ملكها؟ ومن أين حصلت عليها؟ أم حصلت عليها قبل وفاة مريضتها بوصية مشبوهة؟ هل كانت نقود روبرت؟ هل طالب بنصيب إيلى وأخذه هو وآتكنسون لينفقاه على هذا النحو؟ لو صح ذلك لكانا جديرين بالعار.

حدثت التحسينات فى جانب واحد من البيت طبعاً، وظل جزء فلورا كما هو، لا كهرباء ولا ورق حائط ولا ستائر فينيسية، وظل جزء فلورا أيضاً بدون طلاء من الخارج، فى حين كان العمال يدهنون الجزء الآخر باللون الأبيض المختلط باللون الأخضر، فكنت تسمع عبارة: "مسكينة فلورا" تتردد فى الحى بشىء من الرثاء لها رغم أن فلورا كانت تستنكرها، ثم أصبح الناس يعجبون من عناد فلورا وغرابة أطوارها، فهى تستطيع طلاء الجزء الخاص بها، كانوا يتعمدون المرور بسياراتهم أمام منزل چريفز لإلقاء نظرة!

كانت إدارة المدرسة ترتب حفلة رقص يذهب ريعها دائماً لأى عروسين تزوجا حديثاً، فأرسلت الممرضة آتكنسون رسالة إلى إدارة المدرسة مفادها أنها لا تمانع فى إحياء هذه العادة، رغم أن عائلة چريفز تعارض الرقص واعتقد بعض الناس أنه من العار أن يساعدها أحد على تحقيق رغبتها، فهذه لطمة فى وجه فلورا، وأراد آخرون أن يعرفوا كيف سيتصرف الزوجان، هل سيرقص روبرت؟ ماذا سيحدث من العروس؟ ولكن الاحتفال تم فى المدرسة وعرفت أمى ذلك.

www.ibtesama.com

كانت العروس ترتدى الفستان الذى كانت ترتديه يوم الزفاف، أو هكذا زعمت، ولكن من يذهب بفستان كهذا إلى منزل القس؟ أغلب الظن أنها اشترته لتمضى به هذه المناسبة بالذات. كان من الساتان الأبيض برقبة مفتوحة لدرجة مثيرة، وأما العريس، فكان يرفل فى بذلة جديدة زرقاء غامقة، وقد ثَبّت وردة فى عروته، كان مشهداً لافتًا، وكان شعر آتكنسون مصبوغًا بلون نحاسى لامع انعكس على عينيها فبدا وجهها كوجه رجل، فهل تضع ذلك الوجه على صدر روبرت فى أثناء الرقص؟ طبعًا رقصت، ورقصت مع كل رجل فى الحفل ما عدا روبرت الذى جلس منقبضًا على أحد مقاعد المدرسة بمحاذاة الحائط، كانت العادة أن ترقص مع كل الرجال. وبعد انتهاء الحفل اصطحبت روبرت إلى الخارج لتستقبل النقود وتشكر كل شخص على أطيب تمنياته بالرفاء والبنين، وقالت للسيدات فى حجرة الملابس: إنها لم تكن على ما يرام للسبب المعتاد عند المتزوجين حديثًا، ولم يصدقها أحد؛ فليس لديها ما تعطيه لروبرت، فهل كانت تكذب عليهن، وتقصد اتهامهن بالسذاجة؟ ولكن أحداً لم يتحدَّها، أو يقسُ عليها؛ لأن غلظتها كانت بادية على وجهها كأنها من الممكن أن تضرب محدثها أو تنكل به.

ولم تحضر فلورا الحفل: "أخت زوجى لا تحب الرقص" قالت آتكنسون، "وما زالت تعيش فى الزمن القديم. " وراحت تغريهم بالضحك على فلورا التى تسميها: "أخت زوجى، " ورغم أنها تعرف أنها كانت تحط من قدرها بهذه الكلمات.

كتبت أمى خطابًا إلى فلورا بعد أن وصلتها كل هذه الأخبار؛ ولأنها بعيدة الآن عن المشهد، وفى خضم حياتها الزوجية الجديدة،

www.ibtesama.com

نسيت أى نوع من الناس كانت تكتب له، فأظهرت تعاطفها الشديد مع فلورا، واستياءها من تصرف السيدة التى - كما رأت أمى - قد وجهت لطمة كهذه لها. وما لبثت أن تلقت أمى رسالة من فلورا تقول فيها: إنها لا تعلم من أين أتت بتلك الأخبار، وإنها - أى أمى - يبدو أنها أساءت الفهم، أو استمعت إلى أناس مغرضين، أو تعجلت فى إصدار أحكام لا مبرر لها، فما يحدث فى بيت آل جريفز ليس من شأن أحد غيرهم، ولا داعى لأن يشعر أحد من أجلها بالأسف، أو يغضب لها، وقالت إنها سعيدة جداً فى حياتها، وراضية تمام الرضا، ولم يحدث أن تدخلت فيما لا يعنيها. وتمنت لأمى كل السعادة فى زواجها، وأن تكون مشغولة بأمورها ومسؤولياتها الزوجية، ولا تجد وقتًا للاهتمام بشؤون الناس الذى كانت تعرفهم فى الماضى.

أصابت هذه الرسالة المكتوبة بعناية أمى فى الصميم كما قالت، وتوقفت الرسائل بينها وبين فلورا، لقد شُغِلت أمى بالفعل فى حياتها، بل أصبحت سجينة بيتها فعلاً.

ولكنها فكرت فيما بعد فيما كان من أمر فلورا، بعد ذلك بسنين، فكرت فيما كان ينبغى أن يحدث، كانت تقول: لو كنت كاتبة قصصية لكتبت قصة فلورا، تعرفون ماذا كنت سأسميها؟ كنت سأسميها السيدة العذراء.

السيدة العذراء. نطقت أمى هاتين الكلمتين بنبرة حزينة مفرطة فى التأثر الذى لم أجد له مسوغًا. كنت أعرف - أو كنت أعتقد أنى أعرف - ما كان ينطوى عليه كلام أمى، حين تتحول الإساءة إلى

www.ibtesama.com

احترام غامض عند الطرف الآخر. وكنت فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة فى ذلك الوقت. كنت أستطيع قراءة عينى أمى وأعرف ماذا ستصنع من فلورا، أو ما صنعته بالفعل. ستصنع منها شخصًا نبيلاً، شخصًا يقابل الخيانة بالصفح، بل يقف بجوار من خانه مرة ومرة دون أن تصدر منها شكوى، بل تواصل أعمالها النبيلة من تنظيف المنزل وتجريف زريبة الأبقار، وإزالة الدماء من فوق سرير أختها المريضة. ثم تموت إيلى ويتجدد أملها فى الزواج من روبرت، فإذا بآتكنسون تقطع عليها الطريق بدقة شديدة، وتتحمل دهان البيت ودخول الكهرباء، وكل مظاهر الثراء على الجانب الآخر، برنامج "صالة رقص بين يديك، " و"آموس وآندى، " وإلغاء المواعظ الاسكتلدنية. رأتهم يهرولون إلى صال الرقص مع حبيبها القديم، ومع هذه السيدة باردة القلب، الغبية العاطلة من كل جمال، التى كانت هدفًا لسخرية الجميع، وبطبيعة الحال انتقلت ملكية المزرعة إلى إيلى، وورث هو إيلى بعد ذلك. لقد آل كل شىء إلى أودرى آتكنسون. الشر يزدهر!! ولكن لا بأس، لا بأس، فتواضع الزوجين وصبرهما الظاهرى لابد يومًا أن يُفْتضح.

كانت أمى تفهم الأمر على ذلك النحو الذى ذكرت، ففى معرض دفاعها عن نفسها أصبحت أفكارها غامضة، وهدأت نبرة صوتها، وشابها حزن يضايقنى. أحسست أنها تغالب غشاوة كثيفة من تفاهات وولاءات تختبئ داخلها، وتعكر صفوها، وتقوض قوتها، وكان يبدو أنه لا نهاية قريبة لهذا، فكنت أدخل معها فى حوار ساخن، وأتراجع حينًا وأقبل أحيانًا، وفى النهاية تراجعت، ورفضت ما أؤمن به فى صمت.

www.ibtesama.com

أتراني أسعى إلى البحث عن مسوغ لتصرفي؟ أتراني أنمق الألفاظ لأني لم أحسن رفقتها؟ لم أكن لها عزاءً في وقت كانت في أشد الحاجة لرفيق يخفف عنها معاناتها.

أما أنا، فقد كان لي تحليلي الخاص لقصة فلورا، أريد أن أعيد كتابتها من جديد، ولكني سأتخذ مسارًا مختلفًا، سأفهم قصة أمي وأسعى لتكملة ما تركته، فشخصية فلورا عندي على خطأ بقدر ما هي على صواب عند أمي. فما بالك بشخصية تستمرئ الانعطافات السيئة التي حدثت لها في حياتها، ولا يكون منها غير تسامح غريب، وتراقب الانتكاسات الفظيعة التي حدثت لأختها في سلبية مقيتة. مشيخية ساحرة تقرأ من كتابها السام. لقد صنعت من نفسها - في دهاء - الوجه الآخر لقسوة الممرضة آتكنسون، وصفاتها البريئة، لتزيحها من طريقها، وتحاول النجاح من جراء ما تظنه فشلاً عند الطرف الآخر، ولكنها أخفقت. قهرتها سطوة الجنس والطمع الرخيص. انتهت إلى ذلك الركن الكئيب من بيتها بمصابيحه المضاءة بالزيت، تتضاءل في كهفها المظلم حتى يبس عظامها، وثخنت مفاصلها. وكأني أرى النهاية التي كنت واضعها لقصتي: أن تصبح فلورا معاقة معذبة بالتهاب المفاصل، لا تكاد تقف حتى تقع. وتصبح أودري آتكنسون في أوج قوتها، تطالب بالمنزل كله، ولا ترضى عن تلك القسمة التي تمت في عجل وانصاع لها روبرت؛ لأن فلورا هي التي يسرت زواجه من إيلي. لن تعطي فلورا إلا حجرة واحدة، وتعتني بها في مرضها العضال؛ فهي لا تريد أن تظهر بمظهر الوحش لأنها ليست كذلك بالفعل، ويحمل روبرت فلورا بين يديه ويدخلها في

www.ibtesama.com

حجرتها، ويضعها برفق على سرير مرضها. وحالما تستقر فلورا فى ركنها الجيد الإضاءة والتدفئة، تأخذ أودرى أتكنسون على عاتقها تنظيف الحجرات التى شغلتها فلورا: فتحمل كومة من الكتب القديمة، وتلقى بها فى الفناء. ويأتى الربيع، وقت تنظيف المنزل، فلا تقوم فلورا بهذا العمل كما كانت تفعل، فلم يبق غير وجهها الشاحب يظهر من خلال الستائر الجديدة النظيفة التى ترى من خلالها السماء الصافية الزرقاء، بسحبها الحبلى فوق الحقول المغمورة بالمياه، والديكة المتبارية والجداول المليئة بالماء، وفروع الشجر الحمراء. إنها ترى الدخان ينهض من موقد حرق القمامة فى الفناء حيث تحترق كتبها، هذه الكتب ذات الرائحة الكريهة كما تسميها أودرى، صفحات وكلمات، وأغلفة كتب كئيبة تجلب الفقر، عن الأخيار والملعونين، وعن الآمال الباهتة فى الخلاص، وعن العذابات الرهيبة، كل ذلك يتصاعد منه الدخان الآن، وهكذا تكون النهاية.

وفى رأيى أن الشخصية الغامضة حقًّا فى القصة كما ترويها أمى كانت شخصية روبرت. لم يتفوه بكلمة، وتقدم لخطبة فلورا، وكان بجوارها على شاطئ النهر عندما قفزت إيلى ,وصفعتها. وكانت تضع الشوك على سريره، وهو الذى تزوج إيلى وأوعز إلى فلورا بتقسيم البيت. لم يكن يستمع إلى فلورا وهى تقرأ من كتبها الصفراء، وأخيراً يجلس مسحوقًا على أحد مقاعد المدرسة، بينما كانت عروسه المتألقة ترقص مع كل الرجال.

هذا ما كان من شأنه فى العلن، ولكنه كان فى السر مصدر كل شىء، فقد فعلها مع إيلى، فعلها مع تلك الفتاة الممتلئة الجامحة فى

www.ibtesama.com

الوقت الذى كان فيه قد خطب أختها، وفعلها معها المرة تلو المرة حين كانت جسداً منهاراً واهناً أنهكه الحمل.

ولابد أنه فعلها مع أودرى آتكنسون أيضًا، ولكن بنتائج أقل ضرواة.

هذه كلمات : (فعلها، وفعل بها) لم تكن أمى ولا فلورا تستخدمانها، ولكنهما مصدر إثارة بالنسبة لى، فأنا لا أحس بالاشمئزاز المهذب أو السخط المعتدل. لقد رفضت نصيحة أمى وتحذيرها، ومصير إيلى لا يصدنى أو يمنعنى، ولا حتى عندما فكرت فى تلك المواجهة الأولى، بما فيها من تهور واندفاع وتشبث. كنت فى تلك الأيام أختلس النظرات المفعمة بالرغبة فى الرجال، كنت أعجب بمعاصم أيديهم وأعناقهم وأى جزء من صدورهم يسمح به زرار مفتوح، حتى الآذان والأقدام التى دُسَّت فى الأحذية. لم أحسب لعقولهم حساباً، لم أكن أريد إلا أن تشملنى عواطفهم. كن أفكر على هذا النحو بالنسبة لروبرت.

إن ما جعل شخصية فلورا شريرة فى روايتى هو نفسه الذى جعلها جديرة بالثناء فى رواية أمى: ازورارها عن الجنس. لم أتقبل كل ما قالته أمى فى هذا الشأن، ولم أُقِر بكل ما أرادت أن تعبر عنه. لم يعجبنى حتى خفوت صوتها المشوب بحرص حزين عندما كانت تحدثنى فى هذا الأمر. لقد نشأت أمى فى مكان وزمان كان الجنس فيه حملاً ثقيلاً على النساء، وكانت تظن أن المرأة قد تموت بسببه؛ فآثرت التمسك بأهداب الفضيلة، وآداب السلوك، والحشمة المبالغ فيها، والمحافظة التى هى قارب النجاة والحماية أيضًا. وأما أنا فقد

www.ibtesama.com

نشأت أشمئز من هذا القارب اشمئزازاً شديداً، وأبغض هذه الاستبدادية التى بدت لى كأنها تنسحب على الحياة كلها فتضطرنا إلى اصطناع حفلات الشاى، وارتداء القفازات البيضاء، وكل أنواع التفاهات الأخرى. فضلت الألفاظ الخارجة، وفضلت التجاوز المفاجئ، وشغل النفس بمبالاة رجل وتسلطه. الشىء الغريب أن أفكار أمى كانت تتسق مع بعض الأفكار التقدمية فى زمانها، وكانت أفكارى انعكاساً لما ساد فى زمانى، رغم أن كلاً منا يظن أنه مستقل بفكره، ويعيش فى عزلة عجزه عن مجاراة التغييرات التى تجرى من حوله، وكأن نزعات أنفسنا المتجذرة فى عقولنا قد نزلت من علٍ، كبذور حملتها الرياح، وتبحث عن أرضٍ صالحة، أرض ترحب بها وتستنطقها.

وقبل وفاتها بمدة ليست بالقصيرة كنت فى البيت، تلقت أمى رسالة من فلورا، فلورا الحقيقية. جاءت من المدينة التى تتبعها قريتهم: المدينة التى اعتادت فلورا الذهاب إليها مع روبرت فى العربة، ممسكة بزكائب الصوف والبطاطين.

تقول فلورا فى رسالتها:

لم أعد أعيش فى المزرعة، روبرت وأودرى لا يزالان هناك، عانى روبرت من بعض المتاعب فى ظهره، وفيما عدا ذلك فهو على ما يرام، أما أودرى فقد عانت من ضعف فى الدورة الدموية، وضيق دائم فى التنفس. يقول الطبيب: إن وزنها يجب أن ينقص، ولكن "الريجيم" لم يأتِ بالنتائج المرجوة. المزرعة على ما يرام، باعوا كل الأغنام واستبدلوا بها الماشية، ولعلك سمعت أن أهم شىء هذه الأيام أن

www.ibtesama.com

تحصلى على حصتك من اللبن من الحكومة. أما الزريبة القديمة فقد زُوِدت بماكينات حلب حديثة، معجزة، وعندما أذهب إلى هناك لزيارتهم أجد صعوبة فى التعرف على المكان.

ومضت تقول: إنها تعيش فى المدينة منذ سنوات الآن، وإنها تعمل فى وظيفة كتابية فى محل، لابد أنها ذكرت نوع المحل، ولكنى لا أذكره الآن، لم تقل شيئًا طبعًا عن الدافع وراء اتخاذها هذا القرار. هل ضايقها أحدٌ فى مزرعتها؟ هل باعت نصيبها؟ ركزت فى رسالتها على حقيقة صداقتها مع أودرى وروبرت، وقالت إن صحتها جيدة جدًا. ثم قالت:

سمعت أن الحظ لا يحالفك، سعيت إلى مقابلة كليت بارتر التى كان اسمها كليتا ستابلتون فى مكتب البريد هناك فى القرية، وأخبرتنى أنك تعانين من بعض المشكلات فى عضلاتك، وأن لسانك تأثر أيضًا، مما أحزننى جدًا، ولكنى أعتقد أن الطب يصنع المعجزات اليوم، آمل أن يساعدك الأطباء.

رسالة تدعو إلى القلق، ولا تفصح عن الكثير، فلا شىء فيها عن إرادة الله، أو قدر الله فى كل ما يحل علينا من خطوب. ولا تعرف منها إذا ما كانت لم تزل تذهب إلى تلك الكنيسة المشيخية، ولا أعتقد أن أمى ردت على رسالتها، فلم يعد خطها الجميل يسعفها، انهارت قواها، وواجهت صعوبة فى الإمساك بالقلم. أرادت أن ترد، كانت تبدأ الرسائل ولا تتمها. كنت أجد هذه الرسائل متناثرة فى أرجاء البيت. كانت أحيانًا تبدأها بقولها: "مارى.. يا أعز الناس.. " أو عبارة "عزيزتى روث، " أو عبارة "عزيزتى جوانا الصغيرة (رغم علمى

www.ibtesama.com

بأنك لم تعودى صغيرة)، أو عبارة: "عزيزتى الصديقة القديمة كليتا، " أو عبار: "عزيزتى مارجريت الفاتنة. " كن أصدقاء أمى من أيام التدريس، أو من أيام المدرسة الإعدادية، أو من أيام المدرسة الثانوية، وقليلٌ منهم كن من تلميذاتها. كانت تقول بتحدٍّ: عندى أصدقاء من جميع أنحاء العالم، أصدقاء أعزاء.. أعزاء جداً.

أتذكر أنى رأيت رسالة من رسائلها تبدأ بعبارة: "صديقة شبابى، " أو "صديق شبابى، " لم أعرف إلى من، فالجميع كانوا أصدقاء شبابها. لا أتذكر رسالة تبدأ بعبارة: "عزيزتى وحبيبة قلبى فلورا. "قرأت هذه الرسائل كلها وتأملتها، قرأت التحايا والجمل القليلة التى كتبتها، كنت أحس بنفاد صبرها من اللهجة المؤدبة، والميل السريع للحب والحزن فى آن. وكان يمكن أن تجد هذه المشاعر كلها عندى، لو تمكنت من الانسحاب بكرامتها، بدلاً من سعيها إلى إلقاء ظلها المجروح طوال الوقت.

فقدت اهتمامى بفلورا بعد ذلك، كنت أفكر فى قصصى، وفى ذلك الوقت كانت قصة جديدة تلوح فى ذهنى.

ولكنى تساءلت عن المحل الذى انتقلت لتعمل فيه، هل كان محل خردوات، أم كان محل من تلك المحلات التى تُسمى "خمسة وعشرة"، وكيف بدت فى ذلك المئزر الغريب الذى ارتدته هناك، أم كانت صيدلية وارتدت هناك زى الممرضات، أم كان محل ملابس للسيدات، تضطر فيه إلى التأنق، والتحلى بخفة الدم والدماثة؟ كانت مضطرة إلى معرفة الخلاط، ومنشار السلسيلى، والملابس النسوية الفضفاضة، ومستحضرات التجميل، وحتى الواقيات الجنسية. اضطرت إلى العمل

www.ibtesama.com

طوال النهار تحت الأضواء الكهربائية، تحصى النقود، وتسجلها على الآلة. هل كانت ستحصل على وظيفة دائمة، وهل طالت أظافرها، ورسمت شفتيها بأحمر الشفاه؟ ولابد أنها وجدت مكان ما عاشت فيه زمنًا بمفردها، شقة صغيرة بمطبخ صغير، تطل على الشارع الرئيس. أو حتى حجرة فى بيت من تلك البيوت التى كانت تقدم الطعام مع المبيت، وكيف استمرت فى اعتقادها فى العقيدة الكاميرونية؟ كيف كانت تصل إلى الكنيسة البعيدة، إلا إذا كانت قد اشترت سيارة، وتعلمت القيادة؟ وإذا كانت قد فعلت ذلك فلا بد أنها لم تعد تذهب إلى الكنيسة فحسب، ولكن إلى أمكنة أخرى، ولابد أنها اعتادت قضاء الإجازات فى "شاليه" يطل على بحيرة، ولابد أنها تعلمت السباحة، وزارت العاصمة، وأكلت من وجبات فى مطعم، ولعله كان مطعماً تُقَدَّم فهى المشروبات الروحية، وعقدت صداقات مع نساء مطلقات.

أو لعلها قابلت رجلاً، أخا سيدة صديقة أرملة، وربما لم يعرف أنها كاميرونية، أو حتى من هم الكاميرونيون؟ لا يعرف شيئًا عنها وعن الطلاء الجزئى للمنزل. ولم يسمع عن الخيانتين، وأنها بذلت كرامتها وبراءتها لكى لا تكون مصدر سخرية الناس. وربما طلب منها ذلك الرجل أن تراقصه، وربما اعتذرت وفوجئ دون أن تتثبط همته. كل ما يصدر عن الكاميرونيين سيكون غريباً عنده، كما يبدو فى عيون الناس جميعًا. سوف يقولون إنها نشأت فى ظل ديانة غريبة، وإنها عاشت طويلاً فى مزرعة لا يعرفون فيها الله حق المعرفة. سيقولون إنها غريبة الأطوار، ولكنها ظريفة حقًا، وأن شكلها جميل أيضًا خاصة عندما أصلحت من شعرها.

www.ibtesama.com

"ربما أدخل محلاً تجاريًا، وأجدها فيه."

"وربما ماتت منذ زمن بعيد."

ولكن افرض أنى دخلت محلاً تجاريًا من تلك المحلات التجارية الكبرى التى تبيع كل شىء؛ أتخيله محلاً يمتلئ بالنشاط والعروض البسيطة التى كانت سمة من سمات خمسينيات القرن العشرين. افرض أن سيدة طويلة القامة جميلة الهيئة، أنيقة المظهر، أقدمت لخدمتى، وعرفت أنا - بطريقة ما - أنها فلورا رغم شعرها المدهون المعقوص، واللون القرنفلى على شفتيها، والأظافر المرجانية، أغلب الظن أنى كنت سأقول لها: "إنى أعرفك، وأعرف قصتك، رغم أننا لم نلتقِ أبدًا. أتخيل نفسى وأنا أريد أن أخبرها، مجرد تخيل، أنها تسمعنى برباطة جأش محببة، وأنها تهز رأسها وتبتسم لى، وفى ابتسامتها شىء من السخرية، أو شىء من الخبث الواضح والتبرم. لم تكن مندهشة، ولكنها لا تتقبل حديثى، ولا تلبث أن تمل منه ومنى، ولا تلبث أن تسأم من فكرة أننى أعرف كل شىء عنها.

طبعًا أنا أفكر فى أمى. أمى كما بدت لى فى تلك الأحلام، كانت تقول: "لا شىء، فقط هذه الرعشة البسيطة، وتقول فى تسامح غريب خلا من الهم: "آه.. كنت أعلم أنكِ ستأتين يومًا،" تقول ذلك بطريقة مختلفة تدهشنى بعد أن ذهب عنها حجابها وحزنها ومرضها. أحس اليوم بالسعادة والرضا، ولكنى أتذكر أنى كنت قلقة أيضًا. ولعلى أقول: "إنى خُدِعت أيضًا، نعم: خُدِعت وأُهِنت وغُرِّرَ بى مع هذا التغيير السار،" فأمى تخرج من سجنها القديم دون دون أن تبالى، مثقلة بالخيارات وأسباب قوة لم أكن أحلم بأن تمتلكها. . تغيرات

www.ibtesama.com

أكبر منها، تحيل ذلك القدر القليل من الحب المر الذى حملته طوال ذلك الوقت إلى سراب، شىء تتضاءل جدواه، ولا يسعى إليه.. كالحمل الكاذب.

عرفت بعد ذلك أن الكاميرونيين كانوا الجزء الباقى من المعاهدين(*)، هؤلاء الاسكتلندنيون الذين عاهدوا الله فى القرن السابع عشر على مقاومة كتب الصلوات والقساوسة والكثلكة وتدخل الملك فى شؤونهم. جاء اسمهم من ريتشارد كاميرون، طريد عدالة، وواحد من من وعاظ الميادين، ما لبث أن قُتِل. كان الكاميرونيون يذهبون إلى المعارك وهم ينشدون المزمور الرابع والسبعين، والثامن والسبعين، قطعوا جسد رئيس دير سات أندروز المتكبر إربًا على الطريق العام، وجعلوا خيولهم تمشى عليه، واحد من كهانهم فى غمرة فرحه بالأمر الصادر بإعدامه شنقًا، أصدر أمرًا بحرمان جميع وعاظ العالم من كنيسته.

هوامش:

(*) أتباع الميثاق الوطنى فى القرن السابع عشر فى اسكتلندا لدعم المشيخية (المترجم).

www.ibtesama.com

فرصة

فى منتصف شهر يونيو من عام (١٩٦٥)، انتهى الفصل الدراسى فى مدرسة تورانس للبنات، ولم تظفر "جولييت" بوظيفة بدوام كامل، فقد شُفِيت المُدَرِّسَة التى حلت محلها وعادت إلى عملها، والمفروض أن "جولييت" الآن فى طريقها إلى بلدها. ولكنها تقول إنها تريد أن تقوم بجولة قصيرة، جولة قصيرة ترى فيها صديق يعيش فى بيت يطل على الساحل.

منذ شهر كانت قد ذهبت مع مُدَرِّسة أخرى - "وانيتا" التى كانت الوحيدة بين أعضاء هيئة التدريس القريبة من سنها، وصديقتها الوحيدة أيضًا - لرؤية عرض فلم يُسمى "هيروشيما يا حبى". واعترفت "وانيتا" فيما بعد بأنها - مثل السيدة فى الفلم - واقعة فى حب رجل متزوج - والد طالبة. فقالت "جولييت" إنها وجدت نفسها فى الموقف نفسه تقريبًا، ولكنها لم تسمح بالتمادى فى المسألة؛ لأن

www.ibtesama.com

زوجته كانت مبتلاة بمرض عضال أقعدها، ضربها الشلل:جلطة فى المخ أودت به. وقالت "وانيتا" إنها تمنت لو أن زوجة حبيبها هى التيضربها الشلل، ولكن لم يحدث، كانت قوية وجبارة وتسببت فى فصل "وانيتا".

ولم يمضِ وقت طويل حتى وصلتها رسالة. بدا الظرف متسخًا متجعدًا كأنه مكث زمنًا فى جيب أحدهم، وموجه إلى "جولييت" (المُدَرِّسة): مدرسة تورانس رقم (١٤٨٢) شارع القديس مرقص، فانكوفر، برتش كولومبيا. سلمته مديرة المدرسة لـ:"جولييت" وقالت لها: "أعتقد أن هذا الخطاب لكِ، من الغريب أنهم لم يذكروا الاسم الثلاثى، ولكنهم كتبوا العنوان بطريقة صحيحة، وأظنهم بحثوا عنه فى الدفاتر ووجدوه. "

عزيزتى "جولييت"، نسيت اسم المدرسة التى كنت تعملين فيها، ولكن فى اليوم التالى تذكرته فجأة، ولذا أردت أن أطمئنك وأرسل لك هذه الرسالة. أتمنى أن تكونى لا تزالين هناك، ولكنى أعرف أن العمل فى هذه المدرسة فظيع، لا قِبَل لكِ به، وأكيد ستتركينه قبل نهاية الفصل الدراسى، وعلى العموم لم أستغرب تركك المدرسة.

- ما رأيك فى طقس الساحل الغربى عندنا؟ إذا كنت ترين المطر مرة أو اثنين كل يوم فى فانكوفر، فتوقعى أن تريه ضعف هذا العدد من المرات عندنا، ويمكن أكثر! وهذا ما تعودنا عليه هنا.

كثيرًا ما أتخيلك جالسة تحدقين فى السلالم stairs النجوم stars. أنت ترين أنى كتبت السلالم، فأنا أكتب فى وقت متأخر من الليل، فى وقت كان يجب أكون فيه أغط فى نوم عميق.

www.ibtesama.com

آن على حالها الأول. عندما عدت من رحلتى، وجدت حالتها قد تدهورت كثيرًا؛ ولكن هذا - فى الأغلب - لأنى رأيت انتكاستها الخطيرة فجأة خلال العامين الماضيين أو الثلاثة، ولم أكن ألحظ تدهورها عندما كنت أراها كل يوم.

لا أظن أنى أخبرتك بأنى توقفت فى مدينة ريجينا لأرى ابنى، هو الآن فى الحادية عشرة، ويعيش مع أمه هناك. لاحظت تغييرًا كبيرًا عليه أيضًا.

أنا سعيد لأنى تذكرت اسم المدرسة أخيرًا، ولكن الخوف الفظيع ينتابنى من عدم تذكر اسمك الأخير. على العموم سأختم رسالتى، وأتمنى أن يقفز الاسم إلى ذهنى وأنا أختم.

أفكر فيك كثيرًا

أفكر فيك كثيرًا

أفكر فيك كثيرًا ...

استقلت "جولييت" الأوتوبيس من وسط مدينة فانكوفر إلى خليج هورشو، وهناك ركبت عبَّارة، ثم عبرت أرضًا يابسة - شبه جزيرة - وبعدها استقلت عبّارة أخرى، ثم أرض يابسة أخرى، وهى المدينة التى يعيش فيها الرجل الذى أرسل الرسالة، خليج الحوت. هنا ينتقل الناس - حتى قبل خليج هورشو - بسرعة من المدينة إلى البادية. كانت طوال هذا الفصل الدراسى تعيش بين مروج وحدائق كيرسدال، وجبال الشاطئ الشمالى تظهر فى الأفق مثل ستارة المسرح عندما تنقشع الغيوم من صفحة السماء. كانت الأرض المحيطة بمبانى المدرسة عامرة بالأعشاب والنباتات الصغيرة

www.ibtesama.com

المشذبة، يحيط بها جدارٌ حجرى تكتنفه زهور تزدهر طوال فصول العام، لا تختلف عنها الأرض المحيطة بالمنازل المجاورة، التى تكتنف جدران بيوتها ألوانٌ شتى من أزهار الرودوندرون، ونباتات الشوك، والغار، وأزهار الوستاريه. لكن قبل أن تصل إلى خليج هورشو، يطالع العابر فى النهاية غابة حقيقية، وليست غابة اصطناعية. ومن هناك يطالع العابر أيضًا مياه وصخور، وأشجار كثيفة، وطحالب ملتصقة على الجدران. وأحيانًا يطالع خيطًا من ضباب ينطلق من رطوبة آتية من بيت صغير متهدم، له فناء حافل بالحطب وقطع خشب وإطارات سيارات، وسيارات وأجزاء من سيارات ودراجات محطمة أو غير محطمة ولعب أطفال، وجميع الأشياء التى مكانها خارج البيوت التى تفتقر للجراجات والسراديب.

لم تكن المدن التى يمر بها الأوتوبيس منتظمة على الإطلاق؛ تقع فى بعض الأمكنة سلسلة من البيوت المتتابعة المتلاصقة، إلا أن بعض المنازل تشبه المنازل المبنية فى الغابات، يضم الواحد منها فناءً واسعًا يفتقر إلى النظام، كأنها بُنيت بالمصادفة ليلاصق بعضها بعضًا. لا توجد شوارع ممهدة، فيما عد الطريق السريع الذى يخترقها كلها دون أرصفة للمشاة. ولم يجدوا بيتًا واحدًا مهيبًا يتسع لمكتب البريد أو المجلس المحلى، ولا توجد محلات مبنية بطوب الزينة، للفرجة. ولا يوجد متحف يضم ذكريات الحروب، ولا حنفيات، ولا منتزهات صغيرة حافلة بالأزهار من كل نوع. فى بعض الأحيان نجد فندق يبدو عليه البلى كأنه حانة. وبعض الأحيان نصادف مدرسة حديثة أو مستشفى حديث – لائق ولكنه منخفض كأنه سقيفة.

www.ibtesama.com

وفى أحيانٍ أخرى - بالأخص فى العبّارة الثانية - تبدأ "جولييت" فى الإحساس بشكوك تقلب معدتها فيمايتصل بجميع الأمور.

أفكر كثيرًا فيكِ كثيرًا

أفكر فيكِ كثيرًا

هذا كل ما يقوله الناس لتهدئة النفوس، أو انطلاقًا من رغبة باردة لوضع شخص ما فى نطاق الاهتمام.

ولكن فى خليج الحوت لابد أن نجد فندقًا، أو أكواخًا للسائحين على الأقل. ستذهب إلى هناك:فقد تركت حقيبتها الكبيرة فى المدرسة، لتعود وتأخذها على راحتها. لم يكن معها غير حقيبة السفر علقتها على عاتقها، لن تبدو بعيدة عن الذوق كفتاة فى ميعة الصبا. ستبيت الليلة فقط. وربما هاتفته.

- وماذا تقول له فى التلِفون؟

تقول له إنها جاءت مصادفة لزيارة صديقة، صديقتها "وانيتا" من أيام المدرسة، والتى تملك منزلاً صيفيًا.. أين؟ تملك "وانيتا" كوخًا فى الغابة، فهى سيدة تحب الخروج ولا تخشى الظلام (مختلفة جدًّا عن "وانيتا" الحقيقية، التى ترتدى الكعب العالى على الدوام). وتبين أن الكوخ لم يكن بعيدًا جنوب خليج الحوت. انتهت الزيارة للكوخ ول "وانيتا" نفسها، وفكرت "جولييت" - فكرت - ما دامت بالقرب من المكان بالفعل - فكرت فى أنها أيضًا قد...

صخور وأشجار ومياه وثلج. هذه الأشياء التى يتلو بعضها بعضًا على الدوام، هى مفردات المشهد الذى حدث منذ ستة شهور مضت خارج نافذة القطار فى صباح بين عيد الميلاد ورأس السنة.

www.ibtesama.com

كانت الصخور كبيرة، وأحيانًا ناتئة، أو مصقولة مثل صخور الجلمود، بنية غامقة أو سوداء فاتحة. وكانت الأشجار مورقة على الدوام تقريبًا، أناناس أو صنوبرأو أرز. تعلقت بأشجار الصنوبر السوداء أشجارًا صغيرة من بناتها، التصقت بها من أعلى. وأما الأشجار غير دائمة الخضرة فهى أشجارٌ طويلة وعاطلة من زينة الأوراق، لابد أنها أشجار الحور أو الطمراق أو أشجار الماء، بعضها لـه جذوع منقطة. يستقر الثلج على قمم الصخور أشبه بالقبعات السميكة، التصق بالجهات المواجهة للريح من الأشجار، أو يرقد كأنه غطاءٌ ناعمٌ على سطح الكثير من البحيرات الصغيرة أو الكبيرة المتجمدة. لا يخلو الماء من الجليد إلا فى النهيرات الخفية المتدفقة الضيقة فى بعض المناطق.

كانت "جولييت" تضع كتابًا مفتوحًا على حجرها، ولكنها لم تكن تقرأ. لم ترفع عينيها عما كان يجرى قريبًا منها. كانت تجلس وحدها على مقعد مخصص لراكبين اثنين، وفى مواجهتها مقعد مزدوج آخر كان خاليًا. وهو المقعد الذى كانت تتخذ من سريرًا طوال الليل. كان عامل القطار فى تلك اللحظة مشغولاً فى هذه العربة المخصصة للنوم، فى إعادة النظام إلى العربة بعد نشاط الليلة المنصرمة. كانت الأغطية الخضراء الغامقة المعانة بالسوست لا تزال معلقة على الأرضية، وكانت رائحة قماشها تشيع فى المكان، كرائحة قماش الخيام، وربما كانت رائحة خفيفة لأقمشة ملابس ليلية ومراحيض. وعندما كان أحدهم يفتح باب عربة القطار من أى ناحية يتدفق تيارٌ من هواء الشتاء المحمل بالبرد. من الركاب من كان ذاهبًا لتناول الإفطار، ومنهم من كان راجعًا.

www.ibtesama.com

وكانت هناك مدقات على الثلج، مدقات من آثار مشى الحيوان، وخيوط من الفقاعات المتعانقة سرعان ما تختفى.

كانت "جولييت" فى الواحدة والعشرين من عمرها، حصلت بالفعل على الليسانس والماجستير فى الأدب الكلاسيكى. وكانت مشغولة فى الإعداد لرسالة الدكتوراه، ولكنها استقطعت من وقتها فترة لتُدَرِّس اللغة اللاتينية فى مدرسة للفتيات فى فانكوفر. لم تكن قد تلقت تدريباً للعمل كمُدَرِّسة، ولكن فى نصف الفصل الدراسى مرضت إحدى المدرسات فجأة مما جعل المدرسة فى حاجة إلى استئجار غيرها. كان ذلك فى إعلان نشرته المدرسة ربما لم يتقدم إليه أحد. كان المرتب أقل من أن تقبله أية مُدَرِّسة مؤهلة. ولكن "جولييت" كانت سعيدة لأنها ستكسب نقود.. أية نقود، بعد سنوات من منح دراسية بالكاد تسد الرمق.

كانت فتاة طويلة القامة، بشرتها جميلة، وجسمها رشيق، وشعرها خفيف بنى، حتى بعد تنسيقه تعجز عن أن تصنع منه كومة منتفخة. كانت نظراتها يقظة كما ينبغى لطالبة، وكانت رأسها عالية مشرئبة، وذقنها مدوراً أنيقًا، وفمها واسعًا تحيط به شفتان رقيقتان، ويؤمه أنف أفطس، وتزينه عينان متألقتان وقادتان، وتعلوه جبهة تحتقن بالدم كلما بذلت جهداً أو سمعت ثناءً. وكان أساتذتها سعيدين بها - هم يمتنون هذه الأيام لأى طالب يتخصص فى اللغات القديمة، وخاصة الموهوبين منهم - بقدر ما هم قلقون. كانت المشكلة أنها بنت. فإذا تزوجت - وهو ما سيحدث لا محالة، فلم يكن ينقصها الجمال كفتاة حصلت على منحة مجانية، لم تكن قليلة الجمال على

www.ibtesama.com

الإطلاق - فسوف تضيع تعبها وتعبهم، وإذا لم تتزوج فربما أصبحت كئيبة المزاج منعزلة، لا تتحمسن للترقية (التى يتحمس لها الرجال؛ لأنهم يحتاجون للترقية لما تجلبه من مال). كذلك لن تكون قادرة على الدفاع عن غرابة اختيارها التخصص فى الكلاسيكيات، وتقبل وجهة نظر الناس من حولها بأن هذا التخصص من قبيل العلم الذى لا ينفع، أو أنه تخصص غير ذى صلة، أو أنه تخصص كئيب، وتعجز عن التخلص من الموقف كما يفعل الرجال. التخصصات الغريبة أيسر للرجال، وأغلبهم تسعد النساء بالزواج منهم، وليس العكس بالمرة.

وعندما عرفوا بالإعلان عن وظيفة فى التدريس نصحوها بأن تقبلها على الفور، قالوا لها إنه سيعجبها، وقالوا لها: اخرجى للعالم فترة ولو قصيرة، تعرفى على حياة واقعية.

وكانت "جولييت" متعودة على هذا النوع من النصائح، على أن ما يغيظها أن تأتى مثل هذه النصائح من هؤلاء الرجال الذين لا يبدو عليهم أنهم جربوا العالم أو اختبروا محنه؛ ففى البلدة التى نشأت فيها كانوا يحسبون ذكاءها على قائمة الأمور الشاذة كالعرج أو وجود أصبع زائد على أصابع القدمين أو اليدين، ثم ما أسرع الناس إلى أن يضعوا أيديهم على نقائص أخرى فى شخصية الفتاة جعلتها تتفوق فى الدراسة؛ كعجزها عن تشغيل آلة خياطة، أو أن توثق طرداً بإحكام، وعلى الفور تصبح هفواتها ظاهرة لكل ذى عينين. والسؤال الذى يشيع بين الجميع عندئذٍ: وماذا ستصبح بعد حصولها على الشهادة الجامعية؟

www.ibtesama.com

حتى أمها وأبيها، اللذين يفخران بها، كانا من ذلك التفكير. كانت أمها تريدها أن تصبح مشهورة، ولذلك نصحتها أن تتعلم التزلج والضرب على البيانو. ولم تُقْبِل "جولييت" على أى من هذين النشاطين، أو لم تتقنهما حق الإتقان. وكان أبوها لا يريدها إلا أن تستعد لمواجهة الحياة. قال لها: عليك أن تستعدى لمواجهة العالم، وإلا حول الناس حياتك إلى جحيم. (مع أن ذلك يتجاهل واقع الأب والأم، أم "جولييت" نفسها، فهما لم يستعدا لمواجهة العالم حق الاستعداد، ولم يواجها حياة ملؤها البؤس. ربما كان الأب يشك فى أن "جولييت" يمكن أن يحالفها الحظ.)

قالت لهما "جولييت" ذات يوم وهيمتجهة إلى كليتها: "أنا مستعدة لمواجهة العالم، اختيارى لتخصص الكلاسيكيات معناه أنى أستعد لمواجهة العالم. وأنا راضية تمام الرضا. "

ولكن هنا تأتى الرسالة من معلميها، الذين يبدو أنهم يقدرون قدراتها، ويبتهجون لها؛ لم تخفِ بهجتهم قلقهم. قالوا لها: انطلقى وجربى العالم، كأنها لم تُولد فى عالم، أو كأنها لم تنشأ فى مكان.

بصرف النظر أن أى شىء، كانت "جولييت" سعيدة وهى فى القطار.

تايجا. تذكرت هذه الكلمة. لم تكن تعرف هل هى الكلمة المناسبة للتعبير عما يجول فى خيالها. تخيلت نفسها شخصية سيدة شابة فى رواية روسية، تطأ قدماها مساحة كبيرة من أرضٍ واسعة غريبة مرعبة مفعمة بالبهجة والإثارة، حيث تعوى الذئاب ليلاً وحيث تلقى هى مصيرها. لم تهتم بطبيعة هذا المصير الذى يمكن أن تلقاه فى

www.ibtesama.com

رواية روسية، لم تهتم بطبيعته، هل هو مصير حزين؟ مأساوى؟ أو كليهما؟

لم يكن المصير الشخصى هو المهم على أية حال. فما شد انتباهها - أو سحرها فى الواقع - هو تلك اللامبالاة، والتكرار، والفتور والازدراء للاتساق الذى تجده على سطح الدرع ما قبل الكمبرى وصخوره المتدافعة.

لاح ظلٌّ عند ركن من عينها، ثم ظهرت ساق فى بنطلون تتحرك.

- هل هذا المقعد محجوز؟

لم يكن محجوزًا، وماذا كان فى وسعها أن تقول غير ذلك؟

حذاء فى قدم فى شراب قطنى، وسروال رجالى، وجاكت مقلم بنى على أسمر مصفر، بخطوط مستقيمة بلون أحمر داكن، وقميص أزرق غامق، وكرافتة حمراء داكنة أيضًا بنقاط زرقاء وذهبية. كلها أشياء جديدة تمامًا، وكلها - فيما عدا الحذاء - تبدو أوسع مما ينبغى بكثير، كأن حجم الجسد خارج هذه الأردية كان يتناقص بعد شرائها.

كان رجلاً فى الخمسينيات من عمره على ما يبدو، بجدائل من شعر بنى فاتح التصقت على فروة رأسه. (لا يمكن أن تكون تعرضت للصبغ، هل تعرضت للصبغ؟ ومن يصبغ هذا الكم القليل جدًا من الشعر؟) كان حاجباه أكثر سوادًا أميل إلى اللون الأحمر، شاحبين وكثيفين. جلد وجهه ثقيل مكتنز، كثيف أشبه بسطح لبن فاسد.

كان قبيحًا؟ نعم، طبعًا. كان قبيحًا، ولكن القبح فى نظرها من نصيب الكثيرين من الرجال فى مثل سنه. لم تكن تقول بعد ذلك إنه كان قبيحًا إلى درجة ملحوظة.

www.ibtesama.com

حاجبان واقفان، وعينان جاريتان بلون هادئ، كأنهما تدشنان لبهجة كبيرة. استقر على مقعده فى مواجهتها، وقال:

- لا يوجد الكثير لرؤيته بعيداً عن هنا.

قالت وهى تميل أكثر ناحية كتابها:

- لا.

قال وكأن الأمور طبيعية، وكأنها أتاحت فرصة الحديث بأريحية، وهو ما لم يحدث:

- آه. . وإلى أين تتجهين؟

- فانكوفر.

- أنا أيضًا ذاهب إلى فانكوفر، سنقطع الطريق كلها عبر الريف، فلعنا استطعنا أن نراه كله عبر النوافذ ونحن معًا، صح؟

- نعممممم.

ولكنه ألح:

- هل ركبت القطار من تورنتو؟

- نعم.

- تورنتو بلدى، عشت هناك كل حياتى، بلدك هناك أيضًا؟

- "لا. "

قالت "جولييت" وهى تعاود النظر فى كتابها من جديد، تحاول جاهدة أن تطيل الوقفة قبل أن تستأنف معه الحديث. ولكن ربما كانت طبيعتها، وتربيتها، وخجلها، الله أعلم وربما شفقتها، أقوى منها، وذكرت اسم مسقط رأسها، ثم حددت موقعها عندما ذكرت المسافة التى تفصل بينها وبين مدن أخرى مختلفة، وموقعها من بحيرة هيورن، وخليج جورجيا.

www.ibtesama.com

- لى ابنة عمة فى "كولنوود". بلد ظريف، زرتها هناك هى وأسرتها، مرتين. هل أنت مسافرة لوحدك؟ مثلى؟

وظل يضع يده على اليد الأخرى فى حركة لا معنى لها.

- لا.

وقالت فى نفسها لن أزيد على ذلك كلمة واحدة.

- هذه هى المرة الأولى التى أذهب فيها فى رحلة كبيرة إلى أى مكان. رحلة بمعنى الكلمة، لوحدك؟

ولم تنبس "جولييت" ببنت شفة.

- رأيتك مشغولة فى القراءة مكتفية بنفسك قلت فى نفسى: لعلها تشعر بالوحدة، والمسافة طويلة، فربما تكون فى حاجة إلى من يبادلها بعض الحديث، وربما نصبح أصدقاء؟

فاجأتها جرأته، واضطربت لطريقته فى الحديث، وأحست "جولييت" بأن ثورة تندلع فى داخلها. وفهمت منه أنه لا يتحمس لمصادقتها حقًّا، فمن الأمور المثبطة للهمة التى تجرى فى الحياة أن يقدم رجالٌ غريبو الطباع، مبتلون بالوحدة، لا يتمتعون بأية وسامة جسدية أو حتى معنوية، على مغازلتها، ويتوقعون منها أن تكون على القارب نفسه. ولكن الرجل لم يكن يفعل ذلك، كان ينشد صديقًا للسفر، ولم يبحث عن رفيقة، كان يريد أن يبادل أى أحد بعض الحديث.

كانت "جولييت" تعرف أنها قد تبدو - فى نظر كثيرين -غريبة الأطوار ووحيدة، وهى كذلك فى كثير من الأحيان، ولكن الخبرة لم تكن تعوزها، لديها من الخبرة ما يكفى للسير فى مدرج الحياة،

www.ibtesama.com

لديها ما يكفى من الخبرة التى تفهم بها أن كثيرين ممن يحيطون بها، يسعون إلى استنفاد طاقتها، والقضاء على حماسها للحياة، وتضييع وقتها وروحها، وأحيانًا تستسلم.

فى البلاد الضيقة الصغيرة، تضطر الفتاة إلى قبول النصيحة: كونى متعاطفة مع الناس، لا تعادى أحدًا (وخاصة إذا كنتِ من النوع المنعزل) - هذا ما تتعلمه الفتاة فى البلاد الصغيرة، وفى المدن الجامعية. لا تجعلى الناس ينفرون منك، حاولى أن تتكيفى مع من يريد أن يستنفد وقتك وجهدك، حتى لو لم يعرف من أنت.

أرسلت إلى الرجل نظرة حادة، ولم تبتسم. ورأى فى عينيها حزمًا وقوة، فارتد وجهه منتفضًا من المفاجأة. ولكنه قال:

- هل الكتاب مثير إلى هذا الحد؟ ما هو موضوع الكتاب؟

لن تجيبه بأن الكتاب يدور حول اليونان القديمة، والالتصاق الكبير الذى يظهره اليونانيون بالمجهول، والأسطورى. ولن تخبره بأنها لن تُدَرِّس اللغة اليونانية، ولكن من المفترض أن ستُدَرِّس مقررًا اسمه الفكر اليونانى، ولذا فها هى تعيد قراءة كتب "كرستيان دودز" لعلها تفهم شيئًا، قالت:

-أنا فعلاً أريد أن أقرأ، وأعتقد أنى مضطرة إلى الذهاب إلى آخر عربة، عربة المراقبة.

ونهضت، ومضت، ولم تقل إلى أين، وتوقعت أن يمضى فى إثرها، سعيًا إلى اعتذار، أو نشدانًا لعفو. فى الوقت نفسه كان الجو باردًا فى عربة المراقبة، وهى العربة الأخيرة فى القطار، وربما تمنت أن تحضر معها السويتر، ومن المستحيل العودة الآن. لم يعجبها

www.ibtesama.com

مشهد الطبيعة الذى تشاهده من عربة المراقبة؛ مشهد كبير لا تستطيع الإلمام بأجزائه المترامية، تمنت لو تعود إلى مشهد نافذة عربة النوم. فى العربة الأخيرة تقلقك تقلبات القطار على القضبان، تراها أمامك.

ربما كانت المشكلة أنها تشعر بالبرد الشديد، مثلما توقعت بالضبط. وأنها تشعر بالاضطراب، ولكنها لا تشعر بالحزن. لو انتظرت لحظة واحدة لوجدت يده الرطبة تمتد إليها، يداً رطبة أم جافة أم ظامئة؟ أم هى كل هذه الصفات؟ ولاستقرت فى مقعدها. كان ذلك أول فوز تحققه من هذا النوع، أمام خصم مغرق فى التفاهة والسادية. تستطيع أن تسمعه الآن وهو يجتر كلماته، ويعيد ألفاظه، الاعتذار الممتزج بالسفاهة، الاعتذار من عاداته الراسخة، والسفاهة ثمرة أمل أو ثبات يقلب صفحة وحدته، وتوقه المكبوح.

نصرٌ ضرورى، ولكنه لم يكن يسيراً، لم يكن يسيراً على الإطلاق. والحق أنه كان أكثر من نصر، الوقوف فى وجه رجل بهذه الحال. أكثر من نصر أن تثبط همته، وتكبح جماحه، وإلا عاودها البؤس، والهوان.

لم يكن فى عربة المراقبة إلا اثنان، سيدتان أكبر سنًّا، تجلس كلُ واحدة بمفردها. وعندما رأت "جولييت" ذئبًا ضخمًا يعبر سطح بحيرة صغيرة تغطيه الثلوج، عرفت أن السيدتين شاهدتاه أيضاً، ولكن الصمت ظل على حاله، وهو ما كانت تتمناه. ولم ينتبه الذئب للقطار، ولم يتردد أو يسرع. كان فراؤه طويلاً، فى لون الفضة المفضية إلى اللون الأبيض. فهل يعرف أن فراءه ربما يخفيه عن الأعين؟

www.ibtesama.com

وبينما كانت تشاهد الذئب، وصل راكب آخر: رجلٌ استقر على المقعد على الجانب المقابل لها. هو الآخر كان يحمل كتابًا، ثم وصل زوجَان في مرحلة الكهولة، هي ضامرة الجسم ومرحة، وهو لحيمُ عابس، بالكاد يلتقط أنفاسه. وعندما استقرا على مقعديهما قال:

- الجو بارد هنا.

- هل تريد معطفك؟

- لاأريد أن أتعبك.

- لا تعب ولا حاجة.

- ماشى.

وفى هذه اللحظة قالت المرأة:

- هنا تجد منظرًاطبيعيًاعلى الأقل.

ولم يجب، وعاودت العرض:

- تستطيع أن ترى كل شىء وأنت فى مكانك هنا.

- وما هى الأشياء التى يمكن رؤيتها؟

- انتظر حتى يعبر القطار الجبال. سترى عجبًا، هل أعجبك الإفطار؟

- البيض كان محروقًا.

رقت المرأة لحاله وقالت:

- عارفة. كنت أفكر فى اقتحام المطبخ، وإعداد البيض بنفسى.

- مطبخ سفينة، يسمونه مطبخ سفينة.

- أظن أن له علاقة أكثر بالقوارب الصغيرة.

رفعت "جولييت" عينيها عن كتابها، فى الوقت نفسه الذى فرغ الرجل الجالس فى الجانب الآخر من الممر من قراءة كتابه، فتقابلت

www.ibtesama.com

عيناهما، يغشاهما تعبير هادئ محجم. وفى هذه الثانية أو الثانيتين تباطأ القطار، ثم توقف، وذهب كلٌ بعينيه فى اتجاه مختلف.

وصل القطار إلى قرية صغيرة فى الغابات، من ناحية تقع المحطة، مطلية بلون أحمر غامق، ومن الناحية الأخرى عددٌ قليل من البيوت، مطلية باللون نفسه، أهى بيوت أم ثكنات خصصت لعمال السكة الحديد؟ ويوجد لافتة عليها إعلان يعلن أن القطار سيقف هنا عشرة دقائق.

كان الرصيف قد خلا من الثلج، وكانت "جولييت" تتطلع ببصرها إلى الأمام، رأت بعض الناس ينزلون من القطار، ويتمشون بالقرب منه. تمنت لو فعلت مثلهم، ولكن لن تفعل ذلك دون معطفها الثقيل.

وقف الرجل الذى كان يقرأ مثلها، ونزل درج العربة دون أن يلتفت. ومن أبواب مفتوحة هنا وهناك تسلل تيارٌ من الهواء البارد فغشى الممرات. سأل الزوج الكهل عما يجرى، وعن اسم المكان. تقدمت زوجته إلى أول العربة تريد أن ترى الاسم، ولكنها لم توفق.

كانت "جولييت" تقرأ عن الزار الإغريقى، طقوس تُمارس فى الهزيع الأخير من الليل، فى منتصف فصل الشتاء، على حد قول "دود". تسلقت النساء قمة جبل برناس، وعند الوصول إلى القمة، اعترضتهن عاصفة ثلجية، وكان لابد من وصول فرق إنقاذ، وعندما عادت فرق الإنقاذ بأعضاء الزار الإغريقى (الميناد) كانت ملابسهن صلبة كألواح الخشب، وهن فى قصفهن وهياجهن قبلوا الإنقاذ. قالت "جولييت" فى نفسها: "ما أشبه اليوم بالبارحة؛ كأنها تطالع

www.ibtesama.com

مشهداً يجرى اليوم. هل تشاهده الطالبات؟ احتمال بعيد. أظن أن هناك من يحول بينهم وبين المتعة، والمشاركة. "

تناهت إلى الآذان أصوات إعلان، وتوقف الهواء البارد عن المرور بالعربات، وسمعنا حركة محجمة تشبه صوت مفتاح التحويلات، رفعت "جولييت" عيناها لتشاهد، وترى على البعد القاطرة تتوارى وراء منحنى خطير. ثم ترنح، أو ارتجاف يسرى فى جميع عربات القطار. يغشى الركاب شعور بارتطام، وثم يتوقف القطار فجأة.

كان الجميع ينتظرون انطلاق القطار من جديد، وتوقف الناس عن الكلام. حتى الزوج الذى كان يشكو أحوال الزوجة والدنيا لاذ بالصمت. ومرت الدقائق ثقيلة متباطئة، وكانت الأبواب تُفتح وتُغلق، وتناهت إلى الأسماع أصوات رجال، وسرى شعور برعب وهلع وهياج، وفى عربة الجر التى كانت على مبعدة سمعوا صوت مسئول، ربما كان صوت الكمسارى، وكان يتحدث بصوت مسموع.

نهضت "جولييت" ومضت إلى مقدمة العربة، تطالع عيناها العربات جميعاً، رأت ناساً يتسارعون على الثلوج. نهضت واحدة من السيدات اللائى كن يجلسن بمفردهن، ووقفت بجوارها، وقالت لـ"جولييت":

– أعتقد أن هناك ما يحدث، أو على وشك الحدوث، شعرت بذلك بعد أن توقف القطار، اعتقدت أن حدثًا سيحدث.

نهضت سيدة أخرى كانت تجلس بمفردها، وانضمت إليهما. قالت:

– لا أظن أن هناك أحداثًا، كل ما فى الأمر أن فرعًا من الشجر علق بين العربات.

www.ibtesama.com

وقالت السيدة الأخرى:

- لا. كان ذلك ستتكفل به العربة الصغيرة التى تسبق القطار، تلتقط الأشياء التى من هذا القبيل.

- ربما سقط الفرع فى لحظة مرور القطار.

تحدثت السيدتان بلهجة شمال إنجلترا، دون ادعاء للتهذيب الذى يتظاهر به الأجانب أو المعارف. وبعد أن أمعنت "جولييت" النظر فى وجهيهما بعد القرب، عرفت أنهما ربما كانتا أختين، رغم أن الأولى لها وجه عريض أصغر سناً. يسافران فى قطار واحد، ويجلسان كلٌ فى مقعد منفصل. وربما كانا متخاصمتين.

كان الكمسارى يرتقى الدرج إلى عربة الملاحظة، واستدار قبل النهاية ليتحدث:

- لا تنزعجوا، لم يحدث شىء يستحق الانزعاج يا جماعة، يبدو أننا اصطدمنا بعائق ما. نأسف على التأخير، وسوف نستأنف السير بأسرع ما يمكن، ولكن يمكننا أن نبقى فى أماكننا لوقت قصير. أخبرنى المضيف بأن البوفيه سقدم قهوة مجانيةً بعد دقائق.

وتبعته "جولييت" على السلم، شعرت بعد وقوفها بأن مشكلة تظهر لها، جعلتها تحس برغبة عارمة إلى العودة إلى مقعدها، وحقيبتها، سواء كان الرجل الذى تجاهلته هنا أو لم يكن. وبينما كانت تشق طريقها خلال العربات قابلت آخرين يتحركون ويغادرون، وآخرين كانون يتطلعون من خلال النوافذ المفتوحة فى جنبات القطار، أو علِقوا بين العربات، كأنهما كانوا يتوقعون أن تُفتح الأبواب. لم يكن لدى "جولييت" وقتًا للأسئلة، ولكنها وهى تتهادى نحو مقعدها الأول

www.ibtesama.com

سمعت من يقول: إنه ربما كان الدب أو الإلكة الأمريكى أو بقرة. وتساءل الناس ما الذى جاء بالبقرة إلى هذه الغابات، ولماذا كانت الدببة يقظة إلى هذا الوقت المتأخر، ربما كان أحد السكارى نام على القضبان. فى عربة المطعم جلس الناس إلى الموائد التى جردوها من مفارشها الزاهية، يحتسون القهوة المجانية.

كان مقعد "جولييت" خاليًا، وكان المقعد المقابل خاليًا أيضًا. تناولت حقيبتها وأسرعت الخطى إلى "تواليت" السيدات، دم الدورة الشهرية هو لعنة حياتها. فى أحيانٍ كثيرة يفسد عليها لحظاتها، وهى مشغولة فى كتابة امتحانات مهمة مدة كل واحد منهما ثلاث ساعات؛ وهى لا تستطيع مغادرة الحجرة طلبًا للتعزيز.

احتقن وجهها بالدم، وتقلصت أجزاء جسمها كله، واجتاحها شعور بدوار، ومرض، شملتها مقصورة "التواليت"، وأزالت حِفاضها المشبع، ولفته فى ورق "التواليت" ووضعته فى الوعاء المخصص له هناك. وعندما وقفت استبدلت حِفاضها الجديد بالقديم. رأت الماء والبول فى "التواليت" بلون قرمزى بعد اختلاطه بدمها. وضعت يدها على زر السيفون، وسرعان ما قرأت مكتوبًا أمامها أن الضغط على السيفون ممنوع عند توقف القطار. وهذا فى الواقع يعنى عندما يتوقف القطار فى المحطات، فيمكن للناس أن يروا هذه الأشياء عندما تصطدم بالأرض والقطار واقف، هنا توجد مخاطرة.

ولكن بمجرد أن لمست الزر مرة أخرى سمع أصواتًا قريبة منها، لم تكن قادمة من داخل القطار وإنما من خارجه، من خارج نافذة

www.ibtesama.com

"التواليت" الضيقة التى يعلوها زجاج مكسور. ربما كان عمال القطار يتمشون خارجه.

كان يمكن أن تبقى حتى يتحرك القطار، ولكن إلى متى؟ وماذا سيحدث إذا كان أحدهم ينشد الحمام؟ وقررت الضغط على الزر والعودة إلى مقعدها فى العربة.

وعادت إلى مقعدها، رأت أمامها طفلاً فى الرابعة أو الخامسة من عمره، يعبث بتوتر بقلم رصاص على صفحات كتاب ألوان. تحدثت أمه إلى "جولييت" عن القهوة المجانية.

– هى مجانية ولكن يبدو أننا مضطرون إلى الذهاب إلى البوفيه لنشربها هناك، فهل من فضلك تأخذى بالك منه حتى أعود؟

ولكن الطفل قال دون أن ينظر إلى "جولييت":

– لا أريد أن أبقى معها.

وقالت "جولييت":

– أنا ذاهبة.

وفى تلك اللحظة حضر النادل يدفع بعربة القهوة. وهنا قالت الأم:

– ها هى القهوة حضرت، لم يكن من حقى أن أتسرع فى الشكوى. هل سمعتِ أنها جثة؟

وهزت "جولييت" رأسها.

– لم يكن يرتدى حتى معطفًا، رآه بعض الركاب يغادر القطار ويمضى دون أن يلوى على شىء، ولكنهم لم يعرفوا ما كان يريد، لابد أنه كان قد جاوز المنحنى، فلم يره السائق حتى سبق السيف العذل.

www.ibtesama.com

وعلى بعد عدد قليل من المقاعد، فى الممشى من ناحية الأم، قال رجل:

- أها هم قد عادوا.

ونهض بعض الركاب، فى ناحية "جولييت"، واشرأبت أعناقهم ليروا، ووقف الطفل أيضًا، ودس وجهه فى زجاج النافذة، وحذرته أمه من ذلك، وطلبت منه الجلوس.

- ألا ترون الفوضى التى أحدثتموها فى جميع الأركان؟

قالت السيدة:

- لا أستطيع أن أنظر، لا أستطيع أن أقف وأرى أى شىء من هذا القبيل؟

نهضت "جولييت" وراحت تنظر، رأت جماعة قليلة من الرجال يتسكعون عائدين إلى المحطة، بعضهم خلعوا معاطفهم ووضعوها فوق المِحفة التى كانوا يحملونها. قال رجل كان يقف خلف "جولييت":

- لا نستطيع رؤية أى شىء، لقد غطوه تمامًا.

لم يكن جميع الرجال الذين كانوا يمشون حول المِحفة، وقد انخفضت رؤسهم، من موظفى السكة الحديد، تعرفت "جولييت" على الرجل الذى كان يجلس فى الجهة المقابلة فى عربة المراقبة.

وبعد عشر أو خمس عشرة دقيقة، بدأ القطار يتحرك، يكاد أن يتجاوز المنحنى، كان المكان خاليًا من الدم من أى من جانبى العربة. ولكن لاحت على البعد منطقة معبدة من كثرة المشى عليها، كومة مجرفة من الثلج. اشرأب الرجل الذى يقف خلف "جولييت" برأسه من جديد، وقال:

www.ibtesama.com

- هنا مكان الحادث على ما أظن.

ثم راح يتطلع دقيقة أخرى، ولما لم يجد جديداً تراجع القهقرى واستقر على مقعده.

وبدلاً من أن يسعى القطار إلى تعويض الوقت الضائع، أصبحت سرعته أبطأ من السابق؛ ربما احتراماً لجلال الحدث، وربما خوفاً من أن يحدث شيء عند المنحنى القادم. وتجول رئيس الخدمة فى القطار ليعلن ميعاد الغداء، واستيقظت الأموالأطفال فجأة ليتبعوه. بدأ يتكون حوله موكب، وسمعت "جولييت" سيدة تقول وهى عابرة: "حقًا؟"

وقالت السيدة التى تتحدث معها برفق: "هذا ما قالته، الدم الكثير، فلابد أنه انتشر عندما مشى القطار"

- صحيح.

وبعد وقت قصير، عندما انتهى الموكب، وكان بعض الناس مشغولين فى تناول الغداء، وصل الرجل - الرجل الذى كان فى عربة المراقبة، والذى رأوه خارج القطار يسير على الثلج.

نهضت "جولييت"، وسارت على إثره. وفى الفضاء البارد المظلم بين العربات، وفى اللحظة التى كان يدفع فيها الباب الثقيل أمامه، قالت:

- اسمح لى، أريد أن أسأل سؤالاً.

كان هذا الفضاء مليئًا بالضوضاء المفاجئة، وصليل العجلات الثقيلة على القضبان.

- ما هذا؟

www.ibtesama.com

– هل أنت طبيب؟ هل رأيت الرجل الذى...؟

– لا.. أنا ليس الطبيب، لا يوجد طبيب فى القطار، ولكن عندى بعض الخبرة الطبية.

– كم كانت سنه؟

وأمعن الرجل فيها النظر بصبر واثق، وبعض الاستياء.

– لم يكن كبيرًا فى السن، وليس شابًّا فى الوقت نفسه.

– هل كان يرتدى قميصًا أزرق؟ هل كان شعره أشقر يميل إلى البنى؟

وهز رأسه، لا ليجيب على سؤالها، ولكن ليرفضه. ثم قال:

– هل كان شخصًا تعرفينه؟ الواجب أن تخبرى الكمسارى إذا كنت تعرفينه.

– أنا لا أعرفه.

– بعد إذنك.

ودفع الباب ليفتحه، ومضى.

قال فى نفسه: إنها تفيض بالفضول المقيت مثل سائر الكثير من الناس.

أو تفيض بالدم. كان ذلك مقيتًا أيضًا.

لم تستطع أن تخبر أحدًا عن سوء الفهم الذى حدث، النكتة الفظيعة التى أثمرها هذا الفهم المفارق. لن تخبر أحدًا؛ سيظنها الناس فظة غليظة القلب، إذا ذكرته وفى أى وقت. وماذا انطوت عليه هذه المفارقة؟ ذلك الجسد الذى دهسته عجلات القطار؟ هل هو انتحار؟

www.ibtesama.com

لن تخبر به أحداً. (ولكنها أخبرت به، بعد سنوات قليلة، امرأة تُدعى كرستا، سيدة لم تعرف اسمها حتى الآن).

ولكن رغبة ملحة جعلتها تريد أن تخبر أحداً، أى أحد أى شيء. وأخرجت كراستها، وعلى سطور أحد صفحاتها شرعت تكتب رسالة إلى والديها:

لم نصل إلى حدود مانيتوبا، وأغلب الناس ما فتئوا يشكون من الملل، ولكنهم لا يستطيعون القول بأن الرحلة خالية من الأحداث الدرامية المثيرة. وقف بنا القطار هذا الصباح عند بلد صغير بائس فى الغابات الشمالية، ومحطتها البائسة بألوانها الحمراء الكئيبة. كنت أجلس فى مؤخرة القطار فى عربة المراقبة، واستولى علىّ الخوف الفظيع؛ لأنى رأيتهم يهرعون هناك إلى مكان فيه حادث (وعلى فكرة المشاهد الخلابة للطبيعة خارج القطار هى التى تلهى المرء عما يزعجه)، وحال الكسل بينى وبين العودة إلى مقعدى لأخذ البلوفر. رحنا نرقب المشهد هناك عشر أو خمس عشرة دقيقة، ثم بدأ القطار يتحرك من جديد، وأستطعت أن أرى الجرار يدخل فى منحنى فى الأفق، وفجأة سمعنا صوتًا فظيعًا يشبه الانفجار... .

كانت "جولييت" مثل أمها ومثل أبيها، نشأت على عادة جمع الحكايات المثيرة الممتعة كل إلى الأخرى. وهذا يتطلب التوافق الحاذق، لا مع الحقائق وكفى، ولكن مع موقف المرء مع العالم. أو هكذا استقر رأى "جولييت" عندما كان عالمها هو المدرسة. صنعت من نفسها مراقب كبير، منيع. والآن وبعد أن خرجت من بيتها كل الوقت أصبح الوضع السابق عادة، أو واجب تؤديه.

www.ibtesama.com

ولكن بمجرد أن كتبت كلمتى "انفجار فظيع"، وجدت نفسها عاجزة عن الاستمرار، عاجزة - بلغتها المعتادة - عن الاستمرار.

حاولت التطلع من خلال النافذة، ولكن المشهد، المؤلف من العناصر نفسها، قد تغير. فعلى بعد أقل قليلاً من مائة ميل، يبدو المناخ أكثر دفئًا. كانت البحيرات تحيط بها الثلوج، ولم تكن مغطاة تمامًا. وأما المياه الداكنة، والصخور الداكنة، تحت الغيوم الشتوية، فقد ملأت الجو بعبق الظلام. ملت المشاهدة، وتناولت كتاب "دود، " وفتحته بطريقة عشوائية؛ لقد فرغت من قراءته بالفعل. تقلب الصفحات فتنتابها رغبة فى وضع الخطوط تحت السطور، حتى وصلت إلى بعض الفقرات، ولكن عندما قرأتها من جديد، وجدت أن ما كانت تظنه واضحًا أصبح الآن غامضًا يستعصى على الفهم، مشوشًا يدعو إلى التفكير.

... وما يظهر للرؤية الجزئية للأحياء من عمل الشرير، يتعرض للفهم الأرحب للأموات أن يصبح مظهرًا من مظاهر العدالة الكونية...

وانزلق الكتاب من بين يديها، وداعب الكرى جفنيها، وراحت فى سنة من النوم، هى الآن ترى نفسها ماشية مع بعض الأطفال (التلاميذ؟) على سطح بحيرة. وكانوا يقفزون فى البحيرة بين الحين والحين، فتظهر على البحيرة المتجمدة شروخ، حتى أصبح سطح البحيرة أشبه بلعبة المكعبات، سألها الأطفال عن اسم هذه المكعبات الثلجية، وكانت تجيبهم بشىء كبير من الثقة: البحر الخماسى الأيامبى. ولكنهم ضحكوا، وبهذه الضحكات اتسعت الشروخ. وأدركت أن خطأها، وأن المصطلح الأصح هو الكفيل بإنقاذ الموقف، ولكن الكلمة لم تسعفها.

www.ibtesama.com

مشت ورأت الرجل نفسه، الرجل الذى تبعته وضايقته بين العربات، يقف فى مواجهتها. تلوح منه ابتسامة إلى ما قالته.

– واضح أنكِ كنت نائمة.

كانت نائمة ورأسها قد مال إلى الأمام، أشبه بسيدة عجوز، ولاح على ركن من فمها مقدار ضئيل من اللعاب. وعرفت أيضًا أنها يجب أن تذهب إلى "تواليت" السيدات فى الحال، يحدوها الأمل فى ألا تجد شيئًا على تنورتها. قالت للرجل:

– عن إذنك (وهى الكلمة التى قالها لها من قبل) وتناولت حقيبتها ومضت بشىء من الثقة والعجلة على قدر الطاقة.

وعندما عادت، وقد اغتسلت ورتبت نفسها، وغيرت حِفاضها، كان هناك جالسًا لا يزال.

وتحدث معها فجأة. قال إنه يريد أن يعتذر لها.

– تذكرت الآن أنى كنت فظًا معكِ، عندما سألتِنى....

– "نعم، " قالت.

فقال:

– كنت على حق، تفسيرك للأمر كان صحيحًا.

وبدا كأنه يتودد لها، أكثر منه تبادلٌ مباشرٌ لابد منه للمعلومات. فإذا لم تهتمِ بالحديث معه، فقد كان ينبغى أن ينهض، ويمضى إلى حال سبيله، ولم يكن له أن يُحبط، ويرتكب تلك الفعلة فى حق نفسه.

اهتزت "جولييت" من فرط التأثر والحزن، وترقرقت الدموع فى عينيها. لم يكن ذلك متوقعًا بالمرة، الزمن يمر دون أن يشعر به أحد. قال لها الرجل:

www.ibtesama.com

- أوكـيه، أوكـيه.

وهزت رأسـهـا أكثر من مـرة، فى حركات سـريـعـة مـتـتـالـيـة، وشـهـقت بيأس، وتمـخطت فـى المنديل الذى وجدته فى حقيبتـهـا فى الـنـهـاية، وقالت:

- لا عليك.

ثم أخبرته على نحو صريح، ما حدث بالفعل، وكيف انحنى الرجل وسـألـهـا عن المـعـقـد الذى بجـوارهـا، وهـل كـان خـالـيًـا أم لا، وكيف جلس، وكيف كانت تتطـلـع من خلال الـنافذة، وأنـهـا لن تـفعل ذلك مرة أخرى فى حياتها المستقبلية، وأنـهـا كانت تتظاهر بأنها كانت تقرأ فى كتابـهـا، وكيف سـألـهـا مـتى ركبت الـقـطار، وعرف أين تـسكن، ولبثت مشـغولة، ولبث هـو يـلح عليـهـا أن تـبادلـه حـديثًا بـحـديث، حـتى ملت الرجل والمكان، فنهضت وتركته.

لم تقل لـه إن الرجل كان يـأمل فى صداقة بريئة، أو تـبادل بعض الحديث، وربما لـو كـانت قـالت ذلك لانفجرت فى بكـاء مرير. قال لـهـا الرجل:

- الناس يريدون الحكى مع النسـاء، ربمـا أسـهـل من الرجال.

- أجل.. الحق ما تقول.

- يظنون أن النساء أكثر ظرفًا.

قالت وهى تتململ:

- ولكنه لم يكن يريد أكثر من إنسان يتحدث معه. كان يبحث عن شـخص يشـعر به أكثر مما فعلت، أنا فـهمت الآن، ولم أكن فظة، ولا متعالية، ولكنى كنت كذلك على ما يبدو دون أن أشعر.

www.ibtesama.com

وتوقفت "جولييت" عن النحيب والكلام، وراحت تشهق من جديد، وراحت عيناها ترسل الدموع إلى صفحة وجهها كله، تريد أن تردها فلا تجد إلى ذلك سبيلاً.

قال الرجل:

– ألم تفعلى ذلك مع أى شخص قبل اليوم؟

– كنت أفعل ذلك ولكنى لم أتمادى إلى هذا الحد فى يوم من الأيام، لماذا فعلت ذلك هذه المرة؟ – ربما لأنه بدا متواضعًا وذليلاً إلى حد بعيد. كان يرتدى ملابس جديدة، وربما اشتراها خصيصًا من أجل الرحلة نفسها، وربما لم يقرر السفر فى هذه الرحلة إلا لأنه شعر بالإحباط من الناس ومن والدنيا كلها، وظن أن السفر ربما يتيح له رؤية آخرين مختلفين، وربما يظفر منهم بصديق أو اثنين.

– وربما كانت رحلتهقصيرة، ولكنه قال: إنه كان ذاهبًا إلى فانكوفر، وربما، وربما كان يأمل فى صداقة تستمر أيامًا.

– نعم.

– كان لابد أن أفهم بغيته.

– نعم.

– نعم.

– "حظ تعس وبشع. " قال الرجل وقد لاحت منه ابتسامة خفيفة. "أول مرة تقررين فيها الصد، والتوقف عن الكلام مع رجل يريد أن تبادليه الحديث، يلقى بنفسه بين عجلات قطار.

وقالت وهى تشعر الآن برغبة فى الدفاع عن نفسها:

– ربما كانت القشة التى قصمت ظهر البعير. ربما كانت القشة.

www.ibtesama.com

– أظن أنه عليك أن تحتاطى فى المستقبل.

ورفعت "جولييت" وجهها قليلاً وأجابته بشىء من الثقة والثبات:

– تقصد أنى كنت مبالغة.

ثم حدث شىء لم تكن تتوقعه، مفاجئ كدموعها التى انهمرت؛ اختلج فمها ببوادر ضحك صارخ سرعان ما علا.

– أظن أن الرجل كان متطرفًا بعض الشىء فى رد فعله.

– بعض الشىء.

– تظن أنى أمزح، أو أمثل؟

– هذا طبيعى.

قالت وقد تمالكت:

– ولكنك قلت إنه خطأ كبير. ألم تقل إن الشعور بالذنب ما هو إلا إسراف فى العفو؟

فقال:

– كنت أعنى أن... كنت أعنى أن الشعور بالذنب شىء ثانوى. ولن تتوقف الأحداث عن أن تحدث فى حياتك، والأغلب أنها لن تتوقف عن الحدوث أبدًا. ولذا فسوف يبدو الشعور بالذنب ثانويًا. هناك أشياء أخرى ستشعرين إزاءها بأنك مذنبة.

– الناس يزعمون ذلك فى الغالب، أليس كذلك؟ خاصة إزاء الأصغر سنًا؟ يقولون لهم: أوه.. لا تفكروا بهذه الطريقة مرة أخرى فى المستقبل. انتظرى لترى، كأنه لا يحق لى الإحساس بأى شعور جاد، وكأنى عاجزة عن هذه المشاعر.

قال الرجل:

www.ibtesama.com

- المشاعر!! كنت أتحدث عن الخبرة، التجربة.

- ولكنى ظننت أنك تقول إن الشعور بالذنب ليس له قيمة كبيرة، وإن الناس يقولون ذلك. هل هذا صحيح؟

- أنتَ التى قلتِ ذلك.

وطفقا يتبادلان الحديث زمنًا ليس بالقصير، أصواتهما منخفضة، ولكنها قوية مبينة حتى لفتت أنظار المارة، واستدعت دهشتهم، وربما ضيقهم، كما ينبغى للناس عندما تتناهى إلى أسماعهم أصوات شجار وجدل عقيم. أدركت "جولييت" فى تلك الأثناء، أنها لم تقصر فى الحِجاج، ولم تتراجع عن الدفاع عن فكرتها بضرورة أن يشعر الإنسان بالذنب بين الحين والحين، وأن مشاعر الإحساس بالذنب هذه - سواء أمام الناس أو أمام النفس - ضرورة فى حياة المرء. رغم ذلك أدركت أنها توقفت عن الشعور بالذنب فى تلك اللحظة، بل راحت تنشد التسلية!

وعرض عليها الرجل أن يمضيا إلى صالة الطعام، لعلهما ينالان قدحًا من القهوة. وهناك أحست "جولييت" بالجوع، رغم أن الساعات المخصصة للغداء كانت قد مضت منذ حين. ولم يتبقَ لها غير البسكوت المُمَلَّح، والفول السودانى، وراحت تلتهم البسكوت والفول السودانى بشىء من النهم، كأنها نسيت جدل الساعة المنصرمة، ولم يعودا إلى موضوع حوارهما الأول، وإنما راحا يتحدثان حول نفسيهما. قال لها إن اسمه إيرك بورتيس، وإنه يعيش فى مكان يُقال له خليج الحوت، يقع فى شمال فانكوفر، على الساحل الغربى. وقال أيضًا إنه لم يكن ماضيًا إلى هناك فى ذلك الحين، وإنه سوف يقطع

www.ibtesama.com

الرحلة ليعرج على بلدة اسمها ريجينا؛ ليرى ناساً لم يرهم منذ زمن بعيد. كان صياداً، وكان يصيد الجمبرى بالذات. وسألته عن الخبرة الطبية التى زعمها فى أثناء الحديث الأول. وقال لها: "لا. . لم تكن خبرة بمعنى الكلمة، درست شيئًا من الطب، فقد نجد أنفسنا فى الأدغال، أو على قوارب الصيد، وقد تظهر أشياء لكِ أو لمن يعملون معك."

كان متزوجاً، واسم زوجته آن.

قال لها أيضاً: أُصيبت آن فى حادث سيارة، وراحت فى غيبوبة أسابيع متعددة، وعادت من غيبوبتها بشلل لا يزال يلازمها، عاجزة عن المشى، وعن الإحساس بنفسها. كل ما تعرفهْ زوجها، والسيدة التى تقوم على خدمتها ورعايتها، وبمساعدة هذه السيدة يهتم بها فى المنزل، ولكن سعيها إلى الكلام وفهم ما يدور حولها سرعان ما قل.

صحبها مرة إلى حفل. لم تكن هى تريد أن تذهب، ولكنه كان يريد، ثم قررت العودة إلى بيتها، قررت المضى إلى البيت على أقدامها، لم تكن سعيدة بالمرة بما كان يجرى فى ذلك الحفل. لم يكن فى الحفل إلا عصابة من السكارى، يتسابقون على الطريق، وطرحوها أرضاً. من المراهقين.

لحسن الحظ لم ينجبا أبناءً. نعم! لحسن الحظ.

– وعندما تقولين ذلك لبعض الناس يظنون بك الظنون ويعتقدون أنك تمرين بمأساة، الخ.

– "وكيف تلومهم؟" قالت "جولييت" وقد همّت أن تقول شيئًا كهذا قبله.

www.ibtesama.com

ثم أردف:

- لا. . الأمر أكثر تعقيداً من ذلك بكثير، فهل كانت "آن" تشعر بالمأساة؟ ربما لم تكن! هل كانت تشعر بالمأساة حقًا؟ كان شيئًا تعودنا عليه، ضربًا من الحياة المختلفة وكفى.

اقتصرت خبرة "جولييت" بالرجال على الخيال. لا تعرف سوى المغنى الأوبرالى "دون جيوفانى" بصوته المهيب، سمعته فى تسجيل قديم عندما كان يمثل دور هنرى الخامس الذى قرأت عنه فى مسرحية شكسبير، وسمعت لورنس أوليفييه وهو يمثل الدور فى الفلم الذى يحمل هذا الاسم.

شىءٌ مضحك، يثير الشفقة، ولكن من يريد أن يعرف؟ فى الحياة الواقعية، يشيع الهوان والتحقير والإحباط، مما أرادت أن تتناساه على قدر الطاقة.

هناك تجربة الاحتشاد مع مجموعة من فتيات لم ترغب فى الاحتشاد معهن، فى حفلات الرقص التى كانت تقيمها المدرسة الثانوية، وكانت تمل المحاولات التى تريد فيه أن تثبت لهم أنها فتاة مرحة ومرغوب فيها، حين تستجيب لدعوات زملائها طلاب الجامعة للخروج معها وهى لم تكن ترغب فى ذلك فى قرارة نفسها، وبعضهم لم يكن يرغب فى الخروج معها أيضًا. والخروج مع ابن أخت المشرف عليها فى رسالة الدكتوراه فى العام الماضى، وتعرضها للاغتصاب فى طريق العودة - لولا بأسها الشديد - فى ساعة متأخرة من الليل، عند موقف وِلِسْ.

وفى طريق العودة شرح لها ما معناه أنها ليست الفتاة التى

www.ibtesama.com

تناسبه، ولم تستطع أن ترد من فرط حزنها وإحساسها بالمهانة، أو على الأقل أن تجعله - فى تلك اللحظة -يشعر أن لم يكن الرجل الذى تبحث عنه.

لم يقتحم أحلامها رجال، ولم تكن تحلم برجل بعينه، ولا حتى بأساتذتها فى الجامعة أو غيرها. كانت تنفر من الرجال الأكبر سنًا فى الحياة الواقعية.

هذا الرجل، كم عمره؟

لبث متزوجًا على الأقل ثمانى سنين، وربما أطول من ذلك بسنتين أو ثلاث. مما يجعله ربما فى الخامسة، أو السادسة والثلاثين. كان شعره أسود متجعد، تظهر على جوانبه شعيرات رمادية. وكانت جبهته عريضة واضحة تظهر عليها آثار الشمس، وكان قوى المنكبين، يشوبهما انحناء خفيف. كان مثلها فى الطول أو يكاد، وكانت عيناه واسعتين، مستقرتين، سوداوين، يتقدان بالشوق، والحذر فى آن. وكان ذقنه مستديراً، تزينه بعض نقرات ضحلة، يميل إلى المشاكسة.

أخبرته عن وظيفتها، واسم المدرسة التى تعمل فيها - مدرسة تورانس للبنات. (فهل تريد أن تسميها مدرسة تورمنت Torments أى: مدرسة العذاب؟). أخبرته أيضًا أنها لم تكن مُدَرِّسة بالمعنى الحقيقى، ولكن الذى حدث أنهم كانوا يبحثون عن متخصص فى الكلاسيكيات واللغة اللاتينية فى الجامعة، ونادراً ما يحدث ذلك فى هذه الأيام.

- إذن فلماذا تخصصت فى هذه العلوم؟

- آه.. السبب الوحيد هو أن أكون مختلفة، على الأرجح.

www.ibtesama.com

ثم قالت له: إنها لم تكن تخبر بذلك الرجال أو الشباب وإلا خسرتهم على الفور. فلماذا يرتبط أحدهم بفتاة تحب الأدب الكلاسيكى، ولغة ميتة كاللغة اللاتينية. ثم أردفت:

– ولكنى أحب تخصصى أيضًا، أعشق اللغة اللاتينية والأدب الكلاسيكى، أعشقهما حقًا.

وتناولا الغداء معًا، وأصاب كلاهما كأسًا من النبيذ، ثم عادا إلى عربة المراقبة، حيث جلسا فى الظلمة، وحدهما. تناولت "جوليت" بلوفرها هذه المرة. قال لها:

– يعتقد الناس أنهم لن يروا شيئًا من خلال الظلام هنا. ولكن انظرى إلى هذه النجوم التى ترصع السماء، هذه لا تُرى إلا عند صفاء السماء.

والحق أن السماء كانت صافية كعين الديك. لم يكن القمر قد اكتمل، وبدت النجوم فى طاقتها الكاملة، ظهرت من خلال أشجار الغابات الملتفة، نجوم ضعيفة، وأخرى قوية نافذة. وكان هو يألف خارطة السماء، كما ينبغى لرجل عاش فى القوارب. ولم تستطع أن تميز إلا الدب الأكبر. قال لها:

– من هنا تبدأين، اجعلى النجمين اللذين على جانبى الدب الأكبر فى مواجهتك مباشرة، هل رأيتهما؟ إنهما اللذان يشيران إلى النجم القطبى. " وهكذا أشار لها إلى الجوزاء، وقال لها إنها المجموعة الكبرى فى نصف الكرة الشمالى خاصة فى الشتاء. ثم أشار إلى كوكب الشعِرى، وهو من أكثر النجوم تألقًا فى السماء الشمالية على الإطلاق.

www.ibtesama.com

وسعدت "جولييت" لدروس الفلك هذه، ولكن سعادتها ازدادت عندما وجدت نفسها تقوم بدور المعلم أيضًا. فقد كان يعرف الأسماء، ولكنه لم يكن يعرف التاريخ.

أخبرته بأن كوكب "الإنوبى" تسبب فى عمى كوكب الجوزاء، ولكنه الجوزاء استرد بصره عندما تطلع إلى قرص الشمس. ثم أردفت:

– أصابه بالعمى لأنه كان جميلاً غاية الجمال، ولكن "هيفايستوس" إله النار أسرع لإنقاذه، ولكنه قُتل رغم ذلك كله، قتله "آرتيمس"، وفى النهاية تحول إلى مجرة كاملة. يتحولون إلى كواكب، فتحدث الكوارث للناس، أين "كاسيوبيا"؟

وتحول بها إلى الحرف الأول من كلمة امرأة Wمن امرأة Woman؟

قال:

– يُقال إنها امرأة تجلس على عرش.

قالت:

– وهى أجمل امرأة أيضًا.

– كان الجمال شيئًا خطيرًا؟

– تراهنى. كانت متزوجة من ملك الحبشة، وكانت أم "آندروميدا"، وكانت تزدهى بجمالها، وعقابًا لها طُرِدت إلى السماء. وأصبحت فى السماء "آندروميدا"، أيضًا؟

– "آندروميدا" هذه مجرة. فى وسعك رؤيتها الليلة. إنها أبعد المجرات، أبعد شىء يمكن أن تريه بالعين المجردة.

حتى وهو يدلها على مجرات السماء، ويخبرها عن المواضع التى

www.ibtesama.com

يجب أن تنظر إليها فى السماء، لم يلمسها، لا.. لم يلمسها أبدًا، كان متزوجًا.

سألها:

– أين"آندروميدا"؟

– يقولون إنها مشدودة الوثاق إلى صخرة، ولكن "بيرسيوس" أنقذها، فك وثاقها.

...

خليج الحوت.

حوض سفن، عددٌ من القوارب الكبيرة، محطة بنزين، ومحل تعلوه لافتة على النافذة تنبئك بأنه محطة أوتوبيس أيضًا، ومكتب بريد.

سيارة مركونة بجوار هذا المحل عليها علامة تدل على أنها سيارة أجرة، علامة مصنوعة فى البيت. تقف "جوليت" حيث نزلت من الأتوبيس، ويتحرك الأتوبيس، ويعلو صوت نفير التاكسى، يخرج السائق، ويتجه إليها.

– أنت وحدك، وإلى أين؟

وهى تسأل عن مكان يبيت فيه السائحون، لا تسأل عن فندق:

– ألا تعرف ناسًا يؤجرون حجرات هذا العام، ألا تعرف أحدًا ممن يسكنون فى الداخل.

كان لابد من ذكر اسم "إرِك".

قال لها الرجل وهو يتنفس الصعداء:

– طبعًا، حياك الله، تفضلى. ولكن المكان لا يليق بكِ، وقد لا تتمكنين من حضور طقوس ليلة الدفن، (missed the wake).

www.ibtesama.com

في البداية ظننت أنه يقول لها: missed the wait, أو weight؟

- "أوقات عصيبة، " يقول السائق وهو يشرع في الجلوس خلف عربة القيادة. "لا زالت على حالها لم تتحسن.

ليلة الدفن. الزوجة. آن.

يقول أيضًا:

- الأمور بسيطة، أتوقع وجود المنتظرين، ليس من شك أنك لتلحقي بالجنازة، كان يومًا فظيعًا بالأمس، ألم تخرجي؟

وقالت "جولييت":

- لا.

- لا يجب أن أسميها ليلة الدفن، فهل يجب؟ ليلة الدفن هي الليلة التي تسبق ليلة الدفن، أليس كذلك؟ أنا لا أعرف ما تقول إنه يحدث بعد ذلك. لا ينبغي أن يُسمى ذلك حفلاً، أليس طقسًا من الطقوس؟ في داخل البلاد، بعيداً عن الطريق السريع، وبعد ربع ميل أو نحو ذلك من الطريق المتسخ، تقع مقبرة خليج الحوت.

وقريبًا من السور تجد كومة مرتفعة عن الأرض قليلاً مغمورة تمامًا بالزهور، زهور حقيقية شاحبة، وزهورٌ أخرى اصطناعية متألقة، وصليبٌ صغيرٌ من الخشب، نُقش عليه الاسم والتاريخ. وتجد شرائط ملونة بألوان شتى انتشرت على العشب في أرجاء كثيرة من المقبرة. لفت انتباهها إلى الحفر الصغيرة والفوضى التي أحدثتها عجلات السيارات الكثيرة التي حضرة الجنازة بالأمس.

- نصف عدد المشيعين لم يرَها مرة واحدة في حياته، ولكنهم كانوا يعرفونه هو، ولم يتأخروا عن الحضور، الجميع يعرف "إرِكْ".

www.ibtesama.com

وعادا إلى السيارة، ولكنهما لم يعودا إلى الطريق السريع، أخبرت السائق أنها غيرت رأيها؛ رغبت الآن عن زيارة من كانت تريد زيارته، وتريد أن تنتظر فى المحل لتستقل الأوتوبيس الذاهب إلى طريق مختلف، ماذا حدث؟ لقد ضاع اليوم لأنها لم تحسن اختيار التوقيت، تشعر بالخجل لأنها لم تحضر الجنازة، كيف تمعن النظر فى الوجوه وهى التى لم تحضر الجنازة، لا تريد أن تظهر على أحد.

ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ وقد يشى بها، مهما كانت النتائج.

كانا يسيران فى طرق جانبية ضيقة تكثر فيها المنحنيات، أمام عدد قليل من المنازل الصغيرة، وكلما لاح طريقٌ مخصص للسيارات لا يسلكانه، يجتاحهما شعور بالرغبة فى العودة. هنا قال السائق وهو يتجه بالسيارة إلى الممر:

– حسنًا.. ها هى مفاجأة أخرى.. أين ذهب الناس؟ أكثر من "دستة" سيارات كانت موجودة حين كنا فى المقبرة منذ ساعة، حتى شاحنته النصف نقل اختفت. انتهى الحفل. أنا آسف طبعًا لما أقول.

قالت "جولييت" فى استغراب شديد:

– حقًا.. ولا واحد! !لم يبقَ إلا أن أعود.

– انتظرى.. ها هو شخص هناك.. ولا يهمك.. "آيلو" هنا. ها هى دراجتها. طبعًا لم يحدث أن قابلتِ "آيلو"؟ هى التى تولت عمل جميع الترتيبات؟

وخرج من السيارة ليفتح لها الباب.

www.ibtesama.com

وما خرجت "جولييت" من السيارة حتى رأت كلبًا ضخمًا قادمًا يثب وينبح، وسيدة تنادى من شرفة المنزل. وأما السائق فقد حصل على أجره، وقفل راجعًا إلى سيارته وهو يذب عنه الكلب: "بت.. بت.. لا تقترب. "وعلا صوت السيدة في الشرفة:

- بِتْ. . تعالى... لا تتحركى. . اجلسى على الأرض.. لن تؤذيكِ.

ثم وهى تخاطب "جولييت":

- هى مجرد كلبة مدللة.. لا تخافى.

قالت "جولييت" فى نفسها:

- مجرد كلبة مدللة.. يعنى لن تجرؤ على الهجوم على الأقل.

والآن ينضم إليها كلب آخر صغير لونه بنى يميل إلى الأحمر، لا يريد أن تفوته المعركة، ونزلت السيدة درجات السلم وهو تصيح:

- بِتْ... بِتْ. . كوركى.

ثم وهى تخاطب "جولييت":

- املكى نفسك يا آنسة! إذا عرفت الكلاب أنك قلقة وفزعة سيمعنون فى مطاردتك، وسيعضونك.

قالت "جولييت" وهى تقفز إلى الوراء عندما راح الكلب الأصفر يحك ذراعها بأنفه بعنف:

- لست خائفة، ولا مُرَوَّعَة.

- بِتْ. . كوركى.. اهدآ.. اجلسا على الآرض كلاكما.. أنتما الاثنان، وإلا ضربتكما على رأسيكما.

ثم وهى تخاطب "جولييت":

- هل شهدتِ الجنازة، لقد كانت الأحوال سئية؟

www.ibtesama.com

وتهز "جولييت" رأسها، كأنها تريد أن تعبر عن أسفها وحزنها الذى يفوق الحد. ثم تقدم "آيلو" نفسها لها:

-حسناً!! الأمور تزداد سوءً كل يوم... أنا "آيلو" (ويتصافحان).

كانت "آيلو" سيدة طويلة القامة، أكتافها عريضة، وجسد وافر ولكنه ليس مترهلاً، وشعر أبيض يميل إلى الاصفرار، ينتشر على منكبيها كيفما اتُفِق. صوتها قوى، ثابت، تخرج الأصوات من حلقها قوية ثرية، تتحدث بلهجة ألمانية، وهولندية، واسكندنافية؟ توجهت إلى "جولييت" بالحديث:

- الأفضل أن تجلسى هنا فى المطبخ، الأماكن كلها مليئة بالفوضى، سأقدم لكِ قدحاً من القهوة.

المطبخ نظيف، له منور يخترق السقف المنحدر. تتراكم فيه الأطباق والكؤوس والحِلل فى كل ركن من أركانه الأربعة. ويتبع الكلبان - بِتْ وكوركى - "آيلو" إلى المطبخ فى خنوع، وشرعا يلعقان كل ما فى إناء الشواء الذى وضعته "آيلو" على أرضية المطبخ.

وراء المطبخ، على ارتفاع درجتين من درجات السلم، تقع حجرة معيشة يعلوها سقف به مسام من نوع ما، ووسائد كبيرة نسبياً أُلْقيت على الأرضية بإهمال.

وتسحب "آيلو" مقعداً من مقاعد المائدة وهى تحركه ناحية "جولييت":

- اجلسى الآن هنا، اجلسى هنا، وسأحضر لكِ بعض القهوة، وسندوتشات.

www.ibtesama.com

- "أنا على ما يرام.. حتى بدون قهوة وسندويتشات. " تقول "جولييت".

- لا... عندى قهوة.. عملتها فعلاً.. أنا نفسى سأشرب معكِ.. وعندى أكل كثير.

وتجلس أمام "جولييت"، تمسك بفنجان قهوتها، وجزء من فطيرة لونها أخضر فاتح، تغشاها طبقة من الكريم المتغضن.

- "جللى بالليمون.. آوه.. ممتاز، قد يعجبك رغم ذلك.. عندى راوند؟" تقول "آيلو" دون أن تنتظر جوابًا من "جولييت". ولكن "جولييت" تجيب:

- ممتاز..

- الفوضى هنا عارمة... أنا أنظف بعد انتهاء عشية الدفن، أنظف كل شىء، ثم أذهب إلى الجنازة، والآن بعد الجنازة أرجع وأنظف كل شىء من جديد.

صوتها مفعم قوى مفعم بالميل إلى الشكوى، تشعر "جولييت" أنها مضطرة إلى أن تقول لها:

- عندما أفرغ من القهوة والسندويتشات سأساعدك.

فتقول "آيلو":

- لا.. لا أريدك أن تتعبى نفسك.. أنا أعرف كل شىء.

وكانت لا تكف عن الحركة السريعة التى لا تخلو من غرض وتأثير. (مثل هؤلاء النسوة لا يردن مساعدتك، وهم يعرفون الأشياء التى تحبها والأشياء التى تكرهها.) وتمضى فى تنشيف الأكواب والكؤوس والسكاكين والشوك، وتضع ما فرغت من تنشيفه فى مكانه

www.ibtesama.com

المخصص له من الدولاب والأدراج. ثم تشرع فى كشط الحلل والصحون - بما فى ذلك الأطباق والأوانى التى أخذتها من أمام الكلبين - وتغمرها فى ماء مختلطة بالصابون الجديد، وتنظف المائدة والطاولات، ثم تشرع فى عصر الفوط وأغطية الموائد فتبدو بين يديها كأنها أعناق دجاج. وتتحدث مع "جولييت" فى الوقت نفسه - مع بعض وقفات أو مهلات.

- أنت صديقة آن؟

- هل تعرفينها من زمان؟

- لا.

- لا! آه.. أظنك لا تعرفينها من زمان.. أنت صغيرة جدًا.. إذن فلماذا جئت لحضور جنازتها؟

وتقول "جولييت":

- لم آتِ لحضور جنازتها.. أنا جئت لزيارة عارضة.

تحاول أن تبدو كأنها لم تقصد شيئًا، كأن لها أصدقاء كثيرون فى هذا المكان، وهى تتجول هنا وهناك لزيارتهم.

ويعتور "آيلو" حماسٌ طارئ، ورغبة فى التحدى، وتركز على تلميع آنية من الأوانى الكثيرة التى كانت تملأ المطبخ، كأنها اختارت ألا ترد على ما قالته "جولييت". وأجبرت "جولييت" على الانتظار حتى تفرغ من تنظيف أوانى متعددة قبل أن تخرج عن صمتها وتجيب:

- أنت جئت لزيارة "إرِكْ"، لقد وصلت إلى البيت الصحيح، "إرِكْ" يعيش هنا.

وقالت "جولييت" كأنها تريد أن تغير الموضوع:

www.ibtesama.com

– ولكنك لا تعيشين هنا، هل تعيشين هنا؟

– لا. أنا لا أسكن هنا، أنا أعيش بالقرب من التل، مع زوجي.

وتستشعر "جولييت" فى كلمة "زوجى" ثقلاً مفعمًا بالفخر والكبرياء واللوم فى آن.

وبدون أن تسألها، ملأت "آيلو" قدح "جولييت" بالقهوة، ثم ملأت قدحها هى، وأحضرت لنفسها جزءًا من فطيرة، تقوم على قاعدة وردية، وتعلوها طبقة من الكريم على قمتها.

– كستر بالراوند، مادمت عملتها فأنا مضطرة إلى أكلها، وإلا فسدت، أنا لا أحتاجها، ولكنى مضطرة إلى أكلها، هل أحضر لكِ جزءًا؟

– لا. أشكرك.

– الآن. "إرِكْ" خرج، ولن يأتى الليلة، لا أظن أنه سيأتى الليلة، ذهب إلى بيت كرستا، هل تعرفى كرستا؟

وتهز "جولييت" رأسها بالنفى.

– هنا نعيش كلنا مع بعض، كل واحد منا يعرف مكان الآخر. نعرف كل شيء، لا أعرف أين تسكنين، فى فانكوفر؟ (وهنا تهز "جولييت" رأسها بنعم.) فى المدن لا تجرى الأمور على هذا النحو. بالنسبة لـ "إرِكْ" الذى يريد أن يركز اهتمامه بزوجته، يحتاج إلى من يساعده، أرأيتِ.. أنا الذى أساعده؟

وقالت "جولييت" وقد جانبها الصواب:

– ولكن ألا يدفع لكِ؟

– طبعًا أتقاضى أجرًا، ولكن العمل هنا يعنى أكثر من وظيفة.

www.ibtesama.com

أيضًا يحتاج إلى نوع آخر من المساعدة، مساعدة يحتاجها الرجل من المرأة، هو يحتاج هذا. هل تفهمين ما أقول؟ من امرأة غير زوجته، امرأة ليس لها زوج، أنا لا أؤمن بهذه الأشياء، شيء ردىء، يحدث مشاكل دائمًا. فى البداية تزوج "إرِكْ" من صاندرا، ثم انتقلت صاندرا إلى مكان بعيد، وتزوج "إرِكْ" كرستا، وفى وقت من الأوقات كان معه صاندرا وكرستا فى آن، ولكنهما كانتا صديقتين حميمتين، والأمور مشت. ولكن صاندرا لها أولادها، وأرادت أن تنتقل إلى المدارس الكبيرة، كرستا فنانة، تصنع أشياء من الخشب الذى ينمو على الشاطئ، ماذا يُسمى هذا الخشب؟

– "الخشب الطافى، " تقول "جولييت" على كره، يصيبها الشلل من هول المفاجأة والإحساس بالخجل.

– آه.. الخشب الطافى. تأخذ ما تصنعه من هذا الخشب الطافى إلى أماكن كثيرة، وتبيعها جميعًا. أشياء كبيرة، حيوانات، وطيور، ولكنها ليست حقيقية، ليست حقيقية؟

– ليست حقيقية؟

– آه . آه. ثم إنها لم تنجب أطفالاً أبدًا. لا أعتقد أنها ترغب فى الانتقال، "إرِكْ" أخبرك بهذا؟ انت عاوزة قهوة تانى؟ فيه شوية.

– لا.. لاشكرًا. لا لم يخبرنى من قبل.

– شفتِ، أنا الآن قلت لكِ. إذا كنت فرغت من قهوتك هاتى الفنجان كى أغسله.

وتنعطف انعطافات مفاجئة، وتكز الكلب الأصفر الراقد على الجهة الأخرى من الثلاجة، ببوز حذائها، وهى تقول:

www.ibtesama.com

– استيقظى يا بنت يا كسولة، سنذهب إلى البيت فوراً.

– فيه أوتوبيس سيعود إلى فانكوفر اليوم، سينطلق فى الساعة الثامنة وعشر دقائق، " تقول ذلك وهى مشغولة على حوض الغسيل، وظهرها إلى الحجرة. ثم تمضى فى القول:

– ممكن تعودى مع إلى فانكوفر، وعندما نصل سيوصلك زوجى إلى بيتك، ويمكن تتغدى معنا، أنا أركب دراجتى، سأمشى ببطء حتى لا تقعى على الأرض، المكان ليس بعيداً من هنا.

يبدو أن المستقبل القريب قد تحدد بشىء من الثقة، حتى إن "جولييت" شرعت فى النهوض دون أن تفكر كثيراً، وبحثت عن حقيبتها. ثم عاودت الجلوس، ولكن على مقعد آخر. وظهر المطبخ فى حُلته الجديدة من النظافة كمشهد جديد، مما أشعرها بالراحة، وقالت:

– أظن أنى سأبقى هنا.

– هنا؟

– لست مضطرة إلى حمل أشياء كثيرة، سأتمشى إلى الأوتوبيس.

– وكيف ستعرفين الطريق؟ حوالى ميل من هنا.

– "ليس بعيداً، " وتسأل "جولييت" عن الطريق، ولكنها تقول إنها ليست مضطرة إلى المشى عبر المنحدر.

قالت "آيلو":

– لن يعود، عارفة، ليس الليلة على الأقل.

– لا يهم.

www.ibtesama.com

وهزت "آيلو" عاتقيها بشيء كثير من الازدراء.

- انهض يا "بتْ، " وعندما وصلت عند كتفه قالت:

- كوركى ينام هنا، هل تريدينها هنا أم فى الخارج؟

- فى الخارج.

- سأربطها، ولن تستطيع أن تطارد أحداً بعد ذلك. ولعلها لا تريد أن تظل مع غرباء.

ولم تقل "جولييت" شيئًا.

- شفتِ؟، الباب يُغلق عندما نخرج. فإذا خرجت وتريدين العودة، ما عليك إلا أن تضغطى على هذا الزر. ولكن عندما تغادرين لا تضغطين على شىء. سيُغلق. فاهمة؟

- نعم.

- كنا فى السابق لا نغلق أبوابنا.. ولكن اليوم كثر الغرباء.

بعد أن كانا يتطلعان إلى النجوم، توقف القطار حينًا فى "وينبج". خرجا منه ومضيا خلال هواء بارد كاد يمنعهما عن التنفس، ناهيك عن الكلام. وعندما عادا إلى القطار توجها إلى عربة الاستراحة فيه وطلب هو كأساً من البراندى، وقال:

- هذا يدفئك ويرسلك إلى النوم.

لم يكن ينوى النوم، كان ينوى البقاء على حال اليقظة حتى ينزل فى محطة ريجينا فى وقت ما من ساعات الصباح الأولى. أغلب الأسرة معدة إعداداً جيداً، وكانت الستائر ذات اللون الأخضر الغامق تمنحهما الإحساس بضيق الممرات وهو يصحبها إلى عربتها. ولكل عربة اسم، وكان اسم عربتها ميراميتشى.

www.ibtesama.com

– "ها هى عربتى، " قالت هامسة، وفى المساحة الفاصلة بين العربات، وصلت يده إلى الباب ليفتحه لها.

– "الوداع هنا إذن، " عاد بيده يريد أن يحفظا توازنهما فى الحلقة الفاصلة بين العربات، استطاع العودة بها إلى حال الثبات لعلهما يفرغا من قبلة الوداع، وإذ فرغا من قبلة الوداع، لم يتركها، وإنما راح يمسح على ظهرها بلطف، ثم راح يمطر وجهها كله بقبلات حارة لاهثة.

لكنها انسحبت من بين يديه بشىء من النعومة وهى تقول:

– أنا عذراء.

– "نعم. نعم. " وضحك وهو يقبل جيدها، ثم أعتقها ودفع الباب بيده اليمنى فانفتح، ومضيا خلال المشى حتى وجدا مجثمها وهمت بالجلوس، ولكنها عادت مشرئبة فى اتجاه الستارة، وكانت تتوقع أن يعاود قبلاته، أو حتى يودعها بلمسات أخيرة، ولكنه تسلل من المكان مما أشعرها بأن المصادفة وحدها هى سبب المقابلة.

شىءٌ أحمقٌ وكارثى. خافت – فى الواقع – من أن تتسلل يده الحانية إلى أبعد مما ينبغى، فتصل إلى العقدة التى توثق الحفاض بالحزام، فهى ليست من النوع الذى يعتمد على السدادات، وإلا لما كانت فى حاجة إلى هذا القلق، ولما لاح منها صدودٌ يعيده إلى المربع الأول. كان لابد أن تفكر فى مبرر، ولم يكن فى مقدورها أن تخبره بأمر الحيض فى موقف كان هو يأمل فيه بمزيد من التقدم إلى تحقيق ما نواه. ولكن كيف يفكر فى المضى إلى أبعد مما مضى فيه؟ كيف؟ وأين؟ أعلى هذا السرير الضيق، وربما كان الركاب جميعًا

www.ibtesama.com

يقظين من حولهما؟ أم كان الأمر سيتم وهما على حال الوقوف، تلعب بهما النشوة حتى الوقوع؟ أم تستند بظهرها إلى باب قد يفجؤهما راكب يريد أن يدلف إلى تلك المساحة القليلة بين العربات؟

الآن يمكن أن يروى لأحدهم كيف راح يستمع طوال المساء إلى فتاة بلهاء، تحدثه عن علمها الراسخ بالأساطير الإغريقية، وفى النهاية – عندما شرع يقبلها قبلة لا يبتغى بها إلا الخلاص منها – راحت تقول له بصوت متوتر إنها عذراء. لا يبدو عليه أن الرجل الذى يروى لأحد، أو يصرح بشىء كهذا لأحد، ولكنها تخيلت، لم تملك إلا الخيال.

وظلت مستيقظة حتى ساعة متأخرة من الليل، ولكن سلطان النوم نسج عليها خيوطه الناعمة بينما كان القطار يقف فى"ريجينا. "

عندما أصبحت "جولييت" وحدها كان يمكن أن تستكشف المكان، ولكنها لا تفعل ذلك؛ فلم يبق غير عشرين دقيقة وتختفى "آيلو". ولم تكن تخشى أن تعود "آيلو" لترى ماذا صنعت بالبيت، أو لتأخذ شيئًا نسيته؛ فلم تكن "آيلو" من ذلك النوع الذى ينسى الأشياء، حتى بعد يوم عاصف كهذا اليوم. ولو ظنت أن "جولييت" يمكن أن تسرق شيئًا، لما أمنت لها، وأتاحت لها الدخول.

على أنها من ذلك النوع من النساء اللائى يمتلكن الأرض بوضع اليد، خاصة المطبخ. كل ما تقع عليه عينا "جولييت" فى المطبخ ينطق باحتلال "آيلو" لهذا المكان، بدءًا من الأعشاب التى سكنت القوارير واستقرت على عتبة النافذة، ومرورًا بقُرْمة الجزار التى تستخدمها لقطع اللحم، وانتهاءً إلى المشمع المصقول الذى يغطى الأرضية.

www.ibtesama.com

وعندما تمكنت من الدفع بـ"آيلو" إلى الخلف، لا خارج الحجرة، ولكن ربما إلى خلف الثلاجة قديمة الطراز، وجدت "جولييت" نفسها أمام عقبة كرستا. "إرِك" لديه امرأة، لا شك فى ذلك: إنها "كريستا". ترى "جولييت" أمامها "آيلو"، وهى امرأة أصغر سنًا، أكثر جاذبية من الناحية الجنسية. ساقان عظيمتان جميلتان، وذراعان قويتان، وشعرٌ طويل أشقر كله، ولا توجد شعرة واحدة بيضاء، وثديان نافران لا تخطئهما العين تحت قميص فضفاض، وغياب الأناقة العدوانية الذى يغرى ولا ينفر، وهى عند كريستا مثيرة للغرائز. والطريقة الممتعة نفسها حين تدور فى فمها الكلمات وتخرجها.

تذكرت امرأتين أخريين: برايزيس وكرايزيس. رفاق اللعب مع أخْيَلْ وأجاممنون. توصف المرأتان بأنهما من ذوات الخدود البهية. عندما قرأ الأستاذ الجامعى تلك الكلمة (التى لا تستطيع أن تتذكرها الآن) تحولت جبهته إلى اللون الوردى الأحمر، وبدا كأنه يكتم ضكحة نحيلة. فى تلك اللحظة أحست "جولييت" نحوه بالازدراء.

فإذا ظهر أن كرستا أكثر خشونة، أو نسخة أكثر ميلاً إلى طباع الشمال من برايسيز وكرايسيز، فهل يفضى ذلك ب"جولييت" إلى كره إرِكْ؟

ولكن كيف السبيل إلى المعرفة، إذا كانت تنوى المضى إلى الطريق السريع لتقلها الأوتوبيس.

والحق أنها لم تكن تنوى ركوب ذلك الأوتوبيس. يبدو لها الآن أنها تستطيع - وقد خلت الطريق من "آيلو" - أن تتلمس طريقها بنفسها، وتقف على نواياها المكنونة. استيقظت فى النهاية، وأعدت

www.ibtesama.com

لنفسها مزيداً من القهوة، ثم صبتها فى كوب كبير، ولم يكن من تلك الكؤوس التى كانت "آيلو" قد وضعتها فى أمكنتها البعيدة.

أحست بالجوع، ولكنها تجولت بين القوارير والزجاجات التى ازدحمت بها الطاولة، والتى لابد أن الناس أحضروها عشية الدفن. براندى مصنوع من الكرز، وشنابس (شراب ألمانى مسكر) بنكهة الخوخ، وشراب "التيا ماريا" الرائع، وخمر الفرموت الحلوة. زجاجات كلها مفتوحة ولكن محتوياتها لم تلق القبول الكافى. وأما الشراب المقبول فيبدو أن الزجاجات الفارغة هى التى كانت تحتويه، وقد رتبتها "آيلو" فى صفوف متراصة، ووضعتها إلى جانب الباب، شراب الجن والويسكى والبيرة والنبيذ.

وضعت قدراً من "التيا ماريا" فى فنجان القهوة، وأخذت الزجاجة معها إلى حجرة الجلوس.

هذا أحد أطول أيام السنة على الإطلاق. ولكن الأشجار من حولها، الأشجار الملتفة الكثيفة دائمة الخضرة، وأشجار القطلب ذات الفروع الحمراء، حالت دون وصول الضياء من الشمس الآفلة. يسهم المنور فى الإبقاء على الضوء فى جوف المطبخ، بينما لم تكن نوافذ حجرة الجلوس سوى شقوقٌ طويلة فى الجدار، وهناك بدأ الظلام فى التراكم بالفعل. أرضية الحجرة لم يكتمل تشطيبها - سجادات رثة مطروحة على مساحة مربعة من خشب الأبلكاج - والحجرة تم تأثيثها كيفما اتُفِق بطريقة عشوائية. تشيع الوسائد على الأرضية، أضف إلى ذلك وسادتين من النوع المنتفخ يعلوهما جلد متصدع. ومقعد ضخم من الجلد، من النوع الذى يتكئ إلى الوراء، تعينه

www.ibtesama.com

وسادة لراحة القدمين، وأريكة يشملها غطاء من قماش أصلى ولكنه مرقع، وجهاز تلفزيون قديم، وأرفف كتب مصنوعة من القرميد وألواح الخشب السميك، غير عامرة بالكتب، مجرد أكوام متراصة من مجلة الناشيونال جيوجرافيك، ومجلة أخرى خاصة بالبحارة، وأعداد من مجلة الميكانيكا الشعبية.

واضح أن "آيلو" لم تجد وقتًا لتنظيف هذه الحجرة؛ تشيع لطخات من رماد حيث تجد الطفايات مقلوبة على السجاد، وأجزاء صغيرة منتشرة هنا وهناك. عنّ لـ"جولييت" أن تبحث عن المكنسة الكهربائية إذا وُجِدت، ولكنها عدلت عن رأيها: فربما كانت خبرتها بالتشغيل لا تكفى، وربما حدث ما لا تُحمد عقباه، وربما حُشرت قطع السجاد الصغيرة فى قلب المكنسة، وسدت الماسورة فى الحال. ولذلك فهى تكتفى الآن بالجلوس على المقعد الجلدى، تضيف المزيد من "التيا ماريا" بعد أن نقص نصيبها من القهوة.

الأشياء لا ترقى إلى ما تريد وتطمح على هذا الساحل، الأشجار أكبر من حجمها المرغوب، وتتعانق ذؤاباتها الكثيفة فتفقد شخصيتها وهُويتها إلا إذا سميناها غابة من تلك الغابات الكثيرة هنا، والجبال ضخمة بما لا معنى له ولا هدف، والجزر الشاردة عن مضيق جورجيا تبالغ فى الروعة والبهجة، وهذا البيت، بمساحاته الكبيرة، وسقوفه المائلة، وأخشابه التى لم تُصقَل تزيد إحساس المرء بالوحدة، والاضطراب.

تسمع نباح الكلب بين الحين والحين، ثم تلمس صمتها المريب. ربما جاءت "آيلو" ومعها ناس. ولكن"جولييت" لم تمتلك كلبًا فى

www.ibtesama.com

حياتها، الكلب فى البيت شاهدٌ على الوجود، وليس مجرد رفيق، وقد يدفعها إلى الملل من الحياة نفسها.

وربما كان الكلب ينبح بعد أن يرى غزالاً، أو دُبًا، أو أسداً أمريكيًا. تتحدث الصحف الكندية عن الأسد الأمريكى الذى قتل طفلاً، تتذكر أن ذلك كان على الساحل. من يقدم على حياة لا يخرج فيها الناس من بيوتهم وإلا وقد شاركهم الفضاء حيوانات مفترسة تكن العداء للبشر؟

كاليباريوس. ذات الخدود البهية. ظفرت الآن بالكلمة. الكلمة الهومرية تتألق فى مكانها المرصود. بل تذكرت أنها تعرف مفردات اليونانية حق المعرفة، وتذكرت كل شىء يُحفظ فى خزانة لستة أشهر فيبلى؛ فقد توقفت عن تدريس اليونانية، ونأت عنها فترة من الزمن.

هذا ما يحدث. تعيد الشىء إلى مكانه الذى يُحفظ فيه فترة قصيرة من الزمن، ثم تغشى الخزانة بحثًا عن شىء آخر، فتتذكر فى الحال. ثم تصبح محتوياته معرضة للزيادة، فتتراكم الأشياء على الأشياء، ثم تختفى الأشياء الأولى ولا تعود إلى الذاكرة مرة أخرى.

الأشياء التى كانت فى يوم من الأيام كنزك الخالد، تهرب من الذاكرة، خسارة لا تشعر بها، ثم تصبح مما لا يمكن أن تتذكره.

هذا ما يحدث.

وحتى إن لم نحفظ الأشياء فى خزائنها، حتى إذا كنا مضطرين إلى استخدامها كل يوم؛ لأنها هى عدتنا فى كسب لقمة العيش؟ تتذكر "جولييت" معلمين أكبر سنًا فى المدرسة التى تدرس فيها، من منهم يهتم بما يدرسه حق الاهتمام، والمثال هنا "وانيتا" التى اختارت

www.ibtesama.com

الأسبانية لأنها تتسق مع اسمها المسيحى (هى أيرلندية)، وأنها تتحدث بها بطلاقة، وتستخدمه فى رحلاتها، لا يمكنك أن تقول إن الأسبانية هى كنزها المرصود.

قلائل هم الذين يملكون الكنوز. أقل القليل. وإذا كان لك كنز ما عليك إلا أن تحرسه، لا تسمح لأحد أن يقتحم عليك عرينك، ويسلبه منك.

تفعل "التيا ماريا" فعلها مع القهوة، ترسلها إلى منطقة تخلو من الهم، ولكنها قوية نافذة، تمنحها القدرة على أن تعتقد أن "إرِكْ" - رغم كل شىء - لا أهمية له ولا قيمة. شخص تعبث معه زمنًا ثم لا يأتى ذكره، "تعبث" تلك الكلمة الأفروديتية، هكذا فعلت أفروديات مع أنشايسيز، ثم ذات صباح تتسلل من عنده كما تتسلل السحب.

نهضت، وتلمست طريقها نحو الحمام، وعادت لتتهافت على الأريكة التى يغشاها اللحاف، يسلمها النوم إلى الغياب الجزئى للوعى فلا تلحظ شعرات من الكلبة كوركى عليه، أو رائحتها.

وعندما استيقظت امتلأت بأنفاس الصباح، رغم أن الساعة لم تكن سوى السادسة وثلث حسب ساعة المطبخ.

تعانى من صداع، وتوجد علبة أسبرين فى الحمام، وتزدرى حبتين، ثم تأخذ دشًا، وتمشط شعرها، وتتناول فرشاة أسنانها من حقيبتها وتنظف بها أسنانها. ثم تصنع لنفسها قدحًا جديدًا من القهوة، وتتناول شريحة من خبز بيتى دون أن تعمد إلى تسخينه أو دهنه بالزبد. تجلس إلى مائدة المطبخ، تتسلل إليه أصابع من ضوء الشمس عبر الأشجار القريبة، انعكست على جذوع أشجار القطلب

www.ibtesama.com

رقائق نحاسية. وتبدأ كوركى فى النباح، وتمضى فى النباح فترة طويلة قبل أن تدلف العربة إلى الفناء فتلوذ بالصمت.

تسمع "جولييت" صوت باب العربة يُغلق، ويتناهى إلى أذنيها صوته يخاطب الكلبة، ويجتاها شعور بالقلق والرهبة، تريد أن تختبئ وراء شجرة أو أجمة (فيما بعد قالت: كان فى إمكانى التكوم تحت منضدة، ولكنها لم تفعل طبعًا، ولم تكن لتفعل شيئًا يثير ضحك الآخرين). لحظة أشبه بلحظة مرت عليها فى المدرسة قبل إعلان اسم الفائز بالجائزة. وربما أسوأ؛ لأنها لا تملك الأمل المعقول، ولأنها قد لا تُتاح لها مصادفة أخرى كتلك المصادفة الفارقة فى حياتها.

وعندما يُفتح الباب لا تقدر على التطلع ببصرها، على ساقيها تستقر أصابع يديها وقد تشابكت.

يقول:

- "أنت هنا، " يقول ذلك وهو يضحك من نشوة الانتصار والعُجب، كأنه أمام لحظة من المجون الممتزج بالجرأة، ويفتح ذراعيه فتجتاح الحجرة موجة من الرياح العاتية تجعلها تنظر إليه فى شوق.

منذ ستة أشهر لم تكن تعرف أن هذا الرجل على قيد الحياة. منذ ستة أشهر، ظهر أن الرجل الذى قضى تحت عجلات القطار كان لا يزال على قيد الحياة، وربما كان يبحث عنملابسه ليستأنف الرحلة.

- أنت هنا؟

فى وسعها أن تدلل من نبرة صوته على أنه يطلب التعويض، وتقف، خَدِرة، وترى أنه أكبر سنًا، وأثقل حجمًا، وأكثر تهورًا مما

www.ibtesama.com

كانت تظن. يتقدم نحوها وتشعر أنها اختُطِفت كلها من أعلاها إلى أسفلها، يغمرها شعورٌ بالانعتاق، وعاصفة من السعادة. فكيف يصبح الإنسان قريبًا من العجب والدهشة المذهلة. وكم يكون قريبًا من الهول والفزع؟

ويظهر بعد ذلك أن "إرِكْ" لم يكن مأخوذًا بالدهشة كما تظاهر. لقد اتصلت به "آيلو" الليلة الماضية، لتحذره من الفتاة الغريبة، "جولييت"، وعرضت عليه أن تذهب إلى البيت وتتأكد من أن الفتاة الغريبة قد أخذت الأوتوبيس أم لا تزال هناك. وعَنَّ له أن يخوض التجربة، ولا يفوت الفرصة، ليختبر الأقدار، ولكن عندما اتصلت به "آيلو" لتقول له إن الفتاة لم ترحل، غمرته سعادة لم يعرف لها سببًا. وأيضًا لم يأتِ إلى البيت مباشرة، ولم يخبر كرستا، رغم أنه يعرف أنه سيخبرها فى القريب.

كل ذلك كانت "جولييت" تتذكره وتعيد ترتيبه فى ذهنها فى الأسبوع بعد الأسبوع، وفى الشهر بعد الشهر، تصل بعض المعلومات بالمصادفة، وبعضها ثمرة تأملها الحذر، واستطلاعها الدقيق. تراجع بوحها بذهاب العذرية إلى مرتبة التفكير الثانوى.

لم تشبه كرستا "آيلو"، فليس لها ساقاها المدملجتان، وعجيزتها الرحبة، وشعرها الأشقر. سوداء الشعر، نحيلة القوام، ذكية وأحيانًا كئيبة، ستصبح فيما بعد صديقة "جولييت" الحميمة، وعونًا كبيرًا لها فى حياتها المستقبلية - رغم أنها لن تتخلى عن عادتها فى المزاح الخبيث، الاضطراب المفارق لمنافس غارق.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

وادى أوتاوا

أحيانًا كثيرة أتخيل أمى فى محل من هذه المحلات الكبرى، لا أعرف لذلك سببًا؛ فلم أدخل معها محلاً من تلك المحلات الضخمة (المولات)، وفرة البضائع بها، وما تمتلئ به من نشاط محموم لا يشعر به المرء من فرط اتساع مساحتها، هى التى ترضى أمى. أفكر فى أمى طبعًا عندما أرى فى الشارع شخصًا يعانى من مرض باركنسون، وزاد فى الآونة الأخيرة تفكيرى فيها كلما أنظر فى المرآة، وفى محطة قطار تورنتو؛ لأن المرة الأولى التى رأيت فيها محطة قطار تورنتو كنت معها أنا وأختى الصغيرة. كان ذلك فى صيف أحد سنوات الحرب، كنا ننتظر القطار الذى سيأخذنا إلى وادى أوتاوا، كنا ذاهبين إلى البلدة، بلدة أمى، إلى بيتها القديم فى بلدتها(وادى أوتاوا).

www.ibtesama.com

انتظرت ابنة عم لها كانت تريد رؤيتها فى أثناء ساعات الانتظار، ولكنها لم تأتِ. قالت أمى: "ربما لم تستطع، ربما كانت مشغولة بشىء لم يمكنها من الخروج." قالت أمى ذلك وهى تجلس على مقعد من الجلد فى الصالة المخصصة للسيدات فى المحطة، صالة كانت مطلية بطلاء أسود، والآن غطوا جدرانها بالخشب. ابنة عمها هذه كانت مستشارة قانونية لإحدى الشركات التى كانت أمى تسميها - على عادتها الحرة فى إطلاق الأسماء - "أكبر شركة استشارات قانونية فى المدينة". زارتنا هذه السيدة ذات مرة، وأذكر أنها كانت ترتدى قبعة ضخمة سوداء، وبدلة سوداء أيضًا، وكانت شفتاها وأظافرها أشبه بحبات الياقوت. لم تكن فى صحبة زوجها. كان مدمنًا للخمر. كانت أمى تذكر دائمًا أن زوج ابنة عمها مدمن للخمر، سكير، تقول ذلك مباشرة بعد أن تقول إن ابنة عمها مستشارة فى أكبر شركة استشارات قانونية فى المدينة كلها. كأنها تريد أن تذكر الجانب الحسن فى مقابل الجانب السلبى فى حياة ابنة عمها. هذا التلازم بين الحسن والردىء فى حديثها عادة من عاداتها المتمكنة. كانت - مثلاً - تتحدث عن عائلة من العائلات التى تعرفها فتقول: "معهم كل شىء، ويستطيعون أن يشتروا أى شىء بأموالهم، ولكن ابنهم الوحيد يعانى من مرض الصرع." أو كانت تقول: إن والدى الإنسانة الوحيدة فى بلدتنا التى نالت شهرة واسعة كعازفة بيانو وتُدعى "مارى رنويك"يقولان إنهما مستعدان للتخلى عن شهرة ابنتهما لو رزقها الله بطفل. طفل؟ فى عالم أمى لا يكون الحديث عن حسن الحظ إلا مكتنفًا بالنقيض. شىء من التعويض.

www.ibtesama.com

ذهبت أنا وأختى إلى محطة السكة الحديد التى كانت أشبه بالشارع بما فيها من المحلات التى تنتشر منها الأنوار، أو أشبه بالكنيسة بسقفها المحدودب ونوافذها الضخمة المركبة على جوانبها. كانت تضطرب بهزيم القطارات المخفية خلف الجدران، وأصوات مكبرات الصوت القوية الفخمة، تعلن عن أسماء جهات الوصول لا نستطيع أن نفهم منها شيئًا. اشتريت مجلة سينمائية، واشترت أختى علبة شوكولاتة بالنقود التى التى أخذناها. هممت أن أقول لها: "اعطنى قضمة وإلا ما أرشدتك إلى طريق العودة، " ولكنى اكتشفت أن المكان بهرها، أو أنها انقادت لى من فرط الإحساس بغربتها فى المكان، فتناولت لوح كبير من الشوكولاتة وأعطتنيه.

وفى العصر ركبنا قطار أوتاوا. كنا محاطين بالجنود، حتى إن أختى اضطرت إلى الجلوس على حجر أمى. استدار أحد الجنود وكان يجلس فى مواجهتنا وتبادل معى بعض النكات. كان يشبه "بوب هوب" شبهًا كبيراً. سألنى من أى البلاد جئت؟ ثم استمر يقول بالطريقة نفسها الحادة، غير المرحة، الذكية، التى تفوح منها رائحة ادعاء الشطارة، كأنها صفات بوب هوب: "وهل تعرفون البيوت ذات الطابقين فى بلدكم؟" قلت فى نفسى ربما كان هو بوب هوب بشحمه ولحمه، يسافر إلى البلاد البعيدة متخفيًا فى زى جندى. ولم أستبعد هذا الاحتمال. فخارج مدينتى - على مسافة كبيرة منها على الأقل - أشعر أن الوجهاء والمشاهير فى العالم كله تقريبًا يتجولون فى الشوارع، يهيمون على وجوههم وقد يظهرون فى أى وقت.

www.ibtesama.com

قابلتنا خالتي دودي في المحطة، وفي الظلام أخذتنا في سيارتها إلى بيتها، على بعد أميال قليلة من المحطة، في الريف. كانت سيدة نحيفة الجسم، حادة الملامح، وكانت تضحك في نهاية كل جملة تقولها، وكانت تقود سيارة قديمة مربعة السقف مزودة بدواسة أبواب.

قالت لنا أمي:

– هل فخامتها جاءت لمقابلتكما؟

كانت تعني بالطبع ابنة عمها، المستشارة القانونية، التي هي في الواقع اختها، الخالة دودي. ولم تكن الخالة دودي خالتنا بالمعنى الدقيق، ولكنها كانت ابنة عم أمي. أمي لم تكن تكلم خالتي (أختها).

وقالت أمي بنبرة حيادية:

– لا، ولكن لابد أنها مشغولة.

فقالت دودي:

– آه.. مشغولة! ربما كانت مشغولة بتنظيف حذائها من روث الدجاج.

وانطلقت بالسيارة على طريق تتناثر فوقه ألواح خشب، وتكثر عليه الحفر والمطبات، وكانت أمي تشير إلى المساحات السوداء على جانبي الطريق وهي تقول:

– أولاد! أولاد، هذه هي وادي أوتاوا!

أين الوادي؟ لا أجد واديًا، لا أرى جبالاً أو حتى تلالاً! وفي الصباح لم أرَ إلا غيطانًا وأحراشًا وأشجارًا صغيرة.

وخالتي دودي بجوار النافذة تمسك بسطل لبن من أجل العجل

www.ibtesama.com

(وَلَدْ البقرة)، وكان العجل ينطح سطل اللبن بقوة حتى انسكب اللبن على الأرض، وكانت خالتى دودى تضحك أيضًا وهى تشتم العجل وتضربه على رأسه تريده أن يهدأ، تنعته بالشقى: "الشقى الطماع الجشع الصغير!"

كانت ترتدى الثوب الذى تستخدمه فى حلب اللبن، متعدد الطبقات والألوان، ممزق ومترهل أشبه بثياب شحاذة فى مسرحية من تلك المسرحيات التى يؤديها تلاميذ المدارس. تحشر رأسها فى قبعة رجالية دون سبب معقول، وإلا ما سبب ارتدائها هذه القبعة؟

لم يحدث أن أخبرتنا أمى بأن لنا أقرباء يرتدون مثل هذه الثياب، أو يتحدثون كما تتحدث خالتى دودى وهى تنطق بكلمة .bugger بل كانت أمى تقول دائمًا: "إلا القذارة! لا أغفرها لأحد أبدًا. " ولكن واضح أنها تغفر للخالة دودى ما يعلوها من روث وقذارة، قالت لنا أمى إنهما مثل الأختين، وإنهما نشآ معًا. (المستشارة القانونية - برنيس - كنت أكبر سنًا، وهجرت البيت فى سن أبكر). وكانت أمى تقول أيضًا: إن خالتى دودى عاشت حياة مأساوية.

بيت خالتى دودى أفقر بيت رأيته فى حياتى، أشبه بالأرض الجرداء، أفقر بيت يمكن أن أعيش فيه. من هذا المكان يبدو بيتنا - وكنت أظن دائمًا أن بيتنا فقير؛ لأننا نعيش بعيدًا عن المدينة مما يحرمنا من الحمام الحديث، ومياه الحنفيات، ولمسات الرفاهية التى تغشى بيوت أهل المدن كالستائر الفينيسية - مريحًا حسن التأثيث بمكتبته الغنية، والبيانو، وأطقم الأطباق، والسجادة التى اشتريناها، وليست كسجادة خالتى دودى التى صنعتها من الأسمال البالية. فى

www.ibtesama.com

الحجرة الأمامية فى بيت خالتى دودى يصادفك مقعد أفرطوا فى حشوه بالقش، ورف وُضِعت عليه المجلات يمتلئ بجرائد مدرسة الأحد القديمة. خالتى دودى تعيش على ما تكسبه من أبقارها، لم تكن أرضها مهمة، ولا تستحق حتى الجهد المبذول فى زراعتها. كل يوم بعد أن تفرغ من الحلب وفصل القشدة عن الرايب، كانت تحمل ما أعدته من صفائح الجبن والقشدة على شاحنة البيك أب التى تقودها سبعة أميال حتى تصل إلى مصنع الألبان. كانت تعيش مع الخوف من مفتش التموين الذى كان يتجول فى الحقول ويعلن أن مرض السل قد اجتاح الأبقار، وكنا نعرف أنه الحقد القاتل، إنه الحقد القاتل الذى يعطل مصالح الفلاحين، ويرسلهم إلى الفقر والبطالة لصالح شركات كبيرة تدفع لمفتش التموين أموالاً طائلة. أو هكذا ما قالته خالتى دودى.

المأساة فى حياتها أنها خُدعت، أو هُجِرت. قالت لأمى ذات مرة: "هل تعرفين أنى تعرضت لمن نكث عهده معى"؟ وقالت لنا أمى إن الأفضل ألا نتحدث فى هذه الأمور، وكانت خالتى دودى فى مطبخها، مشغولة بغسل أطباق الظهيرة، وكنت أساعدها فى تنشيفها وأختى فى ترتيبها، فقد كانت أمى تأخذ قسطًا من الراحة بين الحين والحين، وكانت خالتى دودى تقول إنها "خُدعَت" بشىء من الكبرياء والزهو كأنها تقول: "هل تعرفون أنى أُصِبت بشلل أطفال؟" أو أى من تلك الأمراض الخطيرة. وقالت:

– كانت تورتة زفافى جاهزة، وكنت فى فستان الزفاف.

– وهل كان الفستان من قماش الساتان؟

www.ibtesama.com

– لا، كان قماشًا جميلاً ناعمًا غامقًا من نسيج صوف غنم المرينوس الأسبانية، فقد كان الزفاف فى ليلة من ليالى الخريف. حضر القسيس. كل شىء جاهز. وظل أبى يذهب إلى الطريق لعله يرى طلعته البهية قادمًا على عجل. وراح الليل يقتحم النهار، وقلت لهم: "حان الوقت للذهاب إلى البيت وحلب البقر!" وخلعت الفستان، ولم أرتديه مرة أخرى فى حياتى كلها، أعطيته لشخص ما. البنات فى مثل هذه المواقف تبكى، لم أبكِ، بالعكس: ضحكت". وقالت أمى وهى تعيد سرد الحكاية نفسها: "عندما ذهبت إلى البلد بعد هذه الحادثة بعامين، وكنت أعيش معها، كنت أستيقظ فجأة، وأسمعها وهى تبكى فى جوف الليل، بين الحين والحين، أسمعها وهى "تعدد" بهذه الأغنية:

"أنا هناك
أنتظر فى الكنيسة،
أنتظر فى الكنيسة،
أنتظر فى الكنيسة،
وعندما اكتشفت أنه سيخذلنى،
آه، يا لحزنى الممض. "

كانت خالتى دودى تغنى أيضًا هذه الأغنية لنا، وهى تغسل الأطباق على مائدتها المستديرة المغطاة بالمشمع المغسول. كان مطبخها واسعًا كأنه منزل وحده، له باب خلفى وباب أمامى، يغشاه نسيم من خلال هذين البابين الواسعين. كان لديها ثلاجة صنعتها هى فى البيت، لم أرَ مثلها من قبل، تحتوى على قطعة

www.ibtesama.com

كبيرة من الثلج التى كانت تجلبها من متجر الثلج على عربة الأطفال. متجر الثلج نفسه كان غريبًا، عبارة عن مخبأ يُقطع فيه الثلج من البحيرة فى الشتاء، ويكفى للصيف، مفروش بنشارة الخشب. كانت خالتى تقول:

– فى الواقع لم تكن الكنيسة هى السبب، فى حالتى لم تكن الكنيسة هى السبب.

فى الناحية الأخرى من بيت خالتى دودى، فى المزرعة الأخرى كان يعيش أخو أمى، عمى جيمس وزوجته، عمتى لينا، وأولادهما الثمانية. ذلك هو البيت الذى نشأت فيه أمى، بيت أكبر من بيت خالتى دودى بكثير، وكان عامرًا بالأثاث، ولكنه كان عاطلاً من الطلاء من الخارج، رمادى غامق. يتكون الأثاث فى أغلبه من أسرة عالية من الخشب، عليها علامات صغيرة من الريش، وألواح خشبية قاتمة مزينة بتهاويل شتى. وتحت الأسرة توجد أوعية صغيرة لا يتم تفريغها كل يوم. ذهبنا لزيارة هذ البيت، ولكن خالتى دودى لم تأتِ معنا؛ فلم تكن تكلم عمتى لينا ولا كانت عمتى لينا تكلمها. وعلى العموم عمتى لينا لم تكن تتحدث كثيرًا مع أحد. كانت فتاة فى ميعة الصبا، فى السادسة عشرة من عمرها، جاءت مباشرة من الغابات الخلفية، البعيدة عن العمران كما تقول أمى وخالتى دودى (ما يجعلك تسأل: وأين هى هذه الغابات الخلفية؟)، عندما تزوجها عمى جميس. فى هذا الوقت كانت متزوجة منذ عشر سنوات أو اثنتى عشرة سنة. كانت طويلة القامة، مستقيمة القد، مسحاء من الأمام ومن الخلف كأنها لوح من ألواح الخشب، حتى بعد أن حملت بالطفل التاسع قبل

www.ibtesama.com

عيد الميلاد، ينتشر النمش على صفحة وجهها الأميل إلى السمرة، وتستقر فيه عينان واسعتان سوداوان ملتهبتان على الدوام، كأنهما عينا حيوان. جميع أولادها ورثوا عنها هاتين العينين، ولم يرثوا عن أبيهم عينيه الزرقاوين الوادعتين. تقول خالتي دودى:

– عندما كانت أمك فى مرضها الأخير الذى ماتت فيه، آه، كنت أسمعها تقول: لا تلمسوا الفوطة!، استخدمى فوطتك الخاصة بك! السرطان، تظن أن السرطان مرض معد، مثل الحصبة. إلى هذا الحد بلغ بها الجهل. "

– لا أستطيع أن أسامحها.

كانت عمتى لينا صلبة جداً وقوية جداً، إلى درجة القلق والرعب، أو الإرهاب. لم تكن تسمح لأبنائها بالسباحة فى البحيرة خشية الغرق، ولم تكن تسمح لهم بممارسة لعبة الصعود والانحدار من الأماكن المرتفعة فى الشتاء خشية سقوطهم من المنحدر وتنكسر رقابهم، لم تكن تسمح لهم بتعلم التزلج خشية أن تنكسر سيقانهم ويصابوا بالعجز إلى الأبد. كانت تضربهم طوال الوقت خشية أن ينشأوا على حب الكسل أو الكذب، أو يصبحوا من هؤلاء الخرقى الذين يحطمون الأشياء. لم يكونوا من الكسالى، ولكنهم كانوا يحطمون الأشياء فى جميع الأحوال، وكانوا يتراشقون، ويمسكون بتلابيب بعضهم بعضاً، وبالطبع كانوا كلهم كذابين، وحتى الأصغر سناً منهم، كذابون أذكياء، بالفطرة، يكذبون حتى دون سبب، ربما لمجرد الكذب، وربما جلباً للمتعة. كانوا لا يكفون عن سرد القصص، وإخفاء الحقائق، يتعهدون وينقضون العهود، يتحالفون ويخونون، فى

www.ibtesama.com

غرائزهم رُكِّبت أعقد الحيل السياسية وأكثرها قسوة. كانوا ينبحون كالكلاب عندما يُضْرَبون. وأما الكبرياء فهى ترف تخلصوا منه منذ زمن طويل، أو لم يعرفوه من الأصل. وإذا لم تكن تصرخ مناديًا على العمة لينا، فأنى لها أن تجيب؟ أو تتوقف؟ كان ذراعاها قويان وطويلان كأنهما ذراعى رجل، وكان وجهها مستقرًا على تعبير غاضب لا تبرحه ليس له سبب معلوم. ولكن أبناءها كانوا ينسون وجهها الغاضب بعد خمس دقائق أو ثلاث. بالنسبة لى كان أثر تقطيبتها وعلامات الغضب على وجهها يستمر فى نفسى أسابيع طويلة وربما إلى الأبد.

كان عمى جيمس يحتفظ بلكنته الأيرلندية فى الحديث، وهو الأمر الذى لم تفعله أمى، لم تحتفظ بلكنتها الأيرلندية، وحتى خالتى دودى على وشك أن تنسى لغتها الأيرلندية. كان صوته جميلاً مبهجًا، يظهر ذلك وهو ينادى بأسماء أولاده: مارى، رونولد، روثى. صوت ناعم رقيق، يبعث على الراحة حين ينطق بأسماء أولاده، وكأن الأسماء، أو الأولاد أنفسهم، نكات يعبث بها. ولكنه لم يكن يستطيع إنقاذهم من العقوبة والضرب، ولم يكن حتى يجرؤ على الاعتراض. حتى أنك تظن أن الأمور تفلت من يده، وأن علاقته بالأشياء هزيلة، وأن خالتى دودى لا تأبه به ولا بعواطفه.

كان الطفل الأصغر ينام في سرير الأبوين حتى يأتى طفل جديد يحل محله. قالت لنا خالتى دودى:

– كان يأتى إلى حجرتى لزيارتى، وكنا نتبادل الضحكات، وكان يحضر معه اثنان أو ثلاثة من الأولاد، ولكنه لم يعد يفعل ذلك، وأنا

www.ibtesama.com

أعرف السبب، اكتشف أنهم يحكون كل شىء. ثم توقف عن المجىء حتى بمفرده، وأمعنت فى تقريعه وتأنيبه، ولكنه أمعن فى تصرفاته، ولم يعرها انتباهاً، أليس كذلك؟

لم تكن خالتى دودى تقرأ الجرائد اليومية، لم تكن تقرأ إلا الجريدة الأسبوعية التى تصدرها المدينة التى جاءت إليها لتأخذنا عن المحطة. "فى هذه الجريدة حديث عن قضية ألن دوراند"

– ألن دوراند؟ هتفت أمى متشككة.

– أوه، لقد أصبح اليوم من أكبر تجار الماشية، وتزوج من فتاة من الغرب الأمريكى.

– وماذا تقول الجريدة؟

– إنه ينضم لحزب المحافظين، أراهن أنه يريد أن يرشح نفسه.

كانت تجلس على مقعد هزاز، وقد خلعت نعليها، وتغرق فى الضحك. وكانت أمى تسند ظهرها إلى عمود من أعمدة الشرفة. وكانا يقطعان أجزاء الفاصوليا، للتخزين. قالت خالتى دودى:

– أتذكر اليوم الذى أعطيناه فى عصير الليمون، كان غلاماً من كندا الفرنسية فى ذلك الوقت، يعمل هنا، ومضى عليه أسبوعان فى الصيف.

– كان فرنسياً بالاسم، لم يكن يتحدث الفرنسية مطلقًا. قالت أمى.

– وربما غير دينه الآن، إنه يذهب إلى كنيسة القديس يوحنا.

– كان دائمًا رجلاً ذكيًا.

– هل هذا رأيك؟ آه.. ذكى. ولكنا كسبناه بكوبٍ من الليمون.

www.ibtesama.com

– تذكرى أنه كان من أكثر أيام الصيف حرارة ذلك اليوم. أنا وأمك كنا نجلس فى البيت، ولكن "ألن" كان لابد أن يجلس فى مخزن الحبوب. وتذكرين أنهم كانوا يجلبون التبن إلى هناك. كان أبى يدخله فى المخزن وكان ألن يرصه، وأراهن أن جيمس كان هناك يساعدهم أيضًا.

قالت أمى:

– جيمس كان يرتب الأمور، وأبوك كان يقود العربة، ويكوم الشحنة.

– ووضعوا ألن فى مخزن التبن. وأنت لا تتخيلين درجة الحرارة فى ذلك المخزن فى ذلك اليوم، جهنم على الأرض، ولذلك قلنا ليس من اللائق أن نتركه دون كوب من الليمون المحلى. والحق أنى تصرفت وحدى. وكنت معنية بالأفرولات فى البداية.

– أحضر لى "ألن" هذه الأفرولات ليجربها الناس وهم يجلسون لتناول الغداء. كان يرتدى بنطالاً ثقيلاً قديمًا، وقيمصًا يخصصه للعمل، لا أدرى كيف يحتمله؟ رغم أنى كنت متأكدة من أنه يخلعه عندما دخل الحظيرة. ولكنه لابد أنه كان يحتاج إلى الأفرولات لأنها أكثر برودة، تعرفى، الدورة الدموية. ونسيت ما كان ينبغى أن يرتدوه، كان ينبغى أن يرتدوا قميصًا خفيفًا لا أكثر. لابد أنه كان يعانى كثيراً فى ذلك البنطلون الثقيل، ولم يكن يجرؤ على السؤال، فقد كان خجولاً جداًّ. وكم كان سنه فى ذلك الوقت؟

– كان فى السابعة عشرة. قالت أمى.

– وكنا أنا وأنت فى الثامنة عشرة. قبل الذهاب إلى مدرسة نورمال الثانوية بعام. نعم، أخذت بنطلونه، وأصلحته، وكان أمراً

www.ibtesama.com

يسيراً أن أفعل، فيما كنت مشغولة بإعداد الغداء. كنت جالسة فى ركن من أركان المطبخ، أمام آلة الخياطة عندما أتانى الإلهام، تذكرى؟ ناديت عليك بصوت عالٍ. تظاهرت بأنى أنادى عليك لكى تمسكى البنطلون معى. وحتى ترى ما كنت أفعل. وليس منا نحن الاثنين من ابتسم، أو جرؤ على أن ينظر فى عين الآخر. هل حدث؟

– لا.

– لأن الإلهام جاءنى بأن أحيك له الأزرار الأمامية.

– ثم، هل تذكرين، فى تلك الظهيرة، وفى أثناء العمل معهم مرة أخرى، جاءتنا فكرة إعداد كوب من الليمون. وصنعنا ملء سطلين كبيرين. واحد أخذناه إلى باقى الرجال الذين يعملون فى الغيط، ناديناهم ف وجلسنا تحت شجرة، والآخر أخذناه إلى مخزن التبن، وقدمناه له، كانت آخر ثمرات الليمون الذى كان معنا، مهما كان ضعيفًا. وأتذكر أننا وضعنا خلاً فيه. ولكنه لم يكن ليلحظ هذا. ولم أرَ فى حياتى رجلاً أكثر عطشًا مثله. شرب فى البداية بالمغرفة، ثم أخذ السطل ورفعه على فمه ولم يترك شيئًا. وكنا أنا وأنت واقفتين نشاهده. فكيف لم نضحك؟

– "لا أعرف،" قالت أمى.

ثم أخذنا السطل واتجهنا ناحية البيت، وانتظرنا أقل من ثانيتين قبل أن نعود لنسترق النظرات، ونتنصت. اختبأنا فى شونة الغلال، وكانت شونة الغلال أشبه بالفرن أيضًا، لا أعرف كيف تحملنا الوقوف فيها. ولكنا امتطينا أجولةالعلف، ورحنا نبحث عن ثقب أو شق، نطلع من خلاله على الأحداث. كنا نعرف ركن الزريبة الذى كان

www.ibtesama.com

الرجال يتبولون فيه، كانوا يتبولون تحت الجاروف وهم فى الطابق الثانى، وفى الإصطبل كانوا يتبولون - حسبما أظن - فى البالوعة. وبسرعة تكفى، بسرعة تكفى، بدأ فى التجول فى ذلك الاتجاه. وسقطت مذراته، ووضع يده على أشيائه ومضى. وتصببت وجوهنا عرقًا بسبب الحر، وبسبب رغبتنا التى كتمناها فى الضحك. كنا نريد أن نضحك، وكتمنا ضحكنا بصعوبة بالغة، وكان ذلك مؤلمًا لنا غاية الألم. فى البداية ظن أن الأمور سهلة يسيرة، أليس كذلك؟ ثم بدا عليه القلق بعد أن استبدت به الرغبة، وراح ينظر فيما حوله، ثم راح يبحث عن مخرج فى كل ركن من أركان المكان، لعله يجد الحرية التى ينشدها. وأخلصت فى إصلاح بنطلونه غاية الإخلاص. ولا أدرى ماذا فعل عندما انتابته الرغبة العارمة؟

- أعتقد أنه لم يكن غبيًا على الإطلاق.

- لا لم يكن غبيًا على الإطلاق. كان يفهم ويعى كل شىء: الليمون وكل شىء. الشىء الذى لا أعتقد أنه فكر فيه هو اختباؤنا فى شونة الغلال، وإلا هل كان يفعل ما فعل بعد ذلك؟

- "لا طبعًا. " قالت ذلك أمى بإصرار.

-لست أدرى، رغم كل ذلك. ربما تخلى عن حرصه. ربما تخلى عن حرصه فى النهاية، واستسلم، وفك أفروله تمامًا، وانطلق يفعل ما لابد منه. المهم أننا اطلعنا على المشهد كله.

- كان ظهره فى مواجهتنا.

- لا.. لم يكن الأمر كذلك؛ لأنه عندما أطلق ما أطلقه لم يكن هناك شىء لم نره، فقد كان يدور فى كل اتجاه.

www.ibtesama.com

- لا أتذكر ما تقولين.

- لا. أنا أتذكر كل شيء، فأنا لم أرَ مشاهد كثيرة من هذا النوع حتى أنسى هذا المشهد.

- "دودى!" صاحت أمى، كأنها عند هذه النقطة بالذات تريد أن تحذر من شيء.

ومن ضمن الأشياء التى كانت أمى تكررها أنها لا تحب الاستماع إلى الكلام البذيء.

- آه.. أنت! أنت لم تغادرى المكان. أنت نفسك لم تهربى. هل فعلت؟ لقد استقرت عيناك على الشق!

وتحولت عينا أمى منى إلى خالتى دودى، وعادت بهما بتعبير غريب غشى صفحة وجهها: تعرب عن قلة حيلتها، لا أقول إنها ضحكت، بدا كأنها وصلت إلى النقطة التى ينبغى أن تتوقف عندها.

كانت البداية بطيئة غاية البطء؛ فقد تمضى السنون قبل أن يلاحظ المريض أو أى من أهله أنه يمضى نحو الانضمام إلى طائفة المعاقين. فهو يشهد فى البداية علامات على تيبس تدريجى فى الجسد، مصحوبة برجفات فى الرأس والأطراف، وقد يكون هذا مصحوبًا أيضًا بتقلصات وارتعاشات متباينة لا إرادية، ونوبات تشنج فى العضلات، وأنشطة جسدية أخرى لإرادية. يزداد إفراز اللعاب، ويسيل بصفة غزيرة. من الناحية العلمية يُعرف المرض بأنه مرض الشلل الرعشى، ويُسمى أيضًا مرض باركنسون، أو الشلل الدماغى. الشلل الرعشى يؤثر فى البداية على ذراع واحد أو ساق واحدة، ثم يتحول إلى الذراع الثانى فى الجانب الآخر، ثم يغشى

www.ibtesama.com

الجانب الآخر كله. يبدأ الوجه فى فقد تعبيره المعتاد، ثم يتغير بالتدريج حسب الحالات المتغيرة فى كل لحظة. والمريض بهذا الشكل يخص الكبار؛ فى الغالب يضرب أصحاب الأعمار الستينية والسبعينية. لم يصل العلماء إلى علاج له. والأدوية المتاحة تقلل من التشجنات فقط، وزيادة إفراز اللعاب. على أن فوائد هذه الأدوية محدودة (فشبين، دائرة المعارف الطبية).

فى ذلك الصيف كانت أمى ستتجاوز الأربعين؛ كانت ستصبح فى الواحد والأربعين أو الثانية والأربعين حسبما أظن، وهى سنى الآن.

لم تشعر إلا برعشة خفيفة سرت فى ذراعها الأيسر. ارتعشت اليد أكثر من الذراع. بدأ إبهامها يضرب الكف دون توقف. ورغم ذلك استطاعت أن تخفى ذلك بين أصابعها، واستطاعت أن توقف حركة الذراع بالضغط به على جسدها.

كان عمى جيمس يحب شرب بيرة البورتر بعد العشاء، ذات مرة جعلنى أذوقها، داكنة ومرة. حكت لى أمى: "قبل أن أتزوج من أبيك، طلبت منه أن يعدنى بألا يشرب على الإطلاق، ولم يشرب على الإطلاق. ولكن عمى جيمس - أخيها - كان يمكن أن يشرب دون اعتذارات أو تعهدات.

فى السبت ليلاً ذهبنا جميعًا إلى المدينة، أمى وأختى ذهبا فى سيارة خالتى دودى، وأنا ذهبت مع عمى جيمس وعمتى لينا وأبنائهما، هم الذين طالبوا بأن أذهب معهم. كنت أكبر قليلاً من أكبرهم سنًا، وكانوا يعاملوننى كأنى غنيمة ظفروا بها، وأعطوا لأنفسهم الحق فى الاحتكاك والتدافع بى. وركبت سيارتهم التى

www.ibtesama.com

كانت عالية وقديمة ومربعة السقف، مثل سيارة خالتى دودى. كنا عائدين إلى البيت، وقد أغلقنا نوافذ السيارة من شدة البرد، وفجأة بدأ عمى جيمس يغنى.

كان صوته جميلاً فى الواقع، جميلاً وحزينًا ومتباطئًا. أستطيع الآن أن أتذكر جيدًا نبرة صوته، ولحن الأغنية التى غناها، والطبقة التى غنى بها، والتى تجاوزت نوافذ السيارة السوداء، ولكنى لا أتذكر إلا عبارات قليلة جدًا من الأغنية، رغم أنى كنت أحفظها فى البداية بسبب حبى الشديد لها:

"بينما كنت ذاهبًا إلى جبل كلِنى... "

أظن أنها كلمات البداية.

حتى تصل إلى كلمة "لؤلؤى" أو "باكرًا"، وعبارة تقول: "بعضهم يستمرئ الأشياء المختلفة، وفى النهاية يأتى هذا البيت القوى الحزين:

"ولكنى أجد المتعة فى ماء الشعير".

ران الصمت فى السيارة بينما كان عمى جيمس يغنى، لم يحتدم الجدل بين الأولاد، ولم ينشط بينهم التضارب، داعب الكرى عيون بعضهم فاستسلم. وضعت عمتى لينا أصغر أبنائها على حجرها وظهرت كشبح أسود يذعن لسلطان الألحان والصمت. مضت السيارة فى طريقها بإصرار كأنها اتخذت مسارها الأبدى خلال ليل حالك وأنوارها الخافتة الهادية إلى الطريق الضيق، وعندما ظهر الأرنب جاك يقفز بعيدًا عن طريقنا، لم يهتف أحدٌ، ولم نجد من يقطع الغناء، تحول الصوت إلى شجن رقيق يمس القلوب:

www.ibtesama.com

"ولكنى أجد المتعة فى ماء الشعير"

وصلنا إلى الكنيسة مبكرًا، فوجدنا متسعًا من الوقت لزيارة المقابر. كانت كنيسة القديس يوحنا نظيفة بيضاء من الخشب على مقربة من الطريق السريع، تقع خلفها المقابر. وقفنا عند شاهدين، كُتِب على أحدهما كلمة "الأم"، وعلى الآخر كلمة "الأب". وعند أسفله نُقِشت الأسماء بحروف أصغر حجمًا، مع تاريخ وفاة والد أمى ووالدتها، يعنى جدىَّ. شاهدان مستويان منبسطان، متوسطا الحجم، لا إلى الضخامة ولا إلى الصغر، يرقدان كأنهما بلاطتان على العشب المقطوع. وتجولت فى المكان بحثًا عن أشياء أكثر إثارة: جرار، وأيدى مبسوطة بالدعاء، وصور لملائكة.

وما لبثت أمى وخالتى دودى أن لحقت بنا أيضًا. وقالت خالتى دودى وهى تلوح وتشير:

– ومن يريد هذا الكلام العبيط؟

أختى التى تعلمت القراءة حديثًا، حاولت أن تقرأ المكتوب على الشاهد:

حتى طلوع الصبح
لم يكن قد مات، كان نائمًا
فى سلام

عددٌ كبير من الناس يحبون إقامة هذه الشواهد الفخمة والكتابة عليها، وكلها أمور استعراضية، مضيعة للمال والجهد. ورغم ذلك لا يزال الناس ينفقون أموالهم فى هذه الأشياء. ولا يزال آخرون يشترون مساحات القبور، قبل أن يبدأوا فى شراء الأحجار. ثم قالت

www.ibtesama.com

خالتى دودى: "انظروا إلى هذا الشاهد مثلاً". وأشارت إلى شاهد كبير مكعب الشكل من الجرانيت، مبقع باللون الأبيض كأنه إناء طهى، يستند إلى ركن من ركنيه.

قالت أمى بصوت يشى بالذهول.

- شاهد حديث.

- إنه يخص "ديف ماكول. " انظروا إلى حجمه، وأنا أعرف يقيناً أنه إذا لم يشترِ الميت قبره قبل دفنه، فإنهم ينبشون قبره، ويستخرجون جثته، ويلقون بها على قارعة الطريق.

عندئذٍ سألت أمى فى براءة:

- وهل هذا من المسيحية فى شىء؟ فقالت خالتى:

- بعض الناس يدعون المسيحية، وهم لا يعرفونها.

شعرت بشىء يسرى عند خصرى، وأدركت أن حزام سروالى التحتى قد انفك. أمسكت بوسطى فى الوقت المناسب: فلم يكن وسطى كبيراً حتى أعتمد عليه فى حجز ملابسى المفكوكة. وقلت لأمى بصوت مرتجف غاضب:

- أريد دبوس أمان بسرعة.

وردت أمى بصوت عادى، أو أعلى قليلاً من العادى.

- وفيما تريدين دبوس الأمان الآن؟

أمى يُعتمد عليها مثل هذه المواقف. ولم أرد، لم أستطع أن أرد، ولكنى حدجتها بنظرة مفعمة بمزيج من التوسل والتهديد. وضحكت خالتى دودى وقالت:

- أراهن على أن ملابسها الداخلية فى خطر.

www.ibtesama.com

وسألتنى أمى بشىء من العبوس، وأيضًا بنبرة صوت عالية بعض الشىء:

- هل هذا صحيح؟

- نعم.

فقالت:

- ولماذا لا تخلعينها؟ اخلعيها الآن.

وأجابت خالتى دودى:

- لا. . ليس هنا رغم كل شىء. اذهبى إلى حجرة السيدات.

خلف كنيسة القديس يوحنا، وأيضًا خلف مدرسة البلد الابتدائية، توجد حجرتان للسيدات.

- ثم لن أجد ما أرتديه بعد ذلك!

قلت ذلك لأمى بنبرة أسى تشى بإحساس بورطة غير متوقعة. لم أتخيل السير فى أرجاء الكنيسة بفستان من قماش التافيتة الأزرق الشفاف دون ملابسى الداخلية، فكيف أقف لأردد معهم الترانيم، وكيف أجلس على مقعدى دون ملابسى الداخلية. كيف سأتحمل مقاعد الكنيسة الباردة بدون الملابس الداخلية.

كانت خالتى دودى تمعن النظر فى حقيبتها وهى تقول:

- كنت أتمنى أن يكون معى ملابس داخلية احتياطية، ولكن للأسف. ما عليك إلا أن تخلعى هذه الملابس، ولن يلحظ أحد الفرق. والحمد لله الرياح ساكنة اليوم.

ولم أتحرك.

وقالت أمى بصوت متردد:

www.ibtesama.com

– معى دبوس واحد على ما يبدو، ولكن من المستحيل نزعه. فقد انفك حزامى هذا الصباح، وثبته بدبوس، ولكنى لا أستطيع آن أنزعه من مكانه.

كانت أمى ترتدى فستانًا بنيًا ناعمًا، مزينًا بزهور صغيرة تبدو كأنها حقيقية، وقميصًا رماديًا فى نفس لونه، لأن الفستان شفاف ويمكن رؤية ما تحته بسهولة. وكانت ترتدى قبعة كئيبة باهتة فى لون الزهور. وكانت ترتدى قفازين فى نفس اللون الوردى الفاتح، وحذاءً أبيض مفتوحًا عند الأصابع. كل ذلك أحضرته معها فى حقيبتها، وكانت تخطط لارتدائه قبل أن تذهب إلى كنيسة القديس يوحنا. ويبدو أنها توقعت صباحًا مشمسًا فى أثناء قرع الأجراس فى كنيسة القديس يوحنا، كما تُقرع الآن، لابد أنها خططت لكل ذلك، كما أخطط أنا اليوم قبل الذهاب إلى حفل، أو مناسبة.

– لا أستطيع نزعه، وإلا سقط قميصى.

قالت خالتى دودى:

– الناس يدخلون. اذهبى إلى "تواليت" السيدات، واخلعى ملابسك الداخلية، وإذا لم تفعلى ذلك انصرفى واجلسى فى السيارة.

واتجهت إلى السيارة. وكنت فى منتصف الطريق بين المقابر والكنيسة عندما نادت أمى اسمى. سبقتنى إلى حمام السيدات حيث تسللت يداها دون أن تنبس ببنت شفة إلى ملابسها الداخلية ونزعت الدبوس. وعدت دون أن أشكرها؛ فقد كنت مشغولة فى مشكلتى، وواثقة فى حقوقى. وأحكمت حزام بنطلونى، ومضت أمى أمامى إلى حمام السيدات وحول الكنيسة. تأخرنا عن الكنيسة، فقد دخل

www.ibtesama.com

الجميع، واضطررنا إلى أن يستقر القسيس والجوقة المغنية على مقاعدهم.

جميع الأشياء المبهر منها والجميل
جميع المخلوقات العظيمة والصغيرة
جميع الأمور: الحكمة والروعة
جميع الأشياء قد خلقها الله.

وعندما استقر أعضاء الجوقة في مقاعدهم، وتوجه القس إلى الجمهور المحتشد، مضت أمي في طريقها للحاق بخالتي دودي وأختي في مقصورة تقع قريبًا من الأمام. كنت أستطيع أن أرى أن القميص التحتي الرمادي قد نزل نصف بوصة إلى الأسفل، فظهر خروجه عن النظام ظاهرًا للعيان.

وبعد الصلاة بدأت أمي تتململ في جلستها في المقصورة، وتتحدث مع الناس. ورغب الناس في معرفة اسمي، واسم اختي، ثم قالوا: "إنها تشبهك تمامًا"، أو من يقول: "لا هذه البنت تشبهك أكثر"، أو "أنا أرى أن أمك متجسدة في هذه الفتاة. " سألوني عن سني، وعن المرحلة المدرسية التي أدرس بها، وإذا كانت أختي تذهب إلى المدرسة. وسألوها متى ستذهب إلى المدرسة، وأجابتهم بعبارة: "أنا لا"، مما أثار ضحك الذين سمعوها، وكررت ما قالته. (فأختي دائمًا تجعل الناس تضحك منها دون أن تقصد، ولديها هذه الطريقة الراسخة في إشاعة نوبات سوء فهمها للأمور. في هذا الموقف تبين أنها تعتقد تمام الاعتقاد أنها لن تذهب إلى مدرستها؛ لأن المدرسة الإبتدائية في المكان الذي نسكن فيه قد انهارت، ولم يخبرها أحد بأن تستعد لحافلة الصباح.)

www.ibtesama.com

وفى وقت واحد قال لى ثلاثة منهم: "خمنى من الذى درّسنى فى المدرسة؟ أمك!"

وقال أحدهم ويعلو وجهه عرق، ولم تكن آمى تريد أن تصافحه:

– هى لم أتعلم منها الكثير، ولكنها كانت أجمل مخلوق رأيته فى حياتى!

– هل رأوا قميصى التحتى؟

– وكيف بدا لهم؟ أنت كنت تقفين هناك. . فى المقصورة.

– متى مشيت فى الممر، متى؟

– ألم يرك أحد. كانوا جميعًا مشغولين بالصلاة.

– ورغم ذلك كان يمكن أن يروا كل شىء.

– شىء واحد هو الذى استغربته، لِمَ لم يظهر ألن دوراند ليرحب بى؟

– وهل كان هناك من الأساس؟

– وهل رأيتِه؟ بالقرب من المقصورة الغربية، تحت النافذة؟

– لم أره. وهل كانت زوجته؟

– آه. . إذن لابد أنك رأيتِها! ترتدى ثيابًا زرقاء، وقبعة تشبه عجلة عربة البوجية، أنيقة وتعشق الأناقة، ولكنها لا تُقارن بكِ اليوم على الأقل.

خالتى دودى نفسها كانت ترتدى قبعة من القش ذات لو أزرق كُحْلى، مزينة بزهور مصنوعة من قماش متهدل، وأزرار تنتهى إلى آخر الفستان الحرير الرقيق.

– ربما لم يعرفنى. وربما لم يرنى؟

www.ibtesama.com

– لا يمكن أن يكون تجاهلك.

– ممكن.

– وتبين أنه جميل المظهر جداً. المظهر ينفع فى السياسة. والطول. لم أرَ فى حياتى رجلاً قصيراً ينجح فى الانتخابات.

– وهل تذكرين ماكنزى كنج(١)؟

– أقصد فى هذه البلد. لم نكن لننتخبه لو كان من هنا.

– أمك بها جلطة بسيطة. هى تعترض وتنكر، ولكنى رأيت مثلها عند كثيرين.

– الحكاية تبدأ بجلطة بسيطة، ثم جلطة ثانية بسيطة، وأخرى، تتلوها أخرى. ثم يأتى اليوم الذى تستقبل فيه الجلطة الكبرى، وعليك من الآن أن تتعلمى كيف تكونى أمًّا عندئذٍ.

– مثلى. أمى مرضت عندما كنت فى العاشرة من عمرى. وماتت عندما كنت فى الخامسة عشرة، وبين هاتين الفترتين عشت فترة عصيبة! كانت متورمة الجسم، كل جسمها متورم، كانت مريضة بداء الاستسقاء. وذات يوم أتى من يسحب منهاالسوائلفى جردل.

– يسحب ماذا فى جردل؟

– السائل.

– استقرت على مقعدها بعد أن عجزت عن الحركة، واضطرت إلى أن تذهب إلى سريرها، واضطرت إلى أن ترقد على جنبها الأيمن طوال الوقت؛ لكى تحول بين ضغط السائل وبين قلبها المسكين. حياة عذاب فى عذاب!، ظهرت عندها قرحة الفراش، وكان الألم يعتصرها، ولذلك قالت ذات يوم: "دودى.. من فضلك أريدك أن

www.ibtesama.com

تساعدينى على التحول إلى جنبى الآخر لفترة قصيرة، أريد أن أرتاح ولو لفترة قصيرة، " ورجتنى أن أمسكها، وأن أساعدها على أن تستدير، وزنها كان ثقيلاً جداً! وحولتها إلى الجهة اليسرى حيث القلب، ولم تمضِ دقيقة واحدة حتى فارقت الحياة.

– وما الذى يبكيك الآن؟ لم أكن أقصد أن أبكيك! آه.. إذن أنت طفلة كبيرة، الأطفال فقط لا يتحملون حكايات الحياة.

وضحكت خالتى دودى على تصرفى، وتريد أن تعيدنى إلى مرحى، وبدت لى بوجهها البنى النحيل أن عينيها كبيرتان ومتقدتان، ارتدت على رأسها وشاحاً فى ذلك اليوم، جعلها تبدو كأنها امرأة من الغجر، تنشر الحقد والحنان فى عالمى، كأنها تهددنى باستخراج المزيد من أسرارها التى تتجاوز طاقتى على الاحتمال.

وسألتها بشىء من التجهم:

– وهل حدثت لك جلطة؟

– ماذ؟

– خالتى دودى قالت لى إنك أُصِبت بجلطة فى يوم من الأيام.

– لا.. لا.. لم أُصب بجلطة ولا يحزنون. قلت لها إنى لم أُصَب بجلطة، والطبيب قال إنى لم أُصَب بجلطة. خالتك دودى تظن أنها أبو العريف، تظن أنها تعرف أفضل من الطبيب.

– وهل يمكن أن تحدث لك جلطة؟

– لا.. لا.. أنا أساساً أعانى من انخفاض فى ضغط الدم، وهو عكس الأسباب التى تفضى إلى الجلطات.

– إذن تعتقدين أنك لن تمرضى أبداً؟

www.ibtesama.com

قلت ذلك رغبة فى التمادى معها. والحق أنى ارتحت لدفاعها عن نفسها ضد الجلطات، وأنى لن أصبح أمًا لأمى فى يوم من الأيام، ولن أضطر إلى الغسل، والمسح، والإطعام عندما تصاب أمى بالعجز التام، كما اضطرت خالتى دودى إلى القيام بذلك مع أمها. فأنا - فى الواقع - أشعر أن خالتى دودى هى التى قررت، هى التى وافقت. طوال حياتها كلها، وبعد كل هذه التغيرات التى حدثت لها، وبعد أن عرفت جميع التفسيرات الطبية لكل ما حدث، ما زلت أشعر فى قرارة النفس، أنها هى التى أذعنت، وهى التى منحت موافقتها على القيام بهذا الدور. ربما كان لها أهدافها الخاصة؛ هى التى قررت، وهى التى أقدمت؛ ربما للتباه الفارغ، وربما طلبًا للثأر، وربما لأسباب أخرى تخصها ولا سبيل إلى فهمها.

ولم تجبنى، ولكنها مضت فى طريقها لا تلوى على شىء. كنا نترك بيت خالتى دودى إلى بيت عمى جيمس، على طريق ضيق يشق غيطان البرسيم المرتفعة، يختصر المسافة الطويلة على الطريق العام. وسألتها مُلِّحَة، ومعاندة:

- وهل سيتوقف ذراعك عن الاهتزاز؟

وطلبت منها الآن أن تعود وتعدنى بما كنت أحتاجه.

ولكنها لم تفعل ذلك. ولأول مرة امتنعت عن الرد، امتنعت عن الحديث معى. ومضت فى طريقها كأنها لم تسمع شيئًا، جسمها المألوف أمامى مباشرة بدا غريبًا، وغير مكترث. انسحبت، وتحول إلى اللون الداكن أمامى، رغم أن كل ما فعلته فى الحقيقة هو أنها واصلت المشى أمامى، على المدق الضيق الذى صنعته هى والخالة

www.ibtesama.com

دودى عندما كانتا فتاتين يافعتينتجريان جيئة وذهابا ليلحق الواحدة منهما بالأخرى؛ كانت لا تزال هناك.

وذات ليلة جلست أمى مع خالتى دودى فى الشرفة وراحا يرويان الشعر. كيف بدأ ذلك، نسيت؛ إحداهما تفكر فى مقتبس، محتمل، والأخرى تسايرها. كان عمى جيمس يتكئ على السور يدخن. لأننا كنا نزوره، فقد سمح لنفسه أن يأتى، وهتفت خالتى دودى بابتهاج:

وكيف يموت الرجل موتًا أفضل؟
من أن يواجه الغرائب المخيفة.
لأن رفات أبويه
وقبور آلهته؟

وأكملت أمى بصوت عالٍ:

وطوال النهار تدحرجت عجلات المعركة
بين الجبال جوار بحر الشتاء
وجثمانه المحمول إلى الحصون هرعنا... .
لأنى ماضٍ فى طريق طويل
إلى وادى جزيرة آفالون
حيث يسقط ليس وابل المطر، أو المطر، أو أى ثلج...

صوت أمى سرت فيه رعشة مربكة، ولذا كنت سعيداً عندما قاطعتنى خالتى دودى.

– يا للسماء! أليس كل شىء محزنًا، هذه المواد التى وضعوها للقراء القدامى؟

وقال عمى جيمس:

www.ibtesama.com

- لا أتذكر منها شيئًا على الإطلاق فيما عدا هذا المقطع، وراح يتلو دون توقف:

وعلى طول صف التلال المحاطة بالدخان
تستقر الغابة القرمزية
وطوال النهار يغنى القيق الأزرق
عبر برارى الخريف.

- عظيم جدًا.

قالت خالتى دودى، والتحقت بأمى فى الغناء، وراحا يتلوان معًا، وهما يضحكان كلٌ على أسلوب الآخر:

الآن إلى جوار المستنقعات المغلفة فى الضباب الرقيق
أو أمام فم نهر من الأنهار
ومن خلال نهار الخريف
طيور برية تهاجر نحو الجنوب

وعلقت خالتى دودى:

- إذا أمعنت التفكير فى هذه الأبيات نفسها، ستلمسين نبرة حزينة فيها أيضًا.

فإذا جاز لى أن أتوفر على تأليف قصة مناسبة من هذه الأحداث جميعًا، لقررت إنهاءها بأمى وقد سكتت تمامًا عن الكلام والإجابة وهى تمضى فى طريقها أمامى عبر المدق المحاط بالعشب. ولكنى كنت سأواصل الأحداث ولن أتوقف عند هذا الحد؛ لأنى كنت سأبحث عن معلومات أخرى، وذكريات أخرى. كنت سأسترد من الذكريات قدر ما أستطيع. الآن أنا أنظر إلى ما حدث: سلسلة من

www.ibtesama.com

المشاهد السريعة، كالصور الفوتوغرافية ذات الحواف المزخرفة التى كان أبواى يلتقطانها بآلة تصويرهما العتيقة. فى هذه السلسلة من الصور الفوتوغرافية تظهر بوضوح شخصيات مثل خالتى دودى وعمى جيمس وعمتى لينا وحتى أولادها، يظهرون بوضوح مبالغ فيه. (هؤلاء جميعًا موتى الآن فيما عدا الأولاد، الذين تحولوا الآن إلى تجار ناجحين، أو أجراء مسالمين، ولا يوجد بينهم مجرم واحد ولا حتى مريض نفسى). المشكلة، المشكلة الوحيدة هى أمى. فهى الشخصية التى أريد أن أفهمها، كل هذه الأحداث حدثت من أجل فهمها. فما السبب؟ وما السبيل إلى فهمها؟ ولماذا ألح على ذلك؟ أريد أن أعرفها تمامًا، أن أقف على شخصيتها الحقيقية، أن أسلط الضوء على هذه الشخصية الغريبة، أو أحتفل بهذه الشخصية المهمة، وربما لأتخلص من شبحها الذى استقر فى نفسى ولا يريد أن يبرحها. ولكنى لم أفلح فى الوصف؛ شبحها المُلِّح القريب لا يترك لى فرصة، كما كانت فى الحياة. بطيئة ومجهدة كعهدى بها دائمًا، تتجاوز بحجمها الضخم جميع الأوزان، وهى على ذلك غامضة باهتة، حدودها تذوب وتفيض. ما يعنى أنها التصقت بى كما لم تفعل من قبل، اقتربت من كيانى حتى أصبحت مركبة فى نسيج الجسد والروح، وترفض التنازل عن شبر منى، وأنا أمضى فى حياتى أمارسها بما منَّ الله على به من مهارات وقدرات، دون أن يكون لى قدرة على تبديل الأقدار، وتغيير المصائر.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

هوامش:

(١) هو وليام ليون ماكنزى كنج (١٨٧٤ - ١٩٥٠) كان أهم قائد سياسى فى كندا من العشرينيات وحتى الأربعينيات، ورأس وزراء كندا من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٢٦ (المترجم).

www.ibtesama.com

جزيرة كورتيز

العروس الصغيرة.

كنت فى العشرين من عمرى، وكان طولى مائة وسبعين سنتيمترًا وثمانية عشر مليمترًا. كان وزنى بين ستين واثنين وستين كيلوجرامًا تقريبًا، ولكن البعض، ومن بينهم زوجة مدير "تشس" فى العمل، وسكرتيرة أقدم منى فى مكتبه، والمدام "چورى"التى كانت تسكن فى الطابق الثانى، كانوا ينادوننى بالعروس الصغيرة. وأحيانًا كانوا ينادوننى بـ "عروستنا الصغيرة. "وكنا - أنا و"تشس"- نتندر بذلك ولكن رد فعله فى الخارج كان مختلفًا. كان يرد بنظرة بلهاء غير مفهومة بينما كنت أرد بنظرة بها مزيج من الاستياء والخجل والإذعان فى آن.

كنا نسكن فى الطابق الأرضيفى منزل فى"فانكوفر. "لم يكن المنزل ملكًا لعائلة "چورى"كما اعتقدت فى البداية، ولكنه كان ملكًا لابن المدام "چورى" وكان اسمه "راى. "كان "راى" يأتى أحيانًا

www.ibtesama.com

ليصلح بعض الأشياء في المنزل متسللاً من باب الطابق الأرضي، وهو الباب الذي كنا ندخل منه أنا و"تشس. "كان "راى" ضامر الجسم نحيف الصدر، في الثلاثين من عمره، على ما يبدو، يحمل صندوقًا مليئًا بالأدوات، ويضع قبعة عمال على رأسه. كان يعاني من تقوس مزمن في ظهره يُرَجح أنه كان بسبب طول الانحناء وهو يصلح من أمر سباكة في المنزل، أو أسلاك هاتف، أو أبواب. كان وجهه في لون الشمع، وكان كثير السعال. كانت كل نوبة من نوبات السعال التي كانت تهاجمه، أو كان يصطنعها، في مقام الجملة الخبرية التي كانت تنبئ عن دخوله إلى الدور الأرضي على أنه دخول لابد منه. لم يكن يعتذر لحضوره المفاجئ، ولكنه لم يكن يكثر من الحركة في المكان لكي يؤكد ملكيته للمنزل. لم أكن أكلمه إلا حينما يطرق الباب لكي يخبرني بأن المياه أو الكهرباء ستنقطع ساعة أو ساعتين. كنا ندفع الإيجار نقداً للمدام "چوري" كل شهر. لم أكن أعرف هل كانت تعطيه كله للسيد "راى" أم كانت تحجز مبلغًا لنفسها تستعين به على مصاريف البيت؟كانت تعيش على المعاش الذي كانت تقبضه للسيد "چوري" وليس لها هي، هكذا كانت تقول لي مؤكدة في إشارة منها إلى أنها لم تبلغ سن المعاش بعد. كانت المدام "چوري" كثيراً ما تنادي "راى" وهو في الطابق الأرضي مشغولاً في العمل، لتسأل عن أحواله وإذا ما كان يحتاج كوبًا من الشاي. وكان دائمًا يجيب بأنه على ما يرام وليس لديه وقت لاحتساء الشاي. كانت تقول إن "راى" مثلها تماماً يحب أن يهلك نفسه في العمل. وكثيراً ما كانت تتملقه بطبق من الفاكهة أو الحلوى أو ما تيسر من المشهيات -

www.ibtesama.com

الأشياء نفسها التى كانت تمنحها لى فى الدور الأول. وكان يقول: إنه ليس فى حاجة إلى هذه الأشياء لأنه أكل منذ فترة قليلة، أو أن لديه فى البيت ما يكفى منها وزيادة. كنت أقاومها أنا أيضًا ولكنها كانت تلح وكنت أستسلم بعد المحاولة السابعة أو الثامنة. كنت أرتبك أمام إلحاحها وإصرارها ولكنى كنت أخشى أن أخيب أملها. كنت أيضًا أعجب من "راى" وهو يصر على الرفض مكتفيًا بكلمة "لا". لم يكن يقول حتى "لا يا أمى" ولكنه كان يقول: "لا" فقط، بعدها تبحث عن موضوع للثرثرة فتسأله:"هل من أخبار سارة أو مثيرة عنك أو حواليك؟"ولم يكن راى يجيبها بأكثر من: "لا.. ليس كثيرًا، "أو يقول: "لا أعرف. "ولم يكن "راى" جافًا غليظًا أو يريد أن يغيظها، ولكنه لم يكن يريد أن يطلعها على شىء. كان يقول إن صحته على ما يرام، وإن البرد الذى يعانى منه بدأ يذهب، وإن المدام "كورنيش" و "أيرين" على ما يرام أيضًا.

كانت المدام "كورنيش" هى السيدة التى كان "راى" يسكن فى منزلها فى مكان ما فى شرق فانكوفر. وكان يجد دائمًا ما يعمله فى منزل المدام "كورنيش" مثلما كان يفعل هنا فى منزله – ولهذا كان يسرع إلى هناك حالما ينتهى من عمله هنا. كان يساعدها أيضًا فى الاعتناء بابنتها "أيرين" التى أقعدها الشلل وتستعين بالكرسى المتحرك. كانت "أيرين" تعانى من الشلل الارتجافى، وكانت المدام "چورى" تعقب، بعد أن يقول لها "راى" إن "أيرين" على ما يرام، بكلمة واحدة: "المسكينة. "لم تكن تلومه فى وجهه على الأوقات التى كان يقضيها مع الفتاة العاجزة، ولا على أوقات الخروج إلى منتزه

www.ibtesama.com

ستانلى، ولا على الرحلات القصيرة التى كان يحضر فيها الأيسكريم. (كانت تعلم بهذه الأمور لأنها كنت تهاتف المدام "كورنيش" وتعرف منها كل شىء.) ولكنها كانت تقول لى: "لا أتخيل منظرها بينما الأيسكريم ينزل من فمها إلى حجرها. لا أستطيع تحمل منظرها والناس يتفرجون عليها. وكانت تقول إنها حينما تصحب السيد "چورى" إلى جولة خارجية على كرسيه المتحرك فإن الناس يراقبونهما (كان السيد "چورى" مشلولاً أيضًا بسبب جلطة ألمت به)، ولكن وضعه كان مختلفًا عن وضع "أيرين". لم يكن يحرك ساكنًا، أو يصدر صوتًا خارج المنزل. وكانت المدام "چورى" تتأكد، قبل أن تخرج به، من أن منظره العام مقبول، بينما كانت "أيرين" لا تستطيع أن تسيطر على نفسها، وكانت تصدر أصواتًا غريبة. وكانت المدام "چورى" تقول إنها سمعت المدام "كورنيش" تقول إن أحدًا لن يهتم بأمر فتاة عاجزة حين تهاجمها نوبات الصراخ. ثم تقول: "كان لابد من قانون يمنع الأصحاء من الزواج بمثلها، ولكن حتى الآن لا يوجد هذا القانون. "

عندما كانت المدام "چورى" تدعونى لاحتساء قدحٍ من القهوة كنت أرفض دائمًا. كنت مشغولة بحياتى فى الطابق الأول. أحيانًا عندما كانت تطرق بابى كنت أتظاهر بأنى لست موجودة. ولكن ذلك كان يتطلب منى أن أطفئ الأنوار وأغلق الباب فى اللحظة التى أسمعها تغلق باب شقتها فى الطابق الأعلى وحينئذ يصبح على أن أظل ساكنة دون حراك بينما هى تدق على الباب دقات خفيفة وتردد اسمى. وأيضًا كان على أن ألزم الهدوء على الأقل ساعة من الزمن

www.ibtesama.com

بعد أن تذهب وأمتنع عن شد "سيفون" الحمام. وإذا قلت لها إن الوقت لا يسعفني ولدى أشياء أريد أن أعملها كانت تضحك وتقول: "وما هذه الأشياء؟ " وكنت أقول: "أكتب رسائل. "وكانت تقول: "دائماً تكتبين رسائل.. لابد أنك تعانين من حنين إلى بلدك. "

كان حاجباها فى لون القرنفل، ويختلف قليلاً عن لون شعرها الأحمر، لا أظن أنه كان طبيعيًا. ولكن كيف صبغت حاجبيها؟كان وجهها نحيفًا مليئًا بالحيوية وقد صبغته بلون أحمر، بينما كانت أسنانها كبيرة ولامعة. كانت شهيتها للصداقة والصحبة كبيرة لا تقاوم. من أول يوم جاء بى "تشس" إلى هذه الشقة بعد أن قابلنى فى القطار، طرقت علينا الباب بطبق من "الكوكيز"مع ابتسامة ملؤها الطمع والجشع. كانت قبعة السفر لم تزل فوق رأسى وكان "تشس"يشدنى من حزامى فتوقف عن فعل ذلك أمام إلحاح المدام "چورى". كانت "الكوكيز" جافة وصلبة ومغطاة بطبقة من الأيسكريم الأبيض احتفالاً- على ما يبدو - بكونى عروساً حديثة العهد بالزواج. تحدث إليها "تشس" بغلظة فقد كان مضطراً إلى أن يعود بسرعة إلى عمله فى ظرف نصف ساعة، وبعد أن تخلص منها لم يكن أمامه متسع من الوقت لمواصلة ما كان قد بدأه. وعوضًا عن ذلك راح يلتهم "الكوكيز" الواحدة بعد الأخرى وهو يقول إن طعمها يشبه طعم الرمل فى فمه.

وكانت المدام "چورى"تقول لى بعد ذلك: "زوجك يأخذ الأمور بجدية أكثر من اللازم، يضطرنى أحيانًا إلى الضحك. إنه يحدجنى دائمًا بتلك النظرة الجادة فى غدوه ورواحه، وأريد أن أقول له: هون عليك فإنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً. "

www.ibtesama.com

أحيانًا كنت أضطر إلى أن أتبعها إلى الطابق الثانى سأمًا من القراءة والكتابة. كنا نجلس إلى المائدة فى حجرة الجلوس فى شقتها. كانت المائدة مغطاة بقطعة قماش من الحرير، وخلفها مرآة مكعبة الشكل تعكس صورة بجعة من السيراميك. كنا نحتسى القهوة من أقداح من الخزف الصينى، ونأتى على أطباق صغيرة بالكامل من المكسرات والفطائر محلاة بالزبيب وأطباق أخرى من الكعك السميك، وندنو من شفاهنا بمناديل صغيرة معطرة لإزالة ما علق عليها من فتات. كنت أجلس قبالة "النيش" المزدان بأطباق الخزف والأكواب الجميلة المرتبة ذات الأحجام الواحدة، وأطقم السكر، ومبيضات القهوة، والملح، والفلفل، غاية فى الأناقة، يُشفَق عليها من الاستخدام اليومى، كذلك زهريات تمتلئ ببراعم الزهر، وإبريق شاى على شكل كوخ مسقوف، وشمعدانات أنيقة أخذت شكل الزنابق الجميلة. كانت المدام "چورى" تقوم بتنظيف محتويات "النيش" مرة كل شهر، حدثتنى بذلك. وحدثتنى أيضًا عن أمور تتعلق بى، وبالبيت والمستقبل الذى ينتظرنى حسب رؤيتها، وكلما أمعنت فى الحديث كنت أحس بأنى أحمل طنًا من الحديد على ركبتى، وازدادت رغبتى فى التثاؤب، والصباح لم يستسلم بعد أمام تباشير الظهر مما كان يجعلنى أتسلل فى خفة اللص وأختفى من وجهها وألقى بنفسى على السرير. ولكن فى العلن كنت أذيع إعجابى بكل شىء. كنت أذيع إعجابى بالنيش المزدان بأطباق الصينى الرائعة وبأسلوب المدام "چورى" فى حياتها اليومية وبأطقم الملابس متناسقة الألوان التى كانت ترتديها كل صباح. كنت أعجب أيضًا بالتنورات والبلوزات التى

www.ibtesama.com

أخذت ألوانًا وردية، وأخرى بنفسجية وقد ازدانت بأوشحة من الحرير الصناعي من جنس لونها.

كانت تقول لي ناصحة: "أول شيء تفعلينه دائمًا هو أن ترتدي ملابسك وكأنك ذاهبة إلى عملك... رتبي شعرك وضعي زينتك" -- أكثر من مرة تدخل عليّ غرفتي وأنا في قميص النوم – "وفي استطاعتك دائمًا أن ترتدي مريلة عندما تنوين القيام بغسيل أو خبيز، فذلك أفضل لروحك المعنوية. "ثم تستمر في النصح قائلة: "احتفظي دائمًا بخبز في البيت حتى إذا هبط زائر عارض يجد مؤونته من الخبز. " (على حد علمي لم يكن يزورها أحد غيري، ولا يمكن أن أقول إني كنت عابرة سبيل أو زائرة عارضة) ثم تستمر قائلة: "ولا ينبغي أبدًا أن تقدمي القهوة في أقداح كبيرة. "

لم تكن عباراتها بهذه الصراحة الموجعة، كانت تؤنسها بعبارات تخفف منها مثل: "أنا دائمًا أفعل كذا... "، أو "أحب دائمًا أن أفعل كذا... "، أو تقول: "أعتقد أن الأفضل والأحسن أن... "، أو تقول:"حتى عندما كنت أعيش في الريف كنت أحب أن أفعل كذا... " عندئذ كانت حاجتي للتثاؤب أو الصياح تنحسر مؤقتًا. أين عاشت هذه السيدة في الريف؟ ومتى؟وكانت تقول أيضًا:

"أوه.. عشت على الشاطئ البعيد زمنًا. . كنت عروسًا مثلك في يوم من الأيام. عشت سنين هناك على مضيق "يونيون. "ولم يكن ذلك المكان ريفًا بمعنى الكلمة. جزيرة كورتيز. "

سألتها: "أين تقع جزيرة كورتيز هذه؟"وقالت:"هناك... في مكان على الشاطئ. "

www.ibtesama.com

قلت: "لابد أنه كان مكانًا رائعًا. "وكانت تجيب: "أوه... كان جميلاً إذا كنت تحبين الدببة وأسود الجبل. أما عن نفسى فقد كنت أفضل أن أعيش فى مكان فيه شىء من الحضارة. "

كانت غرفة المائدة منفصلة عن حجرة الجلوس بأبواب منزلقة من خشب البلوط. كانت تلك الأبواب مواربة دائمًا حتى تتمكن المدام "چورى" – وهى جالسة على حافة المنضدة – من رؤية السيد "چورى" زوجها القابع على كرسيه المتحرك أمام نافذة حجرة الجلوس. كانت حين تتحدث عنه تقول: "زوجى الذى يجلس على كرسى المعوقين، "ولكنه فى الحقيقة لم يكن يجلس على كرسى المعوقين هذا إلا حينما تأخذه إلى نزهته كل يوم. لم يكن فى البيت تلفاز – كان وجود التلفاز نادراً فى ذلك الوقت. كان السيد "چورى" يجلس إلى جوار النافذة يتفرج على الشارع ومنتزه "كستلانو" فى الجهة الأخرى من الشارع. كان يتلمس طريقه بنفسه إلى الحمام، تعينه على ذلك عكاز كان يمسك بها فى يد واليد الأخرى يتكئ بها على ظهر كرسيه أو يضرب بها على الحائط. فإذا استقر داخل الحمام كان يدير كل شىء بنفسه، رغم أن ذلك كان يأخذ منه وقتًا طويلاً. وكانت المدام "چورى"تقول: إنها كانت تقوم، ورغم ذلك كله، ببعض التنظيف للحمام.

كل ما كنت أستطيع أن أراه من جسد السيد "چورى" هى الجهة اليسرى من بنطلونه وقد استقرت على الكنبة ذات اللون الأخضر الفاتح. يتصادف أن يذهب إلى الحمام مرة أو مرتين خلال المدة التى أكون فيها هناك. يسحب ساقيه بصعوبة ويحاول النهوض عليهما

www.ibtesama.com

لكى يتلمس طريقه إلى الحمام. رجل ضخم - رأس ضخم ومنكبان عريضان وهيكل عملاق.

لم أكن أنظر إلى وجهه. كنت أعتقد أن المشلولين والمنكوبين بالجلطات والمرضى يجلبون لى الحظ السيئ، أو على الأقل رسائل تذكرك بالحظ السيئ. لم أكن أحاول تجنب منظر أطرافهم عديمة الجدوى أو أية ملامح جسدية أخرى فيما آل إليه حظهم المروع - كنت أهرب فقط من نظرات عيونهم اليائسة.

لا أظن أنه نظر إلىّ حتى عندما هتفت المدام "چورى" فى أذنه معلنة أننى جئت لزيارتهم. كل ما صدر منه صوت أشبه بالهمهمة، قصارى ما يستطيعه رداً على تحية أو سعياً إلى رفض.

كانت شقتنا تتكون من حجرتين ونصف حجرة. استأجرناها مفروشة، أو قل نصف مفروشة حسب طريقة أصحاب المِلْك فى ذلك الوقت. احتوت أشياءَ جديرة بإلقائها فى القمامة لولا حاجتنا إليها. أتذكر أرضية حجرة الجلوس التى كانت مغطاة ببقايا مشمع على شكل مربعات أو مستطيلات: فضلات، على ما يبدو، من قطع من كل لون وشكل شد بعضها إلى بعض بأسلاك من حديد فأضحت مثل لحاف سخيف. أتذكر موقد البوتاجاز فى المطبخ الذى زود هو الآخر - أى المطبخ - بقطع مربعة من تلك الفضلات. كان سريرنا يقع فى فجوة على مبعدة من ذلك المطبخ، كان يملأ تلك الفجوة بالضبط فكنا نضطر إلى الصعود قليلاً بادئين من أسفل. قال "تشس"إنه قرأ أن تلك كانت طريقة الحريم فى دخول مخدع السلطان :كن يبدأن بقدميه هياماً وتبجيلاً، ثم يمضين فى الزحف إلى أعلى وهن يبدين ثناءهن

www.ibtesama.com

لباقى أجزاء جسده حتى بلوغ الغاية. كنت أنا و"تشس"نمارس هذه اللعبة بين الحين والحين على سبيل المزاح.

وضعنا ستارة بين السرير والمطبخ وتركناها مسدلة طوال الوقت. كانت فى الواقع مفرش سرير من تلك المفارش القديمة، أو قل: كانت قطعة من قماش لين له أهداب يأخذ لون الصوف الطبيعى من إحدى جهتيه، مطرز بأشكال من ورود خمرية وأوراق خضراء، ومن الجهة الأخرى، الجهة التى كانت تقابل السرير، زُين بخيوط اختلط فيها الخمرى بالأحمر بالأخضر، وزهور وأوراق نبات تبدو أقرب إلى الأشباح على اللون الفاتح. كانت هذه الستارة هى الشىء الوحيد الذى أتذكره حق التذكر من كل ما حوت تلك الشقة القديمة. ولا عجب، ففى فورة الجماع، وفى غمرة التوابع التى تليه، كانت هذه القطعة من القماش أمام ناظرى حتى أصبحت تذكرنى بالشىء الذى أحببته فى مسألة الزواج برمته - المكافأة التى من أجلها تحملت الأذى حين كانوا ينادوننى بـ "العروس الصغيرة"، وحين تمضى المدام "چورى" فى إسداء النصح لى أمام "النيش" فى حجرة جلوسها.

ننتسب أنا و"تشس"إلى أسر كانت تَعُدُّ الجنس خارج إطار الزواج شيئًا مقززًا ولا يغتفر، فى حين لم يكن الجنس الشرعى يُذكر مجرد الذكر، وحتى إذا ذُكر فقد كان يُذكر عرضًا، أو يُمَر عليه مرور الكرام. ولذا عددنا ممارستنا له على ذلك النحو إنجازًا يحسب لنا رغم كل شىء. عندما وجدت أم "تشس"ذات يوم عوازل ذكرية (كوندومز) فى حقيبته راحت تولول وتبكى وهى تشكوه لأبيه. (قال لى "تشس" إن هذه العوازل وُزعت عليهم أثناء التدريبات العسكرية

www.ibtesama.com

التى كان يؤديها أثناء الجامعة - وكان على حق - وقال إنه نسى أمرها تمامًا - ولم يكن على حق.) إذن فوجود مكان خاص بنا وسرير خاص بنا نفعل عليه ما نشاء كان شيئًا مدهشًا بل أكثر من رائع بالنسبة لنا. صنعنا صفقة غريبة لا نظن أن كبارنا اهتموا بها - أقصد آباءنا وعماتنا وأعمامنا وخالاتنا وأخوالنا - لم يخطر على بالهم أن اهتموا بغريزتهم مثلما فعلنا. يبدو أن لهفتهم تركزت على اقتناء البيوت والعقارات، وآلات الحصاد، والثلاجات، الجدران الفانية. بالنسبة للنساء كانت غايتهن إنجاب الأطفال. قررت أنا و"تشس" أن تكون هذه الأمور خاضعة لاختيارنا فى المستقبل وقد لا نختارها، ولم نعمل حسابًا لأى من هذه الأشياء التى تقع للناس دون رحمة، مثل كبر السن والعجز.

الآن وأنا أسترجع ما حدث بكل أمانة أقول إننا لم نختر شيئًا على عكس ما كنا نرغب. ولا حتى الحمل، اخترناه عن رغبة كلينا لكى نتأكد من أننا كبرنا فعلاً، أو من أنه سيحدث حقًا.

كان الشىء الآخر الذى كنت أمارسه خلف الستارة هو القراءة. كنت أقرأ كتبًا استعرتها من مكتبة "كستيلانو" التى تقع على بعد عمارات قليلة من منزلنا. وعندما كانت الدهشة تستولى على مشاعرى بسبب ما أقرأ، كانت الخطوط الملونة على الستارة المسدلة أول ما تقع عليه عيناى. كان كل شىء - الشخصيات والقصة وحتى المناخ الموصوف فى القصة -يرتبط فى ذهنى على الفور بالزهور المرسومة على الستارة، ويفيض على ما علق عليها من ألوان خمرية غامقة وخضراء عابسة. كنت أقرأ الكتب الصعبة التى أصبحت

www.ibtesama.com

عناوينها أشبه بتعاويذ السحر بالنسبة لى. حاولت أيضًا قراءة رواية المخطوبة[٢] وبين هذا وذاك قرأت زوايات ألدوس هكسلى وهنرى جرين ورواية " إلى المنارة[٣]". ورواية" آخر مغامرات شيرى[٤]" ورواية "موت القلب[٥]. "كنت أقرأ بنهم، الكتاب بعد الكتاب دون ترتيب أو تمييز، أستسلم لكلٍ على حدة مثلما كنت أفعل بالكتب التى كنت أقرؤها فى طفولتى. كانت لدى بقية من شهوة الطفولة ونهمها الذى تمتزج فيه البهجة بالأسى.

ولكن ثمة عامل آخر زاد الأمور تعقيدًا عما كانت عليه أيام الطفولة - يبدو أننى أصبحت كاتبة وليس قارئة فحسب. اشتريت كراسة من كراسات المدارس وشرعت فى الكتابة. كنت أكتب بالفعل صفحات كانت تبدأ قوية وسرعان ما كان القلم يجف والفكر ينضب؛ فكنت أمزقها تمزيقًا، وأعصرها عصرًا، وألقى بها فى صندوق القمامة إمعانًا فى عقاب الذات. كنت أكرر المحاولة كثيرًا حتى آخر صفحة فى الدفتر فأعمد إلى المحل لشراء دفتر آخر لأبدأ العملية برمتها من جديد؛ الدائرة ذاتها - إثارة وإحباط، إثارة وإحباط، وكأنى أمر بعملية حمل وإجهاض فى السر كل أسبوع.

ولكن الأمر لم يكن سرًا كله. كان "تشس"يعرف أنى كنت أقرأ كثيرًا وأنى كنت أحاول الكتابة. لم يثبط همتى أبدًا. كان يقول إننى بالمحاولة يمكن أن أتعلم الكتابة فى يوم من الأيام، وأن الأمر قد يحتاج إلى بعض التمرين الشاق حتى أتقن الكتابة مثلما يفعل من يريد إتقان البردج أو التنس. ولم أشكره على هذه الثقة الكريمة؛ فقد ضاعفت من إحساسى بالإخفاق الذى كنت أعانى منه أصلاً.

www.ibtesama.com

كان "تشس"يعمل فى شركة لتجارة البقالة بالجملة. فكر فى العمل مدرساً للتاريخ، ولكن أبوه نصحه بأن التدريس لن يكفيه لإعالة زوجة وأسرة وإثبات ذاته فى هذه الدنيا. ساعده أبوه فى الحصول على هذه الوظيفة، وأخبره بألا ينتظر منه خدمات أخرى بعد أن يتسلم الوظيفة، وكذلك فعل "تشس. "كان يغادر المنزل قبل طلوع الشمس فى أول شتاء بعد زواجنا، وكان يأتى إلى المنزل بعد حلول الظلام. كان يعمل بجهد شاق دون أن يأبه بما يناسبه أو لا يناسبه أو يتناسب مع أهدافه وميوله، أو كان يتناسب مع أهدافه وميوله. لا هدف فيما عدا سعيه إلى أن يلحقنا بحياة أصحاب المروج والثلاجات التى اعتقدنا أننا لن نأبه بها. كنت أعجب من إذعانه، كلما فكرت فى الأمر. إذعانه المبهج، يمكنك أن تقول، الشهم.

ولكن حينها كنت أقول: "إن هذا ما يفعله الرجال. "

كنت أخرج أحياناً بنفسى للبحث عن عمل، وعندما كان المطر يشتد كنت ألوذ بصيدلية أشترى منها صحيفة وألقى نظرة سريعة على إعلانات الوظائف وأنا أحتسى كوباً من القهوة. وعندما كان المطر يتوقف، أو يتحول إلى رذاذ خفيف، كنت أقصد الأماكن التى تعلن عن حاجتها إلى نادلة أو بائعة أو حتى عاملة مصنع عادية. أية وظيفة لا تحتاج إلى معرفة بالدق على الآلة الكاتبة، أو أية خبرات أخرى. وعندما كان المطر يشتد مرة أخرى كنت أحتمى بالأوتوبيس لأعود به إلى بيتى. كان "تشس"ينصحنى بركوب الأتوبيس، وكان يقول لى: "لا تتعبى نفسك فى المشى حتى توفرى بعض النقود. "وكان يقول أيضاً: "إذا آثرت المشى على الأتوبيس لتوفرى المال

www.ibtesama.com

سوف تفقدين الوظيفة التى تسعين إليها، وستفوز بها فتاة أخرى وصلت قبلك. "كنت أتمنى فعلاً الالتحاق بعمل ما، ولم يكن كلامه يغيظنى أو يضايقنى. كنت أحيانًا أصل إلى المكان الذى أُعلن عنه فى الصحيفة، وأتوقف هنيهة على الرصيف، وأتطلع فى نوافذ العرض على ملابس السيدات بشكلها الأنيق ونظامها الدقيق. وكنت أتأمل الفتيات وهن ينزلن من المكتب الذى جئت من أجله لأعمل موظفة أرشيف. كن ينزلن الدرج بإيقاع راقص فى طريقهن إلى المطعم وقت الغداء. لم أكن أجرؤ حتى على الدخول لأنى كنت أعلم أن مظهرى لم يكن فى صالحى - منظر شعرى وأظافرى وحذائى الذى لم يرفعه كعب أو يزينه لون. قلل من حماسى للعناية بنفسى طول العمل فى المصانع - لا زلت أسمع إيقاع الآلات المصطفة لملء زجاجات المرطبات، أو لترتيب زخارف أعياد الميلاد. ولا زلت أرى المصابيح تتدلى من أسقف المخازن وقد أرسلت أضواءها الساطعة. لم يكن يهم فى هذه الأمكنة أن أعتنى بأظافرى، أو أرفع حذائى بكعب يبتعد به قليلاً عن الأرض. كان فتور روحى وحماقتى الموروثة يعرضاننى للسب والصياح فى وجهى (كان صياحهم فى وجهى بالزجر والسب يعلو أحيانًا فوق أصوات الآلات). كانت ثقتى فى نفسى متواضعة؛ لم أكن أعتقد أنى أصلح حتى لتشغيل آلة عد النقود. قلت ذلك لمدير أحد المطاعم حين عرفت أنه يريد أن يقبلنى فعلاً لهذه الوظيفة. سألنى: "هل تستطيعين فعلاً القيام بهذا العمل؟"قلت له: "لا. "فرمانى عندئذٍ بنظرة تدل على دهشته لصراحتى. قلت الحقيقة وكفى. كانت القدرة فعلاً تنقصنى على تعلم

www.ibtesama.com

الأشياء بسرعة. جعلني "تشس"أشعر بأني لن أحتاج إلى هذه الأمور؛ لأنه كان يتكفل بكل شيء تقريبًا، على الأقل بحاجاتنا الأساسية. لم أكن مضطرة إلى الخروج والعمل لأن "تشس"هو الذى كان يعمل ويعولنا. الرجال هم الذين يخرجون ويعملون ويعولوننا.

فكرت فى العمل فى مكتبة. قلت لنفسى ربما أستطيع العمل فى مكتبة. دخلت مكتبة لأسأل رغم أنهم لم يعلنوا عن وظيفة. قابلتنى سيدة وأدرجت اسمى فى قائمة. كانت مؤدبة ولكنها لم تكن مشجعة. ذهبت بعد ذلك إلى بعض المكتبات الأخرى كتلك التى لا يبدو أنهم يمتلكون آلة عد نقود، أو تلك التى كانت شبه فارغة أو تفتقر إلى النظافة. كان أصحابها إما يدخنون أو ينامون على مكاتبهم، وفى مكتبات الكتب المستعملة كان من الممكن أن تشم رائحة قط ميت مثلاً. كانوا يقولون لى إنهم لا يبيعون كثيرًا فى الشتاء، والأفضل أن أجىء فى الربيع. وحتى فى الربيع لن أكون مشغولة بالبيع طوال الوقت.

لم يكن الشتاء فى فانكوفر مثل أى شتاء آخر عرفته؛فلا ثلج ولا أية علامة تدل على قدوم برد. فى الظهر كنت تشم، خاصة فى وسط البلد، رائحة سكر محروق؛ وكان لذلك، فيما أظن، علاقة بأسلاك "الترولى. "كنت أقطع شارع "هاستنجز"بطوله حيث لم أكن أرى فيه امرأة أخرى تتمشى مثلى - لم أكن أرى غير السكارى، والمتسكعين، ورجال كبار فى السن من الصينيين المساكين الذين كانوا فى مشيهم يتثاقلون، لا تسمع منهم كلمة نابية أو سبًّا. كنت أمر بمخازن ومساحات شاسعة تكثر بها الأعشاب الضارة ولن ترى فيها نسمة

www.ibtesama.com

أو تسمع نأمة، على مد البصر. وكنت أقطع شارع "كستلانو" ببيوته العالية الخالية من أى جمال، يحشر فيها الناس أنفسهم حشراً مثلنا، حتى أصل إلى منطقة "دنبار" النظيفة التى تكثر بها البيوت ذات الطابق الواحد، وجدرانها المزينة بالجص، والشجيرات التى قُطِعَت ذؤاباتها. أو أتمشى فى شارع "كرسدال" حيث تظهر به الأشجار الأنيقة على المروج الكثيفة، وأشجار التبولا القصيرة، والأعمدة الخشبية على الطراز التيودورى، وتناسق على الطراز الجورجى، وصور لـ"سنووايت" بأسقف مزيفة من أعواد القش، أو ربما كانت أسقفاً حقيقية، من يدرى؟

كنت تجد الأنوار تنطلق فى بيوت تلك الأحياء حوالى الرابعة عصراً، ثم تنطلق بعدها أنوار المصابيح فى الشوارع، وأنوار الحافلات الكهربائية. وكثيراً ما كنت تجد السحب الغربية فوق البحر، وقد انحسرت قليلاً عن بعض أصابع من ضوء الشمس إيذاناً بالغروب. أو تجد أوراق الشجيرات الشتائية المنبثة فى المتنزهات والمواقف تلمع فى الهواء الندى بعون من أضواء خفيفة وردية أرسلها الغسق. كان الذين فرغوا من التسوق رائحون إلى بيوتهم، وكان الذين فرغوا من أعمالهم يتأهبون للرجوع إلى بيوتهم، وأما الذين لم يبرحوا منازلهم طوال اليوم فكانوا يتأهبون للخروج للتمشية ساعة أو بعض ساعة، لتجديد النشاط. رأيت نساءً يدفعن عربات صغيرة تحمل فلذات أكبادهن، وصغاراً يتعثرون فى مشيهم، ولم يخطر بباليأنى سوف أكون مثلهن فى يوم ما. رأيت كبار سن بصحبة كلابهم، وكبار سن يتلمسون طريقهم بصعوبة، وآخرين

www.ibtesama.com

استقروا على مقاعد المقعدين يدفعهم خادم أو رفيق العمر. رأيت المدام "چورى" تدفع مقعد السيد "چورى". كانت تضع قبعة تحيط بها قلنسوة من صوف وردى ناعم (حينئذٍ عرفت أنها هى التى تصنع أغلب ملابسها)، وكثيرًا من المساحيق ذات الألوان الزاهية على وجهها. كان السيد "چورى" يرتدى قبعة تلتصق برأسه ويتشح بوشاح سميك حول عنقه. حيتنى بصوت حاد ينم عن إحساس صاحب العمارة تجاه القاطنين عنده، وأما السيد "چورى" فلم يأبه بشىء. لم يكن يبدو أنه كان مستمتعًا بالجولة. على كل حال لا يُظْهِر المقعدون، وهم على مقاعدهم المتحركة، أى شىء غير الإذعان والاستسلام. تظهر على بعضهم المهانة، أو تُنَكِّس رؤوسهم ذلة. قالت لى المدام "چورى":

– رأيناكِ بالأمس فِى المنتزه، أكنت راجعة بعد البحث عن وظيفة؟

– لا.

كنت مضطرة إلى الكذب عليها. شىءٌ ما كان يدفعنى دائمًا إلى الكذب عليها.

– عظيم. فقد كنت أريد أن أقول إنك إن كنت ترغبين فى العمل حقًا فعليك أن تهتمى بمظهرك قليلاً. وأنت ست العارفين.

– أعرف.

– لا أفهم كيف يخرج نساء اليوم بهذا المظهر. عن نفسى لا يمكن أن أخرج بحذاء يلتصق بالأرض ودون أن أضع بعض المساحيق على وجهى حتى ولو كنت ذاهبة إلى شراء بعض الأشياء من البقال، ناهيك عن أنى ذاهبة لأطلب من شخص ما وظيفة.

www.ibtesama.com

كانت تعلم أنى كنت أكذب عليها، وكانت تعرف أنى كنت أقف متجمدة وراء باب الطابق الأول، دون أن أجيب على طرقاتها الملحة. لم أكن أستبعد أو أستغرب أن تعمد إلى القمامة لعلها تعثر على أوراقى التى أودعتها مشاكلى ثم تخلصت منها. لعلها كانت تجمع تلك الأوراق من القمامة وتقرؤها لتعرف أسرارنا. لماذا لا تخرجنى من رأسها؟لا طاقة بها على ذلك. كنت شغلها الشاغل، أو ربما كانت خصالى التى تجاوز المألوف هى التى ألهبت حماسها لمعرفة أسرارى، وأثارت حبها لاستطلاع أحوالى. أو ربما كسلى وفتور همتى وعجزى عن القيام بشىء هو الذى دفعها إلى إصلاح شأنى فى مقابل عجزها إزاء أحوال السيد "چورى" الميئوس منها، وما نعجز عن إصلاحه نتحمله.

نزلت إلى الطابق الأرضى ذات يوم وكنت مشغولة بغسل ملابسى وملابس "تشس، "وكانت قد سمحت لى باستخدام غسالتها ومنشفتها كل يوم ثلاثاء. سألتنى:

– ألم تحصلى على وظيفة بعد؟

وقلت لها فى التو إن العاملين فى المكتبة وعدونى بعمل قريباً. كنت أعتقد أنى أستطيع التظاهر بأنى أعمل هناك، حتى لو اضطررت إلى أن أذهب كل يوم وأمضى ساعة أو ساعتين على طاولة من تلك الطاولات أتصفح بعض الكتب، أو حتى أمارس هوايتى فى الكتابة كما كنت أفعل فى الماضى بين الوقت والآخر. كان هناك احتمال أن تأتى المدام "چورى" إلى المكتبة وقد تكشف اللعبة، ولكنى كنت واثقة بأنها لن تستطيع دفع مقعد السيد "چورى"

www.ibtesama.com

كل هذه المسافة وإلى هذا المكان المرتفع. وكان هناك احتمال أن تخبر "تشس"عن وظيفتي، ولكني كنت واثقة أيضًا من أنها لن تفعل ذلك أيضًا. كانت تقول لي إنها تخشى أحيانًا أن تكلم "تشس" أو تحييه؛لأنه دائمًا يحيد بوجه متجهم وسحنة غاضبة.

– وإلى أن تجيء وظيفتك ما رأيك في وظيفة بسيطة عندي؟... تجلسين مع السيد "چوري" بعد العصر وتشرفين على طلباته.

ثم قالت إنها قبلت وظيفة في محل هدايا في مستشفى القديس بولس، تذهب إليها ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع. وقالت: "إنهم لن يدفعوا لي شيئًا لأنها وظيفة تطوعية، وإلا كنت أنت الأحق بها، ولكنها وظيفة تطوعية تتسق مع ما نصحني به الطبيب. قال لي الطبيب إن هذه الوظيفة سوف تضطرك إلى الخروج، وهو مفيد لك ولصحتك، سوف تساعدك على الخروج من جو البيت. "ثم استمرت تقول: "المسألة ليست مسألة أموال؛لأن "راي" لا يجعلنا في حاجة إلى شيء. هي وظيفة تطوعية مفيدة صحيًا لا أكثر ولا أقل. " ثم دحرجت عينيها إلى الغسالة فرأت قمصان "تشس"مختلطة مع قميص نومي الذي كان مزينًا بورود مختلفة الألوان، وملايات السرير الباهتة الزرقاء، فأسرعت تقول: "عزيزتي، ألم أنبهك بألا تضعي البياضات مع الملابس الملونة معًا في الغسالة؟"قلت لها: "الملابس ذات ألوان خفيفة لا ينصل لونها عند الغسيل. "فقالت: "الألوان الخفيفة هي ملابس ملونة في كل الأحوال، وقد تظنين أن القمصان البيضاء بيضاء بهذا الشكل ولكنها أكثر بياضًا في الواقع. "قلت لها: "سوف أتذكر ذلك في المرات القادمة. "قالت: "إنها حتى طريقتك في العناية بزوجك.

www.ibtesama.com

"قالت ذلك قبل أن تصدر منها ضحكة مدوية مثيرة للاستياء حقًا.

قلت لها: "تشس" لا يهتم بهذه الأمور، " قلت ذلك وأنا أدرك أن المرء يتغير مع كر الأيام وتتابع السنين، وأن "تشس" سوف يهتم بهذه الأمور وأكثر منها في المستقبل، وأن مثل هذه الأعمال التي تبدو عارضة وهامشية الآن سوف تكون في مقدمة الاهتمامات، ومركز السعي.

إذن بدأت عملي في الوظيفة الجديدة: أجلس مع السيد "چوري" في أوقات الأصيل وأقوم على خدمته. كان يضطجع على أريكة خضراء وُضِعَتْ على جانبيها طاولتان صغيرتان أعدتا في الواقع لغرضين مختلفين. رأيت على المائدة الأولى فوطة يد، وضعتها المدام "چوري" خصيصًا للحاق بما قد يقع من السيد "چوري" من طعام أو ما قد يريقه من لعاب، أو بقية من شراب. وجدت فوق هذه المائدة نفسها زجاجات الأقراص، وقوارير الدواء السائل، بالإضافة إلى منبه من أجل ضبط مواعيد تناول الدواء. وأما المائدة الأخرى، على الجهة الثانية من المتكأ، فقد اجتمعت عليها كمية لا بأس بها من مادة قرائية: جريدة الصباح، وجريدة المساء، ونسخ من مجلات الحياة والموضة، وكانت تلك مجلات كبيرة وعريضة في تلك الأيام. شاهدت أيضًا على الرف الأسفل لهذه المائدة كمية كبيرة من القصاصات الورقية التي نظمها السيد "چوري" على شكل ألبومات، من النوع الذي كان يستخدمه الأطفال في المدارس. كانت أوراقها مائلة إلى السمرة وحوافها خشنة. احتوت هذه الألبومات أجزاء صغيرة من أوراق الصحف والصور الفوتوغرافية التي التصقت بها وبرزت قليلاً

www.ibtesama.com

فى الوقت نفسه. تلك كانت القصاصات التى كان السيد "چورى" يجمعها ويحتفظ بها عبر السنين حتى ألمت به هذه الجلطة التى نالت من يديه فلم يعد قادرًا على القص واللصق. قامت على ركن فى الحجرة خزانة للكتب تتكون أغلب محتوياتها من قصاصات من الورق وعدد من الكتب يملأ نصف رف أغلبها من كتب المدرسة الثانوية التى ربما كانت تعود لراى. قالت لى المدام "چورى": "كنت أقرأ له الجرائد.. لم يفقد قدرته كلها ولكن يديه لا تسعفانه على الإمساك بها كثيرًا، وعينيه لا تقويان على الصمود."

رحت إذن أقرأ للسيد "چورى" بعد أن تكون المدام "چورى" قد تسللت خارجة ميممة شطر الأوتوبيس وقد وضعت مظلة على رأسها اتقاءً للمطر. كنت أقرأ له صفحة الرياضة والأخبار المحلية والأخبار العالمية، وكل ما يتعلق بحوادث القتل والاغتيال، وأعمال السطو، والطقس السيئ. كنت أقرأ له الرسائل التى كان القراء يبعثون بها إلى المحرر، والرسائل التى كانوا يبعثون بها إلى الطبيب الذى كان يجيب على أسئلتهم ولا يضن عليهم بالنصح. كنت أقرأ له كذلك الرسائل التى كان يبعث بها القراء إلى "آن لاندرز" التى كانت تجيب عليها ولا تبخل بالنصح. ويبدو أنه كان يحب سماع أخبار الرياضة وإجابات المدام "لاندرز" أكثر من أى شىء آخر فى المجلة. كنت كثيرًا ما أخطئ فى نطق اسم لاعب، أو أتعثر فى نطق مصطلح فيأتى ما أقرأه عاريًا من المعنى، وكان هو يوجهنى بهمهمات ضجرة فأعيد عليه ما قرأت. عندما كنت أقرأ له صفحة الرياضة كان يبدو مستغرقًا فى الاهتمام والتركيز والعبوس فى الوقت نفسه. يختلف

www.ibtesama.com

الأمر عندما كنت أقرأ له أخبار "آن لاندرز"؛فقد كان صدره ينشرح، ووجهه يشرق، وتصدر منه أصوات كنت أفهمها على أنها دليل على الاستحسان، أصوات أشبه بالقرقرة، أو أقرب إلى الصهيل. كانت تلك الأصوات تصدر منه خاصة عندما نصادف فى هذه الرسائل خبرًا يخص النساء، أو أمرًا تافهًا (بعثت امرأة برسالة تقول فيها إن أخت زوجها تتباهى على الدوام بأنها صنعت كعكة بنفسها، فى حين يعرف الجميع أنها جاءت بها من المحل القريب، يظهر ذلك من المنديل الورقى الذى يضعونه تحتها عند تقديمها) أو عندما تلمح هذه الرسائل - بطريقتها الحذرة فى تلك الأيام - إلى الجنس.

كنت عندما أقرأ عليه الصفحة الأولى حيث يقع مقال المحرر، أو الهراء الكثير الذى كان يُكْتَب عما كان يصرح به الروس والأمريكيون فى الأمم المتحدة، كنت أرى أجفانه تتدلى، وخاصة جفن عينه السليمة كان يتدلى حتى يكاد يغطيها، ويتدلى جفن عينه المنكوبة قليلاً. كنت ألاحظ أن حركات صدره ازدادت فأتوقف عن القراءة لأنه ربما قد استسلم للنوم. عندئذٍ كان يصدر أصواتًا من نوع مختلف، أصواتًا فيها جفاف أو نبرة تأنيب. وعندما اعتدت عليه واعتاد علىّ أخذت هذه الأصوات طابع الاطمئنان أكثر من التوبيخ أو التأنيب؛ الاطمئنان إلى أنه لم يكن يسلم الروح فى تلك اللحظة أكثر منه اطمئنانًا إلى أنه يستسلم للنوم.

فى البداية كان هاجس موته أمام ناظرى كابوسًا مزعجًا. وما الذى يمنع موته التام وهو نصف ميت تقريبًا؟ كانت عينه المنكوبة أشبه بحجر تحت ماء مظلم، وذلك الجانب من فيه كان مفتوحًا تظهر منه أسنانه

www.ibtesama.com

الأصلية الضخمة (أغلب كبار السن كانوا يضعون أسنانًا صناعية فى ذلك الوقت) يطل منها الحشو عبر طلاء كئيب. بدا لى أن بقاءه على قيد الحياة فى هذا العالم خطأ يمكن أن يستدرك فى أية لحظة. ولكننى كنت - كما قلت - قد اعتدت على وجوده. كان جسده الضخم يملأ عينى وأنا أمضى فى القراءة - برأسه الكبير النبيل وصدره العريض الذى كان يعلو وينخفض كأنه كان يدفع عن صاحبه الموت المحدق، ويده اليمنى وقد تعطلت من كل قدرة على الحركة ورقدت على فخذه الطويل الساكن فى بنطال فضفاض. كان أشبه بأثر مقدس مهيب أو محارب قديم من أزمنة البربر، "إريك بلود آكس" أو الملك "كانيوت. "(٦)

خارت قواى سريعًا، قال ملك البحر لرجاله.

لن أخوض غمار البحر، مثل الفاتح من جديد.

هكذا كنت أشبهه. كان أشبه بسفينة ضخمة تحطمت واستقرت على الشاطئ إلى الأبد. كان يضرب الجدران ويهدد الأثاث فى رحلته الخطِرة إلى الحمام. لم تكن رائحته عفنة تمامًا ولكنها لم تكن فى رائحة هذا المزيج من الصابون وبودرة التلك. إما رائحة قماش سميك اختلط ببقايا تبغ (رغم أنه لم يكن يدخن)، أو رائحة جلد آسن محبوس فى الملابس من زمن لم يفقد مرونته وسمكه بإفرازاته المهيبة وحرارته الحيوانية المحببة. رائحة بول خفيفة ولكنها لا تزول، كان يمكن أن تثير اشمئزازى لو كانت لامرأة، ولكن بدت لى، فى حالته، مما يمكن التجاوز عنه ومغفرته، بل عددتها دليلاً من دلائل القِدَم الذى يزينه. وعندما كنت أدخل الحمام بعد أن يقضى حاجته، كان الحمام يذكرنى بعرين وحش بدائى رث لم يفقد جبروته.

www.ibtesama.com

كان "تشس"يقول إننى أضيع وقتى فى الجلوس مع المدعو السيد "چورى. "وقال أيضاً إن الطقس بدأ يتحسن والسحب تختفى والنهار يطول. وبدأت المحلات تضع معروضاتها الجديدة فى الفترينات بعد أن نفضت عنها غبار الشتاء البليد. ولابد أن كل أصحاب المحلات يفكرون الآن فى الاستفادة بمثلى. رحت أفكر فى الخروج للبحث عن وظيفة، خاصة وأن المدام "چورى" لم تكن تدفع لى أكثر من أربعين سنتاً فى الساعة. ولكننى قلت له: "لقد وعدتها."

ذات يوم قال لى إنه رآها تنزل من أتوبيس. رآها من نافذة مكتبه ولم يكن مكتبه قريباً من مستشفى القديس بولس بأى حال. قلت له: "ربما كانت الست فى فترة راحة. "فقال "تشس": "لم أرها أبداً خارج المنزل فى ضوء النهار. يا إلهى. "

اقترحت أن يخرج السيد "چورى"ليشم الهواء على كرسيه المتحرك بعد أن تحسن الطقس، ولكنه رفض الفكرة بضوضاء صدرت منه عرفت منها أن ثمة ما يثير قرفه من مشهد وجوده على الكرسى المتحرك وهناك من يدفعه أمام الناس - أو ربما من فكرة أن هناك من استُؤجر ليدفع بكرسيه المتحرك أمام الناس.

كنت قد توقفت عن قراءة الجريدة واقترحت عليه هذا الاقتراح، وعندما عاودت القراءة من جديد أخبرنى بإشارة من يده وصوت مبهم من فمه بأنه تعب من الاستماع فتركت الجريدة. أشار بيده السليمة ناحية القصاصات الراقدة على الرف الأسفل من المائدة قريباً منه. كان يصدر أصواتاً أخرى. كنت أستطيع أن أجد الكلمات التى تصف تلك الأصوات: همهمة، شخير، نحنحة، سعال، تمتمة.

www.ibtesama.com

كانت هذه الأصوات بالنسبة لى، فى ذلك الوقت، كلمات أستطيع أن أنظمها فى جمل. كانت فعلاً أقرب للألفاظ. لم تكن تعادل، بالنسبة لى، أوامر قاطعة وطلبات حاسمة يشوبها الاستعلاء (لا أريد كذا، أو أريد أن أنهض، أو كم الساعة الآن، أو أريد أن أشرب)، ولكنها كانت جملاً أكثر تعقيداً من ذلك بكثير كأن يقول - مثلاً - وأنا أقرأ عليه حديثًا صحفيًا، أو مقالاً لرئيس التحرير: "يا إلهى لماذا لا يكف هذا الكلب عن الكلام؟" أو يقول: "ما أكثر الكلام الفارغ."

أستطيع الآن أن أترجم ما يقول، إنه يقول: "دعك من الجريدة ودعينا نبحث عن شىء أكثر فائدة فى هذه القصاصات."

أحضرت كومة القصاصات من فوق الرف، ووضعتها على الأرض قريبًا من قدميه. كان السيد "چورى" يرتبها على هيئة ألبومات وقد كتب فوق كل واحد منها، بحروف كبيرة بقلم من نوع أقلام السبورة، تواريخ ترجع إلى سنوات قريبة. رحت أقلب فى ألبوم عام (١٩٥٢) حتى وقعت عينى على قصاصة من جريدة فيها تقرير عن جنازة الملك هنرى السادس. كتب السيد "چورى" فوقها بحروف قلم "الماركر" تلك العبارات: "ألبرت فردريك آرثر جورج. ولد فى عام (١٨٩٥) وتوفى فى عام (١٩٥٢)." وجدت فى الألبوم نفسه صور الملكات الثلاث فى ملابس الحداد.

وجدت فى الصفحة التالية تقريرًا حول طريق ألاسكا السريع.

قلت له: "هذه سجلات مفيدة جدًا وشيقة، هل تريدنى أن نبدأ فى عمل ألبومٍ آخر؟ أستطيع أن أقطع القصاصات التى تريدها وأرتبها لك فى ألبوم آخر جديد على الطريقة التى تريدها."

www.ibtesama.com

كان الصوت الذى أصدره يعنى: "لا عليك، هذا مجهود كبير عليك، " أو ربما كان يعنى: "لا تتعبى نفسك الآن، " أو ربما يعنى: "ولماذا هذه الفكرة الغبية؟" وضع صورة الملك جورج السادس جانباً؛ يريد أن يرى التواريخ التى دونها على الألبومات الأخرى. ولم تكن هى التواريخ التى أرادها فتقدم قليلاً ناحية خزانة الكتب. أحضرت له كومة أخرى من القصاصات. فهمت أنه كان يبحث عن "ألبوم" بعينه بتاريخ معين، فعمدت إلى رفع الألبومات قليلاً قريباً من وجهه حتى يرى الأغلفة وعليها التواريخ، وكنت أقلب الصفحات بين والحين والآخر رغم تبرمه وعدم رضاه. رأيت مقالاً عن الأسود الأمريكية فى جزيرة فانكوفر، ومقالاً آخر عن موت فنان سيرك، ومقالاً ثالثًا عن طفل عاش رغم انحشاره بين كتلتين كبيرتين من الجليد. رحنا نقلب فى صحف ترجع إلى سنوات الحرب، وصحف أخرى ترجع إلى الثلاثينيات، والسنة التى ولدت فيها، وقبل ذلك بعقد كامل، قبل أن يرضى ويهش ويطلب منى النظر فى سنة (١٩٢٣).

وبدأت تصفح الأوراق الخاصة بهذه السنة من بدايتها، وبدأت أقرأ:

"ثلوج يناير تدفن قرى بأكملها فى... " لكنه أشار وكأنه يقول:

"لا ليست هذه. بعدها. . بعدها.. "

ورحت أقلب الصفحات، وكأنه يقول:

"ببطء. ببطء. على رسلك. "

ورحت أقلب الصفحة تلو الأخرى على مهل دون أن أتوقف لأقرأ قليلاً كما كنت أفعل فى البداية حتى وصلت إلى الصفحة التى يريدها.

www.ibtesama.com

"هذه الصفحة. اقرئى هذه. "

لم يكن على الصفحة صورة أو كلمات بارزة أو عناوين. كانت الكلمات التى كتبها بالقلم "الماركر" تقول: "فانكوفر الأحد ١٧ من أبريل، (١٩٢٣). "

وبدأت أقرأ: "جزيرة كورتيز. "فقال: "حسنًا. اقرئى. استمرى. "

جزيرة كورتيز. فى الساعات الأولي من صباح الأحد أو ربما فى الساعات الأخيرة من ليل السبت أتت النار بالكامل على منزل "آنسون جيمس وايلد" الكائن فى الطرف الجنوبى من الجزيرة. يقع المنزل على مسافة بعيدة من أى قاطن أو مسكن، وكان من نتيجة ذلك أن أحداً من القاطنين فى الجزيرة لم ينتبه، على ما يبدو، للنيران المضطرمة. هناك من يقول إن صيادين على متن قارب من قوارب الصيد، كانوا فى طريقهم إلى مكان يدعى الصوت المهجور، شاهدوا النار المضطرمة ولكنهم ظنوا أن هناك من كان يقوم بحرق أغصان وقش، ولما كانوا يعتقدون أن نار القش لا تشكل تهديداً نظراً لطبيعة الغابات الرطبة فى ذلك الوقت من العام، فقد مضوا فى طريقهم ولم يأبهوا لها.

الجدير بالذكر أن السيد وايلد هو مالك بساتين وايلد فروت وكان يسكن أيضًا على الجزيرة طوال خمسة عشر عامًا. كان رجلاً محبًا للعزلة قضى أغلب سنى حياته فى الخدمة العسكرية ولكنه كان ودوداً مع جميع من يقابلهم. كان متزوجًا منذ زمن، وله ولد واحد. يعتقد الناس أيضًا أن السيد وايلد من مواليد المقاطعات الأطلسية.

www.ibtesama.com

لقد أتى الحريق على المنزل بالكامل قبل أن يخمد. وقد عثر على جثة السيد وايلد متفحمة بفعل النيران، كانت قد تفحمت فلم يستطع أحد التعرف عليها.

وجدوا أيضًا فيما وجدوا بين الأطلال "جركن" أسود يُعْتَقد أنه كان مليئًا بالكيروسين.

فى ذلك الوقت كانت المدام "وايلد" زوجته خارج المنزل، يقال إنها ركبت قاربًا - فى يوم الأربعاء السابق على الحادث - كان يحمل كمية من التفاح لنقلها من بستان زوجها إلى "كوموكس. "كانت تنوى الرجوع فى اليوم نفسه ولكنها بقيت بعيدًا عن الجزيرة ثلاثة أيام وأربعة ليال نظرًا لتعطل محرك القارب. وفى صباح يوم الأحد عادت مع صديقها الذى ركبت قاربه واكتشفا المأساة معًا.

كانت المخاوف تزداد حول الصبى الصغير ابن السيد والمدام "وايلد" والذى لم يكن فى المنزل وقت الحريق. لم يضيع رجال البوليس وقتًا وراحوا يبحثون فى كل مكان ولم يأت مساء يوم الأحد إلا وقد تحدد موقع الصبى فى الغابات على بعد أقل من ميل واحد من منزله المحترق. كانت ملابس الصبى مبتلة تمامًا وكان يرتعش من البرد لأنه بقى ساعات متعددة تحت الآجام، ولكن فيما عدا ذلك فإنه لم يُصب بأذى، وظهر من البحث أيضًا أنه أصطحب معه شيئًا من الطعام قبيل مغادرته المنزل؛فقد وجدوا معه لقيمات من الخبز لدى العثور عليه.

هذا وسوف يبدأ التحقيق فى "كورتنى" حول أسباب النيران التى دمرت منزل آل "وايلد" وأسفرت عن وفاة السيد "وايلد. "

www.ibtesama.com

قلت لـه: "هل كنت تعرف أولئك الناس؟"

اقلبى الصفحة.

٤ من أغسطس، (١٩٢٣). من خلال التحقيق الذى جرى فى "كورتنى" على جزيرة فانكوفر حول الحريق الذى أسفر عن وفاة "آنسون جيمس وايلد" من سكان جزيرة كورتيز فى أبريل من هذا العام تبين وجود شك فى جريمة إحراق مبانٍ عمدًا مع سبق الإصرار، كما تبين من التحقيق أن الفاعل إما أن يكون هو المرحوم نفسه أو أن يكون الحريق بفعل شخص ما أو أشخاص مجهولين هناك صعوبة فى العثور على دليل مادى ضدهم. لم يقبل المحققون وجود "جركن" الكيروسين فى موقع الحادث على أنه دليل كاف؛فقد كان السيد "وايلد" يشترى هذه "الجراكن" كثيرًا ويستخدم الكيروسين، حسب شهادة السيد "بيرسى كمبر" البقال فى "مانسون لاندنج" فى جزيرة كورتيز.

لم يكن الصبى، ابن المرحوم، ذو الأعوام السبعة قادرًا على تقديم أى دليل بشأن الحريق. لقد عثر عليه فريق البحث بعد ساعات من الحادث هائمًا على وجهه فى الغابة على مقربة من منزله. وعند سؤاله قال إن أباه كان قد أعطاه خبزًا وتفاحًا وأخبره أن يتمشى إلى "مانسونز لاندنج" ولكنه ضل الطريق. ولكن بعد بضعة أسابيع قال إنه لا يعرف ماذا حدث بالضبط، وكيف ضل الطريق وقد مشى فى ذلك الطريق أكثر من مرة فى الماضى. وقد ذكر الدكتور "أنتونى هلويل" من فكتوريا أنه بالكشف على الصبى فإنه يرجح أن يكون – أى الصبى – قد آثر الهرب لدى رؤية النار، وربما كان أتيح لـه من

www.ibtesama.com

الوقت ما مكنه من أخذ بعض الطعام معه الأمر الذى لا يستطيع أن يتذكر منه شيئًا الآن. كما قال الدكتور "هلويل" إن القصة التى كان الصبى قد رواها فى البداية قد تكون صحيحة، وأنه وجد بعد ذلك صعوبة فى استعادتها من ذاكرته. وقال أيضًا إن استجواب الصبى أكثر من اللازم قد لا يفيد؛ لأنه ربما لا يكون قادرًا على التمييز بين ما حدث فى الواقع وبين ما تخيله حول الموضوع.

لم تكن المدام "وايلد" فى المنزل ساعة الحريق لأنها كانت قد ذهبت إلى جزيرة فانكوفر فى قارب يخص جيمس تومبسون "چورى"من "يونيون باى".

قُيدَ حادث وفاة السيد وايلد على أنه نتيجة خطأ غير مقصود. وحفظت القضية على أنها حريق لم يعرف سببه.

أغلقى الكتاب الآن.

أعيديه إلى مكانه. أعيدى كل شىء إلى مكانه.

لا. لا. ليس على هذا النحو. ضعى كل شىء فى مكانه الصحيح. حسب السنة. هذا أفضل. بالطريقة التى كانت مرتبة عليها.

ألم تأت بعد؟ انظرى من النافذة؟

حسنًا. سوف تأتى قريبًا.

أرأيت؟ ما رأيك فيما حدث؟

لا أهتم. لا أهتم برأيك.

هل خطر فى بالك أن تجرى حياة الناس على ذلك النحو وتنتهى بهذه الطريقة؟ ها أنت قد رأيت. إن حياة الناس تجرى على ذلك النحو وتنتهى أحيانًا هذه النهايات.

www.ibtesama.com

لم أخبر "تشس" بذلك كله، رغم أنى كنت أحكى له كل كبيرة وصغيرة جرت لى فى الذهاب والإياب. تكونت لديه طريقة فى التخلص من أى ذكر لآل "چورى". أصبح لديه كلمة واحدة يتخلص بها من ذكرهم: "ناس غريبون."

ازدهرت جميع الشجيرات التى كانت مظلمة فى الميدان. أخذت أزهارها لون القرنفل الفاتح فأضحت أشبه بالفشار الملون بالألوان الصناعية.

وبدأت عملى فى وظيفة حقيقية.

اتصلت بى مكتبة "كستيلانو" فى عصر يوم سبت وطلبت منى الالتحاق بالعمل لبضع ساعات. وجدت نفسى على مكتبى أختم الكتب التى يستعيرها الناس بختم تاريخ استرجاعها. كنت أعرف بعضهم حين كنت أستعير الكتب مثلهم. وأنا الآن أبتسم لهم وأرحب بهم بوصفى موظفة فى المكتبة. كنت أقول: "نراك على خير بعد أسبوعين. "وكان بعضهم، من مدمنى القراءة مثلى، يقول وهو يضحك: "هذا وقت قصير جداً."

وظهر بعد ذلك أن هذه الوظيفة من النوع الذى كنت أستطيع تحمله؛فلم يكن فيها حسابات - وعندما كان أحدهم يدفع غرامة تأخير أو فقد - كنت أعيد إليه الباقى من درج المكتب أمامى. ثم إنى عرفت الآن مواقع أغلب الكتب على رفوفها، وكيف أملأ البطاقات. إذن تعلمت البدايات.

أخذت ساعات إضافية. ثم لم يمض وقت طويل حتى عينت فى وظيفة ثابتة بأجر كامل لأن إحدى العاملات المعينات أُجْهِضَت فلزمت

www.ibtesama.com

بيتها شهرين كاملين، وما شرعت فى العودة إلى العمل حتى حملت من جديد ونصحها الطبيب بعدم العودة. وهكذا وجدت لى مكانًا بين الموظفين الدائمين واحتفظت بوظيفتى حتى بعد أن أحسست ببوادر الحمل: أول حمل بالنسبة لى. عملت مع سيدات كنت أعرفهن من شكلهن مدة طويلة. مافيز وشيرلى والمدام كارلسن والمدام يوست. أخبرونى كيف كنت آتى وأتسكع ساعات - كما قلن - فى المكتبة. تمنيت ساعتها لو لم يراقبننى بهذه الطريقة، تمنيت لو لم أكن من الزائرين المدمنين لهذه المكتبة.

كان عملى هذا سببًا فى بهجة متواضعة قنعت بها وأنا على مكتبى ألقى الناس بوجه باش، يفتر ثغرى عن ابتسامة خفيفة لدى قدومهم. كان مصدر سعادتى أنى كنت أشعر أن الناس يروننى الآن شخصًا خبيرًا بشىء ما، شخصًا لديه مهمة يقوم بها فى هذه الدنيا، ومصدرها أيضًا أنى ضربت صفحًا عن ممارسة دور الفتاة المتراجعة المعتزلة الهائمة على وجهها، أو الرومانسية الحالمة، أصبحت الآن الفتاة التى تعمل فى المكتبة.

والحق أن الوقت الذى كنت أخصصه للقراءة بدأ يقل الآن، أحيانًا كنت أمسك بكتاب وأنا جالسة على مكتبى دون أن أقرأه - كنت أمسك بالكتاب بوصفه شيئًا، وليس بوصفه إناءً علىّ أن أفرغه فى جوفى فى التو واللحظة - تنتابنى عندئذٍ رجفة خوف كما لو كنت أستيقظ من حلم أجد فيه نفسى فى المبنى الخطأ، أو أنى تأخرت عن موعد الامتحان، أو أنى على وشك الوقوع فى مأساة تسبب انقلابًا فى حياتى، أو أخطئ فى حق نفسى خطأً كبيرًا أعانى منه طول عمرى.

www.ibtesama.com

كانت السيدات التى عملت معهن فى المكتبة يتذكرن الأوقات التى كنت أجىء فيها إلى المكتبة وأنشغل فى الكتابة. قلت لهن إنى كنت أكتب رسائل. ولم تقنعهن إجابتى. قلن: "وهل كنت تكتبين الرسائل على ورق درجة ثالثة. قلت: "إن ذلك أفضل وأرخص. "

تركت آخر دفتر كتبت فيه فى درج دولابى، هجرته بعد أن ماتت رغبتى فى النظر إليه مرة أخرى، تركته مع جواربى المهملة وملابسى الداخلية، نالت منه الرطوبة وأصبح منظره يملأنى بالغثيان والذل. أردت أن أتخلص منه ولم أفعل.

لم تهنئنى المدام "چورى" على الوظيفة الجديدة. قالت لى:

"لم تخبرينى أنك ما زلت تبحثين عن وظيفة. "قلت لها إنى سجلت اسمى فى مكتبة من فترة طويلة وإنى أخبرتها بذلك. قالت:

"هذا قبل أن تبدئى فى العمل عندى. والآن ماذا ستفعلين مع السيد"چورى؟"قلت لها:"أنا آسفة. "

"ولكن أسفك لن يجديه شيئًا. هل يجديه أسفك شيئًا؟"

رفعت حاجبيها وحدثتنى بلهجة آمرة سمعتها تتحدث بها فى التليفون مع الجزار أو البقال عندما يرتكب خطأ ما فى الطلبات التى كانت تريدها. واستمرت تقول:

"وماذا أفعل معك الآن؟ لقد تركتنى فى حيص بيص، أليس كذلك؟أتمنى أن تحافظى على وعودك مع الناس أفضل من ذلك، أفضل من حفاظك على وعودك معى. "

كان ذلك هراءً بالطبع. لم أعدها بشىء عن مدة بقائى مع السيد "چورى. " ومع ذلك فقد جعلتنى أشعر حقًا بوخز الضمير. لم أعدها

www.ibtesama.com

بشيء حقًا. ولكنى تذكرت عندما كانت تطرق بابى ولا أجيب، وعندما كنت أدخل شقتى خلسة كما يدخل اللص، أو أخرج منها متسللة كما يخرج المرتاب خشية أن يراه أحد. كنت أُخفض رأسى عندما كنت أمر إزاء نافذة مطبخها. وتذكرت تلك العاطفة الكاذبة التى تظاهرت بها عندما كانت تقدم لى ما كانت تقدمه من ألوان الطعام على أطباقها النظيفة. ثم أردفت تقول:

"على العموم لم أكن أحب أن أوكل أمر السيد "چورى" إلى مثلك ممن لا يُعْتَمَد عليه. لم أكن راضية أبدًا عن الطريقة التى كنت تعاملينه بها، أحببت أن أخبرك بذلك فى وجهك. "

وسرعان ما وَجَدَتْ جليسة جديدة – سيدة رهيبة تضفر شعرها، لم أسمعها تتحدث ولكنى كنت أسمع المدام "چورى" تتحدث معها. كنت أسمع ذلك لأن المدام "چورى" كانت تترك باب الشقة مفتوحًا. سمعتها تقول عنى:

"لم تكن تكلف نفسها غسل الكوب الذى كان السيد "چورى" يشرب فيه الشاى. وقليلاً ما كانت تعمل له الشاى، لا أدرى فيم كانت تعجبه، تجلس وتقرأ الجرائد القديمة؟"

والآن وأنا أستعد للانتقال من البيت تركت المدام "چورى"نافذة مطبخها مفتوحة على مصراعيها فكان صوتها يكاد يصم أذنى رغم أنها كانت تتحدث مع السيد "چورى. " سمعتها تقول:

"وها هى الآن ذاهبة. هى هى لن تتغير. لن تقول حتى وداعًا من باب الأدب. أعطيناها وظيفة فى وقت لم يلتفت إليها فيه أحد. ولكن الآن لن تقول حتى وداعًا. "

www.ibtesama.com

ولم أقل وداعًا. كنت مضطرة إلى المرور أمام نافذتهم الأمامية حيث كان السيد "چورى"يجلس، ولكنى كنت أعتقد أنه حتى إذا لوحت بيدى الآن، أو إذا نظرت إليه، فلن يحس إلا بالانكسار، أو الغيظ. اعتقدت أن أى شىء يصدر منى فى تلك اللحظة سيكون ضارًا بنفسيته.

ولم أبتعد أكثر من عمارة من ذلك البيت حتى كنت قد نسيت كل شىء عن السيد والمدام "چورى. " كانالطقس قد تحسن، وكانت أوقات الصباح أصفى مما كانت عليه. كان انتقالى إلى المنزل الجديد مصحوبًا بإحساس بالحرية والانطلاق والعزيمة والإصرار. أصبح ماضىّ القريب فى نظرى مرتبطًا بما يشين؛ الساعات التى كنت أمضيها خلف الستارة التى كانت تقف حائلاً بين السرير المحشور فى الجدار والمطبخ، والساعات التى كنت أمضيها على طاولة المطبخ أملأ الصفحة تلو الصفحة بالإخفاق، والساعاتالتى كنت أقضيها فى حجرة حارة مع رجل مسن مقعد، على ذلك "الموكيت" الخشن والأريكة المنجدة بالقطيفة، ورائحة ملابسه وجسده، وتلك القصاصات التى ألصقها بالألبومات، وفدادين من ورق الجرائد الذى كنت مضطرة إلى أن أتصفحه كل يوم، وتلك القصة الرهيبة التى احتفظ بها وجعلنى أقرؤها له. (لم يخطر ببالى لحظة أنها من تلك القصص التى تعكس مأساة إنسانية من النوع الذى كنت أحبه فى الكتب.) أتذكر ذلك كله الآن وكأنما أتذكر فترة قضيتها فى مرض عرض لى فى طفولتى حين حبست نفسى، بسبب الكسل، بين ملاءات قطنية تفوح منها رائحة زيت الكافور. يعترونى إحساس بالتعب المستمر،

www.ibtesama.com

وأفرع الشجر المشرفة على نافذة غرفتى ترسل إلى رسائل لا أفهمها. أتذكر تلك الأيام ولا أحن إليها كثيرًا، فتلك كانت مرحلة من مراحل العمر انتهت، ولكنها لم تزل جزءًا من نفسى، من تاريخى، فهل هو الجزء الذى لا أحبه؟لقد انتهى الآن وأصبح من الماضى. وقد تظن أن الزواج هو الذى غيرنى، ولكن ليس الزواج، على الأقل فى الفترة الأولى. لقد مررت، كما تمر بعض الكائنات، بفترة بيات شتوى مؤقت استغرقتها فى التأمل، فأنا أعرف نفسى لا أتغير من أجل أحد، وعنيدة، وطبعى طبع رجل، ينطوى قلبى على أسرار قلما أكشف عنها. الآن عرفت طريقى، ورضيت بنصيبى بالزواج من الرجل الذى أحببته، وبالوظيفة التى ساقتنى إليها الأقدار. وأعتقد أن جمالى لا بأس به، وعندى قدرة على التحدى عندما يحين الوقت. يعنى أننى أستطيع أن أستمر فى حياتى.

أحضرت المدام"چورى" كيس مخدة وطرقت بابنا وقد افتر ثغرها عن ابتسامة صفراء متوثبة للعراك. سألتنى إذا ما كان هذا الكيس لى. قلت لها دون تردد إنه ليس لى. وقلت لها أيضًا إننا لا نملك غير كيسى مخدة وهما الآن يغطيان الوسادتين على سريرنا. قالت فى لهجة ملؤها التحدى: "ولكنه ليس لى على أية حال. " قلت لها: "وما أدراك؟"قالت فى تؤدة وقد ازدادت ابتسامتها ثقة وخبثًا: "هذا الكيس من نوع من القماش لا يمكن أن أضعه على سرير السيد "چورى" أو سريرى. "

"ولماذا؟"

"لأنـــه - لـــيس - قماشـــًا - جـــيدًا يا حبـــيبتى. "

www.ibtesama.com

دخلت إلى حجرتى ونزعت الكيسين اللذين على الوسادتين، وأحضرتهما للمدام "چورى" لترى بنفسها فظهر أنهما لا يتشابهان عكس ما كنت أظن. كان أحدهما من نسيج جيد - وهو كيسها فعلاً - والآخر الذى كان فى يدها كان لى. قالت فى نبرة ملؤها التشفى:

"لا أصدق أنك لم تلاحظى أن هذا الكيس لن يكون إلا لك أنت."

كان "تشس" قد سمع عن شقة أخرى، شقة حقيقية، ليست "جناحًا"، ولكنها شقة بحمام كامل وحجرتى نوم. كانت شقة زميل له فى العمل يريد أن ينتقل منها لأنه اشترى هو وزوجته بيتًا. كانت الشقة فى عمارة تقع على ناصية شارع ماكدونالد. لم تكن المسافة أيضًا بعيدة عن عملى، فكنت أتمشى وكان "تشس"يأخذ الأوتوبيس نفسه الذى كان يأخذه، وبمرتبينا استطعنا أن نفى بالحاجات الجديدة وزيادة. ترك لنا الزميل وزوجته بعض الأثاث الرخيص فى الشقة، لم يكن يناسب بيتهما الجديد ولكنه كان رائعًا بالنسبة لنا. رحنا نتجول فى الشقة، فى الطابق الثالث، نبدى إعجابنا بدهان الجدران والأرضية المكسوة بالباركيه، والمطبخ الواسع ودواليبه وخزائنه، وبأرض الحمام المائلة، وفوق كل ذلك كان فى الشقة شرفة صغيرة تطل على مروج منتزه "تاتلو. "جربنا الحب من جديد، بطريقة جديدة، أحببنا وضعنا الجديد، أحببنا بهجتنا بالخروج إلى حياة ناضجين، خلاصنا من الطابق الأرضى الذى لم يكن إلا محطة قصيرة فى رحلة الحياة. ظللنا سنوات نذكر حياة الطابق الأرضيفى حديثنا بين الحين والحين على أنه نكتة عارضة، أو اختبار تحمل. نتذكر الآن كل مرحلة من مراحل حياتنا فتزداد علاقتنا توطدًا: البيت

www.ibtesama.com

المستأجر، أول بيت امتلكناه، ثانى بيت امتلكناه، أول بيت امتلكناه فى مدينة أخرى - كل تلك كانت محطات فى حياتنا نتذكرها فينشأ لدينا إحساس بالارتقاء والتقدم، حتى اشترينا بيتنا الكبير الذى نسكن فيه فى الوقت الراهن، والذيدخلته بشىء يسير من الاطمئنان النفسى، وأقل احتمالاً للهرب.

أخبرنا "راى"بأننا سوف ننتقل إلى شقة أخرى ولم نخبر المدام "چورى، " وهو ما زاد عداءها لنا أو بمعنى أصح جن جنونها. قالت: "تحسب نفسها شاطرة، إنها لا تستطيع أن تنظف بيتها، حجرتان لا تستطيع تنظيفهما، كل ما تفعله أنها تكوم القمامة فى ركن من الأركان. "

عندما اشتريت أول مكنسة نسيت أن أشترى معها سلة قمامة، وكنت فعلاً أكوم القمامة فى الركن. ولكن كيف عرفت ذلك دون أن تكون قد دخلت حجرتنا بمفتاح احتياطى كانت تحتفظ به؟ تأكدنا الآن أنها كانت تدخل حجرتنا فى غيابنا. ثم قالت أيضاً:

" فتاة جبانة. عرفت من أول لحظة رأيتها فيها أنها جبانة وكذابة. وأنا متأكدة أنها ليست طبيعية، مجنونة، وماذا تنتظر من فتاة تجلس بالساعات تكتب رسائل!! تقول إنها تكتب رسائل!! أنا عارفة؛ هى لا تكتب رسائل، إنها تكتب أشياء وتعيد كتابتها إلى ما لا نهاية، تكتب الشىء نفسه الذى كتبته من قبل عدة مرات!! هناك خلل فى عقلها. "

وعرفت من هذا الكلام أيضًا أنها كانت تعمد إلى سلة المهملات فتأخذ الأوراق التى كنت أكتب فيها وتبسطها من جديد لترى ماذا كنت أفعل. كنت كثيرًا ما أبدأ القصة نفسها بالكلمات نفسها فى كل مرة.. المرة تلو المرة.

www.ibtesama.com

وعندما تحول الطقس إلى الدفء تخليت عن ارتداء الجاكت وارتديت سويتر خفيف يفي بالغرض فوق القميص وحزام أحكمت ربطه حول خصرى. فتحت المدام "چورى" الباب الأمامى وصاحت فى إثرى:

"كلبة. انظروا إلى الكلبة، انظروا إلى لبسها، انظروا كيف تبرز ثدييها وتمد ردفيها خلفها، تظنين نفسك مارلين مونرو؟"ثم استمرت تقول:

"لا نريدك فى بيتنا، كلما غادرت أسرع كان ذلك أفضل لنا. "

واتَّصَلَت بـ "راى"وأخْبَرَتْه إننى كنت أحاول أن أسرق ملايات سريرها وأكياس مخداتها. وراحت تشكو له من أنى كنت أحكى القصص عنها لكل من أقابله فى الشارع. فتحت الباب ورفعت صوتها حتى أسمع كل ما كانت تقول رغم أن ذلك لم يكن ضرورياً؛ لأن خط التليفون كان مشتركًا وكان يمكن أن أرفع السماعة وأسمع كل شيء فى أى وقت. ولكنى لم أكن أفعل ذلك أبدًا –من طبيعتى ألا أسترق السمع إلى ما يقوله الآخرون – ولكن ذات مساء عندما كان "تشس" معى رفع سماعة التليفون وتحدث إلى ابنها "راى":

"لا تصدق ما تقوله أمك يا "راى، "إنها عجوز مخبولة، أعرف أنها أمك، ولكن الحق حق، إنها مخبولة. "سألته بعد ذلك هل غضب "راى"منك لأنك قلت عن أمه مخبولة؟قال: "لم يقل غير "طيب، أوكيه. "

وضعت المدام "چورى" السماعة وبدأت تصيح فى اتجاهنا مباشرة وتقول: "سوف أبين لكم من المعتوه، سأبين لكم من هو الكذاب المخبول الذى ينشر الأكاذيب عنى وعن زوجى –. "ورد عليها

www.ibtesama.com

"تشس": "اتركى زوجتى وشأنها، لا علاقة لك بها. "سألنى بعد فترة:"ماذا كانت تقصد بأنك كنت تنشرين الأكاذيب عنها وعن زوجها؟" قلت له: "لا أدرى. "وقال: "أعرف أنها الغيرة منكِ. أنت شابة وجميلة وهى عجوز شمطاء"، ثم أردف: "انسيها. "ثم حكى لى نكتة جعلتنى أضحك وأبتهج من جديد. "

انتقلنا إلى شقتنا الجديدة بالتاكسى. حملنا حقائبنا فقط وانتظرنا على الرصيف وظهرانا للمنزل. توقعت منها صيحة أخيرة أو صيحتين، ولكننا لم نسمع شيئًا. قلت لـ "تشس": "ماذا لو كان معها بندقية وأطلقت الرصاص على ظهرى الآن؟"قال "تشس": "لا تتحدثى مثلها. " قلت: "أريد أن ألوح للسيد "چورى" لو كان هناك. " وقال "تشس": "الأفضل ألا تفعلى. "

لم أشأ أن ألقى نظرة وداع على البيت، وبعد ذلك لم أعد إلى شارع "أربتس" مرة أخرى. لم أعد أتذكر حتى شكله رغم أنى أتذكر جيداً بعض الأشياء القليلة جيداً - الستارة فى الفجوة والنيش المملوء بأطباق الصينى ومتكأ السيد "چورى" الأخضر.

عرفنا بعد ذلك شباباً آخرين بدءوا مثلنا بالسكن فى أحياء فقيرة فى بيوت آخرين. سمعنا عن الفئران والصراصير والحمامات القذرة وأصحاب البيوت المجانين. وكنا نحكى عن صاحبة البيت الذى سكنا فيه - المدام "چورى" التى كانت تعانى من جنون الشك. وفيما عدا ذلك لم أتذكر المدام "چورى. "

ولكن السيد "چورى" ظل يتراءى لى فى أحلامى بين الحين والحين. فى الحلم كنت أظن أنه عرفنى قبل أن يعرفها. رأيته فى

www.ibtesama.com

الحلم رشيقًا وقويًا، ولكنه لم يكن شابًا، ولم يكن بحال أفضل من الحال التى كان عليها عندما كنت أقرأ له فى تلك الحجرة شديدة الدفء. ربما كان يتحدث ولكن حديثه لم يتجاوز تلك الهمهمة التى كنت أترجمها عنه بما يقتضى الحال. كان حديثه قاطعًا متعجرفًا، أو ربما كان توطئة لا ضرورة لها للفعل. وكان الفعل متقدًا عنيفًا، لأن الأحلام فى تلك الأيام كانت حسية تثيرها الشهوة ويخلقها الشوق. لم تزايلنى تلك الأحلام طوال السنين التى كنت فيها شابة يافعة وزوجة حديثة العهد بالزواج ثم بعد ذلك أمًا دون أن أفكر فى تأجيل الحمل كما تفعل بعض الفتيات دون سبب مقنع. كنت متوثبة للحياة وفية لها راضية بها مع زوج لم يقصر فى إشباع رغبتى. ظلت تلك الأحلام تهاجمنى بين الحين والآخر، وجاوزت بداياته ورد الفعل عليه وما يستدعى ذلك من مجازفات حد المألوف وحد الخيال وحد اللياقة والاحتشام. كان سريرنا - أنا والسيد "چورى" - حصباء الشاطىء، أو ظهر قارب خشن، أو أسلاكًا رطبة بما عليها من شحم تؤذينا بالتفاف حلقاتها الرهيب. كان القبح مصدر سعادة ولذة محببة برائحة السيد "چورى" التى اختلطت بها الإثارة عندى والألم، وعيناه الهلاميتان الكريهتان، وأسنانه الصناعية الأنيقة فى تكلف ممجوج. كانت تلك الأحلام الهمجية توقظنى كل ليلة دون أن تتملكنى الدهشة أو حتى الخجل، ثم أستسلم للنوم من جديد، وبعد أن أستيقظ فى الصباح الباكر تكون ذاكرتى قد محت كل ما علق بها من تلك الأضغاث. وعلى ذلك النحو ظل المستر "چورى" سيد أحلامى بلا منازع، يتراءى لى حتى بعد أن مات بسنين عديدة، إلى أن بدأ الزمن

www.ibtesama.com

يأخذ منه شيئًا فشيئًا حتى استهلكته الذاكرة كما تستهلك الأموات. ولكن هل كانت تلك الأحلام بسببى وحدى؟كان هو السبب أيضًا؛ فرضها بشخصيته الغريبة وتجاربه العجيبة. حفرت تجاربه لها مكانًا فى ذاكرتى لا تبرحه.

القارب والميناء والحصباء على الشاطىء والأشجار الصاعدة فى الهواء والتى تجثم على الأرض أو تفترش صفحة الماء، وتلك الجزر التى تحيط بالمكان وتلك الجبال المعتمة التى تميز المكان، تبعثرت فى المكان على غير انتظام، ولكنها بقيت هناك رغم ذهابنا على حالنا، وأصبحت مشاهد انطبعت فى الذاكرة وقد اتخذت غرابة الأحلام والقصص.

ولكنى لم أرَ الأخشاب المتفحمة فى البيت وقد سقطت على جسد الزوج. لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد، والآن ازدهرت أشجار الغابة حوله من جديد.

www.ibtesama.com

هوامش:

(١) جزيرة كورتيز واحدة من مجموعة جزر متقاربة (أرخبيل) فى بريتش كولومبيا فى كندا، وتقع على وراء الطرف الشمالى لخليج جورجيا، بين جزيرة فانكوفر وبر بريتش كولومبيا. تقع جزيرة كورتيز على الجانب الآخر من جزيرة كوادرا من مدينة نهر كامبل، تفصلها عن جزيرة كوادرا قناة سوتِل (المترجم).

(٢) رواية للكاتب ألساندرو مانزونى. المترجم

(٣) رواية لفرجينيا وولف. المترجم

(٤) رواية لسودين جابريل كلودين كوليه. المترجم

(٥) رواية للكاتبة الأيرلندية إليزابث باون. المترجم

(٦) الملك كانيوت (Cunt, Knut) كان ملك انجلترا الدنمركى (١٠١٧-٣٥) وملك الدنمرك (١٠١٨- ٣٥) وملك النرويج (١٠٢٨- ٣٥). وبعد مقتل إدماند الحديدى عام ١٠١٦ أصبح كانيوت ملك انجلترا بعد صراع مرير من أجل السلطة. كان مشهوراً بزعمه القيام بأعمال خارقة.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

قبل التغيير

عزيزى الدكتور آر....

شاهدت أنا وأبى مناظرة كيندى ونيكسون فى التليفزيون. اشترى أبى جهاز تليفزيون بعد أن سافرت أنت بوقت قليل. تليفزيون شاشته صغيرة وله أذنان تشبهان أذنى أرنب. وضعاه (أبى والسيدة بارى) فى حجرة السفرة أمام المائدة حتى يصبح الوصول إلى مفرش المائدة وأطقم السفرة صعبًا. لماذا وضعاه فى حجرة السفرة وهى التى لا تحتوى على مقعد واحد يصلح للجلوس عليه؟ ربما لأنهما نسيا أن بالبيت حجرة جلوس من الأصل. وربما لأن السيدة بارى كانت تحب مشاهدة التليفزيون وهى تتناول العشاء.

هل تذكر هذه الحجرة؟ لا تزال هى هى، لم تتغير ما خلا جهاز التليفزيون الجديد. نفس الستائر التى زينت صفحتها أوراق الشجر الخمرية على أرضية بلون الصوف الطبيعى، ولوحة يظهر فيها السير

www.ibtesama.com

جالاهاد[1] يمسك بزمام حصانه، وصورة مدينة چلنكو، وصورة يظهر فيها الأيل الأحمر دون إشارة إلى تلك المذبحة التى حدثت هناك فى القرن التاسع عشر[2]. وهل تذكر دولاب الملفات القديم، لم يبرح مكانه من حجرة مكتب أبى إلا ببوصات قليلة دون أن يكلف أحد نفسه بإلصاقه بالجدار. وهل تذكر ماكينة الخياطة التى كانت تجلس عليها أمى، لا تزال هناك فى مكانها أيضًا مغلقة لم تمسسها يد بشرية (حتى أبى لم يذكر أمى على لسانه إلا مقرونة بتلك الآلة حين قال لى مرة: "هذه ماكينة خياطة أمك").

إذن فقد رجعت إلى البلد، لم يسألنى أحد متى رجعت؟ ولا كيف؟قدت سيارتنا الصغيرة (ربع نقل) بعد أن حمّلتها بكتبى وأوراقى وملابسى وقطعت الطريق من أوتاوا إلى هنا فى يوم كامل. قلت لأبى فى التليفون إننى انتهيت من رسالة الماجستير (والواقع أنى تخليت عنها أو قل: أجلتها ولم أرد إخباره بذلك) وقلت له أيضًا: إننى فى حاجة إلى إجازة ((break، ولكنه قال مستغربًا كأنه لم يسمع عن هذه الكلمة قبل اليوم:

- إجازة؟ عمومًا لعلها إجازة وليست انهيارًا عصبيًّا .nervous break

قلت مستغربة أيضًا:

-انهيار عصبى! لماذا؟

لكن كانت هذه لغته؛ لا تتجاوز عبارات مثل "نوبات الإغماء، قلق حاد، اكتئاب، وانهيار عصبى، " أسماء أمراض كما ترى. كان أحيانًا ينصح مرضاه بالصبر ورباطة الجأش، فظيع. أو ربما أرسلهم إلى النوم ببعض الحبوب المخدرة، وبعض الكلمات

www.ibtesama.com

الرومانسية الخالية من العاطفة. كان يغفر لمرضاه نزواتهم ونوبات غضبهم، ولا يغفر لى كلمة أو نزوة أو غضبة. عندما وصلت لم ألق منه أى ترحيب قل أو كثر، ولم أره متبرمًاأيضًا. كل ما فعله هو أنه طاف حول السيارة التى تحمل أمتعتى ومصمص شفتيه مما رآه وضرب الإطار بيديه وقال:

– أنا مندهش أنك عدت.

فى تلك اللحظة فكرت فى تقبيله تظاهرًا بالحب أكثر منه تعبيرًا عن موجة عاتية من العاطفة. ولكنى لم أفعل، وبدلاً من ذلك ألقيت بنفسى على صدر السيدة "بى" الواقفة فى منتصف الطريق بين الممر وباب المطبخ. تحملت ملمس شعرها الأسود الغريب المقصوص على الطريقة الصينية على شكل دائرة حول وجهها الأصفر الصغير. شممت رائحة مريلتها البيضاء السميكة، وتحسست عظام صدرها التى كانت فى حجم أعواد تنظيف الأسنان. كنت أطول منها قامة بكثير؛ لم تصل إلى ترقوتى.

ثم قلت لهما وأنا أدارى اضطرابى إن الجو كان ساحرًا، والقيادة كانت ممتعة. وكان ذلك ما حدث فعلاً. كان الجو فعلاً ساحرًا، وكانت القيادة ممتعة فعلاً. لم يتغير لون الأشجار استعدادًا للخريف، وكانت الأعشاب منتشرة وقد أخذت لون الذهب الأصفر. الغريب أن هذا الإحساس بالطبيعة زايلنى برؤية أبى، وأصبح الإحساس البديل هو الإحساس الذى جربته عندما ألقيت نفسى على صدر السيدة بى. كان تصرفى ناحية أبى يتضمن شيئًا من التعالى، وكان تصرفى ناحية السيدة بى شيئًا من الادعاء الكاذب.

www.ibtesama.com

عندما انتهت المناظرة نهض أبى وأغلق التلفزيون. لم يكن يرى فائدة فى مشاهدة الإعلانات التجارية إلا إذا كانت السيدة "بى" هناك وقالت إنها تريد أن ترى ذلك الشاب الوسيم بسنه البيضاء البارزة، أو تلك الدجاجة التى كانت تطارد ذلك الشىء المجهول (لم تكن تريد أن تقول إنها الزرافة، ربما كانت تتظاهر بالنسيان). كل ما كانت تراه جميلاً فى الإعلانات كان يُسمح به، بما فى ذلك الكورنفليكس الراقص، بالإضافة إلى أنه كان يمتدح تلك الإعلانات بطريقة توحى بأنه يحذرنى من شىء ما.

سألته مرة عن سر اهتمامه بمناظرة كيندى ونيكسون. وأجاب:

- كل ما فى الأمر أنهما اثنان من الأمريكيين.

وحاولت فتح ثغرة أوسع فى موضوع الحديث فسألته:

- ماذا تعنى بذلك؟

عندما كنت تطلب منه الخوض فى موضوع يعتقد أنه لا يستحق الخوض فيه، أو تطلب منه الخوض فى نقاش يعتقد أنه لا يحتاج منه إلى دليل، كان لديه طريقة فى رفع شفته العليا إلى جانب فمه فتبرز ثنتان من أسنانه الملطخة بالطباق.

- مجرد اثنين من الأمريكيين.

وكأنى لم أسمع الجملة الأولى قط.

ولذا كنت أجلس معه دون أن نتبادل أى حديث، ولكن الصمت لم يكن هو السائد لأنه، كما قد تذكر، كان يتنفس بصوت عال. كان الهواء يغوص فى رئتيه محدثًا ضجيجًا كأنه يسير فى أزقة ممتلئة بالحصى، أو كأنه يصطدم بأبواب ذات صرير عند الفتح والغلق.

www.ibtesama.com

وكان الهواء يخرج من صدره محدثًا سقسقة وقرقرة كأن صدره قد أغلق على جهاز غريب يصدر أصواتًا غريبة تشبه أصواتًا قادمة من أنابيب بلاستيكية أو بقبقة فقاعات متنوعة. وليس لك أن تعترض، بل كان عليّ أن أتعود على ذلك. ولكن بهذه الأصوات كان أبى يشغل حيزًا كبيرًا من الحجرة بالإضافة إلى بطنه الكبير وساقيه الطويلتين، وطبعه. ولكن ما طبعه هذا؟ إنها القائمة الطويلة من ضروب الإهانات التى أتذكرها وأتوقعها وبها تختبر قوته على الصبر الذى قد ينفد فى لحظة لا تستطيع التنبؤ بها. وأظن أن الكثير من الآباء والأجداد يدعون مثل هذه التعبيرات على الوجوه، منهم حتى من لم يؤت أية سلطة خارج البيت، ولكن أبى كان متقنًا فى وضع هذه التعبيرات على وجهه وتوظيفها كأحسن ما يفعل أصحابها.

آر.

أمامى عمل الكثير هنا ولكن الوقت لا يسمح. أو لأنى مكتئبة كما يقولون. جدران حجرة الانتظار نصل لونها لأن أجيالاً من المرضى اتكأوا عليها بمقاعدهم. أعداد من مجلة "الريدرز دايجست" ممزقة على المائدة. ملفات المرضى فى صناديق من الكرتون تحت منضدة الفحص، وسلال القمامة - من الخيزران المجدول - مشوهة كأن الفئران أكلتها. وليست الأمور أفضل فى المنزل. فهناك الشقوق التى فى لون الشعر البنى فوق أحواض الغسيل فى الطابق الأول، والصدأ الذى يعلو "التواليت". لابد أنك لاحظت ذلك كله. إن الفوضى تعم أرجاء البيت، ولكن الأكثر من ذلك تلك الأوراق والإيصالات والنشرات والإعلانات التى امتلأت بها الأدراج، أو التصقت على

www.ibtesama.com

الأطباق، أو رقدت هنا وهناك تنبىء عن مزادات وخصومات وصفقات تمت ربما منذ سنوات أو شهور أو حتى أسابيع.

وليس هذا معناه إنهما لا حاجة لهما فى هذه الأوراق، أو إنهم تخلوا عنها تماماً. ولكن التعقيد والفوضى يشيعان فى هذا البيت. كانا يرسلان الغسيل إلى المغسلة بدلاً من أن تتولى السيدة "بى" غسله بنفسها كما كانت تفعل فى الماضى. قد تفهم هذا، ولكن الذى لا تستطيع أن تفهمه أن أبى لم يكن يتذكر أنه أرسل ملابسه، وحتى إن تذكر أنه أرسل ملابسه إلى المغسلة فإنه لا يتذكر ميعاد تسلمها، وتبدأ بينهما ثرثرة عجيبة حول البحث عن ثياب مغسولة فى البيت. الأغرب من ذلك أن السيدة "بى" تعتقد أن صاحب المحل يخدعها ويستبدل بالثياب ثياباً أخرى أقل قيمة. لذا فهى تدخل فى جدل عنيف مع العامل وتتهمه بأنه يأتى هنا لغرض خبيث فى نفسه. كانت السيدة "بى" تكلف ابن اختها بتنظيف الأفاريز ولكنه لم يفعل، أدار ظهره للمهمة، وأوصى بها ابنه، ولكن ابنه لم يفعل ولم يأت من الأصل.

كان أبى ينادى على ابن الأخت هذا باسم أبيه. يفعل ذلك مع الجميع. ينادى على أصحاب المحلات والشركات فى المدينة باسم المالك السابق، أو حتى باسم المالك الأقدم الذى مات منذ قرن مثلاً. وهذا شىء أكثر من كونه زلة لسان أو قصور فيالذاكرة؛ إنه شىء قريب من التكبر أو الاستعلاء على الناس. يضع نفسه فوق الحاجة لأن يتذكر هذه الأشياء. أو قل: يتعالى على ما حدث من تغيير سواء فى المكان أو فى الشخص. سألته عن اللون المفضل الذى يحب أن

www.ibtesama.com

يراه فى حجرة الانتظار:هل هو الأخضر الفاتح أم الأصفر الفاتح؟ فسألنى:ومن الذى سوف يقوم بعملية الطلاء؟

- أنا.

- لم أعرف أنك تفهمين فى موضوع الدهانات.

- قمت بطلاء جميع الأماكن التى سكنت فيها.

- ربما ولكنى لم أر هذه الأماكن. وماذا سوف تفعلين مع مرضاى بينما تقومين بعمل الدهانات؟

- سأفعل ذلك فى أحد أيام الآحاد، ولا أحسب أن مرضاك سوف يكترثون بى، بينما أقوم بعمل الدهانات.

- هل تمزحين؟ وفى هذه السن؟

ثم قلت له إنى أستطيع القيام بهذا العمل ليلاً، ولكنه قال لى إن الرائحة التى سوف تنبعث فى النهار سوف تقلب معد مرضاى قلباً. كل ما سمح لى بعمله فى النهاية هو إلقاء نسخ "الريدرز دايجست" خارج الحجرات وتكويم نسخ أخرى من جرائد ومجلات مثل ماكلين وشارلتين والتايم وليلة السبت. ثم قال إن المرضى سوف يشكون لأنهم تعودوا قراءة النكت التى تمتلئ بها الريدرز دايجست، وأن بعضهم لا يحب بعض الكتاب الجدد مثل بيير بيرتون.

- هذا فظيع !!

قلت ذلك على سبيل الاستهجان ولكن صوتى كان يرتعش. ثم بدأت فى ترتيب الملفات الملقاة فى حجرة السفرة. كنت أظن أنها كانت تمتلئ بملفات مرضى قضوا منذ زمن بعيد. اعتقدت أننى يجب أن أجمع هذه الملفات إلى جانب الملفات الأخرى التى تمتلئ بها

www.ibtesama.com

صناديق الكرتون، وأرتب كل هذه الملفات فى المكتب حيث المكان الطبيعى لها.

رأت السيدة "بى" ما أفعله ولم تنبس ببنت شفة ولكنها أحضرت أبى على الفور. قال لى: "من قال لكِ إننا فى حاجة إلى ترتيب هذه الملفات؟ ومن الذى سمح لك بالحضور إلى هذا المكان من الأصل؟ أنا لم أقل لكِ.

آر. خلال الأيام التى كنت فيها هنا كانت السيدة "بى" فى إجازة مع أسرتها. . إجازة عيد الميلاد. (فلديها زوج مريض بمرض انتفاخ الرئتين الذى لازمه أغلب حياته، وليس لهما أطفال، بل عدد كبير من أبناء الأخت وأبناء الأخ وأولاد الأعمام والأخوال، وأولاد الأصدقاء والمعارف كذلك.) لا أظن أنك رأيتها على الإطلاق. ولكنها هى التى رأتك. قالت لى أمس: "أين ذلك السيد فلان الذى كنت تنوين الارتباط به؟ فقد رأت طبعًا أنى لا أرتدى خاتم الخطوبة. قلت لها:

- أعتقد أنه فى تورنتو.

فقالت مستدركة: "كنا نتمشى أنا وابنة أختى فى عيد الميلاد الماضى ورأيناك معه تمران إلى جوار ماسورة المياه الرئيسية، وقالت لى ابنة أختى: "ما الذى يجعل اثنين مثل هذين يتشاجران طول الوقت؟"

كانت هذه طريقتها فى الكلام، وهى طريقة عادية بالنسبة لى إلا عندما أردت التعبير عنها على الورق. أعتقد أنها كانت تعنى أننا كنا نتجه صوب مكان ما ولكن غيرنا رأيينا وقررنا الخروج من المنزل لكى نكمل شجارنا... ! لستَ أدرى.

www.ibtesama.com

بـدأت الـسـيـدة بى الـعـمل مع أبى حـين بـدأت أذهب إلى المدرسـة. قبل ذلك كان أبى يستعين ببعض السيدات الشابات اللائى كنت أحبهن كثيراً، ولكنهن ذهبن إما للزواج وإما للعمل فى المصانع الحربية. وعندما كنت فى التاسعة أو العاشرة زرت منازل بعض أصحابى فى المدرسة، وقلت لأبى: "لماذا تسمح لخادمتنا أن تأكل معنا؟ إن الخادمات اللائى رأيتهن فى منازل أصدقائى لا يأكلن معهم.

رد أبى: "السيدة "بارى" هى السيدة "بارى" ويجب أن تنادى عليها بهذا الاسم، وإذا لم يعجبك الأكل معها فاذهبى وكلى وحدك فى مخزن الحطب.

ثم تعودت على التجوال فى المنزل كله، وعلى إلقاء بعض الأسئلة على السيدة "بارى" التى لم تكن تتحدث إلا قليلاً. ولكن عندما كانت تتحدث كنت أعجب من كلامها، ومكثت زمناً أقلدها فى المدرسة أمام زملائى:

أنا:

– شعرك أسود جداً يا مسز بارى.

هى:

– كل أفراد أسرتى شعرهم أسود. ثم إنه لا يتحول إلى الأبيض أبداً مع الأيام. هذا من ناحية أمى. إنه يظل أسود حتى وهم فى أكفانهم. عندما مات جدى لأبى احتفظوا بجثته فى المقبرة طوال الشتاء لأن الأرض كانت تتجمد، وعند مقدم الربيع كانوا يريدون دفنه فى الأرض. قال أحدهم: "لنلق عليه نظرة لنرى ماذا فعل به

www.ibtesama.com

الشتاء!" أمرنا الرجل برفع غطاء الكفن. كان راقداً هناك يبدو على ما يرام: لم يتغير لون وجهه وملامحه. وشعره... كان شعره أسود كما كان. نعم... أسود.

كنت أستطيع تقليد ضحكاتها، أو إذا شئت النبحات النحيفة التى كانت تنبحها، والتى لم تكن تعنى شيئًا، وإنما كنت أشبهها بعلامات الترقيم التى تلى الجمل والعبارات. وبعد أن تقابلنا، أنا وأنت، رحت ألوم نفسى على ذلك.

بعد أن أخبرتنى السيدة "بارى" كل ذلك عن شعرها وشعر أهلها قابلتها ذات يوم خارجة من حمام فى الطابق الثانى. كانت مسرعة تريد أن ترد على مكالمة تليفونية لم يكن يُسمح لى بالرد عليها. كومت شعرها داخل فوطة ولكن خيطًا نحيفًا يتحرك قادمًا من عند أذنيها، خيط غامق أقرب إلى لون الأرجوان يتحرك. ظننت فى البداية أنها كانت تنزف.

قلت فى نفسى قد يكون دمها غامقًاأيضًا من فرط خبثها ولؤم طبعها. قلت لها على الفور: "أنت تنزفين من رأسك. "

فقالت على الفور: "أوه.. ابعدى عن طريقى.

وتهالكت على الأريكة لتمسك بسماعة التليفون.

ذهبت بعد ذلك إلى الحمام فوجدت على الحوض خيوطًا داكنة من آثار سائل الصبغة التى كانت تستخدمه لصبغ شعرها، بل وجدت علبة الصبغة هناك قابعة على الرف. لم أتحدث فى ذلك الأمر بعد ذلك ولكن السيدة "بارى" لم تكف عن الزعم بأن شعرها أسود لم ينصل لونه، وأن شعر أقاربها كذلك لا يذهب لونه الأسود حتى بعد أن يتم تكفينهم.

..

www.ibtesama.com

في تلك السنوات كانت لأبى طريقة غريبة فى لفت انتباهى. فقد يكون مارًا أمام الحجرة التى أجلس فيها ثم يرفع صوته متظاهرًا بعدم رؤيتى ويقول كأنه يغنى:

العيب الرئيس فى هنرى الملك

أنه يمضغ قطعًا صغيرة من الخيط

وأحيانًا كان يتحدث إلى بصوت مسرحى يشبه الهدير. فيقول مثلاً: "مرحى أيتها البنت الصغيرة، هل تريدين قطعة من الحلوى؟" وتعودت الإجابة بصوت نحيف رقيق كصوت الفتيات الصغيرات يحمل نبرة تملق:

- أوه... أجل سيدى.

- يووووه... لا يمكنك الحصول على ذلك !!

وهو يقول ذلك كان يضغط على حرف الـ a، ثم يردف:

- سولومون جرندى ولد فى ماندى[٣]

ثم يشير بحدة بأحد أصابعه لكى آخذ قطعة الحلوى. وهو يقول:

وعمدوه يوم الثلاثاء ـ

وزوجوه يوم الأربعاء ـ

ومرض يوم الخميس ـ

وساءت حالته يوم الجمعة ـ

ومات يوم السبت ـ

ودفنوه يوم الأحد ـ

ثم فى صوت واحد هادر أشبه بهدير الرعد:

وتلك كانت نهاية سولومون جراندى.

www.ibtesama.com

لم تكن هناك مقدمة لهذا العرض. ولم يكن يعلق بعد أن ينتهى. وعلى سبيل المزاح كنت أصفه بأنه هو"سولومون جراندى. " وفى المرة الرابعة أو الخامسة، قال لى:

- هذا يكفى... هذا ليس اسمى. أنا أبوك.

ثم لا أذكر أننا رددنا تلك الأغنية معًا بعد ذلك.

قابلتك أول مرة فى الحرم الجامعى، كنت وحيداً وكنت أيضًا وحيدة. قلت لى: إن شكلى ليس غريبًا عليك، ولكنك لم تتذكر متى قابلتنى وأين. كنت تقوم بتدريس هذا المقرر بين الحين والآخر حين يغيب أستاذ المادة لمرض أو لأى سبب آخر. كنت تلقى علينا المحاضرة بدلاً منه. كنت تدرس لنا الوضعية المنطقية. كنت تسخر من اضطرارك إلى تدريس هذه المادة وأنت المتخصص فى اللاهوت. كنت تلقى علينا التحية على استحياء، أو مع بعض التردد، وكنت أنا أبادرك بجملة كنت دائمًا تقولها لنا:

"ملك فرنسا السابق أصلع"

كنت تقول هذه الجملة لنتخذها مثالاً على الجملة الخبريةالتى لا تعنى شيئًا لأن فاعلها لا وجود له. كنت تحدجنى بنظرة حادة فى شىء من الغضب تحاول أن تداريه بابتسامة باهتة لأستاذ يتقن مادته. ترى كيف كنت فى نظرك؟

بنتًا متحذلقة !

آر . لا تزال بطنى منتفخة قليلاً، ليس عليها علامات، ولكنى ما زلت قادرة على ضمها كلها فى قبضة واحدة. فيما عدا ذلك فأنا على ما يرام. وزنى يعود شيئًا فشيئًا إلى معدله العادى أو أقل من

www.ibtesama.com

العادى. مع ذلك أعتقد أننى أبدو أكبر من سنى، أكبر سنًّا من الرابعة والعشرين. ما زال شعرى طويلاً يفتقر إلى الأناقة، أو قل: إنه إلى الفوضى أقرب. هل يذكرك بشىء؟ كنت دائمًا تنصحنى بألا أحاول قصه.

على أية حال بدأت أعود نفسى على المشى حول المدينة، على سبيل التمرين. عودت نفسى على الرحيل فى الصيف، أذهب إلى أى مكان أحبه دون أى إلمام بقوانين الأمكنة الجديدة، أو بأوضاع أهلها المختلفة. تعرف أنى لم أذهب قط إلى مدرسة فى مدينة. ربما لأن بيتنا هنا يقع خارج المدينة... على مرمى حجر من الطريق الرئيس. لا أشعر فى نفسى بانتماء إلى المدينة. ذهبت مرة إلى أسطبلات الخيل فى المدينة قريبًا من حلبات السباق ورأيت هناك مالكى الخيول والمدربين الذين يتقاضون أجرًا لقاء التدريب. ورأيت أطفالاً آخرين يقتربون من مرحلة الصبا، لم أكن أعرف أسماءهم، ولكن جميعهم يعرفون اسمى. فى نظراتهم شك وتحفز؛ فهم يعرفون أبى من يكون. سمحوا لنا بوضع العلف والروث خلف الخيول، وكان فى ذلك مغامرة فيها خطر. كنت أرتدى قبعة جولف كانت لأبى وشورتًا فضفاضًا. كنا نتلمس طريقنا إلى السقف، يدفع بعضهم بعضًا ويتركوننى وحدى. أحيانًا يطلب منا الأولاد أن نختبىء لكى يمسكوا بنا. وأحيانًا يقول أحدهم لى: "هل أبوك يعرف أنك هنا؟" ثم يشرع الصبية فى مضايقة بعضهم بعضًا، وأحيانًا يحدث الواحد منهم صوتًا يشبه صوت التقيؤ وأعرف أنه يقصدنى بذلك الصوت. لذا توقفت عن الذهاب إلى هناك. تخليت عن فكرة كونى بنت الغرب

www.ibtesama.com

الذهبى. ذهبت بدلاً من ذلك إلى الميناء وتجولت فى حوض السفن وتفرجت على القوارب المنتشرة فى البحيرة، ولكنى لم أحلم هذه المرة بالعمل فى البحر. أيضًا لم أغشهم ولم أقل لهم إنى شىء آخر غير أنى واحدة من البنات. مال إلى أحد الرجال وصاح قريبًا من أذنى:

- هل نبت شعر لك هنا بين ساقيك؟

وقلت له فيما أتذكر:

- ماذا تقول؟

لم أكن خائفة ولا وجلة بقدر ما كنت حائرة. رجل ناضج على مستوى المسؤولية أراه مهتمًا بمكان بين ساقى ينمو فيه شعر أو لا ينمو!! حتى من نبرة صوته عرفت أنه يمقت هذا المكان.

لقد اختفت أسطبلات الخيل الآن. واختفى انحدار الطريق المؤدية إلى الميناء. واستبدل بمخزن الغلال مخزن جديد، وضاعت خصوصية ضواحى المدينة. أصبحت تشبه الضواحى فى أى مكان. قل عدد المشاة؛ أصبح كل شخص يقود سيارته. اختفت أرصفة المشاة، وأضحت أرصفة الشوارع الخلفية مهجورة ومحطمة ويعلوها الصقيع حتى توارت تحت الأرض والعشب. اختفى الطريق الترابى الطويل الموازى لمدخل مزرعتنا تحت أشجار الصنوبر والكميات المنجرفة من أوراق الصنوبر وأوراق شجر أحمر صغير، وأعواد التوت البرى. لطالما وطئته أقدام الماشين عقودًا من الزمان يبغون زيارة الطبيب. يأتون من المدينة عبر الطريق الرئيس ويلجون منه إلى طريق فرعى يفضى بهم إلى عيادتنا (هناك فرع آخر يفضى إلى المقابر)، على اليمين والشمال تقف أشجار الصنوبر تحتضن المدخل إلى طبيب يعيش فى ذلك البيت منذ نهاية القرن الماضى.

www.ibtesama.com

مر على عيادتنا جميع أنواع المرضى من الأطفال والأمهات والمسنين. بعد الظهر يأتى إلينا مرضى يصرخون من شدة الألم وتعلو أجسامهم الأوساخ. وأما فى المساء فيأتى إلينا مرضى أكثر هدوءًا دون أن يكون فى رفقتهم أحد. كنت أجلس خارج العيادة أحتمى بشجرة كمثرى محاطة بحشد من شجيرات الليلاك الصغيرة، وأشرع فى التجسس على المرضى وأبى؛ لأن الفتيات الصغيرات كن معروفات بالتجسس على الآخرين فى ذلك الزمان. لقد اختفت الشجيرات الآن، بل أزالها ابن أخت السيدة "بارى" بجزازة العشب. كنت أتجسس على السيدات اللائى كن يرتدين أفضل ما عندهن من ثياب استعدادًا للقاء الطبيب. أتذكر تلك الملابس التى كانت ترتديها النساء فى ذلك الوقت بعيد الحرب. تنورات طويلة تغطى الكاحلين وأحزمة محكمة وبلوزات منتفخة وأحيانًا قفازات قصيرة بيضاء؛ فقد كن يرتدين القفازات والقبعات فى الصيف وليس من أجل الذهاب إلى الكنيسة فقط. وكن يرتدين قبعات مزخرفة من القش تعطى انطباعًا باستدارة الوجه. وثيابًا ذات أهداب صيفية خفيفة بأخاديد على الأكتاف أشبه بالكاب الصغير، وحزامًا أشبه بشريط زينة مضروب حول الخصر. ترتفع أهداب الأكتاف من فعل النسيم، فتعمد السيدة إلى رفع يدها المغطاة فى قفاز لإعادتها إلى سابق عهدها. إيماءة فى نظرى ترمز إلى فتنة نسائية يطمَحْن إليها دون جدوى. تنتهى خيوط القماش الرقيقة إلى الرقبة فتصنع ما يشبه فمًا من قطيفة. تذكرت غياب أمى فشاع فى نفسى إحساس بفقد الأم. ولكن هل كن أمهات أولئك النسوة المتشحات فى القبعات والأهداب؟مكثت تحت الشجيرات آكل الكمثرى الصفراء المنقطة وأدعو.

www.ibtesama.com

كان أحد مدرسينا يأمرنا بقراءة مواويل قديمة مثل موال "باترك سبنس" و"طوجوربس" وانتشرت فى المدرسة حمى تأليف المواويل.

سأنزل إلى الممر
لأرى صديقى الطيب
سأنزل إلى الحمام
لأفعل كما يفعل الناس!!

تغريك المواويل بالقافية حتى قبل أن تجد المعنى الذى يحتويها. حينئذٍ كنت أقوم بتأليف المواويل وتلاوتها وفمى ممتلئ بقطع الكمثرى الطرية.

سيدة تسير فى طريق طويل طويل
طالت المسافة بينها وبين المدينة
غادرت منزلها وارتاحت من غضب أبيها
تريد الآن معرفة مصيرها –

وعندما كنت أحس بوطأة الحشرات على نحو لا قبل لى به كنت أدخل البيت وتكون السيدة بارى فى المطبخ تدخن سيجارة وتستمع إلى المذياع حتى يناديها أبى فتلبى النداء. كانت تبقى حتى يغادر آخر مريض وتبدأ التنظيف والترتيب. فإذا سَمِعَت صراخًا قادمًا من المكتب كانت تجيب النحيب بضحك يشبه النحيب وتقول: "استمر فى الصياح والشكوى ولا يهمنى. " لم أكن أرى داعيًا لأصف لها ملابس النساء ولا مظاهرهن التى كنت أراها لأنى أعرف أنها لن يعجبها الحديث عن مظاهر النساء ولا عن جمال النساء وأناقتهن، ولا يعجبها وعى النساء ولا ثقافتهن. ربما يروق لها أن ترى امرأة تجيد

www.ibtesama.com

لعب الورق، أو الخياطة. لا أعتقد أنها فى حاجة إلى أحد. وكان أبى مثلها فى ذلك يعتقد أنه لن يكون فى حاجة لأحد. ولعل ذلك ما جعلنى أسأل: وفيم يحتاج أبى الناس؟ من ينبئنى؟ لن ينبئنى أحد. إنهم ينصحوننى بألا أكون أذكى من اللازم.

أتى عمه إلى فردريك هايد
يمرغ نفسه فى التراب.
راح يهزه بعنف يمنة ويسرة
ويوسعه ضرباً فى كل جسده –

ربما أريد أن أرسل لك كل هذا الذى كتبته، ولكن إلى أين أرسله؟ فكرت أكثر من مرة فى كتابة العنوان على الظرف فأحسست بشلل فى يدى. مجرد التفكير فى أنى سأبعث إليك وأنت فى مكانك البعيد تعيش حياتك بدونى يؤلمنى غاية الألم. والأكثر ألماً ألا أعرف لك مكاناً معلوماً، أو أن تعيش حياتك بدونى فى مكان أجهله.

عزيزى آر، عزيزى روبين، كيف تعتقد أنى لم أكن أعرف؟ كانت الأمور كلها تحدث أمامى وتشهد بها عيناى. وكنت سأسمع عنها لو كنت ذهبت إلى مدرسة هنا، ولو كان لى أصدقاء من أبناء أو بنات هذا الحى لعرفت منهم. الصبية فى المدرسة الثانوية هنا يعرفون ذلك فكيف لى ألا أعرف؟

وفى الإجازات كان لدى من الوقت متسع، كنت أستغرقه فى الطواف فى الشوارع وتأليف المواويل، لو لم أنشغل بهذه الأشياء لكنت أول من يعرف. والآن أصبحت أعرف كل شىء. عرفت الآن أن بعض المرضى الذين يأتون فى المساء، وهم من النساء، كانوا

www.ibtesama.com

يستقلون القطار. عرفت ذلك من ملابسهن الأنيقة. وكانوا يغادرون في قطار كان ينطلق في وقت متأخر من الليل. وأما المسافة من العيادة إلى المحطة فكانوا، بلا شك، يقطعونها بسيارة تقلهم من العيادة.

وعرفت - من السيدة "بي"فيما أظن، وليس منه - أنهن كن يأتين إلى أبي من أجل حقنهن بحقن الفيتامين. كنت أسمع أصواتهن وهن يستقبلن الحقنة، وأعجب كيف لسيدات مثلهن تبدو على وجوههن الوجاهة والثراء ألا يتحكمن في أنفسهن ولا يصبرن على وخز الإبر؟وخلال الفترة التي مكثتها كنت أتعرف على أسلوب الحياة في هذا البيت، حتى إنني لم أكن أجرؤ على تناول فرشاة من الأرض، أو فتح درج من الأدراج، أو إلقاء الإيصالات القديمة التي تخص البقالة دون أن أستشير السيدة "بي" (على أية حال كانت عاجزة عن اتخاذ قرار في أتفه الأمور). إلى درجة أنني فشلت حتى في أن يقبلوا مني أن أصنع لهما قهوة على الموقد بدلاً من الجاهزة التي يفضلونها لأنها - كما كانا يقولان - لها المذاق نفسه.

وضع أبي شيكًا جوار طبقي أثناء تناول الغداء اليوم - يوم الأحد. في العادة كانت السيدة "باري" تغيب أيام الأحاد. عندما عاد أبي من الكنيسة، أعددت الغداء من اللحم المجفف والخبز والطماطم والمخلل والجبن. لم يحدث أن طلب مني أن أصطحبه في الذهاب إلى الكنيسة، ربما لأنه كان يريدني أن آخذ حريتي مع أفكاري التي لا يأبه بها.

كان الشيك بخمسة آلاف دولار.

www.ibtesama.com

قال لى: "هذا لك، يمكنك وضعه فى حسابك فى البنك، أو استثماره كيفما تشائين. تأكدى أولاً من الفوائد، أنا لا أتابع هذه الأمور. طبعًا سوف ترثين البيت أيضًا. كل شىء فى وقته وميعاده كما يقول الناس."

رحت أفكر: "هل هذه رشوة؟ هل هو مال أبدأ به تجارة صغيرة؟ أم أسافر به فى رحلة؟ أم أدفعه مقدم بيت جديد صغير يصبح ملكًا لى فى المستقبل، أم أعود به إلى الجامعة للحصول على شهادات لم يكن مقتنعًا بها؟"

خمسة آلاف دولار يتخلص بها منى.

شكرته طبعًا، شكرته على الأقل لأنه دخل معى أخيرًا فى حوار حتى إننى تجرأت وسألته عما فعل بأمواله التى جمعها عبر السنين. فقال إن هذا ليس له أية أهمية بالنسبة له. ثم أردف: "اسألى "بيلى سنايدر" إذا كنت تبحثين عن نصيحة مخلصة."

ثم تذكر أن "بيلى سنايدر" لم يعد يعمل فى أعمال المحاسبة؛ فقد تقاعد، ولكنه قال: "أعرف رجلاً آخر له اسم غريب، اسم مثل "يسبيلانتى،" ولكنه ليس "يسبيلانتى." قلت له: "يسبيلانتى" مدينة فى "ميتشيجان." قال: "مدينة فى "ميتشيجان" ولكنها كانت اسم شخص قبل أن تصبح مدينة فى "ميتشيجان." على الأرجح أنها كانت اسم رجل حارب الترك فى أوائل القرن التاسع عشر. قلت له: "ربما تقصد فى حرب بايرون." فتساءل أبى مستغربًا: "حرب بايرون؟ما الذى جعلك تسمينها حرب بايرون؟بايرون لم يشترك فى أية حرب من الحروب. فقد مات بالتيفود. مات وأصبح بطلاً كبيرًا، مات دفاعًا عن الإغريق، وما إلى ذلك."

www.ibtesama.com

قال أبى ذلك فى عصبية كأننى أنا المسؤولة عن هذا الخطأ التاريخى، وعن هذا الجدل الكبير عن بايرون. ثم هدأ شيئًا فشيئًا وراح يحكى لى، أو قل: راح يتذكر سير الحرب ضد الامبراطورية العثمانية. تحدث عن الباب العالى وهممت أن أحدثه عن إننى لست متأكدة من أنه كان بابًا حقيقيًا، أم كانوا يقصدون القسطنطينية؟أم كانوا يقصدون بلاط السلطان؟ ولكن الأفضل دائمًا ألا تقاطع أحدًا. عندما كان يبدأ فى حديث كهذا كان يجب أن أتوقف عن الكلام، أو أروح فى نوبة من الصمت، وكأنه يخوض حربًا حقيقية. كنت جالسة فى مواجهة النافذة، وكنت أستطيع، من خلال الستائر النظيفة، رؤية أكوام الأوراق، التى مالت إلى اللون الأصفر المخضب بالبنى، على الأرض وقد امتزجت بأشعة الشمس الغامرة (ربما كانت الليلة الوحيدة التى اشتدت فيها الرياح على غير العادة). تذكرت عندئذٍ عندما كنت أشجعه على الاستمرار فى مثل هذه الأحاديث بسؤال... أو بالمصادفة.

الزلازل مثلاً. تحدث الزلازل فى سلاسل الجبال البركانية، ولكن أحد أكبر الزلازل حدث فى وسط القارة، فى مدريد الجديدة (وكانوا ينطقونها ماد رد الجديدة) فى "ميسورى، " فى عام (١٨١١). أعرف ذلك منه. الوديان المتصدعة. عدم الاستقرار الذى لا توجد علامة عليه على السطح. كهوف ضخمة تشكلت فى الحجر الجيرى، ماء تحت الأرض، جبال وجدت الوقت الكافى لتتآكل وتتحول إلى حطام.

أيضًا الأرقام. سألته عن الأرقام مرة من المرات وقال: سؤال مهم، يسمونها الأرقام العربية، أليس كذلك؟ أى مغفل يعرف ذلك. ولكن الإغريق ربما كانوا أقدر على استنباط نظام جديد، ثم استمر

www.ibtesama.com

يقول: كان الإغريق قادرين على ذلك، ولكنهم لم يخترعوا الصفر. مفهوم الصفر.. ادخرت ذلك فى مؤخرة رأسى حتى أفتحه معه كموضوع مستقل فى يوم من الأيام.

لو كانت السيدة "بى" معنا الآن لما تمكنا من إدارة حوار كهذا، لما تسنى لى أن أظفر منه بمثل تلك الإجابات. كان سيقول: ولا يهمك، تناولى وجبتك.

كما لو كان لكل سؤال دافع خفى، وأظن أنه كان لكل سؤال دافع خفى. كنت أتحايل لكى أغير دفة الموضوع. لم يكن من الأدب أن أترك السيدة "بى" فى الخارج. لذا كان موقفها مما يسبب الزلازل، أو تاريخ الأرقام (موقف عدم اكتراث أو نابع من ازدراء) وهو الموقف الذى يجب أن نذعن له، الذى يجب أن يسود.

الآن نعود إلى الحديث عن السيدة "بى" مرة أخرى. فى الوقت الحاضر، السيدة "بى."

دخلت الليلة الماضية فى تمام العاشرة. كنت فى الخارج فى اجتماع الجمعية التاريخية، أو على الأقل كنت فى اجتماع لأحاول أن أنظم واحداً. حضر خمسة: اثنان كانا يمشيان على عكازين. عندما فتحت باب المطبخ رأيت السيدة "بى" واقفة على المدخل إلى الصالة الخلفية - الصالة التى من المكتب تؤدى إلى الحمام والجزء الأمامى من المنزل. كانت تمسك بطست مغطى فى يديها. كانت فى طريقها إلى الحمام وكان يمكن أن تذهب من أمام المطبخ كما دخلت. كان يمكن ألا ألحظها. ولكنها توقفت فى مسيرتها ووقفت هناك، ومالت ناحيتى وصدرت منها علامة على الفزع.

www.ibtesama.com

أوه- أوه. متلبسة.

ثم اندفعت بسرعة إلى الحمام.

اندفعت بطريقة درامية. المفاجأة، والذعر، الاندفاع الذى يشبه الهرب، حتى طريقتها فى الإمساك بالحوض التى جعلتنى أنتبه لها، كان ذلك كله مقصوداً.

سمعت قعقعة صوت أبى قادمًا من المكتب، وهو يتحدث مع مريضة. رأيت أيضًا أضواء المكتب خافتة، ورأيت سيارة المريضة واقفة خارج البيت.

خلعت معطفى واتجهت نحو الدرج. كل ما قررت الاهتمام به الآن هو أن أعترض طريق السيدة "بى. " لم أتوجه إليها بسؤال واحد، وأخفيت صدمتى. لم أسألها أسئلة من قبيل: ما الذى معك فى الحوض يا مسز بى؟ أو ماذا تفعلان أنتِ وأبى منذ الصباح؟ (ليس لأنى كنت أناديه أبى قبل الآن.)

بالعكس: شغلت نفسى فى الحال بالتنقيب فى صندوق من صناديق الكتب التى لم أفتحها. كنت أبحث عن مقالات السيدة آنا جيمسون. كنت قد وعدت بها رجلاً تحت سن السبعين قابلته فى الاجتماع. كان الرجل يعمل مصوراً ويعرف طرفًا من تاريخ كندا الجنوبية. قال لى - خلال نصف الساعة التى وقفنا خلالها فى الممر بدلاً من أن يمضى فى طريقه لإحضار القهوة - إنه كان يريد أن يكون مدرس تاريخ ولكنه كان يعانى من لثغة فى النطق مما حال بينه وبين ما كان يريد. قال لى إنه كان يتمنى أن يحضر لى قدحًا من القهوة ولكن الوقت لن يسعفه؛ فعليه أن ينطلق إلى البيت لكى يعتنى، بدلاً من زوجته، بالوليد الذى كان يعانى من مغص.

www.ibtesama.com

أفرغت الصندوق من الكتب قبل البحث. كنت كمن يبحث عن آثار من زمن غابر. شغلت نفسي في البحث حتى غادرت المريضة، وغادر أبي مع السيدة بي إلى البيت وذهب هو إلى الطابق الثاني، ودخل الحمام وذهب إلى حجرة نومه لينام. رحت أقرأ هنا وهناك حتى أصبت بدوار وكدت أرقد على الأرض.

أثناء الغداء قال أبي بعد صمت طال: "ومن يهتم بتاريخ الأتراك اهتماماً قل أو كثر؟ تاريخ قديم. " وقلت بعد تردد ما كان يجب أن أقول: "أظن أني أعرف ما يجرى هنا في هذا البيت". فمال برأسه إلى الخلف، وقال بصوت يشبه صهيل الخيل. كان صوته فعلاً أشبه بصوت حصان عجوز:

– صحيح؟ ماالذى تظنين أنك تعرفينه ويجرى هنا؟

– أنا لا أتهمك يا أبى. أنا حتى لا أستنكر ما تفعلونه هنا.

– حقًا!!

– نعم أنا لا أعترض على الإجهاض. بل إني أعتقد أن القانون يجب أن يجيزه.

حينئذٍ قال أبى:

– لا أريد أن أسمعك تتفوهين بهذه الكلمة مرة أخرى في هذا البيت.

– ولم لا؟

– لأني أنا الوحيد الذى يحدد الكلمات التي تستخدم في هذا البيت.

– أنت تسيء فهم ما أقول.

www.ibtesama.com

– ما أفهمه أن لسانك يفلت كثيراً هذه الأيام. لسانك يفلت أكثر من اللازم، وغباؤك زاد. تعليمك عالٍ ولكن عقلك غبى.

ولم يجعلنى هجومه أكف عن الكلام. استمررت: "يجب أن يكون ذلك على الملأ وقانونيًّا. أليس كذلك؟ فرق كبير بين العلانية والسر. حاول أن تفهم ذلك. "

ولم يكلمنى خلال بقية اليوم. وحتى فى أثناء العشاء لم يكلمنى. لا أعتقد أن ما قلته يمثل مشكلة. تصرفات تبدو غبية ومشينة، تجعلنى أريد أن أخرج من ملابسى. ولكنى لن أظل فى هذه الحال إلى الأبد، ثم أجد نفسى مضطرة إلى الاعتذار بعد ذلك. (لعلك لا تندهش عندما تسمع ذلك). الوقت مناسب جدًّا الآن للرحيل من هنا.

أخبرنى الشاب الذى قابلته فى الاجتماع أن اللثغة التى فى لسانه تذهب عندما يسترخِى ويرسل نفسه على سجيتها. وقال لى إنه يتحدث معى الآن دون لثغ. كان فى وسعى أن أجعله يقع فى حبى... لتزجية الفراغ ليس إلا. هكذا... تمضى حياتى.

عزيزى آر.

لم أرحل حتى الآن. لم تكن السيارة الربع نقل تناسب الرحلة. أدخلتها الجراج للفحص. وأيضًا الطقس تغير. بدأت الرياح تهيج كشأنها فى الخريف. وبدأ الهواء يضرب الشاطئ بعنف. تعثرت السيدة بى على درجات المدخل ووقعت وكسر مرفقها. مرفقها الأيسر، ورغم ذلك قالت لأبى إنها تستطيع أن تعمل بيدها اليمنى، ولكن أبى أخبرها أن الكسر ليس سهلاً وقال لها إنها يجب أن ترتاح لمدة شهر على الأقل. وسألنى إذا ما كنت أستطيع تأجيل رحلتى.

www.ibtesama.com

استخدم هذه الكلمات بالضبط: "تأجيل الرحيل. " لم يسألنى الوجهة التى أريد أن أرحل إليها. كل ما يعرف السيارة التى أنوى الذهاب بها.

حتى أنا لا أعرف أين أريد أن أرحل.

قلت له:سوف أبقى ما دامت لى فائدة بالنسبَة لك. وبدأ يلين معى فى الكلام. أحاول أن أفعل ما كان يمكن أن تفعله السيدة بى. لم أعمد إلى إعادة ترتيب، أو إصلاح شىء. (وذهبت السيدة بى مع أحد أقربائها، وشعرت بالدهشة والامتنان.) أغلق باب الفرن كما كانت تفعل السيدة "بى" بأن أضع وراءه كتابين من كتب الطب الثقيلة فوق كرسى من الكراسى التى ليس لها ظهر. أطبخ اللحم مع الخضروات بنفس طريقتها، ولا أفكر فى شراء نبات "الأفوكاتة" أو زجاجة قلب الخرشوف أو قارورة ثوم، رغم أنى أعرف أن هذه الأشياء تُباع الآن فى "السوبرماركت. " أعد القهوة من المسحوق الذى وجدته فى المرطبان. حاولت شربه مرة حتى أعرف هل سأتعود عليه، ولكنى فعلاً تعودت عليه. أنظف المكتب آخر النهار كما كانت تفعل، وأعتنى بالغسيل. وصاحب المغسلة أحبنى لأنى لا أناقشه فى شىء ولا أتهمه.

يسمح لى أبى بالرد على التليفون، ولكن حين تكون المتصلة امرأة وتسأل عن أبى وليس عندها استعداد لأية تفاصيل أخرى كنت آخذ منها الرقم وأقول لها إن الدكتور سوف يتصل بك. هكذا كنت أفعل، وأحيانًا كانت المرأة تغلق الخط من تلقاء نفسها. وعندما أخبر أبى بذلك يقول: "سوف تتصل فى الغالب فيما بعد. "

www.ibtesama.com

المرضى من ذلك النوع كثيرون - المرضى الذين كان يطلق عليهم اسم "الاستثنائيون". قد يكون عددهم أكثر من واحد كل شهر. فى الغالب هو يداوى احتقان الحلق وتشنج القولون ودمامل الأذن إلخ. وأيضاً تسارع ضربات القلب وحصوات الكلى وتعسر الهضم.

آر.

اليوم طرق بابى حجرتى. طرق الباب رغم أن الباب كان موارباً. كنت أقرأ. طلب منى - طبعًا ليس بنبرة استعطافية على الإطلاق ولكن بشىء من الاحترام المعقول - أن أساعده فى المكتب. إذن أول مريضة استثنائية منذ رحيل السيدة "بى."

سألته: ماذا يريد منى أفعل؟ قال: "كل المطلوب منك أن تمسكى بها ولا تجعليها تتحرك. إنها صغيرة السن وهذه أول مرة لها. أيضاً نظفى يديك جيداً، استخدمى الصابون الذى فى الزجاجة التى فى حمام الطابق الأرضى."

كانت المريضة تتمدد على ظهرها فوق طاولة الفحص وقد وضعت على نصفها الأسفل، بداية من الخصر، ملاءة، وعلى نصفها الأعلى سترة من الصوف ذات لون أزرق غامق أحكمت إغلاق أزرارها، وبلوزة بيضاء مزينة عند الياقة بشريط زينة. بدت هذه الملابس واسعة فوق ترقوتها وصدرها الذى بدا وكأنه خلا من ثدييها. كان شعرها أسود، كومته خلف رأسها على هيئة ضفائر وثبتته جيداً بدبوس. بدت رقبتها، بسبب هذه الطريقة فى اللبس، طويلة. وبدت عظام وجهها الأبيض واضحة المعالم حتى إن الناظر إليها من بعيد يظن أنها سيدة فى الخامسة والأربعين من عمرها، ولكن حين تقترب منها تراها شابة

www.ibtesama.com

ربما لم تتجاوز العشرين. علقت جونلتها المثنية خلف الباب، وعلقت تحت الجونلة سروالها التحتى، عرفت ذلك من حافته.

كانت ترتجف بشدة رغم أن المكتب لم يكن باردًا. قال أبى: "الآن يا مادلين، أول شىء هو أن ترفعى ساقيك إلى أعلى. "

استغربت أنه يعرف اسمها، أم هل سألها عن اسمها واستخدم الاسم الذى أخبرته به؟ ثم قال: "استرخِى، استريحى. "

رفع رجليها إلى أعلى برفق، كانت ساقاها عاريتين، ويبدو أنهما لم يعرفا لسعة الشمس أبدًا. كانت لا تزال ترتدى حذاءها الكوتشى، وكانت ركبتاها ترتجفان بشدة وهما على ذلك الوضع حتى كانا يصطكان. قال لها أبى: "اثبتى أكثر، أنت تعرفين أنى لن أستطيع القيام بعملى حتى تفعلى ما أريده منك. هل تريدين بطانية فوقك؟"

ثم قال لى: "هاتى بطانية من الرف الأسفل هناك. "

أحضرت البطانية وثنيتها حتى تناسب تغطية الجزء الأعلى من جسد مادلين. لم تنظر إلى. وكانت أسنانها تصطكان، أغلقت فمها تمامًا، ثم قال لها أبى: "الآن قليلاً من الميل. "

ثم قال لى: "امسكى ركبتيها مفتوحتين، امسكيهما بالراحة. "

وضعت يدى على سنامتى ركبتى البنت المسكينة، وباعدت بينهما برفق على قدر ما استطعت. كانت أنفاس أبى تملأ الحجرة وهو يرسل تعليقاته التى لم أفهمها. كان على أن أمسك بساقى مادلين بشدة حتى أحول بينهما وبين الارتجاف الشديد. قالت لى: "أين المرأة العجوز؟"قلت: "ذهبت إلى بيتها، تعثرت وسقطت وكسرت ذراعها. أنا هنا مكانها. "

www.ibtesama.com

يعنى ذلك أن البنت جاءت إلى هنا قبل اليوم، ولم تكن هذه أول مرة لها.

قالت: "سيدة فظيعة!"

كان صوتها يعكس حالتها، أشبه بالدمدمة، ولكنه لم يكن متشنجًا كما توقعت من رجفة جسدها. قلت لها: "أتمنى ألا أكون فظة مثلها. "

ولم ترد. تناول أبى عودًا صغيرًا يشبه إبرة الخياطة ثم خاطبها بنبرة عادية، بطريقة لطيفة لم أعهدها فيه من قبل: "الآن الجزء الصعب، وكلما تشنجت أكثر ازدادت صعوبة المهمة، ولذا أريدك أن تسترخى. نعم. هنا. بنت ممتازة. بنت ممتازة. "

كنت أفكر فى شىء أقوله لها لعله يرضيها أو يلهيها. أرى الآن ما يفعله أبى. لقد وضع على قطعة من القماش الأبيض على منضدة بجواره أعوادًا تشبه إبر الخياطة مختلفة فى السمك ولكنها متشابهة فى الطول. إنها هى التى سيستخدمها، الواحدة تلو الأخرى، فى فتح عنق الرحم وشده. لم أستطع رؤية تلك الآلات وهى تعمل فى جسد الفتاة من موقعى خلف الملاءة التى استخدمها كحاجز. ولكنى كنت أشعر بها من موجات الألم التى كانت تصل جسدها وتقلل من تشنجه وتجعله أهدأ.

من أين أنت؟ متى ذهبت إلى المدرسة؟ هل لديك وظيفة؟ (كنت قد لاحظت أنها ترتدى خاتم زواج، ولكن كلهن ترتدين مثل هذه الخواتم.) هل تحبين عملك؟ هل معك إخوة ذكور أو إناث؟

لماذا تضطر للإجابة على هذه الأسئلة حتى لو لم تكن تتألم؟

www.ibtesama.com

توقفت عن التنفس وراحت تحملق في سقف الحجرة. قلت: "أعرف. أعرف. "

قال أبي: "ما دمنا وصلنا هنا فإنك بنت ممتازة. بنت ممتازة وهادئة. الآن لم يتبق الكثير. "قلت: "كنت أنوي دهان هذه الحجرة، ولكني لم أتجول فيها جيداً. فإذا كنت تريدين طلاؤها، ما اللون الذي تفضلينه؟"

قالت مادلين: "هوه... هوه. "

كأن الهواء المتراكم في صدرها يخرج مذعوراً رغماً عنها. هوه. هوه.

قلت: "اللون الأصفر، أو الأصفر الخفيف. أو الأخضر الخفيف. "

وعندما وصلنا إلى استخدام الإبرة الأغلظ أرسلت مادلين رأسها إلى الوراء حيث ألقت بها على وسادة خفيفة، وقد مدت رقبتها الطويلة، ومطت فمها، وضغطت بأسنانها على شفتيها قدر طاقتها. قلت لها: "تذكري فيلمك المفضل. ما هو فيلمك المفضل؟"

السؤال نفسه سألته لي ممرضة عندما وصل بي الألم مرحلة لا يمكن تصديقها، واعتقدت أن الراحة منه لن تجيء، أو لن تجيء هذه المرة على الأقل. كيف تستمر السينما إلى الآن في هذا العالم؟ الآن أنا أقول الشيء نفسه لمادلين، وتصطدم عينا مادلين بعينيّ فأرى على محياها سيماء التائه الذي أدرك أن الإنسان قد يأتي عليه يوم تصبح فيه الساعة المعطلة أنفع منه وأجدى.

جازفت برفع يدها عن ركبتها وأسلمتها ليدها الأخرى، واندهشت عندما لاحظت كيف التقطتها بسرعة فائقة، وغاصت الأصابع في

www.ibtesama.com

الأصابع. ثم قالت بصوت يشبه الهسيس من خلال أسنانها المصطكة:

- قل بعض... ريس. رايت..

وقال أبى: "الآن نوشك على الانتهاء." ثم أردف: "احكى لنا حكاية."

أية حكاية يريدنى أن أحكيها؟ هيكرى ديكرى دوك؟ كل ما قفز إلى ذهنى هو ما تعودت أنت أن تقوله لى، "أغنية أونجس الطواف(٤). "تقول أبياتها الأولى:

خرجت قاصداً غابة البندق؛ لأن ناراً كانت تتقد فى رأسى.

لم أتذكر أبياتها التالية. لم أتذكر سوى الأبيات الأخيرة:

رغم تقدم سنى من كثرة التطواف
حول الأرض والتلال الخالية من البشر،
سأظل أبحث عنك حتى أجدك،
وأقبل وجهك وأحتضن يديك.

تخيل! أنا ألقِى قصيدة بين يدى أبى.

ما الذى كان يدور برأسها وهى تسمع؟ لا أعلم، كل ما فعلته هو أنها أغلقت عينيها.

كنت أعتقد أنى سأخاف الموت لأن أمى ماتت بهذه الطريقة: أثناء الولادة. لكن بمجرد دخولى حجرة العمليات وجدت أن الموت والحياة فكرتان لا يتصل أحدهما بالآخر، أشبه بالأفلام المفضلة. كانت أعصابى مشدودة إلى آخر درجة، كنت مقتنعة بأنى عاجزة عن فعل شىء، كأنى عاجزة عن زحزحة ما يشبه بيضة عملاقة، أو كوكباً

www.ibtesama.com

متوهجًا وليس جنينًا على الإطلاق. أحسست أنه وأنا قد توقفنا عند نقطة في المكان والزمان لا نبرحها ولن نبرحها – ولم أبرحها؟ ولأى سبب؟ أحسست أن احتجاجاتى كلها لا فائدة منها، ولا داعى لها، بل إنها فقدت قيمتها. قال أبى: "الآن أريدك، أريدك إلى جوارى. أحضرى الحوض."

وأحضرت الحوض نفسه الذى كنت أرى السيدة "بارى" تمسك به وتقف إلى جوار أبى. أمسكت به بينما كان هو ينظف رحم الفتاة بأداة مطبخ (لا أقصد أداة مطبخ ولكن هكذا بدت لى: مألوفة أو عادية.)

فى مثل تلك الأحوال التعيسة تبدو الأجزاء السفلية لأية فتاة مكتنزةً حتى ولو كانت الفتاة نفسها نحيفة. فى أيام ما بعد الطلق، فى قسم الولادة، كنت ترى النسوة يرقدن دون مبالاة، أو حتى بطريقة متحدية، وقد انكشفت منهن الجروح الملتهبة والندوب المتقيحة، وسالت دموعهن الحارة. ظهرت أسلاك الخيط السوداء فوق الجروح التى تدلت منها أجزاء من اللحم الحزين، استقرت أفخاذهن الكبيرة على الأرض. كان مشهداً يستحق الرؤية حقًا.

خرجت من الأرحام سوائل تشبه "الجيلى" الذى أخذ لون الخمر الأحمر الغامق، ودم، وهناك فى مكان ما من الرحم يرقد الجنينأشبه باللعبة الصغيرة التى يجدها الأطفال فى صندوق "السيريال" أو الهدية التى يحصلون عليها بعد شراء كيس من الفشار، أو كدمية من البلاستيك لا قيمة لها إلا إذا كان لقلامة الظفر فائدة. لم أجهد نفسى فى البحث عنه أو النظر إليه، بل إنى نأيت بنفسى عن رائحة الدم الدافئ.

www.ibtesama.com

"الحمام" قال أبي"هناك غطاء، هاتِه. " كان يقصد قطعة القماش المطوية إلى جوار الأعواد الملوثة. لم أسأله: "هل هي التي في حوض الحمام؟" وذهبت وأنا معتقدة أنها هي التي قصد. حملت الحوض واجتزت الردهة إلى حيث يقع حمام الطابق الأرضي، تخلصت من محتويات الحوض، وملأته بالماء، وشطفته مرتين، وأعدته إلى أبي الذي كان يضمد جروح الفتاة ويلقي عليها بعض التعليمات. كان يتقن إلقاء التعليمات، كان يتقن هذا الأمر فعلاً. ولكن وجهه كان يبدو جاداً، وتظهر عليه علامات الإعياء الشديد. قلت في نفسي:لابد أنه يريدني ألا أفارقه في هذه المهمة الصعبة، فلربما يفقد السيطرة فجأة وينهار. لابد أن المسز بي كانت- ربما في الأيام الخوالي - تنتظر في المطبخ حتى تحل اللحظات الأخيرة. وظني أنها معه الآن حيث هو.

لو أن أبي توقف أو فقد السيطرة، لما فعلت شيئًا. ماذا كنت سأفعل؟

ربت على ساق مادلين وأمرها أن تتمدد جيداً على الطاولة.

"لا تتحركي أبداً، ولا تحاولي النهوض ولو للحظات. " ثم أردف: "هل رتبت أمر عودتك؟ هل ينتظرك أحد بسيارته؟" فقالت في صوت ضعيف ولكنه مليء بالاستياء والضغينة: "ينتظرني في الشارع الآن طوال الوقت. يفترض أنه ينتظرني ولن يبرح مكانه أبداً. "

تناول أبي سترته البيضاء واتجه ناحية نافذة حجرة الانتظار. قال: "أنت متأكدة. حسنًا إنه هناك، "ثم في نبرة ملؤها الإعياء: "أين سلة الغسيل؟"

www.ibtesama.com

وتذكر أن سلة الغسيل هناك فى حجرة العمليات التى كان يعمل فيها، فقفل راجعًا ووضع "البالطو" وقال لى: "سأكون شاكرًا لك لو أنك قمت بتنظيف هذه السترة."

والتنظيف معناه القيام بعملية التعقيم وتنظيف الغرفة بالمعنى الأشمل.

قلت: سأفعل.

ثم توجه نحو الفتاة وقال:

"جيد.. الآن أقول لك تصبحين على خير. ابنتى سوف تعتنى بأمرك حين يحين وقت ذهابك." والحق أنى فوجئت عندما نطق كلمة "ابنتى" بدلاً من أن ينطق اسمى كما كان يفعل فى السابق. سمعته يقول "ابنتى" مرة أو مرتين فى السابق عندما كان يضطر إلى تقديمى لأحد على سبيل المثال. ورغم ذلك فوجئت.

بمجرد أن غادر أبى الحجرة أنزلت مادلين ساقيها من فوق الطاولة وترنحت قليلاً وهرعت لمساعدتها. قالت لى: "أوكيه، أوكيه، أريد فقط أن أنزل من فوق هذه الطاولة بسرعة. أين وضعت تنورتى؟ لا أريد أن أظل على هذه الحال المزرية أكثر من اللازم." وأحضرت لها تنورتها من وراء الباب وارتدتها دون مساعدتى ولكن وهى ترتجف. قلت لها: "فى وسعك أن ترتاحى بعض الوقت. زوجك سوف ينتظرك." قالت: "زوجى يعمل فى غابة بالقرب من كينورا، وسأذهب إليه الأسبوع القادم، وهناك يمكنتى أن أنتظر." ثم أردفت: "والآن أريدك أن تبحثى عن معطفى.. وضعته فى مكان ما من هذه الحجرة."

www.ibtesama.com

إذا كان يهمك أن تعرف فيلمي المفضل - وأعتقد أنه يهمك - فهو "الفراولة البرية"(٥). هل تذكر صالة السينما العتيقة التي كنا نشاهد فيها معًا كل هذه الأفلام السويدية واليابانية والهندية والإيطالية. أتذكر أن هذه السينما توقفت عن عرض الأفلام الكوميدية البريطانية المعروفة بالـ carry on movies، وأفلام مارتن ولويس، ولكني لا أتذكر اسمها الآن(٦). أما فيلمك المفضل على ما يبدو لي فهو "الختم السابع"(٧) أو هكذا أخمن لما كنت تُدَرِّس الفلسفة لقساوسة المستقبل. هل هذا صحيح؟ وهو فيلم ياباني فيما أظن، لا أتذكر موضوعه الآن. تذكر أننا كنا نتمشى بعد انتهاء الفيلم مسافة أكثر من ميلين، وكنا نخوض في حديث متوهج حول الحب البشري والأنانية والله والعقيدة واليأس. وعندما كنا نصل إلى البيت كنا نكف عن الكلام، ونلزم الصمت ونحن نرتقي الدرج نحو الغرفة في هدوء. آآآه... أو لعلك تريد أن تقول في امتنان وتوق.

لو لم يكن شجارنا عميقًا لما كنت مهتمة بحضورك هنا يوم عيد الميلاد الفائت. كنت سأشعر بخوف عليك قبل أن أقدمك لأبي. وعندما سمع اسمك استغرب وقال: "روبن؟ هل هذا اسم رجل؟"

فقلت أنت إنه اسمك. وتظاهر بأنه لم يسمع من قبل بأن هذا اسم لرجل.

ولكني أشهد لك، فقد خضت في حوار ناجح مع أبي. تناقشتما حول صراع كبير أجهله، حول الدرجات الكهنوتية للرهبان في القرن السابع، أليس كذلك؟ كان ترتيبهم حسب طريقتهم في حلق رؤوسهم. وصفك بأنك الطويل ذو الشعر المتجعد. ولكنه لم يكن يقصد شيئًا سوى المديح.

www.ibtesama.com

وعندما أخبرته فى التليفون بأننا - أنا وأنت - ورغم ذلك كله لن نتزوج، قال لى: "أوه. . أوه. . وهل أنت واثقة بأنه فى استطاعتك العثور على زوج آخر مناسب؟" لو كنت اعترضت على كلامه أو أبديت غضبًا لبادر بقوله إنه كان يمزح. وفعلاً الأمر يستحق المزاح. فلم أوفق فى جذب رجل من قبل، وربما لم أكن فى أفضل حال يمكننى من ذلك.

عادت المسز "بارى"اليوم. عادت قبل أن تمر ثلاثة أسابيع وليس شهرًا كما هو المفترض، ولكنها لم تعد بكامل عافيتها: اضطرت إلى العمل عددًا أقل من الأيام. أيضًا بدأت تستغرق وقتًا أطول فى ارتداء ملابسها، والقيام بأعمال منزلها حتى إنها أصبحت لا تصل إلى هنا (وكان يوصلها ابن أختها أو زوجته) قبل العاشرة فى الصباح. كان أول ما قالته لى بعد عودتها: "أبوكِ يبدو فى حال يرثى لها. "

وكانت فى الواقع على حق.

وكان ردى: "ربما عليه أن يأخذ قسطًا من الراحة. "

فقالت: "إنه يتعرض لمضايقات من قبل كثير من الناس. "

السيارة الربع نقل جاهزة الآن، ونقودى فى حسابى فى البنك. كل ما بقى أن أفعله هو أن أرحل. ولكنى أفكر فى أشياء غبية ومزعجة. فماذا لو قدمت إلينا مريضة أخرى ممن يسميهم أبى "الحالات الخاصة"؟أغلب الظن أن المسز "بى" لن تقدر على مساعدته. كيف تساعده وهى التى لم تتمكن حتى الآن من استخدام يدها اليسرى فى رفع أى ثقل.. لن تستطيع رفع الحوض لمدة طويلة بيدها اليمنى.

www.ibtesama.com

آر.

اليوم. أقدم النهار بعد السقوط الكبير للثلوج. كان الثلج يتساقط طوال الليلة المنصرمة، وعندما طلعت الشمس كانت السماء زرقاء صافية. صمتت الرياحوصفا، وسكتت الكائنات كأنها تحتفل بالطقس البديع. أغرانى ذلك بالمشى لبعض الوقت تحت أشجار الأناناس. كانت بقايا الثلج لم تزل متعلقة بالأغصان والفروع، وبين الفينة والفينة تسقط على الأرض بيضاء متألقة كتلك الأنوار التى تزدان بها شجرة عيد الميلاد، أو قل: كقطع الزمرد المتلألئ. خلا الطريق العام الآن من بقايا الثلج، وخلا الممر أيضًا. أصبح أبى قادرًا على الذهاب إلى المستشفى، وأصبح فى مقدورى أن استقل سيارتى وأرحل عندما أرغب فى ذلك.

شاهدت السيارات قادمة من المدينة أو ذاهبة إليها كأن الحياة عادت إلى طبيعتها بعد توقف قصير.

قبل أن أعود إلى المنزل أردت أن أتأكد من أن محرك سيارتى يعمل، وتأكدت. ولكن على مقعد الراكب وقعت عيناى على صندوق. كان الصندوق يحتوى على زنة رطلين من الشكولاتة، من النوع الذى اشتريته لى من السوبر ماركت. لم أستطع أن أعرف ما الذى جاء به إلى هنا - قلت فى نفسى ربما كان هدية من الشاب الذى قابلته فى الجمعية التاريخية. وكان ذلك تفكيرًا غبيًا من جانبى. ولكن من غيره؟

حررت حذائى من الثلوج العالقة، وتذكرت بأنى فى حاجة إلى مقشة أضعها على الدوام خارج الباب. غمرت المطبخ أشعة الشمس

www.ibtesama.com

التى تسللت عبر النوافذ. خمنت ما يمكن أن يقوله أبى حين يرانى: "كنت تتأملين الطبيعة كعادتك، أليس كذلك؟"

كان يؤم الطاولة وقد ارتدى قبعته ومعطفه. كان يذهب فى مثل ذلك الوقت ليشرف على مرضاه فى المستشفى. سألنى: "هل قاموا بتنظيف الشارع العام من الثلوج؟ وكيف حال الممر؟"

قلت له إن الطريق والممر خاليان الآن من الثلوج. كان يستطيع التحقق من ذلك من خلال النافذة. وضعت غلاية الماء على النار وسألته: "هل يريد قدحًا من القهوة قبل أن يخرج؟" قال: "ممكن... بشرط أن تكون الطريق نظيفة حتى أتمكن من الخروج."

- يوم جميل.
- بشرط ألا يضطر المرء إلى شق طريقه بصعوبة.

فرغت من إعداد قدحى القهوة ووضعتهما على المنضدة. جلست أمام النافذة وقد تعرض وجهى للضوء القادم من الشمس. وجلس أبى إلى الجانب الآخر من النافذة بعد أن نقل مقعده إلى مكان بحيث يصافح الضوء ظهره. لم أتمكن من قراءة تعبيرات وجهه فى هذا الموضع، ولكن أنفاسه كانت مسموعة كالعادة.

شرعت أحكى عن نفسى لأبى. لم يكن ذلك دأبى فى السابق. كل ما كنت أريد أن أقوله له إننى أنوى الرحيل إذا حل الغد. فتحت فمى وراح الكلام يتدفق منه وأنا أسمع ما أقول بشىء من السخط والرضا على طريقة الثمل الذى لا يعى. ومما قلت: "أنت لا تعرف أبدًا أننى ولدت طفلاً، حدث ذلك فى السابع عشر من يوليو، فى أوتاوا، لم أكن أتوقع ذلك أبدًا. قلت له أيضًا: إننى تركت الطفل

www.ibtesama.com

للتبنى بمجرد ولادتى له، ولم أعرف هل كان ذكراً أم أنثى. بل وأوصيت ألا يخبرنى أحد بذلك. وأوصيت بألا أراه أيضاً.

قلت له أيضاً: أقمت مع "غوزى"، هل تذكر عندما حدثتك عن صديقتى "غوزى". تقيم الآن فى انجلترا، ولكنها كانت فى ذلك الوقت تعيش بمفردها فى منزل والديها. فقد نُقِلا إلى جنوب أفريقيا. كانت تلك من المصادفات السعيدة.

أخبرته عمن يكون أبو الطفل. عندما سألنى قلت له إنه أنت. وقلت له أيضاً: "إن كل ما كان ينقصنا بعد إتمام الخطبة هو الزواج الرسمى. وقلت له: إن رأيك كان مختلفاً؛قلت لى إننا يجب أن نبحث عن طبيب يجرى لى عملية إجهاض.

ولم يلفت نظرى بأن هذه الكلمة لا ينبغى أن تُذكر فى بيته.

قلت له إنك قلت لى: لا نستطيع أن نمضى فى طريق الزواج الرسمى؛ لأن أى متطفل سوف يفهم، دون عناء، أننى كنت حاملاً قبل الزواج. وأننا لا يمكننا الزواج حتى نتأكد من عدم وجود أى حمل.

وإلا فهناك احتمال كبير بأن تفقد وظيفتك فى كلية اللاهوت.

كنت ستتعرض للتحقيق أمام لجنة قد تحكم عليك بأنك غير صالح من الناحية الأخلاقية لتعليم كهنة المستقبل. أو كان من الممكن أن توصم شخصيتك بالفساد. ولنفترض أن ذلك لم يحدث؛ وأنك لم تفقد عملك، وأنهم اكتفوا بتوجيه اللوم إليك، وحتى لو لم يوجهوا إليك اللوم فلن يكون لك الحق فى أية ترقية، وسوف يكون ذلك بقعة فى سجلك. وحتى لو لم يحدثك أحد بذلك، فسوف يدخرونها ذلة يستغلونها ضدك، وهو أمر لن تحتمله. سيخبرها الدارسون القدامى للدارسين الجدد،

www.ibtesama.com

ستسرى عنك النكات سريان النار فى الهشيم، وستتاح الفرصة لزمائلك للنيل منك، أو الاكتفاء بإبداء العطف عليك.. وهو الأسوأ. ستصبح هدفًا للازدراء والاستخفاف، باختصار ستفشل فى حياتك.

واعترضت.

وقلت لى: إننى لا يجب أن أستهتر بالدناءة المستقرة فى نفوس البشر. وأن الأمر سيكون مدمرًا أيضًا بالنسبة لى؛ فالنساء لن يتسامحن، خاصة إذا كن لطيفات معى فى السابق. وقلت لك ساعتها: إننا نستطيع أن نرحل إلى مكان آخر حيث لا يدرى بنا أحد. وقلت لى إنهم سوف يعرفون. ستجدين دائمًا من يعثر عليك ويتحدث عنك. أضيفى إلى ذلك أنك ستكونين مضطرة إلى الانتقال إلى وظيفة جديدة بمرتب أقل، أو مرتب هزيل، وماذا نصنع بهذا المرتب ولدينا طفل؟

كنت مذهولة من مناقشة ظننت أنها لا تتسق مع الرجل الذى أحببت، والكتب التى قرأناها معًا، والأفلام التى شاهدناها معًا، والقضايا التى ناقشناها – سألتك: "أليس لكل ذلك أهمية بالنسبة لك؟ وقلت عندئذٍ: نعم تهمنى هذه الأمور، ولكن هذه هى الحياة!! سألتك: وهل أنت من هذا النوع من الناس الذين يحتملون أن يضحك عليهم الناس؟ الذين ينسحبون أمام الناس؟"

وقلت لى ساعتها: "إنك لست بهذا السوء الذى أتخيله. على الإطلاق. "

يومها ألقيت بخاتم الخطبة على الأرض وتدحرج تحت سيارة مركونة. وأثناء شجارنا كنا نسير فى شارع قريب من النزل الذى

www.ibtesama.com

كنت فيه أقيم. كان الوقت شتاءً مثل الآن: يناير أو فبراير. ولكن المعركة سرعان ما خفت بعد ذلك. كنت أريد أن أعرف أكثر عن الإجهاض من صديقة لها صديقة مرت بالتجربة. هدأ الشجار، وأنت لم تكلف نفسك حتى بالسؤال. ولكنى كذبت وقلت إن الطبيب انتقل من مكانه. ثم تماديت فى الكذب وقلت لك إنى لا أستطيع أن أفعل ذلك. لا أستطيع أن أجهض نفسي.

ولكن هل كان كل ذلك من أجل الطفل؟ أبداً. لم أعتقد أنى كنت على حق فى المناقشة معك.

احتقرتك عندما رأيتك تزحف مذعوراً تحت السيارة المركونة، وذيل معطفك يخفق حول ردفيك. رحت تخدش الثلج لتعثر على الخاتم، وتنفست الصعداء عندما عثرت عليه. كنت مستعداً لتحضننى، معتقداً أننى سأكون سعيدة أيضاً بالعثور على الخاتم، ويمكن أن نتصالح فى الحال. وقلت لك يومها إنك لن تفعل شيئاً يستحق الإعجاب فى حياتك كلها.

وقلت لك إنك منافق سريع البكاء شأن مدرسى الفلسفة.

ولم تكن تلك النهاية؛ لأننا تصالحنا فعلاً ولكن دون أن يغفر أحدنا للآخر. وحتى لم نتخذ أية خطوة تجاه ذلك. تأخر الوقت. افترقنا. رأى كلُ منا أنه أنفق وقتًا أكثر من اللازم فى الحفاظ على العلاقة. افترقنا. وشعر كلُ منا بالراحة. فى ذلك الوقت كنت متأكدة أن الفراق كان راحة لنا، ولونًا من الانتصار.

أليس هذا غريباً؟ يستحق الانتباه؟

سمعت المسز "بارى" خارج الباب تنفض قدميها لإزالة الثلج

www.ibtesama.com

العالق فوق خفيها، قلت ما كنت أريد أن أقول بسرعة. كان أبى يجلس كل ذلك الوقت متصلب الجسد من الارتباك والخجل كما اعتقدت، أو بعد أن انتابه الامتعاض الشديد. فتحت المسز "بارى" الباب وهى تقول:

– يجب أن تضعى مكنسة خارج الباب –

ثم صرخت قائلة: "ماذا تفعلين بجلوسك هنا؟ ماذا جرى لك؟ أبوك ميت؟ ألا ترين؟ الرجل ميت!"

لم يكن أبى ميتًا. كانت أنفاسه أعلى من المعتاد. ما رأته فى تلك اللحظة، وماكان يجب أن أراه أنا، بعون من الضوء، لولا أنى كنت أتحاشى النظر إلى وجهه وأنا أحكى له حكايتى، أنه كان يعانى من جلطة أعمت عينيه، وشلت جسده. كان يجلس بميل خفيف إلى الأمام وقد استند إلى المنضدة بالجزء الصلب من بطنه. وعندما حاولنا تحريكه من على مقعده، تمكنا فقط من مواربته حتى ارتاحت رأسه على المنضدة، بشىء بعد لأى، أو قل بعد شىء من التمنع الجليل. بقيت قبعته فوق رأسه، وظل قدح القهوة فى مكان يبعد عن عينيه اللتين فقدتا البصر بحوالى بوصة. كان القدح نصف ملآن.

قلت لا إننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا. فقد كان جسده ثقيلاً جداً. اتجهت ناحية التليفون واتصلت بالمستشفى لكى يحضر لنا أحد الأطباء ليأخذه إلى هناك. لا توجد فى المدينة عربة إسعاف. ولم تعرنى المسز "بى" انتباهًا، راحت تحرر أبى من ملابسه، راحت تفك الأزرار وتنتزع معطفه بعنف وهى تتضجر وتئن وتشكو من كثرة ما بذلت من جهد. أسرعت ناحية الممر تاركة البيت مفتوحًا. عدت

www.ibtesama.com

بسرعة وأحضرت مكنسة، ووضعتها وراء الباب. عدت ووضعت يداً على ذراع المسز "بى" وقلت: "لا تستطيعين - " أو شيئًا من هذا القبيل، ورمتنى بنظرة قطة غاضبة.

وجاء طبيب. استطعنا أنا وهو جذب أبى والوصول به إلى السيارة ووضعناه على المقعد الخلفى. وجلست إلى جواره لأمسك به حتى لا يقع. كان صوت أنفاسه يزداد وطأة، وبدا كأنه يستاء من كل ما نفعله. ولكن الحقيقة أننا نستطيع أن نمسك به الآن، وأن نحول بينه وبين السقوط، وأن نتحكم فى جسده كله، وكان ذلك غريبًا، غاية فى الغرابة. وبمجرد أن رأت السيدة "بى" الطبيب هدأت وتراجعت. إنها لم تتبعنا حتى لترى كيف نخرج من البيت وندخل أبى فى السيارة، سيارة الإسعاف.

مات أبى بعد الظهر، فى حوالى الساعة الخامسة مساءً. وقالوا لى إن موته كان مناسبًا، فقد أراحه من المعاناة التى كانت تنتظره.

لم تكن جعبتى قد فرغت تمامًا عندما أقبلت المسز "بارى. " كنت أريد أن أقول لأبى: ماذا لو تغير القانون؟ ينبغى أن يتغير القانون بأسرع ما يمكن، هذا ما كنت أريد أن أقوله له. كان يعرف وكنت أعرف أنه سيخسر عمله، أو جزءاً من عمله. هل كان ذلك سيمثل اختلافًا كبيراً بالنسبة له؟

ترى ماذا كان سيكون رد فعله؟

أغلب الظن أنه كان سيقول: "لا تتحدثى فى التجارة وإدارة الأعمال. هذا ليس من شأنك.

أو كان سيقول: "حتى لو حدث ذلك سوف أظل قادراً على كسب قوتى. "

www.ibtesama.com

وكنت سأقول له: لا.. لا أقصد المال. كنت أعنى المخاطرة. السرية. السلطة.

تغيير القانون معناه تغيير العمل الذى يعمله المرء، أو تغيير هوية المرء.

أم هل سيبحث عن مخاطرة أخرى، عقدة أخرى يصنعها فى حياته، عمل يزعم أنه رحمة؟

وإذا تغير هذا القانون، فإن أشياء أخرى يجب أن تتغير. أنا أفكر فيك أنت الآن، كيف يتغير القانون فلا يحدث أن تخجل من الزواج من امرأة حامل. لن يكون هناك عار فى ذلك. فلننتظر القليل. القليل من السنين فقط ويصبح الأمر مدعاة للاحتفال وليس للمداراة. ستحاط العروس الحامل بأكاليل الزهور، وهى فى طريقها إلى المعبد، أو حتى إلى كنيسة كلية اللاهوت. وحتى لو حدث ذلك. سيبقى دائماًشيئاً نخجل منه، أو نخشاه، سنسعى لتجنب أخطاء أخرى فى حياتنا.

ثم ماذا عنى أنا؟ هل حكم على أن أمتطى حصان العناد والغرور، وأكتفى بما لدى من أخلاق، وأتعالى على الآلام، وأتشبث بالحق، فقد أعوض خسارتى؟

غيروا الإنسان. نأمل ذلك. كلنا يحدوه الأمل فى ذلك.

غيروا القانون، يتغير الإنسان. رغم ذلك لا نريد كل شىء دفعة واحدة – لا نريد أن نصلح كل شىء – أن تملى علينا الأشياء إملاءً من سلطات أعلى منا. أحوالنا لا تعجبنا.. نعم. ولكن علينا أن نغير ما بأنفسنا أولاً.

www.ibtesama.com

ولكن من "نحن" هذه التى أتحدث بها؟

آر.

يقول محامى أبى: "الأمر غريب غاية الغرابة. " وأنا أعرف ما يقصد. لم يترك أبى فى حسابه فى البنك مالاً يكفى لتغطية تكاليف جنازته، أو حتى لدفنه.. كما يقولون. (لم يقل المحامى ذلك، المحامون لا يتحدثون بهذه الطريقة.) قال إن ما سيبقى من مال سيكون قليلاً جداً. لم نجد فى خزانته أية شهادات استثمار، ولا علامة على أنه يستثمر أمواله فى مكان ما. لم يترك وصية للمستشفى، ولا للكنيسة، ولا للمدرسة الثانوية التى تعلم بها. وأكثر ما صدمنى وأدهشنى أنه لم يترك للسيدة "بارى" أية نقود. المنزل ومحتوياته من حقى. أعطانى خمسة آلاف دولار قبل وفاته. وهذا كل ما فى الأمر.

بدا المحامى مضطربًا كل الاضطراب، وقلقًا من هذا الوضع المخجل. ربما ظن أنى اتهمته بسوء الطوية. وأنى قد أسعى لتشويه سمعته. سألنى إذا ما كان فى البيت خزانة أخرى وضع أبى فيها أمواله وأوراقه، فى منزلى، أو فى منزل أبى سابقًا، أو مكان يصلح لإخفاء المال فيه. وقلت له إنه لا يوجد شىء من هذا القبيل. ويحاول هو أن يوحى لى – بطريقة بارعة طبعًا وغير مباشرة حتى إننى لم أفهم ما كان يرمى إليه فى البداية –إن كان ثمة سبب يجعل أبى يحتفظ بكمية كبيرة من المال سراً، كمية كبيرة من دخله، كم كبير من المال "الكاش" كما قال، أخفاها ربما فى مكان ما. . هذا احتمال وارد جداً.

وقلت له: إننى لست مهتمة أكثر من اللازم بالنقود.

www.ibtesama.com

أعجز عن وصف تعبيرات وجهه. لم يكن يستطيع النظر فى عينى، قال لى: "ربما تستطيعين الذهاب إلى البيت والبحث بنفسك... جيداً هذه المرة. لا تهملى الأماكن البسيطة المتوقعة. فقد تجدين الأموال فى علبة "كوكيز"، أو فى صندوق تحت السرير، حتى يصبح الأمر مفاجأة للباحثين، حتى أحرص الناس وأذكاهم. " ثم يردف وأنا أهم بالخروج: "أو حتى فى كيس مخدة. "

سيدة فى التليفون تريد أن تتحدث مع الطبيب.

– آسفة الطبيب مات.

– أقصد الدكتور "ستراكان. "هل النمرة خطأ؟

– إنه هو... ولكن آسفة.. مات.

– وهل خلت العيادة من غيره –ألم يكن له شريك فى العيادة أستطيع التحدث معه الآن؟ أى شخص آخر غيره؟

– لا.. لا يوجد أحد.

– هل لك أن تعطينى أى رقم آخر أستطيع أن أتصل به؟ أى دكتور آخر يستطيع أن...

– لا ليست لدى أية أرقام. لا أعرف أى أحد آخر.

– لابد أنك تعرفين عما أتحدث. الأمر خطير جداً. عندى ظروف خاصة جداً.

– آسفة.

– النقود ليست مشكلة على الإطلاق.

– لا.

www.ibtesama.com

– من فضلك حاولى تذكر أى شخص. فإذا تذكرت أى دكتور آخر فيما بعداتصلى بى، سوف أترك لك رقمى.

– لا تتعبى نفسك.

– أنا لا أهتم. أنا أثق بك. على أية حال الموضوع لا يخصنى. أعرف أن كل الناس تقول ذلك ولكنى أتحدث الصدق. الأمر يخص بنتى التى هى فى حالة يرثى لها. منهارة نفسيًا.

– آسفة.

– لو عرفت كم تعبت لكى أحصل على هذا الرقم ستحاولين مساعدتى.

– آسفة.

– أرجوك.

– أنا آسفة.

كانت مادلين آخر حالة من حالاته الخاصة. رأيتها فى الجنازة. لم تذهب إلى كينورا. أو ربما عادت من هناك. لم أتعرف عليها فى البداية لأنها كانت ترتدى قبعة سوداء مزخرفة بريش عند الحواف. لابد أنها استعارتها – لم تكن متعودة على الريش الذى كان يتدلى حتى يبلغ عينيها. قلت لها الكلام نفسه الذى أقوله لكل شخص:

– شكر الله سعيك.

ثم تداركت أنها قالت لى شيئًا غريبًا. قالت:

– كنت أظن أن لك غرامًا بالحلوى.

قلت للمحامى: "ربما كان أبى يرفض أخذ أجره من زبائنه، ربما كان يعمل للخير وليس للمال. بعض الناس يريدون مرضاة الله.

www.ibtesama.com

فقال المحامى وقد اعتاد علىّ ولم يعد يخجل من شىء: "ربما. "

"وربما كان يسهم فى عمل خيرى يتبرع لـه دون أن يسجل المبالغ التى تبرع بها. "

وظل المحامى ينظر فى عينى هنيهة. ثم قال:

"عمل خيرى؟" ثم قاطعته:

- حسنًا، لم أبدأ فى حفر البدروم بعد.

فابتسم لهذا المزاح الثقيل بشىء من الجفل.

***

غادرت السيدة بارى دون أن تخبر أحدًا. حتيلم تظهر بعد ذلك. لم يكن هناك شىء تعمله، فلما كانت الجنازة فى الكنيسة، وكان الاستقبال فى ردهة الكنيسة، لم تحضر الجنازة، ولم يحضر أحد من اقاربها. كان هناك أناس كثيرون فى الجنازة فلم أستطع أن أعرف ما إذا كنت رأيت أحدًا من أقارب "بارى" أو معارفها؟

اتصلت بها تليفونيًا بعد ذلك بعدة أيام وقالت: "لم أذهب إلى الكنيسة لأنى كنت أعانى من برد شديد. "

قلت لها: " ليس لهذا اتصلت، أنا أستطيع أن أتكفل بحياتى. "

وسألتها: "ماذا سوف تعمل فى المستقبل؟

قالت:

"لا أظن أنك ستكونين فى حاجة إلىّ الآن. "

قلت لها: "يجب أن تأتى لأعطيك شيئًا من البيت، شيئًا على سبيل الذكرى. "كنت أريد أن أسألها عن الأموال التى كان أبى يكسبها.

www.ibtesama.com

ولكنى لم أعرف كيف أفاتحها فى الموضوع. قالت: "عمومًا أنا تركت بعض الأشياء فى البيت وأريد أن أزورك عندما أستطيع."

وزارتنى فى الصباح التالى. كانت الأشياء التى جمعتها عبارة عن ممسحات وجرادل وفرشات وسلة ملابس. لم أصدق أنها جاءت لتأخذ هذه الأشياء، ولم أصدق أنها جاءت لتأخذها لأسباب وجدانية، ولكن ربما. ربما كونها أشياء استخدمتها سنين طويلة - وأنفقت أثناء تلك السنين صحتها وحياتها فى هذا البيت أكثر مما أنفقت فى بيتها.

قلت لها: هل هناك شىء آخر. من أجل الذكرى؟

جالت ببصرها فى أركان المطبخ، وهى تعض على شفتها السفلى. لابد أنها كانت تريد رد ابتسامة لاحت على وجهى. قالت: "لا أظن أن هناك شيئًا سأحتاجه فى المستقبل."

كنت قد جهزت لها شيكًا، لم يتبق إلا أن أكتب المبلغ، لم أستطع أن أقرر كم أكتب لها من الخمسة آلاف دولار التى أعطانيها أبى. ألف؟ فكرت، ولكن الألف قليلة جدًا، فهل أضاعف المبلغ؟

أخرجت دفتر الشيكات الذى كنت قد أخفيته فى الدرج، وأمسكت بقلم، وكتبت الشيك بمبلغ أربعة آلاف دولار. وقلت لها: هذا لكِ، وشكرًا لك على كل شىء."

استقبلت الشيك بين يديها وحدقت فيه، وحشرته فى جيبها حشرًا. قلت فى نفسى ربما لم تكن تستطيع قراءة المبلغ بالضبط، ثم رأيت على وجها سحابة من ظلمة، وشعورًا بالخجل، وعدم قدرة على الشكر.

www.ibtesama.com

أخذت معها كل ما كانت تريد أخذه، مستخدمة يدها السليمة. فتحت لها الباب. كنت أريد أن أقول لها ما يواسيها ويهدىء من روعها. كل ما استطعت قوله: "هل لا يزال ذراعك تؤلمك؟ فقالت إنه لن يتحسن أبداً حسبما أظن. وتحولت بوجهها كأنها خشيت أن أقبلها مرة أخرى. قلت لها: "حسناً.. أشكرك كثيراً.. وإلى اللقاء."

راقبتها وهى تدنو من سيارتها. ظننت أن ابن اختها هو الذى جاء بها إلى هنا، ولكن لاح لى فى الحال أن لها سائقاً جديداً. هل كانت يدها مكسورة؟ سائق جديد؟ هل يفسر هذا عجلتها واضطرابها الغريب؟

خرجت من السيارة زوجة ابن اختها لكى تساعدها فى تناول حاجياتها. لوحت بيدى... ولكنها كانت مشغولة فى ترتيب المكانس والجرادل. هتفت:

"سيارة فخمة!!"

لم أعرف ماركة السيارة، ولكنها كانت جديدة وواسعة وساحرة. لونها فضى أرجوانى فاتح.

نادتها زوجة ابن أختها: "هيا بنا." وأحنت السيدة "بارى" رأسها اعترافاً بالجميل.

ارتجفت فى ملابس البيت، وقفت هناك ورحت أنظر حتى غابت السيارة عن الأنظار. لم أستطع الجلوس لأفعل أى شىء، عملت لنفسى قهوة وجلست فى المطبخ. تناولت علبة شوكولاتة مادلين من الدرج وأكلت قطعتين، رغم أنه لم يعد لى طاقة على أكل الحلوى

www.ibtesama.com

بسبب لونها البرتقالى ووسطها الأصفر. تمنيت لو أنى شكرتها. لا أعرف كيف أشكرها الآن - لا أعرف حتى اسمها الأخير.

قررت الخروج للتزلج. توجد خلف بيتنا حفر تكثر فيها الحصباء الثلجية. أظن أنى أخبرتك بذلك ذات مرة. ارتديت الزحلوفتين الخشبيتين اللتين كان أبى يستخدمهما فى الشتاء حين كان يريد أن يذهب إلى حالة ولادة، أو إزالة زائدة دودية. لم يكن ثمة بديلٌ عن الأحذية ذات الشريط التى تمسك بالقدمين فى المكان.

سرت متزحلقة عائدة إلى حفر الثلج التى تغطت حوافها بالعشب على مر السنين، واليوم هى مغطاة بالثلوج. كان هناك طرقات مخصصة للكلاب، وأخرى للطيور، ودوائر لا تكاد ترى حفرتها فئران الغيطان التى كانت تدور حول نفسها، ولكن لا علامة على بشر. كنت أسقط بين الفينة والفينة، ولكن السقوط كان سهلاً على الثلج الكثير الطرى، وبين سقوط ونهوض اكتشفت شيئًا.

عرفت أين ذهبت النقود، نقود أبى.

ربما فى عمل خيرى.

السيارة الفخمة.

وأربعة آلاف دولار من خمسة.

شعرت بسعادة تسرى فى جسدى من تلك اللحظة.

اعتورنى إحساس بأنى أرى نقوداً تطير فوق جسر من الجسور، أو يطاردها الهواء رفعًا وخفضًا إلى المجهول: أموال، آمال، خطابات غرام، أشياء كلها يمكن أن تطير فى الهواء، وقد تعود من جديد وقد مسها التغيير، تعود محملة بضوء الفضاء، ومحررة من أحداث الماضى.

www.ibtesama.com

هل كان أبى يسعى إلى جمع المال بأية وسيلة؟ لم أتخيل ذلك. خاصة أن المدينة كلها لم تكن تتحداه. بل كانت تقف معه، أو قل إنها كانت تعينه بصمتها. تلوح الآن لى فكرة ربما لا تكون فى محلها: ربما كان يسعى إلى إحباط توقعاتنا، أو ربما كان يريد أن يخبرنا بأنه لم يكن يأبه بجمع المال. هل يرى الآن - وهو ميت - صدمة المحامى؟وهل يعرف أننى أسعى الآن لمعرفة الحقيقة؟

كلا. لا أظن أنه كان يفكر فى هذه الأمور كلها. لا أظن حتى أننى كنت موضوعًا لتفكيره فى أوقات كثيرة. كثيرة بالقدر الذى كنت أتمناه.

لم يبق إلا سبب واحد أخجل من ذكره.. هل كان أبى يفعل ما كان يفعل من أجل الحب؟

إذًا من أجل الحب!! لا أستبعد ذلك أبدًا.

***

تسلقت حفرة الثلج، وما إن دخلت الحقول حتى شعرت بلمسات الهواء تصافح وجهى. كانت الريح تضرب الثلج الساكن على مسارات الكلاب وآثار فئران الحقول، وذلك الخط الضئيل الذى صنعته زحلوفتا أبى وقد يكون آخر شىء تصنعانه.

عزيزى آر. روبن:

ترى ما آخر شىء يمكن أن أقوله لك فى الختام؟

إلى اللقاء وأتمنى لك حظًا سعيدًا.

أرسل لك حبى.

- (ماذا سيحدث لو أن الناس فعلوا هذا الذى فعلت - يرسلون حبهم عبر البريد للتخلص منه؟) فى هذه الحالة ماذا سوف يرسلون؟

www.ibtesama.com

علبة شوكولاته تتوسطها أشكال تشبه صفار بيض الديك الرومى.
دمية الطين ذات تجاويف العينين، كومة من ورود مطوية فى جريدة
دموية لا أحد يريد أن يفتحها.)

اعتن بنفسك.

تذكر:ملك فرنسا الحالى أصلع الرأس.

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

هوامش:

(١) أحد فرسان المائدة المستديرة فى أسطورة الملك آرثر وأحد الجالبين للكأس المقدسة ، وهو ابن غير شرعى للسير لانسلوت وإلين كاربونيك ومشهور بالشجاعة والإقدام والطهارة (المترجم).

(٢) مذبحة تلال السرو التى جرت فى عام ١٨٧٣ فى منطقة تلال السرو فى ساسكتشوان وتورط فيها صيادو الذئاب الأمريكيون (المترجم).

(٣) يقصدMonday يوم الاثنين (المترجم).

(٤) قصيدة لوليام بتلر ييتس تقول أبياتها:

خرجت قاصداً غابة البندق،
لأن ناراً تتقد فى رأسى،
قطعت عصاً كبيرة وقشرتها
وعلقت عليها ثمرة توت فى خيط
وعندما تجمعت الفراشات البيضاء على الجناح
وكانت النجوم شبه الفراشات تلمع فى الفضاء،
ألقيت ثمرة التوت فى جدول
وأمسكت بسمكة سلمون فضية صغيرة.
ووضعتها على الأرض •
وذهبت لأنفخ الريح فى النار،
ولكن شيئاً يحدث حفيفاً
ونادانى شخص باسمى:
لقد أصبحت بنتاً متألقة
والتفاح يزدهر فى شعرها
من الذى نادانى باسمى ومضى
وتلاشى خلال الهواء الساطع.
وأمشى بجوار العشب الطويل المرقط
وأقطف حتى يمضى الوقت والأوقات

www.ibtesama.com

تفاحات القمر الفضية،
وتفاحات الشمس الذهبية.
رغم تقدم سني من كثرة التطواف
حول الأرض والتلال الخالية من البشر،
سأظل أبحث عنك حتى أجدك،
وأقبل وجهك وأحتضن يديك.

(٥) فيلم كتبه وأنتجه إنجمار برجمان (Ingmar Bergman) عام ١٩٥٧ عن عجوز يتذكر ماضيه. قام بالتمثيل في هذا الفيلم بيبي آندرسن وماكس فون سايدو، وإنجرد ثولون وآخرون. فاز الفيلم بجائزة الدب الذهبي في مهرجان برلين الدولي للسينما (المترجم).

(٦) الـ كاري أون carry on هي سلسلة طويلة من الأفلام الكوميدية البريطانية أخرجها جيرالد توماس وأنتجها بيتر روجرز بين عامي ١٩٥٨ و ١٩٧٨. مارتن ولويس نسبة للممثلين دين مارتن وجيري توماس اللذين ألفا ثنائيًا كوميديًا في عام ١٩٤٤، قاما معاً بتمثيل وإخراج العديد من الأفلام والمسلسلات الكوميدية (المترجم).

(٧) فيلم سويدي عُرِض عام ١٩٥٧ من إخراج إنجمار برجمان عن رحلة فارس من العصور الوسطى خلال أرض مصابة بالطاعون حاول فيها الموت استدعاءه والنيل منه. أما الاسم فيرجع لسطر ورد في سفر الرؤيا الإصحاح الثامن السطر الأول: ويقول: ولما فتح الختم السابع حدث سكوت في السماء نحو نصف ساعة (المترجم).

www.ibtesama.com

نهر منستيونغ(*)

I

أزهار سوسن ودموية(١)
ونعناع برى،
نجمع ملء اليدين
ونعود جذلين،

تقدمات، ذلك هو اسم الكتاب، كُتِب بحروف ذهبية على غلاف أزرق غامق. أسفل الحروف نُقش الاسم الثلاثى لمؤلفته:"ألميدا جويانت روث. "كانت الجريدة المحلية " الفيديت"تنعتهابشاعرتنا. يبدو أن ثمة مزيجا من الاحترام والازدراء لمهنتها وجنسها كليهما، أو لما يوحى به الاسم والمهنة من أزمة متوقعة. على غلاف الكتاب صورة فوتوغرافية، واسم المصور فى زاوية، وفى زاوية أخرى التاريخ:(١٨٦٥). صدر الكتاب فيما بعد عام (١٨٧٣).

www.ibtesama.com

كانت الشاعرة ذات وجه أسيل، وأنف يميل إلى الطول، وعينين بارزتين حزينتين سوداوين، يخيل للناظر إليهما أنهما على وشك السقوط على خديها مثل دموع عملاقة. اجتمع بعض من شعرها الأسمر حول وجهها في ضفائر مرسلة، أو ستائر مسدلة، مع وجود خيط من شعر أشيب ظاهر للعيان رغم أنها بدتفى تلك الصورة لم تتجاوز الخامسة والعشرين. ليست حسناء ولكنها من ذلك النوع من النساء الذى يعمر طويلا ولا يزداد مع الأيام سمنة. ترتدى فستانا مزينًا بثنيات ضفيرية من شريط عريض مطرز بحاشية من قماش أبيض، أهداب أو عقد، يؤنس القبُة عند الرقبة. على رأسها قبعة مصنوعة، على ما يبدو، من القطيفة ذات اللون الغامق ليضاهى لون الفستان. القبعة عاطلة من الزينة، لا تبعث على الإعجاب، أشبه بالبيريه ناعم الملمس مما يجعل الناظر يحس بمقاصد فنية، أو على الأقل غرابة حيية تشى بطبع حرون لهذه السيدة الشابة ذات الرقبة الطويلة ورأسها المائل إلى الأمام مما يدل على أنها كانت طويلة القامة ضامرة الجسم تعوزها البراعة. تبدو بدءًا من خصرها أشبه بشاب من طبقة النبلاء عاش فى قرن سابق، أو لعلها كانت الموضة.

جاء فى تصديرها للكتاب:

"فى عام (١٨٥٤) جاء أبى بنا - أمى وأختى كاثرين وأخى وليام وأنا - إلى برارى كندا الغربية (كما كانت تسمى حينذاك). كان أبى يصنع عدة الحرب للفرس والإنسان. كانت هذه مهنته التى امتهنها، ولكنه كان رجلاً مثقفًا يحفظ عن ظهر قلب صفحات من الكتاب المقدس، وصفحات من مسرحيات شيكسبير، وكتب "إدموند بيرك". استطاع أن

www.ibtesama.com

يحقق نجاحا اقتصاديًا بعد وقت قصير من هجرته إلى تلك البلاد الجديدة. أنشأ متجراً كبيراًلبيع السروج والمصنوعات الجلدية، وبعد عام شيد هذا المنزل المريح الذى فيه أقيم الآن... وحدى. كنت فى الرابعة عشرة، أكبر إخوتى، عندما جئنا إلى هذه البلاد من "كنغستون"، تلك المدينة الجميلة التى لم أعد أرى شوارعها الأنيقة، بيد أنها لا تبرح الذاكرة. كانت أختى فى الحادية عشرة وأخى فى التاسعة. وفى الصيف الثالث من إقامتنا الجديدة مرض أخى وأختى فجأة بحمى كانت منتشرة، وقضيا نحبهما لا يفصلهما إلا أيام قلائل. أما أمى الغالية فلم تستعد نشاطها وحيويتها بعد تلك الضربة القاصمة لأسرتنا. تدهورت صحتها ووافتها المنية هى الأخرى بعد ثلاث سنوات. أصبحت – من ثم – بمنزلة ربة بيت بالنسبة لأبى، وكنت سعيدة أن أساعده فى بيته اثنتى عشرة سنة حتى وافاه الأجل فجأة ذات صباح فى متجره.

منذ نعومة أظافرى وأنا متيمة بقرض الشعر. رحت أشغل نفسى، أو قل: أسكّن آلامى التى فاقت، على ما أظن، آلام البشر جميعًا، بمحاولات متعثرة فى نظمه. لم أوتِ براعة يدوية استثمرها فى أشغال الإبرة، وتلك المنتجات الرائعة من أعمال الزخرفة التى يراها المرء هذه الأيام، ذلك الفيض الوافر من سلال الفاكهة والخضراوات التى تزدان برسومات لصبية هولنديين صغار، أو عذارى متقلنسات يقبضن على كؤوس ملأى بالماء، دليل آخر على أنها فوق طاقتى. ولذا فإنى أقدم، عوضا عن ذلك، ثمار ساعات فراغى، هذه الأبيات، أو قل:هذه الزهرات المتواضعات، أو هذه الأغنيات البسيطة، أو الدوبيتات، أو قل هذه التأملات. "

www.ibtesama.com

ومن ضمن العناوين التى أعطتها لهذه القصائد:"أطفال فى لهوهم"و"سوق الغجر" و"زيارة لأسرتى"و"ملائكة من ثلج"و"قس عند مصب نهر منستيونغ"و"جولة فى الغابة القديمة"و"لحن الحديقة". وقصائد أخرى عن الطيور والزهور البرية، والعواصف الثلجية، وبعض الأشعار الهزلية عما يجول فى خاطر المرء وهو يستمع إلى المواعظ الكنسية.

"أطفال فى لهوهم":الكاتبة طفلة تلهو مع أخيها وأختها. من هذه الألعاب لعبة يتجاذب فيها الأطفال ويتوارون فى الأركان، ويحاول بعضهم الإمساك بالآخر. كانت تلعب فى ظلمة الشفق المتعاظمة حتى جاء يوم وأدركت أنها أكبر سنًا من أقرانها. لم تزل تسمع الأصوات الطيفية لأخيها وأختها وهما يناديان عليها: تعالى، هلمى، دعى ميدا تأتى. (ربما كانت ألميدا تسمى ميدا بين أفراد الأسرة، ولعلها اختصرت اسمها ليوافق مقتضى القصيدة).

"سوق الغجر": كان الغجر يقيمون معسكرهم على أبواب المدينة. سوق يبيعون فيه القماش وأشياء أخرى بسيطة. وكانت الكاتبة وهى طفلة تخشى أن يسرقها هؤلاء الغجر من أسرتها. ولكن الأمور جرت على النقيض، فقد سرقت أسرتها منها، سرقها غجر لا تعرف مكانهم ولا كيف السبيل إلى مساومتهم.

"زيارة لأسرتى" :وهى زيارة للمقابر، والقصيدة حديث إلى النفس.

"ملائكة من ثلج": كانت الكاتبة تُعَلِّم أخاها وأختها كيف يرسمان ملائكة بالرقود على الثلج وتحريك الأذرع لتطبع أشكالاً على الثلج أشبه

www.ibtesama.com

بالأجنحة. كان أخوها ينهض دائما دون أن يكترث تاركًا ملاكًا بجناح واحد. هل سيُمنح جناحه الناقص في السماء؟أم سيطير ببدائله؟

"قسيس عند مصب نهر منستيونغ": هذه القصيدة تنوه باعتقاد شعبي بعيد عن الصحة بأن المستكشف أبحر صوب الشاطئ الشرقي لبحيرة هيورِون، واستقر عند مصب النهر الكبير.

"جولة في الغابة القديمة":عبارة عن قائمة بكل أنواع الأشجار التي تم قطعها من الغابة الأصلية، أسماؤها وصفاتها الشكلية واستخداماتها، مع وصف عام للدببة والذئاب والصقور والغزلان وطير الماء.

"لحن الحديقة":يبدو أنها دليل أو تكملة لقصيدة الغابة، وتحتوي على بيان بالنباتات التي جلبت من الأقطار الأوربية مع شذرات من التاريخ والخرافات التي اتصلت بها، وما استنبت منها من نباتات كندية في النهاية.

القصائد مكتوبة في رباعيات أو دوبيتات. وثمة محاولتان في السوناتة. القافية بسيطة في الغالب أ ب أ ب أو أ ب ج . تستخدم القافية المذكرة أي:التي تنتهي بمقطع منبور، وقليلا ما تُستخدم القافية المؤنثة أي التي تنتهي بمقطع غير منبور. ترى هل تُستخدم هذه المصطلحات اليوم ؟لا وجود للشعر غير المرسل.

II

أزهار بيضاء باردة كالثلج
تزدهر حيث يرقد "الملائكة".
هل يكتفين بالرقود تحت الثلج
أم يهمن في ملكوت الله؟

www.ibtesama.com

فى عام (١٨٧٩) كانت "ألميدا روث" لم تزل تعيش فى المنزل الذى يقع على الناصية عند ملتقى شارعى "دوفرين" و"بيرل، "وهو المنزل الذى شيده الأب لأسرته. لم يزل قائما هناك حتى اليوم، يعيش فيه الآن مدير محل لبيع الخمور. البيت مكسو من الخارج بألواح من الألومنتال، واستبْدل بالشرفة مدخل مسقوف. أما مخزن الخشب والسور والأبواب والمرحاض والزريبة، فلم يعد لها وجود. تظهر هذه الأشياء فى مكانها فى صورة ترجع إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر. يظهر البلى على البيت والسور حيث يبدو البيت كأنه فى حاجة إلى طلاء. أو لعل ذلك لشكل الصورة الباهت ذى اللون الضارب إلى السمرة. بدت النوافذ ذات الستائر المصنوعة منشرائط، أشبه بالعيون البيضاء. لا ترى العين أثراً لأشجار الظل. والواقع أن أشجار الدردار الطويلة التى كانت تغمر المدينة بالظلال حتى خمسينيات القرن التاسععشر، كأشجار الجميز التى تلقى الآن بظلالها القصيرة، أضحت أشجاراً صغيرة ضامرة ضُرب حولها سور لم يدفع عنها الأبقار المعتدية. وخارج ذلك الحاجز من الأشجار توجد أفنية خلفية وحبال غسيل وأكوام خشب ومساحات صغيرة من النخيل وحظائر ومراحيض، كلها مكشوفة عرضة للعوامل الجوية. قليلة هى البيوت التى تهتم بتنمية الزرع حولها. لا تجد إلا مساحات صغيرة من نبات موز الجنة وكثبان النمل والقاذورات المكومة، وبعضاً من نبات "البطونيا" الذى ينمو فى تجاويف جذوع الأشجار المقطوعة. الشارع الرئيس فقط هو المفروش بالحصباء، أما سائر الشوارع فليست إلا طرقات قذرة موحلة يعلوها التراب حسب

www.ibtesama.com

الفصول. ضربتالأسوار حول الأفنية لتذود عنها الحيوانات المعتدية. أما الأبقار فقد شُد وثاقها بمعاقل فى أماكن خالية من العشب، أو تُركت لترعى فى الأفنية الخلفية، بينما تُركت الخنازير وكذلك الكلاب حرة مطلقة السراح تنام بكبرياء على الجسور الخشبية. لقد استقرت المدينة ولنتزول، بيد أنها لم تزل تأخذ طابع المخيم. ومثل المخيم أصبحت مشغولة طوالالوقت، تفيض بالناس الذين تراهم يمشون على أقدامهم أينما وجدتهم، مليئة بالحيوانات التى تترك مخلفاتها فى كل مكان؛ روث الخيل والأبقار وغائط الكلاب مما يدفع السيدات لرفع أرديتهن تجنبا للأذى. أصبحت المدينة تعج بالضوضاء التى تصدر عن عمال البناء وسائقى العربات الذين يصيحون بجيادهم، والقطارات التى تأتى مرات متعددة فى اليوم.

قرأت وصفًا لتلك الحياة فى جريدة " الفيديت" المحلية. كان الناس أصغر سنًا من اليوم، وربما مما سيكونون فى المستقبل. الذين تعدوا الخمسين لا يهاجرون إلى البلاد الجديدة. كانت القبور تضم عدداً قليلاً من الناس سيما من الشباب الذين لقوا حتفهم فى حوادث، أو من الأطفال الذين قضوا نحبهم بسبب الأمراض المعدية. يشكل الشباب أغلب سكان المدينة، وأما الأطفال والصبية فإنهم يجولون الأرجاء فى جماعات أشبه بالعصابات. الذهاب إلى المدرسة كان إجبارياً أربعة أشهر فى العام. توجد الكثير من الأعمال المؤقتة التى يستطيع الجميع القيام بها حتى الأطفال الذين تعدوا الثامنة أو التاسعة؛جمع الكتان وربط الخيول وتوصيل البقالة إلى المنازل وتنظيف المعديات القائمة أمام المحال التجارية. وكثيراً ما يشغلون

www.ibtesama.com

الوقت بحثًا عن المغامرة. ذات يوم تبعوا سيدة ثملة تدعى "كوين آجى، " وضعوها على عربة يد وطافوا بها حول المدينة ثم ألقوا بها فى حفرة لإعادتها إلى وعيها. كانوا أيضًا يقضون جزءًا غير قليل من وقتهم حول محطة السكة الحديد، يقفزون فوق العربات الواقفة، ويندفعون بينها، ويراهنون على المخاطرة مما كان ينتهى بهم أحيانًا إلى العجز أو الموت. كانوا يراقبون الغرباء القادمين إلى المدينة. يتبعونهم ويعرضون عليهم حمل حقائبهم وإرشادهم إلى الفندق لقاء خمس سنتات للحقيبة الواحدة. أما الذين لا يبدو عليهم يسر العيش فكانوا عرضة للمهانة والمضايقة، يحتشد حولهم الصبيةكأسراب الذباب، ويمطرونهم بالأسئلة أينما ذهبوا. هل جاءوا للبدء فى مشاريع جديدة؟ أم لإغراء الناس بالاستثمار فى مشاريع بعينها ؟أم لبيع الأدوية؟ أو تلك الصناعات الجديدة؟ أم للوعظ فى أركان المدينة؟ كان ذلك يحدث طوال أيام الأسبوع. وتنصح الفيديت الناس أن يأخذوا حذرهم هذه الأيام من الانتهازيين والسراق والمومسات والمحتالين والباعة الجائلين والمحامين المشبوهين واللصوص الذين تقابلهم فى الطرقات ولاسيما عند السكة الحديد. كانت صفحاتها تتضمن إعلانات عن سرقات تمت، وأموال أعطيت بقصد الاستثمار ولم ترجع لأصحابها، وبنطلونات سرقت من فوق حبال الغسيل، وأكوام خشب نقصت، وبيض دجاج اختفى من حظائر دواجن. تكثر هذه الأفعال فى الطقس الحار.

الطقس الحار مجلبة للحوادث أيضًا. يزداد عدد الخيول الجامحة التى تقلب العربات وتهيج دون رادع. ويسمع الناس عن أيدٍ تدهمها

www.ibtesama.com

آلات الغسيل، ورجل يقطعه نصفين أحد ألواح الخشب، سقط عليه في مخزن الخشب. النوم العميق صعب المنال، الرضع يذبلون بسبب أمراض الصيف. وأصحاب الأجسام اللحيمة لا يقدرون على التقاط أنفاسهم. يُدفن الموتى على عجل. وذات يوم هام أحد الناس في الشوارع وهو يضرب على جرس بقرة ويصيح: التوبة! التوبة! لم يكن من الغرباء هذه المرة، كان شاباً يعمل عند قصّاب، أخذوه إلى منزله ولفوه في قماش بارد مبتل وأعطوه بعض المهدئات، ومنعوه من الخروج، وصلوا من أجله، وعندما لم يبرأ وضعوه في البيمارستان.

يقع منزل "ألميدا روث" على ناصية شارع"دوفرين"، وهو شارع معروف-محترم. في هذا الشارع تقع بيوت التجار وبيت صاحب الطاحونة وبيت صاحب مصنع الملح. وأما شارع "بيرل" الذي تشرف عليه نوافذ بيتها وأبوابه الخلفية فحكاية أخرى. هناك تجاورها بيوت العمال، صف طويل من البيوت الصغيرة ولكن المحترمة. إلى الآن والأمور مقبولة. ولكن الأمور تسوء عند نهاية ذلك الصف من البيوت المتلاصقة، وتزداد سوءاً في الصف الثاني. لا يسكن هناك غير الفقراء وسيئي السمعة. كانوا يعيشون هناك على حافة مستنقع يسمى مستنقع شارع"بيرل، "تم ردمه في ذلك الوقت. هناك تنمو الأشجار الكثيفة والنباتات الضارة، وهناك أقيمت الأكواخ المؤقتة. هناك أيضاً تجد أكوام القمامة والأنقاض وأعداداً غفيرة من أطفال أشبه بالأقزام. هناك يدلق الناس الماء القذر أمام البيوت. أجبرت البلدية الناس على بناء المراحيض، ولكنهم ما لبثوا أن ذهبوا لقضاء حاجاتهم في الأدغال القريبة. فئات من الصبية يذهبون إلى هناك

www.ibtesama.com

بحثًا عن مغامرة ويعودون بأكثر مما كانوا يرجون. ويقال إنه حتى مدير شرطة المدينة لم يكن يجرؤ على النزول إلى شارع بيرل فى ليلة الأحد. لم يحدث أن مشت ألميدا أمام تلك البيوت. فى أحد هذه البيوت تعيش الفتاة الشابة آنى التى تساعد ألميدا فى تنظيف المنزل. هذه الفتاة الصغيرة نفسها لم يحدث أن ذهبت إلى المستنقع. فالسيدة المهذبة لا يجب أن تذهب إلى هناك.

ولكن هذا المستنقع، وهو يقع إلى الشرق من منزل "ألميدا روث"، يعد منظرًا جميلاً وقت الفجر. تنام "ألميدا" فى الجهة الخلفية من البيت. لم تبرح حجرة نومها القديمة التى كانت تشارك فيها أختها كاثرين. لا تفكر فى الانتقال إلى حجرة النوم الأمامية الأوسع، حيث كانت أمها تنام طيلة اليوم، وأصبحت فيما بعد مختلى أبيها حتى وفاته. من خلال إحدى نوافذها كانت ترى الشمس مشرقة تغمر ضباب المستنقع الخفيف بالضياء الكثيف، وتتأمل الشجيرات القريبة تطفو أمام الضباب والأشجار الخلفية وهى ترتد شفافة بيضاء. أشجار البلوط فى المستنقع وأشجار الجميز والطمراق والجوز المر.

III

هنا حيث يلقى النهر البحر الداخل،
تنشر تنورتها الزرقاء من الخشب المهيب،
أفكر فى الطير والحيوان والذين ووروا التراب،
أطلالهم على الرمال الشاحبة لم تزل قائمة.

أحد الغرباء الذين وصلوا إلى محطة السكة الحديد منذ بضع سنوات كان "جارفيز بولتر" الذى يشغل المنزل المجاور لمنزل "ألميدا

www.ibtesama.com

روث" – يفصله عنه قطعة أرض فضاء تطل على شارع "دوفرين"، اشتراها "جارفيز" فيما بعد. كان البيت أقل زخرفة من منزل روث، لا تحيط به أشجار الفاكهة أو الزهور. وذلك، كما كان الظن؛ لأن "بولتر" كان عزبًا ماتت عنه زوجته ويعيش بمفرده. في وسعه أن يحفظ بيته نظيفًا ولكنه لا يهتم بزخرفته خاصة إذا كان هو نفسه حسن الهيئة متأنقًا في ملبسه. ولكن الزواج من شأنه أن يحمله على العناية بزخرفة البيتوبالجانب العاطفي من حياته كذلك، ويحميه أيضًا من شطط الغريزة ومن البخل والكسل والفساد والنوم الزائد وإدمان الشراب والتدخين وحتى من التجديف في الدين.

في الشأن الاقتصادي، يُظن أن وجيهًا جليلاً من مدينتنا يواظب على أخذ المياه من حنفية المدينة العامة، ثم يكمل مؤونته من الوقود بجمع الفحم السائب من فوق خط السكة الحديد. ترى هل ينوي دفع حق البلدية وهيئة السكة الحديد بكميات مجانية من الملح؟

كتبت ذلك "الفيديت، "جريًا على عادتها في الدعابة الحذرة والتعريض المستتر، أو حتى الاتهام الصريح، وعلى نحو لا تستطيعه جرائد اليوم دون الإفلات من عقوبة. إنهم يتعرضون لـ "جارفيز بولتر" بطبيعة الحال، بيد أنهم يكتبون عنه في مواضع أخرى باحترام شديد بوصفه محاميًا مدنيًّا، وصاحب عمل، وعضوًا في مجلس الكنيسة، وبوصفه رجلاً كتومًا غريب الأطوار إلى حد ما. لعل ذلك بسبب حالة العزوبة التي يعيشها، فقد ماتت عنه زوجته ويعيش وحيدًا الآن؛ حتى جلبه الماء من حنفية البلدة العامة وملء جواله بالفحم السائب على قضبان السكة الحديد كان بسبب وحدته. ولكنه

www.ibtesama.com

مواطن مهذب ثرى متقدم البطن قليلا يرتدى بذلة غامقة وحذاءً نظيفًا، تزين وجهه لحية غزيرة، ويشيع برأسه شعر أسود يشوبه خط أشيب نحيل وثؤلول شاحب ظاهر فى الشعر الكث وسط أحد حاجبيه. متجهم الوجه واثق النفس. يتحدث الناس عن زوجة شابة حسناء ماتت فى أثناء ولادة طفلها، أو بسبب حادثة مأساوية كاندلاع حريق فى المنزل، أو حادثة قطار. ولا يوجد دليل على ذلك كله، إلا أنه كان سببا فى إثارة محببة. كل ما قاله إن زوجته متوفاة.

جاء إلى هذا المكان بحثا عن البترول. لقد تم حفر أول بئر بترول فى العالم فى مقاطعة لامبتون، جنوب هذه المدينة فى خمسينيات القرن التاسع عشر. وأثناء الحفر اكتشف "جارفيز بولتر" الملح وراح يعمل بجد ليستفيد أقصى درجات الاستفادة. فى إيابه من الكنيسة مع "ألميدا روث" كان يحكى لها عن آبار الملح التى يمتلكها. يقول إنها على مسافة اثنى عشر قدمًا تحت الأرض. "نقوم بضخ الماء الساخن إلى الملح كى يذوب، ثم نرفع المحلول الملحى إلى السطح ونصبه فى أوعية ضخمة على أجهزة تبخير مثبتة على نيران هادئة حتى يتبخر الماء ويترسب الملح الصافى النقى. إنها سلعة لا يستغنى عنها أحد.

"ملح الأرض"تقول ألميدا.

"نعم"يقول جارفيز وهو يقطب جبينه. قد يظن أنها تحط من قدره، ولكنها لا تقصد ذلك البتة. يحكى لها أيضًا عن المنافسين فى مدن أخرى من الذين حذوا حذوه، ويسعون إلى احتكار السوق. ولحسن

www.ibtesama.com

الحظ فإن آبارهم لم تحفر بالعمق المطلوب، وحتى أجهزة التبخير لديهم لا تعمل بالطريقة الفاعلة. الأرض تحتضن الكثير من الملح فى باطنها، ولكن ليس من السهل استخراجه كما يظن بعض الناس.

تقول ألميدا: "ألا يعنى أنه كان ثمة بحرٌ هائل فى باطن الأرض؟"

ويقول جارفيز: "جائز جداً، جائز جداً. "وراح يحكى لها عن مشاريعه الأخرى: مصنع طوب وفرن لحرق الحجر، ويشرح لها كيف أن هذه المشاريع تدر أرباحا طائلة، وأين يوجد الطين الجيد. "جارفيز" يمتلك مزرعتين بهما مساحات من الأشجار الخشبية التى توفر الوقود لهذه المشاريع.

من بين الذين يتمشون قادمين من الكنيسة صباح أيام الآحاد المشمسة، رصدنا ثنائيًا: وجيهًا (ملحيًا) وسيدةً (أديبة) ، ربما تجاوزا سن الشباب الأول ودلفا الآن إلى مرحلة الكهولة. فهل لنا أن نحدس؟

مثل هذه القفشات تظهر فى جريدة "الفيديت" المحلية فى كل الأوقات.

هل يحدسون؟ وهل ينطوى مسلك "جارفيز" على تودد إلى السيدة؟

"ألميدا روث" تمتلك مبلغًا قليلاً من المال ورثته عن أبيها، ولديها بيتها. ليست بالطاعنة فى السن، وفى وسعها أن تنجب طفلا أو طفلين. وهى ربة بيت جيدة، ولها غرام بعمل الحلوى الجليدية، والتورتة المزخرفة. وهو غرام نشهده غالبًا عند الآنسات ذوات الخبرة. جمالها لا تشوبه شائبة، وهيئتها حسنة لا تتوافر للكثيرات

www.ibtesama.com

ممن فى سنها من المتزوجات. فلم يرهق كاهلها تربية أولاد أو عناية بزوج. ولكن لماذا تجاهلت يفاعتها الأولى وضربت صفحًا عن الزواج فى بلد يستغرب فيه الناس امرأة دون شريك وأولاد. كانت فتاة تميل إليالتشاؤم. ربما كانت هذه هى المشكلة:موت أخيها وأختها ثم أمها التى فقدت عقلها قبل عام من وفاتها، وكانت تنام على سريرها وتهذى بما لا تعرف. كل ذلك كان ثقيل الوطأة على نفسها، وتركها شخصًا صعب العشرة. وهل كان غرامها بالقراءة وقرض الشهر إلا دليلاً على حاجتها وهى شابة، وليس عندما اكتهلت، إلى شىء تملأ به فراغها وتؤنس به وحدتها؟لقد مضت خمس سنوات على نشر كتابها. وربما شجعها أبوها المتفاخر المولع بالكتب.

يعتقد الناس أن "ألميدا روث" تفكر فى "جارفيز بولتر" بعلالها، وأنها ستوافق إذا طلب يدها. هى تفكر فيه بالفعل. ولكنها لا تريد أن تشتط فى الآمال وتخدع نفسها. كانت تنتظر إشارة منه. فلو كان يذهب إلى الكنيسة فى ليالى الآحاد لكانت فرصة لمرافقته هذه المسافة إلى البيت فى جنح الظلام. يحمل هو الفانوس (لم تكن الشوارع مضاءة فى ذلك الوقت) ليضىء الطريق عند أقدام الآنسة، ويلقى نظرة على قدميها الهزيلتين الرقيقتين. وقد يمسك يدها ليعينها على عبور المعدية الخشبية. ولكنه لم يكن يذهب إلى الكنيسة ليلاً. ولم يكن يعرج عليها أو يصحبها إلى الكنيسة صباح الآحاد. فمن شأن ذلك أن يكون إعلانًا. قد يسير معها وهى فى طريقها إلى البيت وعندما تصل إلى باب بيتها يرفع قبعته وينكفئ راجعًا. لا تدعوه للدخول، فسيدة تعيش وحدها لا يمكنها أن تفعل ذلك. فما يخلو رجل

www.ibtesama.com

بامرأة، من أى سن، داخل جدران أربعة حتى يحدث المحظور: الاهتياج الفورى والهجوم العاطفى والشهوة الحيوانية والزنا وانتصار الحواس. ترى ما هى الشواهد التى يراها الرجال والنساء كلٌ فى الآخر حتى يخشوا هذه المخاطر؟

عندما تمشى بجواره كانت تشم رائحة صابون الحلاقة والزيت الذى استخدمه الحلاق، ودخان غليونه ورائحة الصوف والكتان والجلد فى ملابسه الرجالية. الملابس المضبوطة المرتبة. كانت ملابسه ثقيلة أشبه بملابس أبيها التى كانت تنظفها بالفرشاة والنشادر. تاقت إلى مهنة الأمومة، وإلى تقدير الأب وسلطته الغامضة الحنون. إن ثياب "جارفيز بولتر، "ورائحته وحركته تجعل الجانب المجاور له من جسدها يستشعر وخز الأمل، ويسبب لها رعشة تسرى فى جسدها، وتستثير الشعيرات الخفيفة على ذراعيها. هل هو الحب؟ إنها تحلم به داخلاً حجرة نومها (أو حجرة نومهما) فى ملابسه الداخلية الطويلة وقبعته. إنها تعلم أن هذه الملابس مثيرة للسخرية. ولكنها فى الخيال لا تبدو كذلك، ويكون لديه جرأة رجل فى الحلم. يدخل حجرتها ويرقد على الفراش بجوارها ويهم بأخذها بين ذراعيه. يخلع قبعته بثقة، و تأخذها فى تلك اللحظة نوبة من الإذعان له والتوق الغامر، و يصبح زوجها.

شىء واحد لاحظته على النسوة المتزوجات: كيف أن الكثيرات منهن يعمدن لرسم صورة ما لأزواجهن. يبدأن بأن ينسبن إليهم الأشياء المفضلة لديهم ثم الآراء والأساليب السلطوية. تقول الواحدة منهن مثلا: نعم ، زوجى أنيق جداً ويدقق فى كل شىء، لا يلمس

www.ibtesama.com

اللفت ولا يحب اللحم المقلى (أو يحب اللحم المقلى)، يحبنى أن أرتدى الأحمر (أو اللبنى) طوال الوقت. لا يطيق صوت الأرغن، ولا يحب أن يرى امرأة عارية الرأس. يقتلنى لو رآنى آخذ نفسًا من سيجارة. بهذه الطريقة يتحول الرجال ضعاف الشخصية إلى أزواج، أصحاب بيوت. لا تتخيل "ألميدا روث" نفسها تفعل ذلك؛ تريد رجلاً لا يحتاج إلى من يصنعه من جديد، واثق من نفسه وصاحب رأى ومكتنف بالأسرار. إنها لا تبحث عن مجرد رفيق:الرجال فى رأيها - فيما عدا أباها - مفتقرون إلى الحياة، غافلون. وترى أن هذه صفات لابد منها فى الرجال حتى يفعلوا ما يجب أن يفعلوا. فهل كانت - لو عرفت أن الأرض تختزن الملح فى باطنها - تسعى إلى استخراجه وبيعه؟أبداً. كانت ستفكر فى البحر القديم. وهو نوع من التأمل لا يجد "جارفيز بولتر" وقتًا له بأى حال.

بدلاً من المرور عليها فى بيتها واصطحابها إلى الكنيسة، قد يأتى جارفيز بولتر بمغامرة أوقع. يستأجر حصانًا ويأخذها خلفه فى نزهة ريفية. عندئذ ستكون سعيدة وحزينة فى الوقت نفسه. سعيدة لأنها بجواره، يأخذ بزمامها، وتلقى هذا الاهتمام منه أمام الناس جميعًا. وحزينة لأن الريف انتقل إليها، وصفه لها بحديثه واهتمامه. الريف الذى صورته فى قصائدها لا تريده أن يصدر من رؤيته ووصفه. بعض الأشياء تصرف عنها النظر:أكوام السماد ومساحات المستنقعات المليئة بجذوع الأشجار المحروقة، والأكوام الضخمة من الأغصان المقطوعة فى انتظار اليوم المناسب لإحراقها. النهيرات المتعرجة التى تم تقويمها وتحولت إلى قنوات صغيرة للرى بضفاف

www.ibtesama.com

موحلة كئيبة. وأخرى ضربت حولها السياج ذات القضبان المتشابكة. الأشجار أعيد غرسها فى المساحات المخصصة لزراعة الخشب، وأشجار الغابة كلها قصيرة جديدة. ولا يوجد على جوانب الطرق أو الحارات أو حول المزارع شىء خلا القليل من الغرس الحديث كثير الأغصان غض الأوراق. توجد أعداد كبيرة من مخازن الخشب - مخازن الخشب الكبرى التى ستغمر الريف خلال مائة السنة التالية كانت فى بداية الإنشاء. ومخازن الخشب ذات المنظر المزعج. وكل أربعة أو خمسة أميال توجد قرية صغيرة بها كنيسة ومدرسة ومتجر ومحل حدادة. ريف صرف منبت الصلة عن الغابة ولكنه عامر بالناس. كل مائة فدان مزرعة، وكل مزرعة بها أسرة، وكل أسرة بها عشرة أطفال أو اثنا عشر طفلاً. ذلك هو الريف الذى سيرسل بموجة بعد موجة من المستوطنين إلى المدينة، وبدأ يرسلهم فعلا إلى "أونتيريو" الشمالية والغرب. والحق أنك تستطيع أن تجمع الزهور البرية فى الربيع من مساحات الأشجار الخشبية، ولكن عليك أن تسير بين قطعان من الأبقار ذوات قرون طويلة لكى تصل إليها.

IV

لقد رحل الغجر.
أرض خيامهم أصبحت خاوية.
فهل لى أن أساوم بجرأة الآن
فى سوق الغجر؟

تعانى "ألميدا روث" كثيراً من السهاد. وصف لها الطبيب دواء "البروميد" وعلاجًا للأعصاب. ولكن قطرات "البروميد" توقظ أحلامها

www.ibtesama.com

المزدحمة بالصور المزعجة. لذا ادخرت الزجاجة للطوارئ. قالت للطبيب إنها تحس بمقلتيها صلبتين كزجاج ساخن، وتحس بألم فى مفاصلها. قال لها:قللى من القراءة والدرس، علاجك هو الانغماس فى أعمال المنزل وممارسة بعض التمرينات الرياضية. إنه يعتقد أن مشاكلها ستزول إذا تزوجت. يعتقد ذلك رغم أن جل وصفاته لعلاج الأعصاب تذهب للمتزوجات. ولذا فإن ألميدا تعتنى ببيتها ، وتساعد فى نظافة الكنيسة، وتمد يد العون لصديقاتها اللاتى يغطين جدران منازلهن بأوراق الحائط أو يستعددن للزواج، وتعد إحدى كعكاتها المشهورة لأطفال المدرسة فى نزهة الأحد. وفى يوم سبت حار من أيام أغسطس تقرر عمل حلوى العنب؛ عدة قوارير صغيرة من حلوى العنب تنفع هدايا قيمة فى عيد الميلاد، أو حتى إعانات للمرضى. ولكنها بدأت فى وقت متأخر من النهار، والحلوى لا تنضج إذا حل الظلام. وضعت العصير الساخن فى كيس قماش الجبن لتصفيته. وتناولت ألميدا كوبًا من الشاى مع شريحة من الكعك بالزبد الذى كانت تحبه منذ الطفولة، وهو كل طعامها للعشاء. ثم تأخذ حمامًا سريعًا استعدادًا ليوم الأحد. تلف ملاءة حول خصرها وتترك النافذة مفتوحة وترقد على السرير دون أن تشعل المصباح. وتحس بتعب شديد، وتحس بنسيم خفيف يداعب الحجرة، وتستشعر شجارًا خفيفًا.

ولم تلبث أن تستيقظ. وعندما تستيقظ تشعر بالليل متقدا بالحر منذرا بالخطر، وترقد من جديد وجسدها ينز عرقًا، تحس أن الصخب الذى تسمعه يعمل فى جسدها عمل السكاكين والمناشير

www.ibtesama.com

والفؤوس، كل تلك الأدوات تقطع وتنشر وتثقب فى رأسها. ولكن الأمر لم يكن كذلك، وعندما تكتمل يقظتها تبدأ فى التعرف على مصدر تلك الأصوات التى سمعتها، أو التى كانت تسمعها، أصوات الشجار فى ليالى الأحد الصيفية فى شارع "بيرل". عادة ما يصدر الصخب من قتال حقيقى بين السكارى. تسمع احتجاجًا وصياحًا. تسمع من يهتف: جريمة قتل! جريمة قتل!حدثت جريمة قتل ذات يوم. ولكنها لم تكن نتيجة شجار. عثر على جثة عجوز فى بيته قضى طعنًا، ربما كان السبب بضعة دولارات كان يخفيها تحت المرتبة.

وتنهض من فراشها وتذهب إلى المطبخ. كانت سماء الليل صافية غاب عنها القمر وسطعت النجوم. بيغاسوس(٢) فيطل برأسه على المستنقع. علمها أبوها كيف تحصى النجوم فى تلك المجموعة. وبشكل تلقائى راحت تحصيها، تستطيع أذناها الآن أن تميز بعض الأصوات:إضافات جديدة إلى المشاجرة. بعض الناس - مثلها- استيقظ من نومه. تسمع من يصرخ:"اخرس! كفوا عن هذا الشجار وإلا نزلت وأشبعتكم ضربا على مؤخراتكم يا أولاد الـ... . ".

ولكن أحداً لم يتوقف. وكأن كرة من النار تتدحرج فى شارع "بيرل" تقذف الشرر فى طريقها، النار هى الجلبة والصراخ والضحك والسباب، والشرر هو الأصوات التى تنطلق نشازًا وحيدة. صوتان يتميزان عن باقى الأصوات حتى الآن ويصدران صياحًا أشبه بالنباح، وينخفض شيئًا فشيئًا ويتحول إلى ارتعاش متواصل، ثم تيار من السباب يحمل كل الألفاظ التى تربط ألميدا بينها وبين الخطر والحرمان والرائحة الكريهة والمناظر المقززة. شخص ما ينهالون عليه

www.ibtesama.com

ضربًا ويصيح: "اقتلوني! اقتلوني الآن!" إنهم يضربون امرأة وهي تصرخ: "اقتلني! اقتلني!" ويظهر جانب من فمها مترعا بالدم رغم ما في صوتها من نبرة استخفاف وانتصار. شيء من التصنع في صوتها. الناس حولهم ينادون: "كفى! كفى!" ومنهم من يصيح: "اقتلها! اقتلها!" يصيحون في جنون وكأنهم على خشبة مسرح، أو يشاهدون مباراة مصارعة أو ملاكمة محترفين. أجل، تقول ألميدا في سرها، رأيت ذلك من قبل. لعلها تمثيلية، أو لون كئيب من محاكاة ساخرة مبالغ فيها. وكأن ما يفعله هؤلاء القوم، حتى جرائم القتل، لا يؤمنون به، ولا يطيقون وقفه في الوقت نفسه.

الآن تسمع صوت شيء يُلقى على الأرض ، مقعد أو لوح خشبي أو صوت كومة من الخشب أو جزء من سور ينهار، وكم آخر من الأصوات مباغتة جديدة. صوت جريء، أناس يفرون من الطريق، أصبح الهرج قاب قوسين أو أدنى. هذه هي المرأة، كانت تمسك بشيء مثل عصا خشبية أو لوح من الخشب، وتديرها وتدفعها نحو شخص آخر لامرئي يجري خلفها. وتهتف الأصوات: "آه، أسرع، الحق بها! الحق بها واضربها يا رجل!" أناس يقعون على الأرض الآن، شخص يمسك بتلابيب الآخر، ثم يتباعدان ويسقطان على سور منزل ألميدا. يصبح الصوت الذي يأتي منها غامضًا مشوشًا كأنه يصدر من فم مكعوم، ثم صوت تقيؤ ونخير وضرب شديد، يتبع ذلك صوت طويل مرتجف مذبذب، صوت ألم مخنوق ونفس مذلولة أو روح مغادرة.

تركت ألميدا النافذة وجلست على سريرها، تقدح زناد فكرها. أليست هذه الأصوات التي سمعتها جريمة قتل؟ ماذا يجري؟ ماذا

www.ibtesama.com

يجب أن تفعل؟ يجب أن تشعل مصباحًا. يجب أن تترك الدرج وتشعل مصباحًا، لابد أن تخرج إلى الفناء، الفانوس، تلقى بجسدها على الفراش، تضع وسادة على وجهها، فى لحظات. الدرج. المصباح. ترى نفسها هناك، فى الصالة الخلفية. تحكم رتاج الباب الخلفى، تصبح فريسة لنوم لا يقاوم.

وتستيقظ مروعة مع أول أضواء الصباح. ترى غرابًا كبيرًا يجثم على عتبة نافذتها يتحدث فى نبرة مستنكرة وبطريقة غير مستغربة، عن أحداث الليلة المنصرمة. يقول لـهامؤنبًا: "استيقظى وحركى عربة اليد. "وتفهم أنه يقصد شيئًا آخر بعربة اليد. شيئا بغيضًا مجلبة لكرب عظيم. وتستيقظ بالفعل، وتعلم أنه لا وجود للطائر. وتنهض على الفور، وتنظر من النافذة، وتلاحظ شيئًا يستند إلى سور بيتها. شخصًا ضخمًا. . جثة.

عربة يد

وتضع مئزرها فوق قميص النوم وتنزل الدرج، كانت الحجرات الأمامية لم تزل مظلمة، والستارة مسدلة فى المطبخ. شىء ما يتحرك محدثًا صوتًا كصوت شىء يغوص فى الماء على مهل، يذكرها بحديث الغراب؛ إنه عصير العنب يصفُى أثناء الليل. تسحب المزلاج ، وتخرج من الباب الخلفى. العناكب نسجت شباكها على المداخل فى جنح الظلام، الزهور تخفض رؤوسها مثقلة بالندى، وبجوار السور تغرق فى زهور الخطمى المتشابكة وتنظر تحت رجليها وترى.

جثة امرأة مكومة هناك، نائمة على جنبها ووجهها منكفئ على الأرض. لا تستطيع ألميدا أن ترى وجهها، ولكن هناك ثديين عاريين

www.ibtesama.com

متدليين، وحلمة سمراء مشدودة مثل حلمة بقرة، وساقًا عارية وردفًا به أثر كدمة فى حجم قرص دوار الشمس. أما الجلد الذى خلا من آثار الكدمات فلونه ضارب إلى الرمادى، أشبه بلون نقارة الطبل. ترتدى ثياب نوم، أو ثيابًا لكل الأغراض و تفوح منها رائحة قىء وبول وشراب.

وتعدو ألميدا فى قميص نومها ومئزرها الرقيق. تجتاز الفيراندا وأشجار التفاح، وتفتح الباب الأمامى وتسرع خلال شارع "دوفرين" إلى منزل "جارفيز بولتر"، أقرب المنازل إليها. تضرب الباب بكف يدها عدة مرات.

وعندما يظهر "جارفيز" فى النهاية تقول له: "جثة سيدة".

كان فى بنطاله الداكن المشدود بحمالتين، وقميصه المزرر نصفه ووجهه غير الحليق وشعره المنكوش.

– سيد بولتر، سامحنى. هناك جثة سيدة أمام بوابتى الخلفية.

ويحدجها بنظرة عنيفة وهو يقول:

– ميتة؟

أنفاسه رطبة، وجهه متجعد، عيناه محتقنتان بالدم، وتجيب ألميدا:

– نعم، أظن أنها ماتت مقتولة.

تلمح جزءًا من الصالة الأمامية الكئيبة، قبعته معلقة على مقعد، ثم تضيف وهى تجتهد لتجعل صوتها خفيضا مفهوما:

– استيقظت فى الليل على أصوات لغط وجلبة فى شارع بيرل، سمعت اثنين: رجلا وسيدة يتشاجران.

www.ibtesama.com

ويلتقط قبعته ويضعها على رأسه، ويغلق الباب الأمامى، ويضع المفتاح فى جيبه، ويسيران على الممشى الخشبى وتلاحظ أنها حافية القدمين، وينتابها إحساس بأن هناك من سيلقي عليها ببعض المسؤولية. كان يمكن أن تخرج بفانوس. كان يمكن أن تصرخ، ولكن من كان فى حاجة إلى مزيد من الصراخ؟كان يمكن أن تضرب الرجل على رأسه. كان يمكن أن تسرع فى طلب النجدة، ساعتها وليس الآن. ويتجهان إلى شارع "بيرل" بدلاً من دخول فناء "روث". كانت الجثة بطبيعة الحال منكفئة على وجهها شبه عارية كما رأتها فى البداية.

"جارفيز بولتر" لا يسرع ولا يتردد، يتجه إلى الجثة مباشرة. ويمعن فيها النظر، ويمس الساق بمقدم حذائه مثلما تمس كلبًا أو خنزيراً. يكزها مرة أخرى وهو ينادى فى جرأة ودون أن يرفع صوته: أنتِ.

وألميدا تحس بطعم الصفراء فى أسفل حلقها.

"حية!" يقول جارفيز بولتر، وتؤكد المرأة استنتاجه، إنها تتحرك حركة خفيفة، ويصدر منها شخير واهن.

تقول ألميدا: سأحضر الطبيب، ولو أنها لمست المرأة، لو أنها وجدت الجرأة على لمسها، لما قالت ذلك.

قال جارفيز بولتر :انتظرى، لنرى إذا ما كان يمكن أن تنهض.

وهتف بالمرأة: قومى الآن، هلمى! انهضى الآن!

ويحدث شىء مذهل، الجثة تقوم على أربع. ترفع الرأس أولا، الشعر كله ملطخ بالدم والقىء، وتبدأ المرأة فى ضرب رأسها بعنف

www.ibtesama.com

على أوتاد سور ألميدا، ويخرج صوتها أثناء ذلك، ويصدر منها صراخ ملء الفم مثل العواء، صراخ قوى يشى بشىء من بهجة مكروبة.

ويقول جارفيز بولتر: "أبعد ما تكون عن الموت، لا تحتاج حتى لطبيب".

وتقول ألميدا حين رفعت المرأة رأسها الملطخ:

– يوجد دم!

ويقول:

– الدم من فمها وليس جديداً.

ويقترب منها ويمسك شعرها البشع الغريب، ويجذبها بقوة ليمنعها من ضرب نفسها فى الجدار وهو يقول :

– كفى عن هذا الآن، كفى. اذهبى لبيتك. اذهبى لبيتك الآن! من أين أنت؟

ويتوقف الصوت القادم من فم المرأة، ويهز رأسها برفق محذراً إياها قبل أن يترك شعرها:

– اذهبى إلى بيتك الآن!

وبعد أن يتركها تندفع المرأة إلى الأمام بشدة، وتنهض على قدميها، وتشير وتترنحوتتعثر فى مشيها فى الشارع، وتصدر منها أصوات احتجاج متقطعة حذرة. ويتبعها "جارفيز بولتر" بنظراته برهةليتأكد من أنها فى طريقها إلى بيتها، ثم يجد ورقة أرقطيون يمسح بها يده ويقول:

– ها هى جثتك تسير على قدمين!

www.ibtesama.com

كان الباب الخلفى مغلقًا، اتجه إلى الباب الأمامى الذى يظل مفتوحًا. ما زالت ألميدا تحس بالتعب، بطنها منتفخ وحرارتها مرتفعة وتحس بدوخة.

تقول بصوت ضعيف:

– الباب الأمامى مغلق، لقد خرجت من المطبخ.

لو تركها الآن لشأنها لذهبت إلى الحمام مباشرة. ولكنه يتبعها حتى الباب الخلفى والصالة. يتحدث إليها بلهجة قاسية لم تعرفها منه من قبل. يقول:

– لم يكن هناك داعلكل هذا القلق، هذه المرأة كانت ثملة، سيدقبنت ناس لا ينبغى أن تعيش بمفردها وسط جيران كهؤلاء.

ويمسك بذراعها فوق المرفق بقليل، ولا تستطيع أن تفتح فمها لتكلمه، لتشكره، فلو فتحت فمها لتقيأت.

ما يشعر به جارفيز بولتر نحو "ألميدا" فى تلك اللحظة هو ما لم يشعر به فى السابق خلال التمشيات الحذرة، وخلال جميع حساباته فى عزلته. قيمتها التى لا خلاف عليها، وجدارتها بالاحترام لا شك فيها، وجمالها مقبول. لم يتخيلها زوجة من قبل كما يتخيلها الآن. أثاره شعرها المرسل الذى شاب قبل الأوان، ولكنه كثيف ناعم على أية حال، وجهها مخضب بحمرة خجل غامضة. ثيابها الخفيفة التى لم يكن ينبغى أن يراها بها أحد غير زوجها. طيشها وتسرعها وطيبتها... وحاجتها؟ يقول لها:

– سأزورك فيما بعد، سأذهب معك إلى الكنيسة.

عند ملتقى شارع "بيرل" بـ "دوفرين" صباح الأحد الفائت عثرت

www.ibtesama.com

سيدة من سكان الحى على جثة امرأة من قاطنى شارع بيرل ظنت أنها ميتة. ولم تكن، كما تبين فيما بعد، إلا ثملة. ولم تستيقظ من نعيمها - أو قل سباتها - إلا بجهد السيد "بولتر" الحثيث وهو من قاطنى الشارع، ومحام مدنى معروف كانت السيدة قد استدعته. ذلك النوع من الحوادث غير اللائق والمزعج والشائن لمدينتنا أصبح فى الآونة الأخيرة كثير الوقوع.

V

أجلس فى أعماق النوم،
وكأنى فى قعر البحر،
وأناس من سكان القاع،
تحيينى بكرم زائد.

وما ذهب "جارفيز بولتر" وسمعت باب بيتها الأمامى يُوصد حتى هرعت "أَلميدا" إلى الحمام. ولكنها لم ترتح تماماً. وتدرك أن تراكم دم الحيض الذى لم يبدأ فى التدفق هو السبب فى انتفاخ بطنها والألم الذى تحس به. وتغلق الباب الخلفى بالقفل، ثم، وهى تتذكر كلمات "جارفيز بولتر" عن الذهاب إلى الكنيسة، تترك له ورقة كتبت عليها:لست على ما يرام ، وأرغب فى الراحة اليوم. وتثبت الورقة فى الإطار الخارجى للنافذة الصغيرة للباب الأمامى. وتغلق الباب بالقفل أيضًا. إنها ترتعش وكأنها تعانى من صدمة عصبية أو خطر داهم. ولكنها تشعل النار لتصنع لنفسها كوبا من الشاى. تغلى الماء وتضع أوراق الشاى فى الإبريق الكبير. بخار الشاى ورائحته يزيدان مرضها. وتصب كوبًا من الشاى الباهت لتشربه دون أن ترفع ستارة

www.ibtesama.com

المطبخ. هناك على الأرض كان كيس الجبن ما زال معلقًا بين ظهرى المقعدين. وعصير العنب قد صبغ القماش المنتفخ بلون الورد الداكن، ألقت به فى الحوض. لا تستطيع أن تجلس وتنتظر شيئًا كهذا. وتشرب كأسها، وتضع البراد وزجاجة الدواء فى حجرة السفرة.

ولم تزل هناك حتى سمعت وقع حوافر الخيل الذاهبة إلى الكنيسة مثيرة سحابات من التراب تسخن تراب الطريق فيصبح مثل تراب البراكين. وهى فى الفيراندا يتناهى إلى مسمعيها صوت الباب يُفتح ووقع خطوات واثقة لرجل. كأنها تسمع الورقة وهو ينزعها من النافذة ، ويفردها ويقرؤها. وكأنها تسمع رنين الكلمات فى عقله، ثم تأخذ الخطوات طريقا آخر. ينزل الدرج ويغلق الباب، تقفز إلى ذهنها صورة الضريح. تجعلها تضحك. أضرحة تسير فى الشارع بأقدام تنتعل الأحذية، وأجساد طويلة تميل إلى الأمام. على سحنهم القاسية علامات استغراق، أجراس الكنيسة تقرع.

الساعة فى الصالة تدق معلنة الثانية عشرة، مضت ساعة، المنزل يتق دبالحر. تشرب كوبًا آخر من الشاى تضيف إليه قطرات من الدواء. تعرف أن الدواء يؤثر على قوتها؛ إنه المسؤول عن كسلها الغريب، ولكنه ضرورى.

أشياؤها التى تحيط بها، فى حجرة المائدة فقط، جدران مغطاة بورق حائط أخضر غامق مزين بأكاليل الزهور، ستائر منقوشة بخطوط ملونة، ومائدة عليها مفرش من الكروشيه، وسلطانية تمتلئ بالفاكهة الشمعية، وسجادة رمادية ضاربة إلى اللون القرمزى عليها نقوش باقات من زهور زرقاء وقرنفلية غامقة، وخوان مبسوط عليه

www.ibtesama.com

أغطية مزخرفة وأطباق وأباريق، وأكواب شاى عليها زخارف شتى، أشياء كثيرة تراها. كل هذه الزخارف تبدو زاخرة بالحياة، على أهبة التحرك والتدفق والتغير، أو ربما الانفجار. كل شغل "ألميدا" الشاغل طوال اليوم هو أن تتأمل هذه الزخارف، لا لكى تمنع تغيرها بقدر ما كانت ترصده وتفهمه وتكون جزءا منه، لا تحرك شيئا مما فى هذه الحجرة .

وبالطبع لا طاقة لـ "ألميدا" على الهرب من الكلمات. ربما تظن أنها تستطيع أحيانًا، ولكن هذا لا يحدث. ذلك التوقد لا يلبث أن يدفع بالكلمات فى ذهنها للخروج. قصائد. أجل، مرة أخرى قصائد تتضاءل أمامها جميع القصائد التى كتبتها فى السابق. تصبح مجرد محاولة وخطأ، أسماءً بالية. النجوم والطيور والأشجار والملائكة على الثلج والأطفال الذين ماتوا فى الغسق. كل هذا لا داعى لوصفه مرة أخرى. عليك الآن بالصخب الفاحش فى شارع بيرل، ومقدم الحذاء اللامع الذى يرتديه "جارفيز بولتر"، وردف المرأة الأملس بالكدمات عليه أشبه بزهور زرقاء غامقة. "ألميدا" الآن على مبعدة من العواطف الإنسانية أو المخاوف أو اعتبارات الأسرة الحميمة. لا تفكر فيما يمكن عمله لتلك المرأة، أو فى حفظ عشاء "جارفيز بولتر" ساخنًا، أو نشر ملابسه على حبل الغسيل. فاض عصير العنب وجرى على أرض المطبخ يلطخ الألواح الخشبية ببقع لن تزول.

عليها أن تفكر فى عدة أمور فى وقت واحد. الشرائط المعدنية التى تفصل بين النقوش، الهنود العرايا، والملح فى أعماق الأرض، والمال الذى يجلبه الملح، والسعى لجمع المال الذى تتقنه رؤوس مثل

www.ibtesama.com

رأس جارفيز بولتر، والعواصف القاسية فى الشتاء، والأفعال الخرقاء فى شارع بيرل. وعندما تفكر فى تقلبات الطقس العنيفة فلا سلام حتى بين النجوم. يمكن احتمال كل هذه الأشياء إذا نظمناها فى قصيدة. ونظمناها هى الكلمة المناسبة. لأن القصيدة سيكون عنوانها، أو هو عنوانها فى الواقع: "منستيونغ". اسم القصيدة هو اسم النهر، كلا، إنها النهر نفسه: "المنستيونغ"، ذلك هو اسم القصيدة، بكل حفره العميقة وأحواضه الهادئة تحت أشجار الصيف البهيجة وكتل الثلج المطروحة عقب الشتاء، تحدث صريراً أثناء الحركة، وفيضاناته الربيعية الكئيبة. ألميدا تمعن النظر فى قاع نهر عقلها، وعلى مفرش المائدة زهور الكروشيه الطافية، تبدو ناتئة بلهاء، تبعث على الضحك. الورود التى نسجتها أمها يوماً لا تبدو مثل الورود الحقيقية، ولكن الجمال كامن فى الجهد المبذول، واستقلالها الزائف، والرضا بنفوسها البسيطة. علامة مفعمة بالأمل. منستيونغ.

وتلزم "ألميدا" الحجرة حتى الغسق عندما تذهب إلى الحمام وتكتشف أنها تنزف. الدم بدأ يتدفق. تناولت فوطة وشدتها حول بطنها كنطاق. لم يحدث من قبل، أيام صحتها، أن قضت الليل فى ثياب النوم. لا تحس بقلق خاص بسبب ذلك. فى طريقها إلى المطبخ عبر عصير العنب المسكوب. تعرف أنه سيكون عليها أن تزيل البقع. ولكن ليس بعد. ترتقى الدرج إلى الطابق الثانى مخلفة آثار أقدام وردية. تشم رائحة دمها الهارب وعرق جسدها الذى مكث طوال النهار فى الحجرة المغلقة المتقدة.

www.ibtesama.com

لا داعى للقلق.

لأنها لم تظن أن الزهور المنسوجة يمكن أن تطفو بعيدا، وأن شواهد الأضرحة يمكن أن تسير فى الشوارع. لم تحسب أن ذلك كان الحقيقة، وأن أى شىء آخر كان المجاز، وبذلك كانت تعرف سلامة عقلها.

VI

أحلم بكم كلما أقبل الليل،
وأزوركم حين يأتى النهار.
أبى، أمى،
أخى، أختى،
لم لا تجيبون ندائى؟

٢٢ أبريل (١٩٠٣). فى مسكنها يوم الثلاثاء الفائت بين الثالثة والرابعة بعد الظهر رحلت عن دنيانا سيدة ذات موهبة وخلق حسن. أثرى قلمها فى الأيام الخوالى أدبنا الإقليمى بسفر من الشعر البليغ العذب. وإنها لبلية كبيرة أن يصبح عقل هذه السيدة المهذبة موضع ريبة فى السنوات الأخيرة، وسلوكها، نتيجة لذلك مندفعا خارجًا عن المألوف حتى نال من مسلكها وعنايتها بتهذيب شخصها فأصبحت فى نظر الغافلين الذين لا يعرفون قيمتها وأناقتها السابقة، غريبة الأطوار أو موضع سخرية على نحو محزن. ولكن هذه الهنات قد نسيت الآن ولا يذكر لها غير شعرها الممتاز وخدماتها الماضية فى مدرسة الأحد، واهتماماتها الخيرية وعقيدتها الدينية الراسخة. كان مرضها الأخير قصير المدى من رحمة الله. أصيبت بالبرد بعد أن غمرها الماء أثناء جولة فى شارع بيرل. (قيل إن بعض الصبية

www.ibtesama.com

الأشرار طاردوها في المياه، وهذه نتيجة وقاحة وقسوة بعض شبابنا الصغار، واضطهادهم المتعمد لتلك السيدة لدرجة أن السامع لا يمكن أن يكذب الحكاية برمتها) وتطور البرد إلى التهاب في الرئة توفيت على أثره تحت سمع وبصر إحدى جاراتها المسز بيرت "آنيفرايلز" التي شهدت نهايتها الهادئة المحزنة.

يناير (١٩٠٤). أحد مؤسسي مجتمعنا، أحد صناع مدينتنا وباعثي نهضتها، رحل فجأة عن دنيانا صباح الاثنين الفائت بينما كان منكبًا على قراءة بريده في مكتبه بالشركة. السيد "جارفيز بولتر" الذي كان يتمتع بموهبة تجارية قوية ونشاط ملحوظ مما مكنه من إنشاء عدة مشاريع تجارية محلية جلبت فوائد الصناعة والإنتاجية والتوظيف لمدينتنا.

بحثت عن "ألميدا روث" في المقابر، وجدت الضريح الخاص بالأسرة. لم يكن هناك غير اسم واحد مكتوب عليه روث. ثم تنبهت لوجود شاهدين على الأرض، على مسافة بضعة أقدام أو ستة أقدام من الشاهد القائم كتب على أحدهما كلمة "بابا"وعلى الآخر كلمة"ماما". وعلى مبعدة من هذين الشاهدين وجدت شاهدين آخرين على الأرض أيضًا. عليهما أسماء "وليام وكاثرين"، وكان عليَّ أنَ أزيح ما تراكم عليهما من حشائش نامية وقذارة لأرى الاسم الكامل لـ "كاثرين". لا وجود لتواريخ ميلاد أو وفاة. لا وجود لعبارات ثناء أو رثاء. لون فريد من إحياء الذكرى لا يأبه بهذا العالم. لا وجود لورود ولا وجود حتى لعلامات على شجيرات ورود ربما اقتلعت، اقتلعها الحارس لأنه لا يحب هذه الأشياء، أو مصدر ضيق قاطع العشب، لم يجد من يعترضه فاقتلعها.

www.ibtesama.com

اعتقدت أن ألميدا دفنت فى مكان آخر. عندما تم شراء هذه البقعة، عند موت الطفلين، كان يعتقد أنها سوف تعيش وتتزوج وترقد فى النهاية بجوار زوجها. لم يعملوا حسابها فى مكان بينهم، ثم لاحظت أن الشواهد التى كانت ملقاة على الأرض إنما سقطت من الشاهد القائم. شاهدان للأبوين وشاهدان للصبيين، ولكن الشاهدين الآخرين وضعا بطريقة تسمح لثالث بينهما لتكملة المروحة. خطوت من شاهد "كاثرين" عدد الخطوات نفسه حتى أصل من "كاثرين" إلى"وليام". وعند تلك البقعة رحت أجذب العشب وأزيل القذارة بيدى العاريتين. وما مضت برهة حتى أحسست بالشاهد وأدركت أنى كنت على حق. اجتهدت فى الوصول إلى الشاهد كله نظيفًا وقرأت الاسم:"ميدا". كان مع الآخرين يتطلع إلى السماء. تأكدت من وصولى إلى نهايةالحجر. كان ذلك كل ما كتبته من الاسم؛ ميدا. إذن كان اسمها "ميدا" فى الأسرة، وليس فى القصيدة فقط، أو لعلها اختارت اسمها من القصيدة ليكتب على ضريحها.

كنت أظن أن أحدًا لا يعلم ذلك غيرى من بين الأحياء جميعًا، وأن أحدًا لن يستطيع الوصول إلى هذه التسلسل فى الأحداث، ولكن الأمر ليس كذلك؛ فالناس مجبولون على حب المعرفة، أو قل فئة منهم. سيجدون الدوافع دائما لاكتشاف الأشياء، حتى الأشياء التافهة. سوف يضعون الشىء إلى جوار الشىء. ويعرفون أنهم ربما أخطأوا فى البداية. ألا تراهم يتجولون يحملون كراسات ويزيلون الأتربة من فوق الأضرحة، ويقرعون الأقلام، لا همَّ لهم غير وضوح الرؤية، والعثور على الأسباب، وإنقاذ شىء، ولو شىء واحد فحسب، من أنقاض الذكرى.

www.ibtesama.com

هوامش:

(*) نشرت ترجمة هذه القصة فى كتاب "ربما فى حلب ذات يوم وقصص أخرى" الصادرضمن المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٤ والطبعة الثانية ضمن سلسلة الأدب بمكتبة الأسرة (٢٠٠٦)، ندرجها هنا لتعين القارئ على الإحاطة بفن مونرو القصصى ، وربما يشير العنوان إلى نهر منستيونغ، وربما تشير الكلمة نفسها إلى جريان دم الحيض فى جسد المرأة، وهو رمز راسخ فى قصص مونرو يعينها على تجسيد نفس المرأة، وشخصيتها الاجتماعية (المترجم).

(١) نبات أمريكى من الفصيلة الخشخاشية، تستخدم حاليًا فى علاج السعال المصحوب ببلغم وإخراج البلغم المتراكم فى الرئة . كما توصف لالتهابات القصبات الهوائية والربو المزمن والشاهوق نظرًا لتمتعها بمفعول مضاد للتشنج . يجب عدم استخدامها إلا تحت إشراف طبى حيث إن الجرعات العالية منها غير آمنة (المترجم).

(٢) مجموعة النجوم فى السماء الشمالية سميت باسم الحصان المجنح فى الأساطير الإغريقية. وقد أحصى عالم الفلك بطليموس الذى عاش فى القرن الأول الميلادى ما يقرب من ٤٨ مجموعة من النجوم، ولا تزال مجموعة "بيغاسوس" إحدى المجموعات الثمانية والثمانين التى يعرفها العصر الراهن (المترجم).

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

العاشق المسافر

رسائل

جلست "لويزا" فى مطعم الفندق تقرأ الرسالة التى تسلمتها اليوم. تناولت وجبتها المعتادة من البطاطس واللحم المفروم وشربت كأسًا من البيرة. خلت الحجرة إلا من عددٍ قليل من المسافرين وطبيب الأسنان الذى كان يتناول عشاءه هناك كل ليلة لأنه كان يعيش دون زوجته التى رحلت منذ زمن. فى البداية أبدى اهتمامه بـ "لويزا" ولكنه أخبرها – دون تهيب –بأنه لم ير فى حياته امرآة تحتسى الخمر أو حتى تقترب من المشروبات الكحولية!! ولكنها قالت له بنبرة جادة:

-إنها تفيدنى صحيًا.

كأن مفارش الموائد كانت تجد من يجددها كل أسبوع، ومن يغطيها بقطع المشمع المثقوب من أجل حمايتها. فى الشتاء كنت تشم

www.ibtesama.com

رائحة تلك القطع تفوح من حجرة الطعام، وكنت تشم رائحة دخان فحم آتٍ من الفرن، ورائحة شحم، وبطاطس مجففة وبصل... رائحة تستثير الجائع القادم وقد نال منه برد الشتاء. على كل مائدة ترى حمالة صغيرة وضعت عليها زجاجة تمتلئ حتى حافتها بمرق، وأخرى بصلصة طماطم، وإلى جوارها قارورة مملوءة حتى آخرها بالفلفل الحار.

كان العنوان التالى مكتوبًا على الرسالة:

أمينة مكتبة "كارستيرز" العامة، "كارستيرز"، أونتيريو، ٤ يناير (١٩١٧).

** قد تستغربين لهذه الرسالة من شخص لا تعرفينه، ولا يتذكر حتى اسمك. آمل أن تكونى أنت أمينة المكتبة نفسها التى أقصد، آمل ألا تكونى قد انتقلت إلى مكان آخر رغم السنين التى مضت.*

لم يكن ما انتهى بى إلى هذا المستشفى شيئًا كبيرًا؛ لقيت ما هو أسوأ منه بكثير ونسيته الآن. إنى أسأل نفسى دائمًا هل ما زلت تعملين فى تلك المكتبة؟ فإذا كنت أنت التى أعنى فأنت متوسطة الحجم تقريبًا وشعرك يميل إلى اللون البنى، جئت إلى هذه المكتبة قبل أن ألتحق بالجيش بأشهر قليلة، حللت محلالآنسة "تامبلن" التى كانت هناك حين كنت أتردد على المكتبة وأنا بعد لم أتجاوز التاسعة أو العاشرة. فى عهدها كانت الكتب مبعثرة فى كل ركن، وكانت سيدة عنيفة الطبع حادة المزاج، لم أكن أجرؤ على أن أطلب منها أية مساعدة. وعندما جئت أنت حدث تغيير كبير فى نظام المكتبة، انتظمت الكتب على الأرفف وقمت بتصنيفها تحت عناوين

www.ibtesama.com

معروفة:الأدب القصصى وغير القصصى، وكتب التاريخ وأدب الرحلات، وقمت بترتيب المجلات حسب موضوعاتها، بمجرد أن تصل المجلة تضعينها مع مثيلاتها حسب موضوعها، ولا تتركينها على مكتبك حتى يصبح موضوعها قديمًا. كنت أشعر بالامتنان لك ولكنى لم أكن أعرف كيف أعبر لك عن ذلك الامتنان. كنت أيضًا أسأل نفسى مستغربًا ما الذى جاء بك إلى هذا المكان وأنت فتاة متعلمة وحاصلة على شهادة جامعية حسبما أظن.

اسمى "چاك أچنيو"، تجدين بطاقتى فى الدرج. كان آخر كتاب استعرته رائعًا - كتاب البشرية فى طور التكوين للكاتب هـ. ج. ولز. درست حتى الصف الثانى الثانوى، ذهبت بعد ذلك إلى العمل فى مصنع "دودز" كما كان يفعل الكثيرون. كما ترين لم أكمل دراستى عندما بلغت الثامنة عشرة:أنا شخص أقدس وجهات نظرى. قريبى الوحيد فى "كارستيرز"، أو أى مكان آخر، هو أبى "باتريك أچنيو". يعمل عند "دودز":لا يعمل فى المصنع، بل يعمل فى دارهم: يهتم بأمر الحديقة، إنه يحب الوحدة، والذهاب أحيانًا للصيد فى الريف كلما وجد الفرصة. أكتب له رسالة أحيانًا، وأشك فى أنه يقرؤها.

بعد العشاء صعدت "لويزا" إلى حجرة السيدات فى الطابق الثانى وجلست إلى المكتب لكى تكتب الرد.

* كم كانت سعادتى كبيرة وأنا أقرأ عن امتنانك لما كنت أقوم به فى المكتبة رغم أنه لم يكن إلا جزءًا من عملى العادى ولم يكن شيئًا استثنائيًا. إننى متأكدة من أنك ترغب فى أن تسمع أخبار الوطن هنا، ولكن للأسف لن تجد منى العون على ذلك: فكونى غريبة هنا لا

www.ibtesama.com

يتيح لى سوى التحدث مع رواد المكتبة أو الفندق. أما رواد الفندق من المسافرين فلا يتحدثون إلا عن أحوال التجارة (طبعًا من النادر أن يجدوا بضائع) وأحيانًا عن المرض، ولا يملون من الحديث فى الحرب.

الشائعات تتلوها الشائعات والآراء تجر آراءً، آراء تجعلك تغرب فى الضحك إن لم تحزنك. لم أهتم بالكتابة عنها خصوصًا وأنا أعرف أن هناك رقيبًا يقرأ الرسائل وسيمزق رسالتى بعد أن يفرغ من قراءتها.

سألتنى عن سبب مجيئى إلى هذه المكتبة، القصة ليست غاية فى الغرابة. كان أبى يعمل فى قسم الأثاث فى محلات "إيتون" وبعد وفاته استمرت أمى تعمل فى قسم الكتان، وعملت فى المكتبة لفترة قصيرة. لعلك تقول فى نفسك إن محلات "إيتون" تقابل محلات "دودز" بالنسبة لكم أنتم. تخرجت فى كلية "چارفيز". أصبت بمرض أدخلنى المستشفى وقضيت فيها زمنًا ليس بالقصير. وجدت الكثير من الوقت الذى أخصصه للقراءة، أفضل قراءة "توماس هاردى" الذى يتهمه الناس بالتشاؤم فى حين أراه يصور الحياة تصويرًا صادقًا- وأحب قراءة "ويلا كاثر". وفاة أمينة المكتبة السابقة هو الذى جعل هذه الوظيفة من نصيبى، وأعتقد أنها وظيفة تناسب طبيعتى تمامًا.

*

* أجمل شىء اليوم هو وصول خطابك، فقد أوشكت على الانتهاء من الخدمة هنا وكنت أود أن أعرف هل وصلتك رسالتى أم لا.

www.ibtesama.com

سعدت جداً لأنك لم تستهينى برسالتى. إذا قابلتِ أبى أو أى أحد مصادفة فأنتِ لستِ مضطرة إلى أن تخبريه أننا نتراسل. الأمر لا يهم أحداً خصوصاً وأنا أعرف أن بعضهم يمكن أن يضحك لأننى أراسل أمينة المكتبة، لماذا نمنحهم الفرصة؟ إنهم يضحكون حتى من مجرد الذهاب إلى المكتبة. أنا سعيد أيضاً لأن خدمتى انتهت فى هذا المكان، أسعد بكثير من أناس عادوا بدون أقدامهم، أو فقدوا عيونهم، أو أصابهم عجز يجعلهم يتوارون عن الناس.

سألتنى عن محل "سكنى" فى "كارستيرز"، ليس مكاناً أفخر به على أية حال. فإذا كنت تعرفين أين يقع تل الخل اتجهى يميناً إلى طريق الزهور فهو آخر بيت على اليمين، قمنا بطلائه مرة واحدة فى حياتنا كلها، باللون الأصفر. أبى يزرع البطاطس، أو كان يزرع البطاطس. كنت أملأ عربة بالبطاطس وأجول بها فى أنحاء المدينة وأرجع بخمسة سنتات كل مرة.

ذكرت فى خطابك أسماء كُتَّاب تفضلين قراءة أعمالهم. كنت فى وقت من الأوقات مغرماً بقراءة كتب "زين جراى"، ولكننى تحولت من قراءة الروايات إلى قراءة كتب التاريخ أو أدب الرحلات. أقرأ أحياناً كتباً فوق مستواى الفكرى ولكننى أخرج بشىء من تلك القراءات. هـ. ج. ولز الذى ذكرته واحدٌ من هؤلاء و"روبرت إنجرسن" الذى يكتب عن الدين. لقد أثاروا لدى قضايا كثيرة بدأت أفكر فيها. فإذا كنت من المتدينين أرجو ألا أكون قد أسأت إليكِ.

ذات يوم عندما وصلتِ إلى المكتبة كان يوم السبت ظهراً، وكنت أنت قد أغلقتِ الباب وأضأتِ النور فالظلام كان دامساً والمطر كان

www.ibtesama.com

غزيراً، خرجتِ دون قبعة أو مظلة فابتل شعركِ. أخرجتِ منه الدبابيس وأرسلته على ظهرك. هل أكون قد تجاوزت حدودى إذا سألت عما آل إليه شعركِ. هل قصرتِه أم ما زال على حاله؟ أذكر أنك وقفت أمام آلة التهوية فهرب الماء منه كما تهرب الدهون من طاسة قلى تعرضت للنار. وكنت أنا أنهمك فى قراءة جريدة أخبار لندن التى تعج بأخبار الحرب المزودة بالصور. تبادلنا الابتسام. (لم أكن أعنى أن شعرك كان يعلوه الشحم عندما قلت ما قلت.)

*

* لم أقص شعرى رغم أننى فكرت فى ذلك كثيراً. لا أدرى ما الذى منعنى من ذلك؟ أهو الكسل أم الإعجاب به؟

لست متدينة إلى الحد الذى تظن.

تمشيت حتى تل الخل ورأيت بيتكم، البطاطس تبدو ناضجة هناك. رآنى كلب بوليسى واحتدم، هل هو كلبكم؟

الجو يزداد دفئًا، والماء فى النهر يفيض كعادته فى الربيع من كل عام. سرى الماء إلى أسفل الفندق وأفسد عليناشرابنا فأعطونا زجاجة بيرة مجانية وقارورة بها زنجبيل. وذلك للمقيمين فحسب. هل تأمرنى بشىء أرسله لك؟

*

* لا أحتاج إلى شىء محدد، السجائر موجودة، ولا أحتاج إلا إلى أشياء أخرى بسيطة تتكفل بها السيدات هنا فى "كارستيرز"، أتمنى أن أجد الوقت لقراءة كتب المؤلفين الذين ذكرتِهم فى رسالتك ولكنى أشك فى ذلك.

www.ibtesama.com

أول أمس سقط رجل ميتًا بـأزمـة قلـبـيـة ألمت بـه. أضحى خـبـر الصباح والمساء. لم نسمع غير سؤال واحد طوال الوقت:هل سمعت عن الرجل الذى مات بـأزمـة قلبية؟ ثم يضحك الناس جميعًا، ومن رحم المأساة تولد الغرابة أحيانًا، لم يكن الوقت وقت غارة جوية مثلاً حتى نقول إنه قضى ذعرًا. (على فكرة كان يكتب رسالة حين فاجأته الأزمة، ولذا على أن أحترس الآن وأنا أكتب لك هذه الرسالة.) لقد مات كثيرون قبله وبعده، ماتوا بالرصاص أو بانفجار قنبلة، ولكنه كان أشهرهم لأنه مات بأزمة قلبية. يقولون.

*

* حرارة الصيف هذا العام شديدة، عربات الرش تجوب الشوارع كل يوم لكى تثبت الأتربة، يطاردها الأطفال وهم يقفزون ويغنون. أما الشىء الجديد الذى ظهر فهو عربة الأيس كريم التى يدفعها صاحبها ويجوب بها شوارع المدينة، وينبه إليها الناس بجرس علقه فى مقدمتها. افتتنالأطفال بها أيضًا. يدفعها الرجل الذى أصيب فى حادث المصنع - أنت تعرف من أقصد.. لا أريد أن أذكر أسمه هنا:الرجل الذيفقد ذراعه حتى المرفق. حجرتى فى الفندق مثل الفرن ؛ لأنها فى الدور الثالث.. أتمشى أحيانًا حتى يأتى منتصف الليل. كذلك يفعل الكثيرون مثلى.. يمشون أحيانًا بالبيجامات. الوقت يمر مثل حلم ثقيل. المياه فى النهر قليلة.. ولكنها تكفى للخروج فى جولة خلوية. حتى القس الميثودى فعلها فى يوم من أيام الآحاد من شهر أغسطس.. كان يصلى فى قداس عام صلاة استسقاء، ولكن القارب الذى كان يحمله عبر النهر كان به خرق

www.ibtesama.com

فتسربت إليه المياه وابتلت قدماه وفى النهاية غاص القارب فى الماء وترك القس واقفًا فى النهر والماء لم يكد يصل إلى خصره. هل كانت تلك حادثة ، أم هى خدعة ماكرة من قبل القس؟سرت الشائعات بأن الله استجاب لصلوات القس لكن فى الاتجاه المعاكس.

أتمشى بعض الأحيان وأمر على منزل "دودز". أرى أباك يرعى الأشجار والنجيل باهتمام شديد مما جعلها تبدو فى أوج جمالها. المنزل جميل ، يبدو شامخًا وبديعًا ، ويبدو أن البرد لم يصل إليه لأنى سمعت صوت الأم وفتاة صغيرة فى ساعة متأخرة من الليل وكأنهما كانا يتمشيان فى الحديقة.

*

* قلت لك فى السابق إننى لا أحتاج شيئًا وأرانى الآن أطلب منك طلبًا غريبًا، أريد صورة فوتوغرافية لك. آمل ألا تظنين أننى تخطيت حدودى بطلبى هذا، فقد تكونين مخطوبة لشاب أو أن لك عاشقًا تكتبين له كما تكتبين لى. أنت فتاة بديعة ولا أستغرب أن يطلب يدك واحد من الموظفين الكثيرين حولك. أما الآن وقد تورطت فى الطلب فلا ينفع أن أسحب طلبي، أترك الأمر كله بين يديك.

كانت "لويزا" في الخامسة والعشرين من عمرها. لها تجربة حب مع طبيب كان يعالجها في المستشفى، أسفرت التجربة عن فقدان الطبيب لوظيفته فى النهاية. الشك يقض مضجعها: هل استغنت المستشفى عن الطبيب أم هو الذى غادر المستشفى ضنًا بنفسه أن يتورط في العلاقة معها خصوصًا أنه كان متزوجًا ويعول؟الرسائل لعبت دورًا أيضًا فى هذه التجربة. حتى بعد أن غادر المستشفى كانا

www.ibtesama.com

يتراسلان. تراسلا مرة أو مرتين بعد أن غادرت المستشفى ثم طلبت منه ألا يراسلها مرة أخرى، ولم يفعل. ولكن عندما لم تصل رسائله آثرت السفر إلى تورنتوتجوب الشوارع وتنزل فى الفنادق الرخيصة. وعندما عادت يوم السبت أو قل يوم الجمعة ليلاً كتبت له رسالة رزينة وحازمة والإحساس يراودها بأنها واحدة من بطلات الحب فى قصص التراجيديا. لم يبرجها ذلك الإحساس وهى تجر حقائبها عبر سلالم الفنادق الرخيصة وتتحدث عن الموضة الباريسية وتقول: إن لديها مجموعة من القبعات النادرة، وترشف من كأس وحيد من الخمر. لو كان لها صاحب تخبره لأخبرته - رغم أن الفكرة لم ترق لها - أن الحب عبث وخداع وأن هذه قناعتها. ولكنها كانت تحس بأن المستقبل ربما يأتى بلمسة حانية، أو رعشة تدغدغ حواسها المرهفة، أو انحناءة ذليل، أو سجدة ولهان.

عرجت إلى محل مصور ليأخذ لها صورة فوتوغرافية، استعدت لها الاستعداد المطلوب، تمنت لو ارتدت بلوزة بسيطة بيضاء، وثوباً فضاضًا كالذى ترتديه فتيات الأرياف وينتهى عند الرقبة بخيط يتركونه دون إغلاق فتشع منه فتنة العنق. ولكن لم تكن تملك مثل هذه البلوزة، بل إنها لم تر مثلها إلا فى الصور. وكانت تراودها رغبة فى إرسال شعرها حراً على ظهرها. وحتى لو اضطرت إلى جمعه فوق الرأس، فهى تفضل أن تجمعه فى كومة هشة لا تكاد تحكمها خيوط اللؤلؤ التى ربطتها.

ارتدت بدلاً من ذلك بلوزتها الحريرية الأشبه بقميص رجل، وربطت شعرها كما اعتادت أن تربطه. ظنت أن الصورة قد أظهرتها

www.ibtesama.com

فتاة شاحبة غائرة العينين. مالت سحنتها إلى العبوس والتجهم أكثر مما كانت تريد. ورغم ذلك أرسلت الصورة مصحوبة بتلك العبارات:

لست مخطوبة، وليس لى خليل. تورطت مرة فى علاقة حميمة لم تدم طويلاً وافترقنا، كانت التجربة سبباً فى أزمة عميقة تجاوزتها. الآن أظن أننى لم أخسر شيئًا.

راحت تعصر ذهنها لكى تتذكره. لم تتذكر أنها كانت تهز شعرها كما قال لها، ولم تتذكر أنها كانت تبتسم لأى شاب عندما كانت قطرات الندى تسقط على ريداتير سيارتها كما زعم. لابد أنه كان يحلم بكل ذلك، وربما حلم به فعلاً.

بدأت تراقب أخبار الحرب باهتمام أكبر مما كانت تفعل فى الماضى، قررت ألا تتجاهلها مرة أخرى. عبرت الشارع وهى تشعر أن رأسها قد امتلأ بكم من المعلومات المثيرة والمربكة شأنها شأن الناس جميعًا فى ذلك الوقت. معارك "كوينتن" و"آراس" و"مونتديبه" و"إيميانز" ومعركة جارية أحداثها على ضفاف نهر "سوم" حيث لا تشك أن معركة مثلها جرت هناك؟ على مكتبها بسطت خرائط الحرب المنشورة على صفحات المجلات. رأت على خطوط تلك الخرائط الملونة زحف الألمان إلى "مارن"، والهجوم الأمريكى الأول على قلعة "ثيرى". ألقت نظرة على صورة بنية لفنان يرسم حصانًا يثب أثناء هجوم جوى، وعلى بعض جنود أفريقيا الشرقية وهم يشربون رحيق جوز الهند، وعلى طابور من الأسرى الألمان وعلى رؤوسهم وأطرافهم ضمادات، يبدو الحزن على وجوههم وسيما الغضب على سحنهم. هى الآن تشعر بما يشعر به كل شخص: خوف مستقر وشك ثابت

www.ibtesama.com

واستفزاز مستمر. تجاوز لحظة حياتك الراهنة وأنت ترى العالم يتحطم من حولك من وراء الجدران.

* كانت سعادتي بالغة حين عرفت أنك لا ترتبطين بحبيب أو عاشق رغم أنانيتي التي قد تستشفينها من موقفي هذا. لا أظن أننا سوف نلتقي مرة أخرى. لا أقول ذلك لأني حلمت بما سوف يحدث، أو لأنني شخص مجبول على الكآبة ولا يتطلع إلا إلى أسوأ الأمور. أقول ذلك لأني أشعر أن هذا ما سوف يحدث في الغالب، رغم أني أتجاهل هذا الشعور وأبذل الجهد كي أبقي حياتي على ما يرام. لا أقول ذلك أيضاً لأني أريد أن أورثك هماً، أو أن أستجلب منك عطفاً؛ ولكني أقول ذلك لأن إحساسي بأني لن أرى مدينة "كارستيز" مرة أخرى يجعلني أريد أن أتحدث عن أي شيء. هي حالة أشبه بمريض الحمى. ولذا دعيني أجازف وأقول:إني أحبك، أتخيلك الآن تنهضين على مقعد في المكتبة لتضعي كتاباً على رف وأنا مقدم إليك وأحتوي جسدك بيدي فتستديرين بين ذراعي كأننا اتفقنا على كل شيء.

كانت سيدات الصليب الأحمر وفتياته يلتقين كل ثلاثاء بعد الظهر في حجرات الاجتماعات التي كانت تقع في ردهة طويلة على مقربة من المكتبة. وعندما تخلو المكتبة من روادها لحظات قلائل كانت "لويزا" تنزل إلى الردهة وتدخل الحجرة التي كانت تمتلئ بالنساء. قررت أن تصنع وشاحاً. تعلمت في المستشفى كيف تضع الغرز الأساسية، ولكنها لم تتعلم شيئاً، أو ربما نسيت كيف تكمل.

النسوة مشغولات بملء صناديق، أو بقص وطي ضمادات من أقمشة ثقيلة قطنية كانت منشورة على المناضد. ولكن عدداً كبيراً من

www.ibtesama.com

الفتيات قرب الباب كن يلتهمن كعك الشعر ويحتسين الشاى. كانت واحدة تمسك بلفة من خيوط الصوف بين ذراعيها لفتاة أخرى لكى تتمكن من غزلها.

أخبرتهم "لويزا" بما كانت تريد معرفته. قالت لها إحدى الفتيات، وكانت لا تزال تحتفظ بلفة من الصوف فى فمها:

– ما الذى تريدين غزله؟

قالت لها "لويزا":

– قناع، لجندى.

– أنت تحتاجين الصوف المخصص للزى الرسمى إذن.

وقفزت الفتاة التى ردت عليها بنبرة أكثر أدبًا، من فوق المنضدة، وعادت إليها ببعض كرات من الصوف البنى، وبحثت عن إبرتين فى شنطتها، وأعطتهما لـ "لويزا" وقالت لها إنها يمكن تعدهما ملكها، بل وقالت لها:

– سأساعدك على تخطى مرحلة البداية.. المقاسات حسب الزى الرسمى متشابهة تقريبًا.

اجتمع حولها بنات أخريات، ورحن يضايقن هذه الفتاة التى كان اسمها "چورى". قالوا لها إن كل ما تفعله خطأ فى خطأ. قالت "چورى":

– صح، صح. ما رأيكن هل أدخل الإبرة فى عيونكن؟

ثم تحولت إلى "لويزا" قائلة:

– هل تصنعينه لصديق؟ صديق يعيش فيما وراء البحار.

قالت "لويزا":

www.ibtesama.com

- نعم.

كانوا يظنونها العانس التى فاتها قطار الزواج، يضحكن تارة، ويشفقن تارة، حسبما يظهر على وجوههن من علامات الهزل أو علامات العطف. قالت الفتاة التى كانت تأكل كعك الشعر:

- إذن أحسنى الفتق والرتق، أحسنى الخياطة حتى تحميه من البرد!

كانت إحدى الفتيات فى هذه المجموعة اسمها "چريس" هورن. لم تقل شيئًا، كانت خجولةً ولكن نظراتها حاسمة، فى التاسعة عشرة، بوجه عريض، وشفتين نحيفتين مضمومتين، وشعر بنى مقصوص فوق الجبين، وجسد ناضج جذاب. كانت مخطوبة لـ "چاك أچنيو"قبل أن يذهب إلى ما وراء البحار، ولكنهما اتفقا على ألا يخبرا أحدًا عن هذا الموضوع.

الإنفلونزا الإسبانية

نجحت "لويزا" فى صنع صداقات مع بعض المسافرين الذين كانوا يقيمون فى الفندق أيامًا كثيرة. أحد الذين وطدت معهم الصداقة كان اسمه "چيم فرارى. "كان "چيم فرارى"يبيع آلات كاتبة ومعدات مكاتب وكتبًا وكل أنواع الأدوات القرطاسية. كان شعره مرسلاً ومنكباه مستديرين وبنيته قوية، رجلاً فى منتصف الأربعينيات، تظن حين تنظر إليه أنه كان يبيع أشياء أثقل وأهم كآلات زراعية مثلاً.

سافر چيم فرارى كثيرًا أثناء الوباء المعروف بالإنفلونزا الإسبانية، فهل كانت المحلات التجارية مفتوحة؟ تبيع وتشترى؟ كانت

www.ibtesama.com

مغلقة؟! وكانت المدارس ودور السينما مغلقة أيضًا. بل إن الكنائس كانت مغلقة وهو ما اعتبره "فرارى" يرقى إلى مستوى الفضيحة. قال لـ "لويزا":

– يحق لهم أن يخجلوا من أنفسهم.. جبناء. وماذا لو أصابنا المرض ونحن نحوم حول بيوتنا؟ أظن أنك لم تغلقى المكتبة؟ هل أغلقتها؟

قالت "لويزا" إنها لم تكن تغلق المكتبة إلا عندما تكون مريضة فعلاً، وعندما يكون المرض خفيفًا لا يستمر أسبوعًا فى العادة، ولكنها كانت تضطر إلى الذهاب إلى المستشفى. لم يكونوا يسمحون لها بالبقاء فى الفندق. قال لها:

– جبناء. عندما يجىء الموت لا يستطيع له أحد ردًا، أليس كذلك؟

تطرق الحديث عن الزحام فى المستشفيات وموت الممرضات والأطباء، ومشهد الجنازات المهيب الذى لا ينقطع. كان "چيم فرارى" يعيش فى شارع تقع فيه مؤسسة تتكفل بتجهيز الموتى فى تورنتو. قال إنهم لا يزالون يستخدمون الخيول السوادء والعربات السوداء، وجميع التجهيزات القديمة وما يلزم من ضجيج وحزن مصطنع.

– كانت الجنائز تشيع ليل نهار، ليل نهار.

ثم رفع نظارته من فوق عينيه وقال:

– تبدين فى صحة جيدة أنت نفسك.

كان يظن أن "لويزا" تبدو فى صحة أفضل من المعتاد. ربما لأنها بدأت تضع على وجهها الروج. كانت بشرتها شاحبة زيتونية اللون، وكانت وجنتاها تبدوان فى عينيه بلا لون. كانت ترتدى ملابسها على

www.ibtesama.com

عجل دائمًا، وتبذل الجهد الجهيد لكسب صداقة رجل أو امرأة، مزاج متقلب تغيره حسب إرادتها. الآن هى تشرب الويسكى، رغم أنها لم تكن فى السابق تشربه دون أن تغمسه فى الماء. وكانت لا تشرب أكثر من كأس واحدة فى المرة الواحدة. وهو يتساءل الآن هل صادفت عشيقًا غيّر من طبعها. ولكن أقصى ما يمكن للعشيق أن يفعله هو أن يرفع من روحها المعنوية دون أن يغير من خياراتها فى الحياة مرة واحدة، وهو ما يعتقد أنه حدث لها. لقد مرت لحظات العمر وتضاءل مع الأيام طموح الحصول على زوج خاصة فى زمن الحرب مما يورث الاضطراب والهم لأى امرأة. كانت أكثر ذكاءً وأكثر جاذبية وأجمل وجهًا أيضًا من أغلب المتزوجات. ماذا حدث لامرأة مثلها؟ أحيانًا هو الحظ العاثر، أو لعله التقدير السيّئ. رحم الله أيامًا كان القدر القليل من الحدة والثقة بالنفس يطيح بعقول رجال. قال لها:

- لا تقف الحياة عند نقطة فجأة ودون سابق إنذار، لقد قمت بالعمل الصحيح حين تركت المكتبة مفتوحة.

كان ذلك فى أول شتاء (١٩١٩)، بداية اجتياح وباء الإنفلونزا بعد أن ظن الناس أن الخطر قد زال. بدا أنهما الوحيدان فى الفندق. كان الوقت الساعة التاسعة بالتمام ولكن مدير الفندق ذهب إلى فراشه. كانت زوجته فى المستشفى تعالج من الإنفلونزا. أحضر "جيم فرارى" زجاجة الويسكى من البار، كانت مغلقة خوفًا من العدوى - جلسا إلى منضدة جوار النافذة، فى حجرةالسفرة. تجمعت قطع من ضباب الشتاء فى الخارج وراحت تزحف ناحية

www.ibtesama.com

النافذة. لا تكاد ترى أنوار الشوارع وأضواء السيارات القليلة التى كانت تتدحرج بحرص فوق الجسر. قالت "لويزا":

- لم يكن الموضوع موضوع مبدأ حين أبقيت المكتبة مفتوحة. الموضوع كان شخصيًا أكثر مما تظن.

ثم ضحكت وقالت له إنها ستحكى له قصة مثيرة. ثم أردفت:

- لا بد أن الويسكى قد ترك لسانى على راحته.

فرد "فرارى":

- لست مغرمًا بالنميمة.

فخصته بنظرة قاسية وهى تضحك أيضًا، وقالت له إن الناس عندما يقولون إنهم لا يحبون النميمة فإنهم ينمون، لا تصدق من يقول لك إنه لن يخبر أحدًا بشىء أبدًا.

ثم قالت:

- تعرف ذلك منهم حين تريد وفى المكان الذى تريده بمجرد أن تمتنع عن ذكر الأسماء الحقيقية.

ثم أردفت:

- أملى ألا أفعل ذلك، رغم أنى لا أهتم الآن، وربما يراودنى عمل العكس بعد أن يزول أثر الويسكى. هذه قصة تصلح درسًا نتعلم منه. نتعلم منه كيف تورط النساء أنفسهن فى أشياء غبية ويضحك عليها الناس؛ قصة طريفة يمكنك أن تتعلم منها كل يوم درسًا جديدًا.

وشرعت تحكى له عن جندى كان يرسل لها رسائل من وراء البحار، عرفها حين كان يرتاد المكتبة، ولكنها لم تتذكره، ولكنها راحت ترد على رسائله بطريقة مؤدبة، ردت على أول رسالة وصلت

www.ibtesama.com

إليها، ثم استمرت بينهما المراسلات. أخبرها أين كان يعيش حين كان في المدينة، واستطلعت المكان لترسل إليه عن حاله الآن. حكى لها عن الكتب التي قرأها، وحكت له عن الكتب التي قرأتها. باختصار: أفضى كل منهما إلى الآخر بما في نفسه، وتأجج بينهما شيء، في البداية من جانبه، كما صرح فيما بعد. لم تكن من النوع الذي يندفع عند أول إشارة أو إيماءة حال الساذج المخدوع. ظنت في البداية أنها تريد أن تبدو لطيفة وكفي. وحتى فيما بعد لم تكن تريد أن ترفضه أو تحرجه، طلب منها صورة فحققت له مطلبه؛ أعطته الصورة التي يريدها رغم أنها لم تكن هي الصورة التي كانت تريدها، ولكنها أرسلتها له. سألها هل كان لها عشيق أو حبيب فأجابته بصدق بأن ليس لها عشيق أو حبيب. لم يرسل لها صوراً له، ولم تطلب هي صورة له، رغم الفضول الذي استولى عليها في أن تعرف كيف تكون هيئته. على أية حال التقاط الصور في ميدان الحرب ليس بالأمر الهين بالنسبة له. بالإضافة إلى ذلك لم تكن تريد أن تصبح مثل هؤلاء النساء اللاتي ينسحبن من أول نظرة حين لا تعجبهن الهيئة.

كتب يقول لها إنه لا يتوقع أن يعود، قال إنه لم يكن خائفًا من الموت خوفه من أن ينتهي به الأمر كحال ذلك الرجل الذي رآه يرقد في المستشفى يغالب آلام الجراح. لم يخبرها بتفاصيل تلك الجراح، ولكنها كانت تعرف الحالات التي رأتها في المستشفيات: رأت رجالاً قُطِعت أطرافهم، وآخرين فقدوا عيونهم، وآخرين تحولوا إلى مخلوقات أشبه بالشياطين أو الأشباح بعد الحرق. لم يكن يبكي

www.ibtesama.com

خوفًا من مصير مجهول، ولم تكن هى تعنى ذلك. كان يتوقع الموت، واختار الموت من بين خيارات أخرى كثيرة أشد قتامة، فكر فى ذلك كله، وكتب إليها كما يفعل الرجل مع من يحب فى مواقف كتلك.

وعندما وضعت الحرب أوزارها، مرت فترة قبل أن يرسل شيئًا. راحت تتوقع رسالة فى كل يوم.. ولم يأتِ شيء، لم يأت شيء. خشيت أن يكون من أولئك الجنود ذوى الحظ العاثر، ممن قُتِلوا فى الأسبوع الأخير قبل وقف النار، أو اليوم الأخير، أو حتى الساعة الأخيرة. بحثت فى الجرائد المحلية التى تظهر كل أسبوع؛ أسماء الإصابات الجديدة لا تزال هى هى حتى حل العام الجديد. بدأت المجلات تدرج أسماء العائدين إلى أوطانهم بالصور والأسماء وعبارات الإطراء. إضافات لم تكن تفسح لها المجلة مكانًا حين كان الجنود يعودون من ميدان القتال مثخنين بالجراح والأتربة. ثم رأت اسمه على قائمة، لم يُقتل ولم يُجرح. عاد إلى "كارستيرز"، بل خمنت أنه كان هناك بالفعل.

فى ذلك الوقت تركت المكتبة مفتوحة، رغم وباء الأنفلونزا الذى كان يشتد وطأة. كانت تجزم كل يوم بأنه سوف يأتى، وكانت تستعد لهذا اللقاء كل يوم. كانت أيام الآحاد فترات عذاب بالنسبة لها. تدخل صالة المكتبة الرئيسة فيراودها إحساس بأنه هناك ربما جاء قبلها وينتظرها، يتكئ على جدار ينتظر قدومها. تملكها ذلك الإحساس بقوة لدرجة أنها كانت تتخيل ظل رجل يشبهه، فهمت الآن كيف يرى الناس أشباحًا حقيقية. كلما فُتح الباب كانت تتوقع أن تتطلع إلى وجهه. تتعهد أحيانًا بينها وبين نفسها ألا تنظر إلى هناك

www.ibtesama.com

حتى تكمل عد العشرة. رواد المكتبة قليلون بسبب الوباء. ابتدعت عملاً تعمله حتى لا يجن جنونها: فهى تعيد ترتيب أشياء. لم تكن تغلق المكتبة إلا بعد أن تمر خمس دقائق أو ربما عشر بعد موعد الإغلاق الرسمى. ثم راحت تتخيل أنه ربما يكون فى الناحية الأخرى من الشارع، جالساً على درج مكتب البريد يراقبها من بعد؛ لقد كان حيياً خجولاً فلن تصدر منه حركة أو نأمة. راودها قلق من أن يكون مريضاً شأن أغلب الناس فى تلك الأيام. استطلعت فى أحاديث الناس حول الحالات الجديدة. لم يرد اسمه على لسان، فى ذلك الوقت تخلت تماماً عن القراءة. بدت أغلفة الكتب فى عينيها كأكفان رثة ومنمقة، وتخيلت أن تجد داخلها تراباً فوق تراب.

اعذروها!! - اعذروها بعد أن ظنت، بعد تلك الرسائل، أن آخر ما يمكن أن يحدث هو أن يتذكرها ويأتى لزيارتها، أن يقترب منها أو يتصل بها. لن تشعر بملمسه، أو تسمع أنفاسه، أو يطأ عتبة بيتها بعد تلك الوعود والمكاشفات. مرت مواكب الجنائز أمام نافذتها ولم تعر أياً منها اهتماماً لأنها لم تكن تخصه، حتى عندما كانت مريضة على فراش المستشفى، كان كل ما تريده هو أن تعود إلى بيتها، أن تنهض من فراشها وتغادره إلى البيت، لا ينبغى أن يظل بابها مغلقاً أمامه. تهافتت على قدميها وعادت إلى عملها فى المكتبة. وعلى مشهد من قيظ الظهيرة أحد الأيام، وبينا هى مشغولة بترتيب الجرائد الجديدة على حواملها، قفز اسمه أمام عينيها كما تقفز الأشباح فى أحلام المصاب بالحمى.

قرأت إعلاناً قصيراً عن زواجه بالآنسة "چريس هورن"، لم تكن من الفتيات اللاتى تعرفهن، ولم تكن من رواد المكتبة.

www.ibtesama.com

كانت العروس ترتدى فستانًا من حرير الكريب يزينه شريط بنى يميل إلى الأصفر الشاحب، وقبعة من قش فاتح بترويسة من قماش قطيفة بنى.

بحثت عن الصورة فلم تجد. شريط زينة بنى مائل إلى الأصفر الشاحب. تلك هى النهاية، ولابد أن تكون هذه هى النهاية، نهاية خيالها ورومانسيتها.

ولكن – وهى تجلس على مكتبها فى المكتبة منذ ما يقرب من أسابيع قليلة، وفى ليلة أحد أيام السبت بعد أن غادر الناس جميعًا وأغلقت الباب وشرعت تطفئ الأضواء – طالعت عيناها قصاصة. مرت العينان على عبارة قصيرة: "كنت مرتبطًا قبل أن أذهب إلى خارج البلاد. " لا اسم، لا اسمه ولا اسمها. وهناك كانت صورتها تكاد تختفى تحت دفتر المكتبة.

كان فى المكتبة فى ذلك المساء نفسه. وكان الوقت زحامًا، وكانت تترك المكتب لتبحث عن كتاب طلبه زبون، أو لتعيد ترتيب الجرائد، أو لتعيد بعض الكتب إلى الأرفف. كان فى الحجرة نفسها التى فيها تجلس، يراقبها على راحته، ولكنه لم يعرفها بنفسه.

كنت مرتبطًا قبل أن أذهب إلى خارج البلاد.

قالت "لويزا":

– هل تعتقد أن الأمر كله نكتة مارسها الرجل علىّ؟ هل تعتقد أن يبلغ الشر برجل هذا المبلغ؟

– حسب خبرتى لا يمارس الرجال مثل هذه الألاعيب بالقدر الذى تمارسه النساء. لا، لا، لا ينبغى أن يذهب عقلك بعيداً.

www.ibtesama.com

الأقرب إلى الحق هو أن يكون صادقًا فيما قال وفعل. كل ما فى الأمر أنه انجرف قليلاً وراء عاطفته. الأمر ليس فيه عمق يجب الوصول إلى أغواره. كان مرتبطًا قبل أن يذهب إلى خارج الوطن، لم يكن يتوقع أن يعود سالمًا ولكنه عاد. وعندما عاد سالمًا كانت الخطيبة فى انتظاره، وماذا كان يستطيع أن يفعل غير ذلك؟

- صحيح، وماذا كان فى استطاعته غير ذلك؟

- كل ما فى الأمر أنه وضع فى فمه ما لا يقدر على مضغه.

قالت "لويزا":

- إذن الأمر كذلك؟ ! الأمر كذلك إذن! وماذا فعلت أنا غير إظهار الغرور والخيلاء!

ثم انطفأت عيناها وظهر اللؤم على محياها وأردفت تقول:

- الأرجح أنه كان ينظر إلى الصورة فلا تعجبه، ويفكر فى الأصل فلا يتوقع خيراً، ألا تعتقد ذلك؟

قال جيم فرارى:

- لا أعتقد ذلك! ولا تقللى من شأن نفسك.

فقالت "لويزا":

- لا أريدك أن تظن بى الغباء، لست بالغبية عديمة الخبرة وهذه القصة أعادتنى إلى صوابى.

- الواقع أنى لا أظن بك الغباء على الإطلاق.

- ولكن ربما تعتقد أنى عديمة الخبرة؟

وكان على حق كالعادة. فبعد أن يحكى النساء حكاية عن

www.ibtesama.com

أنفسهن لا يصبرن عن الحكاية الأخرى. الشراب يطيح برؤوسهن بصورة حاسمة فيهرب الحرص عبر النوافذ المفتوحة.

كانت قد أفضت إليه بدخيلة نفسها قبل أن تدخل مصحة الأمراض العقلية، ثم روت قصة حبها لطبيب هناك. كانت المستشفى تقع على أرض جميلة على جبال هاملتون، وكانا يلتقيان هناك على المماشى المحاطة بسياج الأشجار. الدرج طبقات من الحجر الجيرى، ومساحات معزولة نبت فيها زرع نادراً ما تراه فى "أونتيريو". كان الدكتور يلم ببعض المعلومات عن النبات وأخبرها أن هذه النباتات هى التى تنمو فى ولاية "كارولاينا" الكندية. وهى نباتات مختلفة كل الاختلاف عن النباتات هنا، فهى أكثر أوراقًا، كما توجد غابات أكثر هناك أيضًا، وأشجار عجيبة رائعة، ومدقات بين الأشجار. وأشجار "تيوليب".

- أشجار تيوليب!وزهر تيوليب على الأشجار!قال "چيم فرارى" متعجبًا.

- لا، لا، بل أزهار لها شكل أوراق التيوليب!

خرج منها الضحك بصوت فيه نبرة تحدٍ، ثم عضت شفتيها، ولم ير مانعًا فى تكملة الحوار، فاستمر يقول:

- أزهار تيوليب على الأشجار!

ولكنها طفقت تقول إنها ليست أزهار تيوليب ولكنها أوراق تشبهها، وقالت إنها لم تقل إن هناك أشجار تيوليب، وطلبت منه التوقف، ومرت لحظات كان الحذر فيها هو السيد. ثم مرت لحظات أخرى عبرا خلالها حالة من التقييم الحذر - عرفها وتمنى ألا تكون

www.ibtesama.com

هى على وعى بها – لحظات حبلى بالمفاجآت الصغيرة السارة، والإشارات شبه الساخرة، ونهوض لآمال فاجرة، وضرب من الشفقة المنذرة بالسوء.

قال جيم فرارى فجأة:

– كل شىء يعود إلى أنفسنا. شىء لم يحدث من قبل، هل حدث هذا الشىء من قبل؟ وربما لن يحدث فى المستقبل أبداً.

وتركت له يدها ليعبث بها كيفما شاء، وحملها من فوق المقعد. وأطفأ أنوار حجرة الطعام عند خروجهما، وصعدا الدرج، ذلك الذى طالما ارتقاه كل منهما بمفرده. ومرا أمام صورة الكلب بحرس قبر سيده، وصورة هايلاند مارى تغنى فى الحقل، والملك العجوز بعينيه الناتئتين ونظراته المليئة بالدلال والشبع. كان "چيم فيرارى" يتمتم بهذه الكلمات، أو لعله يغنى بصوت خفيض وهما يصعدان الدرج:

– الليلة ليلة الضباب والغيوم، وقلبى تنهشه الهموم.

ولبثت يده على عاتق "لويزا"، ثم قال لها وهو يوجهها إلى انعطافة الدرج.

– كل شىء على ما يرام، كل شىء تمام.

وعندما وصلا إلى البسطة الضيقة المؤدية إلى الطابق الثالث هتف:

– لم يسبق لى أن ارتقيت هذا الدرج وأنا فى طريقى إلى الجنة قبل اليوم!

ولكن فى ساعة متأخرة من الليل تأوه "چيم فرارى" وشرع يوجه

www.ibtesama.com

إلى "لويزا" لوماً من بين براثن النوم التى بدأت تمسك بكامل روحه:

- "لويزا"، "لويزا"، لم لم تخبرينى قبل اليوم أن الأمور سهلة على هذا النحو؟

- لقد قلت لك كل شىء.

قالت "لويزا" فى صوت خفيض هادىء.

- إذن لقد كنت مخطئاً، لم أكن أظن أبداً أن ذلك ما كنتِ تقصدين.

وقالت إنها لم تكن تقصد ما كان يدور فى ذهنه. الآن وحدها، دون من يجبرها على إجابات لأسئلة، شعرت بنفسها تدور دورات متسارعة بصورة لا تقاوم، وكأن المرتبة تحولت إلى قارب صغير ينجرف بها بعيداً عن حجرة النوم. حاولت أن تشرح له أن آثار الدم على الملاءات يمكن أن تكون بسبب الدورة الشهرية، ولكن الكلمات خرجت من فيها بلامبالاة مغرقة فى التنمق، ولم يألف بعضها بعضاً.

حوادث

عندما عاد آرثر من المصنع إلى البيت، قبيل الظهر، صاح: "ابتعدوا عنى حتى أغتسل! لقد حدث حادث فى المصنع!" ولم يجبه أحد. كانت المسز " چروفز"، مديرة المنزل، فى المطبخ تتحدث فى التليفون بصوت عال فلم تسمعه، وكانت ابنتها - بطبيعة الحال - فى المدرسة. غسل وجهه وخلع ملابسه، ووضع كل ما كان يرتديه فى سلة. غسل الحمام جيداً كما يفعل القاتل بعد ارتكابه جريمة قتل. استعد للذهاب إلى بيت

www.ibtesama.com

الرجل وقد اعتنى بنظافة ثيابه وتمشيط شعره. كان يجب أن يسأل أين البيت، كان يظن أنه يقع على تل الخل ولكن الظن خاطئ - على تل الخل يقع منزل الأب - ولكن الشاب وزوجته يعيشان فى الطرف الآخر من المدينة، أمام مصنع عصير التفاح القديم الذى كان قائماً قبل الحرب.

وجد البيتين الصغيرين متجاورين، وتوجه إلى البيت الواقع فى الجهة اليسرى، كما قالوا له. على أية حال لم يكن من الصعب الوصول إلى البيت المقصود، فلقد سبقته الأخبار. وجد باب البيت مفتوحاً، والفناء حافلاً بالأطفال الذين لم يصلوا إلى سن المدرسة بعد. تربعت فتاة صغيرة على عربة أطفال لا تبرح مكانها ولكنها كافية بسد الطريق أمامه. تلمس طريقه حول العربة ولكن فتاة بالغة خاطبته فى نبرة الناصحين: "أبوها ميت، أبوها."

ظهرت من الباب الأمامى شابة تحمل ملء اليد ستائر، قدمتها لسيدة أخرى كانت تقف فى الردهة. كانت السيدة التى أخذت الستائر ذات شعر رمادى ووجه متوسل، خلا فمها من طقم أسنانها العليا، ربما تركته فى البيت إيثاراً للراحة. كانت المرأة التى أعطتها الستائر بدينة ولكنها ترفل فى ثياب الشباب الغض.

قالت المرأة ذات الشعر الرمادى لآرثر: "أخبرها ألا تطلع على هذا السلم النقال، فمن شأن ذلك أن يتسبب فى كسر عنقها وهى تنزل بالستائر، هى تظن أننا نريد أن نغسل كل شىء. هل أنت الحانوتى؟ أوه.. لا.. سامحنى! أنت المستر دوود. جريس.. تعالِ هنا! سلمى على المستر دوود!"

"اتركيها براحتها،" قال آرثر، "هى تظن أنها ستأخذ الستائر هذه

www.ibtesama.com

المسافة وتغسلها وتعود بها غداً؛ لأنه سوف يضطر إلى الدخول إلى الحجرة الأمامية. "هى ابنتى ولا أستطيع أن أقول لها شيئًا، " قال رجل تبدو عليه علامات الحزن، ولكن وجهه يريح الناظر إليه، يرتدى ثيابًا كنيسية، كان قادمًا من خلف المنزل، ثم أردف: "سوف تهدأ حالاً. "كان هو القس المكلف بإتمام الطقوس. ولكنه لم يأتِ من كنيسة من الكنائس التى كان آرثر يعرفها. فهل جاء من الكنيسة المعمدانية؟ أم من الكنيسة الخمسينية؟ أم من كنيسة الإخوان المسيحيين ومقرها فى بلايماوث؟ كان يمسك بقدح من الشاى ويرشف منه.

ظهرت امرأة أخرى قامت بإزالة الستائر بنشاط ملحوظ. قالت: "ملأنا الآلة وشغلناها، هذا يومها، أبعدوا الأطفال لو سمحتم عن هذا المكان. "

اضطر القس إلى إفساح المكان لها حتى تمر، واضطر أيضًا إلى رفع يده إلى أعلى حتى يمنع اصطدام الستائر بقدح الشاى. ثم قال: "يا نساء.. ألا تتطوع واحدة منكن بتقديم كوبٍ من الشاى للسيدة دوود؟"فقال آرثر: "لا.. لا.. لا تتعب نفسك. " ثم أضاف موجهًا كلامه إلى السيدة ذات الشعر الرمادى: "ومصاريف الجنازة، أخبريها بمصاريف الجنازة..."

صاح طفل مرح لدى الباب: "سروال ليليان مبتل! بالت ليليان على نفسها يا سيد أچنيو!" فقال القس: "نعم.. سنكون شاكرين. " قال آرثر: "الأرض والشاهد، كل شىء. " ثم أضاف: "تأكد من أنهم يفهمون ذلك جيدًا، وحتى ما يريدون كتابته على الشاهد."

اختفت المرأة ذات الشعر الرمادى فى الفناء وعادت وهى تحمل

www.ibtesama.com

طفلاً يصرخ بين يديها، قالت: "المسكينة، منعوها من دخول البيت... أين تذهب؟ ماذا تفعل غير ما فعلته!"

جاءت المرأة الشابة البدينة من الحجرة الأمامية تجر سجادة وتقول إنها تريد لهذه السجادة أن توضع تحت أقدام فرقة الجنازة الموسيقية. عندئذٍ قال القس: "چريس.. أقدم لك المستر دود.. يريد أن يقدم تعازيه. "وقال آرثر مكملاً: "ويسألكم إذا كنتم تريدون أية مساعدة. " في تلك اللحظة كانت السيدة ذات الشعر الرمادى تصعد الدرج والطفل المبتل في حضنها، يتبعها طفلان آخران. ولكن چريس"أوقفتهما قائلة: "أوه.. أقدِما إلى هنا.. لا تصعدا... ارجعا!" فقالا: "أمي هنا في الداخل.

"نعم هي هنا ومشغولة، ولا تريد أن يشغلها أحد عن عملها، هي هنا لمساعدتي. ألا تعلمان أن والد ليليان مات؟" فقال آرثر: "هل من شيء أقدمه لكِ؟" وهو يعني أن يذهب ويخلي المكان.

وحدقت فيه "چريس" بفم فاغر. كانت أصوات ماكينة الغسيل تملأ البيت بالصخب، قالت له: "نعم لك عندى عمل، انتظر هنا. " عندئذٍ قال القس: "هي فقط مشغولة للغاية، ولا تقصد الإساءة. "

عادت "چريس" وهي تحمل عدداً وافراً من الكتب. وهي تقدم له الكتب: "ها هي الكتب... أخذها من المكتبة، وأنا لا أريد أن أدفع غرامات لغيابها عن المكتبة، كان يذهب كل سبت ليلاً، وأنا أعتقد أن ميعاد تسليم هذه الكتب غداً، لا أريد أن تتسبب لي مشاكل بسببها. "

www.ibtesama.com

قال آرثر: "سوف أفعل الواجب وبكل سرور، لا تقلقى. "وردت "چريس": "كل ما فى الأمر أنى لا أريد أن أواجه مشاكل بسببها. "فى تلك اللحظة قال القس بصوت ناصح رفيق: "المستر دود كان يتحدث عن الجنازة والمصاريف، كل شىء بما فى ذلك الشاهد، أى شىء بخصوص الشاهد. "فقالت "چريس": أوه.. لا أريد شيئًا مغرقًا فى الخيال. "

"فى صباح يوم الجمعة الماضى فى منشرة الخشب فى مصنع دود حدثت تلك الحادثة المأساوية الفظيعة. عندما كان المستر "چاك أچنيو" هناك يستطلع تحت حد المنشار تعلق كم قميصه بمسمار برغى مثبت فى المنشار الدائر - من حظه السيئ - وبجذبة قوية أصبح ذراع الرجل ومنكباه ورأسه تحت شفير المنشار بالضبط. وفى لحظة كانت رأس الشاب المسكين قليل الحظ مفصولة عن جسده بزاوية بدأت من الأذن اليسرى وصولاً إلى الرقبة. كان موته نتيجة لذلك فوريًّا. لم ينبس ببنت شفة ولم يمنح وقتًا حتى لإصدارصرخة أو أى صوت يدل على وجود شىء ما. انتبه زملاؤه فى العمل للمصيبة التى حدثت له من شلال الدم المتدفق من رقبته على الأرض. "

هذه هى الرواية التى وردت مطبوعة فى الجريدة بعد حدوثها بأسبوع. نُشرت ليعرفها الذين لم يشهدوها شهود العين، وللذين كانوا يريدون نسخة منها لإرسالها إلى أصدقاء لهم أو أقرباء خارج المدينة (بصفة خاصة الذين كانوا يعيشون فى "كارستيرز" ورحلوا عنها). ورد فى الجريدة خطأ فى حروف كلمة "شفير" وتم تصحيحه

www.ibtesama.com

فى عدد الأسبوع التالى مع اعتذار رقيق عن الغلطة. ورد فى الجريدة أيضًا وصف لجنازة كبيرة للغاية حضرها خلق كثير جاءوا من المدن المجاورة حتى من مدينة "والاى" البعيدة. جاءوا بالسيارات أو بالقطار، وجاء بعضهم بالخيول وعربات البوجى التى تجرها أربعة خيول. لم يكونوا يعرفون "چاك أچنيو" عندما كان على قيد الحياة، ولكن - وكما قالت الجريدة - أرادوا أن يعبروا عن حزنهم للطريقة المأساوية الفظيعة التى لقى بها حتفه. أغلقت جميع المحال التجارية فى "كارستيرز" أبوابها لمدة ساعتين بعد الظهر. لم يغلق الفندق أبوابه، ولكن ذلك لأن جميع القادمين كانوا يريدون مكانًا يتناولون فيه طعامًا وشرابًا.

أهل الميت هم زوجته، "چريس"، وابنة فى الرابعة من عمرها اسمها "ليليان". كان المرحوم من المحاربين الأشداء فى الحرب الكبرى، وعلى جسده جرح واحد من أثر ذلك، ولم يكن جرحًا خطيرًا. علق كثيرون على هذا القدر الذى أخطأه فى الحرب، ولم يخطئه فى المصنع.

لم تذكر الجريدة أن له أبًا كان على قيد الحياة، ولم يكن ذلك عن عمد: لم يكن محرر الجريدة من "كارستيرز"، وقد هم متطوعون بإحاطته علمًا بالأب الموجود، ولكن الجريدة كانت قد مثلت للطبع. حتى الأب لم يشكُ من خلو الجريدة من ذكره. كان يوم الجنازة معتدل الطقس، فبعد الجنازة ترك المدينة وآل دود، على رأسه قبعة من اللباد ومعطف طويل يستخدمه كمفرش عندما كان يضطر إلى أن يأخذ "تعسيلة". كان حذاؤه المطاطى موثقًا فوق حذائه الجلد

www.ibtesama.com

بأربطة بلاستيكية من النوع الذى كان يستخدم فى ربط الأكياس. خرج يصطاد أسماك الشبوط قبل مقدم الموسم. كانت عادته أن يقضى الربيع ثم بواكير الصيف، يطهو ما يصطاده ويأكله. كان يحتفظ بالمقلاة والقدر فى مكان ما على ضفة النهر. كان القدر مخصصًا لغلى الذرة التى كان يسرقها من غيطان الناس. يعيش أحيانًا على ثمار التفاح البرى وحبات الكروم. لم تكن هناك مظنة فى عقله، غير أنه كان يتجنب المحادثة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وعلى كرهه للمحادثة لم يستطع تجنب الكلام مع الناس فى الأسابيع التى تلت وفاة ابنه، ولكنه وجد طريقة يحد بها من الحديث مع الناس.

مشينا فى إثره، واطلعنا على أخباره.

بينما كان يمشى فى البلد ذلك اليوم قابلته امرأة من الذين لم يحضروا الجنازة. هى نفسها لم تسع إلى الدخول معه فى حوار، بل إنها كانت أحرص منه على الصمت والعزلة، خطواتها واسعة محسوبة تضرب بها الهواء بسرعة وحماس.

كان المصنع يشغل مساحة كبيرة من المدينة الصغيرة من ناحية الغرب، أشبه بجدار من تلك الجدر التى كانت تحيط بمدن العصور الوسطى، وكان يتكون من مبنيين كبيرين عاليين أشبه بالهضاب الصغيرة، أو المتاريس المنيعة، يربط بينهما جسر حصين تقع فيه مكاتب الإدارة الرئيسية. تنتشر ورش المصنع عبر المدينة الصناعية وشوارعها التى تقوم عليها بيوت العمال. هنالك توجد أفران الصهر والمنشار الكبير ومغلق الخشب وحجيرات التخزين. تنطلق صفارة المصنع فى وقت معلوم فيستيقظ النائم وينهض المتكاسل

www.ibtesama.com

فى الساعة السادسة بالضبط فى الصباح. ثم تنطلق مرة أخرى إيذانًا ببدء العمل، فى تمام السابعة، ثم تنطلق مرة أخرى فى الثانية عشرة للذهاب إلى وجبة الغداء، ثم تنطلق بعد ذلك فى الواحدة بعد الظهر لبدء العمل من جديد، ثم تنطلق انطلاقتها الأخيرة فى الخامسة والنصف بالضبط فيضع العمال أدواتهم ويذهبون إلى بيوتهم.

كانت التعليمات معلقة بجوار ساعة الحائط يعلوها زجاج، أقرأ عليكم البندين الأولين:

أى دقيقة تأخير عن العمل يعنى خمس عشر دقيقة خصم. لا تتأخر. السلامة ليست مضمونة. احرص على سلامتك وسلامة جارك.

حدثت حوادث فى المصنع بالطبع، على سبيل المثال لقى رجل مصرعه عندما سقطت عليه حمولة من الخشب. حدثت هذه الحادثة قبل آرثر. وقبل الحرب حدثت حادثة أخرى: بُتِرت ذراع رجل، أو بالأحرى جزء من ذراعه. عندما حدث هذا الحادث كان "آرثر" خارج المدينة.. كان فى "تورنتو". لم يرَ حوادث فى حياته أبدًا: لم ير شيئًا خطيرًا من تلك الأشياء التى حدثت. ولكن عقله الباطن ظل يحدثه عن شىء خطير على وشك الوقوع.

ربما لم يكن يتوقع حوادث فظيعة أن تحدث له قبل أن تلقى زوجته حتفها. ماتت عنه زوجته فى عام (١٩١٩)، متأثرة بالإنفلونزا الإسبانية التى انتشرت كالوباء فى ذلك الوقت. هنالك استولى

www.ibtesama.com

الخوف والرعب على الجميع. ولكن "آرثر" لاحظ أن زوجته لم تخف أو تهتز. مضت خمس سنوات الآن على انتشار الوباء ووفاة الزوجة. إن آرثر يعتقد الآن أن وفاة زوجته نقطة تحول فى حياته؛ النقطة التى ودع عندها حياة خالية من الهموم واستقبل حياة أخرى مثقلة بالهم والقلق. ولكن يبدو أنه حرص على ألا تهتز صورته أمام الناس كرجل جاد مسؤول يفي بالتزاماته كلها - لم يلحظ أحد من الناس أى تغير فى حياته.

كانت أحلامه بالحوادث مثقلة بالصمت المنتشر فى الأمكنة، كأن كل شىء قد توقف أو أُحكم غلقه. تتوقف الآلات المنتشرة فى المصنع عن إصدار أصواتها المعتادة، وتوقف العمال والناس عن الكلام، وعندما كان "آرثر" يتطلع من خلال نافذة مكتبه العملاقة كان يعرف أن ما خططت له الأقدار يقع. لم يستطع أن يحدد شيئًا بعينه قد رآه وأخبره عن ذلك. لم يكن هناك إلا الفضاء والتراب المنبعث فى فناء المصنع.. ما يؤكد له حقيقة الوقوع.

لبثت الكتب فى صحن سيارته أسبوعًا أو نحو ذلك، قالت له ابنته "بيا" ذات يوم: "ما فائدة وجود هذه الكتب هنا؟"ثم راح يتذكر:

مرت "بيا" على عناوين الكتب ببصرها مرور الكرام، وقرأت أسماء مؤلفيها. السير جون فرانكلن وحكايات الرحلة إلى الغرب من تأليف چى. بى. سمث، الخطأ فى هذا العالم من تأليف چى. كيه. شسترتون. الاستيلاء على مقاطعة كيبك من تأليف أرشيبولد هندرى، البلشفية: النظرية والتطبيق من تأليف اللورد برتراند رسل.

"البلشفية!" قالت "بيا"، ولكن "آرثر" شرح لها كيف تنطق هذه

www.ibtesama.com

الكلمة بطريقة صحيحة. سألته عن معناها، وقال لها: "إنها شيء كانوا يعرفونه في روسيا، وأنا نفسي لم أفهمه جيداً، ولكن مما سمعته عنها أزعم أنها شيء مشين."

كانت "بيا" في الثالثة عشرة في ذلك الوقت. وكانت قد سمعت عن الباليه الروسي وأيضًا عن الدراويش. ولبثت عامين بعد ذلك تظن أن البلشفية ليست إلا رقصًا يشبه رقص الزار، أو هي ضرب من الرقص المبتذل. هذه هي القصة التي حكتها في الغالب بعد أن شبت عن الطوق.

ولم تقل إن الكتب كانت تتصل بالرجل الذي قضى في الحادث. ذلك من شأنه - في ظنها - أن يُفقِد القصة طرافتها، أو لعلها في الواقع نسيت.

احتارت أمينة المكتبة عند رؤية هذه الكتب؛ فالبطاقات كانت لا تزال على الكتب مما كان يعني أنها لم تُسَجل، وأن هناك من انتزعها من أرففها انتزاعًا.. أو بمعنى آخر سرقها. قالت أمينة المكتبة: "كتاب اللورد رسل مفقود من المكتبة منذ فترة طويلة."

لم يكن "آرثر" متعوداً على مثل هذه التوبيخات، ولكنه قال بأدب وهدوء: "أنا أعيد هذه الكتب بالنيابة عن شخص آخر؛ الشاب الذي لقي حتفه، الذي لقي حتفه في حادث المصنع."

فتحت أمينة المكتبة كتاب فرانكلن، كانت تنظر في صورة القارب الذي غرق في الثلج، وأضاف آرثر: "كلفتني زوجته بإعادة هذه الكتب."

تناولت كل كتاب على حدة، وراحت تهزه فقد يقع شيء، مرت بأصابعها بين الصفحات، كان الجزء الأسفل من وجهها يتحرك

www.ibtesama.com

بطريقة بشعة كأنها كانت تمضغ باطن وجنتيها. قال آرثر: "أعتقد أن هذه الكتب أعجبته فأخذها إلى بيته ليقرأها. "فردت: "آسفة؟ ماذا قلت؟ آسفة. "

قال فى نفسه: إنها الحادثة. فكرة أن الشاب الذى لقى حتفه فى الحادث كان آخر من لمست يداه هذه الكتب، وآخر من فتحها وقلب صفحاتها، التفكير أنه قد يكون ترك بين طيات الصفحات شيئًا يدل عليه، شيئًا أخيرًا يدل على وجوده الذى غاب، كقصاصة ورق، أو منشفة ساق الغليون قد يكون وضعها كعلامة، أو حتى قدر قليلة من التبغ. سبب قلقها وعصبيتها.

قال "آرثر": "ولا يهمك، جئت لأرد الأمانة إلى أصحابها وقد فعلت. "

أدار ظهره مبتعداً عن مكتبها ولكنه لم يخرج من المكتبة على الفور. لم يزر المكتبة منذ سنين. كانت صورة أبيه قائمة هناك بين النافذتين الأماميتين، وحيث ستوجد - فى الغالب - فى المسقبل.

"إى. فى. دود. مؤسس مصنع دود أورجان وراعى هذه المكتبة وزبونها الدائم، نصير التقدم والثقافة والتعليم، والصديق الصدوق لمدينة "كارستيرز" وحبيب الطبقة العاملة. "

كان مكتب أمينة المكتبة يقع فى المدخل بين الحجرات الأمامية والحجرات الخلفية. كانت الكتب على الأرفف مرتبة فى صفوف فى الحجرة الخلفية، تتدلى من سقف الممر مصابيح ملونة بلون أخضر ومربوطة بحبال طويلة. تذكر آرثر ما حدث منذ سنوات فى اجتماع مجلس إدارة المكتبة حين أزمعت الإدارة شراء ستين لمبة كهربائية

www.ibtesama.com

بدلاً من أربعين، كانت أمينة المكتبة هى التى طلبت هذا العدد، ووافقوا على طلبها.

كانت الحجرة الأمامية تمتلئ بجرائد ومجلات تدلت من حوامل خشبية، وببعض طاولات مستديرة ثقيلة، تؤمها مقاعد يجلس عليها الناس ويقرأون، وكذلك كتب كثيرة سمراء اصطفت وراء ألواح من الزجاج: قواميس وأطالس ودوائر معارف. يتوسطها نافذتان أنيقتان كبيرتان عاليتان تطلان على الشارع الرئيس، هنالك تعلقت بين النافذتين صورة كبيرة لآرثر الأب، وأحاطت بأعلى الجدران صور أخرى، صور تعلوها عتمة ثقيلة ومزدحمة بأشخاص لها علاقة بآرثر. (عرف آرثر فيما بعد - عندما كان يقضى الساعات فى المكتبة، وكان يتحدث عن هذه الصور مع آمينة المكتبة - أن إحداهما تصور معركة ميدان فلودين، وصورة ملك اسكتلندة مندفعاً بقوة أسفل التل وسط سحابة كثيفة من الدخان، وصورة أخرى لجنازة ملك روما الصبى، وصورة للشجار الكبير الذى حدث بين تيتانيا وزوجها أوبيرون فى مسرحية شكسبير المسماة: "حلم ليلة صيفاً).

جلس أمام طاولة من طاولات القراءة، من موقع يستطيع منه أن ينظر من خلال النافذة. تناول نسخة قديمة من كتاب الجغرافيا الوطنية كانت موضوعة على الطاولة. كانت أمينة المكتبة وراء ظهره، فقد كان يظن أنها الجلسة المناسبة له لأنها كانت مضطربة المزاج مؤرقة. دخل رواد آخرون وكان يسمعها تبادلهم الحديث، كان صوتها يبدو عادياً الآن تماماً. لبث يفكر فى المغادرة ولكنه لم يفعل.

عشق النافذة المرتفعة العاطلة من الستائر، التى يغمرها ضوء

www.ibtesama.com

الربيع بعد العصر، وعشق فخامة تلك الحجرات، ونسقها المعمارى، استمرأ تلك الغرابة المحببة فى رؤية رواد المكتبة الذى يجيئون ويروحون يقرأون الكتب بإصرار ومثابرة. مر الأسبوع تلو الأسبوع، وفرغ من كتاب بعد كتاب، واكتشف أن العمر كله مر.

تذكر أنه قرأ، مرة، كتاباً فى وقت قصير. عندما أشار به واحد من معارفه، وقد استمتع فعلاً بقراءته، وكان يقرأ المجلات كلها ليكون على صلة بما يحدث حوله فى هذا العالم الفسيح. لم يكن يفرغ من قراءة كتاب حتى يعن له قراءة آخر. قليلاً ما كانت الظروف تسمح له بالجلوس مع أمينة المكتبة وقد خلت المكتبة تماماً من الرواد.

وفى مرة من تلك المرات القليلة أقدمت إليه ووقفت قريبة منه، تتظاهر بأنها تبدل بعض الجرائد المعروضة على الحوامل الخشبية. وإذ فرغت من ذلك توجهت إليه بالحديث فى شوق متحفظ:

"الرواية التى وردت للحادثة فى الجريدة، أظن أنها رواية دقيقة إلى حد ما؟"

وقال آرثر إنه يعتقد أنها رواية دقيقة تماماً.

"ولماذا؟ لماذا تقول ذلك؟"

وقال: "إن الصحفيين يعرفون أن الجمهور يريد أن يقرأ التفاصيل الفظيعة كلها."

فهل كان ينبغى على الصحيفة أن تذعن لما يريده جمهور القراء؟ سألت.

قالت أمينة المكتبة: "أعتقد أن هذا طبيعى، أعتقد أن رغبة الجمهور فى معرفة الأحداث السيئة شىء طبيعى، يريدون قراءتها

www.ibtesama.com

وتصورها، أنا نفسى أرغب فى ذلك، أنا أجهل الآلات وما يحدث فى المصانع، لا أستطيع تصور ما حدث، حتى مع ورود التفاصيل فى الجريدة. فهل أتت الآلة بشيء مفاجئ؟" وأجاب آرثر: "لا.. لم تكن الآلة هى التى أمسكت به وجذبته، كما يفعل الحيوان. كل ما فى الأمر أنه تحرك بطريقة خاطئة، أو تحرك بطريقة لا مبالية. ودفع ثمن هذه اللامبالاة."

لم تقل شيئًا، ولكنها لم تذهب. أما آرثر فقال:

"على المرء أن يستخدم كل ذكائه، لا ينبغى أن يغفل ثانية واحدة. الآلة خادم مطيع، وخادم رائع. ولكنها كثيرًا ما تتحول إلى سيد غبى."

سأل نفسه: هل قرأ هذا الكلام فى جريدة أو مجلة، أم أنه كلام ابتدعه هو الآن؟

قالت أمينة المكتبة: "وأظن لا توجد طريقة يحمى بها الناس أنفسهم؟ وعلى المرء أن يعرف ذلك من نفسه."

وانصرفت عنه لأن زائرًا جديدًا قد دخل.

أعقب الحادثة نوبة من الطقس الدافئ. بدا أن طول ساعات المساء وزيادة درجة حراة الطقس مصدر مفاجأة ودهشة لسكان هذا الجزء من البلاد، وكأنها ليست هذه عادة الطقس كل عام فى أغلب الأحوال. انحسر ماء المطر الذى انهمر إلى حفر المستنقعات الصغيرة أو تحت أوراق الشجر الكثيرة التى سقطت من أغصانها التى تحولت الآن إلى اللون الأحمر. شاعت روائح أفنية المخازن فى البلدة وقد امتزجت برائحة أزهار الليلاك.

www.ibtesama.com

وجد "آرثر" نفسه يقرر التوجه نحو المكتبة بدلاً من التجوال خارج البيت. فى المكان الذى طالما فيه مكث وقرأ، ليجلس فى البقعة نفسها التى فيها جلس عند أول زيارة له إلى المكتبة. كان يريد الجلوس ساعة أو بعض ساعة. ألقى نظرة على مجلة أخبار لندن المصورة، ومجلة الجغرافيا الوطنية، ومجلة ليلة السبت، ومجلة كولير الأسبوعية. كانت تصله تلك المجلات إلى البيت، وكان يستطيع أن يتصفحها جميعًا وهو جالس فى مختلاه يراقب المروج المحاطة بالأشجار الصغيرة التى حافظ عليها "آچنيو العجوز" فى حالة جيدة. لقد كثرت أزهار الزنبق من كل لون بهيج، وشكل مختلف. كان يبدو أنه يفضل التفرج على الشارع الرئيس حيث يرى سيارات الفورد الجديدة تروح وتجىء فى خفة النسيم، أو يرى سيارة أخرى قديمة تتهادى ببطء وقد غطتها قطعة قماش مثقلة بالتراب. كان يفضل منظر مكتب البريد المزدان ببرج قامت عليه ساعة تنبئ عن الوقت أربع مرات لأربع مواقيت مختلفة، وكلها- كما يقول الناس هنا- ليست صحيحة. كان يحب المشى والتلكؤ على الرصيف. هناك يسعى الناس لإصلاح حنفية المياه العامة دون جدوى، فإن أحداً لم يتطوع لتشغليها منذ الأول من يوليو الماضى.

لم يكن ذلك لأن نفسه كانت تهفو إلى الامتزاج فى المجتمع. لم يذهب إلى هناك لكى يتسول حواراً مع الناس كان محروماً منه؛ رغم أنه كان يحب إلقاء التحية على المارة حين يعرف أسماءهم، وكان يعرف أسماء أغلب الناس. وكان يتبادل القليل من الكلمات مع أمينة المكتبة، رغم أن تلك الكلمات لم تكن تتجاوزتحية المساء إذا دخل،

www.ibtesama.com

وتحية الوداع إذا خرج. لم يكن يسبب حرجًا لأحد، أو يثقل على أحد بطلبات من أى نوع. كان يريد لحضوره أن يكون محببًا، مرغوبًا، مطمئِنًا، وفوق هذا وذاك حضورًا طبيعيًا لا يثير قلقًا ولا يتسبب فى ضغينة. ظن أن جلوسه فى المكتبة، وانشغاله بالقراءة والتأمل، هنا فى المكتبة وليس فى البيت، ظن أنه يقدم شيئًا، شيئًا يستنير به الناس ويسترشدون.

شغف بما يسميه الناس "الخادم العام." لم يكن أبوه - الذى يطل عليه الآن بوجنتين تخضبتا بلون وردى خفيف كأنهما لرضيع، وعينين زرقاوين فاترتين، وفم حرون - يحسن الظن فى نفسه إلى ذلك الحد. وإنما كان يحب أن يكون شخصية عامة، أو المتبرع للأعمال الخيرية. كان يدير الأمور بالأهواء والقرارات، فإذا أحس بتلكؤ فى العمل كان يدور حول المصنع، ثم يخاطب الرجل تلو الآخر، ويأمره بالانصراف: "اذهب إلى البيت، اذهب إلى البيت الآن ولا تعد إلىَّ حتى أدعوك." وكانوا ينصرفون. عندئذٍ كانوا يعملون فى حدائقهم، أو كانوا يشغلون أنفسهم فى صيد الأرانب، ثم يبيعون ما يريدون بيعه بالأسعار التى يريدون، وينصاعون للأمر الواقع. كانوا حينئذٍ يقلدون صوته أو نباحه حين يصيح بهم "اذهبوا إلى بيوتكم." كان هو بطلهم وليس "آرثر"، ليسوا مستعدين لطاعة "آرثر" الآن كما انصاعوا للأب. كانوا أثناء الحرب يعملون فى المصنع ويقبضون المال الوفير ويمتثلون لأوامره. لم يتخيلوا أن الحرب سوف تضع أوزارها، وأن سوق العمل سيضيق بالجنود القادمين من الميدان، وستندر الوظائف. لم يفهموا أن هذه الصناعة كانت تجرى بالحظ والإخلاص

www.ibtesama.com

وحـده، من نجـاح إلى نجـاح، ومن عـام إلى عـام، ومن مـوسم إلى الموسم الذى يليه. لم يتحمسوا للتغييرات، ولم يبتهجوا للتحول الذى حدث نحو آلات البيانو التى تعمل آليًا بالهواء المضغوط، والتى يعتقد "آرثر" أنها أمل المستقبل. ولكن "آرثر" كان يفعل ما يحلو له، ولم يكن يذهب فيما كان يفعل مذهب أبيه. مذهبه فى التفكير فى الشىء أكثر من مرة؛ يراقب من بعيد إلا إذا كانت الحاجة إليه ملحة. يحافظ على هيبته وكرامته. ويتحرى العدل فى كل شىء.

العمل متوافر، والرزق موفور، وسيظل موفورًا إلى الأبد، هذا ما كان يظنه الناس فى المدينة. سيظل العمل متوفرًا ما دامت الشمس تشرق كل صباح. وتزداد الضرائب على المصنع، وتفرض الرسوم على المياه التى كانت تتدفق مجانًا فى العهد القريب. وأما الطرق المؤدية إليه فقد أصبحت صيانتها مسؤولية المصنع بعد أن كانت مسؤولية مجلس المدينة. طلبت الكنيسة الميثودية مبلغًا كبيرًا من المال لبناء مدرسة الأحد الجديدة، وأعرب فريق الهوكى فى المدينة عن حاجته إلى ملابس جديدة، وحتى النصب التذكارى فى الميدان فى حاجة إلى أحجار. وفى كل عام يتطوع آل دودز بإرسال الطالب الأول على الثانوية العامة إلى الجامعة على حسابهم.

اطلب، وسوف تُجاب.

وفى البيت زادت الطلبات أيضًا: تبدى "بيا" رغبتها فى الالتحاق بمدرسة خاصة، وتحرضها المسز "چروفز" على شراء خلاط جديد للمطبخ، وغسالة جديدة. كما أن الحاجة أصبحت ملحة لطلاء البيت من الخارج هذا العام، وهذا يحتاج لكمية كبيرة من الدهان، أضف

www.ibtesama.com

إلى هذا وذاك أن آرثر يريد شراء سيارة جديدة - سيارة "كريسلر سيدان" جديدة.

كلها حاجات ضرورية ليس منها مهرب. السيارة الجديدة، والذهاب إلى المدرسة الخاصة، والخلاط الجديد والغسالة الجديدة، وطلاء الجدران، ضرورية للحفاظ على احترام الناس لهم، والثقة فى مكانتهم، وإلا فهى إرهاصات الأفول، وعلامات الانحدار، ستسير الأمور على ما يرام.

لبث أربع سنوات بعد رحيل الأب لا يزايله الشعور بأنه مخادع أفاك، أو قل كان يشعر خلالها بين الحين والحين بأنه مخادع أفاك، ولكن هذا الشعور قد ذهب الآن، ذهب إلى الأبد، ها هو يستطيع أن يجلس هنا ويتأكد من أنه قد ذهب.

كان فى مكتبه عندما حدثت الحادثة يتبادل نقاشًا مع بائع خشب الأبلكاج. تناهت إلى مسمعيه أصوات بعيدة عن المألوف. أصوات تزداد وطأتها على الأذن ولا تميل إلى الهدوء، لم يأبه فى البداية - ربما أثارت غضبه دون اهتمامه. حدثت الحادثة فى منشرة الخشب ولم ينتبه لها أحد فى منافذ البيع أو فى أفران الاحتراق أو فى الفناء، بل واصل العمال أعمالهم لبضع دقائق. والواقع أن "آرثر" كان مشغولاً فى فحص عينات الأبلاكاچ فى مكتبه، ولعله كان آخر من استيقظ للجلبة. ألقى على البائع سؤالاً، ولكن البائع لم يجب. تطلع إليه "آرثر" فوجد فاه فاغرًا دون أن ينبس، ووجهه مخضبًا بالخوف: تملكه الرعب وزالت عنه طمأنينته التى كان يتحلى بها منذ لحظات. وسمع من يصرخ باسمه، باسم آل "دود"، أو "آرثر! آرثر!"

www.ibtesama.com

كما يحلو للعمال كبار السن الذين شهدوا طفولته وصباه. ثم سمع كلمات مثل "المنشار" و "الرأس" و "يا إلهى!يا إلهى!".

ولعل "آرثر" كان يرغب فى الصمت، ولعله كان يتمنى أن تهدأ هذه الجلبة المخيفة ليتمكن من التصرف. ولم يحل الصمت، ولم تهدأ الجلبة المخيفة. تفاقم الصراخ، وشاع التساؤل، وانتشر الهرج والمرج، ووجد نفسه فى وسط الفوضى، ووجد نفسه يقف أمام المنشرة. ويلمح رجلاً يسقط مغشيًا عليه، سقط مغشيًا عليه بعد أن قطعوا التيار عن المنشرة بلحظات قليلة، وإلا نالت منه وقضت عليه. وظن "آرثر" أنه الضحية التى أثارت الفوضى والصراخ. ولكنه يرى الأيدى تمتد إلى جثة الرجل الذى فقد الوعى وتزيحه عن الطريق. ويرى أن نشارة الخشب كانت قد اتخذت لونًا قرمزيًا، تخضبت بالدم المراق. ويرى أن ألواح الخشب وشفرات المنشار قد تبعثرت، ويرى أن هناك ملابس عمل قد نُقِعَت فى الدماء وأُلْقِى بها على نشارة الخشب، ويدرك "آرثر" أنها جثة القتيل، يرى الجذع، ويرى الأطراف بعد ذلك. لقد سالت دماء غزيرة فاختفت معالمه.

أول شىء فكر فيه أنه عمد إلى الجثة فأسدل عليها سترته؛ أراد أن يقترب من الجثة ويقوم بسترها فتعثرت بها قدماه، لم يعمد أحد إلى تغطية الجثة بجاكتته لأن أحدًا لم يكن يرتدى جاكتة غير "آرثر".

سمع من يصرخ: "هل ذهب من يستدعى الطبيب؟" وسمع آخر يقول بأسى: "هل يستطيع الطبيب إعادة الرأس إلى الجذع؟" هل يستطيع؟

www.ibtesama.com

ويصدر "آرثر" أوامره بإحضار الطبيب - كان يعتقد أن حضور الطبيب لا غنى عنه. لابد من حضور الطبيب فى مشهد الموت، وللموت تداعيات أخرى لا بد منها: الطبيب، الحانوتى، الكفن، الزهور، والقس. وتسارعت الخطى، وتفرقت المهام. يأمر بمن يزيل النشارة المخضبة بالدم، ومن ينظف المنشرة، وبمن كان قريبًا من المكان أن ينظفوا ملابسهم من الدم العالق. وأن يحملوا الرجل الذى أغمى عليه إلى حجرة المطعم، ويسأل هل هو بخير؟ ويأمر السكرتيرة أن تعد الشاى.

تلك لحظات يجدى فيها البراندى أو الويسكى وليس الشاى. غير أنه يمنع تناول هذه المشروبات فى مصنعه.

بقى شىء: أين هو؟ هناك، قالوا، هناك، وسمع "آرثر" صوت تقيؤ، ليس ببعيد. حسنًا، فإما أن يحمله من على الأرض، أو يأمر بمن يحمله. صوت القىء هدأ من ثورة نفسه، ألهمه بتصميم لا يجر مسؤولية، رفعه من على الأرض، حمله برفق متحريًا الأمن، رفق من يحمل "فازة" غريبة الشكل ولكنها نفيسة. حال بين الوجه وبين النظرات المستطلعة، كأنه يهدئ من روعه، وضمه إلى صدره. تسرب الدم على قميصه، والتصق بجسمه، الدم الدافىء. انتابه شعور بأنه رجل جريح، أدرك أن العيون تراقبه، واقتحمه إحساس بأنه ممثل على مسرح، أو قس يوزع الرحمات، وتصرف، وضعه على الأرض، أعاده إلى مكانه القديم، سعى إلى ضبط وضع الرأس على الجذع، ولكن القدر لا يعيد آثار ما أنفذ. عدل من وضع الجاكتة على الجسد المسجى.

www.ibtesama.com

لم يتشجع للسؤال عن اسم الرجل. فليتحر الاسم فيما بعد، فى مناسبة أخرى، الجهل لا يصح باسم رجل كان مخلصًا فى عمله فى هذا المصنع.

ولكن تبدى لـه أنه لا يجهل الاسم، تذكره، تذكره بينما كان يغطى بطرف جاكتته الأذن التى لم تزل فى مكانها لم يمسها سوء كأنها لم تزل تعمل، أسعفته الذاكرة باسم الرجل. هو ابن لرجل كان يأتى إلى المصنع ليصلح من أمر الحديقة، ولم يكن يعول عليه. شاب وافقت إدارة المصنع على استخدامه بعد عودته من الحرب، فهل كان متزوجًا؟ لابد أنه كان متزوجًا. لابد أن يخبر زوجته. السرعة مطلوبة، فلينظف ملابسه أولاً.

كانت أمينة المكتبة ترتدى - فى الغالب - "بلوزة" بلون أحمر غامق، وتضع على شفتيها لونًا ورديًا يضاهى لون "البلوزة،" وقصت شعرها قصيرًا. لقد رحل شبابها، لم يبق منه غير نظرات عينيها الآسرتين. تذكر عندما وافقوا على عملها فى المكتبة أنها كانت ترتدى ملابسها دون إسراف أو بهرجة، ولم يكن شعرها قصيرًا تلك الأيام المنطوية - بل كان مطويًا على رأسها كموضة ذلك الزمان، ولكن لونه لم ينصل - لون دافىء محبب، كلون أوراق الشجر - أشجار البلوط بالتحديد - وقت الخريف. كم كانت تتقاضى أجرًا؟ لم يتذكر. لم تكن تأخذ الكثير، بالتأكيد، ولكنها لم تبد تبرمًا ولا اعتراضًا. أين كانت تسكن؟ أكانت تسكن فى بيت من البيوت التى تقدم الطعام لنزلائها؟ أم كانت تسكن مع المدرسين؟ لم تسكن هناك. كانت تسكن فى اللوكاندة التجارية.

www.ibtesama.com

ويتذكر شيئًا آخر؛ شيئًا ليس هو بالقصة التى يستطيع تذكرها بالكامل، لا يستطيع أن يجزم باطمئنان بأن الفتاة كانت سيئة السمعة. ولكنها لم تكن سمعة تخلو من شوائب أيضًا. قيل إنها كانت تشرب الخمر مع المسافرين، وربما اتخذت من بينهم رفيقًا؛رفيقًا أو اثنين.

والحق أنها كانت ناضجة فلم لا تفعل ما تريد؟ لم تعمل مدرسة جاءت لبعض الوقت لتضرب المثل. طالما تتقن عملها - والجميع يشهد بذلك - من حقها أن تعيش حياتها، كأى إنسان آخر. فهل كان الناس يريدون امرأة رثة الثياب سيئة الطبع مثل "مارى تامبلين"؟ يأتى الغرباء إلى المدينة، وهم يحكمون عليها بما يرون. أنت تريد إذن امرأة رفيعة التهذيب وذات أدب جم.

يكفيك هذا، ومن قال إنك لا تريد؟ على ذلك النحو كان عقله يضطرب بالأفكار، وعلى ذلك النحو كان يقيم معها حوارًا فى الخيال كأن شخصًا يمثل أمامه يجادله ويعترض على ما يقول. وما ذلك السؤال الذى بادرت به فى ذلك المساء عن الآلة؟ ماذا كانت تعنى به؟ أم كانت طريقتها الخبيثة فى إلقاء اللوم؟

تحدث معها عن الصور والإنارة. حكى لها كيف كان أبوه يرسل عماله الذين كانوا يعملون فى مصنعه إلى هنا، يدفع لهم المال لكى يعملوا فى بناء المكتبة والأرفف، ولكنه لم يتحدث معها عن الرجل الذى استعار الكتب من المكتبة دون علمها. جمع الكتب ووضعها تحت معطفه وتلمس طريقه إلى الخارج، لعله لم يفعلها قبل اليوم ولا بعده. تحت معطفه!؟ وأعادها بالطريقة نفسها، وأعادها بالتأكيد،

www.ibtesama.com

فهل أعادها بوازع من ضميره، أم كانت له زوجة لم تصبر على ذلك؟ هل ثمة علاقة ما؟ أقصد علاقة بين فعلة كهذه وطبيعة الشخصية نفسها؟ أتوجد علاقة بين شخص كهذا يستعير الكتب دون علم المكتبة ويعيدها بالطريقة نفسها وبين التحرك عند المنشار حركات غير محسوبة فتمسك الآلة بكم قميصه ولا تلبث أن تضع عنقه تحت حد المنشار؟

قد توجد علاقة.

ذات مساء قال لأمينة المكتبة: "أتذكرين الشاب - صاحب الحادثة، والطريقة التى استعار بها الكتب؟ فى رأيك لماذا فعل ذلك؟" وقالت أمينة المكتبة: "الناس أحيانًا يفعلون أشياءً غريبة، أحيانًا يمزقون بعض الصفحات على أساس أنها تتضمن أشياءً لم تعجبهم، أو العكس: يمزقونها لأنها تتضمن أشياء أعجبتهم. لست متأكدة."

"وهل قام هذا الشاب بتمزيق صفحات؟ وهل قمت أنت بإسداء النصح له؟ بمعنى أنه أصبح يخاف من مواجهتك؟"

كان يقصد إلى مداعبتها قليلاً، وهو فى الواقع يعنى أنها لم تكن بالتى تخيف الناس، ولكنها لم تفهم ما كان يرمى إليه، فقالت له باستياء: "وكيف أفعل ذلك وأنا حتى لم أبادله أى حديث؟ أنا لم أره أبدًا، لم أره أبدًا لأعرف من هو."

وابتعدت بعد أن وضعت حدًا للحوار؛ فهى إذًا لا تحب الدعابة، فهل كانت من هؤلاء الذى احترقوا بنار تجربة عشق أخفقت، وتراهم الآن قد أغلقوا قلوبهم بأقفال ثقال؟ أيشقى قلبها بسر لا نعرفه؟ أم فقدت فى الحرب حبيبًا؟

www.ibtesama.com

وفى أمسية من أماسى الصيف، أثارت الموضوع معه وهو الذى قرر ألا يتحدث فيه أبداً: "هل تتذكر حديثنا عن الشاب الذى قضى فى الحادثة؟" وأجاب آرثر بنعم، فقالت له بتحفز: "لدى ما أريد أن أضيفه مما قد تراه غريباً."

وأومأ لها استعداداً لسماعها:

"كل ما أطلبه منك أن يكون هذا سراً بينى وبينك."

"طبعًا... طبعًا."

"أتتذكر شكله؟"

شكله؟ استغرب آرثر من سؤالها، استغرب من سؤالها والسر الذى تريد أن تخفيه - من الطبيعى أن تهتم بشكل الرجل الذى دخل المكتبة وتسلل منها حاملاً الكتب التى أخذها دون إذنها - ولكن آرثر لم يكن يعرف شكله، فهز رأسه علامة على العجز. لم يستطع استحضار صورة "چاك أچنيو" إلى ذهنه القلق. قال: "هل هو طويل العود، ربما كان للطول أقرب. هذا كل ما أعرفه. عموماً لست من يسأل عن ذلك، أستطيع التعرف على أى رجل حين أقابله مرة ثانية ولو طال الزمن، ولكن الأوصاف الشكلية لا طاقة لى على حفظها، حتى لو قابلت المرء كل يوم."

وردت: "أعتقد أنك أنت وليس غيرك من يُسأل عن هذا - سمعت أنك أنت من يُسأل - أنت الذى حملته من فوق الأرض، وحملت رأسه على صدرك،" فقال "آرثر" ضجراً: "لا أظن أن من كان يراه فى تلك الحال يتركه ويمضى ببساطة."

لكنه أحس بأن ظنه خاب فى تلك المرأة التى تحدثه الآن، توجس منها وأحس بالخجل. ولكنه قرر أن يحرر صوته من نبرة اللوم مؤثراً

www.ibtesama.com

الواقعية. "الواقع أنى نسيت حتى لون شعره - لقد ضاعت معالمه تماماً فى تلك اللحظة. "

ولزم الصمت هنيهة، وحول وجهه بعيداً عنها. قالت: "قد يبدو لك إننى واحدة من أولئك الذين يحبون هذه الأمور أو يتحرونها. "

همهم آرثر محتجًا، ولكن ما استقر فى نفسه أنها من أولئك الذين تزعم أنها ليست منهم، ولكنها أردفت: "لم يكن لى أن أسألك، لم يكن من حقى أن أتحدث معك فى الموضوع من أصله، لن أستطيع أبداً أن أفسر لك ما سألت، كنت أريد أن أسألك وكفى، وأرجو ألا تظن أبداً أننى من ذلك النوع من الناس. "

سمع "آرثر" كلمة "أبداً" تتردد على لسانها، لن تستطيع أبداً أن تفسر، وهو لن يظن أبداً. وفى خضم خيبة الأمل وزيف التوقع لاح له أن الحواربينهما لن يصل إلى نهايته، وربما على النحو المقصود هذه المرة. اصطبغ صوتها بمسحة تذلل، ولكن يبدو أنه تذلل من يطمئن إلى وضوح الطريق، اطمئنان له علاقة بالجنس.

أم هل كان يراوده التفكير لأن الوقت تصادف أن كان مساء السبت؟ مساء السبت فى الشهر الذى فيه كان يذهب إلى "ولاى. " كان فى طريقه إلى هناك تلك الليلة، وعن له التوقف فى طريقه فى هذا المكان دون أن يقصد المكث مدة كتلك التى مكثها الآن. تلك كانت الليلة التى قصد فيها إلى زيارة سيدة تُدعى "جين ماكفيرلن". كانت "جين ماكفيرلن" قد انفصلت عن زوجها، ولكنها لم تفكر فى الطلاق. لم يكن لها أبناء. وكانت تكسب لقمتها من عملها كخياطة. قابلها "آرثر" أول مرة عندما أتت إلى بيته لتخيط ثياباً لزوجته. لم

www.ibtesama.com

يحدث شيء بينهما في ذلك الوقت، ولم يفكر أي منهما في شيء.
كانت "جين ماكفرلين" تشبه أمينة المكتبة في كثير من وجوه الشبه - حسنة المظهر، رغم تقدمها في السن، جريئة، أنيقة الهندام، وتتقن عملها. وفي وجوه أخرى لا تشبهها. لم تكن "جين" تشبه أمينة المكتبة التي تسأل عن رجل يبدو لـ "آرثر" لغزًا، وتتحرى معلومات لا تفضي إلى شيء. كانت جين من ذلك النوع من النساء اللائي يلقين الطمأنينة في قلب الرجل. حديثه معها يشبه حديثه مع زوجته.

تقدمت أمينة المكتبة إلى مفتاح النور الرئيس القريب من الباب وأطفأت الأنوار كلها، أغلقت الباب وتوارت هنيهة خلف الأرفف لتكمل إطفاء الأنوار هناك على مهل. كانت ساعة المدينة تعلن عن التاسعة. وهي واثقة أنها التاسعة رغم الثلاث دقائق التأخير في ساعة يده.

حان وقت الذهاب، حان وقت الذهاب إلى "والاي".

وإذ فرغت من إطفاء الأنوار أقدمت إليه وجلست أمامه على المائدة. قال: "لم أصدق أبدًا أنك تَعِسة في حياتك. "

لم يكن إطفاء الأنوار يعني الظلام الدامس، كانا في منتصف الصيف، ولكن يبدو أن سحبًا كثيفة راحت تتكون منذرة بمطر غزير. عند آخر نظرة ألقاها "آرثر" على الشارع كانت بقية من أنوار النهار لم تزل تضيء الوجود؛ وكان سكان المدينة الصناعية لا يزالون يتبضعون، والصبية يتحلقون حول حنفية المياه العمومية؛ والفتيات اليافعات يرحن ويجئن، يرفلن في ملابس الصيف الوردية الناعمة الرخيصة، أمام الصبية الذين راحوا يتطلعون إليهن من حيث يجلسون - على سلم مكتب البريد، أو عند دكان البقالة. وهو ينظر

www.ibtesama.com

الآن إلى الشارع فيراه يهتز بفعل الرياح الهادرة المحملة بقطرات من المطر. راحت الفتيات يصرخن ويتضاحكن، ويرفعن حقائبهن فوق رؤوسهن وهن يهرعن إلى المخبأ؛ فيما كان موظفوا المحل يسدلون الستائر، ويسحبون سلال الفاكهة، وحوامل الأحذية الصيفية، وآلات العناية بالحدائق المعروضة على أرصفة الشارع. صكت الآذان أصوات أبواب مطعم المدينة الصناعية وهى تُفْتَح وتُغْلَق أمام العاملات فى المزرعة، يُمْسِكْن بصناديق وصرر وأطفال، ويلقين بأنفسهن فى حجرة مقاعد السيدات، وحاول بعضهم فتح باب المكتبة. وألقت أمينة المكتبة نظرة على باب المكتبة ولكنها لم تحاول فتحه، ولم نلبث أن رأينا القطار ينساب كما تنساب الستائر على المسرح، والريح تضرب سقف مطعم المدينة، وتزمجر عند ذؤابات الأشجار المشرئبة. استمر الصخب والخطر دقائق قليلة فيما كانت قوة الرياح تتراجعشيئًا فشيئًا. لم يبق إلا صوت القطار الذى راح هديره ينخفض ثم يعلو كأن شلالاً من الماء قد داهم المخلوقات.

هل يحدث ما يحدث الآن فى "ولاى" أيضًا؟ وهل تكف جين عن انتظاره؟ كان هذا آخر ما حدث به نفسه فيما يخص العلاقة بينه وبينها.

وقال أيضًا فى نفسه إن السيدة "چروفز" رفضت أن تغسل ملابسه واستغرب لسلكها، وكانت خائفة من أن تلمسها.

وقالت أمينة المكتبة بصوت مرتجف خجول ولكنه واثق: "أعتقد أن ما فعلته كان رائعًا."

واشتد صوت المطر فجأة ليعفيه من الإجابة، وحانت له الفرصة لإنعام النظر فى وجهها. غمرتها مياه المطر فظهرت صورتها الجانبية

www.ibtesama.com

مشرقة فى النور الجزئى تحت النوافذ. كانت تعبيرات وجهها هادئة مستهينة بالخطر، أو هكذا بدا له. أيقن أنه لا يعرف عنها الكثير - فمن أى نوع من البشر تكون؟ وأى أسرار ينطوى عليها ذلك القلب الصغير؟ كيف تراه؟ وهل يعرف قدره عندها؟ يعرف أنها تقدره ولكن إلى أى مدى؟

لا يستطيع أن يصف ما تشعر به نحوه إلا كما يصف الرائحة، أو سفعة الكهرباء، أو حبات القمح وقد أصابها اللهب. كلا.. إنما هى مثل برتقالة مرة المذاق. استسلمت.

لم يكن يتخيل أن يواجه موقفًا كهذا الموقف، مدفوعًا هكذا بإلحاح لا يقاوم، ولكنه لم يكن غير مستعد، ودون أن يفكر مرتين أو حتى مرة واحدة فيما يريد أن يقوله: "أريد أن ... "

كان صوته منخفضًا فلم تسمعه.

رفع صوته، قال: "أريد أن أتزوجك. "

حدجته بنظرة، ضحكت ولكنها تراجعت عن التمادى وهى تقول: "آسفة، آسفة. أضحك لأن التفكير نفسه كان يجول بخاطرى قبل أن تتفوه به. "

قال: "أى تفكير؟"

"قلت فى نفسى إن ذلك آخر عهدى به. "

قال آرثر: "أنت على خطأ. "

شهداء تولبدل(١)

توقفت حركة قطارات الركاب فى "كارستيرز" أثناء الحرب العالمية الثانية، وقيل إن السكة الحديدية نفسها قد صودرت، كما يقول

www.ibtesama.com

الناس، من أجل المجهود الحربى. عندما ذهبت "لويزا" إلى المدينة العاصمة لرؤية طبيب القلب، فى منتصف الخمسينيات، كانت مضطرة إلى ركوب الأوتوبيس، لقد نصحها الطبيب بأن تتوقف عن القيادة.

قال طبيب القلب إن قلب "لويزا" معتل بعض الشىء، وإن دقاته تتميز بتغيرات مفاجئة. وعلقت هى قائلة بأن هذا يجعل قلبها أشبه بجرو صغير شُد إلى حبل. وقالت إنها لم تسر خمسة وخمسين ميلاً لكى تعامل فى النهاية بهذه الخفة، ولكنها لم تحفل آخر الأمر بذلك، فقد تسلت بما قرأته فى حجرة الانتظار فى عيادة الطبيب، وربما ما قرأته هناك هو الذى جعل دقات قلبها سريعة التقلب. قرأت فى جريدة محلية فى صفحة داخلية عنوانًا لمقال: "تكريم شهيد محلى، " واستمرت فى القراءة تزجية للوقت، قرأت أن هناك احتفالاً سيقام مساء ذلك اليوم فى ميدان فكتوريا. كان الغرض منه تكريم شهداء تولبدل، وورد فى الجريدة أن قليلاً من الناس سمعوا عن شهداء تولبدل، وبالتأكيد لم تكن منهم "لويزا". كانوا ستة رجال تمت محاكمتهم وإدانتهم لأنهم حلفوا يمينًا يجرمه القانون، هذه الجنحة الغريبة التى ارتكبها الستة منذ ما يزيد على مائة عام فى قرية "تولبدل"فى "دورسيه" فى إنجلترا، قضت بترحيل مرتكبيها إلى أستراليا، وفيما بعد انتهى ببعضهم المطاف إلى "أونتيريو"، كندا، حيث عاشوا ما تبقى لهم من الحياة، وماتوا ودفنوا دون إشارة إلى ضريح أو سعى لإحياء ذكرى. يحتفل بهم الناس اليوم بوصفهم من المؤسسين الأوائل للحركة النقابية التجارية. وتضيف الجريدة أن

www.ibtesama.com

مجلس الاتحادات التجارية، وممثلى نقابة العمل الكندية، وبعض رجال الدين فى الكنائس، قاموا بتنظيم الاحتفال ليُقام اليوم بمناسبة مرور مائة وعشرين عاماً على القبض عليهم ونفيهم.

تساءلت "لويزا" فى سرها: "شهداء؟" هم فى نهاية المطاف لم يُعدموا.

كان من المقرر أن يتم الاحتفال فى الثالثة، وتقرر أن يكون من بين المتحدثين الرئيسيين أحد القساوسة المحليين والسيد چون (چاك) أچنيو، وهو متحدث باسم نقابة العمال فى تورونتو.

كانت الساعة الثانية والربع عندما خرجت "لويزا" من عيادة طبيب القلب. ظلت الحافلة التى كانت متجهة إلى "كارستيرز" واقفة حتى السادسة. انتظرت "لويزا" فى المحطة وتناولت شاياً وطعاماً من محلات "سمبسون"، ثم اتجهت إلى محلات "بيرك" لهدايا المناسبات، وعندما سمح الوقت قررت مشاهدة فيلم العصر. يقع ميدان فكتوريا بين عيادة الطبيب ومحلات "سمبسون، " وقررت "لويزا" عبور هذه المسافة القصيرة. كانت حرارة الجو قاسية مما ألجأها إلى ظل الأشجار. سارت بين مقاعد مرصوصة لم تستطع تجنبها، ومنصة صغيرة للخطابة مكسوة بقماش أصفر، على جانب منها قام علم كندا، وعلى جانب آخر علم آخر خمنت أن يكون علم اتحاد العمال المحتفى به. احتشد جمع من الناس ووجدت نفسها ترتد لتستطلع الأمر. من بين الجلوس رجال متقدمون فى السن، يرتدون ملابس بسيطة ولكنها أنيقة، ونساء يعصبن رؤوسهن بمناديل اتقاءً للحر. قالت فى نفسها: "أوروبيون. " وآخرون عمال مصانع، رجال يرتدون

www.ibtesama.com

قمصانًا قصيرة الأكمام، ونساء يرتدين "بلوزات" جديدة وبنطلونات فضفاضة، سُمِح لهن بالخروج قبل نهاية الدوام، ويبدو أن بعض السيدات قدمن من البيت مباشرة لأنهن كن يرتدين ملابس الصيف وصنادل ويصطحبن أطفالهن. ظنت "لويزا" أن أحداً لن يهتم بملابسها - الأنيقة، دائمًا، من صوف "الشانتونج" تحت قلنسوة من الحرير القرمزى - ولكنها رأت، فى تلك اللحظة، سيدة ترفل فى ثياب أكثر أناقة من الحرير الأخضر وقد انساب شعرها الداكن على عاتقيها فى خصلة واحدة شدت بوشاح مزيج بين الأخضر والذهبى. يبدو أنها فى الأربعين، ويبدو على وجهها التعب ولكن الملاحة تقطر من جوانبه. تقدمت من "لويزا" فجأة ووجهها مشرق بابتسامة، وقربت لها مقعداً وأعطتها ورقة منسوخة. لم تستطع "لويزا" قراءة الكتابة الوردية على الورقة. ألقت نظرة على بعض الرجال الذين كانوا يتحدثون إلى جانب المنصة، هل كان من بينهم الخطباء؟

لم تنجذب "لويزا" للتشابه فى الاسم. لم يقع الاسم الأول ولا الأخير على مسمعيها موقع الغرابة، لم تكن تعرف لماذا جلست؟ أو لماذا ذهبت من الأصل؟ اجتاحها إعياءٌ شديد ونفور يعاودها بين الحين والحين إلى أن عرفت أنها ارتكبت بالمجىء حماقة. عليها الآن أن تنهض من مقعدها وتغادر المكان قبل أن يزدحم ويعوق حركتها.

ولكن المرأة التى ترتدى الحرير الأخضر اعترضت الطريق، وسألتها عن حالها، وردت "لويزا" بصوت أجش: "مضطرة إلى أن ألحق بالأتوبيس، " ثم بعد أن تنحنحت وخفضت من عصبيتها: "مشوارى طويل. " وغادرت المكان عكس اتجاه محلات سمبسون.

www.ibtesama.com

خطر فى بالها ألا تذهب إلى هناك، ولن تذهب إلى محلات "بيركز" لشراء هدية حفل زواج، ولا إلى السينما. قررت الذهاب إلى محطة الأتوبيس وتجلس هناك حتى يحين السفر.

وقبل أن تصل بقليل تذكرت أن محطة الأتوبيس لم تكن هى التى نزلت فيها عند القدوم ذلك الصباح. كانت المحطة تخضع لتجديدات كثيرة، يبدو أنها كانت تُبنى من جديد - تذكرت المحطة الاحتياطية التى تقع على بعد عمارات قليلة من المحطة المحطمة. نسيت الشارع - لعله شارع "يورك، " شرق المحطة الأصلية، أو شارع "كنج؟" على أية حال اضطرت إلى الدوران حول نفسها كثيرًا؛ لأن الشارعين كليهما قد خرجت أحشاؤهما، وكادت تتحقق من أنها تاهت عن الطريق لولا أنها أدركت أن الحظ كان يحالفها عندما عادت إلى المحطة الاحتياطية من الطريق العكسى. كان بيتًا قديمًا - بيتًا قديمًا عاليًا مبنيًا من الطوب الأصفر المائل إلى الرمادى، يعود إلى أيام كان المكان حيًا سكنيًا. استخدمته البلدية محطة أتوبيس قبل أن يتقرر هدمه. ولعل البيوت المحيطة به كلها قد تعرضت للهدم لتوفير المكان للحافلات، ولكن بعض الأشجار لم تزل قائمة تحيط بالجوانب الأربعة، تآتنس تحتها صفوفًا قليلة من المقاعد لم تنتبه لها عندما نزلت من الأوتوبيس فى الصباح. كان اثنان يجلسان فى شرفة المحطة على مقاعد الأتوبيس القديمة. كانا يرتديان القمصان التى عُلّقت عليها شارات شركة الأتوبيس، ولكن حماسهما للعمل بدا أنه فتر؛ فلم ينهضا عندما سألتهما: هل سيغادر أوتوبيس "كارستيرز" فى تمام السادسة كما هو مبين فى الجدول؟ ومن أين تحصل على زجاجة كولا؟

www.ibtesama.com

قالا لها إن الأتوبيس سيغادر فى السادسة تماماً.

وقالا لها إن السوبر ماركت فى نصف الشارع.

وقالا لها إن المحل لا يوجد به غير الكوكاكولا والبرتقال فى وعاء التبريد.

استخرجت لنفسها الكوكاكولا من ماكينة تبريد قائمة فى حجرة تقع فى حجرة الانتظار تغشاها رائحة حمام مهترئ. إن نقل المحطة إلى ذلك البيت المتداعى قد ساعد على شيوع اللامبالاة والكسل فى نفوس الناس. كانت المكتب يزدان بمروحة فى وسطه، وفى سعيها إلى الخروج رأت أوراقًا تحت المائدة. صاحت موظفة المكتبة: "ياه... مصيبة!" ووضعت كاحليها على الأوراق.

لدى خروجها أدركت "لويزا" أن المقاعد التى استقرت تحت ظلال الأشجار تعلوها طبقة كثيفة من تراب المدينة، مقاعد خشبية قديمة تخضبها ألوان مختلفة بدت كأنها قدمت من مطابخ شتى. انتشرت أمام تلك المقاعد قطع بالية من السجاد وأجزاء من المطاط استقرت عند مدخل الحمام لتنظيف الأقدام من الرمل العالق. وعلى الأرض على مقربة من المقاعد تهافت ما بدا لها عجلاً أبيض جفلت منه "لويزا" ورمته بنظرة شزراء يبدو أنه استجاب لها فنهض ليتمخض هيكله عن كلب علته القذارة اضطرب وحدق فيها هنيهة بشىء من الجدية شبه الرسمية، ثم طفق يتحسس حذاءها بأنفه وأسرع بالهرب.

تذكرت أنها كانت تريد الأنبوبة التى بها تحتسى الكوكاكولا، ولكن همتها فترت فى العودة والبحث. أفرغت محتويات القارورة فى

www.ibtesama.com

جوفها وهى ترجع برأسها للخلف وتغمض عينيها، وعندما فتحتهما لاح لها أن رجلاً يجلس على مقعد على مقربة منها ويتوجه إليها بالحديث:

"كنت أجيء إلى هنا كلما كان ذلك فى استطاعتى، أخبرتنى "نانسى" أنك تريدين اللحاق بالأوتوبيس. جئت هنا بمجرد أن فرغت من كلمتى، ولكنى اكتشفت أن المحطة قد تهدمت كلها. "

"مؤقتًا.. " قالت.

قال: "عرفتك بمجرد أن رأيتك، برغم.. السنين الكثيرة التى انطوت. عندما رأيتك، كنت مشغولاً بالحديث مع أحدهم، وإذ فرغت من الحديث رحت أنظر خلفى لأجد أنك اختفيت، "عندئذٍ قالت "لويزا":

"لم أعرفك. "

"لا.. أظن أنك لا تعرفيننى، طبعًا، ولن تعرفينى. "

كان يرتدى بنطلونًا أسمر، وقميصًا ذا لون أصفر فاتح وكُمّين قصيرين، ورباط عنق ذا لون أصفر شاحب مفلطح عند الطرفين. لاحظت أنه شديد التأنق على غير المألوف من رجل ينتمى للنقابات، كان شعره أبيض، ولكنه كثيف متموج، نوع من الشعر الرشيق يترقرق على جبينه رفعًا وخفضًا. كانت بشرته مخضبة بحمرة وردية، والتجاعيد تعلو وجهه ربما من إعياء الخطابة، أو بسبب الأحاديث التى أدلى بها للناس ردًا على أسئلة مدفوعًا بما شاع فى جسده من حماس بسبب تشجيع الحضور. كان يرتدى نظارتين بلون فاتح، خلعهما الآن كأن الأمل كان يحدوه فى أن تراه بشكل أوضح. فى عينيه زرقة خفيفة وبعض الدم الذى خضب البياض ربما من شدة

www.ibtesama.com

القلق وترقب الشر. رجل حسن المظهر حقًا، أنيق حقًا، ربما فيما عدا انتفاخ خفيف يعلو الحزام. ولكن "لويزا" لم تنجذب إلى تلك الملامح والملابس الأنيقة، والشعر الرقيق المتموج وتعبيرات الوجه المليحة. لم تنجذب. كانت تفضل الملامح التى كان "آرثر" يتمتع بها، ورزانته الجليلة ووقاره المهيب، وإن كان الناس يسمونه بالأبهة والغرور وبدا لها سمتًا محببًا بريئًا. قال لها الرجل:

"كنت أريد كسر الحاجز النفسى بينى وبينك، كنت أريد أن أتحدث إليك، كان يجب أن أدخل وأرحب بك على الأقل، ولكنى اضطررت إلى المغادرة فجأة."

ولم تجد "لويزا" الكلمات التى بها ترد.

تنهد وهو يقول: "لابد أنك منى غاضبة؟ألا زلت غاضبة منى؟"

قالت وهى ترجع برأسها إلى الخلف فى حركة عفوية تجتاحها فى مثل هذه المجاملات الخفيفة: "لا، ولكن كيف حال چريس؟ وكيف حال ابنتك ليليان؟ ليليان؟"

"چريس ليست على ما يرام، تعانى من ألم المفاصل، وبدانتها المتزايدة لا تعينها عليه، ليليان على ما يرام، متزوجة ولا تزال تدرس فى المدرسة الثانوية؛تدرس الرياضيات على غير المألوف من النساء."

هل همت "لويزا" بتصحيح ما يقول؟ هل قالت له: لا، إن زوجتك "چريس" تزوجت مرة أخرى أثناء الحرب، تزوجت من فلاح فقد زوجته؟ وقبل أن تتزوج كانت تأتى إلينا وتنظف منزلنا مرة كل أسبوع. لقد تقدمت المسز "چروفز" جدًا فى السن، وإن ليليان لم تتخرج من التوجيهية، فكيف تصبح مُدَرِّسة فى مدرسة ثانوية؟

www.ibtesama.com

تزوجت صغيرة وأنجبت عدداً من الأطفال، وعملت فى سوبر ماركت. فى طولك تقريبًا ولها الشعر المتموجنفسه الذى صبغته إلى اللون الأشقر. كنت أتأملها وكنت أقول فى نفسى لابد أنها مثلك، وعندما كبرت كنت أعطيها ملابس ابنة زوجى القديمة.

بدلاً من ذلك قالت: "إن المرأة التى ترتدى اللون الأحمر - هذه ليست ليليان؟"

"نانسى؟ أوه لا! نانسى هى ملاكى الحارس، إنها تتبعنى أينما آذهب، وحينما أذهب، وأثناء خطابى، وما أشرب، وما آكل، الحبوب التى أتناولها، فأنا على ما يبدو أعانى من ضغط الدم المرتفع. الأمر ليس خطيراً، ولكن أسلوب حياتى لا يساعدنى. فأنا دائمًا على سفر، الليلة مثلاً سوف أسافر إلى أوتاوا، وغداً عندى اجتماع ممل، وغداً مساءً مدعو إلى عشاء سخيف."

ووجدت "لويزا" نفسها مضطرة إلى أن تقول: "هل عرفت أنى تزوجت؟ تزوجت من "آرثر دود."

واعتقدت أنه سيبدى بعض الدهشة "ولكنه قال. "أجل، سمعت عن ذلك. نعم."

واستمرت "لويزا" تقول بجدية: "آرثر مات منذ ستة أشهر، حاولنا الحفاظ على استمرار المصنع فى العمل خلال سنى الثلاثينيات كلها، حتى عندما مرت أوقات انخفض فيها عدد العاملين فى المصنع إلى ثلاثة رجال. لم يكن لدينا أية أموال لعمل صيانات، وأتذكر كيف قطع "آرثر" مظليات النوافذ وحملها إلى السقف لسد فجوات حدثت فيه. حاولنا صنع كل ما طالته أذهاننا. حتى حارات "البولنغ" الخشبية

www.ibtesama.com

صنعناها وبعناها لهذه المحلات، ثم اندلعت الحرب ولم نستطع مواصلة العمل، بعنا كل أجهزة البيانو التى أنتجناها، وبعنا أيضًا صناديق رادارات للأسطول. كنت أبقى فى المكتب أربعًا وعشرين ساعة. "

ثم قال بصوت يشى بتصنع اللباقة:

"لابد أنه كان تغييرًا بالنسبة لك، أقصد أنه يختلف عن عملك فى المكتبة. "قالت:

"العمل عمل، لم أتوقف عن العمل، ابنة زوجى "بيا"، طُلِقت من زوجها وهى الآن تعيننى على شؤون البيت. ابنى تخرج من الجامعة أخيرًا، يُفترض أنه يتدرب على العمل الآن ولكن مشكلته أنه ينام بعد الظهر، وعندما أعود إلى البيت فى الليل، وقد نال منى التعب، أسمع قعقعة الثلج فى الأكواب وأصوات الضحك خلف سياج الشجيرات. وعندما يروننى يهتفون: "جاء الطين.. اجلسى هنا، اعطوها كأسًا!" كانوا ينادوننى بـ "الطين" لأنه الاسم الذى كان ينادينى به ابنى عندما كان طفلاً صغيرًا، ولكنهم الآن كبروا. أتذكر البيت؟ كان بيتًا جميلاً، ثلاثة طوابق متدرجة على هيئة كعكة زفاف. ينفتح على بهو مرصع بالطوب الملون بشكل الفسيفساء، ولكن المصنع لا يفارق ذاكرتى. كندا ليس فيها غير ثلاثة مصانع لصناعة آلات البيانو، ثلاثة مصانع منها فى "كيبك"، تعمل بعمالة رخيصة. لا شك أنك تعرف ذلك كله. أحيانًا أناجى "آرثر" بهذا كله!! لا زلت أشعر بأنى منه قريبة وهو منى قريب على طريقة الصوفيين. أنت عندما تكبر مثلى سوف تجد أنك تنجذب للروحانيات، لكن عقلى لا زال يفكر فى العمل، فى

www.ibtesama.com

الاستقرار المادى، فى النهاية ما الفائدة فى مناجاة رجل ميت؟

توقفت عن الكلام لأنها استشعرت حرجًا رغم أنها لم تكن واثقة من أنه كان يسمع كل ما قالت، ولم تكن واثقة من أنها قالت كل ذلك بالفعل. قال:

– إنى أدين لك بالكثير.

ووضع يديه على ركبتيه واتجه بعينيه إلى الأرض وقال: "هراء".

ثم وهو يغالب أنينًا انتهى به إلى ضحك: "أبى، ألا تذكرين أبى؟"

قالت "لويزا": "أتذكره طبعًا."

"أحيانًا أجزم أنه كان على صواب."

ثم رفع رأسه وأدارها كأنه يتأهب للإدلاء برأى. قال:

– الحب لا يموت أبدًا.

تململت فى البداية كأنها أرادت الرد على هجوم مباغت. قالت فى نفسها: ذلك ما انتهى إليه شخص مثله يصدق كل ما يقال، الحب يموت كل يوم – أو على الأقل يتم تجاهله، أو يختنق فى المهد – ومن الممكن جدًا أن يموت.

"كان "آرثر" من رواد المكتبة. فى البداية كان يثير سخطى. كنت كثيرًا ما أنظر فى عنقه وأقول له: "ماذا لو صفعك أحد على هذا القفا؟ هل تشعر بأن شيئًا حدث؟ أنا نفسى لن أهتم." ولم يكن ذلك اهتمامى الحقيقى؛ اكتشفت أن رغبتى الحقيقية هى فى الزواج منه لعله يوفر لى الحياة الهادئة،" وكررت: "حياة هادئة." واجتاحتها رعشة سرت فى الجسد كله انتهى بها إلى وقار رزين وهدوء يشى بتواصل بينها وبينه. سألته: "ماذا تظن أنى أعنى بذلك؟"

www.ibtesama.com

عندئذ مر أمامهم جمع من نساء ورجال يرتدون ملابس غريبة. كانت النساء تغطين رؤوسهن بشيلان أو قلنسوات سوداء، وكان الرجال يرتدون قبعات عريضة وحمالات سوداء تحمل بنطلوناتهم. كان الأطفال يرتدون ما يرتديه الكبار، بما فى ذلك القلنسوات والقبعات. كانت وجوههم تشى بما يعانونه من شدة الحر تحت هذه الملابس الثقيلة - بدت على وجوههم الأتربة والتعب والفتور.

أجابها بصوت دافىء خافت يشوبه المزاح : "شهداء تولبدل، " ثم أدرف: "من الأفضل أن أذهب إليهم، من الأفضل أن أذهب إليهم وأتحدث إليهم. "

كان صوته يضطرب بين الجد والهزل، بين الدفء والاحتدام، مما جعلها تفكر أنه شخص آخر، ترى من يكون؟ وطالعت عاتقيه وعجيزته الكبيرة، وعرفته:

جيم فرارى!!

يا إله العالمين، أى قدر يعبث بها وأى عبث؟ بل أى عبث هذا الذى مارسته هى بنفسها! أى قدر؟ نهضت واقفة محرجة، وطالعت على الملابس السوداء بقعًا داكنة، أحست بدوار وانكسار، لن تخضع لما تسوقه الأقدار.

عند اقترابهم رأت أن ملابسهم لم تكن كلها سوداء، رأت ملابس غامقة الزرقة - وتلك كانت ملابس الرجال - وملابس داكنة الزرقة مشوبة بحمرة - وتلك كانت ملابس النساء. رأت الوجوه - وجوه الرجال التى تؤنسها اللحى الكثيفة، ووجوه النساء تحت القلنسوات العريضة، عرفتهم الآن، عرفت أنهم المانونايت.

www.ibtesama.com

كان المانونايت يعيشون فى هذا الجزء من البلاد، طارئين عليه لا راسخى القدم، كان بعضهم يعيش قريباً من "بوندى" وهى قرية تقع شمال "كارستيرز"، كانوا يستعدون للسفر بالحافلة نفسها التى كانت تستعد للسفر بها، لم يكن معهم، ولم تره.

خائن، عاجز. مسافر.

الآن عرفت أنهم المانونايت(٢) لا غرباء ضلوا الطريق، وعرفت أنهم لا هم بالخجلين ولا هم بالبائسين. بالعكس كانوا مبتهجين يمرون على الجلوس بعلب مليئة بقطع الحلوى، يأكل منها الكبار إلى جانب الصغار، وينتشرون حولها على المقاعد الوثيرة.

لا عجب أن تحس بالانتشاء، تخلصت من اضطراب داخلى لازمها ولم يلحظه أحد، يمكن للناظر أن يصف ما حدث، ولكنه لن يستطيع سبر أغوار نفسها، وما حدث لها مما يصعب على الناظر الخارجى معرفته. هى التى جربته وهى التى أحست به، وهى التى خرجت منه ببريق علا جلدها، وضرب على أذنيها، وخفقان فى صدرها، وثورة فى بطنها. الفوضى وهى لا تحب الفوضى – اضطراب يبتلع الأشياء ويبتلعها. فجوات مفاجئة وحيل مرتجلة وتعازٍ مخضبة بالود سرعان ما تختفى.

ولكن المانونايت منحوها شيئًا من الهدوء ودعة النفس. صوت المقاعد وهى تصطدم بظهورهم، قرقعة الحلوى داخل الكيس، والأصوات الصادرة من التهام الحلوى، وهمسات الأحاديث الناعمة. مدت لها فتاة صغيرة كيس الحلوى دون أن تنظر فى عينيها، وتناولت "لويزا" قطعة من حلوى السكر بالزبد المخلوط بالنعناع.

www.ibtesama.com

استغربت من قدرتها على تناولها بيديها، وقد مطت شفتيها استعداداً للعمل، شكرتها وبعد أن ألقتها فى فمها أنست لطعمها. راحت تلوكها كما كانوا يفعلون، ولكن ببطء لتفسح الطريق أمام الطعم ليستمر. انتشرت الأنوار رغم أضواء النهار التى لم تزل تخضب الوجود. رأت فجأة أن عدداً من اللمبات الكهربية انتظمت فى سلسلة طويلة انتشرت على ذؤابات بعض الأشجار هى التى نشرت الضياء فى المكان. ذكرتها الأنوار بالمهرجانات والكارنفالات، وذكرتها بالقوارب التى تسعى على سطح البحيرة.

سألت المرأة التى كانت تجلس إلى جوارها:

- ما اسم هذا المكان؟

كانت "لويزا" تقيم فى فندق "كومرشال" عندما قضت الآنسة تامبلن نحبها، كانت مسافرة فى ذلك الوقت لعمل لصالح شركة كانت تبيع القبعات، وأشرطة الزينة، والمناديل والمزركشة، الملابس الداخلية النسائية - كانت تبيعها لتجار التجزئة. سمعت الحديث فى الفندق، وعرفت منه أن المدينة بها مكتبة، والمكتبة فى حاجة إلى أمينة مكتبة. كانت قد تعبت من حمل حقائبها الصغيرة والتجوال بها فى الحافلات والقطارات، وفى الفنادق وعلى الطرقات، تفتح وتغلق وتعرض بضاعتها على من يريد ومن لا يريد. حزمت أمرها وذهبت إلى المسؤولين عن المكتبة. رجل يدعى السيد "دود" وآخر يدعى السيد "ماكلويد". بدوا فى عينيها كممثلين فى مسرحية هزلية. رضيت بالعائد القليل على أن يزيد، أخبرتهما أنها تحمل شهادة المدرسة الثانوية من تورنتو وأنها كانت تعمل فى مكتبة إتون قبل أن تعمل فى

www.ibtesama.com

الشركة التى كانت تعمل بها. لم تجد داعيًا لذكر أنها عملت لصالح هذه الشركة لخمسة أشهر فقط عندما اكتشف الأطباء أنها مريضة بالسل، وأنها قضت أربع سنوات فى مصحة. لقد شفيت الآن من السل - وجفت البقع التى كانت تعلو جسدها.

نقلتها إدارة الفندق إلى حجرة فى جناح المقيمين إقامة دائمة، فى الطابق الثالث. كان فى وسعها رؤية الثلوج تغطى قمم التلال. كانت مدينة "كارستيرز" تقع فى وادٍ نهرى، وكان بها ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف نسمة وشارع رئيس كان ينحدر ناحية النهر تارة ثم يعود محاذيًا للتل من جديد. وكان بالمدينة مصنع متخصص فى صناعة آلات البيانو والأرغن.

كانت البيوت جميلة التكوين، قوية البناء، وكانت الأفنية واسعة والشوارع محاطة بأشجار الدردار والقنب الناضجة. لم تكن هناك بعد أن غطت الأوراق الأشجار، المشهد مختلف الآن اختلافًا بديعًا، كان المكان مفتوحًا والخلاء مطلاً على الكائنات، الآن لم يعد الخلاء منظورًا، وأصبح المخفى وراء أوراق الشجر أكثر مما تستطيع العيون الوصول إليه.

نعمت بالبداية الطازجة، امتلأت روحها وعواطفها بالهدوء، ونفسها بالامتنان. جربت بدايات أخرى فى الماضى ولكن النهايات لم تسفر عما كانت نفسها تصبو إليه، ولكنها كانت تؤمن بالقرارات السريعة، ومكنون المصادفات، والقدر المتفرد.

كانت المدينة تمتلئ برائحة الخيول، وبينما المساء يجثم على صدر الفضاء، رأت خيولاً ضخمة مغماة حوافرها مكسوة بالريش تجر

www.ibtesama.com

مركبات الجليد عابرة الجسر، أمام الفندق، وراء أعمدة النور، على مبعدة من الممرات الجانبية. وفى مكان ما فى الريف البعيد، ستفقد الخيول القدرة على سماع الأجراس المعلقة فى رقابها.

هوامش:

(١) ستة عمال بريطانيون تم القبض عليهم وأدينوا (عام ١٨٣٤) بتهمة القسم السرى بالانضمام لعضوية فى جمعية المحبة لعمال الزراعة، وذلك للاحتجاج على الخفض التدريجى للأجور ورفض العمل لقاء عشرة شلنات فى الأسبوع. تم نفيهم إلى أستراليا ولكنهم عادوا إلى انجلترا بعد ذلك (المترجم).

(٢) المانونايت جماعة مسيحية متفرعة من جماعة الأنابابتست (تجديد العماد)، سميت باسم مينو سيمونز (١٤٩٦- ١٥٦١). يبلغ عددهم حول العالم حوالى ١,٥ مليون نسمة أغلبهم فى الولايات المتحدة وكندا والكونغو. يؤمنون بقدسية الزواج وعدم التعدد (المترجم) .

www.ibtesama.com

الإوز البرى

نصحتها "فلو" بأن تأخذ حذرها من تجار الرقيق الأبيض. وحكت لها ما يفعله هؤلاء الناس: "سيدة متقدمة فى السن، فى هيئة الأم أو الجدة، تسعى لتوطيد صداقتها معكِ وأنت جالسة بجوارها فى أوتوبيس أو قطار، تقدم لكِ حلوى محشوة بالمخدر، وفى الحال تتهافت رأسكِ على صدركِ، وتتمتمين بكلام لايفهمه أحد. عندئذٍ تفقدين القدرة على الإخبار عن اسمك ومكان سكنك. ويسمع الناس صرخات استغاثة من تلك السيدة: "أوه.. ساعدونى.. ابنتى (أو حفيدتى) تعبت فجأة، ساعدونى على النزول بها من هنا لعلها تستعيد عافيتها فى الهواء المنعش." عندئذٍ يتقدم شاب شهم – جنتلمان – يتظاهر بأنه غريب، يقول إنه يريد المساعدة. وعند أول محطة تالية تجدين نفسك خارج القطار أو الأوتوبيس، ويكون ذلك آخر عهدك بالعالم المألوف لديك. يحبسونك فى مكان تجارة الرقيق

www.ibtesama.com

الأبيض (المكان الذى تم نقلك إليه مخدرة مكممة الفم، معصوبة العينين حتى لا تعرفى إلى أين ذهبت ومن أى طريق،) بعدها تذوقين على أيديهم ألوانًا من السب والإهانات، ويُنتهك عرضك رجال سكارى حتى تصابى بأكثر الأمراض فتكًا، وتفقدى عقلك من كثرة تعاطى المخدرات، وتسقط أسنانك وشعرك فى خلال ثلاث سنوات. عندئذٍ تفقدين القدرة على العودة إلى منزلك، وربما تفقدين القدرة على تذكر مكان بيتك، أو حتى الوصول إليه. عندئذٍ يتخلصون منك بإلقائك فى الشارع.

تناولت "فلو" عشرة دولارات ووضعتها فى حقيبة صغيرة من القماش، كانت قد خاطتها فى قميص "وردة" التحتى. الشىء الآخر محتمل الحدوث أن تُسرق محفظة وردة. قالت لها "فلو"أيضًا: "احترسى من الناس الذين تجدينهم يرتدون ملابس الرهبان؛ هؤلاء أسوأ خلق الله. لقد استخدم تجار الرقيق الأبيض مثل هذه الملابس مرات كثيرة، كما استخدمها اللصوص الذين يسعون لسرقة نقودك. "

وقالت "وردة"إنها لا تنتبه لملابس الناس، ولا تستطيع أن تميز الذين يتخفون فى تلك الملابس من العاديين.

عملت "فلو" فى تورنتو، فى الماضى. عملت نادلة فى مقهى فى محطة قطار. كان هذا العمل مصدرًا غنيًا بالخبرات التى اكتسبتها والأشياء التى تعرفها الآن. فى تلك الأيام لم تكن ترى ضياء الشمس، فيما عدا أيام إجازاتها، ولكنها رأت الكثير. رأت رجلاً يفتح بطن رجل آخر بسكين، رأته يرفع قميص الرجل الآخر بكل بساطة ويشق بطنه كأنه يشق بطيخة وليست بطن رجل، ورأت الرجل

www.ibtesama.com

المنكوب يتهافت على مقعد ويمعن النظر فى بطنه غير مصدق، بوغت، لم يجد حتى الوقت للصراخ. كانت "فلو" تريد أن تقول: إن ذلك كان شيئًا عاديًا فى تورنتو. رأت امرأتين شريرتين (هكذا كانت تصف العاهرات، وهى تنطق كلمتى – bad women بطريقتها الخاصة فكأنك تسمع كلمة "بدمنتن" badminton دخلتا فى عراك شديد، مما أضحك عليهما رجلاً من الوقوف، فتوقف آخرون وراحوا يضحكون ويشجعونهما على المضى فى الشجار. وفى النهاية امتلأت يدا كل واحدة منهما بشعر الأخرى. فى نهاية المطاف وصل رجال الشرطة، واقتاداهما وهما لا تكفان عن العويل والصراخ.

رأت أيضًا طفلاً يقضى نحبه بعد نوبة إغماء، ويتحول لون وجهه إلى لون الحبر.

قالت وردة عندئذٍ بشىء من الغيظ: "على فكرة أنا لست خائفة، والبلد على كل حال فيها بوليس." فقالت "فلو":

– البوليس!! هؤلاء أول من يخدعونك!

لم صدقت وردة ما قالته "فلو" مما يتصل بموضوع الجنس، احترسى من حفار القبور.

أحيانًا يأتى إلى المحل الذى تعمل فيه "فلو" رجل قصير ضامر الجسم، أصلع، يتحدث مع "فلو" بنبرة ناعمة فيها استرضاء. يقول:

– كل ما أريد كيس من الحلوى وبعض علب "العلكة،" وقطعة أو قطعتان من الشوكولاته. هل تغلفينهم لو سمحتِ؟

كانت "فلو" تؤكد له بطريقتها الساخرة أنها سوف تغلفهم، وغلفتهم فعلاً فى ورق مقوى حتى بدا الصندوق مثل الهدية،

www.ibtesama.com

استغرق وقتًا فى اختيار هذه الأشياء، راح يهمهم ويثرثر ويتوانى، فى أثناء ذلك كان يسأل "فلو" عن حالها، وحال وردة. كان يقول لـ فلو:

– تعرفين أن شكلك شاحب، الشابات مثلك يحتجن إلى الهواء الطلق، أنت تتعبين نفسك فى العمل أكثر من اللازم.

وكانت "فلو" تجيب فى شىء من الخبث:

– الأشرار مثلى لا يرتاحون.

وعندما كان يخرج كانت تسرع إلى النافذة. هناك... ترى النعش القديم بستائره الأرجوانية.

– اليوم سيكون فى أثرهم.

كانت "فلو" تقول ذلك بينما كان النعش يتهادى فى رزانة، سرعة الجنازة فى الغالب، كان الرجل القصير النحيف يعمل حفاراً للقبور... حانوتى. ولكنه الآن تقاعد، حتى النعش أحيل إلى التقاعدأيضًا. تولى أبناؤه المهمة، اشتروا نعشًا جديدًا، كان يقود النعش القديم عبر البلاد شرقها وغربها بحثًا عن النساء بصفة خاصة. هكذا كانت تقول "فلو". لم تكن روز تصدق، كانت "فلو" تقول إنه يشترى الحلوى والعلكة لهن. وكانت روز تقول إنه هو الذى كان يأكلها، وكانت "فلو" تقول إن الناس رأوه وسمعوه. كان يقود النعش – فى الطقس المعتدل – والستائر مسدلة، وهو يردد لنفسه أغنيات، وربما يغنى لشخص ما لامرئى، يرقد فى الخلف.

جبينها كان بلون جبال الثلج

وحلقها كالإوز البرى...

www.ibtesama.com

كانت "فلو" تقلده وهو يغنى. فى رفق شديد يباغت امرأة تتمشى فى طريق جانبى، أو تجلس عند مفترق طريق ريفى. السلامات والتحيات، والأدب الجم، واللطف الناعم، وقطع الشوكولاته، وعرض كريم بتوصيلها إلى حيث تريد. هناك سيدات قلن إنه قابلهن ولكنهن لم يستجبن له، ولكنه لم يزعج أيًا منهن، ولم يكن فظًا معهن، يقود سيارته بأدب، وعند البيوت يخفض صوته عند النداء، وإذا كان الزوج فى البيت يبدى رغبة فى الجلوس والثرثرة، هذه شهادة الزوجات ولكن "فلو" لا تصدق من ذلك شيئًا. قالت مرة:

– بعض النساء سهلة الانقياد.

"فلو" تحب أن تتخيل منظر النعش من الداخل، تتخيل جوانبه وسقفه وأرضيته مغطاة بالقطيفة. قطيفة لونها أرجوانى فاتح، لون الستائر، أو قل لون أزهار الليلك.

"كله كلام فارغ، " قالت وردة فى نفسها، "من يصدقه؟ من يصدق رجلاً فى سنه؟"

استقلت وردة القطار المتجه إلى تورنتو وحدها لأول مرة فى حياتها. ذهبت مرة قبل ذلك ولكنها كانت مع "فلو"، وقبل وفاة أبيها بوقت طويل. أخذتا معهما ساندوتشات، واشتريتا لبنًا من بائع لبن فى القطار، اتضح أن اللبن مر، لبن بالشوكولاته، ولكنه مر، تغير طعمه. رشفت وردة رشفات قليلة بحرص شديد. كانت تحب اللبن بالشوكولاته ولكن طعمه خذلها. أما "فلو" فقد شمت رائحته ولم يعجبها، فقلبت القطار رأسًا على عقب حتى عثرت على الرجل العجوز ذى الجاكت الأحمر، وفمه الخالى من الأسنان، والصينية

www.ibtesama.com

المعلقة فى رقبته. دعته لتذوق اللبن الذى باعه لهما ويشمه، ودعت كل من حولها من الناس ليشموه. أعطاها الرجل جعة بالزنجبيل دون مقابل ترضية لها، كانت الجعة دافئة قليلاً. قالت "فلو" وهى تنظر حولها بعد أن غادر الرجل: "جعلته يعترف بخطئه. يجب على الجميع أن يفضحوا مثل هؤلاء. "تعاطفت معها سيدة، ولكن الباقين تحولوا إلى نوافذهم يتطلعون. شربت "روز" جعتها الدافئة. مشهدها مع البائع، والحوار الذى اشتبكت فيه مع المرأة التى تعاطفت معها، والتى وصل الآن إلى: "أين تقيمين؟ ولماذا أنتما ذاهبتان إلى تورنتو؟ والإمساك الذى أصاب وردة فى الصباح مما أشحب لونها، والكمية الصغيرة من لبن الشوكولاته التى شربتها وسببت لها الاضطراب المعوى، وجعلها تتقيأ فى حمام القطار، وظلت طوال اليوم خائفة من أن يشم الناس فى القطار رائحة القيء على معطفها.

قالت "فلو" للكمسارى وهى تودع وردة: "خلِ بالك منها، هذه أول مرة تخرج من بيتها وحدها!" قالت ذلك وهى تنظر حولها وتضحك لتوحى للجميع أنها كانت تقول ذلك على سبيل الهزل وليس الجد. واضطرت إلى النزول. لم يكن يبدو على الكمسارى أنه فى حاجة إلى نكاتها ومزاحها. ولم يكن لديه نية فى أن يهتم بوردة ولا بغيرها. لم يتحدث مع وردة إلا عندما سألها عن التذكرة. كانت تجلس إلى جوار النافذة. فجأة غمرتها سعادة طارئة: شعرت أن "فلو" تنسحب من عالمها، وأن غرب"هانراتى" تبتعد عنها، وأن نفسها التى عاشرت الحزن والفقر تزايلها شيئًا فشيئًا فى يسر وكرم. أحبت المدن المغمورة، من نافذة القطار رأت سيدة ترتدى قميص النوم ولا تأبه

www.ibtesama.com

أن يراها ركاب القطار - ركاب القطار كلهم - وهى على هذه الحال.
كان القطار ينطلق ناحية الجنوب، خارج حزام الثلج، إلى ربيع باكر وطبيعة أكثر كرمًا ولطفًا. هناك يستطيع الناس زراعة أشجار الخوخ فى أفنيتهم الخلفية.

عددت وردة الأشياء التى تنوى البحث عنها فى تورنتو. بدأت بالأشياء التى سوف تشتريها لـ "فلو": شراب ضاغط لقدميها ليخفف عنها ألم الدوالى، نوع خاص من الأسمنت لتثبيت مقابض الأوانى، وطقم كامل من حجر الدومينو. ثم إنها تنوى شراء أشياء لنفسها: مزيل شعر لإزالة شعر ساعديها وساقيها، ولو أمكن طقم من الوسادات القابلة للنفخ، يقال إنها تنقص من حجم فخذيها وردفيها. قالت فى نفسها إن مزيل الشعر موجود فى صيدلية فى "هانراتى"، ولكن المشكلة أن البائعة هناك تعرف "فلو" وتحكى لها عن كل شىء. أخبرت "فلو" مرة عمن اشترى صبغة شعر وعلاج نحافة وخِزانات فرنسية. وقالت فى نفسها أيضًا: بالنسبة للوسائد تستطيع أن ترسلها بالبريد، ولكن البريد سوف يسأل عن مصدرها، و"فلو" تعرف الناس هناك. خططت أيضًا لشراء بعض الأساور، وسويتر مصنوع من وبر الأرنب. كان قلبها يخفق لرؤية أساور الفضة، والسويتر المصنوع من وبر الأرنب ذى اللون الأزرق. قالت فى نفسها أيضًا: إن هذه الأشياء يمكن أن تغييرها تغييرًا جذريًا، تجعلها أهدأ بالاً وأخف وزنًا. تستطيع أن تزيد من استرسال شعرها، وتجفف تحت إبطيها، وتحول بشرتها إلى لون اللؤلؤ.

www.ibtesama.com

حصلت وردة على النقود التى ستدفعها لهذه الأشياء والتى ستدفعها للرحلة من جائزة كسبتها من مقال كتبته بعنوان "الفن والعلم فى عالم الغد. "فوجئت أن "فلو" تريد أن تقرأه، وعلقت "فلو" بأنهم فى الغالب منحوا وردة الجائزة لحفظها القاموس عن ظهر قلب، ثم قالت فى شىء من التردد: "مقال عجيب!!"قضت ليلة عند "شيلا ماكنى". كانت "شيلا ماكنى" ابنة عم أبيها، تزوجت من مدير فندق وظنت أنها نالت ما تريد من هذا العالم، ولكن مدير الفندق قدم إلى المنزل فى يوم من الأيام وجلس على أرضية حجرة السفرة بين مقعدين وقال: "قررت ألا أغادر هذا المنزل مرة أخرى. " لم يحدث شىءُ خارج المألوف يجعله يتخذ قراره. كل ما فى الأمر أنه قرر ألا يغادر البيت لحظة واحدة، وقد حدث، لم يغادر البيت حتى وافته المنية. هذا ما كان سببًا فى عصبية "شيلا ماكنى" وغرابتها. تغلق أبوابها فى الثامنة، وتعلمت البخل الشديد، يتكون عشاؤها عادة من عجين الشوفان مع الزبيب. أصبح بيتها مظلمًا وضيقًا ويفيض برائحة غريبة كأنها تنبعث من صندوق صغير.

كان الزحام يزداد فى القطار. فى "برانتفورد" سألها رجل ما إذا كان عندها مانع من الجلوس بجوارها. قال لها: "الجو فى الخارج أبرد مما تظنين. " قدم لها جزءًا من جريدته، وقالت له: "لا. . شكرًا. "

ثم خشيت أن يُظن بها الغرور فقالت له إن الجو فعلاً بارد، ثم استئنفت النظر خلال النافذة تراقب بدايات الربيع، لم يتبق من الثلج شىء هناك.. هناك خارج القطار. ظنت أن الأشجار والشجيرات الصغيرة أكثر شحوبًا من أشجار الوطن. حتى ضوء

www.ibtesama.com

الشمس بدا مختلفًا عن ضوء الشمس فى بلدها، بدا مختلفًا هنا كاختلاف ساحل المتوسط أو وديان كاليفورنيا.

قال الرجل: "النوافذ متسخة لا يعتنى به أحد، هل تسافرين كثيرًا بالقطار؟"

قالت: "لا."

رأت الماء راكدًا فى الحقول، أومأ لها وقال: "الماء وفير هذا العام، ثم أردف:

"والثلوج كثيفة."

لاحظت أنه نطق كلمة "ثلوج" بصوت فيه شاعرية ونعومة. فى البلد ينطقونها "ثلج."

"أول أمس كان لى تجربة غير عادية، كنت أقود سيارة في شوارع الريف فى طريقى لرؤية أحد أبناء أبرشيتى، سيدة تعانى من مرض فى القلب...

حانت منها التفاتة سريعة نحو ياقته. كان يرتدى قميصًا عاديًا ورباط عنق وبذلة ذات لون أزرق غامق. واستمر يقول: "نعم.. أنا قسيس فى الكنيسة المتحدة، ولكنى لا أرتدى الزى طوال الوقت، لا أرتديه إلا حين أريد إلقاء موعظة. أنا اليوم لا ألقى موعظة."

ثم راح يكمل ما بدأه: "حسنًا... كنت أقود سيارتى فى الريف ورأيت بعض الإوز الكندى الجميل فى بركة هناك.. وعاودت النظر فرأيت معهم بعض الإوز العراقى، سرب كامل من الإوز العراقى، منظر جميل، كانوا يتأهبون لهجرة الربيع، يريدون السفر إلى الشمال، منظر جميل، لم أر أجمل منه فى حياتى.

www.ibtesama.com

تحيرت وردة كيف تشاركه الحديث. خشيت أن ينتقل الحديث معه من الإوز إلى جمال الطبيعة بصفة عامة، ثم إلى قدرة الخالق كشأن الحديث مع القساوسة فى العادة، ولكنه لم يفعل. قطع حديث الإوز بجملة مقتضبة: "مشهد جميل جدًا، لو رأيته لاستمتعت به. "

قالت وردة فى نفسها: "لعله بين الخمسين والستين. " كان قصيراً تتحرك عيناه بسرعة فى وجهه المدور المائل إلى حمرة الورد. كان شعره رماديًا فاتحًا ممشطًا بطريقة مستقيمة فوق جبهته. وعندما تأكدت من أنه لن يذكر لها قدرة الخالق أرادت أن تبدى شيئًا من المشاركة فى الحديث فقالت له: "إن الإوز جميل جداً فعلاً، " ولكنه أردف:

"لم تكن حتى بركة من البرك الدائمة، لم تكن أكثر من بعض المياه الراكدة التى تجمعت فى حقل، ولعل الإوزات جئن بالمصادفة، و لعلى كنت أقود سيارتى بالمصادفة أيضًا على الجانب الأيمن من الطريق. إنه الحظ ولا شىء غيره. كن يرقدن على الطرف الشرقى من بحيرة "إيرى" ولم يحالفنى الحظ قبل ذلك لرؤيتهن. "

شرعت تحول عينيها إلى النافذة، وشرع هو يقرأ فى جريدته. أبقت على ابتسامتها لبعض الوقت حتى لا تتهم بالجفاف، أو أنها ترفض الحوار. كان الصباح بارداً حقًا، ولذا سحبت معطفها الذى علقته على الخطاف عندما ركبت القطار: أرسلته على جسدها كالروب فغطى حتى حجرها. وضعت حقيبتها على الأرض حتى تفسح مكانًا للقس يجلس فيه. أخذ أقسام الجريدة وفصلها بعضها عن بعض، وراح يرتبها أو يدفعها دون هدف واضح. تخلص من

www.ibtesama.com

أجزاء ولكنه أبقى على جزء آخر أرسله على وجهه، ولكنها أحست بأن شيئًا مس ساقها ظنت فى البداية أنه طرف الجريدة واستكانت للتفسير.

ثم قالت فى نفسها: "ماذا لو أنها يد بشرية؟" الخيال نفسه الذى كان يجول بخاطرها بين الحين والحين. كانت أحيانًا تمعن النظر فى أيدى الناس، ترقب الزغب على سواعدهم، وصوزهم من الجنوب. كانت مشغولة بما يفعلون. حتى الحماقات. تذكرت السائق الذى كان يجلب الخبز إلى محل "فلو، " وكيف كان واثقًا من نفسه وعمله، يتعامل مع عربة الخبز بمزيج غريب من اليسر والثقة فى النفس. طية البطن الظاهرة فوق الحزام لم تثر سخطها. فى وقت من الأوقات وضعت عينيها على مدرس لغة فرنسية. لم يكن فرنسيًا، كان اسمه "ماكلارن، " ولكن وردة كانت تظن تعليم الفرنسية قد آثر فيه؛ جعله يبدو فرنسيًا. كان سريع الحركات وشاحب اللون وله منكبان نحيفان وأنف معقوف وعينان حزينتان. هاهو يريد أن يشق طريقه نحو ينابيع السعادة اليسيرة، فى نفسها توق إلى أن تصبح مادة طيعة لرجل ما. منسحقة أمامه، سعيدة، متضائلة، مستنفدة.

ولكن ما الخطب لو كانت يد؟ ماذا سيحدث لو كانت المتسللة فى الواقع يدًا؟ تململت برشاقة قدر استطاعتها ناحية النافذة، لعله الوهم هو الذى أنبأها بذلك، ولكنه وهم مزعج. ركزت انتباهها على تلك الساق، ذلك الجزء الذى كان مكسوًا بالجورب، لم تأتها الجرأة على معاودة النظر، تشعر بشىء يلامسها ويضغط على ساقها، تململت قليلاً للمرة الثانية. هى ساقها، وكانت اليد تضغط فعلاً.

www.ibtesama.com

من فضلك، من فضلك لا تفعل.

هذا ما كانت تريد أن تقوله. لم تبرح كلماتها عقلها، همت بالنطق ولكن الكلمات لم تتجاوز الشفتين. لم ذاك؟ لم هذا العى والحصر، ولم ذلك الخوف من أن يسمع الناس؟ كان الناس حولها فى كل مكان، يملأون المقاعد المصطفة.

لم يكن ذلك فقط.

تمكنت من النظر إليه هذه المرة، دون أن تحرك رأسها، راحت تديرها بحرص. لقد أمال مقعده إلى الخلف، وأغلق عينيه. هنالك كان كُم بذلته الأزرق يتوارى تحت الجريدة، رتب الجريدة حتى تغطى معطف روز، كانت يده هناك تحط على الجسد الريان وكأنها تغط فى نوم عميق.

تمكنت وردة الآن من إزاحة الجريدة وإزالة معطفها. لو لم يكن نائمًا لاضطر إلى أن يسحب يده. كان يمكن أن تهمس به: "لو سمحت، "وتضع يده بقوة على ركبته، هذا هو الحل، الحل سهل وواضح، ولكنه لم يدر بخلدها. وسألت نفسها: "لم لا؟" لم تكن يد القس مُرَحبًا بها، أو على الأقل حتى الآن. نغصت عليها لحظات الراحة، جعلتها تشعر بالاستياء، بالتقزز.. بعض الشىء، يقظة ولكنها فى سجن.

ولكنها لم تنهض بالعبء، لم ترفض اليد. لم تصر على أن يده كانت هناك حين كان يصر على أن يده لم تكن هناك. كيف تفضحه وهو النائم المسكين أو النائم البرىء؟ وذلك الوجه المبتهج يريح نفسه قبل استقبال يومه الملىء بالمسؤوليات؟ كان يبدو رجلاً أكبر سنًا من

www.ibtesama.com

أبيها... يراعى مشاعر الآخرين، ويتذوق جمال الطبيعة، وتبتهج نفسه لرؤية الإوزات العراقية. هل كان سيتجاهلها لو قالت له من فضلك أبعد يدك عنى؟ هل كان سيتجاهلها كمن يتجاهل غباءً وسذاجة أو قلة ذوق من جانبها؟ كانت تظن أنها لو قالت له ذلك لتظاهر بعدم سماع شىء.

ولكن الأمر ينطوى على ما هو أجل. حب الاستطلاع غريزة مستقرة فى طبع البشر، أكثر إلحاحًا وتسلطًا من أية شهوة أخرى، إنها شهوة الشهوات. شهوة تجعلها تنسحب وتنتظر طويلاً، تنتظر وتضحى بأى شىء من أجل أن ترى ما سوف يحدث. نعم.. من أجل أن ترى ما سيحدث.

بدأت اليد، على مدى الأميال العديدة التالية في التسلل، فى القيام بأرق اللمسات والاستكشافات وأكثرها ترددًا. لم ينم إذن! أو هو نائم ولكن اليد لا تزال مستيقظة!! أحست بالاشمئزاز، بثقل الرأس فوق الكتف، بالغثيان يطوف فى الأمعاء. طار خيالها إلى الجسد البشرى، إلى النتوءات، إلى الخراطيم الوردية، إلى الألسنة الضخمة، والأصابع الكليلة، كلها فى الطريق تهرول، تزحف، تتدلى، تواصل السير بمشقة، تبحث عن الراحة. تذكرت القطط التى تحك جسدها بسبب الحر على بسطات الأسوار، تعوى بسبب شكاواها البائسة. كان شيئًا بغيضًا، شيئًا صبيانيًا، هذا الحك والدفع والضغطة والأنسجة الإسفنجية والأغشية المتأججة والنهايات العصبية المهتاجة والروائح المخجلة والخزى.

www.ibtesama.com

إنه يعرف ماذا يريد، بدأ العمل. شرعت اليد تتلمس الطريق، تلك اليد التى لن ترغب فى لمسها لمسة بلمسة، تلك اليد العنيدة الصابرة، تلك اليد التى استطاعت أن تجعل نبات السرخس يستقيظ من سباته، وجداول الماء تفيض بالماء، وتوقظ الثراء الدفين.

تأهبت للصد رغم كل شيء، استعدت للتعبير عن الرفض. من فضلك ابعد عنى. ارفع عنى يدك... تاهت الصرخة فى الفضاء الكائن خلف النوافذ المفتوحة، أوقف هذا الذى تفعله من فضلك، كأنها كانت تخاطب أعمدة النور الخشبية... ومخازن الحبوب. بدأت اليد رحلتها من أعلى الجوربين، حيث البشرة العارية، مرت ببطن الساق تنشد الخيال. صدها السروال التحتى فاستأنفت حتى مست بدايات البطن. كانت ساقاها لا تزالان متصالبتين، متشابكتين، ما زالت نفسها تلوذ بالبراءة، وتأمل فى الزمن. قالت فى نفسها: أستطيع أن أوقفه عند حده فى دقيقة واحدة، لن يحدث أكثر مما حدث على أية حال، لن تنفرج ساقاها.

ولكن ساقيها انفرجتا، انفرجتا بينما كان القطار يمرق من نفق "نياجرا" فوق "دندس، " والعيون مشغولة بالنظر نحو الوادى الموغل فى القدم، الوادى المتكون قبل عصر الجليد، وركام الحجارة الفضية التى تكسو التلال الصغيرة، والقطار ينزلق فى نزوله نحو شواطئ بحيرة "أونتيريو، " قد تصدر منها الصرخة المؤجلة، الصرخة البطيئة الصامتة، ربما خيبت آمال صاحب اليد وربما لا. لم يرفع حاجبيه، لم تتغير قسمات وجهه، لم تتردد أصابعه، بل هى ماضية فى نشاطها، بقوة ودون انقطاع. غزو... ترحيب!! وضوء الشمس يلمع

www.ibtesama.com

فى الأفق البعيد، والمدى يتسع على صفحة مياه البحيرة، على بعد أميال من أشجار الكرز العارية التى تتراقص فى دائرة تحيط بـ "بيرلنغتون. "

ذلك هو العار بعينه، التسول بعينه.. ولكن ما الضرر؟.. ما الضرر فى الأسوأ أيضًا؟... نقول ذلك لأنفسنا ونحن نمتطى موجة الطمع القادم... يد غريب.. أو جذر نبات... أو أداة بسيطة من أدوات المطبخ لا يزال الناس يتندرون بها.. العالم اليوم ملىء بأشياء كثيرة... تحاكى الواقع... أشياء لطيفة وسريعة الانفعال. حاولت تنظيم أنفاسها، لم تصدق ذلك. ضحية ومتواطئة... رأت محلات "غلاسكو جامز، "ولمحت أنابيب تكرير النفط الضخمة المنتفخة. مرقوا من خلال الضواحى التى انتشرت فيها ملاءات الأسرة والفوط التى كانت تمسح البقع الحميمة، أو ترقص بمكر على حبال الغسيل، وحيث الأطفال أيضًا يمزحون بمكر فى أفنية المدارس، وقائدوا المركبات يقفون عند مفترقات الطرق والمزلقانات، يدفعون بأصابعهم المرحة فى الأيدى المتشابكة... مشاهد مألوفة اليوم. لاحت أبواب معرض غروند للعيون وأبراجه، وطفت القباب والأعمدة المطلية بجمال خلاب على جفونها الوردية، ثم طارت مبتعدة فى احتفال. كنت تستطيع أن ترى هذه الأسراب من الطيور، والإوزالعراقى، متيقظة تحت قبة كبيرة، محتشدة، تقلع منها كأنها انفجرت منطلقة نحو السماء.

عضت طرف لسانها. مر الكمسارى سريعًا بين العربات، يوقظ المسافرين، ويردهم إلى الحياة من جديد.

www.ibtesama.com

وفى الظلام عند المحطة فتح قس الكنيسة المتحدة عينيه منتعشاً، طوى جريدته ثم سألها إن كانت تريده أن يساعدها على ارتداء معطفها. شهامة ممتزجة بالغرور. قالت له وردة: "لا " بلسان مقروح. غادر القطار بسرعة. ذاب شبحه فى زحام المحطة، لم تره، ولن تراهفى حياتها أبداً مرة أخرى. ولكن ظل يداعب الذاكرة سنوات وسنوات؛ شبحاً جاهزاً للاستدعاء فى اللحظة المطلوبة، دون تفكير فى أى شىء. دون تفكير فى زوج أو حبيب، من الذى فوضه؟ شىء استعصى على الفهم. أريحيته، غروره، تلك الدرجة البسيطة من الأناقة المحببة لديه... رجولته العادية؟ عندما وقف عرفت أنه أقصر مما كانت تعتقد، وأن وجهه كان مشرقًا يميل إلى الحمرة.

هل كان قسًا حقًا؟ أم كان ذلك ما قاله فحسب؟ ذكرت "فلو" أن هناك من الناس من ليس قسًا ولكنهم يرتدون ملابس القساوسة. ومنهم قساوسة لا يرتدون ملابس القساوسة. الأغرب من ذلك أن منهم من ليسوا قساوسة حقيقيين ويزعمون أنهم قساوسة حقيقيون ولكنهم لا يرتدون ملابس القساوسة، وهذا هو النوع الذى عرفته تمام المعرفة.

مشت وردة عبر محطة يونيون تتحسس حقيبتها والدولارات العشرة التى بداخلها. التصقت الحقيبة على جنبها وهى تشعر بها وتذكرها بما كان من أمر النهار المصرم.

لم تكف عن تذكر رسائل "فلو. " تذكرت حين وصلت محطة "يونيون" فتاة اسمها "مافيز" كانت تعمل هنا فى محل الهدايا، وكانت "فلو" تعمل فى المقهى. كانت "مافيز" تشكو من ثآليل على جفنيها

www.ibtesama.com

توشك أن تتحول إلى قروح، ولكنها لم تتحول، تلاشت. أو ربما أزالتها، لم تسألها فلو. كان وجهها جميلاً بدونها. كانت تحب نجمة سينما في تلك الأيام اسمها "فرانسيز فارمر." لم تسمع وردة عن "فرانسيز فارمر" قط.

تقمصت "فلو" شخصية "مافيز، "وسافرت "مافيز" واشترت قبعة كبيرة تتدلى على عينيها، وفستانًا كله من الأشرطة. سافرت تقضى إجازة نهاية الأسبوع فى خليج جورج، للاستجمام. حجزت التذكرة باسم "فلورنس فارمر". تريد أن تعطى الانطباع للجميع أنها هى المرأة الأخرى، "فرانسيز فارمر" ولكنها اختارت اسم "فلورنس فارمر" للتمويه، وهى فى إجازة ولا تريد أن يعرفها أحد. اشترت "بايب" صغيرًا أسود مصنوعًا من عرق اللؤلؤ تشبهًا بالنجوم، كان يمكن أن يقبض عليها بتهمة الجرأة.

ذهبت وردة إلى محل الهدايا تريد التأكد: هل مازالت "مافيز" هناك؟ وهل تستطيع التعرف عليها الآن؟ فكرت فى تحول كهذا، شىء للتغيير، فهل تجرؤ؟ هل تتمكن من الإفلات؟ تريد أن تجرب المغامرات الصاخبة مع جسدها ولكن باسم جديد.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

أولاد وبنات

كان أبى لديه مزرعة لتربية الثعالب؛ معنى ذلك أنه كان يربى الثعالب الفضية فى حظائر. كان يذبح هذه الثعالب فى الخريف وأوائل الشتاء، تكون قد كبرت ونضج فراؤها. كان يذبحها ويسلخها ويبيع جلودها لشركة "خليج هدسن"، أو لتجار الفراء فى مونتريال. كانت هاتان الشركتان تهدينا لوحات ضخمة فيها تقاويم نعلقها على الجدران، واحدة فى كل ركن من أركان المطبخ. لوحات عملاقة بخلفيات تظهر فيها السماء الزرقاء الهادئة، وغابات الأناناس الحالكة، وأنهار الشمال المتقاطعة، والمساحات الخضراء المزدانة بالعشب، وعليها علم انجلترا وعلم فرنسا، وصور فخمة لسكان بدائيين تنحنى ظهورهم وهم ينقلون السلع إلى الحافلات.

قبل عيد الميلاد بأسابيع متعددة كان أبى يبدأ العمل بعد العشاء فى مخزن البيت. وكان المخزن مطليًا باللون الأبيض، ومضاءً بلمبة

www.ibtesama.com

قوتها مائة "وات" تشرف على مائدة العمل. كان أبى يسلخ الثعلب الذى كان يبدو صغير الحجم جداً، إلى درجة مدهشة، وضعيفًا جداً إلى درجة غريبة، يقترب عند سلخه منجسدالأرنب، بعد أن زال فراؤه الذى كان يمنحه مظهراً متعاليًا إلى حد ما. كانت أجساد الثعالب العارية الزلقة تُجمع فى كيس وتُدفن فى مستودع النفايات. وذات مرة ضربنى "هنرى بيلى" بهذا الكيس وهو يقول: "هدية عيد الميلاد!". ورأت أمى هذا المشهد فلم يعجبها، قالت: "مزاح ثقيل". أمى فى الواقع كانت تكره العملية كلها؛ كانت تكره ذبح الثعالب وسلخها، وإعداد الفراء، وكانت تتمنى ألا يحدث ذلك فى البيت على الأقل. والرائحة!! بعد السلخ كان أبى يقلب الجلود على ظهورها فوق طاولة كبيرة، ويشرع فى كشطها برفق لإزالة بقع الدم الصغيرة المتبقية، وفقاعات الدهن، وكانت رائحة الدم والشحم الحيوانى، إضافة إلى الرائحة البدائية النفاذة التى تنطلق من الثعلب نفسه، تنبث فى جميع أركان المنزل. بالنسبة لى كنت أقول: إن العملية موسمية على أية حال، مثلها مثل رائحة البرتقال وأوراق الأناناس التى تشبه الإبر.

كان "هنرى بيلى" يعانى من ضيق فى التنفس، وكان يسعل ويستمر فى السعال حتى يتحول وجهه الصغير الناحل إلى اللون القرمزى، وتمتلئ عيناه الزرقاوان الضعيفتان المتشائمتان بالدموع، ثم يرفع غطاء الموقد ويتراجع إلى الخلف، ويقذف بقطعة بلغم كبيرة فى اتجاه اللهب مباشرة. كنا نستظرف شخصيته بسبب ذلك على الأخص، وبسبب قدرته العجيبة على إصدار الأصوات من معدته كلما أراد، أو كلما طلبنا منه ذلك، ومن أجل طريقته فى الضحك التى

www.ibtesama.com

كانت تشبه الصفير والبقبقة، كان صدره كله يمتلأ بالهواء فيرتفع وينخفض. أحيانًا كنا لا نعرف سبب ضحكه، وكنا أحيانًا نعرف أنه يضحك علينا وعلى أسلوبنا فى الحياة.

حتى بعد أن كنا نذهب إلى الفراش كانت رائحة الثعالب تطاردنا، وضحكات "بيلى" تصل إلى آذاننا، ولكن هذه الأشياء، علامات على عالم الطابق الأول المفعم بالدفء والأمن والضياء، لا تلبث أن تضيع وتختفى فى عالم الطابق الثانى الذى يكتنفه الهواء البارد والسكون. كنا نخاف من ليل الشتاء. لم نكن نخاف من العالم خارج حدود البيت رغم أن الشتاء كان هو الموسم الذى تندفع فيه الثلوج التى تسوقها الرياح، وتتساقط حول منزلنا، وتحيط به كأنها حيتان نائمة، وفيه تغير علينا الرياح طوال الليل، قادمة من الغيطان البعيدة والمستنقعات المتجمدة، بما تنطوى عليه من مصادر الخوف الرهيبة، والتهديدات المرعبة، والبؤس الأزلى. كنا نخاف من الداخل أكثر، من الحجرة التى ننام فيها. فى ذلك الوقت لم يكن الطابق الثانى من منزلنا قد اكتمل. فيه مدخنة توازى أحد الجدران الأربعة، وفى وسط السطح تجد حفرة مربعة، يحيط بها سور من الخشب، وهو المكان الذى يتصاعد منه السلم. وعلى الجانب الآخر من "بئر السلم" تتناثر "الكراكيب" التى لا يحتاجها أحد: بكرات ضخمة من المشمع ملقاة على الأرض دون نظام، عربة خوص، سلة مليئة بنبات السرخس، ودوارق وأحواض من الخزف الصينى معطوبة بشروخ فى جوانبها، وصورة كبيرة لمعركة "بالاكلافا"(١)، النظر إليها لا يفرح أحدًا. قلت لأخى "ليرد"، لما شب عن الطوق، وأصبح يفهم هذه الأمور، إن

www.ibtesama.com

الخفافيش والهياكل العظيمة تعيش هناك، وإنه عندما يهرب سجين من سجن المدينة، الذى يبعد عشرين ميلاً عن البيت، فإنه يتسلل من خلال النافذة إلى بيتنا ويختبئ وراء هذه "الكراكيب، " أو وراء بكرات المشمع. ولكن فى بيتنا قواعد أمان أيضاً. فعندما يُضاء النور فنحن فى مأمن طالما لا نتجاوز السجاد الذى يغطى أرضية حجرة النوم. وعندما يُطفأ النور يذهب الشعور بالأمن والأمان، ويصبح المكان الوحيد الآمن هى الأسِرة التى ننام عليها. كنت أضطر إلى إطفاء النور المشرف على سريرى، وحتى أصل إلى اللمبة كنت أشد نفسى إلى أبعد مدى حتى أصل إلى السلك.

فى الظلام كنا نرقد على أسِرَّتنا، قوارب النجاة الضيقة، ونثبت أعيننا على الأضواء الخافتة القادمة من "بئر السلم"، ونشدو بأغنيات. كان "ليرد" يغنى أغنية: "أجراس جلجل، " من أغانى عيد الميلاد التى كان يغنيها فى أى وقت، فى عيد الميلاد أو غير عيد الميلاد، وكنت أنا أغنى أغنية "دانى بوى"(٢). كنت أعشق صوتى الضعيف، المتوسل، نبرته عالية فى الظلام. وفى الظلام كنا نرى أشكال النوافذ: بيضاء، طويلة، مكسوة بالثلج والشجن. وعندما كنت أصل فى الأغنية إلى البيت الذى يقول: "وإذا مت وإنى لابد ميت"، كانت تنتابنى قشعريرة تضطرنى إلى الصمت، ليس مصدرها تلك الملاءات الباردة، التى نتلفع بها، ولكن مصدرها تلك العواطف والانفعالات اللذيذة المبهجة التى تنتاب جسدى كله. وعندما أصل إلى البيت الذى يقول: وسوف تنحنى على قبرى وتسلم على روحى (Ave)، كنت أتساءل عن معنى كلمة (Ave)، ماذا تعنى؟ وفى كل مرة كنت أنسى البحث عن معناها فى القاموس.

www.ibtesama.com

كان "ليرد" يستسلم لسلطان النوم عندما يفرغ من الغناء مباشرة، وكنت أسمع أنفاسه القلقة الطويلة الراضية المفعمة بالحيوية. ويبقى لى متسع من الوقت أمارس فيه ما يخصنى مما أعُدُّه من أفضل ساعات اليوم بالنسبة لى، فكنت أحكم تغطية نفسى بالملاءآت واستسلم لذكرى واحدة من قصصى التى كنت أرويها لنفسى بين الليل والليل. كانت قصصًا متصلة بى، عنى عندما مضيت قليلاً فى سنوات العمر، تجرى أحداثها فى عالم أبتدعه لنفسى، ولكنه عالم لا يضن علىّ بمساحات أمارس فيها شجاعتى النادرة، وجرأتى التى لا تحدها حدود، وقدرة على التضحية لا يتيحها العالم الخارجى. كنت أنقذ ناسًا من عمارة تعرضت للقصف (كان يثبط همتى أن الحرب نفسها وقعت قبل سنة اليوبيل[٣] بكثير). أصَبْت فى مقتل ذئبين كانا يهددان فناء المدرسة (جَبُن المدرسون وتراجعوا مذعورين). وكنت أمتطى جوادًا جميلاً فى خيلاء أتجول به فى شارع اليوبيل الرئيس، وأنا أرد تحية أهل المدينة بأحسن منها، كانوا يحيوننى لبطولات كنت أخطط للقيام بها. (لم يحدث أن ركب أحدٌ حصانًا فى هذه المدينة، فيما عدا الملك "بِلِى" فى مهرجان موسم البرتقال الشهير). كانت القصص تحفل بحوادث الضرب بالنار وركوب الحافلات والعربات والقفز منها وإليها، رغم أنى لم أمتطى ظهر جواد إلا مرتين فى حياتى: المرة الأولى لم يكن على ظهره سرجًا، والمرة الثانية وقعت تحت أقدامه التى داستنى ولكن برفق مقصود. وفى الواقع تعلمت ضرب النار ولكنى فشلت فى "التنشين"؛ فشلت فى إصابة علب الصفيح المثبتة على أعمدة السور.

www.ibtesama.com

كان أبى شغوفًا بتربية الثعالب، يوفر لها عالمًا خاصًا فى مكان يحيطه سور يحميها تمامًا، كأنها تعيش فى مدينة من مدن العصور الوسطى، تحرسها بوابة ضخمة يُحكِم إغلاقها عندما يحل الليل. وعلى طول هذه المدينة تصطف الحظائر الضخمة الراسخة، كل حظيرة كان لها باب يتسع لفرد فى الدخول والخروج، ومنحدر خشبى على طول السلك الشائك، مما يسمح بحركة الثعالب صعودًا وهبوطًا، ومأوى آخر يشبه الحفرة المحاطة بالملابس القديمة تتخلله فتحات تتيح دخول الهواء، تنام فيه الثعالب وتخلد إلى الراحة فى الشتاء، وتتكاثر. كان المكان يحفل بالنشاط: هناك من يجدد أطباق الطعام والشراب، أطباق مربوطة بسلك السور بطريقة يمكن إفراغ محتوياتها وتنظيفها من الخارج، مصنوعة من علب صفيح قديمة، والحفر من قطع وبقايا خشب قديم. كل شىء كان يخضع للترتيب والابتكار؛ لقد كان أبى نشيطًا فى الابتكار، وأحب كتاب إليه فى العالم كان كتاب "روبنسون كروسو". فهو الذى ثبّت برميلاً من الصفيح على عجلة يد ليجلب به المياه إلى الحظائر، وهى وظيفتى فى الصيف حيث كانت الثعالب تحتاج إلى المياه مرتين فى اليوم، فيما بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة صباحًا، ومرة أخرى بعد العشاء. كنت أملأ البرميل من "الطلمبة" وأدحرجه فى الفناء حتى أصل إلى الحظائر، حيث أوقفه وأملأ رشاشة الزرع التى معى وأنطلق فى الشوارع. يأتى "ليرد" أيضًا برشاشة المياه الصغيرة التى يروى بها عشب الحديقة، يملؤها إلى آخرها، ويضرب بها على ساقيه، فيصل الماء إلى حذائه المصنوع من قماش القنب. لدى أيضًا

www.ibtesama.com

رشاشة المياه الحقيقية التى هى فى الواقع ملك أبى، ولكنها كانت ثقيلة لا أستطيع حملها إلا وهى نصف مملوءة بالمياه، أو حتى ثلاثة أرباعها مملوء بالمياه.

الثعالب كلها كان لها أسماء، مكتوبة على لوحة من الصفيح، معلقة إلى جوار أبواب الجحور. لم نكن نطلق عليها الأسماء عند ولادتها مباشرة، ولكن بعد عام من ولادتها. كان أبى يطلق عليها أسماءً مثل: "الأمير"، "بوب"، "والى"، "بِتى." وكنت أنا أطلق عليها أسماءً مثل: "ستار"، "تركى"، "مورين"، "ديانا." "ليرد"أيضًا كان يطلق عليها أسماء مثل: "مود"وهو اسم فتاة جئنا بها خادمة عندما كان هو صغيراً، و"هارولد" وهو اسم غلام كان زميله فى المدرسة، و"المكسيك" ولم يقل لنا لماذا أطلقه على أحد الثعالب.

إطلاق الأسماء ليس معناه أنها كانت حيواناتنا المدللة: فلم نكن ندخل الحظائر أصلاً، كان أبى هو الوحيد الذى كان يدخل الحظائر، وكانت الثعالب تعضه، وأصيب بتسمم فى الدم مرتين بسبب هذا العض. وعندما كنت أحضر لها المياه كانت حركتها تنشط صعوداً وهبوطًا على الممرات التى اصطنعتها داخل الحظائر، ونادراً ما تنبح، كانت تدخر النباح عندما يدلهم الليل، حيث يكون النباح جماعيًا كأنها جوقة متفقة. كانت عيون الثعالب تتعلق بى، وكانت عيونها متقدة، صافية، محايدة، على وجوهها الحادة المليئة بالشر والتحفز. كان جمالها يتركز فى سيقانها الرقيقة، وذيولها الثقيلة الأرستقراطية، والفراء المتألق الذى كان يلمع فى الظلام على ظهورها، وهو سبب الاسم، وربما جاء الاسم بصفة خاصة بإيحاء

www.ibtesama.com

من وجه الثعلب الذى كان طويلاً حاداً يشى بعداء خالص، وعيونه الذهبية.

إلى جانب حمل الماء كنت أساعد أبى عندما كان يقطع العشب الطويل، وعندما يكون هناك عمل فى الجزء المخصص للخراف، أو العمل فى قطع نباتات المسك العطرية التى كانت تنمو بين الحظائر. كان يقطع بالمنجل، وأقوم أنا بترتيب ما قطعه فى أكوام منظمة، ثم يتناول مذراة وينشر الأعشاب المقطوعة فى لحظتها على أسطح الحظائر حتى لا تتضرر الثعالب بدرجة الحرارة، وحماية للفراء الذى كان يتحول إلى اللون البنى من شدة التعرض للشمس. لم يكن أبى يبادلنى الحديث إلا إذا كان عن العمل الذى نعمله. وهو يختلف عن أمى فى هذا الموضوع اختلافًا كبيرًا؛ فقد كانت أمى تحكى لى كل شىء حدث لها بفرح عندما تكون فى مزاج رائق، كانت تحكى لى كل شىء، من اسم الكلب الذى كانت تمتلكه عندما كانت فتاة فى ميعة الصبا، وأسماء الأولاد الذين كانت تخرج معهم عندما شبت عن الطوق، وعن الفساتين التى كانت تلبسها فى تلك الأيام، وهى لا تعرف الآن ما آلت إليه تلك الفساتين. كانت أفكار أبى خاصة به وحده، وقصصه خاصة به وحده، وكنت أخجل منه ولا أجرؤ على التوجه إليه بأية أسئلة.

رغم ذلك كنت أعمل معه بشىء من الرضا، وكان هو يراقبنى بشىء من الرضا، وشىء من الزهو. وفى يوم من الأيام جاء إلينا أحد تجار العلف، مضى إلى الحظائر ليتحدث مع أبى، وقال له أبى: "أريدك أن تقابل العامل الذى استأجرته بالأمس". استدرت ومضيت

www.ibtesama.com

أذرو بشيء من التوتر والغضب، وقد تخضب وجهي باللون الأحمر من فرط السعادة. ورد التاجر: "تصورتها مجرد فتاة فقط." وبعد أن يُقطع العشب تبدو الأشياء كأنها في آخر العام، كنت، في المساء، أمشي على جذور الزرع التي بقيت في الأرض بعد الحصاد، أرقب السماوات وقد تخضبت باللون الأحمر، ودخول الصمت المصاحب لأمسيات الخريف. وعندما كنت أدحرج البرميل إلى خارج البوابات وأضع القفل، يكون الظلام قد غشي الأمكنة كلها.

وفي أحد الليالي، وفي وقت قريب من المساء رأيت أمي وأبي واقفين يتبادلان الحديث على ذلك الجزء المرتفع من الأرض الذي كنا نسميه المجاز، أمام الإصطبل. كان أبي قادماً لتوه من المجزرة، يرتدي المريلة التي تصلبت من كثرة بقع الدم الناشف على صفحتها، وفي يده جردل مليء باللحم الذي قطعه إلى قطع صغيرة. كانت رؤية أمي غريبة في هذا المكان، نادراً ما تترك المنزل لتذهب إلى الإصطبل. حتى خروجهامن البيت لم يكن كثيراً إلا إذا اقتضت الضرورة القصوى لعمل شيء ما، ربما لإغلاق المياه، أو استخراج بطاطس من الحديقة. بدت غريبة في هذا المكان بساقيها العاريتين العظيمتين اللتين لم تسفعهما الشمس، ومريلتها التي لا تزال على جسدها رطبة على بطنها بعد غسل أطباق العشاء. كان شعرها مربوطاً في منديل، تدلت منتحته خصلة شاردة. كانت تربط شعرها بهذه الطريقة في الصباح، وتقول إنها لا تجد الوقت لتمشيطه بالطريقة المثلى، ويظل على هذه الحال إلى طوال اليوم. وكانت على حق، لم يكن لديها أي وقت فعلاً. في تلك الأيام كان المدخل الخلفي مليئاً بالسلال المليئة بالخوخ والعنب والكومّترى، التي اشتريناها من

www.ibtesama.com

المدينة، والبصل والطماطم والخيار الذى كنا نزرعه فى البيت، كلها كانت تنتظر من يحولها إلى مربى وكاستر وأشياء أخرى يمكن حفظها مثل: المخلل وصلصة الفلفل. لم يكنالموقد فى المطبخ يخلو من النار فى ساعة من الساعات طوال النهار، جرار تضطرب بالمياه المغلية، وأحيانًا تجد حقيبة من القماش الرقيق شُدت إلى قائم بين مقعدين لإعداد الكاستر من العنب الأسود. وقد كُلِّفت بمهام أيضًا، كنت أجلس على الطاولة أقشر حبات الخوخ التى أخرجناها من الماء المغلى، أو أقطع حبات البصل، وكانت عيناى تترقرقان بالدموع وتؤلماننى. وبمجرد أن أفرغ من عملى كنت أخرج من البيت بسرعة، سعيًا إلى الابتعاد بمسافة تحول بينى وبين أمى قبل أن تكلفنى بعمل آخر. كرهت المطبخ المظلم، الساخن دومًا فى الصيف، والستائر الخضراء والورق المدهون بالزيت لصيد الذباب، والمائدة نفسها المغطاة بقماش زيتى، والمرآةالمحدبة والمشمع الملىء بالتعاريج. كانت أمى متعبة إلى حد كبير، ومشغولة إلى حد كبير حتى أنها لا تجد وقتًا للحديث معى، لم يكن لديها طاقة على أن تحكى لى عن حفل الرقص عند التخرج من مدرسة نورمال، يتصبب وجهها عرقًا، ولا تمل من الحساب والإشارة إلى الجرار، تفرغ الأكواب من السكر. بدا لى أن العمل فى البيت لا ينتهى، كئيب ومحزن، ومثبط للهمة إلى درجة لا تُطاق، وأما العمل خارج المنزل، ومع أبى فذو مذاق خاص، وطقس مهم.

كنت أدحرج البرميل إلى الإصطبل حيث يبقى هناك إلى ما شاء الله. وكنت أسمع أمى تقول: "انتظرى عندما يكبر "ليرد" قليلاً وسوف يكون لكِ عونًا لا يخيب أملاً".

www.ibtesama.com

لم أكن أسمع ما كان يقوله أبى. كنت أستمتع بطريقته وهو واقف ويسمع بأدب جم كما يفعل مع تاجر أو غريب، وكنت أحس منه أنه لا يريد إلا أن يظفر بما يريد وكفى. كنت أشعر أن أمى لا تعبأ بما يحدث فى الطابق الأول والحظيرة، وتمنيت لو كان أبى يشعر بالشيء نفسه. ماذا كانت تقصد أمى من كلامها عن "ليرد"؟ لم يكن "ليرد" عونًا لأحد فى يوم من الأيام. أين هو الآن؟ فى هذه اللحظة؟ يلعب فوق المراجيح، يلف ويدور فى الفراغ، أو يطارد اليرقات. لم يقف معى مرة فى عمل حتى النهاية.

سمعت أمى تقول: "وعندئذٍ استطيع استغلالها فى المنزل أكثر، " كان لها طريقة يؤسف لها فى الحديث عنى تسبب لى القلق والارتباك. وكانت تقول أيضًا: "بمجرد أن أدير ظهرى تجرى وتهرب، كأنى لم ألد بنتًا فى الأسرة على الإطلاق. "

ذهبت وجلست على كيس ملىء بالعلف فى أحد أركان الإصطبل، لم أكن أريد أن أظهر فى أثناء هذه المحادثة. شعرت أن أمى لا يمكن الوثوق بها. كانت أرق من أبى، وأكثر عطفًا، وكانت أطيب وأسهل خداعًا، ولكنها شخصية لا يمكن الاعتماد عليها، والأسباب الحقيقية لكل ما تفعله وتقوله لم تكن معروفة بالمرة، ولا يستطيع أحد معرفتها حتى لو سعى إلى ذلك. كانت تحبنى، وكانت تظل ساهرة إلى ساعة متأخرة من الليل تحيك لى فستانًا من الطراز الصعب الذى كنت أريد أن أرتديه عندما تبدأ المدرسة، ولكنها كانت فى الوقت نفسه عدوتى. كانت تتآمر ضدى باستمرار. إنها تتآمر ضدى الآن لتضطرنى إلى المكث فى البيت مدة أطول، رغم أنها تعرف أنى كنت

www.ibtesama.com

أكره ذلك، وتحول بينى وبين العمل مع أبى. يبدو لى أنها كانت تفعل ذلك من منطلق العناد، أو اختبارًا لقوتها. لا أعتقد أنها كانت تشعر بالوحدة، أو الغيرة. أعتقد أن الكبار لا يشعرون بهذه المشاعر، فهم بذلك أكثر حظًا. جلست، ورحت أركل الكيس برجلى بطريقة رتيبة، فأثير غبارًا، ولا أخرج من الحظيرة حتى ترحل هى.

على أية حال لم أكن أتوقع من أبى أن يهتم بما تقوله بالمرة. من يتخيل أن "ليرد" يقوم بنفس ما أقوم به من عمل فى المنزل وخارجه – يحتفظ بالقفل، ويغلق الحظيرة، وينظف أطباق السقى بقطعة من القماش مثبتة على عصا، أو حتى يدحرج البرميل دون أن يقلبه على ظهره؟هذا يبين أن أمى لا تعرف إلا قليلاً عن سير الأمور.

نسيت أن أحدثكم عن طعام الثعالب. أتذكر ذلك الآن من مريلة أبى التى كان يرتديها. كنا نطعمها لحم خيول. فى ذلك الوقت كانت أغلب المزارع تربى الخيول، وعندما كان الحصان يطعن فى السن ويفقد طاقته على العمل، أو تُكسر ساقٌ من سيقانه الأربعة، فيجلس على الأرض ولا يستطيع الحركة (وكان ذلك يحدث أحيانًا)، كان صاحب المزرعة يستدعى أبى، وكان هو و"هنرى" يدخل المزرعة على عربة نقل. وعادة ما يطلقون الرصاص علي الحصان، ويذبحونه هناك، ويدفع لصاحب المزرعة من خمسة إلى اثنى عشر دولارًا. فإذا كان لديه فائض من اللحم كان أبى يبقى على الحصان حيًّا، ويحضره إلى البيت، ويحتفظ به أيامًا قلائل، أو أسابيع قليلة فى الإصطبل فى بيتنا، حتى تظهر الحاجة إلى اللحم. بعد الحرب كان الفلاحون يشترون الجرارات، وشيئًا فشيئًا كانوا يتخلصون من

www.ibtesama.com

الخيول التى لا يحتاجون إليها فى النقل. فإذا حدث ذلك فى الشتاء كنا نحتفظ بالحصان فى الإصطبل حتى وقت الربيع، ففى الإصطبل كثير من القش، وإذا كان الثلج كثيرًا - والمحراث لا يستطيع تمهيد الأرض لنا - يكون من المريح أن نقدر على الذهاب إلى المدينة بالحصان الذى يجر عربة صغيرة نحيلة.

فى الشتاء كنت فى الحادية عشرة من عمرى، وكان لدينا حصانان فى الإصطبل. لم نكن نعرف اسميهما قبل أن يأتيا إلى منزلنا، ولذلك أطلقنا عليهما اسمى "ماك" و"فلورا". كان "ماك" عجوزًا لونه أسود مخصص للعمل، يعلوه الغبار والسخام، وغير مكترث. وكانت "فلورا" مهرة سمراء مائلة إلى اللون الأحمر، مخصصة للجر. أخذناهما خارج المنزل مع العربة، كان "ماك" بطيئًا وسهل القيادة، وكانت "فلورا" تنتابها نوبات من الهياج والعنف، تتطلع إلى العربات وحتى إلى أحصنة أخرى، ولكنا أحببنا سرعتها، وطريقة ركضها، وكبرياءها وبسالتها وحماسها. وفى أيام السبت كنا ننزل إلى الإصطبل، وبمجرد أن نفتح الباب نشعر بدفء، ويجتاحنا الظلام المحمل برائحة الحيوان. كانت المهرة "فلورا" ترفع رأسها، وتدير عيناها، وتئن بيأس، وتسحب نفسها من خلال نوبة عصبية فى الحال. لم يكن من الأمن أن نذهب إلى مربطها، سوف ترفس.

هذا الشتاء أيضًا بدأت أسمع أشياء أكثر عن الموضوع الذى كانت أمى تتحدث عنه عندما كانت تتحدث أماماالإصطبل. لم أعد أشعر بالأمان.

يبدو لى أن عقول الناس استقرت على فكرة خفية راسخة لا تقبل التغيير؛ بدت لى كلمة "بنت" بريئة لا تستدعى أية أعباء مثلما يحدث

www.ibtesama.com

مع كلمة "طفل، " الآن أشعر أن هذا نقيض الواقع: فكلمة "بنت" ليس معناها كما كنت أعتقد (ما أنا عليه ببساطة ودون تعقيد)، ولكن معناها ما ينبغى أن أكون عليه، ما يُفْترض أن أكون عليه. "بنت!" مفهوم مصحوب بالتشديد، والتأنيب، وخيبة الأمل، كأن القدر رمانى بخلقة تستدعى السخرية منى والدعابة على حساب كرامتى. ذات مرة كنت أنا و"ليرد" نتشاجر، ولأول مرة استخدمت كل قواى ضده، ورغم ذلك أمسك بى وعصر ذراعى للحظة، وآلمنى حقًا. رأى "هنرى" هذا، وضحك، وهو يقول: "ويحك، الآن "ليرد" يستعرض قوته!" كان "ليرد" قد كبر، ولكنى كبرت أيضًا.

جدتى جاءت لتعيش معنا لمدة أسابيع وسمعت أشياء أخرى: "البنات لا يغلقن الباب هكذا، " البنات يضممن سيقانهن معًا عندما يجلسن. " وأشياء أسوأ من ذلك، وعندما كنت أسأل بعض الأسئلة كانت الإجابة: "هذا ليس من شأن البنات. " ولكنى استمررت أغلق الأبواب بقوة، وأجلس بالطريقة الغريبة التى أجلس بها، معتقدة أنى بهذه الممارسات أحافظ على حريتى.

وعندما جاء الربيع، أطلقنا الحصانين فى فناء الإصطبل. وقف "ماك" وراء جدار الاصطبل يسعى إلى حك رقبته ومؤخرته، ولكن "فلورا"راحت تركض جيئة وذهابًا، وحاولت تسلق الأسوار، تضرب بحوافرها الحواجز. تضاءلت تراكمات الثلج بسرعة، تكشف عن أرض صلبة رمادية وبنية، البروزات والمنخفضات العادية على الأرض، منبسطة وعارية بعد مشهد طبيعى رائع للشتاء. كان هناك شعور عظيم بالانفتاح على العالم، بالانطلاق. كنا نرتدى الصنادل

www.ibtesama.com

المطاطية فوق أحذيتنا؛ شعرنا أن أقدامنا خفيفة بطريقة مضحكة.
وفى ذات يوم سبت خرجنا إلى الإصطبل، ووجدنا جميع الأبواب مفتوحة، وأشعة الشمس والهواء الطازج يغشى المكان كله على غير العادة. كان "هنرى" هناك، يطوف فى المكان على غير هدى أو عمل، ويتأمل ما جمعه من التقويمات التى كومها وراء المرابط فى جزء من الإصطبل أعتقد أن أمى لم تره من قبل.

قال هنرى: "تعالى ودعى صديقك العجوز ماك؟" ثم استمر يقول: "قدمى له بعض الشوفان". وصب بعض الشوفان فى كفى "ليرد" المكورة وذهب "ليرد" لكى يطعم "ماك". كانت أسنان "ماك" غير منتظمة، وشكلها سيئ. أكل ببطء جدًا، وبصبر راح يقلب الشوفان فى فمهبصبر، يحاول أن يجد قطعة من الطحين ليطحنها فيه. وقال "هنرى" بشىء من الحزن: مسكن ماك العجوز، عندما تضيع أسنان الحصان، فإن معناه أنه انتهى. " قلت لـ هنرى: وهل ستطلقون عليه النار اليوم؟" "ماك" و"فلورا" مكثا فى الإصطبلات زمنًا طويلاً حتى إنى نسيت أنهما سيُذبحان فى يوم من الأيام.

لم يجبنى "هنرى، "وبدلاً من ذلك بدأ يغنى بصوت عالٍ مرتعش ساخر، سخرية ممزوجة بالأسى. الآن لا يوجد عمل للخال "ند" العجوز، لقد ذهب إلى حيث يذهب السود الطيبون". وراح لسان ماك الضارب إلى السواد يعمل فى يد "ليرد" يلعقه بشىء من الجد. غادرت قبل أن تنتهى الأغنية وجلست فى المجاز.

لم أرهم أبداً وهم يطلقون الرصاص على حصان، ولكنى أعرف المكان الذى يطلقون فيه الرصاص على الخيول. مشينا الصيف

www.ibtesama.com

الماضى أنا و"ليرد" على أمعاء حصان ملقاة على الأرض قبل أن يتم دفنها. ظننا أن ثعبانًا كبيرًا أسود، ملتفًا حول نفسه فى الشمس. كان ذلك فى الغيط الذى يجاور الإصطبل. كنا نعتقد أننا إذا دخلنا إلى داخل الإصطبل، ووجدنا شرخًا كبيرًا، أو ثقبًا فى لوح خشبى ننظر من خلاله، نستطيع أن نراهم وهم يفعلون ذلك. لم يكن من الأمور التى كنت أحب أن أراها؛ فى الوقت نفسه إذا حدث هناك شىء حقًا فالأفضل أن أراه، وأعرفه. جاء أبى إلى الإصطبل من المنزل، يحمل بندقية، قال:

"ماذا تفعلان هنا؟، اذهبا والعبا فى البيت. "

أمر "ليرد" أن يخرج من الإصطبل وخرج. قلت لـ "ليرد": "هل تريد أن تراهم وهم يطلقون الرصاص على ماك؟" ودون أن ينتظر أية إجابة استدار راجعًا إلى الباب الأمامى للحظيرة، وفتحه بحرص ودخل. قلت: "التزم بالهدوء وإلا سمعونا".

كنا نستطيع ان نرى "هنرى" وأبى يتحدثان فى الإصطبل؛ ثم وقع أقدام "ماك" المضطربة، وهم يحررونه من مربطه. كان الجو باردًا فى مخزن التبن، وأشعة متقاطعة متشابكة من ضوء الشمس تسقط من خلال الشقوق والثقوب. كان التبن كومة منخفضة، تكثر المنخفضات والمرتفعات فى بلدنا، تلال وفجوات تنزلق تحت أقدامنا. حوالى أربعة أقدام فوق شعاع من الضوء يسير حول الجدران، كومنا التبن فى ركن من الأركان، ودفعت "ليرد" إلى أعلى ورفعت نفسى. لم يكن الشعاع كبيرًا جدًا؛ زحفنا نحوه بأيدينا على جدران الإصطبل. كان هناك الكثير من الثقوب فى ألواح الخشب، ووجدت

www.ibtesama.com

ثقباً ألهمنى بالمشهد الذى أريده، مشهد ركن فى فناء الإصطبل، البوابة، وجزء من الغيط. لم يكن لدى "ليرد" ثقب مثلى فى الخشب، وبدأ يشكو. أرشدته إلى شرخ كبير بين لوحين من ألواح الخشب قلت له: "أهدأ وانتظر. إذا سمعوك سيضربوننا". رأيت أبى يحمل بندقية. وكان هنرى يمسك بـ "ماك" من اللجام. ترك اللجام وتناول العلبة التى يضع فيها لفائف السجائر، ولف لنفسه سيجارة بعد أن ملأها بالطباق؛ كان يلف السجائر له ولأبى. كان ذلك يجرى بينما كان "ماك"يتطلع بأنفه ناحية العشب القديم الميت حول السور. ثم إن أبى فتح البوابة وأخرجا منها الجواد"ماك". سحب "هنرى"الجواد "ماك" خارج الحظيرة من الممر إلى مساحة من الأرض وتبادلا أطراف الحديث الهامس، لم نسمع شيئًا. "ماك"أيضًا بدأ يبحث عن ملء الفم من العشب الطازج، الذى لم يكن موجوداً. خرج أبى فى طريقه المستقيم، وتوقف على مسافة قصيرة بدت مناسبة له. وابتعد "هنرى" عن "ماك"أيضًا، ولكن إلى ناحية جانبية إلى اليسار، وكان يمسك باللجام بشىء من عدم الاكتراث. رفع أبى البندقية ونظر إليه ماك كأنه لاحظ شيئًا وأطلق عليه أبى الرصاص.

لم يتهاو ماك على الفور، لكنه ترنح، وتقهقر إلى اليسار، وسقط، سقط على جنبه فى البداية، ثم تهاوى متكومًا على ظهره، وتعجبنا حين راح يركل الهواء بقدميه لثوانٍ معدودة ثم هدأ. وهنا ضحك "هنرى" كأن "ماك" كان يخدعه. أطلق "هنرى" الرصاص على الحصان، وشهق "ليرد" شهقة طويلة من فرط الدهشة وصرخ قائلاً: لم يمت، لم يمت". وصدقت. بدا لى فعلاً آن الحصان لم يمت، ولكن

www.ibtesama.com

ساقيه توقفتا عن الحركة، وأعاد تكومه على الجانب الآخر، وسرت رعشة فى أوصاله، وبدا كأنه غاص فى المجهول. مضى الرجلان نحوه، أتما اتفاقهما بالقرب منه، انحنيا نحوه وتفحصا جبهته التى اخترقتها الرصاصة، فى تلك اللحظة رأيت دمه الذى سال على العشب البنى.

قلت لـ: ليرد: "سيسلخانه الآن ويقطعانه إلى قطع". وقلت له أيضًا: "تعالى نغادر المكان". ارتعشت ساقاى رعشة خفيفة، وحمدت الله، وقفزت فوق كومة التبن وقلت لـ "ليرد": "أرأيت كيف أطلقا الرصاص على الحصان؟" قلت ذلك بنبرة ارتياح غريبة كأنى رأيت المشهد أكثر من مرة قبل ذلك. "تعالى نبحث عن القطط الصغيرة فى الحظائر". قفز "ليرد". بدا صغيراً ومطيعًا مرة أخرى، وفجأة تذكرت كيف، عندما كان صغيراً، أحضرته إلى الحظيرة وطلبت منه أن يتسلق السلم إلى آخره. كان ذلك فى الربيع أيضًا، عندما كان التبن قليلاً فى المخزن. فعلت ذلك لحاجتى إلى الإثارة، رغبة فى حدث أحكيه. كان يرتدى معطفًا صغيراً سميكًا بنيًا، وأبيض بمربعات، صنعته أمه من معطف قديم كنت أرتديه، وجلس على أعلى السلم والتبن من تحته بمسافة كبيرة، وسقف الاصطبل فوقه بمسافة قليلة، وفى جانب استقرت بعض الآلات الزراعية القديمة. ثم رحت أنادى على أبى بصوت عالٍ، أقول له: "إن ليرد على أعلى السلم!" وجاء أبى، وجاءت أمى، وتسلق أبى السلم وهو يتحدث بهدوء وأنزل "ليرد"من فوق قمة السلم يحمله تحت إبطه، ولكن أمى مالت ناحية السلم وراحت تصرخ. قالا لى: "لماذا كنت تتفرجين عليه؟" ولكن أحداً

www.ibtesama.com

لم يكن يعرف الحقيقة. وحتى "ليرد" لم يكن يعرف الكثير ليحكيه. ولكن كلما رأيت المعطف البنى المربع معلقًا فى الدولاب، أو أسفل دولاب الخرق، حيث استقر، كنت أشعر بثقل فى معدتى، والحزن الفظيع، والذنب الذى لم أستطع التخلص منه.

نظرت إلى "ليرد"، الذى لم يكن يتذكر حتى هذا، ولم أكن أحب النظر إلى هذا الشىء، هذا الشىء الذى هو وجه "ليرد" البارد الشاحب. لم تكن علامات الخوف تعلوه، ولا حتى القلق، ولكنه كان يبدو بعيداً، وحالمًا. قلت بصوت حميم واضح على غير العادة: "اسمع، أنت لن تخبر أحداً، هل ستخبر أحداً؟" وأجاب بصوت منخفض ذاهل:

"لا". قلت له: "هل تعدنى بذلك؟"

وقال: "أعدك."

وضعت يده خلف ظهره، حتى أتأكد من أنه لا يصالب أصابعه. وحتى بعد ذلك أعتقدت أن الكابوس لن يفارقه؛ فى النهاية سينتهى الأمر بكابوس يطارده. قررت أن أعمل جاهدة لكى أخلصه من أية أفكارتتصل بما رآه، ويبدو لى أن عقله يعجز عن الاحتفاظ بالكثير ذكريات الحدث الواحد. حصلت على بعض النقود التى ادخرتها، وفى ذلك المساء ذهبنا إلى اليوبيل ورأينا العرض. رأينا "جودى كانوفا، " وضحكنا من قلبينا كثيراً، واعتقدت بعد ذلك أن الأمور تسير على ما يرام.

وبعد ذلك بأسبوعين عرفت أن أبى و"هنرى"ينويان إطلاق الرصاص على "فلورا". عرفت من الليلة التى سبقت ذلك، عندما

www.ibtesama.com

سمعت أمى تسأل أبى عن كمية التبن: هل هى كافية؟، وقال لها أبى: "نعم بعد الغد لن يكون فى الحظيرة غير البقرة، وسنخرجها من الحظيرة لترعى فى البرسيم فى الغيط فى الأسبوع التالى. " وبذلك عرفت أن دور "فلورا"سيكون فى الصباح.

فى هذه المرة لم أكن أريد أن أرى المشهد، هذا مشهد لا يُرى إلا مرة واحدة. لم أكن أفكر فى الأمر كثيرًا منذ ذلك الحين، ولكن أحيانًا، عندما أكون مشغولة، أعمل فى المدرسة، أو أقف أمام المرآة أمشط شعرى وأتساءل:"هل سأكون جميلة عندما أكبر؟" فإن الأحداث كلها تنشط فى ذاكرتى: كنت أتذكر كيف رفع أبى البندقية بخفة ورشاقة وخبرة، وأسمع "هنرى" يضحك عندما ركل "ماك" الهواء بقدميه. لم تكن مشاعر الرعب والاعتراض تتملكنى كثيراً، كالتى كان يمكن أن تتملك طفلاً نشأ فى المدينة، لقد اعتدت أن أرى مشاهد موت الحيوانات بوصفها مشاهد ضرورية لكى نعيش. ولكنى مع ذلك شعرت شعوراً خفيفًا بالخزى، وشعوراً جديدًا بالحذر، وشعوراً بالتراجع فى موقفى من أبى وعمله.

كان يومًا لطيفًا، وجرينا حول الحظيرة نلتقط أغصان الشجر التى سقطت بسبب الشتاء والعواصف. هذه أشياء كانوا يشجعوننا على ممارستها، وكنا نريد أن نستخدمها فى عمل خيمة صغيرة. سمعت حمحمة "فلورا، " ثم سمعت صوت أبى و"هنرى"يصرخان، وجرينا إلى الفناء المجاور لمخزن الحبوب لنرى ما كان يحدث.

كان باب الإصطبل مفتوحاً، وكأن "هنرى" قد أخرج "فلورا" من الحظيرة، ولكنها أفلتت منه وراحت تجرى على راحتها فى الفناء، من

www.ibtesama.com

أوله إلى آخره. وتسلقنا السور. كان مثيراً أن نرى "فلورا" تجرى، وتحمحم، وتقف على قائمتها الخلفية تمارس الرقص المرح والتهديد كما ينبغى لحصان فى فلم من الأفلام الأمريكية، حصان مزرعة، رغم أنها كانت حصان جر فقط، مهرة عجوز سمراء مائلة إلى الحمرة. وجرى أبى و"هنرى" خلفها يحاولان الإمساك باللجام المتدلى. حاولا دفعها إلى أحد الأركان، وفى الغالب تمكنا من ذلك عندما أحاطا بها، واسعة العينين، وغابت فى ركن الحظيرة. سمعنا ارتطامها بالحواجز بعد أن قفزت فوق السور، وصرخ "هنرى": "ذهبت إلى الغيط الآن!"

كان ذلك معناه أن "فلورا" ذهبت إلى الغيط الذى يأخذ شكل حرف "L"، والذى يمتد بطول البيت. وإذا حامت حول الوسط، متجهة نحو المدق، وكانت البوابة مفتوحة؛ والعربة نصف النقل تم قيادها ناحية الغيط هذا الصباح. نادى أبى عليّ؛ لأنى كنت فى الجانب الآخر من السور، قريبة من المدق، "اذهبى وأغلقى البوابة الكبيرة!"

واستطعت أن أجرى بعيداً جداً. وجريت نحو الحديقة، أمام الشجرة التى علقنا عليها أرجوحتنا، وقفزت عبر حفرة فى المدق، وأصبحت أمام البوابة المفتوحة. لم تكن "فلورا" قد خرجت، كنت أستطيع أن أراها قادمة نحو الطريق، فلابد أنها هرعت إلى النهاية الأخرى للغيط. كانت البوابة ثقيلة، رفعت البوابة من الحصباء وحملتها ناحية عبر الطريق. اقتربت "فلورا،" أصبحت فى مجال رؤيتى ولم أكن قد وصلت بالبوابة إلى مكانها، تركض متجهة

www.ibtesama.com

مباشرة ناحيتى. كان هناك متسع من الوقت حتى أغلق البوابة بالسلسلة، وجاء "ليرد" يضطرب فى مشيه يكاد يقع، يريد أن يساعدنى.

وبدلاً من غلق البوابة، فتحتها كأوسع ما استطعت. لم أتخذ قراراً لأفعل ذلك؛ كان هذا ما فعلته وكفى. لم تتوقف "فلورا، " ولم تتباطأ، ومضت فى ركضها مارة أمامى مباشرة، وقفز "ليرد" صعوداً وانخفاضاً، يصرخ: "أغلقى البوابة، أغلقى البوابة!" حتى بعد أن أصبح الأمر كأنه السيف الذى يسبق العذل. وظهر أبى وهنرى فى الغيط لحظة متأخرين، فلم يريا ما فعلته. فقط رأيا "فلورا" تتجه صوب طريق المدينة. لقد ظنا أنى لم أصل فى الوقت المطلوب، تأخرت.

ولم يضيعا وقتاً فى السؤال عن ذلك. رجعا إلى الحظيرة وتناولا البندقية والسكاكين التى كانا يستخدمانها، ووضعا هذه الأشياء فى العربة نصف النقل؛ ثم استدارا بالعربة نصف النقل وجاءا عبر الحقل.. نحونا. وناداهما "ليرد": "دعونى أذهب معكم، دعونى أذهب معكم!" وأوقف "هنرى" العربة والتقطاه، وأغلقت الباب خلفهما.

وكنت أظن أن "ليرد" كان سيخبرهما بما فعلت، وتساءلت عما سيحدث لى. لم يحدث أن عصيت أبى قبل ذلك، ولم أفهم لماذا فعلت ذلك. "فلورا" لم يكن لتخرج إلا عندما قررت أنا أن تخرج. كانا سيلحقان بها وهما فى العربة. وإذا لم يتمكنا باللحاق بها فى هذا الصباح، فإن أحداً سوف يراها ويتصل بنا فى التليفون بعد الظهر، أو فى الغد. لا يوجد مكان تذهب إليه، أو صحراء تلجأ إليها، نحن

www.ibtesama.com

نريد لحمها لإطعام الثعالب، ونحتاج الثعالب لنعيش. كل ما فعلته أنى قمت بعمل إضافى مع والدى الذى يتعب تعبًا شديدًا فى العمل. عندما يكتشف أبى ما فعلته فلن يثق بى مرة أخرى؛ سيعرف أنى لا أقف إلى جانبه. وقفت إلى جانب "فلورا، " وهذا جعلنى لا أنفع أحدًا، ولا حتى لـ "فلورا" نفسها. وبالمثل: لم أندم؛ عندما عادت تجرى نحوى احتفظت بالبوابة مفتوحة، كان ذلك العمل الوحيد الذى كنت أستطيع أن أفعله فى تلك اللحظة.

وعدت إلى المنزل، وقالت لى أمى: "فيم كانت هذه الجلبة؟" وأخبرتها أن "فلورا" ضربت السور وهربت". وقالت أمى: "أبوك المسكين سوف يظل يطارده عبر الحقول والشوارع حتى تعود. وإذن ليس هناك فائدة من إعداد العشاء قبل الواحدة". ووضعت أدوات الطبخ جانبًا. أردت أن أخبرها بما حدث بالضبط، ولكنى فكرت طويلاً فى الأمر وذهبت إلى الطابق الثانى واتجهت إلى فراشى.

فى الفترة الأخيرة سعيت إلى جعل الجزء الخاص بى من الحجرة مليئة بالزخارف، غطيت السرير بستائر قديمة مزخرفة، ووضعت لنفسى "تسريحة" من بعض بقايا من قماش قطنى متين لتنورة. وخططت لوضع سد بينى وبين سرير "ليرد، " لكى أفصل الجزء الخاص بى عن الجزء الخاص به. وفى ضوء الشمس، ظهرت الستائر مليئة بالتراب. لم نُغَنِّ فى الليل بعد ذلك أبدًا. وفى إحدى الليالى عندما كنت أغنى قال "ليرد" لى: "صوتك نشاز"، وواصلت الغناء، ولكنى فى الليلة التالية لم أبدأ الغناء. لم تكن هناك حاجة أخرى إلى الغناء، لم نعد نشعر بالخوف مرة أخرى. كنا نعرف أن الأثاث كله قديم، كأنه

www.ibtesama.com

أكوام قديمة من الكراكيب والمتناثرة. لم نحفظ على القواعد. وحافظت على عزلتي بعد أن ينام "ليرد" أحكي لنفسي القصص، ولكن حتى في هذه القصص كانت تحدث أشياءُ مختلفة، أشياءُ بديلة غامضة. يمكن للقصة أن تبدأ بالطريقة القديمة، بوجود خطر داهم، أو حريق أو حيوانات مفترسة، وهناك وقت أنقذ فيه ناساً كثيرين، ثم تتغير الأمور من حولي، وبدلاً من ذلك يأتي شخص لإنقاذي أنا، ربما يكون صبياً من طبقتنا في المدرسة، أو حتى مدرسنا الأستاذ "كامبل، " الذي كان يخز البنات تحت الإبط. وعند هذه النقطة تركز القصة في جزء كبير منها على وصف نفسي، وكيف أبدو، وما هو طول شعري، وما هي ملابسي التي أرتديها؛ وعندما أحصل على مثل هذه التفاصيل فإن الإثارة الحقيقية في القصة تضيع.

وجاءت العربة بعد الساعة الواحدة بكثير، محملة بقماش المشمع، مما يعني أن القماش يخفي اللحم تحته. وكان على أمي أن تسخن الغداء مرة أخرى. وبدَّل أبي و"ليرد" ملابسهما، من "الأفرول" الملطخ بالدم إلى "الأفرول" الآخر الذي يستخدمه الواحد منهما في العمل في المزرعة، وغسلا أيديهما ورقبتيهما ووجهيهما في الحوض، ورشا الماء على شعريهما ومشطاه. رفع "ليرد" ذراعه ليرينا خيط من الدم، وقال: "ضربنا "فلورا" بالرصاص، وقطعناها إلى خمسين قطعة. "

فقالت أمي:

"بس، لا أريد أن أسمع هذه القصة، وابتعدي عن المائدة وأنت في هذه الحال. " وأمره أبي أن يذهب إلى غسل الدم الذي علق على ملابسه ووجهه.

www.ibtesama.com

جلسنا، وصلى أبى ودعا، ووضع "هنرى"قطعة اللبان التى كان يمضغها على طرف شوكته، الطريقة التى كان يفعلها دائمًا، عندما ينتزعها كنا نعجب بالعملية. بدأنا فى تمرير السلطانيات المملوءة بالخضراوات المطبوخة التى يتصاعد منها البخار. نظر "ليرد" عبر المائدة وقال بشىء من الكبرياء والزهو: "على أية حال كان الخطأ خطأها فهى التى جعلت "فلورا" تهرب. "

وتساءل أبى فى دهشة: "ماذا تقول؟"

وواصل "ليرد" يقول: "كانت تستطيع أن تغلق الباب ولم تفعل. بالعكس فتحته، وهربت "فلورا".

تساءل أبى مرة أخرى: "هل هذا صحيح؟"

ونظر إلىّ الجميع. وأومأت موافقة، وأنا أبلع طعامى بصعوبة شديدة. كنت أشعر بالخجل الشديد، وتدفقت دموعى من عيونى.

وصدر عن أبى صوت يدل على الرفض وعدم الرضا، وسألنى: ولماذا فعلت ذلك؟"

ولم أجب. وضعت شوكتى وانتظرت أن يطردنى من المائدة، ولم أستطع أن أنبس ببنت شفة، ثم قال "ليرد" ما حدث: "إنها تبكى".

وقال أبى: "ولا يهمك، " وراح يتحدث بشىء من التراجع، وحتى ببعض المزاح، ببعض الكلمات والعبارات التى تبرئنى وتقصينى إلى الأبد: "إنها مجرد بنت". ولم أعترض على هذا، حتى فى قرارة نفسى، لعلهم كانوا على حق.

www.ibtesama.com

هوامش:

(١) معركة "بالاكلافا" اندلعت فى الخامس والعشرين من أكتوبر فى عام (١٨٥٤) فى أثناء حرب القرم، وكانت جزءًا من الحملة الإنجليزية/الفرنسية/التركية للاستيلاء على ميناء وقلعة سفاستوبول فى القاعدة البحرية الروسية الرئيسة فى البحر الأسود. وقد اندلعت هذه المعركة بعد النصر الذى أحرزه الحلفاء فى سبتمبر فى معركة ألما، حيث استطاع الجنرال الروسى "منشيكوف" رفع حالة الاستعداد فيه جيشه سعيًا إلى وقف الحلفاء من التقدم جنوبًا نحو خليج كالاميتا الاستراتيجى فى الرابع عشر من سبتمبر، حقق فيها الروس انتصارًا كبيرًا على هذا العدوان الثلاثى(المترجم).

(٢) دانى بوى أغنية موال كتبها الشاعر الغنائى الإنجليزى فريدرك وذرلى، وفيها عبق الريف الأيرلندى. تقول كلمات الأغنية:

آوه دانى بوى، الألحان تناديك، تناديك الألحان
من وادٍ صغير إلى وادٍ صغير، وعند سفح الجبل
لقد ذهب الصيف، والأزهار آخذة فى الذبول
أنت، أنت الذى يجب أن يذهب وأنا الذى يبقى.
ولكن عد عندما يحل الصيف على المروج
أو عندما يهدأ الوادى ويبيض من كثرة الثلج
سأكون هنا تحت أشعة الشمس أو فى الظلال
أوه دانى بوى، أوه دانى بوى، أحبك على حالك.
وإذا أتيت، والأزهار كلها تجرب الموت
وإذا مت، وإنى لابد ميت
أتمنى أن تجد مكان رقادى
وهناك تنحنى على قبرى، وتسلم على روحى.
سأسمعك، ولكن خفف الوطء من فوقى
ستجد قبرى دافئًا وأجمل من أى قبر

www.ibtesama.com

عندئذٍ ستركع أنت وتهمس بحبى
وسأرقد بسلام حتى قدومك إلىّ
أو أنام بسلام حتى تأتى إلىّ
وسوف أرتاح بسلام حتى تأتى إلىّ
أوه دانى بوى، أو دانى بوى، أنت حبى (المترجم)

(٢) الذكرى الخمسون كما فى سفر اللاويين:

٢٥.٨- و تعد لك سبعة سبوت سنين سبع سنين سبع مرات فتكون لك أيام السبعة السبوت السنوية تسعا وأربعين سنة

٢٥: ٩ ثم تعبر بوق الهتاف فى الشهر السابع فى عاشر الشهر فى يوم الكفارة تعبرون البوق فى جميع ارضكم

٢٥: ١٠ وتقدسون السنة الخمسين وتنادون بالعتق فى الارض لجميع سكانها تكون لكم يوبيلا وترجعون كل إلى ملكه وتعودون كل الى عشيرته

٢٥: ١١ يوبيلا تكون لكم السنة الخمسون لا تزرعوا ولا تحصدوا زريعها ولا تقطفوا كرمها المحول

٢٥: ١٢ إنها يوبيل مقدسة تكون لكم من الحقل تأكلون غلتها

٢٥: ١٣ فى سنة اليوبيل هذه ترجعون كل الى ملكه (المترجم)

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

أقمار المشترى

وجدت أبى فى جناح أمراض القلب فى الطابق الثامن فى مستشفى تورنتو العام. كان يرقد فى غرفة نصف خصوصية، وكان السرير الآخر فى الحجرة خاليًا. قال لنا إن التأمين الصحى لم يغطِّ إلا تكلفة سرير فى هذا الجناح، وكان قلقًا من أن يطالبوه بأموال زيادة. قال لنا:

– لم أطلب منهم حجرة شبه خصوصية.

قلت له: ربما كانت الأجنحة كلها مليئة.

– لا. رأيت بعض الأسرة الخالية عندما كانوا يدفعون بعربتى إلى هنا.

قلت:

– ربما لأنك مضطر إلى أن يُشَد وثاقك إلى هذا الشىء، ثم لا تقلق، إذا كانوا ينوون طلب أموال زيادة، سيخبرونك قبلها.

www.ibtesama.com

قال:

– محتمل جداً، ربما لا يريدون لهذه الأماكن أن تزدحم بالأدوات التى لا لزوم لها، أعتقد أن التأمين لا يغطى إلا هذا السرير وكفى.

قلت أكيد التأمين لا يغطى إلا هذا السرير وكفى.

كانت أسلاك كثيرة موصولة بقلبه، وشاشة صغيرة معلقة فوق رأسه، وعلى الشاشة خط فاتح مسنن لا يكف عن الحركة، والكتابة مصحوبة بصفير كهربائى متوتر مضطرب، كأن كل ما يختلج به قلبه موجود هنا على هذه الشاشة. أردت أن أتجاهله. بدا لى أن الاهتمام الشديد يفاقم فى الواقع من الأزمة، ويضخم نشاطًا كان ينبغى أن يكون سريًا، ومعناه أيضًا أنه يجلب المتاعب. أى شىء يمعن الناس فى معرفته وتضخيمه، ويتحول إلى النقيض.

أبى نفسه يبدو عليه أن لم يهتم. قال إن الأطباء يواظبون على إعطائه المهدئات، يسميها الأقراص البهيجة. كان يبدو عليه التفاؤل والهدوء.

الليلة قبل السابقة حدثت قصة مختلفة. فعندما أحضرته إلى المستشفى، فى غرفة الطوارئ، كان شاحبًا وفمه مغلق. فتح باب السيارة ووقف وقال بهدوء: "أظن أن الأفضل أن تدخلونى المستشفى على واحد من هذه الكراسى المتحركة. " كان يتحدث بالصوت نفسه الذى يتحدث به فى أوقات الأزمات. فذات يوم شب حريقٌ فى المدخنة، فى ظهيرة يوم من أيام الآحاد، وكنت أنا فى حجرة السفرة مشغولة فى خياطة ثوب. دخل الحجرة وقال بصوته نفسه المعروف بما فيه من نبرة تحذير: "وانيتا، هل تعرفين أين أجد علبة البيكنج

www.ibtesama.com

بودر؟ كان يريدها ليرشها على النار. ثم بعدها قال: "أظن أن الخطأ خطوَكِ - الخياطة فى يوم الأحد."

كنت مضطرة إلى الانتظار ما يقرب من الساعة فى حجرة انتظار قسم الطوارئ. استدعوا أخصائى فى القلب من أطباء المستشفى، شاب. نادى على اسمى فى الصالة وشرح لى أن أحد صمامات قلب أبى انهار بطريقة سيئة للغاية، وأن الأمر يتطلب عملية جراحية على الفور.

قلت له: وإذا لم يتم إجراء عملية جراحية؟

- "هو مضطر إلى البقاء على سريره،" قال الطبيب.

- إلى متى؟

- ربما ثلاثة أشهر.

- أعنى كم يتبقى له على قيد الحياة؟

قال الطبيب:

- هذا ما كنت أقصده أيضًا. ثلاثة أشهر.

ذهبت لرؤية أبى، كان يجلس على سرير فى ركن محجوز بستارة. قال:

- مكان سيئ؟ صح؟ هل أخبرك الطبيب بأمر الصمام؟

- لا.. ليس بهذا السوء الذى كان يمكن أن يكون عليه إذا أهملنا.

ثم رحت أكرر أى شىء مطمئن قاله الطبيب، وحتى رحت أبالغ.

- لا يوجد خطر داهم ولا حاجة، حالتك الجسدية جيدة، إلا.

- "إلا،" تساءل أبى بشىء من الكآبة.

www.ibtesama.com

كنت مرهقة من القيادة - قدت المسافة كلها إلى "دقليش"لآتى به، والمسافة كلها إلى تورنتوبعد ذلك - فى سيارة أجّرتها لهذا الغرض، وكنت أفكر فى كيف أعيدها إلى صاحبها فى الميعاد، وزاد من عصبيتى مقال قرأته فى مجلة وأنا جالسة فى حجرة الانتظار. كان المقال يدور حول قصة كاتبة أخرى، سيدة أصغر سنًا، وأكثر جمالاً، وربما كانت أكثر موهبة منى. كنت فى إنجلترا خلال الشهرين الماضيين، ولذا لم أرَ المقال قبل الآن، وتذكرت وأنا أمضى فى القراءة أن أبى لابد أنه قرأ المقال. تخيلته وهو يقول: "لم أقرأ بخصوصك شيئًا فى جريدة الماكليان الإخبارية. وعندما كان يقرأ شيئًا يخصنى، كان يقول: "أقرأ هذه الأشياء ثم أنساها، لا أفكر فيها طويلاً. " تصبح نبرة صوته أقرب للهزل ورحابة الصدر، ولكنه يحدث عندى أثرًا ألفته أقرب إلى الغربة أو الوحشة فى أعماق الروح. وأما الرسالة التى تلقيتها منه فهى بسيطة: "الشهرة والمجد من الأشياء التى يجب على الأنسان أن يبذل العرق فى سبيل الحصول عليها، ثم بعد ذلك تندم على ذلك. اللوم لابد أن يلحقك سواء ظفرت بالشهرة، أو لم تظفر.

لم تدهشنى أخبار الطبيب؛ فقد كنت متوقعة مثل هذه الأخبار، وقبولى لها بهدوء ورباطة جأش جعلنى راضية عن نفسى، كرضاى عن نفسى وأنا أضمد جرحًا، أو وأنا أنظر إلى الأرض من شرفة ضعيفة لمبنى عالٍ. قلت فى نفسى: "نعم.. هذا وقته.. لابد أن يحدث شىء، وقد حدث. " لم أشعر بالاعتراض والتحدى الذى كان يمكن أن أشعر به فى الماضى؛ قبل عشرين أو عشر سنين. عندما

www.ibtesama.com

أحسست من التعبيرات المرسومة على وجه أبى، أنه مصرٌ على الرفض بالحماس نفسه الذى كان يتألق به وهو فى الثلاثين أو الأربعين. فى هذه الأثناء قسى قلبى، وتحدثت معه بشىء من البشاشة المصطنعة. قلت له: "البديل صعب جداً. "

وفى اليوم التالى عاد إلى رشده من جديد.

هذا أفضل تعبير عن ما رأيت منه فى اليوم التالى. قال لى إنه ببدو له الآن أن هذا الشاب - الطبيب - مغرم بالقيام بعمليات جراحية، أو كما قال: "سكينه حادة. " طبعًا كان يسخر من جهة، ومن جهة أخرى كان يستعرض معرفته باللغة العامية الخاصة بالمستشفيات. وقال: إن طبيبًا آخر، أكبر سنًا، فحصه ونصحه بالراحة وأخذ بعض الأدوية، وأن ذلك يمكن أن يخلصك من الوهم.

"من الوهم!!"

"قال لى أنت عندك صمام فيه مشكلة، أو كى!، فيه عطب، وسألونى هل كان عندى حمى روماتيزمية وأنا صغير، وقلت لهم لا، لم يكن لدى أى شىء من هذا القبيل، وضيعوا نصف الوقت فى الحديث عن أشياء لا تمت لما أعانى منه بصلة. لم يكن أبى يحب الدكاترة.

تخيلت طفولة أبى كئيبة وخطيرة - المزرعة الفقيرة والأختين المذعورتين والأب القاسى - مما جعلنى أستسلم لرحيله الوشيك. تخيلته وهو يتخبط فى هذه الدنيا يريد أن يعمل فى قوارب فى بحيرات، أو يسير على قضبان السكة الحديد، إلى جودرتش، على مشهد من أضواء المساء. كان يروى لنا قصصًا عن هذه الرحلة،

www.ibtesama.com

حين رأى شجرة سفرجل. أشجار السفرجل نادرة فى الجزء الذى نعيش فيه من هذه البلد، أنا نفسى لم أرَ شجرة سفرجل واحدة، ولا حتى الشجرة التى عثر عليها أبى، رغم أنه أخذنا مرة لنعيد البحث عنها، كان يظن أنها قريبة من مفترق الطرق القريب، ولكنا لم نجدها. لم يجد الرغبة فى تناول ثمرتها، ولكن الذى بهره هو وجودها فى حد ذاته فى الواقع. جعله يعتقد أنه ذهب إلى عالم جديد، أو رحل إلى جزء جديد فى هذا العالم.

الطفل الهارب، المنجى من الهلاك، الرجل العجوز الواقع فى شرك القلب الراشح. لم أسعَ إلى الجرى وراء هذهالأفكار، لم أهتم بالتفكير فى مراحل عمره المختلفة. وحتى جسده العارى، وافر اللحم، أبيض - له جسد واحد من عمال الأرض، القوى الشاب. الرقبة المتجعدة، بما شاع عليها من شعيرات رمادية نحيفة، وشارب، أكثر مما تعودت عليه.

قال أبى بشىء من المنطق:

- لماذا أقدم على عملية جراحية لا أضمن نتائجها؟ يا ناس فكروا فى سنى، ولماذا كل ذلك؟ من أجل أن أعيش بضعة سنين على الأرض؟ أعتقد أن أفضل شىء المفروض أن أعمله أن أذهب إلى البيت، وأعيش حياتى، أو أستسلم لمصيرى بسلام. هذا فى استطاعتى، وأنا فى هذه السن. موقفك يتغير، عارفة. يمر الواحد بتغيرات ذهنية، هذا طبيعى جداً.

"ما هذا الذى يبدو طبيعياً؟" قلت.

"نعم، الموت هو الذى يبدو طبيعياً، الموت أكثر أحوالا الإنسان

www.ibtesama.com

قربا من الطبيعة. أنا أقصد الآن أنى لن أجرى أية عملية جراحية."

"قصدك هذا أقرب الطبيعة؟"

"نعم."

"هذا رأيك،" قلت، ولكنى وافقته على هذا الرأى فى قرارة نفسى. وهو ما توقعته منه بالضبط. كلما حكيت للناس عن أبى كنت أركز على استقلاليته، واكتفائه بنفسه، وقوة صبره وتحمله. كان يعمل فى مصنع، وكان يعمل فى حديقته، وكان يقرأ كتب التاريخ. كان يستطيع أن يحكى لك عن الأباطرة الرومان أو حروب البلقان. ولم يكن يثرثر ثرثرة غير مجدية.

جاءت جوديث، ابنتى الصغرى، لمقابلتى فى مطار تورنتو منذ يومين من الآن. كان معها الشاب الذى كانت تعيش معه، وكان اسمه دون. كانا يقودان السيارة إلى المكسيك فى الصباح، وبينما كنت فى تورنتو، انتظرت فى شقتهما. أما الآن فأنا أعيش فى فانكوفر، وأحيانًا أقول لمن حولى: "مركزى الرئيس فى فانكوفر."

"وأين "نيكولا"؟" سألت، وأنا أفكر - فى الوقت نفسه فى حادثة، أو فى جرعة زائدة. "نيكولا" ابنتى الكبرى، كانت طالبة فى معهد الكونسرفتوار، ثم أصبحت نادلة فى كباريه، ثم أصبحت عاطلة عن العمل. فإذا كانت هى الأخرى فى المطار، لظننت أن هناك خطأ ما. كنت سأسألها عن خطتها بعد ذلك، وكانت ستجيب وهى ترد شعرها إلى الخلف بأن تقول: "خطتى؟" - كأنى أنا اخترعت هذه الكلمة.

قالت لى جوديث:

"أعرف أن أول شىء سوف تتحدثين فيه هو السؤال عن "نيكولا"؟"

www.ibtesama.com

"لا. . أنا أرحب فقط وكذلك ... "

ثم قال دُنْ:

"ننتظر حقيبتك. "

"هل هى على بخير؟"

"أنا متأكد أنها بخير، " قالت جوديث، بنرة رضا مصطنعة، وأردفت: "لو أنى ليس معك اليوم لما كنت على هذه الحال من الرضا بالنفس. "

"لا طبعًا. "

"لا طبعًا، "نيكولا" هى "دلوعة" العائلة، عارفة، وهى أكبر منى بأربعة أعوام. "

"عارفة. "

قالت جوديث إنها لا تعرف أين "نيكولا" بالضبط، وقالت: إن "نيكولا" انتقلت من شقتها (شقة زبالة!) واتصلت بالتلفون (وهو أمر جلل، أن تتصل "نيكولا") لتقول لنا إنها تريد تتوقف عن الاتصال بالآخرين فترة من الزمن، وهى فى الوقت نفسه على ما يرام.

وفى الطريق إلى السيارة قالت جوديث بشىء الهدوء: "قلت لها إن أمك ستقلق عليك، ولكن لا تقلقى عليها، هى بخير، صدقينى. " قلت بينما كان دُنْ يحمل حقيبتى.

لم يكن حضور دُنْ مصدر راحة لى؛ لم أكن أحب أن يسمع هذه الأمور. تخيلت الحوارات التى كانت ستتم بينه وبين جوديث، أو بينه وبين جوديث و"نيكولا"، لأن حبل الود يتصل أحيانًا بين "نيكولا" و"جوديث". أو بين "جوديث" و"دُنْ" و"نيكولا" وآخرين لم أكن أعرف

www.ibtesama.com

أسماءهم. ربما تحدثوا عنى. جوديث و"نيكولا" تتبادلان الملاحظات عنى، وترويان القصص النادرة، وتحللان، وتتبادلان مشاعر الندم، واللوم، والعفو. تمنيت لو كان لى ولد وبنت، أو ولدين. لو كان لى ولدان لما فعلا ذلك، الأولاد الذكور لا يعرفون عن أمهاتهم الكثير الذى تعرفه البنات.

عندما كنت فى مثل عمريهما كنت أفعل الشىء نفسه. عندما كنت فى عمر جوديث الآن، كنت أتحدث مع أصدقائى فى مطعم الكلية، أو حتى فى ساعة متأخرة من الليل ونحن نحتسى القهوة فى حجراتنا الزهيدة. وعندما كنت فى مثل عمر "نيكولا" الآن، كنت أضع "نيكولا" نفسها فى سريرها النقال، أو أضعها على حجرى وهى لا تكف عن الحركة، وكنت أحتسى القهوة خاصة بعد العصر فى مقاهى فانكوفر مع جارنا وصديقى روث بودرو الذى كان يعشق القراءة، وكان يغيظه تصرفاتها، وكان يغظنى أيضًا. كنا نتحدث عن آبائنا، وعن سنى طفولتنا، رغم أننا لم نتحدث فى زواجنا لفترة طويلة. كان الواحد منها يتحدث باستفاضة عن أبيه وأمه، يلعن زواجهما، وطموحاتهما الخايبة، أو خوفهما الخايب من تحقيق الطموحات، كيف تحدثنا عن كل شىء فى حياتهم، وكيف تنافسنا فى رصد تفكيرهما، وعجزهما عن التغيير.

رأيت دُنْ وهو يمضى بالحقيبة، صبىٌ طويلٌ له سمت الزاهدين، يضع على شعره الأسود قلنسوة القديس فرانسيس، ولحية خفيفة نابتة. من أعطاه الحق ليتحدث عنى، وأن يعرف أشياء أنا نفسى ربما نسيتها؟ قلت فى نفسى، لقد تغيرت لحيته وطريقته فى حلق شعر رأسه.

www.ibtesama.com

ذات مرة - عنما كان أطفالى صغارًا - قال لى أبى: "أنت عارفة لما كنت صغيرة، تتذكرى هذه السنين، عارفة، لم أعد أتذكرها اليوم إلا قليلاً، أستطيع أن أتذكر أعوامًا معينة منها. " وشعرت بالغبن، فأنا أتذكر كل سنة منها على حدة، بوضوحوألم شديدين. أتذكر - مثلاً - عندما ذهبت إلى محل بيع ملابس سيدات، ورأيت نوافذ العرض فى محل اسمه محل بنبو، كان يعرض فستانًا جديداً كل أسبوع من أسابيع الشتاء، فساتين من قماش الترتر والحرير التول الرقيق، بألوان وردية وليلكية، وبألوان أخرى كالياقوت والنرجس الأصفر والأحمر، وأنا الماشية على رصيف المشاة، العاشقة للفرجة، المبتلية ببرد الشتاء. أتذكر الآن عدد سنين العمر عندما زيفت توقيع أمى على بطاقة تقرير سىء لأدائى المدرسى، حدث ذلك عندما أُصبت بمرض الحصبة، وعندما كنا نكسو جدار الحجرة الأمامية بالورق. ولكنى أتذكر السنين التى شهدت طفولة جويث و"نيكولا"، وعندما كنت أعيش مع أبيهما - مستقرة الآن فى ذاكرتى كأنها الجسم المعتم المستقر فى أعماق الروح. أتذكر كيف كنت أشترى الحفاضات، وأستخدمها، وأتذكر طاولات المطبخ وسلال الملابس، والمضى بها إلى ماكينات الغسيل والتنشيف. أتذكر برامج التلفزيون، وأفلام الكارتون فيه: "باباى البحار، " و المهرجون الثلاثة، وفونوراما. وأتذكر أنه عندما كان يحل ميعاد عرض برنامج فونوراما كنا نطلق الأنوار، ونشرع فى إعداد العشاء. كنا نعيش خارج فانكوفرفى حى المدن الجامعية، كنا نسميه: دورمير، دورمر، دورموز، أو شىء من هذا القبيل. أيامها كنت أنام طوال الوقت، الحمل كان يجعلنى أنام

www.ibtesama.com

كثيراً، وأحلام الليل، وأمطار الساحل الغربى. وأتذكر أشجار الأرز التى يقطر منها ماء المطر، والأزهار المتألقة بالضياء. وأتذكر الزوجات المتثائبات، النائمات، والزائرات، واللائى يحتسين القهوة، واللائى يضعن الحفاضات، والأزواج العائدون إلى المنازل فى الليل، قادمون من المدينة عبر مياه الأمطار التى تغمر الطرقات. فى كل ليلة كنت أقبل زوجى العائد إلى بيته، وملابسه المبتلة التى ابتاعها من محلملابس البربرى، وكنت أتمنى أن يظل مستيقظًا، حتى أفرغ من إعداد اللحم والبطاطس، والخضروات التى يريدها. كان يلتهم الطعام بشهوة مثيرة، ثم يستسلم لنوم عميق على أريكة فى حجرة الجلوس. أصبحنا أشبه بزوجين من أزواج أفلام الكارتون، اكتهلنا ونحن فى العشرينيات من عمرينا. تلك السنوات المضطربة أكثر استقراراً فى ذاكرتى من استقرارها فى ذاكرة أولادى. وأمكنة زرتها لا أتذكرها ويتذكرونها.

"وهل "نيكولا" لا تريد أن ترانى؟" قلت لـ "جوديث":

"الحق أنها لا تريد زيارة أى أحد، " قالت.

ولمست جوديث ذراع دُنْ. أعرف معنى هذه اللمسة، اعتذار، أو بث للطمأنينة. فنحن نلمس الرجال تعبيراً عن الامتنان، وتعبيراً عن شكرنا لأنهم يعملون من أجلنا، أشياء تصيبه بالملل أحيانًا، وأشياء ربما تنال من كرامته. أرى ابنتى تلمس رجلاً - صبيًا - بهذه الطريقة، فأشعر بأنى أكبر سنًا. أشعر بعصبيتها ورغبتها فى الهدوء. ابنتى الفظة، القصيرة المكتنزة، الصريحة التى لا تعرف المداراة. من أين جاءنى الاعتقاد بأنها ستكون فتاةً صعبة الانقياد،

www.ibtesama.com

وأنها ستكون صريحة وواضحة، ومباشرة، ثقيلة الخطا، بطيئة السير، كثيرة الاعتماد على النفس؟ ومن أين جاءنى الاعتقاد بأن "نيكولا" كتومة، وميالة إلى الوحدة، فاترة المشاعر، مغرية الشخصية؟ ولابد أن الناس يعرفون ما لا أعرف، وعلى النقيض مما كنت أعرف.

سافر دُنْ و"نيكولا" إلى المكسيك فى الصباح، وقررت أن أرى شخصًا لم يكن لى قريبًا فى يوم من الأيام، ولم يكن يتوقع منى شيئًا خاصًا. اتصلت بحبيب قديم، ولكن هاتفه أجابنى إجابة آلية لا غناء فيها: "توم شيبرد يتحدث، سأكون خارج المدينة خلال شهر سبتمبر كله. من فضلك اترك رسالتك واسمك ورقم هاتفك."

يبدو صوت توم منتشيًا وسعيدًا ومألوفًا حتى إنى هممت بفتح فمى لأساله عن معنى هذا الحمق الذى أسمعه. ولكنى أغلقت الخط، أحسست بأنه يخيب أملى متعمدًا، وكأننا تواعدنا على اللقاء فى مكان عام ولم يأتِ. تذكرت مرة فعل فيها ذلك.

طلبت لنفسى كأسًا من خمر الفرموت، رغم أن الظهر لم يكن قد جاء بعد، واتصلت بأبى. فقال لى:

"تعالى، لو تأخرت ربع ساعة لن أنتظرك بعدها."

"هل كنت ذاهبًا إلى وسط المدينة؟"

"وسط مدينة تورنتو."

راح يشرح لى أنه ماضٍ إلى المستشفى، حَوَّلَه طبيبه فى "دقليش" إلى أطباء تورنتو لفحصه، وأعطوه خطابًا يسلمه لهم فى غرفة الظوارئ.

"غرفة الطوارئ؟" قلت.

www.ibtesama.com

"هى ليست غرفة طوارئ. هو كان يقول ذلك، يظن أنها أفضل طريقة للتعامل معها، هو يعرف اسم الطبيب هناك. فإذا أراد أن يضرب لى موعداً، فلن يكون هذا إلا بعد أسابيع من الآن.

"وهل يعرف طبيبك أنك ذاهب إلى تورنتو؟" قلت.

"لا.. لم يقل ذلك؟"

كانت نتيجة ذلك أننى استأجرت سيارة، وقدتها إلى دقليش، وعدت بأبى إلى تورنتو، ووصلت به إلى حجرة الطوارئ فى الساعة السابعة مساءً.

وقبل أن تغادر جوديث قلت لها: "هل أنت متأكدة من أن "نيكولا" تعرف أننى هنا. "

"أنا عملت ما علىّ وأخبرتها؟" قلت.

أحيانًا يصلصل جرس التلفون، ولكن الطالب دائمًا صديق لـ: جوديث.

"حسنًا.. يبدو أننى لن أفلت، " قال أبى. كان ذلك فى اليوم الرابع. يبدو أنه غير رأيه بين ليلة وضحاها. "أشعر أنها عملية ضرورية. "

لم أكن أعرف ما يريد أن يقول، أطال النظر فى وجهى طلبًا لاحتجاج، أو سعياً إلى إثنائه عما استقر فى عقله من قبول. قلت: "ومتى ينوون إجراء العملية؟"

"بعد الغد. "

قلت إننى ذاهبة إلى حجرة الغسيل، وذهبت إلى قسم التمريض، ووجدت هناك أمرأة يبدو أنها رئيسة قسم التمريض، على أية حال كان شعرها رمادياً، لطيفة، وجادة النظرات.

www.ibtesama.com

قلت لها: "أبى ستُجرى لـه عملية فى القلب بعد غدٍ؟"

"أوه.. نعم."

"كنت أريد أن أتحدث مع أى أحد بخصوص ذلك، سمعت أن قرارًا اتُخِذ يوصى بأن الأفضل ألا تُجرى لـه هذه العملية، قلت يمكن بسبب سنه."

ابتسمت لى دون النزول إلى مستوى التلطف، وقالت:

"أظن أن القرار قراره وقرار الطبيب، وهذه القرارت يصعب اتخاذها."

"كيف نعرف نتائج الفحوصات؟"

"أنا نفسى لم أرَ هذه الفحوصات."

كنت متأكدة من أنها قرأت جميع الفحوصات، فبعد برهة قالت:

"يجب أن نكون واقعيين، والأطباء هنا ممتازين."

وعندما عدت إلى حجرة أبى سمعته يقول بصوت تغمره الدهشة:

"بحـــار بـــلا شطـــآن."

"ماذا؟" قلت.

تعجب من معرفته بعدد السنين أو الشهور التى بقيت لـه على قيد الحياة، قل أو كثر. قلت فى نفسى لعل الحبوب التى يأخذها هى المسؤولة عن هذا الحماس الزائف للحياة. أو لعل ميله إلى المقامرة هو الذى تعزز. ذات يوم، عندما كان يتحدث معى عن حياته، قال:

"المشكلة أنى دائم الخوف من المغامرات."

قلت للناس الذى يسألوننى إنه شجاع، ومستعد لجميع الاحتمالات، ولا يعانى من أى إحباط، ولا يندم على أى شىء حدث

www.ibtesama.com

فى الماضى، أو سيحدث فى المستقبل، ولم ذلك كله صحيحًا. الموضوع يتخلص فى أننى لم أكن أسمع جيداً لأبى. أتذكر أنه قال: كان يجب أن يلتحق بالجيش كتاجر، كان سيسكب كثيرًا. وقال إنه كان يجب أن يفعل ذلك بنفسه، كنجار، بعد الحرب. كان يجب أن يخرج من دقليش، سمعته مرة يقول: "ضاعت حياتى، إيـــه؟" ولكنه كان يسخر بهذا؛ فهو كلام درامى أكثر منه واقعى. وعندما كان يستشهد بالشعر أيضًا، كانت نبرة السخرية تشيع فى صوته، لعلها تغفر ما تشى به الكلمات من التظاهر والغبطة.

سمعته يقول للمرة الثانية:

"بحـار بـلا شـطـآن. " ثم يردف:

"خلفه تقع جزر آزور/ وراء بوابات هرقل/ وقبله لا يوجد شبح الشواطئ، / قبله لا شىء غير بحار بلا شطآن. هذا كل ما تذكرته الليلة الماضية من كلمات. ولكنى لم أكن - وحتى الآن - أعرف ما هى تلك البحار التى بلا شواطئ!! بحار وحيدة؟ بحار خالية من المياه؟ لم أتمكن من معرفة هذه البحار التى كنت أتغنى بها. إلا أن العبارة كانت تعن لى فجأة كلما زرتنى ودخلتِ حجرتى. و"فيم الدهشة؟" قلت فى نفسى. ومن أين للمرء أن يعرف الخيوط المتشابكة التى تصل بين الأسئلة جميعًا والإجابات جميعًا؟ الجهل حق والمعرف حق، والمرء لا قبل له بالإحاطة بكل الخيوط، ولكن الإغراء بالمعرفة كبير، ووهم القدرة كبير. "

تساءلت بصوت مفعم بالرفق، يعتورنى إحساس باندفاع رهيب بالحب والعرفان:

www.ibtesama.com

"الروح؟"

قال:

"أوه.. أظن أنكِ على حق، يمكنك أن تقولى هذا. عارفة: عندما دخلت هذه الحجرة أول مرة، رأيت كومة جرائد هنا على السرير. تركهم ربما شخص هنا - منهم صحيفة صغيرة لم ألتفت إليها. بدأت أقرأ هذه الجرائد. سأقرأ كل ما تقع عليه يداى. قرأت فيها مذكرات ناس ابتُلوا مثلى بالأمراض.. وماتوا، بما يسميه الأطباء أزمة قلبية فى الغالب - ثم عادوا إلى الحياة. تتركز هذه الذكريات حول ما شاهدوه فى تلك اللحظات الفارقة بين الموت والحياة. تجاربهم. " قلت له:

"تجربة لذيذة أم غيــر لذ... ؟"

"أوه.. لذيذة طبعًا.. أوه، نعم. طافوا حتى مست رؤوسهم السقف، ثم نظروا إلى أنفسهم بينما الطبيب يعمل مشارطه فى أجسادهم، ثم أمعنوا فى الطواف، وقابلوا نفرًا من معارفهم وأقربائهم ممن قضوا نحبهم قبلهم. لم يروهم رأى العين، وإنما هو شيء من الإحساس بهم. كانوا يسمعون أصواتًا تشبه الهمهمة، وأحيانًا.. لا أعرف ذلك النور الذى يحيط بهذا الشخص، أو هذا الضوء؟"

"هالة؟"

"نعم، هالة من النور ولكن دون أن يكون هناك شخصٌ تحيط به. طبعًا هذا كل ما أتاحه لهم الوقت، وما لبثوا أن عادوا إلى أجسادهم ومشاعرهم وكل الآلام التى يُبْتلى بها الإنسان، وهكذا وهكذا... العودة إلى الحياة. "

www.ibtesama.com

"وهل هذا مقنع؟"

"أوه... لا أعرف. الأمر راجع إليكِ.. هل تريدين تصديق هذه الأشياء أم لا. وإذا كنت تنوين تصديقها، عليكِ أن تأخذيها بجدية بالغة، وأنا أعرف أن الذين يكتبون في هذه الجرائد يأخذون كل شيء بجدية شديدة.. "

"وماذا يقولون غير ذلك؟"

"زبالة - لعنة السرطان، علاجات الصلع، وأشياء توجع القلب متصلة بالشباب. وأمور تافهة متصلة بنجوم السينما. "

"أو.. نعم أعرف ذلك. "

ثم قال:

"حالتى تتطلب أن يكون عندى ساعة، وإلا يبدأ الواحد فى خداع نفسه، " ثم أردف: "هناك بعض التفاصيل العملية التى يجب أن نحيط بها علمًا، " ثم إنه حدثنى عن وصيته، والبيت، ومساحة المقبرة. كل شيء كان بسيطًا.

قلت له:

"وهل تريدنى أن أتصل بـ: بيجى؟" بيجى هذه أختى. متزوجة من أحد علماء الفلك، وتعيش فى فكتوريا.

فكر قليلاً ثم قال:

"أعتقد من الضرورى أن نخبر الجميع. " ثم قال فى النهاية:

"ولكن لا يجب أن تزعجيهم، لا يجب أن يقلقوا. "

"ماشى. "

"لا. . انتظرى لحظة. يُفترض أن سام رايح مؤتمر فى نهاية هذا

www.ibtesama.com

الأسبوع، وأنا عارف إن بيجى تخطط لتذهب معه. لا أريدهم يتجولون فى كل مكان دون هدف معلوم، ويعطلون أعمالهم. "

"وأين هذا المؤتمر؟"

"وأين هذا المؤتمر؟"

"فى أمستردام، " قال بفخر.

سام ليس هو مصدر الفخر، ولم يكن يتابع كتبه ومقالاته. كان يمسك بأحدها ويقول: "انظر فى هذا الكتاب، عارفة؟ لا أستطيع فهم كلمة واحدة منه!" يقول ذلك بصوت عجيب تلوح منه نبرة سخرية واضحة.

كان يقول: "البروفيسور سام، والسامات الثلاث. " يقصد أحفاده، الذين يشبهون أبيهم فى التفكير فى اندفاعه وتهوره - ضرب من الاستعراض البرىء المتحمس. ذهبوا إلى مدرسة خاصة تفضل تطبيق الأنظمة القديمة فى التدريس، وبدأوا يدرسون الحساب فى الصف الخامس. "والكلاب، " يردف، "ذهبنا مرة إلى مدرسة من تلك المدارس التى تدرب الحيوانات الأليفة، مدارس الطاعة. وبيجى.... "

ولكن إذا قلت أيضاً:

"هل ذهبت إلى مدرسة طاعة هى الأخرى أيضاً؟" يكف عن الكلام فى شأن "بيجى". أظن أنه عندما يكون مع سام وبيجى كان يتحدث عنى بالطريقة الساخرة نفسها. يحدثهم عن خفتى وطيشى كما يحدثنى الآن عن بطئهم وأناقتهم، للظفر ببعض النكات على حسابى، ولا يخفى دهشته (أو يتظاهر بأنه لا يخفى دهشته) من أن الناس

www.ibtesama.com

يدفعون مالاً من أجل الأشياء التى كتبتها. كان مضطراً إلى القيام بهذه الأمور حتى لا يبدو أنه يتكبر، ولكنه كان يغلق باب المزاح عندما يتعدى حدود اللياقة. وطبعًا وجدت فيما بعد، فى البيت، مقالات لى احتفظ بها - عدد قليل من المجلات، وقصاصات، وأشياء لم يتطرق ذهنى إلى أن أحتفظ بها.

والآن سافرت أفكاره من أسرة بيجى إلى أسرتى، قال: "هل سمعت ما قالته جوديث؟"

"لا.. ليس بعد."

"أشياء قريبة من ذلك، هل سينامون فى السيارة؟"

"نعم."

"أعتقد أنها آمنة بما يكفى، إذا وقفوا فى الأماكن الصحيحة."

كنت أعرف أنه يريد أن يدلى بمزيد من الحديث، وكنت أعرف أنه يريد أن يتحدث بنبرة الدعابةأيضًا.

"أظن أنهم يعلقون لوحات كما يفعل أصحاب محل البيونيرز، صح؟"

ابتسمت ولكنى لم أجد إجابة.

"ما فهمته أنك لا تعترض؟"

"لا،" قلت.

"تمام، أنا نفسى كنت أظن ذلك. ابتعد عن شؤون أبنائك قدر الإمكان. حاولت أن أقول شيئًا، أى شىء. لم أتفوه بشىء عندما تركتِ ريتشارد."

"ماذا تقصد، تقول أى شىء؟ انتقاد يعنى؟"

www.ibtesama.com

"لم يكن من شأنى على الإطلاق. "

"لا. "

"ولكن هذا ليس معناه أنى كنت سيعداً. "

اندهشت، لا بسبب ما قال الآن، وإنما سبب إحساسه بأنه لدى حق، أى حق!، حتى الآن، أن يقول ما يقول. كنت مضطرة إلى النظر من النافذة، وأنتبه للطريق، لعلى أحفظ توازنى.

"كان قصدى أن أزيدك علماً بما جرى، " قال.

منذ فترة طويلة، كان يقول لى بطريقته الهادئة: "شىء مضحك. عندما رأيت ريتشارد أول مرة، ذكرنى بما كان يقوله أبى دائماً. كان يقول: "لو كان هذا الولد حتى نصف ذكى كما يعتقد، لكان فيضعف ذكائه فى الحقيقة. "

عدت لكى أذكره بذلك، ولكنى وجدت نفسى أعاود النظر إلى الخط الذى كان قلبه يرسمه، تشى تعرجاته بخطر محدق.

عرف أين تتجه عيناى فقال: "ميزة فى ظلم. "

"نعم.. ميزة فيها ظلم. " قلت.

"سأنتظر أناأيضاً.

"ضحكنا، تبادلنا القبلات بطريقة رسمية. على الأقل لم يسألنى عن "نيكولا، " قلت فى نفسى.

فى عصر اليوم التالى لم أذهب إلى المستشفى؛ لأن أبى كانت تُجرى له بعض الفحوصات الإضافية، استعداداً للعملية الجراحية المنتظرة. انتظرت حتى زرته فى المساء. وجدت نفسى أتجول فى شارع بلور بين محلات ملابس، أجرب فساتين؛ استحوذ علىَّ غرام

www.ibtesama.com

بالملابس والموضة كصداع عاصف. أمعن النظر فى النساء اللائى يمشين فى الشارع، وفى الملابس المعروضة فى الفترينات، أريد أن أضع يدى على التحول كيف يكون، ماذا أشترى وماذا أترك؟ غرام مرده إلى اضطراب يزلزل الكيان. أنبأنى بعضهم أن المنتظرين لأخبار الحياة أو الموت يقفون أما ثلاجات مفتوحة، يزدردون ما تقع عليه أعينهم من الأطعمة، بدءًا من البطاطس المغلية الباردة، والخضرة المطبوخة مع الفلفل، وسلطانيات القشدة المخفوقة. أو يعجزون عن التوقف عن حل الكلمات المتقاطعة. يتضاءل اهتمامهم إلى شىء بعيد عن المتوقع، إلى حيرة ما، حيرة تأخذ بتلابيب القلب والروح. رحت أقلب صفوف الملابس على رفوفها، ورحت أضعها على جسدى على سبيل التجربة، فى تلك المقصورات الصغيرة شديدة الحرارة، لتبديل الملابس أمام مرايا لا ترحم ولا تتملق. يجتاحنى شعور بالإغماء فأتصبب عرقًا، مرة أو مرتين. وفى جولة ثانية فى الشارع، قلت في نفسي: لابد أن أترك شارع بلور، وقررت أن أذهب إلى المتحف.

عادت بى الذاكرة إلى زمن آخر فى فانكوفر. عندما كانت "نيكولا" تختلف إلى الحضانة، وكانت جوديث طفلة صغيرة لا تزال. حين أخذت "نيكولا" إلى الطبيب بسبب برد ألَم بها، وربما لعمل فحوصات دورية روتينية، وانتهى تحليل الدم إلى وجود شىء من فى كرات دمها البيضاء، إما أن عددها قد تجاوز المطلوب، أو أن حجمها قد تضخم. وطلب الطبيب مزيدًا من الفحوصات، وأخذت "نيكولا" إلى المستشفى لإجراء الفحوصات المطلوبة. لم يتحدثوا معى عن

www.ibtesama.com

اللوكيميا، ولكنى كنت أعرف أنهم كانوا يسعون إلى معرفتها. وعندما عدت ب"نيكولا" إلى المنزل طلبت من المربية التى كانت تهتم ب: جوديث أن تنتظر حتى بعد العصر، وذهبت أنا إلى السوق. واشتريت أكثر فساتينى جرأة، فستان ضيق من الحرير الأسود، تزينه من الأمام أشرطة من ألوان شتى. وأتذكر ذلك الأصيل الربيعى المتألق، والحذاء ذا الكعب الطويل المسنن المعروض فى المول، وتلك الملابس الداخلية المعانة ببقع ملونة بألون جلد النمر.

تذكرت أيضاً ذهابى إلى البيت من شارع مستشفى القديس بولس من طريق جسر بوابة الأسود فى الأتوبيس المزدحم، أضع "نيكولا" على حجرى. عندئذٍ نطقت "نيكولا" باسم الدلع الذى تطلقه على هذا الجسر، وهمست لى به: "هوهوفر ذا هوى. " عاودت تقبيل طفلتى الحبيبة، كانت "نيكولا" نحيفة الجسد، رقيقة القوام، لينة الجسد، وشعرها أسود جميل، ينسدل على ظهرها كحارس سعيد - ولكنى لاحظت أنى ألمسها بروح مختلفة، روح لا سبيل إلى معرفة مصدرها. غالبنى حرصٌ - حرصٌ وليس انسحابٌ - على ألا أمعن فى اللمس والإشفاق. ورأيت المضروبين بالعشق كيف آلت بهم الأمور، وأن العشق يلزمه النظام حتى لا يجور على البقاء نفسه. وأن صغيرتى لا ينبغى أن يُمن عليها بالتدليل. "نيكولا" لا تعلم أنها المدللة، المحاطة بألوان شتى من اللعب، من الذين يمطرونها بالقبلات والدعابات، وهى لا تعلم أن أمر الدعابة هذا لا يمكن نسيانه، كأمر الموت نفسه. لا تعانى "نيكولا" من اللوكيميا، وكبرت "نيكولا" أمام عينى، اليوم هى على قيد الحياة لا تزال، ولعلها سعيدة فى حياتها. لا تتصل بنا ولا يتصل بها أحد.

www.ibtesama.com

تذكرت المتحف وهذا الجهاز الذى يرصد حركات الكواكب، لم أرَ هذا الجهاز. دخلت، كان المفروض أن يبدأ العرض فى غضون عشر دقائق، اشتريت تذكرة، ووقفت فى الطابور. أمامى فصل كامل من صبية المدارس، وربما فصلين، يشرف عليهم مدرسون وأمهات متطوعات. رحت أتطلع حولى لعلى أرى آخرين من المراهقين والمراهقات. لم أرَ إلا واحدًا - رجلاً وجهه أحمر وعيناه بارزتان، بدا كأنه جاء ليشغل نفسه عن دخول حانة من تلك الحانات.

جلسنا فى داخل القبة السماوية على مقاعد مريحة للغاية، تراجعت إلى الخلف فكأنك تجلس على أرجوحة، يتجه الانتباه إلى جوف السقف الذى تحول فجأة إلى اللون الأزرق الغامق، مع خيط خفيف من النور حول الحافة. شاعت فى الأرجاء موسيقى رائعة مهيمنة. راح الكبار من حولى يُسكتون الأولاد، ساعين إلى إيقافهم عن الفرقعة وتكسير أكياس الشيبسى التى يفتحونها. سمعنا صوت رجل، صوت أستاذ مهنى فصيح، بدأ يتحدث ببطء، خارج الجدران. ذكرنى الصوت قليلاً بصوت مذيع فى الراديو كان يقدم قطعة من الموسيقى الكلاسيكية، أو يصف سير موكب العائلة المالكة إلى دير وستمنستر فى واحدة من تلك المناسبات الملكية. كان يوجد مؤثر لصدى صوت فاتر فى الحجرة.

كان السقف الأسود يمتلئ بالنجوم، تتوافد النجوم إليه كأنها تتوالى من مكان مجهول، بالطريقة نفسها التى تتوافد بها النجوم فى الليل إلى صفحة السماء، والحركة هنا أسرع. ظهر درب التبانة، يقترب رويدًا رويدًا، كانت النجوم تسبح فى الأنوار، واستمرت فى

www.ibtesama.com

الحركة، تتوارى خلف حواف شاشة السماء أو خلف رأسي. واستمرت الأنوار تتدفق، وراح الصوت يسرد الحقائق المدهشة. راح الصوت يعلن أنه منذ منذ بضعة سنوات ضوئية ظهرت الشمس كنجم متألق، والكواكب لا تُرى. ومنذ عشرات السنين الضوئية لم تكن الشمس واقعة فى مجال الرؤية أيضًا بالنسبة للعين المجردة. وهذه المسافة - عشرات السنين الضوئية - هى الجزء الألف من المسافة التى قطعتها الشمس حتى وصلت إلى مركز مجرتنا، وهى مجرة واحدة تضم مئتى بليون شمس. وهى - بدورها - واحدة من ملايين، وربما بلايين، المجرات. لا حصر له من المجرات، ولا حصر له من الكواكب والشموس، والنجوم. مرت جميعًا أمام عينى أيضًا، ككرات النور المتألقة.

الآن ترحل الواقعية، إلى ضرب من الفن السماوى. عرض للنظام الشمسى يتبدى فى أسلوب أنيق، بقعة صغيرة تنطلق من الأرض، تشق طريقها إلى المشترى. أعدد عقلى المضطرب لاستقبال الحقائق البينة وتسجيلها. تصل كثافة المشترى إلى ضعف أو ضعف ونصف جميع الكواكب الأخرى مجتمعة. البقعة الحمراء العظيمة، والأقمار الثلاثة عشر. وأمام المشترى، إذا ألقينا نظرة إلى المدار الغريب حول بلوتو، والحلقات الجليدية التى تحيط بزحل. وخلف الأرض فى اتجاه كوكب الزهرة الملتهب والمتألق. الضغط الجوى تسعين مرة مثل الضغط الجوى عندنا. وعطارد الخالى من الأقمار يدور ثلاث مرات بينما هو يدور حول الشمس مرتين؛ ترتيب غريب، لا يرضى كما كان يرضينا ما أخبروه لنا - أنه كان يدور مرة واحدة حول نفسه بينما

www.ibtesama.com

هو يدور حول الشمس مرة واحدة أيضًا. رغم ذلك لا توجد ظلمة سرمدية. فلماذا أعطونا معلومات مؤكدة من الأساس، فقط لنعلن فيما بعد أنها معلومات خاطئة؟ في النهاية، الصورة المألوفة من المجلات، التربة الحمراء في المريخ، والسماء المتألقة القرمزية.

عندما انتهى العرض جلست على مقعدي بينما كان الأولاد يتسلقون على جسدي، لا يتحدثون عما رأوا وسمعوا. وراحوا يضايقون مضيفيهم بكثرة مطالباتهم بما يُؤكل وما يُشرب، وما ينشدون من ضروب المتع. وبذلنا الجهود حتى رددناهم إلى شيء من الهدوء، وتشتيت انتباههم من سلال الفشار ورقائق البطاطس، ليستقر على المعلوم والمجهول، وعلى المعلوم المبالغ في وصفه، وما لا يمكن تصديقه، وكان كل ذلك بدون فائدة، وهو ما حمدت الله عليه. للأطفال حصانة قدرها الطبع، أو أغلبهم على الأقل، وعلى الجميع ألا يقتربوا من محرابها، أو يقللوا من شأنها. وأما الكبار المستنكرون لها، والذين نظموا هذا العرض، أليس لهم حصانة هم أيضًا، حتى إنهم وضعوا في حجرات الصدى المؤثرات والموسيقى وجلال الكنيسة ووقارها، في تقليد الرهبة التي يشعرون بها؟ الرهبة – ما عسى هذا أن يكون؟ نوبة من الارتعاشات عند النظر من النافذة؟فإذا عرفت ماذا تكون، فلن تصبح في حاجة إلى مداعبتها.

ظهر رجلان كلٌ يحمل مكنسة لإزالة الأنقاض التي تركها النظارة وراءهم. أخبروني أن العرض القادم سيبدأ في غضون أربعين دقيقة. في الوقت نفسه، كنت مضطرة إلى الخروج.

قلت لأبي: "ذهبت إلى عرض القبة السماوية، كان مثيرًا غاية الإثارة، عن النظام الشمسي، أشبه بمحفل يمتلئ بالأصوات الزائفة."

www.ibtesama.com

قلت فى نفسى: "كلمة مثير كلمة سخيفة."

وقال هو يواصل حديثه: "أتذكر عندما اكتشفوا بلوتو، فى المكان الذى وجدوه فيه، وعطارد والزهرة والأرض والمريخ،" ثم راح يعدد الكواكب كلها. "المشترى وزحل ونبتون - لا: أورانوس ونبتون وبلوتو. صحيح؟"

"نعم،" قلت. كنت سعيدة أنه لم يسمعنى وأنا أتحدث عن المحفل الصوتى الزائف. فقد كانت هذه فكرتى عن القبة السماوية، ولكنها بدت فى غير محلها ومتعالية. ثم سألنى: "أخبرينى عن أقمار المشترى."

"ليس لدى علم بالأقمار الجديدة، هناك عدد من الأقمار الجديدة التابعة للمشترى، أليس كذلك؟"

"يوجد اثنان، ولكنهما ليسا جديدين."

"جديدان بالنسبة لنا،" قال أبى، ثم واصل: "وجهك يزداد حمرة وأنا على وشك أن أكون تحت حد السكين."

"تحت حد السكين، يا له من تعبير!"

لم يكن على سريره فى تلك الليلة، ليلته الأخيرة. وتم فصله عن الأجهزة التى بها ارتبط، واستقر على مقعد يجاور النافذة. كان عارى الساقين، يرتدى ثوب المستشفى، ولكنه لم يبدُ عليه اضطراباً أو شعوراً بالغربة. راحة فى سنة من التفكير والاهتمام، ولم يتخلَ عن خفة دمه ودعابته، رجلٌ دمث الخلق، رقيق الحاشية.

قلت له: "لقد نسيت أن تذكر الأقمار القديمة."

قال: "امنحينى وقتًا.. لقد ذكرهم جاليليو جميعًا، "أيو" منهم."

www.ibtesama.com

"هذه بداية."

كانت أقمار المشترى هى أول الأجسام السماوية المكتشفة عن طريق التلسكوب." قال بنبرة جادة، كأنه قرأ الجملة فى كتاب علوم قديم، ثم استمر يقول: "لم يكن جاليليو هو الذى تحدث عنهم أيضًا، وإنما هو عالم ألمانى لا أعرفه. أيو وأوروبا وجاينميد وكالستو. هذه هى أسماؤهم.

"نعم."

"وأما أيو وأوروبا فكانتا صديقتين للمشترى، فى مقام المحظيات، أليس كذلك؟، وأما جانيميد فكان ولدًا ذكرًا، وكان راعيًا؟ وأنا لا أعرف من يكون كاليستو هذا؟

قلت: "أعتقد أنها كانت من المحظيات أيضًا، لعلها زوجة المشترى – أو زوجة جيهوفا– والتى حولها إلى دب، وحكم عليها بالالتصاق بالسماء، الدب الأكبر والدب الأصغر، الدب الأصغر كان ولدها الصغير.

وسمعنا مكبر الصوت فى المستشفى يقول إن على الزائرون الذهاب.

"سأراك عند خروجك من البنج." قلت.

"نعم."

وعند الباب نادانى ليقول: "غانيميد لم يكن راعيًا، بل كان حامل كأس المشترى."

عندما غادرت القبة السماوية ذلك المساء، مضيت خلال المتحف حتى وصلت إلى الحديقة الصينية. هناك رأيت جمال من الحجر مرة

www.ibtesama.com

أخرى، ورأيت المحاربين، ورأيت القبر. جلست على أريكة أتفرج على شارع بلور. ومن خلال الأشجار الكثيرة دائمة الخضرة، والسور الحديدى المرتفع، رأت الناس ماضين فى الطرقات تحت ضوء شمس الساعات الأخيرة من الأصيل. لقد أدى عرض القبة السماوية ما أردت له أن يفعل بالضبط، ردنى إلى الهدوء المنشود، واستنفد ما كنت عليه من قلق ونصب. رأيت فتاة ذكرتنى بابنتى "نيكولا". كانت ترتدى الترنش كوت، وتحمل حقيبة مليئة بالبقالة. كانت أقصر من "نيكولا" - ولم تكن تشبهها تمام الشبه - ولكنى أحسست أنى قد أرى "نيكولا". لعلها تتمشى فى شارع من الشوارع القريبة من هنا، مثقلة بالهم، أو مشغولة بالفكر، أو وحيدة. فهى واحدة من شباب اليوم، مثلها من أى شاب فى هذا العالم الذى فيه نعيش الآن. أو لعلها من الذين فرغوا من جولة تسوق، وفى طريقهم إلى المنازل.

قلت فى نفسى: ماذا لو رأيتها الآن. أأقف وأراقب وأنتظر؟ شعرت كأنى أحد الذين طافوا حتى مست رؤوسهم السقف، يجربون متعة الموت المختصرة. ساعة راحة مقتنصة من فم الدهر المرهق لا تلبث أن ترحل. لقد اختار أبى، ولقد اختارت "نيكولا". وفى يوم، ربما قريب، سأسمع منها، عين ما يسمعه أبى منى.

أردت أن أخف لزيارة القبر، لألقى نظرة على النقوش النافرة، والصور الحجرية التى تحيط به من كل الجهات. كنت أحب التأمل فى هذه النقوش، ولكنى لم أفعل. وليس الآن أيضًا. كان الجو يزداد برودة خارج المكان، ودلفت إلى الداخل، لأحتسى بعض القهوة، بعض طعام قبل أن أعود إلى المستشفى.

www.ibtesama.com

العين

عندما كنت فى الخامسة عشرة أنجبت أمى فجأة طفلاً ذكرًا، وقالت عندئذٍ إن ذلك كل ما كنت أتمناه. متى تمنيت؟ ومتى قلت لها ذلك؟ لا أعلم. والحق أنها اختلقت حولى قصصًا لا أساس لها من الصحة، ولكن لم يكن من الجائز أن نكذبها. وبعد ذلك بعام وضعت أمى طفلة أنثى هذه المرة، وكثر الجدل حول المولودة الجديدة كما كثر حول المولود السابق، مع بعض التحفظ الذى لم أكن أفهمه حينذاك.

قالت لى أمى إننى كنت أشعر بالاختلاف حتى قدوم الطفل الذى بعدى، وفى أثناء تلك الفترة أيضًا كان البيت يمتلئ بأمى، يمتلئ بوقع خطواتها، وصوتها، ورائحتها المتوعدة، الممتزجة بأتربة الأرض، التى شاعت فى جميع الحجرات، حتى فى غيابها. لماذا أقول: "المتوعدة"؟ لم يحدث أن شعرت بالخوف. ولم يكن ذلك لأن أمى كانت تدلنى على ما ينبغى أن أشعر به تجاه الأشياء، والحق يُقال إنها

www.ibtesama.com

كانت مرجعًا لا معقب عليه. لم يقتصر حديثها على مشاعرى نحو أخى الجديد، وإنما كانت تشجعنى على تناول السيريال المعروف بـ "رد رفر"، وكانت تقول إنه مهم لصحتى، وعلى أن أستمر على تناوله، وكذلك بالنسبة للصورة التى كانت معلقة عند الناحية الأخرى من سريرى، صورة يسوع المسيح المتألم وهو يدعو الأطفال أمثالى أن يتبعوه. كانت الآلام فى تلك الأيام تعنى شيئًا مختلفًا، ولكن ذلك لم يكن هو موضوع حديثنا. قالت أمى: إن البنت الصغيرة اختبأت وراء ركن من الأركان؛ لأنها كانت تريد أن تلحق بيسوع المسيح، ولكنها أحجمت من فرط الخجل. كنت أنا هذه البنت الصغيرة، رغم أنى لا أعرف هذه الأمور، ولكن أمى هى التى تذكرنى به، ولم أكن أريد أن أتذكره على هذا النحو. قرأت كتاب "ألِس فى بلاد العجائب"، وأُصبت بحزن شديد لوقوع "ألِس" فى جحر أرانب كبير، ولكنى ضحكت لأن أمى بدت سعيدة. لم أشعر بأن أفكار أمى فيما يتصل بى مختلفة عن أفكارى عن نفسى، إلا بعد قدوم أخى إلى الوجود، وذلك الحديث الكثير عن أنه كان هدية السماء بالنسبة لى. وأعتقد أن هذا هو الذى جعلنى مستعدًا لاستقبال "سادى"، عندما جاءت إلى بيتنا للعمل فيه. تراجع وجود أمى إلى مساحة صغيرة من البيت، مع أطفالها. قلت حركتها فى أرجائه، وبدأت أفرق بين الخطأ والصواب، وبدأت أعرف أن الأصوب ألا أكثر الحديث عما يجرى فى بيتنا.

أغرب شىء فى شخصية "سادى"أنها كانت مشهورة. فقد كانت تضرب على آلة الجيتار، وتغنى الأغنية الافتتاحية التى كانت تُذاع فى محطة الراديو فى مدينتنا الصغيرة. كانت الأغنية من تأليفها،

www.ibtesama.com

تبدأ كلماتها بـ: "مرحى، مرحى، كل الناس، " وبعد ذلك بنصف ساعة يعلو صوتها بالكلمات الختامية: "إلى اللقاء، إلى اللقاء، إلى اللقاء، كل الناس. " وبين هذه وتلك كانت تغنى الأغنيات التى يطلبها الناس منها، وكانت تغنى أيضاً أغنيات تختارها هى بنفسها. وأما المتعلمون فى بلدنا فكانوا يسخرون من أغنياتها، ومن محطة الإذاعة كلها، وكانوا يقولون إنها أصغر محطة إذاعة فى كندا كلها.

هؤلاء الناس كانوا يستمعون إلى محطة إذاعة تورنتو التى تبث أغنيات شبيعة حديثة مثل: "ثلاث سمكات صغيرات وسمكة كبيرة أيضاً، " وإلى "جم هنتر" يغنى أخبار الحرب المسعورة. ولكن الفلاحين يعشقون المحطة المحلية، والأغنيات التى تغنيها "سادى". كان صوتها قوياً مفعماً بالحزن، وكانت تغنى عن الوحدة والأسى والإخفاق. أغلب المزارع فى هذا الجزء الذى نعيش فيه من بلادنا آلت ملكيتها إلى الفلاحين منذ مائة وخمسين عاماً، والناظر من بيت أية مزرعة يستطيع أن يرى البيت الآخر فى المزرعة الأخرى على مسافة غيطان قليلة. ورغم ذلك فإن الأغنيات التى يحب الفلاحون سماعها تتحدث عن رعاة البقر، والإثارة الجنسية، والخوف من الأمكنة البعيدة، والجرائم الفظيعة التى تنتهى بمصرع المجرمين وهم يهتفون بأسماء أمهاتهم، أو باسم الرب يسوع المسيح. وهذا ما كانت "سادى" تغنيه بصوتها النِسائى المنخفض، والمفعم بالحزن والشجن. ولكن عملها فى بيتنا كان مليئاً بالطاقة والثقة فى النفس. كانت سعيدة حين تتحدث، وأسعد حالاً حين تتحدث عن نفسها، ولم تكن تجد من تتحدث معه إلا أنا. عملها وعمل أمى جعلهما على

www.ibtesama.com

مبعدة كلٌ منهما من الآخر أغلب الوقت، ومن ناحيتى لا أظن أنهما يسعيان إلى تبادل الحديث، أو يسعدان بذلك. كانت أمى شخصية جادة جداً كما قلت؛ شخصية مهمتها تعليم الناس وتربية النشء فى المدرسة التى تعمل فيها، قبل أن تقوم على تعليمى وتربيتى. ربما كانت تريد مساعدة "سادى" وتعليمها بعض الأشياء، ولكن "سادى" كانت ترفض ذلك الضرب من التعليم، وترفض أى أحد يمكن أن يطلب منها أن يصلح طريقة نطقها.

أنا و"سادى" نصبح وحدنا فى المطبخ بعد انتهاء وجبة الغداء، تكون أمى نائمة، والأطفال كذلك (هذا إذا كانت محظوظة). وعندما تستيقظ ترتدى ثوبًا مختلفًا كأنها تستقبل مساءً خاليًا من العمل والهموم، رغم ما ينتظرها من تغيير الحِفاضات وبعضٌ من واجبات هذا العمل لم أكن أحب النظر إليه، حين ينقض أصغرنا على ثدييها ليرتوى من لبنها. أبى أيضًا ينام فى أثناء القيلولة، ربما ساعة أو بعض ساعة، فى الشرفة، يغطى وجهه بعدد من مجلة "ساترداى إيفننج بوست" الأمريكية، قبل أن يعود إلى العمل فى الزريبة. كانت "سادى"تسخن المياه على الموقد، وتغسل الأطباق مع فى المطبخ وقد أُسدلت ستائره للحيلولة دون دخول الحر. وعندما كنا نفرغ من ذلك كله، كانت هى تمسح أرضية المطبخ، وكنت أنا أقوم على تنشيفها بطريقتى التى ابتدعتها، وهى أننى كنت أتزلج عليها ببعض الأسمال البالية، وبدورات متتالية حول نفسى. ثم نأخذ لفات الورق الأصفر المبيد للذباب، والتى وضعناها فى أمكنة معينة بعد الإطفار، وقد أصبحت الآن مثقلة بالذباب الأسود الميت، أو يحتضر، ثم نعلق الورق الجديد الذى يمتلئ بالذباب الراحل فى المساء.

www.ibtesama.com

كل ذلك كان يتم بينما "سادى"مشغولة فى رواية كل شىء عن نفسها وحياتها. فى تلك الأيام لم أكن أعرف مراحل عمر الإنسان، فالناس فى نظرى إما صغاراً أو كباراً، وكنت أعرف أنها من الكبار. ربما كانت فى السادسة عشرة، أو الثامنة عشرة، أو حتى العشرين. بصرف النظر عن سنها، فقد أعلنت أكثر من مرة أنها ليست مستعجلة فى الزواج. كانت تغشى حفلات الرقص، ولكنها كانت تذهب بمفردها، "بمفردها ولنفسها، " كما كانت تقول. كانت تحكى لى عن صالات الرقص، وما يحدث هنا. كانت توجد صالة رقص فى المدينة التى نعيش فيها، على مبعدة من الشارع الرئيس، حيث تزدحم حلبة التزلج فى الشتاء. يدفع المرء تزدحم حلبة التزلج على الثلج فى الشتاء. يدفع المرء عشرة سنتات فى كل رقصة، ثم ترقص على منصة مع ناس يحدقون فى كل مكان، ولم يكن يهمها. كانت دائماً تدفع العشر سنتات بنفسها، حتى لا يأتى أحد ويمن عليها. ولكن أحيانًا يسبقها شخص، ويسألها عما إذا كانت ترغب فى الرقص معه، وكان أول شىء تقوله: "وهل تقدر؟ هل تستطيع أن ترقص معى؟ هذا هو السؤال الذى تسأله له فى كل مرة وفى شىء كثير من الخشونة. ثم يجب عن سؤالها السخيف فى سره: ولماذا جئت إلى هنا أصلاً؟ ثم تكتشف هى - عادة - أن ما كان يعنيه بالرقص مجرد جر قدميه على الأرض، بينما يديه اللحيمتين تمسكان بها. أحيانًا تنفصل عنه، وتتركه، وترقص وحدها، وهو ما كانت تفضله على كل حال. وبعد أن تفرغ من نوبة الرقص التى دفعت ثمنها، قد يعترض المحاسب، ويطلب منها أن تدفع لرقصتين، بينما

www.ibtesama.com

هى رقصة واحدة، فتخبره بأن ما أخذه يكفى وزيادة. كان يمكن أن يضحك الجميع على رقصها وحدها، إذا رغبوا فى ذلك.

صالة الرقص الأخرى كانت تقع خارج المدينة على الطريق السريع. ما عليك إلا أن تدفع عند الباب، لا لرقصة واحدة، ولكن لليلة كلها. كانت الصالة تُسمى "رويال تى." ذهبت "سادى"إلى هناك ودفعت بطريقتها أيضًا. المكان الجديد فيه دروس رقص أفضل، ولكنها لم تحاول أن تأخذ فكرة قبل أن تذهب إلى الصالة. كان زبائن هذا المحل من سكان المدن، بينما زبائن الصالة الأولى من الأرياف. سكان المدن يجيدون الرقص، ولكنه الرقص الذى لا يعجبك دائمًا، ولكن المكان الذى يسعون فيه إلى الحصول على ما معك فقط. أحيانًا كانت تقرأ عليهم قانون الشغب، وتخبرهم بما ستفعله بهم إذا لم يتركوها وشأنها. تقول لهم إنها جاءت هنا لترقص، وتدفع بالطريقة التى تريد، بالإضافة إلى ذلك كانت تعرف كيف تضايقهم، وهذا يكفى لردهم إلى الصواب. فى بعض الأحيان كانوا يتقنون الرقص، وكان رقصهم يعجبها. وعندما يفرغون من الرقصة الأخيرة، كانت تنطلق إلى البيت. كانت تقول: "لست مثل بعضهن." لم تكن تعنى أنها كانت تفاجأ. عندما قالت ذلك تخيلت أسلاكًا حديدية، ومخلوقات شريرة غريبة، يلفون هذه الأسلاك حولها ويخنقونها حتى لا تستطيع منها فكاكًا. ولابد أن "سادى"رأت الخوف على وجهى؛ لأنها قالت لى: "أنا لا أخاف، لا يوجد شىء فى هذه الدنيا يدعو إلى الذعر، المطلوب فقط هو أن تعتنى بنفسك."

قالت أمى: "أنتِ و"سادى" تتحدثان معًا كثيرًا." عرفت أن شيئًا ما يلوح فى الأفق، أحترس ولكنى لا أستطيع التكهن. وأردفت أمى:

www.ibtesama.com

"آنت تحبينها، أليس كذلك؟" وقلت لها: "نعم، " فقالت: "حسنًا.. طبعًا، وآنا أحبها أيضًا. " وكنت آمل أن يكون ذلك ما كانت تقصده أمى، والحق آنه كان كذلك خاصة فى تلك اللحظة على الأقل. ثم أردفت: "آنتِ وأنا ليس لدينا وقت الآن بسبب الأطفال، الأطفال لا يتيحون لنا الوقت الكافى، أليس كذلك؟ ولكننا نحبهم فعلاً، أليس كذلك؟" وقلت: "نعم" بسرعة. قالت: "حقًا؟" ولم تتوقف حتى قلت لها: "حقًا. " آمى كانت تريد شيئًا بسرعة وإلحاح: أصدقاء مهذبين، قريبين إلى النفس؟نساء يلعبون البردج، ولديهم أزواج يذهبون إلى أعمالهم فى بذلات ذات صدرات؟ لا. . ليس بالضبط، وهؤلاء ليسوا فى المتناول. هل كانت فى حاجة لى أنا، وعلى حالى الذى أنا عليه، بخصلات شعرى الملتفة المنشية، ودروس الترتيل فى مدرسة الأحد التى آختلف إليها؟ ليس لديها وقت لهذا أيضًا. أشعر بتحول فى داخلى ناحية الغدر، رغم أنها لم تكن تعرف السبب، ولم أكن أعرف السبب آيضًا. فىّ شىء يتحول بالتدريج إلى الغدر، رغم أنها لم تكن تعرف السبب، ولم أكن أعرف السبب أيضًا. لم أظفر فى مدرسة الأحد بأصدقاء من المدينة. بدلاً من ذلك، رحت أغرم بـ: "سادى" حتى العبادة. سمعت أمى تقول ذلك لأبى: "إنها تعبد "سادى". " قال أبى إن "سادى"هدية من عند الله. " ماذا كان يعنى ذلك؟ فى صوته بهجة، ربما كان يعنى أنه لن ينحاز إلى أى آحد.

قالت أمى: "كنت أتمنى آن يكون لدينا أرصفة مشاه مناسبة لها، فلو كان لدينا أرصفة مشاه مناسبة، ربما تعلمت التزلج، والظفر بآصدقاء. " كنت أريد "رولر سكيت"(مزالج على عجلات)، ولكن الآن،

www.ibtesama.com

وبدون أن أعرف السبب، عرفت أنى لن أستخدمه، ثم قالت أمى شيئًا عنه بما يعنى أن الأفضل أن أحصل عليه عندما تبدأ المدرسة. شىء ترى أنه أفضل لى، أو شىء ترى أنه أفضل لـ "سادى". لم استمع. كانت "سادى"تعلمنى بعض أغنياتها، وعرفت أن صوتى غير جيد. كنت آمل ألا هذا هو ما كانت أمى تريد أن يتحسن فىَّ، أو أتوقف، هذا أفضل. والحق أنى لم أكن أريد أن أتوقف. لم يكن لدى أبى الكثير الذى يقوله أو يقدمه، كنت شغل أمى الشاغل، إلا بعد أن أصبحت ثرثارة فيما بعد، وكان عليها أن تعاقبنى. كان أبى ينتظر أخى عندما يكبر، ويصبح هو شغله الشاغل. الولد لن يكون معقداً مثل البنت، وبالتأكيد أخى لن يكون مقعداً على الإطلاق، سوف يكبر، ويصبح على ما يرام.

الآن بدأت المدرسة، بدأت منذ أسابيع، قبل أن تتحول أوراق الشجر إلى اللون الأحمر والأصفر، الآن ذهبت الأوراق كلها. لا أرتدى معطف المدرسة، ولكن أرتدى معطفى الجيد، المعطف ذا الأكمام القطيفة الغامقة، والياقة القطيفة الغامقة أيضاً. وأمى ترتدى المعطف الذى تذهب به إلى الكنيسة، وقبعة نِسوية تغطى أغلب شعرها.

أمى تقود بنا السيارة إلى أى مكان نريد أن نذهب إليه. هى لا تقود السيارة كثيراً، وقيادتها دائمًا أكثر تهذيبًا من أبى، ولكنها أكثر غموضًا من قيادة أبى. عند أى منحنى تطلق "الكلاكس". تقول:"الآن"، ولكن تأخذ فترة منها حتى تضع السيارة فى مكانها: "ها نحن هنا إذن. " يبدو من صوتها كأنها تقصد به التشجيع،

www.ibtesama.com

تلمس يدى لتعطينى الفرصة لكلى أمسك بيدها، ولكنى أتظاهر بأنى لم ألحظ، فتبعد يدها. البيت ليس فيه ممر خاص للسيارات، أو حتى ممشى جانبى. بيت محترم ولكنه غير عادى. رفعت أمى يدها المدسوسة فى قفاز لتدق الباب، ولكن يظهر أننا لم نكن مضطرين إلى ذلك؛ الباب مفتوح أمامنا. بدأت أمى تقول شيئًا مشجعًا لى، شيئًا مثل: "كل شىء سيكون على ما يرام قريبًا، " نبرة صوتها وهى تتحدث معى كانت قاسية وعنيفة بعض الشىء، ولكنها مطمئنة بعض الشىء أيضًا. تتغير عندما يُفتح الباب إلى عالم حزين، ناعم، يصبح أكثر نعومة وهى تهم بالانحناء برأسها. فُتِح الباب لتتيح لبعض الناس الخروج، وليس للدخول فقط. أحد النساء الخارجات أشارت إليهابصوت لم يكن ناعمًا على الإطلاق: "إنها السيدة التى تخدمها"سادى"، هى وهذه الفتاة الصغيرة. "

ثم تأتى سيدة متأنقة فى لبسها وتتحدث مع أمى وتعينها على خلع معطفها. وبعد ذلك، تساعدنى أمى على خلع معطفى، وتقول للسيدة إننى كنت أحب "سادى" حبًا جمًا. وعبرت عن أملها أن يكون حضورى معها جيدًا وليس فيه مشكلة. وقالت المرأة: "آه. . يا حبيبتى، يا حبيبتى الصغيرة، الصغيرة، " ولمستنى أمى لمسة لطيفة لعلى أرحب بالسيدة. وقالت السيدة: ""سادى" كانت تحب الأطفال، تحبهم كثيرًا. " ولاحظت وجود طفلين آخرين، أولاد. أعرفهم من المدرسة، واحد فى الصف الأول (معى)، والآخر أكبر، يتطلعان من حجرة يظهر أنها المطبخ. الصبيالأصغر يحشو كعكة كاملة فى فمه بطريقة مضحكة. والثانى - الأكبر - يرسم على وجهه علامات

www.ibtesama.com

التكشير الكريه، لا فى اتجاه الصبى مزدرد الكعك، ولكن فى اتجاهى. إنهما يكرهاننى طبعًا. الصبية يتجاهلونكِ إذا قابلوكِ فى مكان ما خارج المدرسة (وحتى فى المدرسة يتجاهلونكِ أيضًا)، أو يتوجهو إليكِ بمثل هذا الوجه الكريه، وينادونكِ بأسماء فظيعة. وعند أضطر إلى الاقتراب من أحدهما، فسوف يتجهم، ويتعجب لما أفعله. طبعًا الأمر يختلف عندما يكون هناك كبار فى المكان. لبث هذان الصبيان هادئان، ولكنى لبثت مكتئبة حتى جذبهما أحدهم إلى داخل المطبخ. أستطيع التعرف على صوت أمى الرقيق، المفعم بالحنان، والعطف، أقرب من صوت سيدة مجتمع، من صوت المحاضِرَة التى كانت تتحدث معها، وكنت أعتقد أن المقصود من الوجه الكئيب أن يخيفها هى. أحيانًا الناس يقلدون صوتها، عندما كانت تنادى علىّ فى المدرسة.

قادتنا السيدة التى كانت تتحدث معها، السيدة القائدة، إلى جزء من الحجرة حيث كان يجلس فيها رجل وامرأة على أريكة، ويبدو أنهما لم يفهما السبب فى وجودهما هناك. انحنت أمى ناحيتهما وتحدثت إليهما باحترام شديد، وأشارت لهما إلىَّ وهى تقول: "كانت تحب "سادى"أيضًا. " كنت أعرف أنه كان يجب أن أقول شيئًا، ولكن قبل أن أتمكن من قول أى شىء، أطلقت السيدة التى كانت تجلس هناك صرخة أقرب إلى النباح. لم تنظر إلى أحد، وبدا الصوت الذى صدر منها أشبه بالصوت الذى يصدر منك عندما تتعرض لكلب يعضك، أو يقضم سمانة رجلك. راحت تضرب على ذراعيها كأنها تريد تتخلص من شىء ما لا نعرفه، ولكنها لم تستطع التخلص منه.

www.ibtesama.com

نظرت إلىَّ أمى، كأنها هى الشخص الوحيد الذى يجب أن يتصرف. طلب منها الرجل العجوز أن تهدأ، وقالت المرأة التى كانت تقودنا: "إنها حزينة حزنًا شديدًا،" وقالت أيضًا: "إنها لا تعرف ماذا تفعل،" ومالت برأسها فيما يشبه الانحناء وقالت لها: "الآن.. الآن.. سترعبين البنت الصغيرة،" وقال الرجل العجوز بشىء من الحنو: "سترعبين البنت الصغيرة." وما فرغ من ذلك حتى توقفت المرأة عن الصياح، وراحت تضرب ذراعيها المجروحتين من الخربشة، كأنها لا تعرف ماذا حدث لهما بالضبط. قالت أمى: "مسكينة المرأة،" وقالت المرأة القيادية: "طفلة وحيدة أيضًا." وقالت لى أمى: "لا تخافى." أُصبت بالرعب ولكن ليس بسبب الصراخ، كنت أعرف أن "سادى" فى مكان ما، ولم أكن أريد أن أراها. لم تقل أمى - فى الواقع - إنى كنت أريد أن أراها، ولكنها لم تقل إننى لم أكن أرغب فى رؤيتها أيضًا.

كانت "سادى" قد لقيت مصرعها وهى عائدة إلى البيت من صالة رقص رويال تى. صدمتها سيارة وهى تسير على ذلك الطريق الضيق المفروش بالحصى، بين موقف سيارات المرقص، وبداية الممشى التابع للمدينة. كانت تسرع فى مشيها، كما كانت تفعل دائمًا، وكانت - بلا شك - تظن أن السيارات لابد أن تراها، أو أن لها حق فى الطريق كما للسيارات حق بالضبط، وربما تأرجحت السيارة التى كانت خلفها، وربما لم تكن فى المكان الذى اعتقدت أنها لم تكن فيه بالضبط. صدمتها السيارة من الخلف، انحرفت السيارة التى صدمتها عن طريق السيارة التى كانت خلفها. وكانت السيارة الثانية تستعد للدوران الأول إلى شارع من شوارع المدينة.

www.ibtesama.com

ربما أصابت بعض الشراب المسكر فى صالة الرقص، رغم عدم قدرتها على شرائه. وكانت الصالة تضج بصياح السكارى الذى يشبه صياح الإوز، وكان هناك أيضًا صراخ، وحركات سريعة خاصة بعد انتهاء الرقص. بعد ذلك تخرج "سادى" وتنطلق تعدو فى الشارع كأن من مصلحة الجميع أن يفسحوا لها الطريق.

"فتاة دون صديق تذهب إلى صالة رقص على قدميها، " قالت المرأة التى لا تزال صديقة أمى. تحدثت بنعومة كبيرة، وهمست أمى فى أذنيها بشىء انعكس على تعبيرات وجهها بحزن شديد. قالت المرأة الصديقة بنبرة ناعمة أيضًا: "هذه أول المتاعب. " سمعت فى البيت من يقول إننى لم أفهم. كانت أمى تريد أن يحدث شىءٌ له علاقة بـ "سادى" والسيارة التى صدمتها، ولكن أبى رأى أن نترك الموضوع كله. قال: "ليس لى مصلحة فى المدينة، " لم أحاول حتى أن أفهم ذلك لأنى لم أحاول أن أفكر فى "سادى" بالمرة، ناهيك عن موتها. عندما أدركت أننا كنا ذاهبين إلى بيت "سادى" تمنيت ألا أذهب بالمرة، ولكنى لم أجد طريقة للخروج من المأزق إلا بمنتهى قلة الأدب.

بدا لى – بعد انفجار المرأة العجوز – أننا قد نعود إلى البيت. فى الواقع كنت مرعوبة جداً من مشهد أى جسد ميت. كانت أمى والسيدة الصديقة على حق؛ سمعتهما يتحدثان عن شىء قالا إنه خطيرٌ جداً: رؤية "سادى" وهى مسجاة. وذهبت لرؤية "سادى" الميتة، كنت أنظر إلى أسفل طوال الوقت، لم أجرؤ على النظر فى جسد "سادى"، رحت أنظر فى أرجل الناس الذين كانوا يجلسون على

www.ibtesama.com

الأرض، ولكن أخذتنى أمى من يدى فى اتجاه آخر. رأيت كفنًا لبث فى الحجرة مدة طويلة، ولكن - من فرط قلة خبرتى - كنت أظنه شيئًا آخر. ظننته تارة رفًا توضع عليه زهور، وتارةً أخرى جهاز بيانو مغلق. ربما لم أتمكن من رؤيته على حقيقته بسبب كثرة الناس من حوله، كأنهم حالوا بينى وبين رؤية حجمه الحقيقى، وشكله، والغرض منه. إنهم يفسحون لى الطريق بكثير من الاحترام والفهم، تحدثت أمى بصوت جديد هادئ: "تعالى الآن. " بدا أدبها شيئًا كريهًا فى نظرى، لماذا تبتهج؟ مالت برأسها نحوى لتمعن النظر فى وجهى، وكنت متأكدة أنها كانت تريد أن تمنعنى من حدوث ما حدث لى بالفعل: أن تظل عيناى مغلقتين. أعرضت عنى، ولكنها احتفظت بيدى معقودة بيدها. استطعت أن أخفض رموشى بمجرد أن نأت بعينى عنى، ولكن لم أغلقهما تمامًا خشية أن أصطدم بشخص، أو يدفعنى أمامه فى اتجاه لا أريده. كل ما كنت أستطيع رؤيته صورة غائمة للزهور الاصطناعية، ولمعان الخشب المصقول.

ثم سمعت أمى تشهق، وانسحبت. وسمعت صوت طقطقة كيس نقودها يُفتح. كانت مضطرة إلى أخذ شيء من محفضتها، ولذلك ضعفت قبضتها على يدى، واستطعت التحرر منها فى النهاية. كانت تبكى. كان شغلها بدموعها هو الذى جعلنى أفلت. نظرت مباشرة فى داخل الكفن، ورأيت "سادى". لقد أبقت الحادثة على رقبتها ووجهها، ولكنى لم أرَ كل ذلك فى الحال. الانطباع العام أنى لم أرَ شيئًا مخيفًا فى جسدها. أغلقت عينى بسرعة، ولكنى وجدت نفسى عاجزًا عن الرغبة عن معاودة النظر. نظرت - فى البداية - إلى الوسادة

www.ibtesama.com

الصفراء الصغيرة التى كانت تحت رقبتها، والتى تمكنت أيضًا من تغطية رقبتها وذقنها وخدها الذى رأيته بيسر. رأيت بعد ذلك الوسادة، وفى المرة الثانية، استطعت أن أرى ما كنت أحرص على ألا أراه. رأيت "سادى" كلها، أو على الأقل أغلبها. رأيت شيئًا قد تحرك: جفنها الذى الذى كان ناحيتى، لم يكن مفتوحًا، أو حتى نصف مفتوح، ولكنه كان مرتفعًا قليلاً. تخيلت نفسى مكانها فى هذا الكفن، أرى الآن سواد عينيها من بياضه. لم أُدْهش ولم أخف. غشى هذا المشهد كل ما عرفته عن "سادى" فى الماضى القريب، وكل خبرة من خبرات الحياة ظفرت بها بنفسى، ولنفسى. لم أحكى لأحد، ولم أنتهز الفرصة لجذب انتباه أحد بما عرفت، فما عرفت خاص بى، ولا يخص أحداً سواى. أخذت أمى بيدى مرة أخرى، وقالت: إننا يجب أن نعود، وبعد محادثات أخرى مع سيدات وجدنا نفسينا خارج البيت. قالت لى إمى: "أفضل لكِ." ثم قالت وهى تضغط على يدى: "كلُ شىء انتهى الآن." وقفت وتحدثت مع شخص آخر كان فى طريقه إلى المنزل، ثم ركبنا السيارة وراحت تشق طريقها إلى البيت. قلت فى نفسى: "يبدو أنها تريد أن تقول لى شيئًا، أو ربما أخبرها بشىء، " ولكنى لم أفعل. لم يبدُ علىّ أنى أريد أن أقول شيئًا، والحق أن شبح "سادى" قد راح يبرح ذاكرتى بسرعة غير متوقعة. على كل حال بدأت "سادى" تهجر عالم اهتماماتى فى الأسبوع الأول من سبتمبر عندما قالت إنها يجب أن تبقى فى منزلها؛ لكى تعتنى بأبيها وأمها، وابتعدت عن منزلنا، ثم اكتشفت أمى أنها كانت تعمل فى محل ألبان. على كل حال لبثت زمنًا أتذكرها بين الحين والحين، ولم

www.ibtesama.com

يحدث فى أية مرة أن ساورنى شك فيما حدث. وبعد زمن طويل، طويل، عندما لم أعد أهتم كثيراً بالغريب المفاجئ من حوادث الأيام، اختزنت ما حدث فى ذاكرتى لم يبرحها مع ما توالى عليها من حوادث، يؤمن بها القلب ولا ينكرها العقل، كتبديل الأسنان فى مرحلة من مراحل العمر، تختفى ذكراه فى مجاهل الذاكرة، وتظل حقيقتها الأولى جلية لا تقبل التكذيب. وعندما وصلت إلى سن المراهقة ذات يوم، عرفت أنه حتى التصديق بما حدث يصبح فى ذمة الأيام وحصالة النسيان.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

أشباح

ها هي"ماري ماكويد، قادمة" أما أنا فقد تظاهرت بأني لا أتذكرها، وبدا لي أنه تصرف في محله، هي نفسها قالت: "إن لم تتذكرني معناه أنك لا تتذكر الكثير، " ما علينا، فقد أردفت: "أراهن على أنك لم تزر بيت جدتك الصيف الماضي، وأراهن على أنك لا تتذكر هذه أيضاً. "

كانوا يقولون "بيت جدتك"، رغم أن جدي كان لا يزال حياً، كل ما في الأمر أن عالمه تراجع في الزمان والمكان، وأن حركته اقتصرت على حجرة واحدة، حجرة نوم من أكبر حجرات النوم الأمامية، لنوافذها مصاريع خشبية، كما هو الشأن في حجرة الجلوس، وحجرة السفرة، وأما باقي حجرات النوم فقد اكتفت بالستائر. أضف إلى ذلك أن الشرفة تمنع دخول الأضواء، مما جعل جدي يعيش في شبه ظلام كثيف طوال اليوم، شعره أبيض، يقوم كل يوم

www.ibtesama.com

على غسله والعناية به، ناعم كشعر الرضيع، وبيجامة النوم التى يرتديها بيضاء أيضًا، وحتى وسائده بيضاء، يوحى إليك المشهد بأن جدى يعيش فى جزيرة يقترب منها الناس وقد استشعروا الهيبة والإقدام فى آن. كانت "مارى ماكويد" هى الجزيرة الثانية فى الحجرة، بثوبها الرسمى، تجلس أغلب الوقت بعيدًا عن المروحة التى تبدو كأنها مرهقة من صراعها مع هواء الحجرة الثقيل. كان الظلام غليظًا لا يعين على القراءة أو تشغيل ماكينة التريكو، إذا افترضنا أنها كانت تريد أن تقوم بمثل هذه الأشياء، فكانت تكتفى بالانتظار، تسمع صوت أنفاسها الثقيلة التى تختلط بصوت المروحة، يشى بشكوى قديمة تستعصى على الفهم.

كنت صغيرة جدًا عندما أرسلونى إلى سِنَة من النوم فى مهد الطفولة، ولم يكن السرير فى بيتنا، وإنما هو السرير الذى أعدوه لى فى بيت جدتى، فى حجرة تواجه الصالة. تخلو الحجرة من المروحة، وكانت أضواء الخارج تلح فى الدخول - الغيطان المنبسطة حول المنزل، وقرص الشمس المتقد، ومساحات المياه المتألقة - فلا تسمح لها الستائر إلا بخطوط ضوئية تشبه الشروخ. من يستطيع النوم؟ تنسج أصوات أمى وجدتى وخالاتى وعماتى منظومة راسخة لا تتغير من الأنغام، فى بلكونة المطبخ، وفى حجرة السفرة، حيث كانت أمى مشغولة بتنظيف القماش الأبيض بفرشاة صغيرة لها يد نحاسية، وتنظيف الأباجورات المستقرة على المائدة المستديرة، التى تتدلى منها لمبات على هيئة زهور لم ينطلق فيها النور، من زجاج سميك مصنوع من قوارير الخمر الاسكتلندية المرتجعة). كان البيت يحفل بالحياة،

www.ibtesama.com

وجبات الطعام، وعمليات الطبخ، والزيارات، والحوارات، وحتى الذين يضربون على آلة البيانو (عمتى الأصغر هى التى كانت تضرب على آلة البيانو، اسمها "إدِث"، لم تتزوج، تغنى وتعزف بيد واحدة، أغنية تستهل كلماتها بـ "نيتا وانيتا، غاب القمر، بالتدريج)، حياة كاملة نشطة فى ذلك البيت. أضف إلى ذلك أن أسقف الحجرات كانت عالية جداً، وتحت رؤوسهم مساحة كبيرة من فضاء معتم يذهب سدى. وعندما كنت أرقد على سريرى الصغير، كانت حرارة الجو من حولى شديدة الوطأة، مما يحول بينى وبين النوم. كنت أتأمل سقف الحجرة، وأطالع الفراغ الضائع، وأركان الحجرة الملطخة بأوساخ شتى، حينئذٍ أشعر بأن الموت واقع محدق، وهو شعور شائع بين أهل البيت جميعًا - فى هذا الجو الحار الخانق، والعرق المتصبب، واقع الموت حقيقة لا تُنكر، كرة الثلج السحرية. و"مارى ماكويد" تنتظر فى ثوبها الأبيض المنشى، كئيبة، ضخمة كجبل الثلج، عنيدة مشاغبة، تنتظر وأنفاسها تكاد تُسمع. ألقى عليها بالمسؤولية.

لذا تظاهرت بأنى لا أتذكرها. لم تكن ترتدى ثوبها الأبيض الرسمى، وهو ما لم يكن يعنى أن خطرها قليل، ولكنه قد يعنى - على الأقل - أن ساعة نفوذها لم تحِنْ بعد. وخارج البيت، وعلى مشهد من أضواء النهار، لا ترتدى الثوب الأبيض، تبين أن جسمها كله يغطيه النمش، فى كل جزء من جسدها المترامى، كأن هناك من نثر دقيقًا عليه، يتوج رأسها شعرٌ متجعد يلمع، لم تمسه الصبغات، لونه أميل إلى النحاسى. كان صوتها عاليًا مبحوحًا، الشكوى المستمرة لغتها اليومية. صاحت فى وجهى فى فناء البيت الكبير: "هل

www.ibtesama.com

أذهب لنشر هذا الغسيل بنفسى؟" ومضيت فى إثرها إلى حبل الغسيل وهى تئن وتهمهم، وهى تضع سلة الغسيل الممتلئة بالملابس المبتلة وهى غاية فى الضيق والضجر، وهى تقول: "ناولينى المشابك، ناولينى المشابك واحداً واحداً، تعالى إلى يمينى، لم يكن ينبغى أن أخرج فى هذا الجو الخانق، والرياح، لماذا أخرج فى هذا الجو؟ أنا ست مريضة بالتهاب الشعب. " تدلت رأسها على جانبها الأيمن كأنها حيوان شد وثاقه إلى جهة اليمين، رحت أرفدها بالمشابك الواحد بعد الآخر. خارج الحجرات، فى جو مارس البارد، يتراجع حجمها الفظيع، وتخبو رائحتها. داخل البيت كنت أشم رائحتها فى كل ركن، وحتى فى الحجرات التى لم تكن تدخلها إلا نادراً. ترى ما هذه الرائحة، وماذا تشبه؟ كانت أشبه برائحة المعدن، أو كرائحة بعض التوابل السوداء (كفصوص ثوم - وكانت فعلاً تعانى من ألم فى أسنانها)، وكرائحة المستحضر الطبى الذى كانوا يدهنون به صدرى حين يهاجمنى البرد. ذات يوم أخبرت أمى بذلك، فردت: "لا تكونى حمقاء، أية رائحة؟ أنا لا أشم شيئًا!" مما جعلنى أتراجع عن أنأخبرها بالطعم؛ فقد كنت أستشعر طعمًا أيضًا؛ طعمًا مختلفًا يشيع فى كل الطعام الذى كانت "مارى ماكويد" تعده، وربما فى الطعام كله الذى كنا نأكله فى حضورها: فى ثريد الإفطار، وفى البطاطس المقلية فى الظهر، وفى شرائح الخبز، والزبدة، والسكر البنى الذى كانت تعطيه لى فى الفناء. طعم غريب أجنبى، كعطع الرمل فى الفم، مجلبة للأسى. لم يكن أبى وأمى يعرفان تلك الرائحة، كيف لا يعرفانها؟ أو ربما لأسباب تخصهما كانا ينكرانها! وبعد أن

www.ibtesama.com

فرغت من نشر غسيلها، كانت تنقع قدميها فى طست يمتلئ بماء ساخن يتصاعد منه بخار، كانت ساقاها مستديرتان أشبه بمواسير الصرف، تضع يداً على كل ركبة، وتنحنى على الطست وهى ترسل من فمها أصواتاً تشى بالألم والرضا فى آن.

"هل أنتِ ممرضة؟" قلت، بشىء من الرفق والجرأة الشديدة، رغم أن أمى قالت إنها ممرضة.

"نعم، أنا ممرضة وليتى لم أكن."

"وهل أنت عمتى أيضاً؟"

"لا.. لست عمتك، لو كنت عمتك لناديتنى بعمتى مارى، أليس كذلك؟ وأنت لا تنادييننى بعمتى مارى؟، هل تنادينى بعمتى مارى؟ أنا بنت عمك. أنا بنت عم أبيك. هذا هو السبب الذى جاءوا بى إلى هنا، بدلاً من الاستعانة بممرضة عادية. أنا يسمونى ممرضة عملية، ويوجد دائماً شخص مريض فى هذه الأسرة، وأنا دائماً آتى لتمريضه، لا أرتاح أبداً."

أشك فيما تقول، وأشك فى أن أحداً طلب منها أن تأتى من الأساس. كانت تأتى إلى هذا البيت، وتطبخ ما تريد أن تطبخ، وتعيد ترتيب أشياء على مزاجها، ولا تمل من الشكوى عن تيارات الهواء البارد، وعن أنها "تهد حيلها فى هذا البيت." لو لم تأتِ أبداً لما أُخِذَت أمى إلى سريرها.

كان سرير أمى مستقراً فى حجرة السفرة؛ حتى توفر على "مارى ماكويد" طلوع السلم. وكانت أمى ترسل شعرها فى خصلتين نحيفتين قصيرتين داكنتين، وكانت وجنتاها شاحبتين، وكانت رقبتها

www.ibtesama.com

دافئة تشيع منها رائحة العنب النباتى، وهى رائحة تلازمها دائماً، ولكن سائر جسدها المختفى تحت الأغطية، فقد تحول إلى شيءٍ ضخمٍ، هشٍّ، غامضٍ، يستعصى على النقل. وكانت تتحدث عن نفسها بنبرة مفعمة بالأسى بضمير الغائب فتقول: "خلى بالك يا بنت، لا تسببى الأذى لأمك، ولا تجلسى على ساقيها، " وفى كل مرة كانت تقول "أم" كنت أشعر بقشعريرة تسرى فى جسدى كله، ويعتورنى إحساس بالشقاء والعار يكتنف كيانى كله، كما كان يحدث عندما كنت أسمع كلمة "يسوع". هذه "الأم" التى ابتدعتها أمى الحقيقية الماثلة الآن أمامى، ذات الرقبة الدافئة، سريعة الغضب، والقرب الإنسانى، ودفعتها بيننا، كانت شبحاً مشغولاً فى جرحه الأبدى، وفى الشكوى مثله، من كل شر أرتكبته، ومن كل شر لم أرتكبه.

كانت أمى تتقن تزيين البُسُط الأفغانية بمربعات تتألق عليها كل ظلال الألوان الأرجوانية. تختفى وراء البطانيات وأمى لم تكن تبالى، تنساها بعد الفراغ منها. لقد نسيت قصصها كلها، كانت تروى القصص عن أميرات فى البرج، وعن ملكة قُطِعت رأسها بينما كانت تخفى كلبًا صغيرًا تحت فستانها، وملكة أخرى راحت تمص السم من جرح أُصيب بها زوجها؛ وقصصًا أخرى عن طفولتها، وهو ما يدخل عندى – كغيره من الأزمنة – فى باب الأساطير والخرافة. وعندما أصبحت رعايتها من مسؤولية "مارى ماكويد"، راحت تشكو وتتذمر كما يفعل الأطفال، تقول مثلاً: "مارى.. قلت لك مائة مرة حكى لى ظهرى. " أو تقول: "مارى.. ممكن تعملى لى كوبًا من

www.ibtesama.com

الشاى؟ أشعر أن كوبًا آخر من الشاى يجعل صحتى مثل الحصان، ربما أنهض من فراشى وألامس سقف الحجرة، كما تفعل البالونات، وآنت عارفة أن هذا منتهى أملى. " وتضحك "مارى" ضحكة مقتضبة وهى تقول: "أنت!، " ثم تمضى فى القول: "أنت لن تنهضى من مكانك ولا يحزنون، أنت تحتاجين إلى "ونش" ليرفعك، ارتاحى، تعالى.. ارفعى رأسك قليلاً، ستسوء حالتك قبل أن تتحسن!" وهتفت بى لاترك السرير، وراحت تسحب منه الملاءآت بحركات عصبية تفتقر إلى التمدن، وهى تقول: "أنت تتعبى أمك كثيرًا، لا تتعبى أمك فى هذا اليوم اللطيف، لماذا تريدين تعب أمك فى جو لطيف كهذا؟"ثم تقول: "أمك تعانى من الوحشة، بأن العالم قد هجرها، " دافعت أمى عن نفسها دفاعًا ضعيفًا لا يرقى إلى الصدق. ثم قالت "مارى بصوتها الجهورى الغامض المهدِّد: "هى تشعر بالوحشة سواء هنا على السرير أو هناك فى الفناء. أنت ما عليك إلا أن تلبسى ثيابك، وتخرجى من هنا!"

أبى أيضًا تغير منذ قدومها إلى بيتنا. فعندما يقدم على طعامه فى الصباح والظهر والمساء كانت تنتظره، وتقوم على خدمته، وقد يطلق نكتة تجعلها تنتفخ كفرخ الضفدع الأمريكى، ويعلو وجهها نظرة شرسة فيتخضب وجهها باللون الأحمر الغامق. كانت تضع أمامه طبقًا ملأته باللوبيا البيضاء غير المطبوخة، صلبة كالحصى، وتنتظر لترى رد فعله: هل يدفعه خلقه الرفيع إلى أن يشرع فى تناوله؟وكانت تلصق شيئًا أسفل الكوب الذى يشرب فيه الماء، ليبدو كأن هناك ذبابة تلتصق فى قاعه. أعطته مرة شوكة تنقصها شعبة،

www.ibtesama.com

وهى تدَّعى أنها كانت مصادفة، ألقاها فى وجهها، وضاعت، ولكنه سبب لى الرعب فى ذلك اليوم. كان أبى وأمى - وهما يتناولان العشاء - يتحدثان بصوت هادئ ولكن بجدية. ولكن أفراد أسرة أبى - أولا عمى يعنى - حتى البالغين منهم - يلعبون ألعابًا غريبة بديدان وخنافس مطاطية، وكنا نوجه الدعوات للعمات والخالات البدينات للجلوس على مقاعد هزازة، وكان أعمامى يضرطون ويخرجون الرياح علنًا أمام الناس ويقولون: "آههه، خليك عندك!" مزدهين بما فعلوا كأنهم يعزفون على أعقد الآلات الموسيقية. لا يسألك أحدهم عن اسمك دون أن يحدث بقبقة أو ثرثرة ليغيظك أو يثير أعصابك. بالنسبة لـ "مارى ماكويد" فقد كان أبى يضطرها إلى أن تحضر له الأكل الذى يأكله سائر أفراد العائلة، وهو يأكل بطريقة العائلة فى الأكل أيضًا، أكوام من البطاطس المحمرة، واللحم البتلو والفطائر السميكة، ثم يشرب الشاى الأحمر الثقيل، ثم يزدرد ألوانًا من الأدوية من علبة من الصفيح وهو يقول بشىء من الامتنان: "مارى.. أنت عارفة ما ينبغى للرجل أن يأكله!" ثم لا يلبث أن يردف: "ألا تشعرى بأنه آن الأوان أن تبحثى لك عن رجل تقومين على طعامه وشرابه، رجلٍ يخصك وحدك يعنى؟" مما ينتهى به إلى شوكة تُصوب إليه، أو فوطة تُلقى على وجهه.

. كانت دعابته مع "مارى" تتركز على الزواج والأزواج. كان يقول لها مثلاً: "وجدت لكهذا الصباح عريسًا مناسبًا.. ما رأيك؟" ثم يردف: "مارى.. أنا لا أمزح، ولا أخدعك، يجب أن تعطى هذا الموضوع بعض اهتمامك. " فى البداية كان ضحكها يأتى أشبه

www.ibtesama.com

بالشهيق أو اللهاث، أو أشبه بانفجارات عاتية تنفرج لها شفتاها المغلقتان، ثم يحتقن وجهها الأبيض بالدم، فتعلوه حمرة تتجاوز المتوقع، ثم يرتعش جسمها كله فيرتفع وينخفض وهى جاثمة على المقعد كأنها فى خطر محدق. لم يكن هناك شك فى أنها كانت تجد متعة فى هذا كله، فى كل تلك الزيجات المتخيلة الخارجة عن المألوف، رغم أن أمى كانت تقول: إنه مزاح ثقيل وسخيف، وينطوى على قسوة، ويفتقر إلى اللياقة الخليقة بحسنى التربية، وكانت تقول أيضًا: إنه لا ينبغى المزاح مع سيدة تخدمنا تقدمت فى السن مثل "مارى" بمسألة الرجال والزواج. فى عائلة أبى كان المزاح يجرى على ذلك النحو، وكانت الدعابة تتكئ - فى الغالب - على هذا الموضوع المدخر. ومن أين لهم أن يأتوا بموضوع مختلف؟ وكلما ثقل جسمها، وخشن صوتها، واضطرب كيانها، كلما أمعنوا فى مثل هذه الدعابات والنكات. أسوأ شىء فى هذه العائلة أن تغريهم أن يظنوا أنك حساس، حساس!، كانوا يقولون ذلك عن أمى. جميع عماتى، وخالاتى، وأبناء عمى وبناته، نشأوا على طبع فظ لا يعرف الرقة، ولا يأبه بأى شىء مما يتصل بقسوة الشخصية، لا يبالون، وربما متكبرون، ولا يتورعون عن استغلال فشل الناس، وإخفاقهم، وربما تشوهاتهم الخِلقية، فى جلب الضحك العام.

كان الظلام يكتنف البيت فى الداخل، رغم ساعات النهار التى قد تطول خارجه. لم يكن لدينا كهرباء؛ فقد دخلت الكهرباء بيوتنا بعد ذلك ربما بعام، وربما الصيف التالى مباشرة، ولكن فى ذلك الوقت الذى أحدثكم عنه كانت المائدة تُضاء بمصباح مستقر فوقها، يُدار

www.ibtesama.com

بالكيروسين، وعلى مشهد ضوءه الضعيف كان أبى و"مارى ماكويد" يلقيان بظليهما الثقيلين العملاقين على أرضية الحجرة، وكان رأسيهما يترنحان على نحو أخرق فى الظلمة الجزئية مع حديثهما وضحكهما. كنت أتفرج على الظلين، ولا أنظر إلى الجسدين. وكانا يقولان لى: "بم تحلمين؟" ولم أكن أحلم بشىء؛ وإنما كنت أسعى إلى فهم الخطر، وأقرأ علامات العدوان.

كان أبى يقول لى: "هل تأتى معى إلى لنلقى نظرة على المصائد؟" كان يمتلك سلسلة من الفخاخ التى نشرها على شاطئ النهر، يقتنص بها فئران المسك، وعندما كان أصغر سنًا، كان يقضى الساعات والليالى والأسابيع الكاملة فى الأحراش، يتابع النهيرات والجداول الصغيرة على طول إقليم واواناش وعرضه، ولم يكن يصطاد فئران المسك فقط، وإنما كان يصطاد الثعالب الحمراء وحيوانات المنك البرية والسمور، وجميع الحيوانات التى ينضج فراؤها فى الخريف. فئران المسك هى الوحيدة التى يمكن أن تصطادها فى الربيع. وبعد أن تزوج واستقر فى مهنة الزراعة لم يحتفظ إلا بمصيدة واحدة، وحتى هذا لم يحتفظ به إلا سنوانت قلائل، وربما كان ذلك العام العام الأخير.

مضينا عبر حقل تم حرثه فى الخريف السابق. كنت أرى قليلاً من الثلج المستقر على الأخاديد والشروخ، ولكنه لم يكن ثلجًا حقيقيًا، وإنما كان قشرة نحيلة تشبه الزجاج الأملس، وكان فى وسعى تحطيمه بكاحلى. وكان الحقل يمتد ببطء عبر المنحدر، قريبًا من النهر. وكان السور، ينحدر فى بعض الأمكنة من ثقل الثلج، وكان فى وسعنا المشى عليه.

www.ibtesama.com

كـان حـذاء أبـى أمـامـى، كنت أرى أن أحـذيته فـريدُة من نـوعـهـا، ومـألوفة، كـأنهـاتدل عليه، أو كـأنهـاعلامـات قوية على وجوده، كوجهه تمامًـا. وعـنـدمـا كـان يـخـلع نـعـلـيه كـان يـضـعـهـمـا فـى ركن مـن أركـان المطبخ، تصدر منهما رائحة معقدة تمتزج فيه رائحة السماد وزيت المحـركـات، وقوالب الطـوب النيئ، والمادة التى صُنِعت منـهـا مراكب النعال. كانت أحذيته جزءًا منه، تستقر - مؤقتًا -فى مكانها الآن من الركن، تنتظر. تمنحك الإحسـاس بأنـهـا قـابـعـة هـنـاك مـتـحـديـة مثقلة بـالـعـنـاد، والـقـسـوة، وقـلـت فـى نـفـسـى: إنـهـا شـخـصـيـة أبـى أيـضًـا، الـتـحـدى والـعـنـاد، والـقـسـوة، الـصـورة الأخـرى لـوجـهـه، واسـتـعـداده الفطرى للمزاح والدعابة والمجاملات. لم تدهشنى تلك القسوة، وكان أبـى يـعـود إلـيـنـا دائـمًـا - إلى أمى وإلىَّ - من أمكـنـة لا تـخـطـر عـلـى البال.

على سبيل المثال، كنت أرى فأر مسك فى الفخ، فى البداية كنت أراه يـتـهـادى عـلـى حـافـة المـاء، ككـائـن اسـتـوائـى، أشـبـه بـالـسـرخـس الأسـود. سـحـبه أبـى فـتوقـف شـعـره عن الحـركـة بـعـد أن اشـتـبك الـشـعـر بالشعر، أصبح السرخس ذيلاً يلتصق به جسد الفأر، ناعمًا وزلقًا يقطر منـه الطين والماء. كانت أسنانه مكشوفة، وكانت عيناه تعلوهـا المياه، وأسفلهما يطل الموت والكآبة، تومضان كالحصى المغسول. هـزه أبى بشدة، وراح يجذبه فى المياه فخلف قطارًا صغيرًا من مياه النـهـر الباردة، وهو يقول: "هذا فأرٌ جيد عجوز، " ثم يردف: "هذا فأر ملك عجوز، ظاهرٌ من ذيله!" ربمـا كـان يظن أننـى أهـتم، وربمـا أراد أن يطْـلـعـنـى عـلـى الـسـحـر الـذى تـأتـى بـه تـلك الأدوات المـيـكـانـيـكـيـة

www.ibtesama.com

البسيطة، فأخرج الفخ من الماء، وراح يشرح لى طريقة عمله، فى البداية يجر رأس الفأر إلى أسفل فى الحال، ويغرقه بشىء من الرحمة. لم أفهم، ولم أهتم. كنت أريد أن أفهم وأهتم، ولكنى لم أجرؤ، لم أجرؤ على الاقتراب من جسد الفأر المتصلب المنقوع فى الماء، تطل منه حقيقة الموت واقع لا يقبل الجدال.

زود أبى الفخ بالطُعْم من جديد، وكان يستخدم قطعًا من التفاح الشتوى الأصفر المتغضن، وكان يضع جسد الفأر، فى كيسٍ أسود يعلقه على عاتقه بحبل، كما يفعل البائع المتجول فى صورة قديمة، أو فلم. وعندما كان يقطع التفاحة، كنت أرى السكين التى يقشرها بها، وشفرتها النحيلة الساطعة.

مضينا بمحاذاة النهر (نهر واواناش)، وكان مستقرًا على ارتفاع، يتدفق فياضًا بالماء فضى اللون بسبب استقرار نور الشمس على صفحته، فى سرعته المعتادة، هو تيار النهر، وكنت أخلط بين تيار النهر وتيار الهواء، تيار النهر له شكل منظور، وتدفق واضح. كانت ضفتاه منحدرتين، زلقتين، تحفهما أشجار الصفصاف المتشابكة، لا تزال محنية وعارية، ضعيفة كضعف العشب، ولم تكن الضوضاء الصادرة عنه عالية، ولكنها عميقة، قادمة من وسطه، كأنها قادمة من بعيد، من مكان خفى. يصدر من الماء زئير، كأنه يرن فى جوف قبو.

كان النهر يسير بانحناء خفيف، أما أنا فقد فقدت بوصلة الاتجاهات، وفى الفخاخ وجدنا فئرانًا أخرى، وأخرجناها من ساحة الموت ، وهززناها وأدخلناها فى الكيس، وزودنا الفخاخ بطعم جديد. اجتاحت البرودة وجهى ويداى وقدماى، ولكنى لم أشكُ، لم أذكر ذلك

www.ibtesama.com

لأبى، وهو لم ينصحنى - ولا مرة واحدة - بأن أحترس من البرد، أو أن أبتعد عن حافة المياه، كان يعُدُّ الأمر بديهيًا، وأن الإحساس الفطرى لدىَّ هو الذى سيحول بينى وبين السقوط. لم يحدث أن سألته عن المسافة التى سنقطعها، أو متى تفرغ الفخاخ من الصيد، ولم يمضِ وقت طويل حتى وصلنا مكانًا تتكاثف فيه الأشجار، وكان الوقت بعد العصر، أميل إلى الظلام منه إلى النور. لم تكن الأشجار مثل تلك التى كنت أراها على مبعدة من فناء بيتنا، كان تلاًّ يأخذ شكل المروحة، تنهض فى وسطه أشجارٌ عارية فى الشتاء، تتجه أغصانها الأبنوسية الصغيرة إلى أعلى.

على هذه الضفة لا تشيع أشجار الصفصاف، وإنما شاعت أشجارٌ كثيفة قصيرة لا يتجاوز طولها طولى. انتظر على الطريق، على مبعدة من ضفة النهر، بينما نزل أبى إلى المياه، وعندما انحنى ليعالج الفخاخ اختفى فجأة، لم أعد أراه، تجولت ببصرى بهدوء، ورأيت شيئًا آخر. عدت أتجول ببصرى على مسافة من أبى، رأيت رجلاً يتلمس طريقه إلى هناك، إلى أبى. كان حريصًا على ألا يحدث ضوضاء، يتحرك ببطء فى الأدغال، ويمضى بيسر، كأنه يمضى فى طريق ممهد، لم أتمكن من رؤيته. فى البداية كنت أرى رأسه، والجزء الأسفل من جسده، يكتنفه الظلام، وجبتهته عالية صلعاء، وشعره طويل وراء أذنيه، وعلى وجنتيه تجاعيد عميقة. وعندما تجاوز الأدغال أستطعت أن أرى باقى جسده، ساقاه طويلتان رشيقتان، نحيف وملابسه سمراء فاتحة تشبه لون الأدغال، يحمل شيئًا فى يده، تقع عليه أشعة الشمس فيظهر، بلطة صغيرة؟ أو ربما فأس صغير!

www.ibtesama.com

لم أتحرك، ولم أنادِ على أبى محذرة، عبر الرجل الطريق أمامى مباشرة، ماضيًا نحو النهر. فى مثل هذه الحالات يقول الناس إن الخوف يشلهم، ولكنى كنت رابطة الجأش، كأن عاصفة رعدية ضربتى فأسكتتنى، ولم يكن الخوف بقدر ما هو التذكر، أو التعرف. لم أستغرب، لم يكن هو المشهد الذى يدعو إلى الاستغراب والدهشة، فقد كان من المشاهد الممكنة، يجرى على سُنّة معلومة بالبديهة، أدخر مثله فى الذاكرة وأكثر، كأنه يحدث الآن أمامى برغبة منى، وأنا أعرف المتوقع الرهيب. طوال حياتى وأنا أتخيل رجلاً مثله، يختبئ خلف الجدران، ويتوارى خلف الأبواب، وينتظر فى الركن المظلم من الصالة. الآن أراه رأى العين، انتظرت كما ينبغى لطفلة فى صورة قديمة قبل اختراع الصور الملونة، تقف مشدوهة أمام سماء الظهيرة المائلة إلى الظلام، وشعرها المتألق، وعينيها المتقدتان كعينى اليتمية آنى. تسلل الرجل عبر الأدغال حتى أصبح أمام أبى وجهًا لوجه. لم أكن أفكر إلا فى الأسوأ، ولم أكن حتى آمل إلا فى الأسوأ.

لم يكن أبى يشعر بأن الرجل قد اقترب. وعندما نهض من المياه، كان الرجل على بعد ثلاثة أقدام منه، ووقف حائلاً بينى وبين رؤية أبى. سمعت صوت أبى يعلو، بعد لأى، كمن يتحدث مع جار:

"مرحبًا يا جو. كيف حالك يا جو. لم أرك من مدة."

لم ينبس الرجل ببنت شفة، ولكنه اقترب من أبى جدًا وراح يتفحصه. قال له أبى: "جو، أنت تعرفنى، أنا "بن جوردان" كنت هنا لأشرف على مصايدى. النهر هنا ثرى بفئران المسك هذا العام يا جو." ولكن الرجل راح ينظر إلى الفخ الذى نصبه أبى، محملاً

www.ibtesama.com

بالطعم. "كان يجب أن تنصف فخاخك الخاصة بك، " أردف أبى. ولكن الرجل لم يجِب، وإنما تناول بلطته وراح يضرب بها الهواء برشاقة. "ولكن الوقت متأخر هذا العام، والنهر بدأت مياهه تضمحل. " قال الرجل وهو يضرب المياه بقوة، جهد يدارى به سعيه إلى المداراة على صوته المضطرب: "بِنْ جوردان!"

"ظننت أنك ستعرفنى يا جو. "

"لم أكن أتوقع أن تكون أنت يا "بِنْ"، ظننت أنك أحد أفراد عائلة سايلاس. "

"طيب.. قلت لك الآن إنه أنا. "

"إنهم يأتون هنا كل يوم يقطعون أشجارى، ويحطمون أسوارى، وأنت عارف أنهم حرقوا أعصابى يا "بن". نعم! حرقوا أعصابى. "

"سمعت عن ذلك.. سمعت عن ذلك، " قال أبى.

"لم أكن أعرف أنه أنت يا "بن"، لم أعرف أنه أنت، أحضرت هذه البطلة معى لكى أخوفهم ليس إلا، لو كنت أعرف أنه أنت لم أحضرت معى هذا الفأس، أنت الآن تعرف أين أسكن. "

ونادانى أبى وهو يقول: "أنا معى اليوم ابنتى الصغيرة. "

"جميل.. تعال أنت وهى لتستدفئا. "

ومضينا مع ذلك الرجل الذى كان لا يزال يحمل فأسه ويلوح بها دون اهتمام، بمحازاة النهر وعبر الأدغال. كانت الأشجار ترتجف من فعل الرياح، وأسفل الأشجار تتراكم الثلوج الحقيقية التى تُرِكت منذ الشتاء، قد تصل إلى عمق القدمين. وعلى جذوع الأشجار تنبت دوائر كأنها فضاءات داكنة غريبة أشبه بالدوائر التى تظهر عندما

www.ibtesama.com

تنفخ على سطح أملس وقت الشتاء. نزلنا على ما يشبه درجات السلم التى أفضت بنا إلى ما يشبه القبو، بل هو قبو بالفعل.

وصلنا إلى غيط من العشب الميت، عبرنا على مدق فيه إلى غيط آخر، غيطٍ أوسع يظله شىء أشبه بالسقف يتجه بميل إلى طريق واحد، ومن السقف خرجت ماسورة يعلوها غطاء، ينطلق منها دخان كثيف. ونزلنا درجات سلم أخرى كتلك التى أفضت بنا إلى القبو، وكان هو القبو فعلاً، قبو له سقف يعلوه. قال أبى: "يبدو كأنك أنت الذى قمت ببنائه بنفسك يا جو. "

"مكان دافئ، انخفاضه عن الأرض هو الذى جلب إليه الدفء، الدفء الطبيعى". قلت فى نفسى: ماالفائدة فى بناء منزل جديد، بنيت منزلاً جديداً وأحرقوه ذات يوم، وسوف يحرقونه فى المستقبل. وعلى العموم لا أريد منازل، وفيم ينفعنى المنزل؟ المرء يحتاج إلى حجرة، وها هى الحجرة أمامك، وأنا أعددتها بطريقة مريحة جداً. " وفتح الباب أسفل السلم، وهو يحذر أبى: "خلى بالك من رأسك هنا، أنا لا أقول إن الناس يجب أن يعيشون فى حجرات منخفضة تحت الأرض با "بِنْ. " رغم أن الحيوانات تفعل ذلك، ما يفعله الحيوان فى يقوم على منطق، ولكن لو أنت متزوج، فتلك قصة أخرى. " وضحك ثم أردف: "أنا.. أنا لا أخطط للزواج. "

لم يكن الظلام قد اكتمل، وكان القبو له نوافذ قديمة تسمح بدخول خيط نحيل من الضوء المثقل بالسخام، أضاء الرجل مصباحاً صغيراً يُدار بالكيرسين، يضعه على المائدة.

"الآن تستطيع أن ترى كل شىء. "

www.ibtesama.com

حجرة واحدة، أرضيتها ألواح من الخشب لا يتصل بعضها بالبعض الآخر بمسامير، مطروحة على الأرض ليمشى عليها الرجل ليس إلا، وموقد مستقر على ما يشبه المنصة، ومائدة، وأريكة، ومقاعد، ودولاب رُصَّت فى داخله أدوات مطبخ، وكثير من البطانيات السميكة المتسخة، من النوع الذى يُستخدم فى عربات الجليد، أو تغطية الخيول. وربما - لو لم تكن تنطلق منه مثل تلك الرائحة الغريبة الفظيعة، المزيج من الكيروسين والبول والطين والهواء الثقيل العَفِن - ربما كان هو مكانى المفضل، لكنت قلت إن المكان الذى يطيب لى العيش فيه، كتلك المنازل التى كنت أشيدها فى الشتاء، من الثلوج التى تسوقها الرياح، والحطب الذى كنت أصنع منه الأثاث، كذلك البيت الذى شيدته منذ زمن طويل تحت البلكونة، وكانت أرضيته من الطين المعبق بروائح شتى غريبة، لم تكن عرضة للشمس أو المطر.

ولكنى كنت حذرة، أجلس على الأريكة البغيضة، أتظاهر بأنى لا أنظر إلى شىء. قال أبى: "أنت مختفى ودفيان هنا يا "جو"، صح؟ هذا هو الحق. " وكان يجلس إلى جوار المائدة، وهناك كانت البلطة ترقد بجواره.

"كان لابد أن تزورنى قبل أن تبدأ الثلوج فى الذوبان. لم يكن هناك شىء سوى مدخنة. "

"وهل كنت تشعر بالوحشة كما تشعر الآن؟"

"أنا! أنا لا أشعر بالوحشة أبداً، وأيضاً لدىَّ قطى، يا "بِنْ". أين القط؟ ها هو، يرقد وراء الموقد، هو لا يأنس للناس، ربما. " وجذب القط، وكان ضخم الجثة، رمادى اللون، وكانت عيناه حزينتين. "انظر

www.ibtesama.com

ماذا يفعل. " وتناول صحنًا من فوق المائدة، ومرطبان كبير من الدولاب، وصب شيئًا منه على الصحن، وجلس أمام القط.

"جو، هذا القط لا يشرب الويسكى، هل يشرب الويسكى؟"

"انتظر وسترى. "

نهض القط، ومدد جسده بقوة، وألقى نظرة ملؤها الشك على ما حوله، وخفض رأسه ليشرب.

"ويسكى صرف، بدون ثلج أو ماء، أو أى شىء؟"قال أبى.

"أراهن على أنك لم ترَ ولن ترى مشهداً كهذا، هذا القط يفضل الويسكى على اللبن، كل يوم. والحق أن اللبن هنا نادر، وهو يفضل ما هو قريب منه، أتريد كأسًا يا "بِنْ"؟

"بصراحة أنا لا أعرف من أين جئت بهذا الكائن، لم أحظ بمعدة فى قوة معدة قطك. "

وبعد أن فرغ القط من الشراب، مضى بجوار الصحن، انتظر لحظة، وقفز قفزة غير متوقعة، واستقر على الأرض بشىء من الاضطراب، ولكنه لم يسقط. ترنح قليلاً، وراح يتثائب قليلاً، ويطلق المواء بشىء من اليأس، ثم انطلق واختفى تحت الأريكة.

"جو، أنت مصمم على ألا تقتنى قطًا. "

"على العموم هو لا يعض، دعنى أبحث عن شىء تشربه هذه البنت الجميلة الصغيرة، ماذا تريدين أن تشربى يا حلوة؟" قلت له: "لا شىء، لا أريد شيئًا، " ولكنه تناول علبة من حلوى الكريسماس، التى يبدو أنها ذابت، ثم نشفت، ثم ذابت مرة أخرى، حتى إن الخطوط الملونة اختفت، لها طعم المسامير.

www.ibtesama.com

"تعرف يا "بِنْ" أن آل سيلاس هؤلاء يحرقون أعصابى؛ إنهم يضايقوننى ليل نهار، إنهم لا يريدون الكف عن مضايقتى، أسمع وقع أقدامهم على سقف حجرتى فى الليل. بِنْ، عندما ترى أى أحد من آل سيلاس هؤلاء، قل لهم ماذا أخبئ لهم هنا". ثم تناول البلطة، وضرب بها المنضدة فشطرها إلى شطرين، وشطر معها المشمع الذى كان قد تعفن، ثم أردف: "ولعلمك معى بندقية أيضًا."

"لن يأتوا إلى مضايقتك يا "جو".

صدرت من الرجل آهة عميقة، وهز رأسه وهو يقول: "لن يتوقفوا أبدًا، لا.. لن يتوقفوا أبدًا."

"أنت فقط عليك ألا تهتم بهم كثيرًا، وسوف يتعبوا أنفسهم، ويختفوا."

"سوف يشعلون النار فىّ وأنا نائم، ويحرقون حجرتى وسريرى، لقد حاولوا مرة فى السابق."

لم يقل أبى شيئًا، ولكن راح يتحسس حد البلطة بأصابعه، يريد أن يختبر مضاءها. سمع مواء القط تحت الأريكة، وسمع صوت خربشته الأرض بمخالبه؛ فلقد اجتاحته نوبة من الوهم بسبب الويسكى، وغلبه الإعياء الشديد، مع الدفء بعد البرد، والذهول بعد اليقظة.

كانت عيناى مفتوحتان، ولكن سلطان النوم سعى إلى كيانى وسبلنى ما بقى من يقظتى.

أعاننى أبى على النهوض وهو يقول: "استيقظى.. انهضى.. شوفى.. أنا لا طاقة لى على حملك بالإضافة إلى هذا الكيس الملىء بالفئران."

www.ibtesama.com

وصلنا إلى قمة تل عالٍ، وهناك بدأت أستيقظ فعلاً، وكان الظلام يطارد آخر فلول النهار، أمامنا حوض يستقبل مياه الأمطار، ولكنها غادرت كلها إلى نهر واواناش، يكتنف الأشجار الصغيرة دخان بلون يمتزج فيه اللون الأخضر باللون البنى، أوراقها لم تسقط بعد، ولا زالت خضراء غامقة، بالية بعد الشتاء، عبر غيطان مصبوغة بلون بنى، لون القش اليابس، وأخرى أدكن بفعل حرث العام المنصرم، تكتنفها مساحات من الثلوج، تنبث عليها كالبقع العمياء (كالغيط الذى مشينا عليه منذ ساعات وساعات)، والأسوار المنخفضة الرقيقة، والمستعمرات المزدحمة بالحظائر الرمادية، والمنازل التى لا يقترب بعضها من البعض الآخر، تبدو منخفضة، وصغيرة.

"بيت من هذا البيت؟ قال أبى وهو يشير بيده.

كان بيتنا، عرفته بعد دقيقة من الحيرة، فلقد ضللنا الطريق إليه، قطعنا نصف دائرة حتى وصلنا إلى الجانب الآخر من البيت الذى لم يكن أحدٌ يراه فى الشتاء، وبابه الأمامى الذى يظل مغلقًا طوال الفترة من نوفمبر إلى إبريل، تنتشر الأسمال البالية تحت جدرانه، تحميه من رياح الشرق.

"على فكرة المسافة لا تزيد عن نصف ميل من سفح التل، بعد دقائق سنرى ضوء حجرة السفرة حيث تجلس أمك. "

وفى الطريق سألت: "لماذا كان الرجل يحمل فأسًا؟"

أجاب أبى: "اسمعى الآن.. اسمعينى.. هل تسمعينى؟ لم يكن ينوى شراً بهذا الفأس، هى عادته فقط، أن يحمل فأسًا، ولكن لا تتحدثى إلى أحد فى البيت عن الفأس والرجل، ولا تخبرى أمك، ولا

www.ibtesama.com

تخبرى "مارى"، لا تخبرى أيًّا منهما، فربما يخافان من ذلك، أنا وأنت لا نخاف، ولكنهما قد يؤذيهما الرعب، ولا داعى لذلك. "

وبعد برهة قال: "آه.. لن تتحدثى عن ماذا؟"

قلت: "الفأس. "

"ولم تكونى خائفة. . هل كنت خائفة؟"

قلت لأجيب ليس إلا: "لا.. ولكن من الذى يريد أن يحرقه ويحرق فراشه كما يقول؟"

"لا أحد.. وهو كفيل بمعالجة الأمر كما فعل فى السابق.. "

"ومن هم آل سايلاس؟"

"وهم فى وهم. . لا يوجد ناس بهذا الاسم إلا فى خياله.. لا يوجد. "

"شفنا لك عريسًا مارى.. تمنيت لو جاء معنا، عريس ممتاز!"

ردت "مارى ماكويد" باحتداد، وهى تخلع عنى حذائى وجوربى المبتل وقد تخلت عن الرفق: "ظننا أنكما وقعتما فى نهر واواناش. "

"كنا عند "جو فِبِّنْ" الذى يعيش على أرض الحكومة هناك وراء الأدغال. "

هتفت "مارى ماكويد" فيما يشبه الانفجار:

"ياه.. جو فِبِّنْ.. إنه هو الذى أحرق بيته بنفسه.. أعرفه تمام المعرفة. "

"إنه هو.. والآن هو يعيش بدون منزل.. يعيش فى حفرة فى الأرض.. ستنالين الدفء الذى ينعم به فأر الأرض يا مارى.. تزوجيه. "

www.ibtesama.com

"أراهن على أنه يعيش فى القاذورات التى يعيش فيها دائمًا."

وأعدت لأبى عشاءه، وأخبرها قصة "جو فِنّْ كلها، وحكاية القبو المسقوف، وألواح الخشب التى تغطى أرضيته القذرة ، ولم يحدثها عن الفأس، ولم ينس أن يحدثها عن القط الذى يشرب الويسكى، بالنسبة لمارى كان ذلك يكفى وزيادة.

"الرجل الذى يقوم بمثل هذه الأشياء ليس له إلا السجن. "

رد أبى:

"صح.. ربما.. هو الآن كبر جدًا فى السن، أصبح"جو العجوز. "

"تناولى العشاء، " قالت مارى وهى تتجه ناحيتى بانحناء خفيف. أدركت فى تلك اللحظة أنى لا أخشاها، لم أعد أخاف من مارى. قالت: "انظر إليها، عيناها تكاد تقعان من محجريهما من كثرة ما رأت، وما مشت، هل كان يجرب فيها الويسكى أيضًا؟"

"لا.. ولا نقطة. "

هتف أبى، وهو يتأمل المائدة التى أجلس عليها، يتأملنى وأنا أشبه الأطفال الذين نقرأ عنهم فى القصص الخرافية، الذين يرون أباءهم يدخلون فى أحلاف مع ناس يعانقون الخطر، الذين أدركوا أن مخاوفنا لا تتكئ إلا على الحقيقة، ولكنهم يعودون من مهارب عجيبة بنشاط جديد، ويتناولون سكاكينهم وشوكهم، بأدب جم يشى بتربية راقية، يحدوهم الأمل فى العيش السعيد بعد ذلك - ذاهلة أصبحت مثلهم، مثقلة بالأسرار، لم أنبس ببنت شفة، مغتبطة بسرى.

www.ibtesama.com

حب امرأة طيبة

منذ عشرين عاماً أُقِيم متحف فى مدينة "والاى" خصيصًا لحفظ مجموعة من الصور الفوتوغرافية وخضاضات لبن وسروج خيل بل وأطقم خيل كاملة ومقعد قديم كان ملكاً لطبيب آسنان، وقشارة تفاح قديمة متهالكة، وأوانى خفيفة من الخزف الصينى وقطع من الزجاج العازل من النوع الذى كان يُستخدم فى أعمدة التلغراف.

احتوى المتحف أيضًا على صندوق أحمر يحتوى على رسائل عليها اسمالسيد دى. إم. ولنز النَظَّارَاتى. وعثر على ورقة كُتِبت عليها هذه العبارة:

يحتوى هذا الصندوق على الأدوات التى كانت ملكًا لنظّاراتى، ورغم عدم إيغالها فى القدم فإن لها أهمية محلية بالغة؛ إذ إنها تنتمى للسيد "دى. إم. ولنز" الذى قضى غرقاً فى نهر بيرجرين عام

www.ibtesama.com

(١٩٥١). لقد نجى الصندوق من الكارثة إذ عثر عليه رجل قال إنه فاعل خير وسلمه لنا ليكون أحد علامات ما اقتنيناه فى متحفنا.

يذكرك جهاز فحص العين بالإنسان الثلجى، خاصة الجزء العلوى منه - وهو الجزء المثبت على القضيب المجوف. قرص كبير وقرص آخر أصغر منه على قمة الجهاز. فى القرص الأكبر يوجد ثقب كان الرجل يستخدمه للتطلع من خلاله على العيون بينما كانت العدسات المختلفة تتحرك. كانت اليد ثقيلة لأن البطاريات كانت مثبته عليه هناك. فإذا نزعت البطاريات واكتفيت بالقضيب المجوف، مع القرص على أى من النهايتين، يمكن أن تصله بسلك كهربائى، ولكن قد تتطلب الضرورة استخدام الجهاز فى أماكن لا تتوفر فيها الكهرباء.

أما المنظار الذى كان السيد "ولنز" يستخدمه لفحص الشبكية فقد كان أكثر تعقيداً. تحت مقدمته المستديرة شىء يشبه رأس الجنى الصغير، ووجه منبسط مستدير، ورأس معدنى مستدق. تم تثبيت هذا الجزء على عمود نحيف بزاوية (٤٥) درجة، يخرج من قمة العمود ضوء نحيف يلمع فى الظلام. وجه مصنوع من الزجاج الذى تُصنع منه نوع من المرايا الغامقة.

كل ذلك فى اللون الأسود، ولكنه طلاء ليس غير. ففى بعض الأماكن التى كان السيد "ولنز" يضع يده عليها باستمرار يختفى الطلاء، وقد ترى رقعة من المعدن الفضى المتألق.

www.ibtesama.com

١. جتلاند

كان هذا المكان يسمى "جتلاند". هنا كانت توجد طاحونة وبعض المنازل القليلة الصغيرة، ولكن كل ذلك اختفى مع نهاية القرن التاسع عشر، ولم يعد المكان كما كان أبدًا، بل لم تصبح له أهمية تُذكر بعد ذلك. يعتقد كثيرٌ من الناس أنه سُمى باسم المعركة البحرية الشهيرة التى وقعت أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن الواقع أن كل شىء ابتُلى بالدمار حتى قبل أن تقع هذه المعركة بوقت طويل.

كان الصبية الثلاثة الذين خرجوا من بيوتهم صباح ذلك السبت فى وقت مبكر من ربيع عام (١٩٥١) يعتقدون، شأنهم شأن سائر الصبية، أن اسم المكان يعود إلى كثرة ألواح الخشب الضخمة التى كانت تشغل المكان، والتى كانت تكثر على ضفة النهر، ومن ألواح الخشب الضخمة التى كانت تنتشر على مقربة من المياه على هيئة سياج خشبى طويل. (فى الواقع كانت تلك بقايا سد تم بناءه قبل اختراع الأسمنت.) تلك الألواح الخشبية بالإضافة إلى كمية كبيرة من الأحجار التى تُوضع فى الأساسات، وعدد كبير من أشجار الليلاك الصغيرة، وبعض أشجار التفاح الضخمة التى شوهتها كومة سوداء من أوراق الشجر، والحفرة الضحلة لقناة الطاحونة التى تمتلئ بنباتات الشوك فى كل صيف، العلامات الأخرى الباقية، والشاهدة على ما كان هناك من آثار.

www.ibtesama.com

كانت توجد طريق أيضًا، أو قل مدق ترابي لم يُفرش بالحصى كسائر الطرق، لا يظهر على خرائط المدينة إلا كخط نحيف. لم يكنالطريق يُستخدم إلا في الصيف من قبل قليل من الناس الذين يقصدون إلى النهر للسباحة، أو ليلاً من قبَل العشاق بحثًا عن مكان لوقوف سياراتهم. يصادف السائر الدوران قبل أن يصل إلى بركة الطاحونة، ولكن المنطقة كلها كانت مزدحمة بنباتات الشوك والجزر الأبيض ونباتات الشوكران البري حين يحل الشتاء حتى إن السيارات تضطر إلى الوقوف بعيداً عن الطريق الرئيس.

كان من اليسير التعرف على مسالك السيارات المفضية إلى شاطئ النهر في صباح ذلك الربيع، ولكن الأولاد الثلاثة لم ينتبهوا إلى هذه المسالك، فقد تركز تفكيرهم كله في السباحة في مياه النهر، أو ما يريدون أن يطلقوا عليه سباحة. كانوا يريدون أن ينطلقوا إلى بيوتهم وذويهم بعد ذلك تيهًا بأنهم كانوا يسبحون في النهر قبل أن تغمر الثلوج الطرقات المفضية إليه.

كان الجو أكثر برودة حول النهر مما هو عليه في تلك الشقق المجاورة. لم تبدأ الأشجار طرح أوراقها على ضفتيه استجابة لأوامر الخريف - لا تصادف الأوراق الخضراء إلا إذا كانت أوراق الكرات المنتشرة على سطح التربة، أو نبات القطيفة المنتشر على بقع الماء الساكن طازجة كأوراق السبانخ الخضراء، ومبعثرة على ضفاف القنوات الصغيرة المتجهة نحو النهر. وعلى الضفة الأخرى وتحت أشجار الأرز رأوا ما كانوا في الواقع يبحثون عنه - ضفة الثلج الصلبة الطويلة، رمادية في لون الأحجار.

www.ibtesama.com

وقرروا القفز وقفزوا فى المياه التى استقبلتهم بوخز البرد على أجسامهم بما يشبه طعنات الخناجر الثلجية. خناجر ثلجية تنطلق فتصيب عيونهم وتطعن قمم رؤوسهم فتكاد تنفذ إلى ما فى داخلها. راحوا يحركون أيديهم وأرجلهم أكثر من مرة، ويتراجعون إلى الخارج وقد ارتجفت أجسامهم واصطكت أسنانهم. ثم يدخلون سيقانهم المتجمدة من البرد فى ملابسهم فيشعرون بعد ذلك بأجسامهم وقد عادت إليهم بعد عودة الدماء التى هربت خوفاً من البرد. أو ربما لأنهم أيقنوا من قدرتهم على التباهى أمام الأقران بأنهم سبحوا اليوم فى النهر.

تمتلئ بركة الطاحونة بآثار العربات التى نمت حولها الآن نباتات جديدة إضافة إلى نباتات العام المنصرم. وطئت أقدام الصبية الثلاثة أرض الحفرة نحو النهر غير عابئين. فى تلك الأثناء أوغلوا فى المياه مسافة كافية جعلتهم يلحظون شيئًا، لفت انتباههم شيءٌ غريبٌ لا يمت بصلة لآثار عربات أو شيء من هذا القبيل.

شهدوا لمعان شيءٍ لم يكن له صلة بانعكاس صورة السماء على صفحة المياه. سيارة كاملة استقرت هناك على جسم صلب منحدر، إطاراتها الأمامية ومقدمتها كلها متجهة نحو القاع، مستقرة فى الوحل، بينما اتجه "الشكمان" إلى أعلى حتى ظهر منه جزءٌ ضئيل يكاد يلامس الهواء. لم يكن اللون الأزرق الفاتح هو اللون السائد للسيارات فى تلك الأيام، والشكل المنتفخ لم يكن هو الموضة أيضاً. عرف الأولاد ماركتها على الفور، السيارة الإنجليزية الصغيرة التى كان اسمها "أوستن"، سيارة نادرة لا توجد سيارة تشبهها فى البلد

www.ibtesama.com

كله. السيارة ملك السيد ولنز النَظَّاراتى. عندما كان يقودها كان يبدو كأنه شخصية كاركاتورية؛ فقد كان قصير القامة، مكتنز الجسم، عظيم المنكبين، عريض الجبهة، ضخم الرأس. كان يُحشر فى سيارته الصغيرة حشراً، فيبدو أشبه بحقيبة ملِئت بالملابس وعلى وشك الانفجار.

السيارة لها سقف من النوع الذى يُفتح ويُغلق، كان السيد ولنز يفتحه فى الطقس الحار. وهو مفتوح الآن. لم يتمكنوا من رؤية ما بداخل السيارة، لون السيارة جعل شكلها فى المياه أقرب إلى اللون الأبيض، ولكن المياه نفسها لم تكن بالصفاء المطلوب لرؤية الأشياء، خاصة الأشياء ذات الألوان الغامقة. جثم الأولاد على الضفة، أو جلسوا القرفصاء، ثم ابنطحوا على بطونهم وتطلعوا بوجوههم إلى القاع يريدون التأكد مما يرون. رأوا شيئًا داكنًا تكسوه طبقة من الفراء، شيئًا أشبه بذيل كبير لحيوان، يندفع من فوهة السقف ويتحرك حركة خفيفة فى المياه. باختصار: هو ذراع إنسان، يعلوه كُم جاكت أسود من قماش صوفى ثقيل. وواضح أن العربة داخلها جثة رجل: من المؤكد أنها جثة السيد ولنز وقد اتخذت تحت المياه وضعًا غريبًا. قوة المياه، فحتى المياه القليلة فى برك الطواحين كان لها قوة فى تلك الأيام فما بالك بمياه النهر، قوة المياه هى التى دفعت بالجسد الميت بعيداً عن المقعد، فاقترب أحد كتفيه من سقف السيارة، وانطلقت إحدى ذراعيه حرة فى المياه، بينما اندفع رأسه ناحية نافذة السائق الأمامية كأنه قد حُشِر. أحد الإطارين الأماميين كان يلتصق بطين قاع النهر التصاقًا شديداً أكثر من الآخر، ما

www.ibtesama.com

يعنى أن السيارة سقطت فى النهر من منحدر فانقلبت مرة على جانبيها ومرة على مقدمتها أكثر من مرة. ولابد أن النافذة كانت مفتوحة مما جعل الرأس تلتصق بها ويأخذ الجسد كله هذا الوضع الغريب. ولكنهم لم يروا كل ذلك. استطاعوا رؤية وجه السيد ولنز لأنهم كانوا يعرفونه، وجه مربع كبير، تعلوه تقطيبة متكلفة لا تشى بشر أو هيبة. كان شعره المتجعد أقرب إلى اللون الأحمر أو النحاسى خاصة على قمته، كان يُمَشِّطه بميل خفيف على جبهته. وكان حاجباه أكثر قتامة من شعره، حاجبان كثيفان يكتنفهما شعر خفيف كأنه الزغب، أو كأن يرقة استقرت فوق عينيه.

كان الوجه غريبًا فى نظرهم، كانت وجوه الأجيال القديمة كلها غريبة فى نظرهم، ولم يتملكهم الخوف من رؤية الغريق. كل ما رأوه هو ذلك الذراع الناتئ، وتلك اليد الشاحبة. كان فى مقدورهم رؤية اليد بوضوح فى اللحظة التى استقروا فيها فى المياه. هنالك ظهرت من المياه ترتج ارتجاجًا خفيفًا، كأنها ريشة فى الهواء، رغم أنها تبدو متماسكة صلبة كعجين الخبز، لا تنبئ بشىء خارج المألوف. وكانت أظافر يده أشبه بالوجوه الصغيرة الأنيقة، بقدرتها الماضية على الترحيب، وشكلها البرىء بعد الموت.

"ابن العاهرة، " قال هؤلاء الفتية وهم يستجمعون طاقاتهم، تدل نبرات أصواتهم على توقير عميق للرجل، أو على امتنان. "ابن العاهرة. "

كانت تلك هى المرة الأولى التى يخرجون فى ذلك العام. مضوا عبر الجسر المبنى على نهر بيرجرين، ذلك الجسر الواسع ذو الاتجاه

www.ibtesama.com

الواحد المعروف فى المنطقة باسم "بوابة جهنم"، أو "شرك الموت"، رغم أن مكمن الخطر ليس فى الجسر نفسه؛ وإنما فى المنعطف الحاد على الطريق المفضى إليه عند الطرف القبلى.

وعلى الجسر كنت تجد طريقًا ضيقًا مخصصًا للمشاه، ولكنهم لم يستخدموه، لم يتذكروه من الأصل. ربما كانوا يعرفونه عندما كانوا صغارًا يتعلقون بأيدى الآباء والأمهات، ولكنهم لم يتذكروه، ورفضوا التعرف عليه حتى بعد أن سمعوا عما ينطوى عليه من خطر كبير.

هم يمشون الآن بمحاذاة الطبقة الحديدية المسطحة على الجانب الآخر من الطريق الضيق، باتساع ثمانى بوصات، واثنتى عشرة بوصة فوق سطح الجسر. كان نهر بيرجرين يندفع بنصيبه من ثلج الشتاء وبرده، حتى يصل الثلج – وقد ذاب –إلى بحيرة هيورن. لم يبق منه إلا القدر القليل الذى يعلق على الضفتين، بعد الفيضان السنوى الذى يحول المساحات العاطلة من المياه إلى بحيرة، ويجندل الأشجار الصغيرة، ويسحق القوارب والأكواخ التى يتصادف أن تكون فى طريقه. وعند موضع انحدار المياه من ناحية الغيطان التى ترفد المياه بالطين، وضوء الشمس الشاحب على صفحتها، كان الماء يبدو أشبه بحلوى الزبد الاسكتلندى وهى تغلى. ولكن إن أنت سقطت فيه، فسوف يتجمد دمك، ويدفع بك إلى البحيرة دفعًا شديدًا، هذا إذا نجوت من التصادم فى الأعمدة القائمة.

انطلقت على إثرهم أبواق السيارات – تحذيرًا أو زجرًا – ولكنهم لم ينتبهوا. مضوا كلٌ وراء الآخر فى طابور واحد، رابطى الجأش كالسائرين نيامًا. وعلى الجهة البحرية من الجسر، انطلقوا إلى

www.ibtesama.com

المسطحات، يلتمسون الطرق التى تذكروها من العام المنصرم. لم يكن من اليسير المشى فى تلك المدقات، لحداثة عهدها بالفيضان. فإذا أردت أن تمشى فى تلك المدقات، ما عليك إلا أن تشق طريقك خلال خمائل وطيئة، وتقفز بين آكام ملطخة بالطين. أحياناً كانوا يقفزون دون اهتمام، ويستقرون فى الطين، أو فى الأحواض التى خلفنها مياه الفيضان، وعندما كانت تغوص أرجلهم فى المياه، كانوا لا يعبأون أين هم. كانوا يخوضون فى الطين ويتبادلون رش المياه حتى كانت المياه تصل إلى أحذيتهم المطاطية. كانت الرياح دافئة، وكانت تنطلق إلى أعلى فتفجأ السحب التى تتحول إلى ما يشبه خيوط الصوف القديم، وكانت طيور النورس والغربان تشتبك فى عراك ثقيل، ثم تنطلق فوق النهر. وكانت الصقور تدور فوق الجميع على مد البصر، وكانت طيور أبو الحناء قد عادت لتوها، والشحارير ذوات الأجنحة الحمراء تنطلق كل زوجين اثنين كالأسهم القادمة من السماء، تلمع كالشهب أمام العيون، كأنها غاصت فى ألوان شتى قبل الانطلاق إلى الفضاء.

"الألعاب النارية."

"الألعاب النارية.

كانوا أكبر من اللعب بالألعاب النارية، وإحداث الأصوات الصبيانية.

كانوا يتحدثون بشىء من الندم الطارئ، كأن البنادق متاحة رهن إشارة عنهم.

صعدوا إلى الضفاف البحرية إلى مكان تكثر فيه الرمال العارية،

www.ibtesama.com

وتكثر فيه السلاحف التى يُفترض أنها تضع بيضها فى الرمال، لا يزال الوقت أبكر من أن تضع السلاحف بيضها، والحق أن قصة السلاحف التى تضع بيضها تعود إلى زمن طويل - فلم يتسن لأى من هؤلاء الصبية رؤية أية سلاحف تضع بيضًا. ولكنهم راحوا يركلون الرمال ويسحقونها بأرجلهم، فربما يجدون سلاحف تضع بيضًا. ثم راحوا يبحثون عن المكان الذى وجد فيه أحدهم - فى صحبة آخر منهم - هيكلاً عظميًّا لبقرة، جرفه الفيضان من كومة كبيرة كانت فى مسلخ. كان معروفًا أن النهر كل عام يجرف أشياء كثيرة فى طريقه، ويدفع بها إلى الزوايا والأركان، أشياء مدهشة وثقيلة أو غريبة أو معروفة أو قبيحة. لفات سلك، طقم سلالم سليم، مجرفة مطوية، غلاية ذرة. وُجد الهيكل العظمى عالقًا على غصن من أغصان شجرة السماق بدا سليمًا؛ لأن جميع الأغصان الملساء كانت أشبه بقرون الأبقار أو الغزلان أو قرن الوعل، وبعضها له أطراف مخروطية صدئة.

راحوا يبحثون بارجلهم وأيديهم - "سِسى فرنز" أشار لهما إلى الغصن، ولكنهما لم يجدا شيئًا.

إن "سِسى فرنز" و"رالف دِلر" هما اللذان اكتشفا ذلك، وعندما سُئِلا أين المكان فى الوقت الحاضر قال "سِسى فرنز": "أخذه رالف." وأما الصبيان اللذان كانا معه اليوم - "جِمى بوكس" و"بض سولتر" - فقد عرفا لماذا حدث ذلك. لا يستطيع "سِسى فرنز" أخذ شىء إلى بيتهم إلا إذا كان فى حجم يمكن إخفاءه عن عينى الأب. تحدثوا عن اكتشافات أكثر نفعًا يمكن أن تحدث، أو حدثت فى

www.ibtesama.com

الأعوام المنصرمة. أسلاك السور يمكن أن تُستخدم فى بناء معدية، وقطع الخشب الضالة يمكن جمعها لبناء كوخ أو قارب. الحظ الحقيقى هو الحصول على بعض مصائد فئران المسك المفكوكة، بعدها تصبح من أصحاب المهن. وتستطيع أن تجمع مزيداً من الخشب المنشور تنفع فى عمل طاولات، ثم يتم سرقة السكاكين لاستخدامها فى عمليات السلخ. إنهم يتحدثون عن المكث فى كوخ فارغ يعرفونه فى المدق المظلم وراء مكان يُستخدم معلفاً للخيل، عليه قفل، ولكنك تستطيع أن تدخل إليه من خلال النافذة، لتُخرج الطاولات فى الليل ويستبدل بها غيرها فى الفجر. تستطيع تأخذ مصباحاً يدوياً لتعمل على ضوئه. لا - فانوس. كان يمكن أن تسلخ فئران المسك، وتبسط الجلود وتبيعها لقاء مبالغ كبيرة. وقد تخيلوا أن المشروع يمكن أن يتحقق بالنسبة لهم لدرجة أنهم تناقشوا فى ضرورة ترك الجلود ذات القيمة الكبيرة فى الزريبة طوال اليوم، ويمكن أن يقف أحدهم ليراقب بينما يمضى الآخران إلى المصايد.

(لم يأتِ على لسانهم ذكر المدرسة.)

هكذا كانوا يمشون حين وصلوا إلى المدينة الصغيرة، كانوا يتحدثون كأنهم مواطنون أحرار، أو كأنهم لا يذهبون إلى المدرسة، أو لا يعيشون مع عائلات، أو لا يعانون من أية معاملات مهينة بسبب أعمارهم الصغيرة، وكأن سكان الريف، ومؤسسات الشعب الأخرى يمكن أن تزودهم بكل ما يريدونه للقيام بمهامهم ومغامراتهم، ولا يتعرضون لأية مخاطر أو يبذلون جهداً من جانبهم.

هناك تغيير طرأ على حوارهم فيما بينهم، وهو أنهم توقفوا عن

www.ibtesama.com

استخدام الأسماء فى خطابهم؛ لم يستخدموا أسماءهم الحقيقية فى الحديث فيما بينهم، أو لم يستخدموها كثيرًا فى حديثهم فيما بينهم، ولا حتى الكُنيات والألقاب مثل "بض". ولكن فى المدرسة كان لهم أسماء أخرى، بعض هذه الأسماء لها علاقة بالشكل أو طريقة الحديث، أسماء مثل: "جاحظ"، أو "جابر"، وبعض أسماء أخرى مثل: "قرحة الحمار"، أو "نائك الفراخ"، لها علاقة بحوادث معينة حقيقية أو مختلقة حدثت فى حياة صاحب اللقب، أو فى حياة إخوانهم وآبائهم أو أعمامهم أو أخوالهم (وبعضها أسماء ورثوها منذ عقود). تلك كانت الأسماء التى انطلقوا بها يتنادون عندما كانوا فى الأجمة، أو على ضفاف النهر. وكان الواحد منهم إذا أراد أن يلفت انتباه الآخر، كان يقول: "هيييى. " حتى استخدام الأسماء الشائنة والفاحشة، والتى لم يسمع عنها البالغون، قد تفسد عليهم شعورًا كان ينتابهم فى تلك اللحظات، بأن شكل الواحد منهم، وأسرته، وتاريخه الشخصى كلها أشياء بديهية لا ينبغى أن يُلامون عليها.

ولكنهم لا يتنادون كأصدقاء؛ فالعلاقة فيما بينهم لا ترقى إلى مستوى الصداقة الحميمة، فلم نجد بينهم من يزعم أن الآخر من أعز أصدقائه، أو حتى أقرب أصدقائه، أو يربتون على ظهور بعضهم كما يفعل الناس، أو كما تفعل البنات تعبيرًا عن الصداقة الحميمة. يترافقون بالعشرات، صبية أعمارهم واحدة، وتُستبدل الصداقات فى لحظات، وكان يمكن أن يكون الثلاثة غير هؤلاء، ويفعلون ما يفعله هؤلاء الثلاثة. أغلبهم ما بين التاسعة والثانية عشرة، أكبر من أن يخافوا من البعد عن بيوتهم، وأصغر من أن يحصلوا على وظائف:

www.ibtesama.com

حتى وظائف تنظيف الأرصفة أمام المحلات، أو توصيل الخضروات بالدراجات. أغلبهم يعيش فى الطرف الشمالى من المدينة الصغيرة، ما يعنى أنهم قد يستطيعون الحصول على وظائف من هذا النوع عندما يكبرون قليلاً، وأن أحداً منهم لن يذهب إلى مدرسة "أبلبى" الثانوية فى أونتيريو، أو كلية الدراسات العليا فى كندا. ولا يعيش أىٌ منهم فى كوخ أو لديه قريب فى السجن. أيضاً هناك اختلافات فيما يتصل بكيف يعيشون فى بيوتهم، وما المتوقع منهم فى الحياة. ولكن تلك الاختلافات سقطت طالما كانوا بعيداً عن الأنظار عن سجن المقاطعة ومخزن الحبوب وأبراج الكنيسة وبعيداً عن مدى وقع أنغام ساعة المحكمة.

فى طريق العودة أسرعوا الخطا، وأحياناً كانوا يهرولون، ولكنهم لا يجرون. تخلوا الآن عن القفز والتوانى والعبث وتبادل اللمس، وتخلوا عن إحداث الضوضاء التى كانوا يحدثونها بعد أن خرجوا من بيوتهم، الصياح المستهزئ، والنباح الأشبه بنباح الكلاب، توقفوا عن ذلك كله. كل ما جرفته الرياح من الفيضان رأوه ولكنهم مروا به مرور الكرام، دون أن يأخذوا منه شيئاً. لقد مضوا فى طريقهم كما يمضى الكبار، بإيقاع رزين، وعلى الطرق المخصصة للمشى، مثقلين بهم ما رأوا فى النهر، ومن يخبرون، وبما يفعلون فى اللحظات القادمة. هناك شىء وقف فى طريقهم، صورة هيمنت على عقولهم كلها، وأصبحت حاجزاً بينهم وبين العالم. البركة واليد والذراع. كانوا يقدرون أنهم حينما يصلون إلى مكان آمن سيبدؤون فى الصياح، سيدخلون المدينة وهم يصرخون، ويلوحون بأخبارهم،

www.ibtesama.com

وينشرونها فى كل مكان يصلون إليه، والناس سوف يسمعونها صاغرين وصامتين صمت القبور، كأن المفاجأة هى التى أسكتتهم.

عبروا الجسر كما كانوا يعبرونه فى كل مرة، على الإفريز. ولكن الإحساس بالمخاطرة أو الشجاعة أو اللامبالاة. وقد يعمدون أيضًا إلى المشى على الممر الممهد.

وبدلاً من السير فى الطريق ذى الانعطافة الحادة، الذى تستطيع منه أن تصل إلى الميناء والميدان كليهما، اتجهوا مباشرة إلى الضفة من خلال طريق ظهرت من خلال سقائف السكة الحديد. وتناهى إلى أسماعهم أنغام دقات الساعة. دقت الساعة الثانية عشرة وربع.

إنه الوقت الذى كان الناس يذهبون فيه إلى بيوتهم لتناول الغداء، القادمون من المكاتب الحكومية لديهم ساعة يُسمح لهم فيها بتناول الغداء، ولكن الذين يعملون فى المحلات الكبرى يأكلون هناك فى المحلات؛ فالمحلات تظل مفتوحة حتى العاشرة أو الحادية عشرة أيام السبت.

أغلب الناس يذهبون إلى البيوت طلبًا لوجبة ساخنة مشبعة، لحم بالخضار أو سجق أو لحم مسلوق أو رقائق اللحم. البطاطس واقع لا مفر منه، مهروسة ومقلية؛والخضروات المحفوظة من الشتاء المنصرم، أو الملفوف أو شربة البصل بالكريمة. (قليل من ربات البيوت، سواء الغنيات أو اللامباليات قد يفتحن صفيحة مليئة بالفول أو الزبد.) الخبز، الرقاق، المخللات، الفطائر. حتى أولئك الذين لم يمتلكوا بيوتًا يذهبون إليها، أو الذين - لسبب أو لآخر - ليس لديهم الرغبة فى الذهاب إلى بيوتهم، قد يجلسون لتناول الطعام نفسه فى مطعم دوق

www.ibtesama.com

كمبرلاند، أو فندق التجار، أو سعياً إلى الوجبات السريعة فى حانة "شرفيل".

أغلب الذين يمشون إلى بيوتهم من الرجال، فالنساء يقَرْن فى بيوتهن من الأساس، طوال الوقت. ولكن بعض النساء من اللائى اكتهلن، أو اللائى يعملن فى المحلات أو المكاتب الحكومية لأسباب لا تتعلق بهن: زوج ميت، زوج مريض، عنوسة، كن صديقات لأمهات الصبية، وكن يتبادلن التحايا حتى فى الشارع (وهو أسوأ شىء يعانى منه "بض سولتر"، الذى يسميه زملاؤه "بضى") بطريقة ساخرة أحياناً، وفيها دعابة أحياناً أخرى، وقد تشى بمعلومات عن الأسرة لا يجوز إفشاؤها.

لا يهتم الرجال بتحية الصبية بالاسم، حتى لو كانوا يعرفونهم حق المعرفة. كانوا يسمونهم "الأولاد"، أو "الأخوة الشباب"، أو أحياناً "السادة".

"طاب يومك يا سيد."

"يا أولاد هل أنتم ذاهبون إلى البيت مباشرة الآن."

"ماذا بالله تفعلون فى هذه الساعة المبكرة من الصباح الآن يا أولاد؟"

كلها تحايا فيها درجات قلت أو كثرت من المزاح، ولكن توجد اختلافات. فالذين يقولون للصبية: "الأخوة الشباب" هم من الذين يمتازون بالرزانة والتعقل، أو الذين يريدون الظهور بصورة المتعقلين، أكثر تعقلاً من الذين ينادونهم بـ: "الأولاد". فكلمة "الأولاد" يمكن أن تكون علامة على نصح وشيك، أو إهانات محدقة، غامضة أو

www.ibtesama.com

صريحة، وأما عبارة "الأخوة الشباب" فتشى بأن القائل مدرك بأنه كان شابًا مثلهم. وأما الذين يقولون "السادة" فإنهم يكتفون بذلك، ولا يعقبون؛ لأنهم يعرفون أنها كلمة مثقلة بالتهكم، والانتقاص، وتظل الطريق مغلقة أمام أى تجريح إضافى؛ لأن الشخص الذى يقول ذلك لا يكون من النوع الذى يقبل المزاح.

ويضطر الأولاد إلى الرد، ولكن دون إمعان النظر فى حقيبة أية سيدة، أو إطالة النظر فى تفاحة آدم عند الرجال، لا يقولون إلا "هولو" بصوت واضح؛ فقد يتعرضون لمزيد من النقد إذا لم يجيبوا، وعند الرد على أية استفسارات يقولون: "نعم سيدى"، أو "لا سيدى"، أو "ولا يهمك سيدى". وحتى فى هذا اليوم كان تبادل الحديث مع الناس مصدر خوف لا يُنكر، واضطراب يظهر عليهم، وكانوا يجيبون بالتحفظ المعتاد.

وفى أحد الأركان اضطروا إلى التفرق، كان "سِسى فرنز" هو الأسرع - كديدنه دائمًا - إلى البيت، فكان أول المتفرقين، قال: "أراكم بعد الغداء".

ولكن "بض سولتر" قال: "يييييه، يجب أن نذهب إلى وسط البلد بعد ذلك."

ومعنى ذلك، المعنى الذى فهموه جميعًا، أنهم سيذهبون إلى قسم الشرطة. فبدا أنهم يخططون لعمل شىء، حتى دون أن يشاور بعضهم بعضًا، يريدون التبليغ عن الخبر ولكن بشىء من التعقل ورباطة الجأش. ومن الواضح أنهم لم يتفقوا على أنهم يريدون أن يتفوهوا بشىء من ذلك فى بيوتهم. لم يكن هناك سببٌ وجيه يدفع

www.ibtesama.com

"بض سولتر" أو "جِمى بوكس" إلى الإحجام عن الحديث بما حدث.

لم يخبر "سِسى فرنز" أحدًا فى بيتهم.

سِسى فيرنز صبى وحيد، كان أبواه أكبر سنًّا من آباء الصبية الآخرين، أو ربما كانوا يبدون كذلك؛ بسبب حياة العجز التى عاشاها معًا. عندما كان سِسى يترك أقرانه كان يركض إلى المنزل؛ ولم يكن ذلك لأنه كان يريد أن يصل أسرع، أو لأنه كان يريد أن ينجز شيئًا مهمًّا، وإنما لأنه كان يريد أنيسرع وكفى، يريد أن يقتل الوقت.

كانت أمه فى المطبخ. ممتاز. على الأقل غادرت السرير ولو أنها لا تزال تضع الإزار. لم يكن أبوه هناك، وهذا شىء ممتاز أيضًا. كان أبوه يعمل فى المركز الرئيسى لتوزيع الغلال، إجازته يوم السبت، تبدأ بعد الظهر، وإذا لم يكن فى البيت الآن فمن المحتمل أنه قد اتجه مباشرة إلى محطة "كمبرلاند"، معنى ذلك أنهم ربما يصلون إلى هناك والليل قد اقترب.

أبو سِسى اسمه سِسى فرنز أيضًا، اسم معروف وشائع جدًا بين الناس فى والاى، وحتى لو افترضنا شخصًا سيحكى حكاية بعد أربعين سنة عن سِسى فرنز، سوف يظنها الناس متصلة بالأب وليس بالابن. وإذا سمع شخصٌ جديد فى البلد حكاية وقال: "هذا لا يبدو أنها متصلة بـ "سِسى"، يردون عليه بقولهم: "يا أخى المقصود ليس هذا السِسى، نحن نقصد أبيه، الرجل."

يتحدثون عن اليوم الذى ذهب فيه "سِسى فرنز" إلى المستشفى - أو أخذوه إلى هناك عندما أُصِيب بالتهاب الرئة، أو مرض خطير

www.ibtesama.com

آخر، وقامت الممرضات بلفه فى فوط مبتلة، أو ملاءآت بهدف خفض درجة الحرارة. خرجت الحرارة منه، وقلت الحمى بعد أن تصبب منه العرق، وتحولت الفوط والملاءآت إلى اللون البنى. طبعًا النيكوتين الذى كان فى جسده. قالت الممرضات إنهن لم يروا حالة تشبه هذه الحالة. وكان "سِسى" سعيداً. زعم أنه كان يدخن، ويشرب منذ أن كان فى العاشرة.

فى ذلك الوقت ذهب إلى الكنيسة، لا يمكن أن نعرف لماذا ذهب إلى الكنيسة، على كل حال هى كنيسة معمدانية، وزوجته من المعمدانيين، وربما ذهب معها، ليرضيها، وحتى ذهابها هى لم يكن معلوم السبب أيضًا. اليوم الذى ذهبا فيه كان يوم أحد، وخدما فى حفل عشاء ربانى، وفى الكنيسة المعمدانية الخبز هو الخبز، ولكن الخمر عصير العنب. هتف "سِسى فرنز" بصوت عالٍ: ما هذا؟ إذا كان هذا هو دم الحَمَل فلابد أنه كان مصابًا بالأنيميا؟"

الاستعدادات لوجبة الغداء كانت على أشدها فى مطبخهم، بيت "سِسى فرنز. " عبارة عن شرائح من الخبز منتشرة على المائدة، وعلبة مفتوحة فيها قطع شمندر مقطعة على هيئة مكعبات، وقليل من النقانق المقلية قبل البيض، رغم أنها المفروض بعد البيض، وبقيت محتفظة ببعض الدفء على أعلى الموقد. والآن بدأت أم "سِسى" فى قلى البيض. كانت منحنية على الموقد، تمسك بآنية قلى البيض بيد، ويدها الأخرى على معدتها، ربما ترويضًا لألم.

تناول "سِسى" صينية البيض من يدها، وأدار الموقد الكهربائى على درجة حرارة أقوى من اللازم، واضطر إلى رفع الصينية قليلاً

www.ibtesama.com

عن النار لتخف الحرارة حتى لا يحترق الجزء الأبيض من البيض، أو حتى لا تحترق الحواف فى الصينية. لم يكن هناك وقتًا لإزالة الدهون القديمة من الصينية، ويثريها بعد ذلك بشيء من السمن الجديد. أمه نفسها لم تكن تزيل الدهون القديمة، تتركها تتراكم من وجبة إلى أخرى، وتضيف بعض السمن كلما اضطرت.

وعندما أصبحت الحرارة على الدرجة المناسبة، وضع الصينية على الموقد وراح يعالج حواف البيض فحولها إلى دوائر منتظمة. تناول ملعقة نظيفة ووضع بعض السمن الحار على البيض ليهدئ من روعه. هو وأمه كانا يحبان البيض الذى يعدّانه بهذه الطريقة، ولكن أمه لم تكن تنجح فى إعداده بالمستوى المطلوب. أبوه كان يحب البيض فى الصينية قطعة واحدة، مقلوبًا ومستويًا أشبه بالفطيرة، وكان يحبه محروقًا أشبه بنعل الجزمة، ومشبعًا بالفلفل الأسود، وكان "سِسى" يستطيع أن يعد البيض بهذه الطريقة أيضًا.

لا يعرف الصبيان الآخران شيئًا عن مهارات "سِسى فرنز" فى المطبخ، مثلما لا يعرفون شيئًا عن المخبأ الذى أعدّه خارج المنزل فى الركن المظلم أمام شباك حجرة السفرة، خلف معرض نباتات الباربرى اليابانية.

كانت أمه تجلس على المقعد بجوار النافذة، بينما كان هو يفرغ من إعداد البيض. كانت تطيل النظر إلى الشارع، والفرصة لا تزال متاحة لأن يأتى أبيه إلى البيت ليصيب من هذا الطعام. وربما لم يتمكن السُكْر منه بعد، وحتى طريقته فى التعامل مع الناس ليس لها صلة بالسُكر. فإذا دخل المطبخ الآن فربما طلب من "سِسى" أن يُعِد

www.ibtesama.com

لـه بعض البيض أيضـًا، وربمـا سـألـه: "وأين المريلة؟" وقد يقول لـه: "أنت سوف تجعل من زوجتك زوجة عظيمة. " هذا إذا كان مزاجه معتدلاً. ولكن عندما لا يكون مزاجه معتدلاً يبدأ فى الحملقة فى "سِسى" بطريقة معينة، يعنى بطريقة مبالغ فيها فى التهديد الأبله، وهو يقول له إنه الأفضل أن ينتبه لنفسه.

ثم يردف: "أنت شخص تافه، ولكنك ذكى، صح؟ كل ما أستطيع أن أقوله لك: انتبه، احترس. "

ثم إذا بادله "سِسى" النظر فى وجهه، وحتى إذا لم يبادله النظر فى وجهه، أو سقطت الصينية من يده على الأرض، أو حتى وضعها على البوتاجاز بعصبية فأحدثت صوتًا، أو حتى إذا استدار قليلاً ليمنع سقوط شىء، أو ليمنع ضوضاءً، يبدأ الأب فى فتح فمه، واستعراض أسنانه، ويزمجر كما تفعل الكلاب. شىء مضحك، مزعج، مثير للسخرية إلا إذا كان جاداً. ولا تمضى دقيقة حتى تكون المائدة معدة: الطعام والأطباق عليها، والمقاعد رُصَّت، وربما رأيناه يمضى فى إثر "سِسى" فى حجرة السفرة وهو يصيح فيه بأنه سيلحق به، ويضع وجهه على الموقد الساخن، ويرى ماذا سيفعل؟ فى تلك الأثناء ربما تتأكد أنه قد جُنْ. ولكن إذا سمع طرقًا على الباب فى تلك اللحظة - إعلانًا بوصول صديق ربما لاصطحابه - فإن وجهه يستعيد وضعه الطبيعى فى الحال، ويفتح الباب، وينادى باسم صاحبه بصوت مرتفع مازح، وهو يقول:

"سأكون معك فى دقائق، كنت أتمنى أن أدعوك ولكن زوجتى - سامحها الله - ترتب الأطباق كعادتها. "

www.ibtesama.com

لم يكن يقصد أن يصدق صاحبه ما يقول، كان يقول ذلك ليحول كل ما يحدث فى البيت إلى دعابة. أم "سِسى" سألته عن الطقس والدفء، وأين كان طوال الصباح. ورد: "يييه.. أتسكع فى شقق الآخرين هههه. "قالت إنها تكاد تعرف أين كان من رائحته. ثم استدارت ناحيته وهى وتقول: "هل تعرف ماذا سأفعل بعد أن نفرغ من الأكل الآن؟ سآخذ زجاجة مليئة بالماء الساخن، وأعود بها إلى الفراش، وربما أعود إلى صحتى السابقة، وأعود إلى سيرتى الأولى.

على العموم هذا ما كانت تقوله دائمًا، ولكن حديثها لم يكن ينتقل من الفكر إلى الممارسة، أفكار تقفز إلى ذهنها، أو قرار لا يتعدى دائرة الأمنيات.

***

"بض سولتر" له أختان أكبر منه سنًا، لا تعملان أى شىء مفيد حتى تأمرهما الأم بعمل شىء. تراهما مشغولتين بتمشيط شعريهما، وتلميع أظافرهما، وتنظيف أحذيتيهما، ووضع "المكياج" على وجهيهما، أو حتى العناية بملابسهما فى حجرة النوم، أو حتى فى الحمام. تتبعثر أمشاطهما وأدوات عقص الشعر الخاصة بهما، وعلب مساحيق الوجه، وتلميع الأظافر، وتلميع الأحذية، فى كل مكان من البيت. أيضًا كانتا تملآن ظهور المقاعد كلها بفساتينهما وبلوزاتهما المكوية، وتنشران سويتراتهما المبتلة على فوط على الفضاءات المتاحة على الأرض (ثم تصرخان فيك إذا مررت بجوارها). ثم إنهما تعسكران أمام مرايا مختلفة الأحجام (مرآة بجوار رف المعاطف،

www.ibtesama.com

ومرآة بجوار صوان السُفرة، ومرآة بجوار باب المطبخ)، وكل مرآة تحتها رف يمتلئ دائمًا بدبابيس الأمان، ودبابيس الشعر، وبنسات، وأزرار، ومجددات رموش. أحيانًا تقف الواحدة منهما أمام المرآة عشرين دقيقة أو نحو ذلك، تتطلع إلى صورتها من كل الزوايا، وتطيل النظر فى أسنانها، وتدفع بشعرها إلى الخلف، ثم تعود به إلى الأمام. ثم قد تمضى مختالة وقد بدت عليها علامات الرضا، أو على الأقل علامات الاستحسان. إلا أن ذلك الرضا لا يدوم إلا بضع دقائق؛ فعندما تصل إلى الحجرة الأخرى، والمرآة التالية تبدأ كل شىء من جديد، كأنها غيرت رأسها، أو كأنها وضعت على عاتقها رأسًا جديدًا.

الآن أخته الكبرى، البنت التى يُفترض أنها الحلوة، تنزع الدبابيس من شعرها أمام مرآة المطبخ. تغشى وجهها كله خصلات تلمع أشبه بالقواقع. وأما أخته الثانية، وبأوامر من أمه، فقد كان تهرس بطاطس. وأما أخوه ذو السنوات الخمس، فقد كان يجلس فى مكان ما إلى المائدة يضرب عليها بالشوكة والسكين ضربًا شديدًا وهو يصرخ، "خدمات.. خدمات.. أى خدمة.. أى خدمة. "

اكتسب هذا السلوك من الوالد، الذى كان يأتيه على سبيل الدعابة ليس إلا.

مر "بض" أمام مقعد أخيه وقال له بهدوء: "انظر. إنها تضع "كُتَلاً" على البطاطس المهروسة مرة أخرى. "

لقد أقنع أخيه الأصغر بأن "الكُتَل" شىءٌ يُضاف مثل الزبيب الذى يُضاف إلى الأرز باللبن، تأخذه الأم من علبة فى الدولاب. وتوقف

www.ibtesama.com

أخوه عن الغناء، وشرع يشكو: "لن أذوقها، لن آكل البطاطس المهروسة إذا أضفتم إليها "الكُتَل". ماما.. لن آكلها إذا أضفتم إليها "الكُتَلْ". وقالت له الأم:

"يا أخى لا تكن غبيًّا، ثم لا تبكى كما يفعل الرُضَّع."

كانت تقلى شرائح التفاح، وحلقات البصل مع قطع لحم الخنزير.

قالت الأخت الكبرى: "أمى.. "بض" هو الذى حرضه، "بض" هو الذى ذهب إليه وقال له إنها تضع "كتلاً" على البطاطس، و"بض" هو الذى يقول له ذلك دائمًا، وهو لا يعرف ما هى الكُتَل. وأما الأخت "دوريس" التى كانت تهرس البطاطس فقالت: "إن "بض" يستحق قطع رأسه." ولم تكن تقول مثل هذا الكلام عبثًا- فقد ضربت "بض" ذات يوم وأحدثت فى وجهه ندبة استقرت على خده.

ومضى "بض" إلى رف الأطباق، وتناول فطيرة راوند بعد أن بردت. تناول شوكة وشرع يأكل منها بشىء من الحرص، وهو يتفحصها دون أن يبدو هذا الحرص على وجهه، يلامس أنفه بخارها اللذيذ، ورائحة القرفة المرهفة. كان يحاول فتح الفقاعات على صفحتها مستمتعًا بطعم الشبع. ورآه أخوه ولكن الخوف منعه من الكلام. أخوه هذا مدلل، ويجد دائمًا من يدافع عنه من أخوته البنات، كان "بض" هو الشخص الوحيد الذى يحترمه فى هذا البيت.

ولكن الأخ راح يهتف مرة أخرى بالعبارة الأولى بنبرة المستغرق فى التفكير هذه المرة: "من يريد خدمات.. من يريد خدمات؟"

www.ibtesama.com

مضت "دوريس" إلى دولاب الأطباق لتتناول صينية تضع عليها البطاطس المهروسة، ولاحت من "بض" حركة غير محسوبة فغاصت قشرة البطاطس إلى أسفل، فهتفت "دوريس":

"لقد خرّب الفطيرة، ماما.. لقد خرّب فطريتك." فقال "بض":

"امسك لسانك الفالت."

وقالت الأم بقسوة محسوبة لا يشوبها الإرهاب: "اترك هذه الفطيرة وشأنها، وتوقف عن حلف الإيمان، وتوقف عن الرغى والثرثرة، وانهض."

جلس "جِمى بوكس" يتناول الغداء على مائدة مزدحمة بالآكلين. كان هو وأبوه وأمه وأختاه - الأولى فى الرابعة من عمرها، والثانية فى السادسة - يعيشون فى بيت جدتهم لأمهم، مع جدتهم، و"مارى" خالة أبيهم، وعمهم الأعزب. أبوهم يعمل "عجلاتى"؛ عنده محل لإصلاح الدراجات فى سقيفة خلف البيت، وكانت أمه تعمل فى "مول" هونكر.

"جِمى" أبوه مشلول - شلل أطفال ألم به عندما كان فى الثانية والعشرين. وكان يمشى وقد أحنى جسمه من عند الوركين، يستعين بعكاز. لم يكن يظهر عليه عندما كان يعمل فى المحل؛ لأن مثل هذا العمل كان يعنى الانحناء فى جميع الأحوال. ولكن عندما تراه راجلاً فى الشارع كان يبدو غريباً حقاً، ولكن أحداً لم يكن يشتمه أو يقلده، أو يسخر منه. لقد كان ذات يوم من أبطال لعبة الهوكى والبيسبول فى المدينة كلها، ولا تزال تتألق على محياه أمارات الشجاعة

www.ibtesama.com

والرشاقة، يتأمل حاضره فى تؤدة الباحث: كأنها جولة انتقالية فى حياته، فهل يعلم أنها الأخيرة؟ كان يعين هذا الاقتناع بجملة من القفشات الضاحكة المثيرة، التى ينطقها فى نبرة مفعمة بالتفاؤل، منكراً الألم الذى يظهر على عينيه الغائرتين، والتى تضطره إلى اليقظة الليالى الطوال. وعلى النقيض من أبى "سِسى فيرنز"، لم يكن يغير من نبرة صوته عندما كان يدخل البيت.

الواقع أن البيت لم يكن بيته، فقد تزوج بعد إصابته بالشلل، رغم أنها خُطِبت له قبل هذه الإصابة، وبدا أن التصرف الطبيعى هو أن ينتقل هو إلى بيت حماته، حتى تتمكن الأم من العناية بأية أطفال فى المستقبل بينما تكون الزوجة مشغولة فى وظيفتها، وهو الأمر الطبيعى بالنسبة لأم الزوجة أيضاً؛ العيش بين أفراد أسرة جديدة، ويبدو أيضاً طبيعياً أن أختها "مارى" يجب أن تنتقل إلى هذا البيت مع سائر أفراد الأسرة عندما فقدت بصرها، وأن ابنها "فرد" الذى كان خجولاً إلى حد المرض، يجب أن يواصل حياته فى البلد حتى يجد مكاناً أفضل. عائلة قبلت أقدارها دون أن تعترض، كما يقبل الناس الطقس. الحق يُقال لم يكن أحدٌ يتحدث عن شلل أبى "جِمى"، أو فقدان الخالة "مارى" لبصرها، بوصفهما من الأعباء أو من المشكلات، أكثر من الحديث عن خجل "فرد". أفراد هذه الأسرة لا يفرقون بين معوقات الحياة وابتلاءاتها وسلبياتها، وبين إيجابياتها ووجوه خيرها.

شاع اعتقاد راسخ بين أفراد الأسرة بأن جِدة "جِمى" كانت طباخة ماهرة، وربما كان ذلك صحيحاً فى وقت من الأوقات، ولكن

www.ibtesama.com

فى السنوات الأخيرة انهارت قواها، وفقدت مهارتها فى الطبخ، أو جزءًا كبيرًا منها. وأفراد هذه الأسرة مشغوفون بالادخار، يمارسونه إلى مدى أبعد مما تتطلبه الحاجة فى الوقت الراهن. أم "جِمى" تحصل على مرتب محترم، وعمه يحصل على أجر معقول، وخالته "مارى" تحصل على معاش محترم، ومحل الدراجات يمتلئ بالزبائن، ولكن بيضة واحدة بدلاً من ثلاث، واللحمة المفرومة يُضاف إليها كوبٌ آخر من دقيق الشوفان، وهناك محاولات جادة لتعويض النقص فى صلصلة وسترشاير، أو للإسراف فى رش جوزة الطيب على الكستر. العجيب أن الشكاوى قليلة، أو غير موجودة. بالعكس، كلهم يمدحون، ويشيدون. كانت الشكاوى فى ذلك البيت نادرة ندرة لمبات الإضاءة، تشيع على ألسنتهم عبارة "متأسف"، أو "لو سمحت، " أو "من فضلك، " حتى البنات الصغيرات يقلن "متأسفة، " عندما تصطدم الواحدة منهن بالأخرى بالمصادفة. الجميع يمرون ويتأسفون ويشكرون، عبارات الأسف والشكر تجرى على ألسنتهم حين يلتئمون على المائدة. هذه هى طريقتهم فى الحياة، يحتشدون فى البيت احتشادًا، ملابسهم مكومة فوق بعضها على المشابك، والمعاطف معلقة على الدرابزين، وأسرة الأطفال النقالة مستقرة على الدوام فى حجرة السفرة، لـ "جِمى" وعمه "فرد"، والنيش يختفى وراء كومة كبيرة جدًا من الملابس التى تنتظر الكى أو الإصلاح. لم يتعثر منهم أحدٌ على السلالم، أو يقع، ولم يغلق أحدٌ منهم الأبواب بعنف، ولم يُدِر أحدٌ منهم الراديو بصوتٍ عالٍ، أو يتفوه بألفاظ غير لائقة.

هل هذا هو السبب فى أن "جِمى" أبقى على فمه مغلقًا ذلك

www.ibtesama.com

السبت فى أثناء الغداء؟ لقد أبقى الثلاثة على أفواههم مغلقة، لم يتحدث أى منهم بشيء. فى حالة "سِسى فرنز" من السهل أن نفهم؛ أبوه لن يعترف بأن "سِسى" اكتشف شيئًا مهمًا، بالعكس سينعته بالكذاب الأشر، المنقوع فى الكذب حتى أذنيه. وأم "سِسى"، وهى التى تحكم على الأمور بتوابعها على أبيه، ترى - محقة - أن حتى ذهابه إلى قسم الشرطة ليقدم بلاغًا سيسبب اضطراباً فى المنزل، ومن ثم ستقول له من فضلك اسكت. ولكن الصبيين الآخرين يعيشان مع عائلتين عاقلتين جداً، وكانا يستطيعان الحديث. فى بيت "جِمى" كان الذعر سينتشر، وبعض الرفض، ولكنهم لا يلبثون أن يقروا بحقيقة مقتضاها بأن الخطأ لم يكن خطأ "جِمى".

أختا "بض" ستتهمانه بالجنون، أو الخبل، وقد تلويان عنق الحقيقة بحيث تعطيان الانطباع بأن "جِمى" غريب الأطوار، وتقولان: ومن يعثر على جثة ميت غيره؟ ولكن أبيه كان يتحلى بالعقل والصبر، تعود على الاستماع إلى الكثير من الهراء فى محل عمله كموظف فى إدارة الشحن فى السكة الحديد. كان سيأمر أختى "بض" أن تغلقا فميهما، وبعد جولة من الحديث الجاد للتأكد من أن "بض" كان يقول الحقيقة، ولا يبالغ، سيتناول التلفون ويتصل بقسم الشرطة. المشكلة أن بيوتهم مزدحمة بالمشكلات، تضطرب بالكثير من الحركة الحياتية، يعنى لا ينقصها من يأتى لينغص عليها الحياة. ينطبق هذا على منزل "سِسى" كما ينطبق على البيتين الآخرين: لأنه حتى فى غياب أبيه يظل تهديد وجوده الأحمق فى كل الأوقات.

"هل أخبرت أحداً؟"

www.ibtesama.com

"وهل أخبرت أنت؟"

"ولا أنا. "

ومضيا إلى وسط المدينة، لا يعرفان لهم طريقًا يصلون إليه. انعطفوا إلى شارع "شبكا"، ووجدوا أنفسهم أمام منزل من طابق واحد يزدان بالجبس، كان يعيش فيه السيد "ولنز" والسيدة "ولنز". لم يتعرفوا على البيت إلا بعد أن أصبحوا أمامه مباشرة. له نافذة صغيرة ناتئة على الجانبين من الباب الأمامي، وعتبة كبيرة تتسع لمقعدين، لا توجد مقاعد الآن، ولكن المقاعد تُرص فى أمسيات الصيف، يجلس عليها السيد "ولنز" وزوجته. توجد شقة مسقوفة ملحقة بجانب من جوانب البيت، بباب آخر مفتوح على الشارع، ورصيف منفصل يفضى إليه. وبجانب هذا الباب توجد لافتة مكتوبٌ عليها عبارة: "دى. إم. ولنز النّظاراتى". لم يكن أى من هؤلاء الصبية يزور هذا المكتب، ولكن "مارى" خالة "جِمى" كانت تذهب إلى هناك بانتظام لتضع القطرة على عينيها، وجِدّته لأمه حصلت على نظارة من هناك أيضًا، وحتى أم "بض سولتر" فعلت ذلك.

كان الجبس قرنفلى غامق، وكانت إطارات الأبواب والنوافذ مدهونة باللون البنى. وأما نوافذ العواصف فلم تختفِ بعد، كما لم تختفِ من أغلب البيوت فى تلك المدينة الصغيرة. لم يكن البيت يتميز عن غيره من البيوت بشىء خاص، ولكن الفناء الأمامى كان مشهورًا بكثرة الورود فى مدخله؛ فقد كانت السيدة "ولنز" معروفة باهتمامها بالورود، وبأنها لم تكن تزرع ورودها على هيئة صفوف طويلة إلى جوار حديقة الخضروات، كما كانت تفعل جدة "جِمى"، وأم "بض".

www.ibtesama.com

كانت تزرع وردها فى أحواض دائرية، وفى شكل أهلّة، وكذلك على هيئة دوائر تحت الأشجار، وفى خلال أسبوعين فقط كانت أزهار النرجس تملأ البستان. ولكن فى الوقت الراهن فإن الشىء الوحيد المزدهر كانت الأجمة الحافلة بأشجار الزيتون الصغيرة الكائنة فى ركن من أركان المنزل، وكان ارتفاعها يصل إلى الإفريز، وكانت تنشر اللون الأصفر فى الهواء بالطريقة التى ينتشر بها الماء من النافورة.

تهتز أشجار الزيتون، ليس بسبب الريح، ولكن يخرج منها شبحٌ محنى الظهر لونه بنى. كان الشبح للسيدة "ولنز" فى ملابسها العتيقة التى كانت ترتديها وهى تعمل فى الحديقة، سيدة ضامرة الجسم، ثقيلة الخطى، ترتدى سروالاً فضفاضًا، وجاكتًا مفتوحًا من الأمام، وقبعة صغيرة ربما كانت قبعة زوجها. كانت تتسلل مقتربة هامتها من الأرض، وتكاد تخفى عينيها، وكانت تحمل مقصًا.

هنا تباطأ الأولاد، والبديل كان الهرب، أو الجرى. ربما ظنوا أنها لن تلحظهم، وكان فى وسعهم التوقف، ولكنها رأتهم بالفعل: ولهذا السبب كان مجيئها السريع. هتفت بهم السيدة "ولنز":

"أراكم تتسكعون حول أشجار الزيتون فى حديقتى، هل تريدون بعض الزيتون الذى تأخذونه معكم إلى بيوتكم؟"

لم يكن الصبية الثلاثة يريدون زيتونًا ولا يحزنون، ولكنهم كانوا يتسكعون حول مشهد كامل، شكل البيت الذى يبدو كما كان فى السابق، واللافتة على باب المكتب، والستائر التى تسمح بدخول الضياء. لا شىء يخرج عن المألوف، ولا شىء يدعو إلى التشاؤم،

www.ibtesama.com

ولا شيء يدل على أن السيد "ولنز" لم يكن موجوداً داخل البيت، وأن سيارته لم تكن في الجراج الكائن خلف مكتبه، وكانت في مستنقع "جتلاند". والسيدة "ولنز" تعمل في حديقتها كما يتوقع الجميع - كل سكان المدينة الصغيرة يعرفون ذلك - حين تذوب الثلوج. وكانت تصيح بصوتها الذي نال منه التدخين، صوتًا حاداً ومتحديًا، ولكنه ليس ودوداً - صوتها لا تستطيع تحديده إذا ابتعدت عنه لمسافة عمارة واحدة، أو حتى لو كنت قادم من وراء أقرب المحلات.

كانت تقول:

"انتظر، انتظر لحظة، سأحضر لك بعض الزيتون. "

ثم تمضي برقة وأناقة، في التقاط بعض الأغصان الصفراء الفاتحة، وعندما تظفر بما تريد كانت تأتي إليهم من خلف ستارة من أشجار الورد التي تشابكت أغصانها. وتقول:

"ها هو الزيتون، خذوه إلى بيوتكم، واعطوه لأمهاتكم، الزيتون في البيوت ينعش الآمال، وهو أول ثمار الربيع. " كانت تقسم أغصان الزيتون بين الثلاثة بالتساوي، وكانت تقول لهم: "بالعدل، " فهل درستم اللاتينية؟"

"لم نذهب إلى المدارس الثانوية بعد، " قال "جِمي" الذي كانت تربيته في البيت تسمح - أفضل من الآخرين - بالحديث مع السيدات. فقالت له: "يـاه.. لم تذهبوا إلى الثانوي؟ عظيم لديكم فرصة عظيمة في الطموح إلى أشياء كبيرة جداً. لا تنسوا.. قولوا لأمهاتكم أن تضع هذا الزيتون في ماء دافئ، وعلى العموم أنا

www.ibtesama.com

متأكدة أنهم يعرفون ذلك، أنا أعطيتكم الأغصان اللينة بعض الشىء، ولن تصمد طويلاً. "

وشكروها، شكرها "جِمى" فى البداية ثم تناول الصبيان الآخران حزمة الزيتون منه. ومضوا إلى وسط البلد وقد امتلأت أيديهم بأغصان الزيتون. لم يكن نيتهم العودة إلى منازلهم بالزيتون والورود، واعتمدوا على جهلهم بمنازلهم وأين يسكنون. ولم يمضوا قليلاً حتى عادوا يسترقون النظر لتعرف هل كانت تراقبهم.

لم تكن تراقبهم. على أية حال كان البيت الكبير على الرصيف الآخر يسد الطريق أمام عيونهم.

منحهم الزيتون شيئًا يتحدثون عنه، شيئًا يُشغلون به، هل يحملونه إلى بيوتهم حقًا؟ هل يتخلصون منه؟ وإلا كان شاغلهم هو موضوع السيد "ولنز"، والسيدة "ولنز"، وكيف أنها مشغولة فى حديقتها بالزهور، وهو قابع فى قعر المستنقع جثة هامدة، هو وسيارته. هل تعرف مكانه؟ هل تجهل مكانه؟ يبدو أنها تجهل مكانه. هل تعرف أنه قضى نحبه من الأساس؟ تمضى حياتها كأن شيئًا لم يحدث، وكأن السيد "ولنز" لم يقضِ غرقًا فى مياه النهر، وكأنه لم يحدث أى شىء على الإطلاق، حقيقة تبدت لهم عند وقوفهم هناك أمامها. بدا أن ما عرفوه، وما رأوه يتراجع، يلقى هزيمة منكرة بسبب جهلها بالأمر. فتاتان صغيرتان ظهرتا فجأة وهما تمتطيان دراجتين، تجدفان حول ركن من أركان البيت، الأولى "دوريس" أخت "بض". كانتا تصيحان بشىء من السخرية والتهكم - معًا - وتصرخان:

www.ibtesama.com

"أووووه.. انظرى إلى الورود، هل هناك حفل زفاف؟ انظرى إلى وصيفتى العروس الجملتين. "

صاح "بض" فى وجهيهما كأعلى ما يكون الصياح، وعلق بأسوأ ما يكون التعليق:

"على فكرة مؤخرتك عليها دم. "

ولكن لم يكن هناك دم على مؤخرتها، ولكن حدث ذلك ذات يوم: جاءت ذات يوم من المدرسة وعلى جونلتها دم، رآه الجميع، وكان مشهداً لا يُنسى.

كان متأكداً من أنها ستفتن عليه عندما تذهب إلى البيت، ولكنها لم تفعل. منعها خجلها من حادثة الدم الأولى من أن تُذَكِّر بها مرة أخرى حتى لو كان الهدف إحراج "بض".

***

عرفوا أنهم لابد أن يتخلصوا من زهور الزيتون على الفور، ولذا ببساطة ألقوا بالأغصان تحت سيارة مركونة، ونظفوا ملابسهم من البتلات التى علقت بها وهم يتجهون إلى الميدان.

فى ذلك الزمان كانت أيام السبت لا تزال مهمة؛ أيام السبت يأتى الناس إلى المدينة الصغيرة، وكانت السيارات تركن حول الميدان، وجوانب الشوارع كانت تزدحم بالصبية والفتيات الكبار والصغار، من سكان المدن ومن سكان الريف، يريدون دخول السينما لمشاهد فلم السهرة.

كان لابد من المرور أمام "مول هونكر"، وهناك رأى "جِمى" أمه. لقد عادت إلى عملها، وكانت تضع قبعة نسائية وهمية على أحد

www.ibtesama.com

تماثيل العرض، وتضبط موضع الستارة، ثم تعبث بكتفى الفستان. كانت سيدة قصيرة القامة، ولذا كانت مضطرة إلى الوقوف على أطراف أصابعها لكى تفعل ذلك على خير وجه. لقد خلعت حذاءها لتمشى على سجاد نافذة العرض. كنت تستطيع رؤية الشرائط الطبية القوية حول كعبيها، من خلال جوربها، وعندما كانت تمط نفسها كنت ترى ظهر ركبتها من خلال شق يسير فى تنورتها، وفوق ركبتها كنت ترى عجيزتها الجميلة، والطريق المفضى إلى ملابسها الداخلية أو حتى الحزام الذى يبدأ بها. تخيل "جِمى" كيف ستنهره، وكيف ستصيح فيه، واستطاع أيضًا أن يشم رائحة جوربها الذى كانت أحيانًا تخلعه بمجرد وصولها إلى البيت، حفاظًا عليه من الضياع فى أرجاء المنزل. الشوارب والملابس الداخلية، وحتى ملابس النساء الداخلية النظيفة، لها رائحة خاصة واهية، أخاذة ومثيرة للاشمئزاز فى الوقت نفسه.

كان يأمل فى شيئين: الشىء الأول هو ألا يراها الآخرون (كانوا يرونها، ولكن فكرة الأم التى ترتدى فستانها كل يوم، وتخرج من بيتها أمام الجميع إلى المدينة كان مشهداً غريبًا فى عيون للناس، أغرب من أن يعلقوا عليه، ولكنهم لا يأنسون له)، وألا تستدير إلى الخلف وتراه، من فضلك يا أمى لا تستديرى إلى الخلف. كانت تستطيع أن تراه إذا استدارت قليلاً إلى الخلف، فتدق على الزجاج، وتصيح فيه. فى محل العمل تفقد تحفظها الذى تظهر به فى البيت، ووتتخلى عن دماثتها التى تظهرها فى البيت. يتحول لطفها وكرمها إلى نشاط محموم مروض. وكان هو يحب أن يرى هذا الجانب فى

www.ibtesama.com

شخصيتها، ويجد سعادة بالغة فى ذلك، فى تلك الخفة والحب للدعابة التى تظهرها فى "مول هونكر" بأرففه الثرية، وطاولاته الزجاجية، وموائده الخشبية المطلية بتهاويل الدهانات، وبمراياه الكبيرة القائمة عند قمة السلالم، والتى كان يرى فيها نفسه وهو يرتقى درجات السلم إلى قسم ملابس السيدات فى الطابق الثانى.

كانت أمه ستقدمه قائلة: "ها قد جاء ولدى الصغير المؤذى، " وأحيانًا ترمى له قرشًا، ولم يكن يستطيع المكث أكثر من دقيقة؛ فربما رآه السيد "هونكر" أو السيدة "هونكر. "

الولد الصغير المؤذى.

كلمات كانت تسعده فى الماضى القريب كوقع العملات المعدنية، ولكنه بدأ الآن يخجل منها.

ولكنهم مضوا بأمان.

فى العمارة التالية كانوا مضطرين إلى المرور من أمام "دوق كمبرلاند" ولكن "سِسىَ" لم تكن لديه مشكلة، ولا مخاوف. فإذا لم يكن أبيه قد عاد إلى المنزل فى وقت الغداء، فهذا معناه أنه سيكون فى الداخل منذ ساعات الآن. ولكن كلمة "كمبرلاند" كانت تقع ثقيلة على أذنيه فى ذلك الوقت. منذ الأيام التى لم يكن يعرف حتى معناها، كان يشعر عند سماعها بأنه يغوص فى الماء، أو كأن ثقلاً يضرب مياهًا داكنة، ويغوص إلى الأعماق.

بين "كمبرلاند" ومجلس المدينة كان هناك زقاق غير مرصوف، وخلف مجلس المدينة كان يوجد قسم الشرطة. دلفوا إلى هذا الزقاق، فتناهت إلى أسماعهم أصوات جديدة، تختلف عن ضوضاء الشارع.

www.ibtesama.com

لم تكن تلك الأصوات تصدر عن مبنى كمبرلاند - فقد كانت الأصوات الصادرة منه غامضة كأنها تخرج من "شكمان" سيارة. وكانت صالة البيرة تعلوها نوافذ عالية صغيرة أشبه بنوافذ الحمامات العامة. كانت الأصوات قادمة من قسم الشرطة. كان الباب المفضى إلى هذا القسم مفتوحًا؛ لأن الجو كان معتدلاً، وحتى فى الزقاق كنت تشم رائحة بايبات الطباق والسيجار. لم يكن رجال الشرطة وحدهم هم الذين يجلسون هناك، خاصة: فى أوقات الظهيرة من أيام السبت، حيث كان الموقد نشطًا فى الشتاء، والمروحة فى الصيف، والباب مفتوحًا ليسمح بدخول الهواء المنعش فى يوم كهذا اليوم. لابد أن العقيد "بوكس" هناك، يستطيعون سماع صوت أشبه بالأزيز، وهذا النفس الطويل الذى يسحبه بعد أن يضحك ضحكته من خلال صدره الضيق بسبب مرض الربو الذى يعانى منه. كان من أقرباء "جِمى"، ولكن العلاقات بين العائلتين فاترة؛ لأنه لم يوافق على زواج أبى "جِمى". تحدث مع "جِمى"، عندما عرفه، بصوته تغشاه نبرة ساخرة مفعمة بالدهشة. أم "جِمى" كانت تقول له: "لو عمك العقيد "بوكس" أعطاك ربع دولار أو أى شىء، لا تأخذه منه، وقل له: لا أريد شيئًا. " ولكن العقيد "بوكس" لم يحدث أن أعطى "جِمى" أى شىء، ولا عرض عليه أية نقود. "

أيضًا السيد "بولوك" يمكن أن يكون هناك، تقاعد من عمله فى الصيدلية، وكذلك "فرجوس سوللى، " الذى كان الغباء متمكنًا منه، ولكنه يبدو غير ذلك، فى المظهر فقط؛ فقد كان الرجل ضحية لهجوم بالغاز فى الحرب العالمية الأولى. طوال اليوم كان هؤلاء وغيرهم

www.ibtesama.com

يلعبون النرد، ويدخنون، ويسردون القصص، ويحتسون القهوة، على حساب ميزانية مجلس المدينة (على حد قول أبى "بض"). وأى شخص يريد أن يقدم شكوى، أو محضر، يقدمه فى مقربة منهم، وربما على مرمى حجر من جمعهم المبارك.

فلنعبر المحنة.

توقفا خارج الباب المفتوح، لم يلحظهم أحدٌ، قال العقيد "بوكس": "أنا لست بالميت، " وهو يكرر السطر الأخير فى قصة من القصص التى تروى. وبدأوا فى المشى أمامه ببطء، ورؤوسهم منكسة، يركلون الحصى.

وعند عطفة المبنى، تسارعت خطواتهم. ولكن عند المدخل المفضى إلى حمام الرجال، رأوا خيطًا نحيفًا لآثار قىء حديث على الحائط، وزجاجة أو زجاجتين فارغتين على الحصى. اضطروا إلى المشى بين العلب المرمية، والنوافذ المشرفة فى مكتب رئيس مجلس المدينة، وفى النهاية تركوا الحصى، وعادوا إلى الميدان.

قال "سِسى":

"وجدت نقودًا. "

ردهم هذا الإعلان الفظ إلى الطمأنينة الغائبة. راح "سِسى" يقلب النقود"الفَكّة" فى جيبه فيحدث بها صوتًا. كانت النقود التى كانت تعطيها له أمه بعد أن يغسل الأطباق، وعندما كان يذهب إلى حجرة النوم الأمامية ليخبرها بأنه خارج. كانت تقول له: "خذ الخمسين سنت التى فى النيش". وأحيانًا يكون معها نقود كثيرة، رغم أنه لم يكن يرى أبيه وهو يعطيها هذه النقود. وعندما تقول له: "ساعد

www.ibtesama.com

نفسك"، أو تعطيه بعض العملات القليلة، كان "سِسى" يدرك أنها تخجل من الحياة كلها فى البيت، طبعًا تشعر بالخجل من أجله، وأمامه، وكانت تلك أيام يكره فيها مشهدها (رغم أنه كان سعيداً بالنقود). وخاصة عندما كانت تقول له إنه ولد طيب، وهو لم يكن متأكداً من أنها ممتنة لكل ما كان يفعل.

عبروا الشارع الذى كان يفضى إلى الميناء، فى الجهة المواجهة لمحطة "باكيه" للخدمات، كانت السيدة "باكيه" تقف فى كشك تبيع منه هوت دوق وأيس كريم وحلوى وسجائر. رفضت أن تبيع لهم سجائر، حتى عندما أخبرها "جِمى" بأنه يشترى السجائر لعمه "فرد"، ولكنها لم تصمد وأعطتهم السجائر. كانت سيدة وافرة الجسم، أنيقة، جميلة، كندية من أصل فرنسى. اشتروا أكواب عرق سوس، الأسود والأحمر، وكان فى نيتهم شراء بعض الأيس كريم عندما تكون بطونهم خاوية قبل الغداء. ومضوا إلى أن وجدوا مقعدين من مقاعد السيارات القديمة، مستقرين عند السور تحت شجرة كان تمنح الظل فى الصيف. وتقاسموا شراب عرق السوس.

الكابتن "ترفيت" كان يجلس على المقعد الآخر.

الكابتن "ترفت" هذا كابتن حقيقى، ظل حقيقيًا لسنوات متعددة، فى قوارب البحيرات. الآن يعمل فى وظيفة كضابط أمن خصوصى. كان يوقف السيارات ليتيح للأطفال مرور الشارع أمام المدرسة، ويحميهم من السقوط من فوق رصيف الشارع فى الشتاء. كان ينفخ فى صفارته، ويرفع يده الضخمة التى تشبه يد أحد المهرجين، بقفازه الأبيض. كان لا يزال طويل القامة، مستقيم العود، عريض المنكبين،

www.ibtesama.com

رغم الشعر الأبيض القديم على رأسه. كانت السيارات تنصاع لأوامره، والأطفال أيضًا.

وفى الليل كان يحوم حول أبواب المحلات ليتأكد من أنها مغلقة جيداً، وليتأكد من أنها خالية من أى أحد فى الداخل، يسرقها. وفى أثناء النهار، كان ينام على الملأ. وعندما تسوء حالة الطقس كان ينام فى المكتبة، وعندما كان يتحسن الجو كان يختار مقعداً ليجلس عليه خارج الأبواب. لم يكن يضيع وقتًا طويلاً فى مكتب البلدية، ربما لأن سمعه كان ثقيلاً، أثقل من أن يتابع الحوارات دون وضع السماعات على أذنيه، وشأنه شأن جميع الذين فقدوا سمعهم، كان يكره السماعات. وكان معتاداً على الوحدة، طبعًا، يقضى وقته يحدق فى ميناء القوارب.

كانت عيناه مغلقتين، وكان رأسه يميل إلى الخلف، يستقبل وجهه أشعة الشمس الطازجة، وعندما تقدموا إليه ليحدثوه (وهو قرار مفاجئ لم يتخذوه معًا، بعد أن حانت من كلٍّ منهم التفاتة مفهومة)، اضطروا إلى إيقاظه من سباته المؤقت، ولكن مرت دقيقة أو أكثر قبل أن يعرف الوجوه، وقبل أن يعلم بما يدور حوله. ثم أدخل يده فى جيبه فيخرج منها ساعة جيب قديمة الطراز، كأنه ظن أنهم يبتغون سؤاله عن الوقت. ولكنهم مضوا فى الحديث معه، وقد تأججت تعبيرات وجوههم بالتعب والخجل فى آن. كانوا يقولون له: "السيد "ولنز" هناك فى مستنقع "جتلاند"، ورأينا السيارة، غارقة." وكان عليه أن يلوح بيده يريد أن يأمرهم بالسكوت، بينما كانت يده الأخرى تشق طريقها فى أعماق البنطلون لعله يظفر بسماعاته. وهز رأسه

www.ibtesama.com

بجدية، وتشجيع، ولسان حاله يقول: "الصبر، الصبر، " وعندما ظفر بالسماعة وضعها على أذنه، ثم لوح لهما بكلتا يديه وهو يقول: "اسكتوا، اسكتوا، " بينما كان مشغولاً باختبار السماعة. وفى النهاية هز رأسه مرة أخرى، بخفة هذه المرة، ثم صاح بصوت قوى ولكنه يثير الضحك بقوته الغريبة، وسمته الصارم: "استمروا. "

"سِسى"، وكان أهدأ الثلاثة، بينما كان "جِمى" أكثرهم أدبًا، و"بض" أكثرهم ثرثرة، هو الذى قلب كل شىء رأسًا على عقب، حين هتف بالرجل:

"دبابيرك راحت يا كابتن. "

ثم تصايحوا جميعًا ولاذوا بالفرار.

لم تذهب بهجتهم فى الحال، ولكن البهجة لا تقبل القسمة، ولا تخضع للتوزيع، ولكنهم اضطروا إلى الفراق.

ذهب "سِسى" إلى بيته ليمارس عمله فى منعزله. السقف المصنوع من الورق المقوى، والذى تجمد طوال الشتاء، أصبح مشبعًا الآن بالماء، ويحتاج إلى أن يُستبدل. صعد "جِمى" إلى أعلى الجراج، فقد اكتشف هناك صندوقًا يمتلئ بمجلات "دوق سافاج" التى كانت تنتمى ذات يوم إلى عمه "فرد". وذهب "بض" إلى بيته أيضًا. ولم يجد أحدًا هناك إلا أمه، التى كانت تعالج أرضية حجرة السفرة بالمشمع. قضى بين المجلات الفكاهية ساعة أو نحو ذلك، ثم أخبرها بالقصة كلها. كان يعتقد أن خبرة أمه يسيرة، وأن سلطانها لا يمتد إلى خارج البيت، وأنها لن تتخذ قرارها بمفردها قبل أن تهاتف أبيه. ولذلك استغرب جدًا حين اتصلت بالشرطة على الفور، ثم اتصلت

www.ibtesama.com

بالأب. وأرسلت الشرطة من يقبض على "سِسى" و"جِمى".

وذهبت سيارة شرطة إلى مستنقع "جتلاند" من خلال طريق المدينة، وتأكد كل شيء، أحد رجال الشرطة وأحد القساوسة من الطائفة الأنجيلية مضيا لرؤية السيد "ولنز".

وشاع أن المدام "ولنز" قالت: "لم أكن أريد أن أضايقكم، كنت سأنتظر حتى حلول الظلام."

وأخبرتهم أن السيد "ولنز".ذهب بسيارته إلى الريف بالأمس بعد الظهر، ليعطى رجلاً كفيفًا جرعة دواء. " وأحيانًا يجد عوائق كما قالت، وقالت أيضًا إنه كان يزور الناس، وأحيانًا كانت سيارته تغرز.

وسألها رجال الشرطة: "وهل كان السيد "ولنز" مكتئبًا، أو شيء من هذا القبيل؟" ورد القس: "أوه لا، بالتأكيد لا، لقد كان أهم شخص فى الجوقة الكنسية."

فردت المدام ولنز: "الكلمة لم تكن مدرجة فى قاموسه."

جلوس الصبية هناك وتناولهم العشاء دون أن ينبسوا ببنت شفة، ثم شراؤهم لحزمة من أعواد العرقسوس. اقتحمت حياتهم كلمة جديدة، أُضيفت إلى قاموسهم واستقرت فى نفوسهم (الرجل الميت)، استقر الاسم الجديد فى عقل كلٍ من "جِمى" و"بض" حتى غادرا المدينة، وأما "سِسى" الذى تزوج صغيرًا ، ووجد وظيفة عامل أسانسير، فقد سمع الكلمة تنتقل إلى ابنيه الصغيرين. ولكن فى ذلك الزمن الجديد لم يكن أحدٌ يعرف ما تدل عليه تلك الكلمة.

وأما إهانة الكابتن "ترفت" فقد ظلت سرًا يُحظر البوح به.

www.ibtesama.com

لقد توقع كل واحد منهم من يذكرهم، نظرة من عينين شامختين تشيان بجرح أو استقصاء، في المرة القادمة عندما يمرون تحت يده الممدودة، لعبور الشارع إلى المدرسة. ولكنه الآن يمد يدًا مختفية في قفاز، يدًا مهيبة جافة بيضاء، بهدوئه المعتاد الكريم. وأشار بالموافقة.

استمر.

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

II

سكتة قلبية

"التهاب الكُلْيتين" كانت هذه هى الكلمة التى كتبتها "إيـنِد" فى مفكرتها، وكانت هذه العملية الوحيدة التى شهدتها فى حياتها كلها. الحقيقة تتلخص فى أن كُلْيتى السيدة "كونِ" فشلتا، وعجز الأطباء عن علاجها. لقد جفت الكُليتان، وتحولتا إلى كتلتين من الحبيبات الحصوية عديمة النفع. كمية البول الخارجة منها ضئيلة للغاية، وشكله كشكل الدخان، والرائحة التى تخرج من فمها مع أنفاسها، ومن خلال مسام جلدها كانت حادة، منذرة بالخطر. وأيضًا تخرج منها رائحة أخرى أقل وطأة أشبه برائحة الفواكه المتعفنة، بدت لـ "إيـنِد" وثيقة الصلة ببقع نبات القيصوم البنية الشاحبة التى تظهر على جسدها. كانت ساقاها تنتفضان فى تشنجات بسبب ألم مفاجئ يلم بها، وكان جلدها عرضة لحكة عنيفة، حتى أن "إيـنِد" كانت مضطرة إلى أن تحكها بالثلج. كانت تلف الثلج فى فوط وتضغط على الكتل والبقع المبتلاة.

"على العموم، أنا أسأل بس كيف وصلك هذا المرض بالذات؟"

هذا السؤال سألته أخت زوج المسز "كونِ"، " وكان اسمها المسز "جرين"، "أوليف جرين". (قالت إنها لا تعرف كيف تنطق الاسم، حتى تزوجت، وفوجئت أن الجميع يضحكون).

www.ibtesama.com

كانت تعيش في مزرعة على بعد أميال قليلة في شقة تطل على الطريق السريع، وكل بضعة أيام كانت تأتى لتأخذ الملايات والفوط، وقمصان النوم إلى البيت حيث تُغسل. وكانت تغسل ملابس الأطفال أيضًا، وتعيد كل شيء وقد قامت بكيه وطيه. كانت حتى تكوى شرائط الزينة التى تُرَصّع بها قمصان النوم. والحق أن "إيند" كانت تعبر لها عنْ الامتنان، فرغم أنها مشغولة كانت تقوم بغسل هذه الأقمشة بنفسها، أو في أسوأ الأحوال كانت تدفعه إلى أمها التى كانت تدفع لأصحاب آلات الغسيل في المدينة، ومن جيبها. لم تكن تقصد إهانة أحد، ولكنها كانت تقول: إنها تعرف أين تتجه الأسئلة، وكانت المسز جرين تقول أيضًا: "من الصعب أن نتنبأ. " وتردف: "لأنك تسمع شيئًا ونقيضه، فأنت تسمع أن امرأة أحيانًا تناولت بعض الحبوب، وأنها حصلت على هذه الحبوب من أجل علاج الدورة الدموية التى تأخرت، وإذا تناولنها حسب تعليمات الطبيب، ولسبب معقول، فإن المشكلة تصبح بسيطة جدًا، ولكن حين يتناولن الكثير من الحبوب، ولأسباب ليس لها علاقة بالمرض، فإن كُلّياتهم تتعرض للتدمير. صح؟

قالت "إيند": "لم أرَ في حياتى حالة تشبه هذه الحالة. "

كانت السيدة "جرين" سيدة طويلة القامة، قوية البنية. تشبه في بنائها أخيها "روبرت"، الذى كان زوج المسز "كونْ"، لديها أنف أفطس، ووجه تعلوه التجاعيد المحببة، من النوع الذى كانت أم "إيند" تسميها "البطاطس الأيرلندية". ولكن وراء تعبيرات وجه "روبرت" البشوش يكمن الحذر والكتمان، ووراء تعبيرات وجه المسز

www.ibtesama.com

"جرين" يكمن الشوق والاشتهاء. ولكن "إيـنِد" لم تكن تعرف إلى أى شىء تشتاق "جرين"؟ وأى شىء تشتهى؟ الواقع أن المسز "جرين" تسعى إلى الحوار مع الناس، ربما طلبًا للأخبار، الأخبار الجديدة التى تصدمك. الحدث.

وبطبيعة الحال أصبح الحادث قاب قوسين أو أدنى، حادث فارق أصبح وشيك الحدوث فى حياة هذه الأسرة، هو أن المسز "كوِنْ" ستموت وهى فى السابعة والعشرين من عمرها (وهو العمر الذى قدرته لنفسها - وفى وسع "إيـنِد" أن تضيف إليه بعض السنين، ولكن بعد أن بدأت تعانى من مرض الكُلَى، توقفت "إيـنِد" عن عد السنوات، أو أصبح من العسير حساب السنين). وعندما تتوقف كُلْيتها عن العمل تمامًا، فإن قلبها سيستسلم فى الحال، وستموت طبعًا. قال الطبيب لـ: "إيـنِد": "سيستمر هذا معها الصيف كله، ولكن فرصتها الوحيدة أن تحصل على كُلية قبل انقضاء فصل الصيف."

قالت السيدة "جرين": "روبرت قابلها عندما كان يعيش فى الشمال، سافر وحده، وعمل فى الغابات هناك، وكانت هى تعمل فى فندق، لا أعرف بالضبط، ربما فى وظيفة خادمة. لم تنشأ هناك، رغم ذلك، هى تقول إنها نشأت فى دار أيتام فى مونتريال، يعنى قدر، وقد تتوقع منها أن تتحدث الفرنسية، ولكن حتى لو كانت تتحدث الفرنسية فمن يسمح لها؟"

وقالت "إيـنِد": "يـاه.. حياة مثيرة."

"قوليها مرة أخرى."

www.ibtesama.com

"حياة مثيرة وشيقة، " قالت "إيند. " أحياناً لم تكن تملك إلا أن تقول ما قالت - حاولت أن ترسل نكتة تمنت لو تثير ضحك السامعين. رفعت حاجبيها على نحو مشجع، وابتسمت المسز "جرين"، ولكن هل وصلها إحساس بالإهانة؟ كانت هذه هي الطريقة التي يبتسم بها "روبرت" في المدرسة الثانوية، تفادياً - ربما - لموجة من السخرية.

وقالت المسز "جرين":

"لم يحدث أن كانت له خليلة أو رفيقة قبل الآن.

كانت "إيند" في الفصل نفسه الذي كان فيه "روبرت"، رغم أنها لم تقل هذا للمسز "جرين". إنها تشعر ببعض الخجل الآن؛ لأنه كان أحد الصبية - والحق أنه كان الشاب الوحيد - الذي كانت هي وزملاؤها يمعنون في إغاظتهوإثارته. "ضايقناه، " كانت الكلمة التي كنّ يقلنها دائماً. لقد كنّ يضايقن "روبرت"، يتعقبنه في الشارع، ويهتفن في إثره: "مرحى روبـــرت، مرحى روبـــرت، " حتى يصبح في حال يُرثى لها، وتجد أن رقبته تتحول إلى اللون الأحمر، وكنّ يقلن: "لقد أُصيب روبرت بالحمى القرمزية، " وقد يضفن: "كان ينبغي أن تذهب إلى الحجر الصحي. " ويزعمن أن واحدة منهن، وربما تكون "إيند"، أو "جوان ماك أوليف"، و"ماريان دني" - لديها أدلة تدينه، وكن يقلن له: "تريد أن تتحدث إليك يا روبرت، لماذا لا تطلب منها أن تخرج معك؟ في وسعك أن تتصل بها بالتليفون على الأقل، إنها تموت وتتحدث معك. "

والحق أنهن لم يكُنَّ يتوقعن منه أن يستجيب إلى هذه التوسلات والتمهيدات، ولكن ماذا لو استجاب؟ ستكون متعة وأي متعة.

www.ibtesama.com

سترفضه البنت فى ثوانٍ معدودة، وستكون القصة حديث كل من هب ودب فى المدرسة. لماذا؟ لماذا كانوا يعاملونه على ذلك النحو، لماذا كانوا يصرون على التقليل من شأنه؟ التفسير بسيط: إنهم يقدرون على ذلك.

طبعًا من المستحيل أن يكون قد نسى، ولكنه كان يعامل "إيـنِد" على أنها معرفة جديدة، ممرضة زوجته، تأتى إلى بيته من أى مكان تجىء. وتعلمت "إيـنِد" الدرس منه. إن الأشياء مرتبة هنا ترتيبًا محكمًا يجاوز المألوف، والترتيب يوفر عليها الجهد. وكان "روبرت" ينام فى بيت المسز "جرين"، ويتناول وجباته الثلاث هناك. ويمكن أن تجد البنتين الصغيرتين هناك أيضًا، وهذا معناه ذهابهما إلى مدرسة أخرى - تستطيع "جرين" أن تذهب إلى هناك شهرًا آخر قبل أن تتوقف المدرسة في الصيف. كان "روبرت" يأتى إلى البيت فى المساء، وكان يتحدث مع ابنتيه. كان يقول:

"هل أنتما من البنات الحلوين فى المدرسة؟"

وكانت "إيـنِد" تقول: "بابا يريد أن يرى طريقتكما فى ترتيب المكعبات، ويريد أن يرى الصور التى ترسمانها فى كتاب التلوين. "

كانت"إيـنِد، " هى التى توفر المكعبات وأقلام التلوين وكراسات الألوان. لقد اتصلت بأمها فى التليفون، وطلبت منها البحث فى مخزونها القديم عن أشياء تنفع البنتين، وقد فعلت أمها ذلك، وأحضرت معها فيما أحضرت كتابًا قديمًا فيه دميات معدة للقطع والتلوين مثل: الأميرة إلزابيث ومارجريت روز وبعض التجهيزات الأخرى. لم تستطع "إيـنِد" إقناع البنتين بأن تقولا "شكرًا" حتى

www.ibtesama.com

وضعت كل هذه الأشياء على رف عالٍ، وأعلنت أنهما يجب أن تظلا هناك حتى تفرغا من كلمة الشكر. كانت "لويس" في السابعة من عمرها، بينما كانت "سلفي" في السادسة، وكانتا هائجتين كالقطط البرية.

لم يكن روبرت يسأل من أين تأتي الدمى واللعب، كان ينصح ابنتيه بأن تكونا بنتان مؤدبتين، وكان يسأل "إيند" إذا كانت تريد شيئًا من المدينة، وذات يوم أخبرته أنها استبدلت لمبة بئر السلم، فأحضر لها لمبات زيادة احتياطية. وقال لها: "كان يجب أن أقوم أنا بذلك. " فردت "إيند":

"لا أجد صعوبة في تغيير اللمبات، وحتى الفيوزات، ودق المسامير، فقد كنت أنا وأمي نعيش دون رجل في البيت فترة طويلة. " وكانت تقصد بعض الدعابة، أو بعض التقرب الحقيقي، ولكنها لم تفلح.

وفي النهاية قد يسأل "روبرت" عن زوجته، وكانت "إيند" تقول: إن ضغط دمها قد انخفض بعض الشيء، أو إنها أكلت جزءًا من "الأومليت" التي أعدتها لها، واحتفظت بالباقي للعشاء، أو إن أكياس الثلج ربما تخفف من إحساسها الرهيبة لحك جلدها، وبدأت الآن تنام أفضل. وكان "روبرت" يقول: إذا كانت تريد أن تنام فمن الأفضل ألا يذهب إلى حجرة النوم من الأساس.

وكانت "إيند" تقول له: "تصرف سيء. " أفضل عند المرأة أن ترى رجلها من أن تظفر بشيء من النوم الخفيف. اصطحبت الطفلتين لتنيمهما كلٍ على سريرها، لتتيح للزوج وزوجته الوقت

www.ibtesama.com

لإدارة شئونهما الخاصة. ولكن "روبرت" لم يكن يمكث أكثر من خمسة دقائق، أو أقل، وعندما كانت "إيند" تعود من الطابق الثانى، وتتجه صوب الحجرة الأمامية، التى تسميها الآن حجرة المريضة، لتعد المريضة لاستقبال الليل، فإن المسز "كون" كانت تنام على ظهرها على المخدات، ويبدو عليها التوتر، ولكن دون استياء.

وكانت السيدة "كونْ" تقول: "آه.. لا يتحمل المكث أكثر من دقيقة، أليس كذلك؟ إنه يدفعنى إلى الضحك. يقول: "هههه، كيف حالك؟ هههه، خلى بالك من نفسك. " ولسان حاله يقول: لماذا لا نتخلص منها، ونلقى بها على أكوام السماد؟ لماذا لا نأخذها ونلقى بها فى الخارج كما نتخلص من القطط الميتة؟ هذا هو تفكيره، أليس كذلك؟"

وترد عليها "إيند": "لا. . أشك فيما تقولين!!" ثم تحضر لها الطست والفوط، وتبدأ فى الحك، ونشر مسحوق الأطفال على جسدها. فتعقب المسز "كونْ" وقد املأت نفسها بالشر: أشك فبما تقولين. " ولكنها كانت تستسلم فى الحال وتسمح لـ: "إيند" أن تخلع عنها قميص نومها، وترد شعرها الذى غطى وجهها إلى الخلف، وتضع فوطة تحت وركيها. كانت "إيند" متعودة على الناس الذين يتحدثون كثيراً عن أجسامهم العارية، حتى وهم مرضى أو طاعنين فى السن، وأحياناً تكون مضطرة إلى مغازلتهم، أو مضايقتهم فى المعلومات العامة. كانت تقول لهم: "وهل تظن أننى لم أرَ الأجزاء التحتية من قبل؟ "الأجزاء التحتية والأجزاء الفوقية، أشياء تصبح مملة بعد حين. تعرفى بالنسبة لى فوق مثل تحت. ولكن المسز "كونْ" كانت أقل خجلاً، فقد كانت ترفع ساقيها، ثم نفسها قليلاً لتسهل

www.ibtesama.com

وظيفة الممرضة. كانت عظامها أشبه بعظام الطير، تكوينها عجيب الآن: انتفخت بطنها وأطرافها، وتضاءل ثدياها حتى أصبحا أشبه بانتفاخات صغيرة وحلمتين أشبه بالعنب البناتى الذى يخلو من البذور.

وكانت السيدة "كونْ" تتحدث عن نفسها: "ثدياى منتفخان كحبتى تين، والحلمتان، كانتا عديمتا القيمة دائمًا. لم يرزقنى الله بصدر كبير مثلك. ألم تملى من منظرى؟ ألن يسرك موتى؟"

وعلقت المسز"إيند": "إذا كنت أشعر بذلك لما جئت إلى هنا من الأساس."

ستقولين: "الطريق اللى تودى ما تجيب، زبالة وراحت، " هذا ما سوف تقولينه، "الطريق اللى تودى... ما فائدتى الآن بالنسبة له؟ هل لى فائدة بالنسبة له؟ لن أنفع أى رجل، هو نفسه يخرج كل يوم، يخرج ويبحث عن ستات، ويجدها، أليس كذلك؟"

"على حد علمى هو يذهب لزيارة بيت أخته."

"على حد علمك، ولكنك لا تعلمين الكثير."

كانت "إيند" تعلم ما كان هذا يعنيه، هذا الحقد، وتلك الضغينة، تلك الطاقة المدخرة لنفث الغضب، كانت المسز "كونْ" تبحث عن عدو، ما أبغض الأصحاء عند المرضى، ينطبق هذا على الأزواج والزوجات، وحتى على الأمهات وأبنائهن. فهل تكره المسز "كونْ" زوجها وبنتيها؟ وهل يكرهونها؟ ففى ذات صباح من أيام السبت نادت المسز "إيند" على البنتين "لويس" و"سلفى" بينما كانتا مشغولتين فى لعبهما تحت الشرفة، ليأتيا ليريا أمهما بعد أن

www.ibtesama.com

تحسنت صحتها. كانت المسز "كونْ" قد فرغت لتوها من حمام الصباح، وترتدى قميص نومها النظيف، وشعرها الجميل الخفيف الممشط قد رُدّ إلى الخلف بشريط أزرق. (كانت "إيند" قد أخذت مؤنتها من هذه الشرائط عندما ذهبت لتمريض إحدى المريضات - كما أخذت زجاجة كولونيا، وصابونة معطرة.) كانت تبدو جميلة فعلاً، أو على الأقل كنت تراها جميلة ولو مرة واحدة، بجبهتها العريضة، وعظام خديها الظاهرة (إنهم يثقبون جلدها الآن كمقابض الأبواب الصينية)، وعينيها الواسعتين المائلتين إلى اللون الأخضر، وأسنانها الطفولية الشفافة، وذقنها العنيد الصغير.

دخلت البنتان الحجرة تدفعهما الطاعة أكثر مما يدفعهما الحماس، وقالت المسز "كونْ": أبعدوهما عن سريرى، رائحتهما فظيعة. " فقالت "إيند": لقد جاءتا لرؤيتك. " فقالت المسز "كونْ": والآن رأيانى، فيلذهبا الآن. " ولا يبدو أن هذا السلوك قد أدهش البنتين، أو أحبطهما، فقد التفتا إلى "إيند"، وقالت "إيند": "جميل يا أولاد، الآن أمكما تريد أن ترتاح، " وأسرعا إلى الخارج، وأغلقا باب المطبخ بعنف.

ثم قالت المسز "كونْ" للسيدة "إيند": "ألا تقنعيهما بألا يأتيا مرة أخرى؟، في كل مرة تأتيان إلى هنا أشعر كأن إحداهما تضربنى على صدرى بقالب طوب. "

قد تظن أن هاتين البنتين ما هما إلا يتيمتان مشاغبتان، وأنهما أُجبرتاعلى زيارة أمهما إجباراً، زيارة لا تعرفان لها سبباً، ولكن هذا ما كان عليه بعض الناس عند ساعات الرحيل. أصحاب الطبائع

www.ibtesama.com

الأهدأ من طبيعة المسز "كونْ" قد يقولون: إن إخوانهم وأخواتهم وأزواجهم وزوجاتهم وأبناءهم، كانوا يكرهونهم دائمًا، وأن آمالهم خابت في هؤلاء الآخرين، وهم يدركون أن هؤلاء الآخرين سيسعدون بموتهم وغيابهم عن مسرح الحياة. وقد يقولون ذلك بعد حياة قضوها سلمًا وجنيا لفائدة، وسط عائلات كانت تحبهم، ولم يكن هناك داعٍ لهذه النوبات الهيستيرية. وقد تذهب هذه النوبات كما يحدث في العادة، ولكن في الأسابيع الأخيرة، أو حتى في الأيام الأخيرة من الحياة، يتذكر الناس عداوات وإساءات قديمة، أو يشكون عقوبة ظالمة، أو معاملة قاسية ظالمة، عانوا منها قبل ذلك بسبعين عامًا. ذات يوم طلب سيدة من "إيند" أن تحضر لها طبق الصنوبر الكبير من النيش، وظنت "إيند" أن المرأة كانت تنشد إلقاء النظرة الأخيرة على تلك الملكية الثمينة، ولكن تبين أنها تريد أن تستخدم آخر ما تبقى لها من قوة مدهشة في تحطيم الطبق على عمود السرير.

"الآن أنا عارفة أن أختي لن تصل يدها إلى شيء من هذه الأشياء."

ويظن المرضى في الغالب أن زائريهم لا يأتون إلا للتحديق، وأن الأطباء هم سبب معاناتهم. إنهم يمقتون منظر "إيند" نفسها، قوتها التي لا تضعف أبدًا، وقدرتها على الاستيقاظ، ويديها اللتين لا تعرفان الكلل، وماء الحياة الذي يجري في عروقها متوازنًا لا يضطرب أبدًا. لقد اعتادت "إيند" على القيام بهذه الأمور، ولديها القدرة على فهم معاناة مرضاها وفهم مشكلاتهم، وفهم حتى لحظات اقترابهم من الموت، وحتى مشكلة البقاء نفسها التي قد تصبح أكثر إزعاجًا من كل المشكلات.

www.ibtesama.com

ولكن مع المسز "كونْ" وجدت نفسها فى حيرة عظيمة.

السبب ليس لأنها تعجز عن توفير الراحة لمريضتها هنا، السبب هو أنها تعجز عن استدعاء إرادتها، يعنى لا تريد؟ إنها عاجزة عن أن تقهر كراهيتها لهذه المرأة الهالكة التعيسة الشابة. كرهت هذا الجسد الذى كانت مضطرة إلى أن تغسله، وتنظفه، وترش عليه المساحيق، وتهدئ هياجه بالثلج، وتدعكه بـ "الإسبرتو". لقد فهمت الآن ما كان يعنيه الناس عندما كانوا يقولون: إنهم يكرهون المرض والأجسام المريضة؛ وخاصة: النساء اللائى كن يقلن لها: "لا أعرف كيف تقومين بهذا الدور! لا يمكن أن أعمل ممرضة أبدًا، إنه الشىء الوحيد الذى لا أستطيع القيام به." وهى تكره هذا الجسد بالذات، وكل العلامات الخاصة التى يحملها هذا المرض الذى يعانى منه هذا الجسد بالذات. كانت تكره رائحته، ونصول لونه، وحلمتى ثدييها الصغيرتين التى يؤذى شكلهما الناظر إليهما، وأسنانها التى اتخذت شكل أسنان الحيوانات القارضة، مما يثير الشفقة. كانت ترى كل ذلك كأنه إفساد يعود إلى مقصد. كانت مثل المسز "جرين" فى شعورها بالفساد المنتشر. فرغم كونها ممرضة تعرف أفضل مما يعرف الآخرين، ورغم أن وظيفتها، وبالتأكيد طبيعتها، أن تكون رحيمة بالمرضى، لم تستطع أن تعرف لماذا كان ذلك كله يحدث. كانت المسز "كونِ" تذكرها بفتيات كانت تعرفهن فى المدرسة الثانوية، يرتدين الملابس الرخيصة، تظهر عليهن علامات على مرض، وشواهد على مستقبل كئيب، ولا زلن متجهمات الوجوه، بعيدات عن الرضا. قضين سنة أو سنتين ولم

www.ibtesama.com

يلبثن أن حملن، وأغلبهن تزوجن. وقد قامت "إيند" بتمريض بعضهن فى السنوات الأخيرة، فى البيوت التى وُلدن فيها، واكتشفت أن ثقتهن فى أنفسهن قد تحطمت، وتحولت جرأتهن إلى تواضع جم، أو حتى ورع أو ولاء أو طاعة. حزنت لحالهن، بالأخص عندما تذكرت كيف كُنّ مصممات على الحصول على ما حصلن عليه.

كانت حالة المسز "كونْ" أصعب. المسز "كونْ" قد تثرثر وتثرثر، ولكن ينتهى بها الأمر إلى ممارسات فظيعة، لا يتعدى أشياء عفنة فى داخلها.

ولكن الأسوأ من شعور "إيند" بالقرف، وهو حقيقة، حقيقة أخرى مفادها أن المسز "كونْ" نفسها تعرف ذلك، لا يحول بينها وبين المعرفة صبر المسز إيندْ"، ودماثة خلقها، وبهجتها، كلها أشياء مصطنعة تستدعيها عند الحاجة. والحق أن المسز "كونْ" جعلت من معرفتها هذه انتصارها الذى تعتز به، فقد كانت تكرر على مسمع "إيندْ" عبارة:

"المركب اللى تودى، زبالة وراحت!! آه. "

عندما كانت "إيندْ" فى العشرين من عمرها، وتخرجت فى معهد التمريض، كان أبوها نفسه على سرير الموت فى مستشفى "والاى" العام. فى ذلك الوقت قال لها: "على فكرة رغم أنى أحب هذه المهنة التى تخرجت منها، مهنة التمريض، أتمنى ألا تعملى فى مكان كهذا. "

وانحنت "إيند" تقبل جبهته وسألته عن المكان الذى لا يريدها أن تعمل به، وقالت له إنه فى مستشفى "والاى" العام لا غير.

www.ibtesama.com

فقال لها بهدوئه وزرانته المعهودة (فقد كان يعمل مندوب تأمين، ومندوب شركة لتسويق العقارات): "أعرف أنه مستشفى "والاى" العام، فأنا أعرف ما أتحدث عنه، لكن هل تعدينى على ألا تعملى فى مكان كهذا؟"

"أعدك بماذا؟" قالت "إيـنِد".

فقال لها: "على ألا تمارسين هذا العمل بعد موتى."

ولم تظفر منه بمزيد من المبررات، وتقاربت شفتيه كأنه يريد أن يقول لها إن سؤالها أغضبه غاية الغضب. لكنه أردف يقول: "هل تعديننى؟"

"وما سبب هذا كله؟"

سألت "إيـنِد" أمها، فقالت أمها: "طيب.. توكلى على الله.. أعطيه وعداً، وماذ سيصنع بالوعود؟"

ولكن "إيـنِد" ظنت أنها إذا قالت ذلك لأبيها فسوف يُصدم، ولكنها لم تعلق على ما قالت الأم؛ لأن ما تقوله الأم يتسقِ مع طريقتها فى فهم الأمور، أو فى فهم أغلب الأمور.

ومع ذلك قالت: "لن أعده بأى شىء لا أفهمه، وربما لن أعد أحداً بأى شىء وبأية طريقة. ومع ذلك إذا عرفتِ ما يقصده فمن فضلك أخبرينى."

"لا.. هى فكرة يسيرة جداً تتملكه، أو خوف من أن تكون مهنة التمريض متعبة لك، وأنها مهنة تسهم فى أن تفقد المرأة جمالها، وتجعلها فظة الطبع."

"فظة الطبع." قالت "إيـنِد"

www.ibtesama.com

وقالت الأم إن الجانب الذى يحذر منه الأب فى مهنة التمريض هو أن الممرضات يألفن أجساد الرجال، ويرى أن هذه الألفة لأجساد الرجال من شأنها أن تغير طبع البنت، وتغير من طريقة الرجال فى الاقتراب منها، مما يفسد عليها فرصها الجميلة ويستبدل بها فرصًا أخرى كثيرة ولكنها ليست جيدة. ستجد أن رجالاً يتوقفوا عن الاهتمام بها، وآخرين يظهرون الاهتمام بالطريقة غير الصحيحة.

وقالت الأم أيضًا: "فى رأيى أن كل ما يقوله ينطلق من رغبته بزواجك."

"شىء غاية فى السوء إذا كان الأمر كذلك." قالت "إيند".

ولكنها فى النهاية وعدته. وعدت أباها. وعلقت الأم: "حسن جدًّا.. آمل أن يجعلك هذا سعيدة، يجعلك أنتِ، وليس هو." "يجعلك أنتِ،" عبارة تشى بأن الأم أدركت قبل أن تدرك "إيند" أن هذا الوعد مريح جدًّا للأب، وعود سرير الموت، نكران الذات، والتضحية بالجملة، وكلما كان الوعد عبثيًّا كان أدعى للسعادة. وهذا ما جعل "إيند" تستسلم، وتعد. ليس من أجل حبها لأبيها، ولا حتى لأمها، ولكن ما فى الوعد الأخير من إثارة، ومغامرة، وبهجة، وما فيه من عناد كريم، وعطاء جميل.

قالت الأم أيضًا: "أحيانًا كان يطلب منكِ ألا تفعلى أشياءً وتقولين له إنكِ لا تفعلينها، وأنت تفعلينها، فمثلاً إذا طلب منك ألا تستخدمى أحمر الشفاة، ومع ذلك تظلين تستخدمى هذا الشىء."

وكانت "إيند" تسمتع إلى هذه الأشياء بصبر ممتزج بالدهشة.

www.ibtesama.com

ثم أردفت الأم بحدة: "وهل استخرت الله فى هذه الأمور؟" فقالت "إيـنِد": نعم.

طبعًا انسحبت من معهد التمريض، واستقرت فى البيت، وشغلت نفسها بأى شىء. من ناحية المال كانت "مستورة"، تستطيع أن تستغنى عن العمل. والحق أن الأم نفسها لم تكن ترغب فى أن تمتهن الابنة مهنة التمريض فى الأساس، وكان مبررها فى ذلك أنها مهنة البنتات الفقيرات، أو مخرج أمام هؤلاء البنات اللائى يمنعهن الآباء الذين لا طاقة لهم على إرسال أولادهم إلى الكلية أو إبقائهم فى الكلية مدة الدراسة كلها. لم تُذَكِّر "إيـنِد" أمها بهذا التناقض فيما تقول. قامت بطلاء سور، وعملت فى ربط شجيرات الورود لاستقبال الشتاء. تعلمت صناعة الخبز، وتعلمت لعبة البردج، لتحل محل أبيها فى التنافس فى الألعاب الأسبوعية التى كانت تلعبهاالأم مع السيد والسيدة "ولنز" اللذين يسكنان فى البيت المجاور. وفى وقت قصير جدًا أصبحت – كما يقول السيد "ولنز" – لاعبة بردج فذة ومفترية. وراح السيد "ولنز" يزود "إيـنِد" بالشيكولاتة والورود الحمراء ليعوض بها عجزه فى مضمار الألعاب.

وكانت تذهب إلى التزلج فى أمسيات الشتاء، وكانت تلعب تنِس الريشة. لم يكن ينقصها الأصدقاء فى يوم من الأيام، وحتى الآن لا ينقصها الأصدقاء. أغلب الذين أنهم كانوا معها فى السنة الأخيرة من المدرسة الثانوية يوشكون على الحصول على الليسانس الآن، أو أنهممشغولون فى أعمالهم فى أماكن بعيدة، مدرسات أو ممرضات أو محاسبات محَكَّمات. وكان لها أيضًا أصدقاء مع آخرين من

www.ibtesama.com

اللائى تركن المدرسة قبل إتمام المرحلة الثانوية من أجل العمل فى بنوك أو محلات أو مكاتب، أو ليصبحوا سباكات، أو من بائعات القبعات. البنات فى هذه المجموعة كُنَّ يتساقطن كالفراشات، كما كُنَّ يصفن أنفسهن، يقصدن أنهن كنّ يتزوجن الواحدة بعد الأخرى. كانت "إيـنِـد" تنظم حفلات العروس، وتساعد فى حفلات جهاز العروس. فى خلال عامين أصبحت عرابة حفلات العماد المفضلة لدى الكثيرين، فأصبح الأطفال الذين تحضر عمادهم يكبرون وهم ينادونها "عمتى". وكانت قد أصبحت شيئًا مثل الابنة الفخرية لنساء فى مثل سن أمها وربما أكبر، الشابة الوحيدة التى كان لديها الوقت لحضور ندوات نادى الكتاب، وجمعية العنايةبالبساتين. وهكذا أصبحت وهى شابة صغيرة تضطلع بهذا الدور الأساسى والمركزى، ولكنه الدور الذى يضفى عليها مسحة من العزلة والانزواء.

والحق أنه كان دورها الذى اختارته طوال عمرها؛ فقد كانت فى المدرسة الثانويّة هى أمين سر الفصل، أو مسؤولة النشاط الاجتماعى فى الفصل. كانت محبوبة جدًا، ومرحة، وأنيقة، وشكلها جذاب، ولكنها فى الوقت نفسه معروفة بالانزواء القليل. كان لديها أصدقاء من الأولاد، ولكن ليس بمعنى الخليل. لم يلحظ أحدٌ أنها ذهبت إلى هذا الخيار أبدًا، ولم يلحظ أحدٌ أنها اهتمت بهذا الأمر أيضًا. شغلها طموحها ولم يترك لها وقتًا، أن تعد نفسها لتصبح داعية دينية فى مرحلة حرجة من حياتها، ثم طموحها لتصبح ممرضة بعد ذلك. لم يكن تفكيرها فى التمريض على أنه شيءٌ يشغلها حتى تتزوج، ولكنها كانت تأمل فى أن تقوم به بالطريقة المثلى، وليس

www.ibtesama.com

بالطريقة التقليدية العادية التى تستدعيها الضرورة، أو كما تفعل الزوجة مع زوجها المريض مثلاً.

كانت تذهب إلى الرقص فى رأس السنة فى دار مجلس المدينة، وكان الرجل الذى كانت ترقص معه فى كل مرة، والذى كان يصطحبها حتى إلى البيت بعد ذلك، وكان يضغط على يدها علامة على وداع آخر الليل، هو صاحب محل الألبان، فى الأربعينيات من عمره، ولم يتزوج أبداً، وكان يتقن الرقص، صديق فى حكم العم لكثير من البنات اللائى يئسن من الظفر بخليل، ولكن النساء لا يأخذنه مأخذ الجد.

كانت أمها تقول لها: "ربما الأفضل أن تدرسى التجارة، بالمناسبة لماذا رفضت الذهاب إلى الجامعة؟"

كانت الأم تقصد أن الرجال هناك أكثر من يعرفون قيمة وجود المرأة فى حياتهم. فقالت "إيـنِد":

"أصبحت أكبر من اللازم."

ضحكت الأم وهى تقول: "هذا وحده يدل على أنك شابة جداً." سرت فى نفس الأم راحة مصدرها اكتشاف تلك المسحة من الحمق الفطرى المناسب لسنها، يدل عليه أن المسافة بين الثانية والعشرين والثامنة عشرة كبيرة جداً.

علقت "إيـنِد": "لن أضيع الوقت فى مطاردة شباب الجامعة، وأنا على العموم مرتاحة هكذا، ثم لماذا تريدين التخلص منى يا أمى؟" ويبدو أن هذا العبوس والمشاكسة والحدة من الأمور التى تسعد الأم، وتؤكد على ثقتها فى بنتها، ولكنها بعد لحظة صدرت منها آهة مفعمة بالحسرة وهى وتقول: "ستدهشين من سرعة مرور السنين."

www.ibtesama.com

في تلك الفترة من شهر أغسطس انتشر مرض الحصبة، وكثرت حالات الإصابة به، مع عدد قليل من حالات شلل الأطفال في الفترة نفسها أيضًا. طلب منها الطبيب الذي كان يعالج أبيها، ولاحظ اهتمامها بالتمريض، أن تساعده في تمريض بعض المرضى في المنازل، لفترة معينة. وقالت له إنها ستفكر في الموضوع.

سألتها أمها عندئذٍ: "يعني استخارة؟" واتخذ وجه "إيِند" تعبيرًا يشي بالعناد والتحفظ، ما يعني في حالةِ فتاة أخرى أنه يتصل بصديق سوف تقابله.

وقالت لأمها في اليوم التالي: "الوعد إياه.. عن العمل في مستشفى، أليس كذلك؟"

وقالت الأم إنها فهمت الموضوع كذلك أيضًا على ذلك النحو، نعم. "وعن التخرج والتسجيل في مهنة التمريض؟" نعم.. نعم.

ولذلك إذا كان هناك ناس يحتاجون للتمريض في المَنزل، ولا يستطيعون الذهاب إلى المستشفيات بسبب الفقر، أو حتى الذين لا يريدون الذهاب إلى المستشفيات، وإذا كانت "إيِند" تذهب إليهم في بيوتهم لتمريضهم، لا كممرضة مسجلة، ولكن ما يسمونه الممرضة الممارسة، فهل تخلف وعدها في هذه الحالة؟ لا نظن. وإذا كان أغلب الذين يحتاجون إلى خدماتها من الأطفال والنساء في أثناء الولادة أو بعدها، أو الرجال الطاعنين على أسرة الموت، فهل يجعل ذلك طبعها فظًا؟ لا نظن.

"والله إذا كنتِ ضامنة أن الرجال المرضى الذين تعتنين بهم ممن لن يغادروا السرير إلا إلى القبر، يكون معك حق."

www.ibtesama.com

ولكنها لم تملك إلا أن تضيف أن كل ذلك يعنى أن "إيـنِد" قد قررت أن تتخلى عن إمكانية الظفر بوظيفة سهلة فى مستشفى، وفضلت بدلاً من ذلك العمل فى وظيفة تقصم الظهر. كما يقولون، فى بيوت بدائية بمبالغ مالية زهيدة جداً. ستجد "إيـنِد" نفسها تجلب مياه من آبار ملوثة، وتكسر قطع ثلج فى الشتاء، تغسل أحواض، وتطارد الحشرات فى الصيف، وتستخدم "تواليت" خارج البيت، وتنظف طاولات، وتضع زيت فى مصابيح بدلاً من تنظيف آلات كهربائية. كانت تسعى إلى العناية بالمرضى فى ظل هذه الظروف، وفى الوقت نفسه تؤدى أعمالاً منزلية، والأطفال المصابين بالحصبة أيضًا.

وقالت لها: "إذا كان هذا هو هدفك فى الحياة، فأنت مقدمة على الأسوأ، وكل ما أملكه هو أن أطلب منك عدداً من الوعود أيضًا.. حقى. أعطينى وعداً بأن تغلى الماء قبل شربه، وألا تتزوجى من فلاح."

وردت "إيـنِد": "من أكثر الأفكار جنونًا."

كان ذلك منذ ستة عشر عامًا، فى بداية هذه السنين كان الناس يزدادون فقراً. زاد عدد الذين عجزوا عن الذهاب إلى المستشفى، وكانت البيوت التى عملت فيها "إيـنِد" متدهورة جداً. كانت مضطرة إلى أن تغسل الملايات والمناديل بيديها فى بيوت تحطمت فيها آلات الغسيل ولا ينفع إصلاحها، أو فُصلت عنها الكهرباء ولن تعود، أو البيوت التى لم تدخلها الكهرباء من الأساس. لم تكن "إيـنِد" تعمل دون أجر؛ لأن ذلك لم يكن من العدل فى شىء بالنسبة للائى يعملن

www.ibtesama.com

فى مهنة التمريض، وليس معهن خيارات مثلها. ولكنها كانت تعيد المبالغ التى كانت تأخذها، على هيئة أحذية للأطفال فى الشتاء، ومعاطف ورحلات إلى طبيب الأسنان، وألعاب عيد الميلاد.

كانت أمها تذهب إلى بيوت أصدقائها تسألهم عن أسرة أطفال نقالة، ومقاعد عالية وبطانيات، وملايات سرير قديمة كانت هى نفسها تقصها لتصنع منها مناديل. وكان الناس جميعًا الذين تقابلهم يطلبون منها أن تكون فخورة بابنتها "إيند"، وكانت هى تقول: "نعم.. نعم." والحقيقة أنها فعلاً سببٌ للفخر. ولكنها كما قالت: "ولكن أحيانًا يكون العمل كثيرًا جدًا جدًا، ولابد أن أكون أمًا لقديسة."

ثم اندلعت الحرب، وحدث النقص الكبير فى الأطباء والمرضات، وأصبحت الحاجة لـ:"إيند" أشد من قبل. وأصبحت الحاجة إليها أشد بعد الحرب، تقوم على تمريض الكثير من الأطفال حديثى الولادة. والآن بعد أن زادت مساحات المستشفيات، وأصبحت المزارع أكثر ثراءً، أصبحت جهودها تتحول إلى العناية بالذين ابتُلوا بالأمراض الميئوس منها، والحالات الغريبة، والذين ابتُلوا بحدة الطبع الذى لا أمل فى علاجه، وطردتهم المستشفيات.

وشهد هذا الصيف هطولاً غزيرًا للمطر كل عدة أيام. ثم كشرت الشمس عن أنيابها، فنشفت الأوراق والأعشاب المبتلة، وأصبحت ساعات الصباح الباكرة مفعمة بالضباب، وهنا كانت السحب قريبة من النهر، وحتى عندما كانت السحب تنقشع كانت الرؤية صعبة أيضًا وفى أى اتجاه؛ بسبب طغيان الصيف وكثافة الهواء. وكانت

www.ibtesama.com

الأشجار الثقيلة، والآجام المحملة بثمار الكروم واللبلاب، وكذلك محاصيل الذرة والشعير والقمح والقش. كل شىء نضج قبل الأوان كما كان الناس يقولون. وكان القش جاهزًا لاستقبال مناجل الحاصدين فى شهر يونيو، وكان على "روبرت" أن يسرع إلى الذهاب إلى مخزن الحبوب قبل أن يفسده المطر.

كان يدخل البيت فى وقت متأخر، وفى ساعات المساء المتأخرة؛ بسبب انغماسه فى العمل إلى غياب الشمس. وفى ذات ليلة دخل البيت وكان مظلمًا، فيما عدا شمعة كانت ترسل الضوء من مائدة المطبخ. أسرعت "إيـنِد" إلى فتح ستارة الباب، وهتف: "الكهرباء مفصولة؟"

وقالت له إيـنِد: "إش إش. " قالت له هامسة إنها أرسلت البنتين للنوم فى الطابق الأول؛ لأن حجرات الطابق الثانى كانت تتقد بالحر. " كانت تضع المقاعد بجوار بعضها لكى تصنع منها أسرة عليها ألحفة ومخدات. وطبعًا كانت مضطرة إلى إطفاء الأنوار حتى تغرى البنتين بالنوم. وجدت شمعة فى أحد الأدراج، وكان ذلك كل ما كانت تحتاجه، لترى ما تكتبه فى مفكرتها.

قالت: "سيتذكرون عندما كانتا تنامان هنا، أنت نفسك تتذكر عندما كنت طفلاً صغيراً، وكنت تنام فى مكان ما مختلف. "

وضع صندوقًا يحتوى على مروحة سقف ليثبتها فى حجرة المريضة، اشتراها عندما كان فى "والاى"، واشترى أيضًا جريدة، أعطاها لـ: "إيـنِد"، وهو يقول لها: "أعتقد أنك تريدين معرفة ما يحدث فى العالم من حولك. "

www.ibtesama.com

بسطت الجريدة بجوار مفكرتها، على المائدة. فيها صورة لكلبين يلعبان بجوار نافورة. وقالت: "الجريدة تتحدث عن موجة حارة، أليس من الأفضل الوصول إلى معلومات حولها؟"

كان "روبرت" يرفع المروحة بحرص من الصندوق الذى كانت فيه وهى تقول: "عظيم.. نشغلها هنا الآن.. ولكن غداً سندخلها فى حجرتها، وسوف تريحها كثيراً. "

قال روبرت: "سأثبتها فى حجرتها فى الصباح الباكر. " ثم سأل عن أحوال المريضة، زوجته.. فى ذلك اليوم. "

وردت "إيـنِد" بأن آلام ساقيها تخف بالتدريج، وأن الأقراص الجديدة التى وصفها لها الطبيب بدت كأنها تصيبها بالإعياء الذى يضطرها إلى قسط من الراحة. "

وقالت: "المشكلة أنها تنام مبكراً، ما يجعلك غير قادر على زيارتها. " وعلق روبرت:

"النوم لها أفضل. "

ذكَّر هذا الحوار الهامس "إيـنِد" بحوارات كانت تديرها فى المدرسة الثانوية، عندما كانت هى وروبرت فى الفرقة الأخيرة، وتلك المضايقات، والمغازلات الفظة، أو الأشياء الأخرى، كلها الآن فى ذمة الماضى. طوال تلك السنة الأخيرة فى المدرسة الثانوية كان روبرت يجلس خلف "إيـنِد" فى الفصل، وكانا يتحدثان بهمس شديد، يعالجان موضوعاً عاجلاً: "هل معكَ ممحاة حبر؟، وكيف تتهجى كلمة "incriminate"؟ و"أين يوجد البحر التيرانى؟(١) عادة كانت "إيـنِد" تجلس على مقعدها وتشعر بوجود روبرت دون أن تسعى إلى النظر

www.ibtesama.com

فى وجهه، وكانت تعرف أنه هو الذى كان يبدأ تلك الحوارات. كانت ترغب فعلاً فى استعارة المحاة، والحصول على معلومات، ولكنها كانت تريد الظفر بالقبول الاجتماعى فى الوقت نفسه. أيضًا كانت تسعى إلى إصلاح ما كان يبدر منها من إهانات، كانت تخجل من طريقتها فى التعامل معه هى وأصدقاؤها، معاملة لا يغنى عنها الاعتذار الذى قد يدفعه إلى الاضطراب من جديد. لم يكن يصبح على طبيعته إلى عندما كان يجلس خلفها، ويعرف أنها لا تستطيع أن تنظر فى وجهه. فإذا تصادف أن قابلها فى الشارع، كان يتجنب النظر إليها حتى اللحظة الأخيرة، ثم تضطرب شفتاه بتحية مترددة لا يكاد يسمعها هو نفسه بينما كانت هى تحييه بصوت أشبه بالغناء: "هللووو روبرت"، فيسمع صدى النغمات القديمة التى كانت مصدرًا لعنائه، والتى كانت تسعى إلى التخلص منها.

ولكن عندما كان يريد أن يلمس كتفها بإصبعه، أو يربت عليه طلبًا للانتباه، كان ينحنى إلى الأمام، ويقترب من اللمس، وربما يتحقق (هى نفسها لا تكون على يقين) لمس شعرها الغجرى الكثيف حتى فى أثناء حركتها المفاجئة، كانت تشعر كأنه عفا عنها، وأحيانًا بأنه أكرمها، أو قد ردها إلى الجد والاحترام.

أين البحر التيرانى؟ أين بالضبط؟

تتساءل هل يتذكر شيئًا من هذه الأشياء الآن؟

فصلت الصفحات الأمامية من الجريدة عن الصفحات الخلفية. مارجريت ترومان كانت تزور إنجلترا، وانحنت أمام العائلة المالكة. كان أطباء الملك يحاولون علاجه من مرض بيرجر بفيتامين إى.

www.ibtesama.com

قدمت الصفحات الأمامية لروبرت وهى تقول له: "أريد أن ألقى نظرة على الكلمات المتقاطعة، أريد أن أحل الكلمات المتقاطعة، إنها تسبب لى الراحة النفسية فى نهاية اليوم."

جلس روبرت وبدأ يقرأ فى الجريدة، وسألته إذا ما كان يريد كوبًا من الشاى، وهو قال: إنه لا يريد أن يضايقها، ومضت لتعد له الشاي؛ فقد فهمت أنها إجابة تعنى الرغبة فى لغة الفلاحين.

قالت وهى تمعن النظر فى الكلمات المتقاطعة: "من سمات الجنوب الأمريكى، من سمات أمريكا اللاتينية، أفقى موسيقى... ثوب. ثوب موسيقى؟ ثوب. حروف كثيرة. آوه. أوه. أنا محظوظة الليلة. رأس هورن!

"شفت.. هذه أشياء مملة جداً." قالت ذلك ونهضت لتصب الشاى.

هل يتذكر لها ذلة؟ هل يتذكر لها ميزة؟ ربما يتذكر قدرتها العجيبة على إشاعة الود بين المحيطين بها فى أثناء السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية. وبدت له تلك الميزة مما لا يعجبه؛ إذ تشى برفعة شخصيتها وهيمنتها، كقدرتها على المرح الساخر.

عندما رأته أول مرة فى هذا البيت، اعتقدت أنه لم يتغير كثيراً. كان غلاماً طويل القامة، قوى البنية، مدور الوجه، وأصبح رجلاً طويل القامة، ثقيل الجسد، مدور الوجه. ما زال يقصر شعره كشأنه فى السابق، مما جعلها لا تلمس فيه نقصاً، أو تغيراً فى اللون، فلم تلحظ أنه تغير من اللون البنى الخفيف إلى البنى الرمادى. حلت سفعة الشمس على وجهه محل احمرار الخجل. ومشكلة حياته التى كانت

www.ibtesama.com

تقض مضجعه فى الماضى هى مشكلة حياته التى تقض مضجعه فى الحاضر: يريد أن يجد لنفسه مكانًا فى هذا العالم، والظفر باسم ينادونه به، الآن وقد أصبح الرجل الذى يجلس أمامها الآن.

طاف خيالها فى الماضى القريب، عندما كانا فى السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية، فصل صغير فى ذلك الوقت، فى بحر خمسة أعوام تساقط اللامجتهدون والطائشون واللامبالون، وبقى المعنون فى النضج والجادون والقابلون للتعليم يتعلمون حساب المثلثات واللغة اللاتينية. فما هو المستقبل الذى كانوا له يستعدون؟ وما تلك الحياة التى كانوا إليها يطمحون؟ وأى ضرب من البشر كانوا سيصبحون؟

ترى غلاف أخضر غامق ورقى لكتاب بعنوان: تاريخ عصر النهضة والإصلاح، مستعمل، الناس لا يشترون الكتب الجديدة اليوم، وفى داخل الكتاب قرأت أسماء جميع الذين امتلكوه، بعضهم من تجار المدينة وربات البيوت فيمنتصف العمر. لا يمكن أن يكونوا من الذين يقبلون على تعلم هذه الامور، أو يضعون الخطوط تحت عبارة "مرسوم نانتس"(٢) بحبر أحمر، ويكتب كلمة: "ملاحظة" فى الهامش.

مرسوم نانتس. هذه الكتب عديمة النفع، وطبيعة موضوعاتها الغريبة، والأشياء الأكثر غرابة التى تحتويها، وتدخل فى أذهان الطلاب، دخلت فى عقلها وفى عقل روبرت، ما يجعل "إيـنِد" تشعر بضعف ودهشة. ليس معناه أنهم سيتغيرون، وأنهم سيصبحون على غير ما كانوا فى السابق، لا شىء من ذلك. لم يكن لروبرت طموح غير القيام على زراعة هذه المزرعة، وكانت مزرعة لا بأس بها، وكان

www.ibtesama.com

ولداً وحيداً. هى نفسها انتهت إلى العمل الذى كانت تخطط له بالضبط، لا يمكن أن نقول إنهما اختارا المهن الخطأ، أو أن الحياة عاندتهم واختارت لهم غير ما كانوا يرغبون، أو أنهم عجزوا عن فهم خياراتهم فى هذه الدنيا. ولا تصدق أنهم كانوا يجهلون سرعة مرور الزمن، وقدرته الفذة على التدمير، وصراعه الأزلى مع البشر، وسعيه إلى النيل منهم.

"خبز الأمازون، خبز الأمازون؟" قالت.

"مانيوك؟" قال روبرت.

راحت "إيـنِد" تحصى الحروف: "سبعة حروف.. سبعة. "

"كاسافا؟" قال.

"كاسافا؟ هذه مضاعفة؟"

***

أصبح طبع المسز "كونْ" أكثر تقلبًا كل يوم فيما يتصل بطعامها. أحيانًا تقول إنها تريد خبزًا محمصًا، أو تريد موزًا باللبن مع هذا الخبز المحمص. ذات يوم طلبت كعك بزبدة الفول السودانى. وأعدت لها "إيـنِد" كل هذه الأشياء، والأطفال يأكلونها على كل حال، وعندما قدمتها للمسز "كونْ" رفضت النظر إليها أو شم ريحتها. ولم تطِق النظر فى حلوى "الجل O" أيضًا.

كانت تكره الضوضاء أيًا كان مصدرها فى بعض الأيام، حتى صوت المروحة كان يضايقها. وفى أيام أخرى كانت تطلب تشغيل الراديو، وكانت تطلب محطة ما يطلبه المستمعون، التى تذيع لهم أغانى أعياد الميلاد والأعياد السنوية، ويتصل المذيع بالناس ليسألهم

www.ibtesama.com

بعض الأسئلة، فإذا أجبت الإجابة الصحيحة عن السؤال، فزت برحلة إلى شلالات نياجرا، أو صفيحة كيروسين، أو جوال ملىء بالبقالة، أو تذاكر سينما.

وكانت المسز كونْ تقول: "كل شىء مفبرك، يتظاهرون بأنهم يتصلون بالناس، والناس فى الحجرة المجاورة للمذيعة أو المذيع، ويعرفون الإجابة، لأنهم يتلقوها منهم. أنا عارفة واحد كان شغال فى محطة راديو، إنها الحقيقة دون تزوير.

كانت نبضات قلبها متسارعة فى تلك الأيام، وكانت تتكلم بسرعة وبصوت خفيف لاهث، وكانت تسأل إيند: "ما هى ماركة السيارة التى مع أمك؟"

وتجيب إيند: "لونها كستنائى."

"الماركة.. الماركة؟" تسألها المسز كونْ:

وقالت "إيند" إنها لم تكن تعرف، وهى حقيقة. كانت تعرف الماركة، ولكنها نسيت. وكانت "كونْ" تسأل: "وهل كانت جديدة عندما اشترتها؟" وتجيب إيند: "نعم كانت جديدة، نعم ولكن ذلك من ثلاث أو أربع سنوات."

"وهل لا تزال تعيش فى ذلك البيت الكبير المبنى من الصخور بجوار بيت السيد "ولنز" والسيدة "ولنز"؟

وتجيب إيند: "نعم."

"وكم حجرة فى هذا البيت.. ست عشرة؟" تسأل كونْ.

"أكثر من اللازم."

"وهل حضرت جنازة السيد "ولنز" عندما قضى غرقًا؟"

www.ibtesama.com

وقالت إيـنِد: "لا.. لا أحب حضور الجنازات."

"كـان المفروض أن أذهب، لم يـكن المرض قد بـلغ بى هـذا الحد، كنت ذاهـبة مع أسـرة هـارفـى من الطـريق الـسـريع، دعونى للذهـاب معهم، ثم أبدت أمـها وأختـها رغبتهمـا فى الذهاب، ولم يكن المقعد الخلفى يتسع لنا. أخذت "كلايف" و"أوليف" سيارة أخرى، وحشرت نفسى معهم فى المقعد الأمـامى، ولكنهم لم يسـألونى. هل انتحر غرقًا بالفعل؟ هل ألقى بنفسه فى النهر؟"

تذكرت "إيـنِد" السيد "ولنز" وهو يعطيها وردة، بشهامته الممتزجة بالدعابة التى جعلت أعصاب أسنانها تؤلمها، كأنه بسبب كثرة تناول السكر.

"لا علم لى، ولا أعتقد ذلك، هل كان هـو المسز ولنز علـى ما يُرام؟ على مبلغ علمى كانت علاقتهما جميلة."

وردت المـسز كونْ: "أوه.. كـده.." ثم وهـى تحـاول تـقليـد طـريقـة إيـنِد المتحفظة فى الكلام:

"جـــــــ مـــيـــــ لــــــة."

كانت "إيـنِد" تجلس علـى الأريكة فى حـجرة المسز كونْ، أغلب الآثار المدمرة الناتجة عن حَكْ المسز كونْ لجلدها قد اختفت، وحتى رغبتها فى التبول الكثير اختفت، كانت تنام أغلب ساعات الليل، رغم نوبات ضيق التنفس والغضب التى كانت تـهاجمـها. كانت "إيـنِد" تستيقظ وتظل مستيقظـة لأسباب تخصـها؛ فقد بدأت ترى أحلامًا أشبه بـالكوابيس، أحلامًـا تـخـتلـف عن أية أحلام كـانت تـراهـا فى الماضى. كانت تحلم أنـها فى بيت غريب تتغير حجراته باستمرار،

www.ibtesama.com

وباستمرار كان فيه الكثير من العمل، أكثر مما تستطيع تحمله، مثلاً: عملٌ لم يتم ظنت أنها أنتهت منه، وما شئت من هذه الأشياء المحيرة التى لا تُحصى. ثم كان لها أحلامها الرومانسية أيضًا، كانت ترى رجلاً يقترب منها ويحوطها بذراعيه، أو يعانقها، ربما كان غريبًا، أو رجلاً كانت تعرفه، أو رجلاً يكون التفكير فيه بهذا الشكل مدعاة للدهشة والمزاح. كانت هذه الأحلام تزود همومها، وتسلمها إلى قليل من الحزن، يسعدها أن تعرف أنها خليقة بمثل هذه المشاعر، وأنها مشاعر ممكنة. قد تكون مشاعر مربكة، ولكنها لا تمثل شيئًا، لا تمثل شيئًا إذا قُورنت بالأحلام التى تقتحم ساعات نومها الآن. فى الأحلام التى تقض مضجعها الآن ترى نفسها وهى تمارس الجماع، أو على وشك ممارسة الجماع (فقد يمنعها عن ذلك غرباء أو متطفلون أو تغيرات فى الظروف) مع أطفالبدينين حديثى الولادة، وكانوا يرتبكون ويغضبون، أو مع مرضى وهم فى الضمادات، أو حتى مع أمها. تقهرها الرغبة، تشعر بحاجتها إلى الإشباع، وتتأوه فى الحلم، ثم تعود إلى عملها بشىء من غلظ الطبع، والنفعية المنذرة بالشر. كانت تقول لنفسها: "نعم.. هذا سيكفى. " وتقول: "سيكفى هذا إذا عدمت الأفضل. " وكان هذا البرود فى القلب، وهذا الحرمان الماثل كالحقيقة الراسخة، مما يؤجج شهوتها، ويزيد من توقها لمن يملأ أعماقها الفاغرة. كانت تستيقظ من نومها غير خجلة أو آسفة، يتصبب جسدها عرقًا وقد نال منها الإعياء، فتظل راقدة على السرير كالجثة الهامدة، حتى تعود إليها نفسها الأولى المفعمة بالخجل والحياء واللايقين. يبرد العرق على جلدها، وتظل راقدة، تسرى فى

www.ibtesama.com

جسدها رجفة مثقلة بالاشمئزاز والإهانة. لم تكن تجرؤ على العودة إلى النوم. اعتادت النظر إلى النوافذ المظلمة المستطيلة، وستائرها النظيفة الأنيقة التى استقبلت الضوء القادم على استحياء. وكانت أنفاس المريضة تخرج من صدرها مزعجة مؤنبة، وسرعان ما تختفى.

فلو كانت من طائفة الكاثوليك، فهل كانت ستخضع كل هذه التفاصيل لكرسى الاعتراف؟ هذه أمور لا تستطيع إفشاءها حتى فى صلواتها الخاصة. على كل حال هى لا تحافظ على الصلاة بانتظام، تصلى فى الكنيسة أحيانًا، وفكرة المناجاة بهذه التجارب التى مرت بها، فكرة لا فائدة من ورائها، بالإضافة إلى أنها تجارب تفتقر إلى الاحترام المطلوب. فكيف تعرضها على خالقها؟ أليس هذا مما يهين! ألم يهنها عقلها الآن؟ كانت ديانتها مفعمة بالعفو والمغفرة، ومفعمة بالإحساس بمشاعر الناس، وليس فيها متسع لمثل هذه التُرَّهات، هذه من عمل الشيطان الذى يقتحم الأحلام، وينغص على الناس ساعات النوم. كان الفساد فى عقلها فساد يخصها، وليس هناك من فائدة فى تفريغه فى قالب مسرحى وعرضه على الجمهور، وخلع الأهمية عليه. لا حاجة فى ذلك، لا يعدو أن يكون نفاية من نفايات العقل.

كانت بعض الأبقار ترعى العشب فى المروج بين المنزل وضفة النهر، تناهى إلى سمعها صوتها وهى تمضغ الطعام وتتدافع بالمناكب، فى الليل. تذكرت أحجامها الكبيرة، وأشكالها الأنيقة وحركاتها الراقصة ومرحها بين أزهار السريس والأعشاب المثقلة

www.ibtesama.com

بالزهور، وقالت فى نفسها إن الأبقار تحيا حياةً قوامها البهجة، الأبقار.

ولكنها حياة تنتهى فى المسلخفى الواقع. النهاية كارثة.

وهذا ينطبق على الناس أيضًا، الشىء نفسه. الشر ينشب أظافره فى أعناقنا ونحن نيام، والألم والدمار ينتظراننا على أحر من الجمر. تخيفنا كوابيس الأحلام بالحيوانات المرعبة، الأسوأ من خيالاتنا قبل أن نحلم. الشعور بالراحة فى الفراش، وأنفاس الأبقار، وإيقاع نجوم الليل وأشكالها، كل ذلك يمكن أن ينقلب رأسًا على عقب بين غمضة عين وانتباهتها. وانظر إلى "إيند" تحرق شمعة حياتها عبثًا وهى لا تدرك ذلك، تحاول أن تخفف آلام الناس، تتدثر بدثار الطيبة، امرأة طيبة، ملاك الرحمة كما كانت تصفها أمها، ومضى الزمن يخلخل المفارقات، تسمعها من المرضى كما تسمعها من الأطباء.

وهى تمضى فى حياتها، كم عدد الذين أقروا بحمقها؟ إنهم نفس الذين تسهر على راحتهم، إنهم يحييونها فى العلن ويزدرونها فى السر، لن يفعلوا مثلها، لن يحترقوا من أجل الآخرين، للحمق حدود. أجل.. للحمق حدود.

المذنبون البائسون، عبارة قفزت إلى ذهنها. المذنبون البائسون.

والله يغفر للأوابين.

وكذلك نهضت وذهبت إلى عملها؛ إنها الطريقة المثلى للتوبة، الطريقة التى لا تعرف غيرها. كانت تعمل فى هدوء ولكن بإصرار ومثابرة واستمرار خلال الليل كله، تغسل الكئوس الملطخة، والأطباق

www.ibtesama.com

اللزجة بعد أن أخرجتها من مقارها المعلومة فى خزائنها، وتقر النظام فى الأمكنة التى تشيع فيها الفوضى. والأمكنة التى لم تعرف النظام من قبل. فقد كانت أكواب الشاى مستقرة بين زجاجات الكتشب والخردل، وكان ورق التواليت فوق كومة من قوارير عسل النحل. لم يكن الورق المشمع موجوداً، ولا حتى ورق الجرائد على الأرفف. وكان السكر البنى فى الزكائب صلداً كالصخر. يعرف الجميع أن الأمور كانت تزداد سوءًا كل يوم فى الأشهر القليلة الأخيرة، ولكن الزائر الطارئ قد يُلقى فى روعه أن البيت لم يعرف النظام من الأصل، وأن الترتيب ليس من ديدن أصحابه. كانت الستائر النظيفة قد اكتسبت اللون البنى بسبب الدخان، وزجاج النوافذ كانت قد تلطخت بدهون من كل نوع. وأما بقايا المربى فقد تُركت فى المرطبان لتنمو عليها طبقة من الزغب، ومياه ساءت رائحتها فى إبريق لعله كان يحمل باقة قديمة من الزهور، لم تُجَدَّد. ولكن البيت لا يزال بيتًا ملائمًا رغم كل شىء، يستعيد رونقه بعد القليل من الكنس والطلاء. رغم أن المرء يُحار فيما يمكن فعله مع الطلاء البنى القبيح الذى تم به طلاء باب الحجرة الأمامية فى الفترة الأخيرة بإفراط شديد؟

وعندما توفر لها الوقت فيما بعد فى أثناء النهار راحت تنزع النباتات الضارة من أحواض الزهور التى زرعتها أم روبرت، وخلعت النباتات الشائكة، وانتزعت العشب الذى كان يخنق النباتات المعمرة.

علمّت البنتين كيف تستخدمان الملاعق بطريقة صحيحة، وعلمتهما البسملة، وبعض كلمات:

www.ibtesama.com

الشكر لك يا رب لأن العالم جميل،

الشكر لك يا رب لأنك تطعمنا.

وعلمَتهما استخدام فرشاة الأسنان، وعلمتهما بعد ذلك الصلاة.

"اللهم بارك فى أمى وأبى وإيـِند وعمتى أوليف وعمى كلايف والأميرة إليزبث ومارجريت روز." وبعد ذلك أضافت كل واحدة منهما اسم الأخرى، وظلا يقومان بذلك زمنًا إلى أن قالت سلفى: "وماذا يعنى ذلك؟"

وأجابتها إيـنِد: "يعنى إيـه "ماذا يعنى ذلك"؟"

"ماذا يعنى "اللهم بارك"؟"

كانت إيـنِد تتقن عمل شراب البيض (من البيض واللبن والسكر وجوز الهند)، دون أن تمزجه بنكهة الفانيليا، وكانت تطعمه للمسز كونْ من ملعقة، وكانت تطعمها بقليل من هذا السائل الغنى بالعناصر الغذائية مرة واحدة كل فترة، وكانت المسز كونْ تستطيع أن تسيطر على ما كان يُعطى لها بكميات صغيرة، فإذا لم تستطع كانت إيـنِد تقدم لها مشروب الزنجبيل الفوار الفاتر.

كانت المسز كونْ تكره ضوء الشمس - أو أى ضوء - كراهيتها للضوضاء. وكانت إيـنِد مضطرة إلى نشر اللحافات الثقيلة على النوافذ، حتى عندما تكون الستائر مسدلة. بذلك تكون الحجرة متقدة بالحر لأن المسز كونْ لا تطيق صوت المروحة، فكان العرق يتصبب من جبهة إيـنِد وهى منحنية على سرير المريضة التى تقوم على رعايتها. وكانت نوبات الارتعاش تهاجم المسز كونْ فلا تفلح اللحافات والبطاطين فى تدفئتها.

www.ibtesama.com

قال الطبيب: "هذا نوع من تفاقم الحالة سببه هذا الشراب المصنوع من اللبن الذى تعطيه لها، هو الذى يجعلها ترتجف." وقالت إيـنِد بسرعة: "شراب البيض، " كأن الاسم هو الذى كان يهم الطبيب.

بدأ التعب ينال كثيراً من المسز كونْ، التعب الشديد والعجز عن الكلام، وأحيانًا يُغمى عليها، وتخرج أنفاسها ضعيفة، وتقل ضربات قلبها حتى تكاد تنعدم، ولو كنت مكان إيـنِد لظننت أنها ماتت. وفى أحيان أخرى نجدها تستعيد قوتها وتطلب تشغيل الراديو، ثم تطلب إغلاقه. لا تزال تعرف من هى، ومن إيـنِد، وكان يبدو عليها أحيانًا أنها تراقب إيـنِد بنظرة مستطلعة متسائلة فى عينيها. غابت الألوان عن وجهها منذ فترة، وحتى عن شفتيها، ولكن عينيها بدتا أكثر خضرة مما كانت عليه فى الماضى - خضرة ممتزجة باللون اللبنى الداكن، وحاولت إيـنِد الإجابة عن الأسئلة التى تشى بها تلك النظرة، وهى منحنية تؤدى واجبها:

"هل تريدين أن أتصل بقسيس يتحدث معك؟"

وبدا كأن المسز كونْ تريد أن تبصق، وقالت:

"وهل ترين أنى أسكر كثيرًا؟"

"كاهن؟" قالت إيـنِد. كانت تعلم أن السؤال مناسب، ولكن نبرة سؤالها لم تكن مناسبة، كانت باردة مثقلة بالنذُر.

لا. لم يكن ذلك ما كانت تريده المسز كونْ، أصدرت صوتًا كالشخير يشى بشقائها المرير. كانت لا تزال تمتلك بعض الطاقة، وكانت إيـنِد تشعر أنها تتمسك بهذه الطاقة لغرض ما. "هل تريدين

www.ibtesama.com

الحديث مع ابنتيك؟" سألتها بنبرة حمّلتها بالشفقة والتشجيع.
فأجابت كونْ:

"هل هذا ما أردت؟"

لا.

"زوجك؟ سيكون هنا بعد لحظات."

لم تكن إيـنِد تعلم ذلك على وجه اليقين، فقد كان روبرت يصل متأخرًا فى بعض الليالى، بعد أن تكون المسز كونْ قد تناولت آخر حبات الدواء، واستسلمت للنوم العميق. بعدها كان يجلس مع إيـنِد. وكان يحضر معه الجريدة دائمًا، وكان يطلب منها أن ترفده بما كتبت فى مفكرتها، ولاحظ أن لديها مفكرتين - وقالت له إن الأولى تخص الطبيب، فيها تسجل ضغط الدم وسرعة ضربات القلب ودرجة الحرارة، وتسجل فيه ما أُكِل وما شُرِب، وما تم تقيؤه، والأدوية التى دخلت معدتها، وملخص عام حول حال المريضة. وفى المفكرة الأخرى كانت خاصة بها هى، تسجل فيها أغلب المعلومات التى قيدتها فى المفكرة الأولى، رغم بعض الاختلافات، ولكنها كانت تضيف بعض التفاصيل عن الطقس، وما كان يدور حولها من أحداث. الأحداث التى لا تُنسى.

قالت: "على سبيل المثال: دونت شيئًا أول أمس، شيئًا قالته لويس، دخلت لويس وسلفى عندما كانت المسز جرين هنا، وكانت المسز جرين تروى كيف كانت شجيرات العنبية تنمو بطول الممر، وتمتد عبر الطريق، وكانت لويس تقول: "مثلما نقول الجمال النائم." لأنى قرأت لهما القصة، وسجلت هذه الملاحظة."

www.ibtesama.com

وقال روبرت: "سوف أهتم بهذه الشجيرات، وأقطعها."

وشعرت إيـنـدِ أنه كان سعيداً بما قالته لويس، وبتسجيلها للملاحظة، ولكنه لم يكن يستطيع أن يقول لها ذلك.

وذات ليلة أخبرها أنه يريد أن يسافر يومين، لحضور مزاد بضائع، وكان قد طلب من الطبيب ذلك، ولم يجد الطبيب مانعاً.

فى تلك الليلة حضر قبل أن تتناول آخر حبات الدواء، واعتقدت إيـنـدِ أنه يمكن أن يثير مشكلة بسبب رؤية زوجته مستيقظة قبل قليل من قدومه. طلبت منه أن يتجه مباشرة إلى حجرة المسز كوِنْ، وكذلك فعل، وأغلق خلفه الباب. وتناولت إيـنـدِ الجريدة وفكرت فى الصعود إلى الطابق الثانى لتقرأها، ولكنها تذكرت أن البنتين قد لا تكونا قد نامتا بعد؛ وربما وجدتا من المبررات ما يجعلها تنصاع لطلبهما دخول حجرتهما. كان فى وسعها أن تتجه إلى الشرفة، ولكن البعوض كثير فى ذلك الوقت من النهار، خاصة بعد الأمطار التى سقطت بعد الظهر.

خشيت أن يتناهى إلى أذنيها بعض الكلمات الحميمة، أو ربما بوادر عراك، ثم تضطر إلى مواجهته عند الخروج. كانت المسز كوِنْ تعد نفسها لاستعراض ما، من ذلك النوع الذى تعرفه إيـنـدِ حق المعرفة. وقبل أن يستقر أمرها على الوجهة التى تريدها تناهى إلى أذنيها شىء، لم يكن متصلاً بالاتهامات المضادة، أو (كلما أمكن) بعبارات إطراء، أو ربما البكاء الذى لم تكن تتوقعه كثيراً، ولكنها سمعت ضحكًا. سمعت المسز كوِنْ تضحك ضحكات ضعيفة، ضحكات مفعمةبالسخرية والرضا فى آن، من ذلك النوع الذى

www.ibtesama.com

سمعته أيـنِد قبل اليوم، ولكنها سمعت فيه شيئًا لم تسمع به فى حياتها أبدًا، شيئًا ممتزجًا بالخبث المقصود. لم تتحرك، رغم أنه كان يجب أن تفعل، وظلت واقفة عند المائدة، كانت لا تزال هناك تحدق فى باب الحجرة عندما خرج بعد ذلك بلحظات. لم يستطع أن يتجنب عينيها، ولم تستطع أن تتجنب عينيه. التقت العيون رغم الجفون، ورغم ذلك لم تتأكد من أنه رآها، لقد حدجها بنظرة ومضى فى طريقه إلى خارج الحجرة. بدا كأنه أمسك بسلك كهربائى عارٍ، أو أن جسده استسلم لهذه الكارثة الحمقاء.

وفى اليومالتالى عادت إلى المسز كونْ قوتها المعهودة، بتلك الطريقة الغريبة الخادعة التى شهدتها إيـنِد مرة أو مرتين عند آخرين. طلبت المسز كونْ أن تجلس تسند ظهرها على المخدات، وطلبت تشغيل المروحة.

قالت إيـنِد: "فكرة جيدة جدًا. "

"سأروى لك شيئًا لن تصدقيه، " قالت المسز كونْ.

فقالت إيـنِد: "الناس يروون لى أشياء كثيرة. "

فقالت المسز كونْ: "تأكدى أنها أكاذيب، أراهنك.. كلها أكاذيب، هل تعرفى أن السيد ولنز كان هنا فى هذا الحجرة؟"

www.ibtesama.com

III

خطأ

كانت المسز "كونْ" جالسة على المقعد لتفحص عينيها، وكان السيد "ولنز" أمامها مباشرة يقترب بأداته من عينيها، ولم يشعر أىٌ منهما بدخول "روبرت"؛ فالظن أنه كان مشغولاً بقطع الخشب من الأشجار القائمة على ضفتى النهر، ولكنه قرر العودة متسللاً. عاد متسللاً من المطبخ دون أن يحدث أية ضوضاء. لابد أنه رأى سيارة السيد "ولنز" أمام البيت قبل أن يقرر العودة. فتح الباب المفضى إلى تلك الحجرة بيسر، حتى رأى السيد "ولنز" هناك يقترب بأداته من عينى المسز كونْ، ويضع اليد الأخرى على ساقها حتى يحفظ توازنه. إنه يعتضد بساقها حتى يحفظ توازنه، فتجعدت تنورتها، وانحسرت عن الساق، بدت لها الأمور طبيعية، ولم تكن تملك إلا أن تحافظ على سكونها.

إذن تسلل "روبرت" إلى الحجرة دون أن يشعر بدخوله أحدٌ منهما، ثم قفز فى الهواء وهبط فوق السيد "ولنز" كأنه عاصفة رعدية هبطت من السماء، ولم يستطع السيد "ولنز" النهوض أو حتى الالتفات، وقع "روبرت" فوقه قبل أن يتعرف عليه، وراح يضرب رأسه على الأرض ضربات متتالية، لقد قتله. وقفزت هى قفزة لم تتجاوز بعدها المقعد الذى انقلب، فانقلب معه صندوق السيد "ولنز" وتبعثرت

www.ibtesama.com

محتوياته على الأرض، أدواته الخاصة بالعيون. وعاد "روبرت" إلى تسديد الضربات القاتلة، وربما ركض رجل الموقد، لم تفهم. قالت فى نفسها: إن دورها آتٍ لا محالة، ولكنها لم تستطع الدوران حول الرجلين نشدانًا للهرب. ثم لاحت على وجه "روبرت" علامات على أنه لن يتعقبها بعد أن يفرغ من السيد "ولنز". أضف إلى ذلك أن قواه قد خارت، ولم يبق منها ما يعينه على إعادة المقعد إلى سيرته الأولى، والجلوس عليه. ومضت هى إلى السيد "ولنز" وحاولت أن ترفعه، فلم تُوفَق. كان ثقيل الجسم ولا يزال، لم تستطع إعادته إلى أى جانب من جانبيه. كانت عيناه نصف مفتوحتين، ورأت لعابًا يسيل من جانب فيه، ولكن وجهه كان سليمًا؛ خلا من الكدمات والخدوش، أو ربما ظهرت الكدمات بعد حين. وحتى اللعاب القادم من فمه لم يكن دمًا، كان سائلاً لونه أحمر فاتح، وإذا كنت تريد أن تعرف ماذا يشبه بالضبط فما عليك إلا أن تتخيل الرغوات التى تظهر عند غلى الفراولة عند عمل المربى. لون أرجوانى فاتح، أو أحمر فاتح انتشر على صفحة وجهه عندما دعك "روبرت" وجهه على الأرض. وعندما حاولت "كونِ" أن تعدله صدر منه صوتٌ أيضًا؛ صوت يشبه البقبقة، قبل أن يصمت. صمت هناك كما تصمت الأحجار.

ونهض "روبرت" من فوق المقعد الذى كان لا يزال يهتز، وراح يلتقط الأشياء التى تبعثرت على الأرض، ويعيدها إلى صندوق السيد "ولنز"، ثم راح يعيد كل شىء إلى مكانه فى الصندوق، وكان يضيع الوقت بهذه الطريقة، فقد كان صندوقًا خاصًا محميًا بطبقة من القطيفة، وفيه لكل أداة من الأدوات جيبٌ تُوضع فيه، وكان على

www.ibtesama.com

"روبرت" أن يعيد كلَّ شيء إلى موضعه وإلا استعصى على الإغلاق.
أعاد روبرت كلُّ شيء إلى أصله، وعاد يجلس على المقعد من جديد، ثم طفق يضرب على ركبتيه بكلتا يديه.

رأت "كونْ" قطعة مفرشًا على المائدة، ذكرى من أبوى "روبرت" عندما ذهبا إلى الشمال لرؤية التوائم الخمسة، أخذتها "كونْ" وطوقت بها رأس السيد "ولنز" لتجفف السائل الأحمر الفاتح الخارج من جانب فيه، بعد ذلك توقفا عن النظر إلى جسده المسجى.

كان روبرت لا يزال يضرب على ركبتيه العظيمتين المفرطحتين، قالت له "كونْ": يجب أن ندفنه فى أى مكان.

وخصها "روبرت" بنظرة مفعمة بالتساؤل، ولسان حاله يقول: "لماذا؟"

وقالت: "نستطيع أن ندفنه فى القبو، أو فى بير السلم، الأرض هناك ترابية وتقبل ذلك."

فقال "روبرت":

"طيب.. تمام.. وأين ندفن سيارته؟

وقالت "كونْ": نستطيع أن نضعها فى الزريبة، ونغطيها بالتبن.

وقال إن كثيرًا من الناس يغشون هذه الزريبة، ويتجولون على راحتهم. ثم راح عقلها يضرب أخماسًا فى أسداس، وما لبثت أن قالت: "فلنلقى به فى النهر،" وتخيلته جالسًا فى سيارته تحت المياه، طافت الفكرة فى ذهنها كالصورة، لم يتكلم "روبرت" فى البداية، ولذا فقد ذهبت إلى المطبخ، وأحضرت المياه، وراحت تغسل السيد "ولنز" حتى توقف فمه عن إنتاج السوائل. تناولت مفاتيحه التى كان يضعها

www.ibtesama.com

فى جيبه، كان فى وسعها الشعور بالدفء لا يزال فى ساقه، قالت لـ "روبرت":

"تحرك شوية."

تعاونا فى رفع السيد "ولنز"، كانت تمسك بأقدامه، وكان "روبرت" يمسك برأسه، كأن وزنه طنٌ من اللحم الأثقل من الرصاص. وبينما يحملانه ارتطمت إحدى قدميه بها، بما بين ساقيها، وقالت فى نفسها: "يا لك من شيطان خبيث، حتى وأنت ميت! حتى ساقه الميتة لا تزال قادرة على المداعبة." هذا ليس معناه أنها أتاحت له فعل أى شىء فى يوم من الأيام، ولكنه كان يتربص بها دائمًا، ومستعدًا للظفر بأى لمسة إذا استطاع، مثلما كان يضع يده على ركبتها عندما اقترب من عينيها بأدواته، ولم تتمكن من إيقافه، عندما جاء "روبرت" متسللاً وأساء فهم الموقف.

عبر به عتبة الباب، مرورًا بالمطبخ فالصالة ووصولاً إلى عتبة الصالة. الطريق مفتوح، ولكن الرياح كانت قوية فى ذلك اليوم، فى البداية أطاحت الريح بالمفرش التى طوقت بها رأس السيد "ولنز" ووجه.

لم يكن فناء البيت يُرى من الطريق، وكان ذلك لحسن الحظ. لم يكن يُرى إلا أعلى السقف، ونافذة الطابق الثانى. لم يكن من الممكن أن يرى أحدٌ سيارة السيد "ولنز".

وعرف "روبرت" الآن دوره، يأخذه إلى "جتلاند"، حيث المياه العميقة، والطريق الممهد فى الذهاب والإياب، فقد يبدو الأمر كأن السيد "ولنز" سار بسيارته من الطريق الرئيس وضل. أو كأن

www.ibtesama.com

سيارته حادت عن طريق "جتلاند": فقد كان الظلام كثيفًا، وسقط فى المياه قبل أن يعرف أين هو. كأنه ارتكب خطأً.

أجل فعل. ارتكب السيد "ولنز" خطأً.

كانت المشكلة فى قيادة السيارة من الممر الذى فيه يسكنان، وعلى طول الطريق إلى منعطف "جتلاند". ولكن لا يوجد من يسكن هناك، وكان الطريق مسدودًا بعد منعطف "جتلاند"، نصف ميل ليس إلا تدعُ الله ألا يقابلك أحد. ويحمل روبرت السيد ولنز ويضعه على مقعد السائق، ويدفع السيارة إلى ضفة النهر، ويلقى بها فى المياه، ويلقى بالأشياء كلها فى المستنقع، إنه لعمل شاق، ولكن روبرت فتىً قوى، فإذا لم يكن فتىً قويًا لما كانا الآن فى هذه الورطة من الأساس.

واجه روبرت مشكلة صغيرة فى حمل السيارة على الانطلاق؛ لأنه لم يقد سيارة مثلها أبدًا، ولكنه استطاع تشغيلها آخر الأمر، ومضى بها تحمل السيد "ولنز" الذى راح جسده يعلو ويهبط، ثم عمد إلى وضع قبعة السيد "ولنز" على رأسه، القبعة التى كان يضعها "ولنز" على مقعد السيارة قبل أن يدلف إلى البيت.

لماذا كان يخلع قبعته قبل أن يدلف إلى البيت؟

ليس من منطلق الأدب والشياكة، وإنما لكى يتيسر له السيطرة عليها، والظفر بقبلة. هذا إذا كنت تريد أن تسمى ما يظفر به قبلة، هذا الدفع بها والصندوق لا يزال فى يد، واليد الأخرى تمسك بها، هذا التقبيل بهذا الفم الذى يسيل منه اللعاب، يقبل ويمضغ شفتيها ولسانها ويدفع نفسه إلى جسدها، بينما يقع عليها جزءٌ من

www.ibtesama.com

الصندوق، ويصطدم بمؤخرتها، وتستولى عليها الدهشة وهو يمسك بها، وهى لا تعرف إلى الفكاك منه طريقًا. الدفع والمص والسائل المنساب، والكر والفر، والألم الذى تشعر به، كل ذلك فى وقت واحد. وحش من وحوش الأرض تقدم به السن!!

تناولت المفرش وألقت به فوق السور، وأمعنت النظر فى عتبة الباب بحثًا عن دمٍ على السلالم، أو أى اضطراب فى الصالة، أو فى المطبخ، ولكن الاضطراب لم يكن يتجاوز الغرفة الأمامية، وبعض الاضطراب على حذائها. مسحت ما علق على الأرض، وما علق على حذائها الذى خلعته، وما فرغت من كل ذلك حتى لمحت مادة لزجة على جبينها. متى وصلت هذه المادة اللزجة؟ وفى اللحظة التى رأت هذه البقعة اللزجة على جبينها سمعت ضوضاءً أسلمتها إلى صمت عميق. سمعت سيارة، وسيارة لم تكن تعرفها، وكانت قادمة عبر الممر.

تطلعت من خلال الستارة النظيفة وتأكدت، سيارة جديدة خضراء غامقة. جبهتها الملطخة وحذاؤها المخلوع والأرض المبتلة، انتقلت إلى الخلف فى مكان لا تُرى فيه، ولكنها لم تعرف أين تختبئ. توقفت السيارة وفُتِح بابها، ولكن المحرك لم يتوقف. سمعت الباب يُغلق، واستدارت السيارة دورة كاملة وسمعت صوتها العائد عبر الممر الضيق. وسمعت "لويس" و"سلفى" فى الحجرة الأمامية.

سيارة صديق المُدَرِّسة، كان يقوم بتوصيل المُدَرِّسة بعد ظهر كل يوم جمعة، وكان اليوم يوم الجمعة. وقالت له المدَرِّسة: ولماذا لا نأخذ هاتين البنتين معنا إلى بيتهما؛ فهما أولاً صغيرتان، وثانيًا المسافة بعيدة، ويبدو أن السماء حبلى بالمطر الذى قد يسقط فى أية لحظة.

www.ibtesama.com

وسقط المطر بالفعل. بدأ المطر يتساقط فى اللحظة التى كان فيها "روبرت" فى طريق العودة مشيًا إلى البيت على طول ضفة النهر. قالت: من حسن حظك أن المطر يتساقط ليملأ المكان بالوحل. وقال هو إنه سوف يخلع حذاءه، ويمشى على قدميه الغائبتين فى الجورب، وقالت له: حتى لا يعود إليك عقلك من جديد.

وبدلاً من نقع المفرش التذكار، وتنظيف البلوزة التى كانت ترتديها، قررت حرق كل شىء فى الموقد. كانت رائحتهم فظيعة، وتقززت من الرائحة أيما تقزز. وكانت تلك اللحظة هى بداية مرضها. تلك الرائحة، وذلك الطلاء. فبعد أن نظفت الأرض، رأت فى ركن من الأركان بقعة، وتناولت الطلاء البنى الذى كان يطلى به "روبرت" السلالم، ونظفت به الأرضية كلها. وكان ذلك بداية التقيؤ، والانحناء وتنفس هذا الطلاء، والآلام فى ظهرها، كانت تلك هى البداية.. أيضًا.

وبعد أن انتهت من طلاء الأرضية، توقفت عن المضى إلى الحجرة الأمامية، ولكن ذات يوم عَنَّ لها أن وضع مفرش جديد على المائدة سيكون أفضل، وسيجعل الأمور تبدو أكثر عادية، وإذا لم تفعل فإن أخت زوجها ستأتى حتمًا، وتتجسس وتتساءل: "وأين المفرش الذى أحضره أبى وأمى من الشمال؟ فإذا وجدت مفرشًا مختلفًا على المائدة ستقول: "أوه.. أشعر أن هناك تغيير. " ولكن عدم وضع أى مفرش سيجعل المائدة تبدو غريبة.

وبذلك وضعت على المائدة مفرشًا كانت حماتها طرزته بسلال الورود، ولكنها كانت لا تزال تشم الرائحة. وعلى المائدة كان يقبع صندوق السيد "ولنز" الأحمر الغامق محتويًا على أدواته، واسمه

www.ibtesama.com

المكتوب عليه، ولم تتذكر أنها هى التى وضعته هناك، أو أنها رأت "روبرت" كان يضعه هناك. لقد نسيت كل شىء.

أخذت ذلك الصندوق وأخفته فى مكان، ثم أخفته فى مكان آخر دون أن تخبر بذلك أحداً، ولم تكن تنوى أن تخبر أحداً. فكرت فى تحطيمه، ولكن كيف السبيل إلى تحطيم محتوياته المعدنية التى تقبع داخله؟ وعَنّ لها أن تلقى نظرة فيما حواه. أدوات يستخدمها فى الفحص، أيتها السيدة المبجلة، هل ترغبين فى أن أفحص لك عينيك، ما عليك إلا الجلوس هنا، والاسترخاء، وإغلاق عينٍ واحدة، وفتح الأخرى على آخرها، افتحى عينك الأخرى على آخرها، الآن. اللعبة نفسها فى كل مرة، ولم يخطر على بالها أن تشك فيما يحدث، وعندما يضع هذه الأداة فى عينيها كان يطلب منها أن ترفع بنطلونها، وهذا الحيوان القمىء المنتفخ تتسلل أصابعه إلى جسدها فيما يدعو إلى التقزز. ولم يكن يُتاح لها أن تتفوه بكلمة حتى يفرغ من العمل، ويعيد أداته تلك إلى مكانه الطبيعى فى الصندوق، ثم ينتهى الأمر بسؤال تسأله: "حسناً يا سيد "ولنز"، كم تريد منى أن أدفع اليوم؟"

وكان ذلك عنده علامة على التخلى عنها، والابتعاد عنها كجدى عجوز، وهو يتمنى أن يطرحها على الأرض العارية، ويعلو بها وينخفض، وربما استولت عليها الرغبة فى سحقها سحقاً. عليه اللعنة.

وكيف أحببت ذلك؟

ثم انتشر الخبر فى الصحف: العثور على السيد "ولنز" غارقاً. قيل إنهم وجدوا رأسه وقد تحطمت على عجلت القيادة. وقالوا: إنه كان حياً عندما ذهب إلى المياه. شىء مضحك.

www.ibtesama.com

IV

أكاذيب

ظلت "إيند" مستيقظة طوال الليل، لم تسع إلى النوم سعيًا، ولم تستطع الاضطجاع فى حجرة المسز "كونْ"، جلست فى المطبخ ساعاتٍ وساعات، الحركة عندها جهدٌ جهيد، حتى صنع كوبٍ من الشاى، أو الذهاب إلى الحمام. مجرد تحريك جسدها كفيل بإثارة التساؤلات، قد يشى بأنها تسعى إلى استخدام عقلها، وتواصل السعى. لم تكن تخلع ملابسها بنفسها، ولم تكن تمشط شعرها بنفسها، وعندما كانت تنظف أسنانها بالفرشاة يبدو عليها الإرهاق كأنها بذلت جهدًا كبيرًا وغريبًا. تسلل ضوء القمر من نافذة المطبخ، وكانت هى تجلس فى الظلام، ورأت بقعة من النور تتحرك فى الظلام، على الأرض المغطاة بالمشمع، ثم تختفى، واستغربت لاختفائها، ثم استغربت من الطيور التى تستيقظ، والفجر يؤذن بيوم جديد. بدا الليل طويلاً غاية الطول، ثم قصيرًا غاية القصر، ولم تقرر شيئًا.

ونهضت بصعوبة، وفتحت الباب، وجلست فى الصالة الأمامية على مرأى من أول خيوط النور، انتقال أسلمها لاضطراب بغيض، وجعل الأفكار تتزاحم فى رأسها فى غير انتظام. وكان عليها أن تعيد ترتيب ما يدور فى رأسها: ماذا حدث؟ أو ما هذا الذى

www.ibtesama.com

أخبروها به أنه حدث؟ هذا من ناحية، وماذا هى فاعلة من ناحية أخرى؟ ماذا ستفعل؟ هذا ما لم يكن فى حسبانها.

ابتعدت الأبقار عن العشب الصغير بين البيت وضفة النهر، تستطيع الآن فتح البوابة الأمامية إذا أرادت أن تمضى إلى تلك الوجهة، كانت تعرف أنها مضطرة إلى العودة، ولكنها تعود فتبحث عن السيدة "كونِ"، ولكنها تجد نفسها وهى تفتح مزلاج الباب الكبير.

لم تأكل الأبقار كل الأعشاب الضارة التى لا تزال مفعمة بماء الندى، مسحت فيها جوربها، وكانت الطريق واضحة ممهدة، رغم ذلك، تحت الأشجار التى تحف شاطئ النهر، أشجار الصنوبر الضخمة وثمارها الجامحة المتدلية من أغصانها أشبه بأيدى القرود الشعثاء. كان الضباب يتصاعد يحول بينك وبين رؤية النهر وتضطر إلى تركيز النظر حتى تراه، فترى من خلالها مساحة من المياه، أشبه بمياه فى إناء. فهل كان تياراً فى الماضى؟ ولكنها لم تجد علامة على ذلك. ثم رأت حركة، ولم تكن فى المياه، قارب يتحرك، قارب شُد وثاقه بغصن شجرة، قارب تجديف قديم مسطح يرتفع قليلاً ثم ينخفض. وظلت تراقبه على مبعدة منه، كأنه يريد أن يتحدث إليها، وكذلك فعل، قال لها شيئًا رقيقًا هادئًا ونهائيًّا: أنت تعرفين. أنت تعرفين.

عندما استيقظت البنتان وجدتا أمهما وقد تحسنت معنوياتها، ثيابها نظيفة، وشعرها مرسل، وقد فرغت من إعداد مربة الفاكهة التى ستأكلانها فى الظهر. وكانت تعد البسكويت الذى ستزج به إلى الفرن قبل أن تتجاوز حرارتها الحد المطلوب.

www.ibtesama.com

قالت لهما: "هل هذا قارب أبيكما، هذا القارب الذى على النهر؟" وأجابت "لويس" بنعم، وأردفت: "ولكننا لا يُسمح لنا باللعب عليه." فقالت لهما: "إذا جئتما معنا ستلعبان." فاليوم إجازة، والآمال نشطة، وامتزج فى ذهن إيـنِد الكسل بالدهشة.

"سنرى،" قالت إيـنِد. كانت تريد أن تجعل منه يومًا خاصًا لهما، تريد أن تنسى الحقيقة، تنشد الابتعاد عن الواقع الذى تعلمه ومنه موقنة، وهو أيضًا ذكرى وفاة أمهما. تريدهما أن يظفرا بشىء يستقر فى عقلهما يمكن أن يمنحهما بصيصًا من النور الذى يستعينون به على ملمات المستقبل.

فى ذلك الصباح توقف قلب المسز "كونِ" عن النبض، ولم تتمكن من رفع رأسها، أو تفتح عينيها. يختلف اليوم عن الأمس اختلافًا كبيرًا، ولكن "إيـنِد" لم يفجؤها شىء. قالت فى نفسها إن هذه الطاقة العاتية من النشاط، وذلك التدفق فى الثرثرة الخبيثة، بقايا تفرغ منها اليوم. تناولت ملعقة صغيرة مليئة بالماء واقتربت بها من شفتى المسز "كونِ"، ورشفت المسز "كونْ" رشفة من ماء الملعقة، مصحوبة بصوت أشبه بالمواء، آخر شكاواها على وجه اليقين. ولم تطلب "إيـنِد" الطبيب؛ فقد كانت زيارته المعتادة وشيكة على أية حال فى ذلك اليوم، وربما فى وقت ما من الساعات الأولى من العصر.

راحت تخض رغوة صابون فى إناء، وتثنى سلكًا صغيرًا، فآخر لتصنع منهما عصًا تعالج بها الرغوة. علمت البنتين كيف تُصنع هذه الفقاعات، وراحت تخض السائل بقوة وحرص حتى ظهر فى الإناء ما يشبه الكيس المتألق يرتعش على العصا، ثم تطلق سراحه فى

www.ibtesama.com

أريحية فى الفضاء الرحب. وراحتا تجريان وراء الفقاعات حول الفناء، وتاهت فى الفضاء حتى استقبلتها نسائم الهواء واستقرت بها على أغصان الشجر، وعلى إفريز الحجرة الأمامية. ربما نشطت بسبب صيحات الإعجاب، وصرخات البهجة القادمة من الأرض. لم تضع "إيـنِد" قيداً على إحداث الضوضاء التى قد تصدر منهما، وعندما نفدت فقاعات الصابون، عادت تمدهما بالمزيد.

واتصل الطبيب عندما كانت مشغولة بمساعدة البنتين على تناول غداءهما، والمربى وطبق البسكويت انتشرت عليه قطع السكر الملونة، وأكواب اللبن التى أعانتها بعصير الشكولاتة المخفوق. قال: إن الذى أخره معالجة طفل علق على شجرة، ولن يتمكن من القدوم قبل العشاء. وردت "إيـنِد" بشىء من الرقة: "أظن يمكن أن تمشى."

وقال الطبيب: "حسنًا.. حافظى على راحتها قدر الطاقة، وقد تعلمت منى بعض الأشياء."

ولم تتصل "إيـنِد" بالمسز "جرين"؛ فقد كانت تعلم أن "روبرت" لن يعود من المزاد، ولم تكن تعتقد أن المسز "كوِن"، إذا كانت لديها بقية من الوعى، ترغب فى رؤية أخت زوجها فى الحجرة أو سماعها. ولم يكن هناك علامة على أنها ترغب فى روّية بنتيها. ولم يكن هناك داعٍ لأن ترياها على تلك الحال المزرية التى قد تستقر فى ذهنها إلى ما شاء الله.

ولم تعد تأبه بقياس ضغط دم المسز "كوِنْ"، أو درجة حرارتها، اكتفت بتجفيف وجهها ويديها، وتقديم الماء لها، وهو ما بدأت المسز "كوِنْ" تتجاهله. أدارت المروحة التى كانت المسز "كوِن" تعترض على

www.ibtesama.com

صوتها. بدت الرائحة المنبعثة من الجسد تتغير، تفقد حدتها الحمضية المعهودة، بدأت تتغير إلى رائحة معروفة، رائحة الموت.

جلست على الدرج، وخلعت حذاءها وجوربها ومدت ساقيها لتستقبل الشمس. وبدأت البنتان فى مضايقتها بشىء من الحذر، تطلبان منها أن تأخذهما إلى النهر، وتطلبان منها أن تمتطيا القارب، تعرف أنها لن تذهب بعيداً فى تجاهل ما تطلبان، ولكنها سألتهما: "هل ترغبان فى القفز إلى حمام السباحة، لدينا حمامان للسباحة؟ حمامات للسباحة؟ وأحضرت طستى الغسيل، ووضعتهما على العشب، وملأتهما بالماء من طلمبة الصهريج. وخلعتا ملابسهما دون البنطالين، وسبحتا فى المياه، وسميتا نفسيهما الأميرة إلِزابيث والأميرة مارجريت روز.

قالت "إيـنِد" وهى تجلس على العشب وقد ردت رأسها إلى الخلف، وأغلقت عينيها: "ما رأيكما فى شخص ارتكب خطأً شنيعًا، فهل نعاقبه؟"

فقالت لويس على الفور: "يجب أن يُجلد."

وقالت سلفى: "ومن هو هذا الشخص الذى ارتكب الخطأ؟"

وقالت "إيـنـد": "أنا أقول أى شخص، والسؤال الآن: ماذا لو ارتكب خطأً شنيعًا لم يعلم به أحد؟ فهل يعترف ثم يُعاقب؟"

فقالت "سلفى": "كنت سأعرف من الذى ارتكب الخطأ."

فقالت "لويس": "وكيف تعرفين؟ لن تقدرى."

"كنت سأبحث عن ذلك."

"لن تقدرى."

www.ibtesama.com

وقالت "إيـنِد": "هل تعرفان السبب فى أنه يجب أن يُعاقب؟ لأنه يعانى من شعور مؤلم فى داخله. حتى لو لم يره أحد، ولم يعرف بما فعله أحد، فإذا ارتكبت خطأً ولم تُعاقبى فإن الإحساس سيكون أسوأ، وهذا الإحساس يصبح أسوأ قبل العقاب."

قالت "سلفى": "لويس سرقت منى مشطًا أخضر."

قالت "لويس": لم أفعل."

قالت "إيـنِد": "أريدك أن تتذكرى هذا."

قالت لويس: "يعنى أضعه على جنب"

كانت "إيـنِد" تدخل حجرة المريضة كل نصف ساعة أو نحو ذلك، لكى تمسح وجه المسز "كونْ" ويديها بفوطة مبتلة. لم تكن تتحدث معها، ولم تكن تلمس يدها إلا بالفوطة. لم تغب كالآن عن أية سيدة قامت على تمريضها، وتستعد للرحيل. وعندما فتحت الباب فى حوالى الساعة الخامسة والنصف، كانت تعرف أن الحجرة قد خلت من الأحياء، وكانت الملاءة قد شدت على وجه المسز "كونْ" الذى استقر على جانب السرير، وهى حقيقة لم تسجلها "إيـنِد" أو تذكرها لأى شخص. لقد أصلحت من وضع الجسد، وغسّلته، وأعادت ترتيب السرير قبل قدوم الطبيب. وكانت البنتان لا تزالان تلعبان فى الفناء.

٥ يوليو. انهمر المطر فى الصباح الباكر. (ل) و (س) كانتا تلعبان تحت الشرفة. تدور المروحة تارة، وتتوقف تارة، تشكو من الضوضاء، تتناول نصف ملعقة من شراب البيض مرة واحدة. ضغط الدم يرتفع، نبضات القلب تتسارع، لا شكوى من أى ألم. لم يتوقف المطر كثيراً، قياس التنفس فى المساء. توقف الطعام.

www.ibtesama.com

٦ يوليو. يوم حار. قريبة من المعقول. المروحة.. لا. تنشيف الوجه. قياس التنفس فى المساء. نبدأ فى حصاد القمح من الغد. كل شىء يتم قبل ميعاده بأسبوع أو أسبوعين بسبب الحرارة، والمطر.

٧ يوليو. درجة الحرارية العالية مستمرة، رفضت شراب البيض، شراب فواكه بنكهة الزنجبيل من الملعقة. ضعيفة جدًا. مطر غزير الليلة المنصرمة، رياح. قياس التنفس، تعجز عن المضغ، الحبوب فى مخازنها.

٨ يوليو. لا شراب بيض، شراب فوار بنكهة الزنجبيل. تقيؤ فى الصباح. استيقاظ. قياس التنفس. الذهاب إلى مزاد ماشية، يومان مضيا. يقول الطبيب: فلتستمر فى العلاج.

٩ يوليو. توتر شديد. ثرثرة لا تتوقف.

١٠ يوليو. المريضة المسز روبرت (جيانيت) كوِن رحلت عن دنيانا اليوم فى الساعة الخامسة مساءً تقريبًا، بالسكتة القلبية بسبب مرض البولينا، بسبب التهاب الكُليتين.

لم تكن "إيـنِد" متعودة على انتظار جنازات الذين كانت تقوم على تمريضهم. لاحت لها فكرة الخروج من البيت بما تقدر عليه من الرفق واللين. كان وجودها يشى لا محالة بأيام ما قبل الموت، وما كان يحدث فيها، وهو حضور كئيب حافل بالكوارث الجسدية، وسوف يركز عليه الكثيرون فى الجنازة كرمًا وجودًا، فتُمنح الزهور، وتُرفد بتهاويل الكعك.

ولم يخلُ البيت من بعض أقرباء المسز "كوِنْ" من النساء اللاتى كن يهتممن بالبيت ومن فيه تمام الاهتمام، مما جعل "إيـنِد" فجأة زائرًا لا يُرغب فيه.

www.ibtesama.com

وصلت المسز "جرين" - فى الواقع - إلى منزل "كونِ" قبل أن يصل "الحانوتى"، ولم يكن "روبرت" قد وصل بعد. كان الطبيب فى المطبخ يشرب كوبًا من الشاى، ويتحدث مع "إيـنِد" عن حالة أخرى يمكن أن تتولى رعايتها الآن بعد أن فرغت من الحالة الراهنة. وكانت "إيـنِد" تجامله وتقول له إنها تفكر فى أخذ إجازة عن العمل بعض الوقت. كانت البنتان فى الطابق الثانى، وقد أخبروهما أن أمهما الآن فى دار الحق، وكان ذلك يعنى أن تضعا قبعتيهما فى أثناء قطع هذه المسافة النادرة.

كانت "المسز جرين" خجولة فى حضور الطبيب، وقفت لدى النافذة لتراه وهو يدلف إلى سيارته ويدير المحرك، ثم يعود بها إلى الخلف وينطلق، ثم قالت: "ربما ليس من المناسب أن أعلن ذلك الآن، ولكنى مضطرة إلى ذلك، فأنا راضية أنها ماتت الآن وليس فيما بعد عندما ينتهى الصيف وتعودا إلى المدرسة، الآن سيكون لدى وقت لأحملهما على التعود على العيش فى المكان الذى نعيش فيه، وعلى فكرة المدرسة الجديدة التى ستذهبان إليها، وحتى "روبرت" سيتعود على الوضع الجديد أيضًا.

كانت هذه المرة الأولى التى تعرف فيها "إيـنِد" أن المسز "جرين" كانت تنوى اصطحاب البنتين لتعيشا معها، وليس لإقامة عارضة تعودا بعدها. كانت المسز "جرين" تريد أن تتولى الانتقال، وربما كانت نية قديمة كانت تشغلها زمنًا. ومن المرجح جداً أنها أعدت حجرتين للطفلتين، واشترت لهما ما تحتاجان إليه من الملابس الجديدة، فقد كان منزل المسز "جرين" كبيراً، ولم يكن لديها أطفال.

www.ibtesama.com

قالت لـ "إيـنِد": "لابد أنك سترحلين أنت نفسك". امرأتان فى بيت واحد يعنى الشجار الدائم، وربما يصعب على أخيها أن يرى ضرورة لانتقال الطفلتين إلى الأبد. "وربما يغضب "روبرت عندما يأتى إلى هنا."

قالت "إيـنِد" إنها لا تجد مانعًا فى الذهاب، وإن أمها قادمة لتأخذها.

وهتفت المسز "جرين": "آه... نسيت أمك. نسيتها ونسيت سيارتها الصغيرة الأنيقة."

وتألقت بالحماس، ونهضت. ومضت إلى الدولاب ففتحته، وراحت تحصى الكؤوس وأكواب الشاى لتتأكد من نظافتها استعدادًا للجنازة؟

وقالت وقد تخففت من "إيـنِد"، وبدت مجاملة: "المرء لديه مسؤوليات كثيرة."

كان السيد "جرين" ينتظر فى سيارته خارج البيت، فيها كلبهم الذى يسمونه "الجنرال"، ونادت المسز "جرين" على البنتين "لويس،" و "سلفى" فى الطابق الثانى، وأتتا مسرعتين تحملان حقائب ورقية بنية. ودلفتا إلى المطبخ، وأغلقتا الباب بقوة، دون أن تريا "إيـنِد".

"وهذه من الأمور التى يجب أن تتغير."

كانت المسز "جرين" تقصد طريقة البنتين فى إغلاق الباب. وكان فى وسع "إيـنِد" أن تسمعالطفلتين وهما تصيحان تحييان الكلب الجنرال، وكان الجنرال يرد تحيتهما بنباح حماسى مفعم بالإثارة.

www.ibtesama.com

وبعد يومين عادت "إيـنِد"، تقود سيارة أمها بنفسها، جاءت فى ساعة متأخرة من بعد الظهر، وعندما انتهت الجنازة تماماً، لم تكن هناك سيارات كثيرة خارج البيت، ما يعنى أن النساء اللائى كن يساعدن فى المطبخ قد ذهبن الآن، وأخذن معهن المقاعد وأكواب الشاى وغلاية القهوة التى قالوا إنها ملكٌ للكنيسة، كنيستهم. تركت السيارات آثارها على العشب، وبعضها تسبب فى سحق بعض الزهور.

اضطرت الآن إلى الطرق على الباب، واضطرت إلى الانتظار حتى يُسمح لها بالدخول. سمعت وقع خطوات "روبرت" الثقيلة الراسخة، وحيته عندما وقف أمامها على الجانب الآخر من باب الستارة، ولكنها لم تنظر فى وجهه. كان يرتدى قيمصاً بكم قصير، ولكنه كان يرتدى بنطلون بذلته، فتح مزلاج الباب.

"لم أكن أعرف أن أحداً يمكن أن يكون هنا،" قالت إيـنِدْ"، وأردفت: "كنت أظن أنك لا تزال فى الحظيرة."

وقال "روبرت": "كلهم مشغولون بطقوس الجنازة."

استطاعت أن تشم رائحة وسكى عندما تحدث، ولكن السكر لم يكن بادياً عليه.

"ظننتك من اللائى عُدنَ لأخذ شىء نسينه." قال.

وقالت "إيـنِد": "لم أنس أى شىء، أردت أن أطمئن على البنتين ليس إلا."

"هما بخير، هما الآن فى بيت "جرين".

من غير المؤكد أنه يريد أن يدعوها إلى الدخول، أوقفه الارتباك

www.ibtesama.com

وليس العداء. ولم تكن هى قد أعدت نفسها لهذا الجزء الحرج من الحوار، حتى إنها توقفت عن أن تنظر فى عينيه، وإنما جالت ببصرها فى السماء.

قالت:

"تلاحظ أن ساعات المساء قصرت، حتى بعد شهر من أكثر الأيام طولاً. "

"هذا حقيقى، " قال "روبرت".

عندئذٍ فتح الباب، وتنحى جانبًا، ودخلت. على المائدة وجدت فنجانًا دون صحنه. جلست فى الجهة الأخرى من المائدة، فى مقابل الجهة التى جلس فيها، كانت ترتدى فستانًا من قماش الحرير الرقيق، أخضر غامق، وحذاءً مصنوعًا من جلد الغزال يناسب لونه لون الفستان. عندما ارتدت هذه الأشياء كانت تقول فى نفسها إنها المرة الأخيرة التى ترتدى فيها ملابسها بمثل هذه الطريقة، والملابس الأخيرة التى قد ترتديها. لقد جمعت شعرها كله فى جديلة واحدة على الطريقة الفرنسية، وغطت وجهها بالمساحيق. بدا اهتمامها بمظهرها وخيلاؤها مصحوبًا بالحمق، ولكن للضرورة أحكام. لقد ظلت مستيقظة ثلاث ليالٍ الآن فيما يشبه الشجار، فى حال اليقظة الكاملة فى كل دقيقة مرت، حتى الطعام هجرته، ولم تخبر أمها بالحقيقة.

قالت لها أمها: "وهل هذه أيام صعبة بالفعل؟" كانت تكره الحديث عن المرض وأَسِرَّة المرضى، وسألت الأم هذا السؤال لأنها لاحظت أن الفتاة كانت متعبة بالفعل. وأن التعب كان باديًا عليها.

www.ibtesama.com

ثم أردفت: "هل كنت مغرمة بالطفتين؟ القردتين الصغيرتين المسكينتين. "

قالت "إينِد" إن كل ما تريده أن ترتاح بعد المدة الطويلة التى قضتها فى تمريض هذه الحالة، وأن الحالات الميئوس منها تسبب الضيق والتوتر الشديد، ولم تكن تخرج من بيت أمها فى أثناء النهار، ولكنها كانت تتمشى فى الليل، عندما تكون متأكدة من أنها لن تقابل أحداً، ولن تدير حواراً. وجدت نفسها تمشى أمام سجن المدينة، كانت تعرف أن هناك فناء سجن خلف هذه الجدران حيث كانت تُنَفَّذ أحكام الإعدام، مع أنها لم تسمع عن حكم بالإعدام من سنوات طويلة، ولابد أنهم ينفذونها فى السجن المركزى، كلما دعت الضرورة. ولقد مر زمنٌ طويل لم يرتكب فيه أى من أفراد هذا المجتمع جريمة ذات بال.

جلست إلى المائدة فى الجهة المقابلة للجهة التى كان يجلس فيها "روبرت"، تتجه بوجهها إلى باب حجرة المسز "كوِن"، نسيت السبب الذى جاءت من أجله، وضاعت منها بوصلة الطريق القادم، أحست بثقل حقيبتها على حجرها، وثقل الكاميرات التى فى داخلها، ما انتهى بها إلى التذكر.

"بقى شيءٌ أخير أطلبه منك، " ثم أردفت: "لأنى أعرف أن هذه هى فرصتى الأخيرة. "

قال "روبرت": "وما ذلك؟"

"أعرف أن لديك زورق تجديف، ولذا أريد منك أن تجدف بى إلى وسط النهر، أريد أن ألتقط صورة هناك، أريد أن ألتقط صورة لضفة

www.ibtesama.com

النهر، هناك المشهد فى غاية الجمال، حيث أشجار الصنوبر التى تصطف على طول ضفته."

"تحت أمرك."

قال "روبرت" ذلك بعادته المعهودة فى إظهار البلادة، وغياب الدهشة، كما ينبغى لشخص قادمُ من الريف، إزاء خفة الزائرين وحتى جرأتهم.

إنه وضعها الجديد الآن... مجرد زائرة.

كانت خطتها أن تنتظر حتى يصل القارب إلى وسط النهر، ثم تخبره بأنها لا تعرف العوم، فى البداية تسأله عن مدى عمق النهر فى هذا المكان، هى متأكدة من أنه سيجيب - بعد هذا الكم الكبير من المطر الذى سقط – بأن العمق يتجاوز سبعة أو ثمانية أو حتى عشرة أقدام، ثم تخبره بأنها لا تتقن السباحة، وهى حقيقة، فقد نشأت فى "والاى"، على ضفة بحيرة، وكانت تلعب على الشواطئ كل صيف من سنوات طفولتها، كانت فتاة قوية البنية، وماهرة فى الألعاب، ولكنها كانت تخاف من المياه، ولم تنفع معها المهادنة أو التهديد أو التوسل، لم تتعلم العوم.

كان يمكن أن يدفعها بمجداف القارب، فتسقط فى مياه النهر، وتغرق فيه. ثم يترك القارب فى المياه ويعود سابحًا إلى الشاطئ، ويغير ملابسه، ويقول لمن يسأله: إنه آتٍ من الحظيرة، أو إنه كان يتمشى ووجد السيارة هناك، وأين هى؟ وحتى الكاميرا، تدل على صدق روايته، فقد أخذت القارب إلى وسط النهر لتلتقط صورة، ثم سقطت فى النهر بطريقة ما.

www.ibtesama.com

الكرة الآن فى ملعبه، تريد أن تسأله، وتسأله: "هل حدث ذلك بالفعل؟"

فإذا لم يكن صحيحًا، فسيكرهها بسبب سؤالها، وإذا كان صحيحًا - ألم تعتقد فى جميع الأوقات أنه كان صحيحًا؟ - فسيكرهها بطريقة أخرى ربما أشد عمقًا وخطرًا. حتى إذا قالت فى الحال - وعنت ما تقول، وستعنى ما تقول - إنها لن تخبر أحدًا أبدًا. سوف تتحدث بهدوء شديد فى جميع الأوقات، وهى تتذكر ما انتهت إليه الأصوات فى أمسية من أمسيات الصيف. لن أخبر أحدًا، بل أنت الذى ستخبر الناس، لن تتحمل الحياة بسر كهذا السر.

لن تقوى على العيش فى هذا العالم بهذا الحمل الثقيل، لن تجد طاقة على تحمل الحياة وفى داخلك هذا السر.

وإذا كانت قد ذهبت إلى هذا المدى، ولم ينكر ما قالته، ولم يدفعها إلى النهر، فإن "إيند" ستكون قد كسبت الرهان، وفازت فى نهاية المغامرة. وستخوض معه فى مزيد من الأحاديث، وستصل به إلى طريق الإقناع، ستصل به إلى الرغبة فى العودة بها إلى الشاطئ.

أو يقول إنه ضل الطريق.. وماذا أفعل؟ أو ستقنعه بالعودة، عد إلى الشاطئ.

الخطوة الأولى فى رحلة طويلة ومخيفة، ستخبره بكل خطوة، وسوف تقف معه الأيام الطوال، مهما طالت. ليوثق القارب الآن. اذهب إلى الضفة الأخرى. امش وسط الأشجار الواطئة. افتح الباب. ستمضى خلفه أو أمامه، فى الموضع الذى يفضله، عبر الفناء، أو فوق الشرفة وفى داخل المطبخ.

www.ibtesama.com

سيتوادعان، ويدلف كلٌ إلى سيارته، ثم يصبح حراً، فليذهب إلى حيث يشاء، ولن تتصل بالشرطة فى اليوم التالى. ستنتظر حتى يتصلوا هم بها، وسوف تزوره فى السجن، كل يوم، لن تتخلف عن زيارة واحدة، ستجلس معه وتتحدث معه وهو فى السجن، وستكتب له رسائل أيضًا. فإذا أخذوه إلى سجن آخر ستذهب إليه؛ حتى إذا لم يسمحوا لها إلا بزيارة واحدة فى الشهر، سوف تكون بجانبه، وفى المحكمة - نعم، كل يوم فى المحكمة، ستجلس حيث يستطيع أن يراها.

لا تعتقد أن أحدًا يمكن أن يُحكم عليه بالإعدام فى هذ النوع من جرائم القتل، وهىْ جريمة جاءت بالمصادفة بطريقة أو بأخرى، وهى جريمة شرف بالتأكيد، ولكن الشك يظل، يردها إلى الاتزان عندما تشعر بأن هذه الصور المتصلة بالإخلاص، المتصلة بوشيجة تشبه العشق، ولكنها تتجاوزه، صورٌ تفتقر إلى الاحتشام.

بدأت الآن. حين طلبت منه أن يصطحبها إلى النهر، وحجتها فى الرغبة فى التقاط الصور. ولكن هى و"روبرت" الآن يقفان معًا، وهى تواجه باب حجرة المريضة - الحجرة الأمامية مرة أخرى - التى كانت مغلقة. وسألته سؤالاً يشى بالحمق:

"هل أخذ أحدٌ اللحافات من فوق النوافذ؟"

"فكر برهة كأنه لم يكن يعلم شيئًا، ولكنه ما لبث أن قال:

"اللحافات.. نعم.. أظن أن "المسز جرين أوليف" أخذتهم معها إلى مكان الجنازة. "

"تذكرتهم.. قلت ربما ينصل لونها فى الشمس.

www.ibtesama.com

وتفتح الباب، وتمضي نحو المائدة، ويقفان ويتطلعان نحو الباب، ويقول: "في وسعك الدخول إذا أردت، في وسعك الدخول.. تفضلي.

اختفى السرير بالطبع، ورفعت قطع الأثاث كلها لتتكئ على الجدران، وأصبح وسط الحجرة، الذى كان عامراً بمقاعد الجنازة، خالياً. وحتى المكان الذى بين النوافذ البحرية – وهو المكان الذى كانوا يضعون فيه الكفن فى أغلب الظن، كان خالياً أيضاً. تكومت أيضاً الطاولة التى كانت "إيـنِد" تضع عليها الطست، وتضع عليه الملابس الصوفية والقطنية والملاعق والأدوية، عند ركن من الأركان، وفوقها باقة من نبات الدولفينيوم. لا تزال النوافذ العالية تستقبل الكثير من الضياء.

"أكاذيب" هى الكلمة التى يمكن أن تسمعها "إيـنِد" الآن، من بين جميع الكلمات التى كانت تقولها السيدة "كوِن" فى تلك الحجرة. أكاذيب. أراهن على أنها أكاذيب فى أكاذيب.

فهل يستطيع أى إنسان أن يؤلف شيئاً مفعماً بهذا الكم من التفاصيل، ومحاطاً بهذا الكم الكبير من الشر؟ الإجابة بنعم. يستطيع عقل الإنسان المريض أن يفعل ذلك، عقل الإنسان الموشك على الموت، يمكن أن يملأ الفراغ العقلى بكل أنواع نفايات الأكاذيب، ويمكن أن يعيد ترتيب هذه النفايات بطريقة مقنعة غاية الإقناع. إنه عقل "إيـنِد"، عندما كانت نائمة فى هذه الحجرة، هو الذى امتلأ بأكثر البدع تقززاً وإثارة للاشمئزاز، وأكثر الرجس مدعاة إلى النفور. مثل هذه الأكاذيب تمكث هناك فى أركان العقل، تنشب أظافرها فى موقعها كما تتشبث الوطاويط بأمكنتها من أركان

www.ibtesama.com

الحجرات، تنتظر حتى تذهب الضياء، ويأتى الظلام. فمن يقول إن الشخص العادى يمكن أن يفعل ذلك؟ ومن يزعم بأن ذلك مستحيل؟ انظروا كيف تكون الأحلام، وتأملوا مم تتألف، إنها تتألف من طبقة فوق طبقة، حتى أن الجزء الذى تتذكره، وتريد أن تنقله إلى اللغة ما هو إلا الجزء السطحى الذى يسهل إزالته من فوق السطح.

عندما كانت "إيند" فى الرابعة أو الخامسة من عمرها، أخبرت أمها أنها ذهبت إلى مكتب أبيها، ورأته جالساً وراء مكتبه وامرأة تجلس على حجره. كل ما يمكن أن تتذكره فيما يتصل بتلك المرأة - فى ذلك الوقت والآن - أنها كانت ترتدى قبعة تزدان بالكثير من الزهور وبرقع (كانت القبعة قديمة حتى بمقاييس ذلك الزمان)، وأن أزرار بلوزتها أو فستانها كانت مفتوحة، وأن ثدياً من ثدييها كان عارياً ومتقدماً، وقد غابت الحلمة فى فم أبيها. وقد أخبرت أمها بأنها رأت ذلك، وأقسمت على ذلك بأغلظ الأيمان. قالت لها: "إن الجزء الأمامى من المرأة كان فى فم أبى." لم تكن تعرف كلمة "ثدى"، رغم أنها كانت تعرف أن ثدى المرأة لا يكون إلا اثنين. إنه ثديان دائماً وليس ثدياً واحداً.

وقالت أمها: "الآن.. "إيند"، عم تتحدثين؟ وما هو هذا الجزء الأمامى الذى تتحدثين عنه؟"

قالت "إيند" "شىء يشبه مخروط الآيس كريم؟"

رأته على هذا النحو، بالضبط، ولا تزال تراه على ذلك النحو إلى الآن، مخروط الآيس كريم المزود الشيكولاتة، بكومة فانيليا الآيس كريم التى تراكمت على صدر السيدة، ومقدمة الثدى التى غابت فى فم الأب.

www.ibtesama.com

عندئذٍ قالت إن أمها فعلت شيئًا غريبًا، شيئًا لم تكن "إيـنِد" تتوقعه، فقد خلعت فستانها، وأخرجت منه شيئًا كليلاً يتدلى من بين يديها، وقالت لابنتها: "كهذا؟"

فقالت لها "إيـنِد": "لا.. قلت لكِ مخروط الأيس كريم."

عندئذٍ قالت الأم: "إذن هذا حلم، فالأحلام قد تكون سخيفة فى كثير من الأحيان. لا تخبرى أباك عن ذلك، حلم غاية فى السخف."

لم تصدق "إيـنِد" أمها على طول الخط، ولكن فى خلال عام أو نحو ذلك بدأت تعرف أن تفسير أمها صحيحًا فى الغالب؛ لأن مخاريط الأيس كريم لا تكون اثنين ملتصقين على صدور النساء، ولا يكونان كبيرين إلى حد بعيد، وعندما تقدمت فى العمر قليلاً، أدركت القبعة ربما كان مصدرها صورة من الصور.

أكاذيب.

إلى الآن لم تسأله، لم تنبس ببنت شفة، لم تجد فى نفسها رغبة حقيقية فى أن تسأله، كانت تريد أن تسأله عما حدث قبل الحدث الكبير. فهل انتحر السيد "ولنز"؟ هل ألقى بنفسه وسيارته فى بركة "جتلاند" عمدًا؟ أم كان ذلك بسبب حادث؟ الجميع يعرفون أنه قضى فى حادث أليم، ولا يزالون يعتقدون ذلك، وفيما يتصل بـ "روبرت" كانت "إيـنِد" تعتقد فى ذلك أيضًا، وإذا كانت الأمور على ذلك النحو، فإن هذه الحجرة، وهذا البيت، وحياتها نفسها إزاء احتمال مختلف، احتمال مختلف غاية الاختلاف عن الاحتمال الذى عاشته (أو الذى ازدهت به، أو سمه ما شئت) خلال الأيام القليلة المنصرمة. الاحتمال المختلف هو أنه اقترب منها، وكل ما طلبه منها الهدوء، وتترك كل

www.ibtesama.com

شىء ينطلق بطبيعته. ومن خلال صمتها، من خلال مشاركتها فى الصمت، فأى فائدة تزدهر؟ لها ولغيرها؟

هذا ما يعرفه الجميع، شىء بسيط آلزمها السعى إلى الفهم الأيام الطوال... هذا هو ما يجعل العالم مكانًا صالحًا للسُكنى.

بدأت تبكى، ليس من منطلق الحزن الممض، ولكنها نوبة من الرغبة فى التخفف اجتاحتها ولم تكن مستعدة لها تمام الاستعداد. أمعنت النظر فى وجه "روبرت"، ورأت عينيه محتقنتين بالدم، والجلد حولهما قد تغضن وجف، كأنه كان يبكى هو الآخر، أيضًا.

قال: "مسكينة.. لم يحالفها الحظ فى حياتها كلها."

وجدت "إيـنِد" مبررًا لنفسها، وتناولت منديلها الذى كان فى حقيبتها التى وضعتها على المائدة، كانت مضطربة الآن اضطرابًا شديدًا، استولى عليها الارتباك والحيرة والخجل: لأنها ارتدت أفضل ثيابها فى ذلك اليوم الذى اختلط فيه الحزن بالفرح، والبهجة بالشقاء، وهذا القدر المفعم بالعواطف المتضاربة، والمشاعر الحزينة الفارقة.

قالت: "لا أعرف فيم كنت أفكر، لا يمكن أن أمضى إلى النهر بهذه الأحذية."

أغلق "روبرت" باب الحجرة الأمامية، وقال:

"إذا كنت تريدين الذهاب، فلنذهب الآن، المفروض أن ترتدى حذاءً من المطاط، هو الذى يناسب مثل هذه الجولات، ولعلك تجدينها هنا."

لا.. ليس حذاء "كونْ"، حذاؤها صغيرٌ جدًا. فتح "روبرت" صويمعة فى مخزن الحطب الذى يقع خارج باب المطبخ. لم ترَ

www.ibtesama.com

"إيــنِد" هـذه الصـويمـعة من قـبل، كـانت تظن أنـهـا مـخـزنٌ لخشب الوقود، الذى لم تكن لـها فيه حـاجة ذلك الصـيف. تنـاول "روبرت" أحذية مطاطية متعددة، وأحذية للثلج أيضًا، يريد أن يجد زوجًا.

"هـذه يمكن أن تناسبك، " قـال. ثم أردف: "ربمـا كـان حذاء أمى، أو حتى حذائى قبل أن أكبر وتكبر قدماى. "

ثم سحب شيئًا أشبه بجزء من خيمة، من خلال حزام ممزق، إنها حقيبة مدرسية.

قال: "انسِ الأشياء التى هنا كلها. "

وترك الأشـياء تقع على الأرض، وألقى فوقها بالأحذية القديمة. ترك حزام الحقيبة، وخرجت من صدره آهة طويلة مفعمة بالحزن والأسى والمرارة.

بيت كهذا البيت، كانت تعيش فيه أسرة زمنًا طويلاً، مـهملاً فى أثنـاء السنوات المنصرمة، لابد أن تكثر فيه الصـويمعات والأدراج والأرفف والحقائب والخـراطيم والـبدرومات الـمليئة بالأشـيـاء التى ستتولى "إيـنِد" ترتيبها، وحفظها، وتسميتها بأسماء جديدة، وإعادة بعضها إلى نطاق الاستخدام، وإرسـال بعضها الآخر إلى الصناديق التى ستحملـها إلى مقلب النفايات. فإذا مـا منحـتها الأقدار هذه الفرصـة فلن تتوانى، ولن تقف حائرة، ستجعل من هذا البيت مكانًا خاليًا من الأسرار، سيخلو هذا البيت من أسرارهـا، وحيث ستكون جميع الترتيبات مثلما كانت تريد، وحسبما قررت وقضت.

وضـع الحذاء المطاطى على الأرض أمام قدميها بينما انحنت لتفك إبزيم حذائها، تناهت إلى أنفها أنفاسه المُرّة بسبب الويسكى الذى

www.ibtesama.com

يشربه، رائحة باقية بعد ليلة لم يذق فيها طعم النوم، وبعد نهار طويل حافل بالنشاط والتعب؛ شمت رائحة جلد رجل غارق فى عرقه بسبب العمل الشاق الذى بذله فى اليوم المنصرم، رائحة لا يزيلها الاستحمام، أو على الأقل طريقته فى الاستحمام. لم تكن رائحة جسده غريبة على أنفها، ولم تكن رائحة أجساد البشر غريبة عليها، حتى رائحة الحيوانات المنوية، ولكن رائحة جسد "روبرت" كانت غريبة على أنفها، شىءٌ جديد يجتاحها فى جسد لم يكن فى يوم من الأيام تحت سيطرتها، ويخضع لرعايتها.

يا مرحبًا.

"جربيه.. امشِ به، " قال روبرت.

ومشت، مشت أمامه إلى البوابة الرئيسة، وانحنى لكى يفتحها لها، انتظرت حتى دفع البوابة، ثم توقفت لتتيح له أن يسبقها؛ فقد أحضر فأسًا صغيرة من صويمعة الحطب؛ ليمهد الطريق أمامهما. قال "روبرت":

"المفترض أن الأبقار هى التى تأكل كل شىء فتتسع الطريق، ولكن هناك أعشاب تحجم الأبقار عن أكلها. "

وقالت: "لم آتِ هنا إلا مرة واحدة، فى الصباح الباكر. "

اجتاحتها موجة من الإحباط الحقيقى بالأطفال، وكان لابد أن يبدو طفوليًّا فى تلك اللحظة من فرط تهورها، واندفاعها.

مضى "روبرت" يقطع العشب، ويطيح بنباتات الشوك الثقيلة، وأرسلت الشمس أصابع الضياء المثقلة بالتراب إلى مجموعات الأشجار الملتفة على مبعدة منهما. كان الهواء نظيفًا فى بعض

www.ibtesama.com

الأمكنة، ولكن لا تلبث أن تدخل فى سحابة من البق الأحمر. لم يعد البق أكبر حجمًا من قذى التراب الذى لا يتوقف عن الحركة دون أن يتفرق بعضها عن البعض الآخر فتصبح على هيئة عمود أو سحابة. كيف تم لها ذلك؟ وكيف اختارت بقعة واحدة فوق الأخرى لتفعل ما فعلت. لابد أنه شيءٌ له علاقة بطريقة الأكل. ولكن من أين لها بالسكينة التى تمكنها من الطعام.

مضت هى و"روبرت" تحت أوراق نباتات الصيف المشرفة، وكان الغسق قد حل، أو ربما كان الليل قد اقترب. وكان على الماشى أن يعرف أنه لا يطأ جذورًا طويلة تعوق الطريق، أو تضرب رأسه الكروم المتدلية التى تيبست جذوعها، ليجد أمامه سرابًا من الماء قادمًا عبر الأغصان الداكنة، والمياه المتألقة على مقربة من الضفة الأخرى من النهر، والأشجار هناك تتألق بفعل الضياء المتسللة. على هذه الضفة - كانا يسيران الآن على ضفة المياه، خلال أشجار الصنوبر - كان الماء أشبه بلون الشاى، ولكن دون أن يكدره شيء.

كان القارب ينتظر كما انتظر ذات يوم، وقد امتطياه على مرأى من الظلال المتراقصة، يقول "روبرت": "المجدافان مختفيان". مضى إلى حيث أشجار الصنوبر ليستعيدهما. وفى بحر لحظة ضلت الطريق إليه، لم تعد تراه، مضت قريبة من حافة الماء، حيث غاص حذاؤها فى الطين مما دفعها إلى الوقوف لحظات. لو شاءت لكان فى وسعها أن تسمع وقع أقدام "روبرت" بين الآكام، ولكنها ركزت تفكيرها فى حركة القارب، حركة نحيلة مكتومة، ولشعرت كأن كل شيء حولها على مد البصر كان يمضى فى هدوء.

www.ibtesama.com

هوامش:

(١) البحر التِّيراني هو أحد أفرع البحر المتوسط، وبحر طرانة محصور بين الساحل الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية، وجزر قرشقة وسردانية وصقلية، ويتصل بالبحر الأيوني عبر مضيق مسينة ويفصل عن البحر الليغوري بجزيرة إلبا (المترجم).

(٢) مرسوم نانتس: Edict of Nantes Edict of, Nantes قانون وضعه ملك فرنسا هنري الرابع لتأمين الطائفة البروتستانتية وحمايتها من فتك الكاثوليك ثم ألغاه لويس الرابع عشر في ٢ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٦٨٥ م)المترجم).

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

قالوا عن ألِس مونرو

ذات يوم وصفت فرچينيا وولف چورج إليوت بأنها واحدة من الكُتّاب القلائل الذين يكتبون للكبار الناضجين، ينطبق هذا الوصف نفسه اليوم على ألِس مونرو، وبالقدر نفسه من العدل والمنطق.

مايكل چورا فى النيويورك تايمز لمراجعات الكتب.

أدب ألِس مونرو يشى بعبقريتهاوتنوعها، وشعورها الفريد بالإنسان، عالمها الأسرار التى تضطرب تحت سطح حياة الناس اليومية، آلامهم وآمالهم ولحظاتعشقهم ومخاوفهم، حياة رجال ونساء عاديين، تضفى عليهم غرابة تخرج بهم عن مألوف الحياة، وعن قبضة النسيان أيضًا. هذا السفر الجميل ما هو إلا كنز سوف يثمنه عشاق أدبها الكثيرون، وسوف يتحول القراء الجدد إلى عشاقٍ أيضًا.

الصنداى تايمز (لندن)

حقيقة أن ألِس مونرو كاتبة عظيمة، أو أحد كبار كتّاب القصة القصيرة فى العالم، أمر مفروغ منه، ولكن نستطيع أن نضيف: إنها أحد اثنين أو ثلاثةَ كُتّاب يُعَدُّون من أفضل من أنجب العالم فى مجال السرد فى الوقت الراهن.

الصنداى تايمز (لندن)

www.ibtesama.com

كل قصة من قصصها لا تخلو من عمق الرواية ومداها.

"النيوستيسمان"

قصص مونرو فيها غموض؛ ولذا فإن إعادة قراءتها متعة جديدة في كل مرة.

الإندبندنت

اقرأ قصة واحدة، واحدة فقط من قصص مونرو كل يوم، ثم انتظر سحرها الطاغي في نفسك، مونرو تكتب قصصها لتعيش إلى الأبد.

الأوبزرفر

عبقرية ألِس مونرو تتجسد في المدى الذي تتحرك فيه قصصها، وفي عمق هذه القصص، ما يجعلها تقترب من الرواية.

الديلي تلِجراف

إنها "تشيكوف" أدبنا، وستتفوق على أغلب معاصريها.

سينثيا أوزيك

من أفضل كُتّاب القصة القصيرة المكتوبة باللغة الإنجليزية في عالمنا المعاصر، وأكثرهم رقة.

التايمز

تغوص قصص مونرو في أعماق الماضي، فتسبر أغواره، وتكشف عن طبقاته المتعددة، وتعود إليك بتجليات مركبة عن الحقيقة، فتخرج الشخصيات (والقراء) بدرس مقتضاه أنهم حين يطيلون النظر في أي شيء (كالماضي والحقيقة) فإنه ينهار ويتهاوى. أغلب قصصها تتناول قوة العشق، والخيانات، والظروف الاضطرارية،

www.ibtesama.com

وكذلك الفقد: فقد الأبناء والفرص. تحت السطح تجد الألم والأسى. باختصار: مونرو ساحرة أداتها الكلمات، ولكن لديها أسلحة أخرى تستعين بها: خبرة الحياة والعاطفة التى تتصل وشائجها بعشق الحياة.

ألِس مونرو لديها قدرة عجيبة على الملاحظة الدقيقة ومن زوايا لا تخطر على بال، ومن خلال تفاصيل تستثمرها فى فهم المعقد، وحيل فنية مدهشة يتعانق فيها الماضى بالحاضر. تشهد قصصها على الجهد الذى بذلته فى البحث عن العلاقة بين الأجيال، وأنماط السلوك المتباينة، وبين شخص وشخص آخر. أحيانًا تفاجئنا بحوادث عرضية. وأمور لا نتوقعها، لتصل بنا إلى قلب السرد، فبماذا تصفها حين تفرغ من قراءة قصص لها؟ آسرة، فاجعة، قاسية، رشيقة، شديدة الحساسية؟

ملحق التايمز الأدبى

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

المترجم
فى سطور

- وُلد فى باجا - سوهاج عام (١٩٥٧) .
- أنهى تعليمه الثانوى فى مدرسة الشهيد عبد المنعم رياض الثانوية عام (١٩٧٥) .
- حصل على ليسانس الآداب من جامعة أسيوط - فرع سوهاجعام (١٩٧٩) .
- حصل على الماجستير من جامعة أسيوط عام (١٩٨٧) .
- حصل على الدكتوراه من جامعتى وليام مارش رايس وجامعة القاهرة فرع بنى سويف عام (١٩٩٦) .
- حصل على درجة أستاذ مساعد فى الأدب الإنجليزى فى عام (٢٠٠٩) .
- يعمل حاليًا رئيسًا لقسم اللغة الإنجليزية - كلية الآداب - جامعة بنى سويف .

ينشر مقالاته فى مجلات وإصدارات معروفة مثل مجلة إبداع والثقافة الجديدة وأدب ونقد .

*** من أعماله المترجمة المنشورة :**

١ - نساء مفقودات وقصص أخرى ، عن آفاق الترجمة ، الهيئة العامة لقصورة الثقافة عام (٢٠٠٠) ، وتصدير الدكتور ماهر شفيق فريد .

www.ibtesama.com

٢- يقظة امرأة لـ: كيت شوبان عن الهيئة العامة لقصور الثقافة عام (٢٠٠٢).

٣- هل يوجد نص في هذا الفصل؟ سلطة الجماعات المفسرة، عن المشروع القومي للترجمة عام (٢٠٠٤)، مراجعة الدكتور/ محمد بريرى.

٤- ربما في حلب ذات يوم وقصص أخرى (٢٠٠٥) عن المركز القومي للترجمة، وأعيد طبعه في مكتبة الأسرة عام (٢٠٠٦)، والطبعة الثالثة عن المركز القومي للترجمة عام (٢٠٠٩).

٥- الإرهابي رواية لجون أبدايك عن المركز القومي للترجم عام (٢٠٠٩).

٦- العاشق المسافر وقصص أخرى لـ: ألِس مونرو عام (٢٠٠٩).

٧- اللغة والثقافة تأليف كلير كرامش عن وزارة الثقافة القطرية، عام (٢٠١٠)

٨- الإسلام في أوروبا :التنوع والهوية التأثير، عن المركز القومي للترجمة عام (٢٠١١)، وتصدير الأستاذ الدكتور محمد عناني.

٩- كليوباترة: آخر ملكات مصر، عن المركز القومي للترجمة عام (٢٠١١).

١٠- العاشق المسافر وقصص أخرى لـ: ألِس مونرو الحائزة على جائزة نوبل للآداب لعام (٢٠١٣) (الطبعة الثانية المزيدة والمنقحة).

*** راجع وقدم للكتب الآتية:**

١- الأدب الإنجليزي: تاريخ موجز، ترجمة د. حمدى الجابرى عن المركز القومي للترجمة عام (٢٠١٠).

www.ibtesama.com

٢- يوميات مصرية لـ: وليام جولدنج، ترجمة: سمير محفوظ بشير، عن المركز القومي للترجمة عام (٢٠١١م).

*** له تحت النشر**

١- الرمزية العرقية والقومية لـ: أنتونى دى. سمث عن المركز القومى للترجمة.

٢- رواد نظرية الرواية الحديثة، لـ: دبر بارسونز، عن المركز القومى للترجمة.

٣- الإسلام: الديانة الثانية فى أوروبا، عن المركز القومى للترجمة، مع الدكتور محمد أمين عبد الجواد مخيمر.

٤- ثلاث عشرة طريقة لفهم الرواية، مع الدكتور حمدى الجابرى، عن المركز القومى للترجمة.

٥- الأدب العباسى، من سلسلة تاريخ كامبردج للأدب العربى مع الدكتور محمد بريرى، عن المركز القومى للترجمة.

٦- مقالات فى الأدب والنقد، عن مركز اللغات والترجمة - جامعة بنى سويف.

www.ibtesama.com

المحتوى

- مقدمة الطبعة الثانية المترجم 5
- مقدمة الطبعة الأولى للمترجم 27
- قصص المجموعة 41
- المتسولة الحسناء 43
- صديقة شبابى 103
- فرصة 135
- وادى أوتاوا 191
- جزيرة كورتيز 221
- قبل التغيير 265
- نهر منستيونغ 319
- العاشق المسافر 353
- الإوز البرى 419
- أولاد وبنات 437
- أقمار المشترى 465
- العين 493
- أشباح 509
- حب امرأة طيبة 531
- قالوا عن ألس مونرو 641
- المترجم فى سطور 645

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

** معرفتي **
www.ibtesama.com

عندما أنبأوها بالفوز لم تصدق؛ فلم تكن أَلِس مونرو تنتظر جائزة نوبل، ولو كانت تنتظر جائزة نوبل لما أخلصت للقصة القصيرة غاية الإخلاص وهي تعلم علم اليقين أن الجائزة الكبرى لم تذهب قَطّ إلى القصة القصيرة، فلم تذهب جائزة نوبل إلى القصة القصيرة إلا عندما حصلت عليها أَلِس مونرو، وكذا لم تذهب جائزة نوبل إلى كندا إلا هذه المرة أيضًا.

والمتابع لأدب أَلِس مونرو يرصد فيه أكثر من ظاهرة، أبرزها أن أدب أَلِس مونرو أدب نِسويّ من الدرجة الأولى، وشيوع شخصية الأم في قصص مونرو، وظاهرة المرض والمرضى، ووصف الطبيعة المحلية، والمَنحَى القوطيّ الواضح في أدبها.

فهي تطرح بجسارة قضية المرأة التي تريد أن تستقل بنفسها، وأن تشق طريقها في الحياة دون أن تجد مَن يشدها إلى الوراء بسبب قيم اجتماعية مستقرة، ومع ذلك فإن مونرو تُخفق في وضع نهاياتها، كما تخفق في إنجازها..

إنها صورة مونرو نفسها.

الغلاف... د. خالد سرور

مجلة الابتسامة

www.gocp.gov.eg

www.ibtesama.com

** معرفتي **

2014

مصريات
مجلة الابتسامة
www.ibtesama.com

www.ibtesama.com